

أهم رواية كتبها جودي بيكو على الإطلاق... الواشنطن بوست

جودي بيكو

ترجمة: خالد الجبيلي

...
الرواية الأكثر
مبيعا حسب
نيويورك تايمز
...

أشياء

طفيفة

عظيمة



أَشْيَاءٌ صَغِيرَةٌ عَظِيمَةٌ

عنوان الكتاب: أشياء صغيرة عظيمة

رقم الإصدار	رواية
1292	297

اسم المؤلف: جودي بيكو

اسم المترجم: خالد الجبيلي

الموضوع: رواية

عدد الصفحات: 576 ص

القياس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعة الأولى: 1000 / كانون الثاني 2023 م - 1444 هـ

ISBN: 978-9933-38-504-0

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright © 2016 by Judi Picoult
All rights reserved.

Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة
- المنطقة الحرة - مدينة الإعلام للنشر
هاتف: +971 506844076

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتف: +963 11 2326985

web: www.ninawa.org

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org

Ninawa house
ninawa_publishing_house



دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

@House Ninawa

العمليات الفنية:

التضيق والتدقيق والتحرير والتحقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني:
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جودي بيكو

أَشْيَاءٌ صَغِيرَةٌ عَظِيمَةٌ

ترجمة: خالد الجبيلي

Jodi Picoult
Small Great Things

Copyright © 2016 by Jodi Picoult

All rights reserved

Published in the United States by Ballantine Books, an imprint of
Random House, a division of Penguin Random House LLC, New
York.

عن المؤلفَة

كُتبت جودي بيكو سبعاً وعشرين رواية، بيع منها أربعون مليون نسخة حول العالم. واحتلَّت آخر اثنتي عشرة رواية لها المرتبة الأولى في قائمة أفضل الكتب مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، بما في ذلك آخر كتاب صدر لها، وهو (كتاب الطريقتين). وقد حوِّلت خمس روايات من رواياتها إلى أفلام، واقتُبست رواية (بين السطور) - التي كتبها بالاشتراك مع ابنتها سامانثا فان لير - وحوِّلت إلى مسرحية موسيقية، وحصلت جودي بيكولت على العديد من الجوائز، بما فيها جائزة New England Bookseller Award for Fiction، وجائزة Alex Award الأدبية عن الاستحقاق الأدبي المتميز، وشاركت أيضاً في كتابة المسرحية الموسيقية (تنفُس)، والمسرحية الموسيقية القادمة (سارقة الكتب). تعيش مع زوجها في نيو هامبشاير.

إلى كيفين فيريرا،
ذاك الذي تجعل أفكاره وأفعاله العالم مكاناً أفضل،
والذي علّمني أننا جميعاً مشاريع قيد الإنجاز.
أهلاً بك في الأسرة.

مقدمة للرواية

في نهاية روايتها «أشياء صغيرة عظيمة» تقول المؤلفة جودي بيكو إنها طالما أرادت أن تكتب رواية عن العنصرية في الولايات المتحدة، ومنذ البداية، أكدت على أنها «نشأت امرأة بيضاء تتمتع بامتياز طبقي في المجتمع»، وأجرت لسنوات عديدة أبحاثاً، ومقابلات شخصية كثيرة لكي تتمكن من التعبير عن أصوات الأشخاص الذين ليست مثلهم: رجال، ومراهقون، وأشخاص ذوي ميول انتحارية، وزوجات معنّفات يتعرضن لسوء المعاملة، وضحايا اغتصاب. وتقول إن ما دفعها إلى كتابة تلك القصص شعورها بالغضب ورغبتها في منحها صوتاً ليزداد وعي أولئك الناس بالعنصرية. وقالت: «بدأت أجري بحثي بالجلوس مع نساء ملونات. ومع أنني كنت أعرف أن إ مطار الأشخاص الملونين بالأسئلة ليست أفضل طريقة لتتقيف الذات، أملت بأن أدعو تلك النسوة للمشاركة بطريقة ما، يقدّم لي في المقابل هدية: فقد شاطرنني تجاربهن حول كيف يشعر الشخص الأسود في حياته، ولا أزال أشعر بالامتنان لتلك النسوة - لا لتحملهن جهلي فقط، وإنما لأنني كنت عازمة على أن أتعلّم منهن».

من المؤكد أنه لدى الكاتبة أفضل النوايا الحسنة، لكن السؤال هو: هل يمكن أن تُترجم النوايا الحسنة إلى رواية جيدة. في معظم النواحي، فإن رواية جودي بيكو رواية كلاسيكية - تتناول قضايا اجتماعية معاصرة، وتخلق شخصيات مثيرة للاهتمام موجودة في المجتمع الأمريكي، وتروي بأسلوب أسر الإجراءات المتبعة في المحاكم الأمريكية.

كانت روث جيفرسون وهي امرأة سوداء لديها ابن مراهق تعمل ممرضة في قسم المخاض والولادة في أحد المستشفيات لأكثر من عشرين سنة عندما جاء تورك وبريتاني باور إلى جناح الولادة الذي تعمل فيه لإنجاب طفلهما الأول، صبي يدعى ديفيس، لكن الأب، تورك، طلب ألا

تلمس روث الطفل الوليد لأنها سوداء البشرة - وبما أن جناح التوليد في المستشفى يعاني من نقص في الممرضات في ذلك الوقت، وجدت روث نفسها وحدها مع ديفيس الذي بدأ تنفّسه يتوقف. وكان على روث أن تقرر في تلك اللحظة إن كان عليها أن تراعي إنسانيتها والقسم الذي أدته عندما أصبحت ممرضة، أو أن تتبع الأوامر التي صدرت لها بالأمر لتلمس ابن باور لأنها سوداء. في النهاية، فعلت روث كلا الأمرين، لكنها لم تستطع أن تمنع العواقب الوخيمة من الحدوث. فقد كان الوالدان اللذان ينتميان إلى جماعة «البيض المتفوقين العنصريين» يبحثان عن شخص يوجهان إليه اللوم. وفي فترة قصيرة، علّقت رخصة التمريض لدى روث، وأوقفت عن العمل، ووجهت إليها تهمة ارتكاب جرائم جنائية، وأصبح مصيرها معلقاً في يد المحامية العامة كينيدي ماكواري، وهي امرأة بيضاء.

تتألق «أشياء صغيرة عظيمة» على نحو خاص عندما تكتب جودي بيكو من وجهة نظر تورك باور. فهي تجعل هذا الرجل الذي يعتنق أفكاراً بغیضة إنساناً أيضاً. فهو رجل عنصري يؤمن بتفوق البيض على الملونين، لكنه أيضاً زوج وأب. نرى غضبه وعجزه، وعندما تتكشف القصة، نرى كيف تعلّم الكراهية، وكيف تعرّف على بريتاني وأحبّها، وكيف أصبح الانتقام لابنه دافعه الوحيد في الحياة. وتبدو قصة تورك أحياناً كأنها تاريخ حركة تفوق المتعصبين البيض الحديثة، لكن إذا نظرنا إلى المناخ السياسي الحالي، فهي رواية تنبؤية، بعيدة البصر، على درجة كبيرة من الأهمية.

ثم تأتي كينيدي، المحامية التي تدافع عن روث، متزوجة من جراح، لديهما طفلة. وكينيدي امرأة قلقة، طموحة وزوجة وأمّ محبّة، تتحدّث في نهاية الرواية باسم البيض الذين لا يدركون عنصريتهم إلّا بعد مواجهتها. ففي مرافعاتها الختامية تقول كينيدي: «عندما بدأت العمل في هذه القضية لم أكن أرى نفسي عنصرية، أما الآن، فقد أدركت أنني كذلك، لا لأنني أكره الناس الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة، وإمّا لأنني - عن قصد أو غير قصد - حصلت على

جرعة تقوية بسبب لون بشرتي، تماماً كما تعرضت روث جيفرسون إلى مشكلة بسبب لون بشرتها».

تتناول الرواية مسألة لون البشرة، والتمييز المهني، والفصل العنصري، وتحديات طموح ذوي البشرة السوداء، والاعتداءات التي تحصل للسود، وبالطبع مسألة العرق ونظام العدالة، في الولايات المتحدة.

حبكة الرواية مشوّقة، وبنيتها قوية، تمضي في وتيرة جيدة وأسلوب سلس. لقد استفادت جودي بيكو من جميع الصور النمطية للسود: فهنا الأم السوداء الأرملة، والمرأة السوداء الغاضبة، والأم، والخادمة، والمراهق، والواعظ المتميز. إن التناوب في فصول الرواية يظهر بوضوح الاختلاف في وجهات نظر روث، الأب الأبيض العنصري، تورك باور، ومحامية روث، كينيدي ماكواري. وقد نجحت الكاتبة عندما تركت الرواية تزداد رسوخاً في سرد كينيدي، حكاية امرأة بيضاء تظن أنها ليبرالية أكثر مما هي في الواقع. إنها رحلة كينيدي للتصالح مع أقاربها العنصرين والامتياز الذي يتمتع به البيض، عندما تدرك لأول مرة، انتشار العنصرية الأمريكية. هذه هي القصة الحقيقية هنا.

المرحلة الأولى المخاض المبكر

لن تتحقق العدالة إلى أن يغضب الذين لم يُظلموا
كما يغضب الذين ظُلموا.

بنجامين فرانكلين

روث

حدثت المعجزة في الشارع الرابع والسبعين - ويست، في المنزل الذي تعمل فيه أمي. ثمّة بيت كبير مشيّد من الحجر البنيّ، محاط بسياج من الحديد المطاوع، وإلى جانبيّ الباب المزخرف ينتصب تمثال وجه حجريّ نُحت من كوابيسي، يثير الرعب في نفسي، فكُنّا نستخدم دائماً الباب الجانبيّ، الأقلّ جمالاً، الذي تربط أمي مفاتيحه بشريط في حقيبتها.

كانت أمي تعمل لدى سام هالويل وأسرته من قبل أن أولد أنا وأختي. لعلّك لن تعرفه من اسمه، لكنّك ستعرفه عندما يقول لك «مرحباً»، لأنّك لا تستطيع ألاّ تميّز صوته عندما يعلن قبل بدء كلّ برنامج منذ منتصف ستينيات القرن العشرين: «يُقَدِّم إليكم البرنامج التالي بألوان حيّة عبر قناة إن بي سي». كان ذلك عام 1976، عندما حدثت المعجزة، وكان رئيس البرامج في شبكة إن بي سي. كان ما يميّز جرس الباب أسفل تماثيل الوجوه البشعة النغمة الشهيرة ذات الرنّات الثلاث، التي تذكّر الجميع بشبكة إن بي سي. كمّا كنت آتي مع أمي، كنت أتسلّل في بعض الأحيان إلى خارج المنزل وأضغط على زرّ الجرس، وأدندن مع صوته.

أخذتنا معها أمي في ذلك اليوم لأنّ الثلج كان يتساقط بكثافة، فأغلقت المدرسة، وبما أنّنا كنّا لا نزال فتياتين صغيرتين، كانت أمي لا تستطيع أن تبقينا وحدنا في الشقّة وتذهب إلى عملها - هذا ما كانت تفعله عندما يتساقط الثلج ويشتدّ البرد، وربّما إذا ما حدثت زلازل أو قامت معركة هرمجدون يوم القيامة. تمتمت وهي تحشرنا في ثيابنا السمكية وأحذيتنا الطويلة، بأنّها لا تهتمّ، حتّى لو كان عليها أن تجتاز عاصفة ثلجيّة، لكنّها لا يمكن أن تترك السيّدة مينا وحدها. في الواقع، كانت المرّة الوحيدة التي

أذكر فيها أن أُمِّي أخذت إجازة من عملها بعد خمس وعشرين سنةً، عندما أجزت عمليةً استبدال مفصل الورك، العملية التي سدّدت أسرة آل هالويل تكاليفها بسخاء. مكثت في البيت أسبوعاً، حتّى عندما لم تتماثل للشفاء تماماً أصرت على أن تعود إلى عملها. لكن، لمّا كنت صغيرة، إبّان العطل المدرسيّة ونوبات الحمى والأيام الثلجيّة مثل اليوم، كانت أُمِّي تأخذنا معها بالقطار B إلى وسط مدينة نيويورك.

في ذلك الأسبوع، كان السيّد هالويل قد سافر إلى كاليفورنيا، وكان ذلك يحدث في أحيان كثيرة، وهذا يعني أنّ حاجة السيّدة مينا وابنتها كريستينا إلى ماما تزداد، كما نحتاج إليها أنا وراشيل، لكن كان علينا أن نعتني بأنفسنا.

لمّا وصلنا أخيراً إلى الشارع الثاني والسبعين، كان العالم كلّه يكتسي حلّة بيضاء، ولم تكن حديقة سنترال بارك الوحيدة التي تحوّلت إلى كرة ثلجيّة، ولم تكن وجوه الرجال والنساء الذين يرتجفون في العاصفة في طريقهم إلى عملهم تشبه وجهي أو وجوه أبناء أعمامي أو الجيران.

لم أزر أيّ بيت في حيّ مانهاتن إلّا بيت أسرة هالويل، إذ لم أكن أعرف كيف يمكن أن تعيش أسرة واحدة في هذا المنزل الضخم، لكنّي أذكر أنّني قلت في نفسي إنّ ليس من المعقول أن نضع، أنا وأختي راشيل، ثيابنا السميكة وأحذيتنا في الخزانة الصغيرة الضيقة التي تقبع في المطبخ، في حين توجد مشاجب فارغة كثيرة ومساحات واسعة عند المدخل الرئيس حيث تعلّق كريستينا والسيّدة مينا معطفيهما، وحيث تضع أُمِّي أيضاً معطفها ووشاحها الذي يجلب لها الحظّ - الوشاح الناعم الذي تفوح منه رائحتها، والذي كنّا نحاول، أنا وراشيل، كثيراً أن نضعه في منزلنا ونشعر أنّنا نلمس تحت أصابعنا خنزير غينيا أو أرنباً. انتظرت حتّى تنتقل أُمِّي عبر الغرف المعتمة مثل تينكر بيل وهو يهبط فوق مفتاح أو مقبض أو أكرة باب حتّى يعود الوحش النائم في المنزل إلى الحياة شيئاً فشيئاً. قالت لنا أُمِّي محدّرة: «اصمتا، وسأصنع لكما كوباً من الكاكاو كالتالي أعدّها للسيّدة مينا».

كانت هذه الكاكاو، لذیذة الطعم، مستوردة من باريس. بعد أن ارتدت أمي مئزرها الأبيض، أخذت ورقة من درج المطبخ وعلبة أقلام التلوین، التي أحضرتها من بيتنا، وبدأت أرسم بصمت. رسمت بيتاً كبيراً يشبه هذا البيت، وفيه أسرة: أنا وأمي وأختي راشيل. حاولت أن أرسم الثلج، لكنني لم أستطع. رسمت ندف الثلج بقلم تلوین أبيض، لكنّها لم تظهر على الورقة. كانت الطريقة الوحيدة لرؤيتها هي أن أميل الورقة إلى أحد الجانبين نحو ضوء الثريا لأميّز لمعان قلم التلوین.

«هل نستطيع أن نلعب مع كريستينا؟» سألت راشيل. كانت كريستينا في السادسة من عمرها، يقع عمرها بدقّة بين عمري وعمر راشيل. كان لدى كريستينا أكبر غرفة نوم رأيتها في حياتي، ولديها ألعاب أكثر ممّا لدى أيّ شخص أعرفه. عندما تكون في المنزل ونأتي مع أمي، كنّا نلعب معها لعبة المدرسة، ونلعب بدمى الدببة التي لديها، ونشرب الماء بفناجين شاي خزفيّة صغيرة حقيقيّة، ونضفر شعر الدُمى التي لديها، المصنوع من شعر الذرة، أمّا إذا كانت صديقتها عندها، نبقى أنا وأختي في المطبخ نرسم ونلوّن.

لكن، قبل أن تجيبها أمي، سمعنا صوت صرخة قوية ثاقبة أحسست أنّها طعننتني في صدري. كنت متأكّدة من أنّها فعلت الشيء نفسه لأمي لأنّ قِدر الماء التي كانت تحملها كادت تقع منها. قالت لي: «لا تتحرّكي من هنا»، صوتها يتبعها وهي تصعد الدرج إلى الطابق العلويّ.

كانت راشيل أول من تركت كرسيّها. لم تكن من اللاتي ينقُذن التعليمات بحذافيرها. جريت وراءها، وجمّة باللون مربوط بخيط إلى معصمها. كانت يدي فوق درابزين الدرج المنحني، أمّا هي فلم تلمسه.

كان باب غرفة نوم السيّدة مينا مفتوحاً على مصراعيه، وكانت السيّدة مينا تتلوّى على السرير في حفرة غائرة من ملاءات الساتان، وقد برز بطنها المستدير كأنّه قمر. ذكّرني بياض عينيها الناصع بدوامة الخيول في مدينة

الملاهي وقد تجمّدت في الهواء وهي تطير. «لا يزال الوقت مبكراً جداً يا لو»، سمعتها تقول وهي تلهث.

«قولي ذلك لهذا الطفل»، ردّت عليها أمي، تمسك الهاتف بيد، والسيّدة مينا باليد الأخرى بقبضة قويّة، ثمّ قالت: «توقّفي عن الضغط الآن، ستصل سيّارة الإسعاف في أيّ لحظة». تساءلت متى يمكن أن تصل سيّارة الإسعاف وسط كلّ هذا الثلج.

«ماما؟»

لم أدرك أنّ الجلبة قد أيقظتها إلّا بعد أن سمعت صوت كريستينا التي وقفت بيني وبين راشيل. «أنتنّ، ثلاثتكنّ، اذهبن إلى غرفة الأنسة كريستينا»، قالت أمي بصوتها الواثق، «الآن».

لكنّنا لم نبرح مكاننا، وسرعان ما نسيت أمي أمرنا عندما غرقت في عالم صنع من ألم السيّدة مينا وخوفها، محاولة أن تكون الخريطة التي توجهها. رأيت حبالاً تبرز في رقبة السيّدة مينا وهي تننّ، ورأيت أمي تجثو على السرير بين ساقها، وقد دفعت ثوبها فوق ركبتها. رأيت الشفاه الوردية بين ساقَي السيّدة مينا وهي تنتفخ وتتباعد، ثمّ رأيت قبضة رأس مستدير، ثمّ عقدة الكتف، ودفق من الدم والسوائل، وفجأة، رأيت أمي تحمل طفلاً بين ذراعيها.

«انظر إلى نفسك»، قالت بحبّ مكتوب على وجهها، «ألم تستعجل في المجيء إلى

هذا العالم؟»

شيئان اثنان حدثا في آن معاً: فقد بدأت كريستينا تبكي عندما فُرع جرس الباب، وهدلت لها السيّدة مينا التي لم تعد خائفة الآن، لكنها ظلّت تتفصّد عرفاً، ووجهها لا يزال أحمر: «أوه يا حبيبتني»، ومدّت لها يدها، لكنّ كريستينا خافت ممّا رآته والتصقت بي. ذهبت راشيل، الفتاة العمليّة دائماً، لترى من في الباب، ثمّ عادت يسير وراءها مسعفان طبيّان انحنيا على الفور

وتولياً المهمة، فأصبح ما فعلته أُمِّي للسيدة مينا مثل أي شيء آخر تفعله في خدمة أسرة هالويل: مستمرٌ وغير مرئي.

أطلقت أسرة هالويل على الطفل اسم لويس تيمناً باسم ماما. كان جميلاً، مع أنه ولد قبل أوانه بشهر تقريباً، ضحية انخفاض الضغط الجوي وهبوب عاصفة أدت إلى تمزق الأغشية قبل موعدها. بالطبع، لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت. كنت أعرف فقط أنه في ذلك اليوم الذي تساقط فيه الثلج في حي مانهاتن رأيت بداية شخص، وكنت مع ذاك الطفل قبل أن يتمكن أي شخص أو أي شيء في هذا العالم من أن يخيب أمله.

إن رؤية ولادة لويس أمام أعيننا أثرت فينا جميعاً بطرائق مختلفة: فقد أنجبت كريستينا طفلها بوساطة أمٍ بديلة، وأنجبت أختي راشيل خمسة أطفال، وأصبحت أنا ممرضة أعمل في جناح المخاض والولادة.

عندما أروي هذه القصة للآخرين، يظنون أن المعجزة التي أشير إليها في أثناء تلك العاصفة الثلجية التي حدثت منذ زمن بعيد كانت مجرد ولادة طفل. صحيح، كان ذلك شيئاً عظيماً، لكنني رأيت في ذلك اليوم أعجوبة أكبر؛ فعندما أمسكت كريستينا بيدي، وأمسكت السيدة مينا بيد أُمِّي، كانت هناك لحظة - نبضة قلب، نفس واحد - حيث تبخّرت خلالها كل الاختلافات في مستوى التعليم والمال ولون البشرة، كما يتبخّر سراب في الصحراء. أصبح الجميع متساوين، وكانت هناك امرأة واحدة، تساعد امرأة أخرى.

أضيت تسعاً وثلاثين سنة وأنا أنتظر تلك المعجزة مرّة أخرى.

المرحلة الأولى دور الولادة النشط

لا يمكن تغيير كل شيء يصادفنا،
لكن لا يمكن تغيير شيء إذا لم يصادفنا.

روث

كان أجمل طفل رأيته في حياتي، صبي ولد بلا وجه.
كان كاملاً من الرقبة حتّى الأسفل: عشرة أصابع في يديه، عشرة أصابع في قدميه،
بطن مكوّر، لكن في المكان الذي يجب أن تكون فيه أذنه، توجد التواءة في شفثيه، وفي
فمه سنّ واحدة. وبدلاً من الوجه، توجد دوامة من الجلد من دون ملامح.

كانت أمّه - مريضتي - في الثلاثين من عمرها، أوّل حمل لها، وكانت قد تلقت
رعاية ما قبل الولادة شملت فحصاً بالموجات فوق الصوتية، لكنّ الطفل كان في
وضعيّة لم يظهر فيها تشوّه الوجه، وبدا العمود الفقريّ والقلب والأعضاء الأخرى
سليمة، لذلك لم يتوقّع أحد ذلك. ربّما لهذا السبب بالذات، اختارت أن تلد في
مستشفى الرحمة - ويست هافن، المستشفى الصغير، وليس في مستشفى بيل -
ويست هافن المجهّز بمعدّات أفضل بكثير لحالات الطوارئ. دخلت المستشفى بعد أن
اكتملت فترة حملها، واستمرّ المخاض لديها ستّ عشرة ساعة قبل أن تضع مولودها.
لمّا حمل الطبيب الطفل، لم يُسمع صوت سوى الصمت. صمت أبيض طنّان.

«هل هو على ما يرام»، سألته الأمّ مذعورة، «لماذا لا يبكي».

كانت تساعدني طالبة تمريض، وصرخت.

«اخرجي»، قلت لها بصرامة، ودفعتها خارج الغرفة، ثمّ أخذتُ الطفل
من يد الطبيب ووضعتّه على جهاز التدفئة، ومسحت إفرازات الهياليني
من أطرافه، ثمّ أجرى الطبيب اختباراً سريعاً، والتقت عيناه عينيّ بصمت،
ثمّ التفتت إلى الوالدين اللذين عرفا الآن أنّ هناك خطأً فظيلاً. بعبارات

لطيفة، قال لهما الطبيب إنَّ طفلهما يعاني من عيوب خلقية شديدة لا يمكنها أن تتوافق مع الحياة.

يعدُّ الموت في جناح الولادة مرضاً شائعاً أكثر مما يخيّل لك. عندما تكون لدينا حالة انعدام الدماغ أو وفيات جنينية، فإننا نعرف أنَّه لا يزال على الوالدين أن يضما طفلهما ويحزنا لأنَّ هذا الرضيع - الذي لا يزال في قيد الحياة، مهما طالت مدَّة ذلك - ابنهما.

نظفّته وقمّطته، كما أفعل لأيّ مولود آخر، في حين توقّف الحديث الدائر خلفي بين الوالدين والطبيب، وبدأ مثل سيارّة تختنق طوال الشتاء. لماذا؟ وكيف؟ وماذا لو...؟ وكم من الوقت حتّى...؟ أسئلة لا يريد أحد أن يسألها، ولا يريد أحد أن يجيب عنها.

كانت الأمُّ لا تزال تبكي عندما وضعت الطفل في ثنية مرفقها. يدها الصغيرتان تتحركان في شكل دائريّ. ابتسمتُ له، وقلبتها في عينيها. همست: «إيان. إيان مايكل بارنز».

بدأت على وجهها قسّات لم أرها إلّا في لوحات في المتاحف، تعبّر عن حبّ وحزن شديدين، إلى درجة أنّهما يكوّنان معاً بعض المشاعر الجديدة القاسية.

التفتُّ إلى الأب وقلت له: «ألا تريد أن تحتضن ابنك؟»

بدأ كما لو كان مريضاً، وتمتم: «لا أستطيع»، واندفع إلى خارج الغرفة.

تبعته، لكنَّ الممرضة المتدربة اعترضت طريقي، وقالت بنبرة اعتذارية، منزعجة: «أنا آسفة. إنّه فقط... إنّه وحش».

فقلت لها مصححة: «إنّه طفل رضيع»، ودفعتها جانباً، وخرجت.

عندما رأيت الأب في غرفة الآباء، قلت له: «زوجتك وابنك في حاجة إليك».

قال: «هذا ليس ابني. ذلك... الشيء...»

«لن يبقى على هذه الأرض فترة طويلة، وهذا يعني أن من الأفضل أن تمنحه الآن كلَّ الحبِّ الذي خزَّنته طوال حياته». انتظرتُ حتَّى رفع بصره ونظر في عينيّ، ثمَّ استدرت وخرجت. لم أنظر إلى الورا لأعرف إن كان يتبعني.

لَمَّا دخلنا غرفة المستشفى، كانت زوجته لا تزال تحتضن الرضيع، تضغط شفيتها فوق قماش جبينه الناعم. أخذت الصرّة الصغيرة من بين ذراعيها وأعطيت الطفل إلى زوجها. أخذ نفساً عميقاً، ثمَّ سحب البطانية من المكان الذي كان يجب أن يكون فيه وجه الطفل.

فكَّرت في تصرُّفاتي. إن كنت قد فعلت الصواب وجعلت الأب يواجه طفله الذي سيموت بعد فترة وجيزة، وهل يحقُّ لي أن أفعل ذلك كـممرضة! لو سألتني المشرفة عليّ حينذاك، لقلت لها إنني تدرّبت على مواسة الآباء المفجوعين. فإذا لم يعترف هذا الرجل بأنَّ شيئاً فظيماً قد حدث حقاً - أو الأسوأ من ذلك، لو ظلَّ يتظاهر طوال حياته بأنَّه لم يحدث قط - فإنَّ فجوة في داخله ستُفتح، صغيرة جداً في البداية، ثمَّ تكبر وتكبر، حتَّى يأتي يوم يدرك، من دون أن يتوقَّع ذلك، أنَّه أصبح خاوياً تماماً.

لَمَّا بدأ الأب يبكي، كانت الشهقات تهزُّ جسده مثل إعصار يحني شجرة. غاص إلى جانب زوجته على سرير المستشفى، فوضعت يداً على ظهر زوجها، واليد الأخرى على رأس الطفل.

تناوبا على حمل ابنيهما طوال عشر ساعات. حتَّى إنَّ الأمَّ حاولت أن ترضعه. لم أملك نفسي عن عدم التحديق - لا لأنَّه كان قبيحاً أو مشوّهاً، وإمَّا لأنَّه كان أروع شيء رأيتُه في حياتي. شعرت أنني أنظر إلى وجه الشمس: ولَمَّا أشحت بوجهي، لم أعد أرى أيَّ شيء آخر.

في لحظة ما، أخذت طالبة التمريض الغبيّة معي إلى الغرفة، مدّعية أن عليها أن تفحص سجلَّ الأم، لكنني أحضرتها لأريها بأنَّ عينيها أن لا علاقة للحبِّ بالشيء الذي تنظر إليه، وإمَّا يتعلَّق كلُّ شيء بالشخص الذي ينظر.

لَمَّا مات الرضيع، ساد الهدوء. صنعنا قوالب ليدِ المولود وقدمه كي يحتفظ بها الوالدان اللذان سمعت أنهما عادا بعد سنتين فأنجبا ابنة تنعم بصحة جيّدة، مع أنني لم أكن في الخدمة في ذلك الوقت.

هذا يريك أنّ كلّ طفل يولد جميلاً. إنّ ما نُسقطه عليهم هو ما يجعلهم قبيحين. بعد أن أنجبتُ إديسون قبل سبعة عشر عاماً في المستشفى عينه، لم أكن قلقة على صحة ابني، ولم أفكر كيف سأتصرّف لأنّني سأصبح أماً، في حين كان زوجي خارج البلد، أو كيف ستتغيّر حياتي الآن بعد أن أصبحت أماً. وإنّما تركّز قلقي حول شعري.

إنّ آخر شيء تفكّر فيه عندما تكونين في مرحلة المخاض هو كيف يبدو مظهرك، وإذا كنتِ مثلي، فإنّ ذلك أول شيء يخطر في بالك عندما تلدين طفلك. إذ يجعل العرق الذي يلصق شعر جميع مريضاتي من ذوات البشرة البيضاء على جباههنّ جذور شعري تتجمّد وتبتعد عن فروة رأسي. إنّ تسريح شعري ولّفه حول رأسي مثل كوز بوظة بوشاح كلّ ليلة هو ما يجعله مستويّاً في اليوم التالي. لكنّ الممرضة البيضاء لم تكن تعرف أنّ قارورة الشامبو المجانيّة الصغيرة، التي يقدّمها المستشفى، ستزيد شعري تجعيداً. كنت متيقّنة من أنّه عندما ستأتي زميلاتي لتهنّتي بولادة إديسون، سيصبن بالذهول حين يرينّ الفوضى التي تعلو رأسي.

لذلك لفته بمنشفة، وأصبحت أقول للزائرات إنني أخذت حماماً سريعاً منذ قليل. حكّت لي بعض الممرضات اللاتي يعملن في أقسام الجراحة عن رجال كانوا يصرّون على تمشيّط شعرهم بعد أن يجروا عمليّات جراحية قبل أن تأتي زوجاتهم ويرينّهم في غرفة الإنعاش. ولا يمكنني أن أخبركم عن عدد المرّات التي أمضت فيها مريضة الليل بطوله وهي تصرخ وتتألّم وتدفع وليدها،

وزوجها إلى جانبها، لكن ما إن تلد وليدها حتّى تطلب إلى زوجها أن يغادر الغرفة كي أساعدها في ارتداء ثوب نوم جميل، وتعيد ترتيب نفسها.

أتفهّم حاجة الناس إلى وضع وجه معيّن أمام الآخرين، لذلك عندما وصلت إلى مناويتي في الساعة 6:40 صباحاً - لم أذهب إلى غرفة الممرّضات حيث نتلقّى التعليمات والمستجدات التي حدثت في الليلة الماضية من الممرّضة المناوبة، وإمّا توجّهت مباشرة إلى المريضة التي كنت أقوم على رعايتها البارحة. اسمها جيسي، ضئيلة الحجم، دخلت جناح التوليد كأنّها السيّدّة الأولى تقوم بحملة لانتخاب زوجها، أكثر من امرأة تمرّ في مرحلة مخاض قويّ: كان شعرها مرتّباً، وعلى وجهها مسحة من المكياج، ترتدي ثوباً في غاية الأناقة. كمّا نظرت إلى جدولها البياني، وقرأت أنّ هذا أوّل حمل لها، ابتسمت. كان آخر شيء قلته لجيسي قبل أن أنقل رعايتها إلى ممرّضة أخرى وعدت إلى البيت، إنّي عندما أراها في صباح اليوم التالي ستكون قد أنجبت طفلها، ومن المؤكّد أنّ مريضة جديدة ستكون في انتظاري. أنجبت جيسي فتاة سليمة يبلغ وزنها سبعة أرطال وستّ أونصات.

كمّا فتحت باب الغرفة كانت جيسي نائمة، وطفلها يرقد في مهد نَقال إلى جانب سريره، وزوجها ممدّداً على كرسيّ، يشخر. كمّا دخلت الغرفة تحرّكت جيسي، وضعت على الفور إصبعي على شفّتي، بأن تصمت.

أخرجت من حقيّتي مرآة صغيرة وقلم أحمر شفاف.

إنّ التحدّث مع المريضة يعدّ جزءاً من المخاض للتخفيف من ألمها، ويعدّ الغراء الذي يربط الممرّضة بمريضتها. ما الذي يخطر في بالك عندما تمضي ممرّضة قرابة اثنتي عشرة ساعة وهي تقوم على رعاية شخص واحد؟ لذلك، يصبح التواصل الذي ينشأ بيننا وبين أولئك النسوة قوياً وسريعاً. وفي غضون ساعات قليلة، أعرف عنهنّ أشياء لا تعرفها حتّى صديقاتهنّ: كيف التقت شريكها، وكيف أنّ أباهما لم يعيش طويلاً ليرى حفيده هذا، وكيف أنّها تخشى أن تصبح أمّاً لأنّها كانت تكره أن تصبح

جلسة أطفال عندما كانت مراهقة. في الليلة الماضية، عندما اشتدَّ الطلق لدى جيسي، وبدأت تبكي، وراحت تكلم زوجها بعصبية، أشرت إليه أن يذهب إلى الكافيتريا ويتناول قليلاً من القهوة. لمَّا غادر الغرفة، أصبح الهواء في الغرفة أسهل للتنفُّس، قالت: «ماذا لو غيَّر هذا الطفل كلَّ شيء؟»، وهي تبكي. ثمَّ قالت إنَّها لم تغادر البيت قطُّ من دون أن تضع مكياجاً، وإنَّ زوجها لم يرها قطُّ حتَّى من دون مسكرا على عينيها، وما هو ذا الآن يرى جسدها يتشجَّج، وتساءلت كيف سينظر إليها كما كان يراها.

الشيء الغريب في الأمر أنَّني عندما أقول للناس إنَّني أعمل ممرضة في جناح المخاض والتوليد منذ أكثر من عشرين عاماً، يبدوون إعجابهم بأنَّني ساعدت في إجراء عمليات قيصرية، وأنَّني أستطيع أن أعطي حقناً في الوريد وأنا نائمة، وأنَّ في مقدوري أن أُميِّز بين تباطؤ معدَّل ضربات قلب الجنين الطبيعيَّة وتلك التي تحتاج إلى تدخُّل طبي. وهذا يعني أنَّني أعرف مريضتي جيِّداً وكلَّ ما تحتاج إليه: تدليك على الظهر، تخدير فوق الجافية، وبعض مستحضرات مايبيلين التجميليَّة.

نظرت جيسي إلى زوجها وهي لا تزال ميتة، غير واعية لما يجري من حولها، ثمَّ أخذت قلم أحمر الشفاه من يدي، وهمست: «شكراً»، وتلاقت أعيننا. وضعت المرأة أمامها حتَّى تعيد اختراع نفسها من جديد.

تكون مناويتي عادة يوم الخميس من الساعة السابعة صباحاً حتَّى الساعة مساءً، في مستشفى الرحمة - ويست هافن. في فترة النهار توجد عادة ممرضتان في جناح التوليد - ثلاث ممرضات إذا كان لدينا عدد وافر من الممرضات في ذلك اليوم. وعندما أسير في الجناح، ألاحظ بهدوء عدد غرف التوليد - ثلاث الآن، بداية طيبة وبطيئة لهذا اليوم. لمَّا دخلت الغرفة كانت ماري، الممرضة المسؤولة، لا تزال في الغرفة التي نعقد فيها اجتماعنا الصباحي، أمَّا كورين - الممرضة الثانية معي في المناوبة - فلم تكن موجودة. «ماذا يوجد لدينا اليوم؟» سألت ماري وهي تقلِّب صفحات جريدة الصباح.

«تُقب إطار سيارتها»، أحببتها. كانت لعبة التخمين بما حدث لها شيئاً روتينياً: ما العذر الذي ستلجأ إليه كورين اليوم لسبب تأخرها، فالיום يوم خريف جميل، لذلك لا يمكنها أن تلقي اللوم على الطقس.

«كان ذلك في الأسبوع الماضي، أمّا الآن فهي مصابة بالزكام».

قلت: «بالمناسبة، كيف حال إيلا»، ابنة ماري ذات السنوات الثماني، التي أصيبت بجرثومة المعدة المنتشرة هذه الأيام.

ردّت ماري: «الحمد لله، عادت إلى المدرسة اليوم»، وأضافت، «لقد انتقلت العدوى الآن إلى دايف. أظنّ أنّ أمامي أربعاً وعشرين ساعة حتّى يأتيني الدور»، ورفعت عينيها من قسم الأخبار الإقليميّة في الصحيفة، وقالت: «رأيت اسم إديسون هنا مرّة أخرى».

لقد أحرز ابني مرتبة الشرف طوال فترة دراسته في المدرسة الثانويّة، لكنّي أقول له دائماً إنّ ذلك ليس سبباً للمباهاة، «فهناك تلاميذ أذكيا كثيرون في هذه البلدة».

قالت ماري: «على الرّغم من ذلك، فأن يكون فتى مثل إديسون ناجحاً ومتفوّقاً... يتطلّب أن تكوني فخورة به، هذا كلّ ما في الأمر. أمّنى أن تصبح إيلا طالبة متفوّقة مثله».

فتى مثل إديسون. أعرف ما الذي تقصده، حتّى لو أنّها حرصت على ألاّ تقول ذلك. فلا يوجد طلاب سود كثيرون في المدرسة الثانوية، وأعرف أنّ إديسون الطالب الوحيد الذي يتصدّر قائمة الشرف. إنّ ذلك أشبه بحافة ورقة حادّة، ومع أيّ عمل مع ماري منذ أكثر من عشر سنوات، فإيّ أحاول أن أتجاهل لسعة حافة تلك الورقة. أعرف أنّها لا تقصد شيئاً بقولها ذلك، فهي صديقتي، وكانت قد زارتني في بيتي مع أسرتها، وتناولنا العشاء في عيد الفصح، السنة الماضية، مع ممرّضات أخريات، ونخرج معاً لتناول الكوكيتيل، أو نذهب إلى السينما أحياناً في الليل، وذهبنا ذات مرة إلى

منتجع صحيّ في عطلة نهاية الأسبوع. لكن، على الرّغم من ذلك، لا تعرف ماري كم مرّة اضطرتت إلى أن أخذ نفساً عميقاً وأواصل طريقي. فالأشخاص من ذوي البشرة البيضاء لا يقصدون نصف العبارات المسيئة التي يقولونها، لذلك فإنّي أحاول ألا أفكر في الأمر.

لَمَّا أجبتها: «يجب أن تأملي في أن تنجح إيلا في أن تنتهي اليوم من دون أن تذهب إلى مكتب الممرّضة في المدرسة مرّة أخرى». ضحكت ماري، وقالت: «صحيح. الأهمّ فالهمّ».

اندفعت كورين إلى الغرفة، وقالت: «آسفة لأنني تأخّرت». تبادلنا أنا وماري النظرات. تصغرنى كورين بخمس عشرة سنة، ولديها دائماً أعذار بحدوث حوادث طارئة في أثناء قدومها إلى العمل - توقّف الكاربوراتير عن العمل، تشاجرت مع صديقها، كان هناك حادث على الطريق السريع. كورين من أولئك الناس الذين يرون أنّ الحياة ممتلئة بالأزمات. خلعت معطفها، وارتطمت وهي مندفعة بأصيص نبتة ميتة منذ أشهر عدّة، لم يكتثر أحد لاستبدالها. «اللعنة»، تمتمت، وعدّلت الأصوص، وأعدت التراب إلى داخله، ومسحت كفيها بثيابها، ثمّ جلست وثنت يديها، وقالت: «أنا آسفة جداً يا ماري. الإطار الغبيّ الذي استبدلته الأسبوع الماضي بدأ الهواء يتسرّب منه، أو ربّما حدث شيء من هذا القبيل فاضطرتت إلى أن أقود السيّارة ببطء». مدّت ماري يدها إلى جيبيها وأخرجت دولاراً ودفعته على الطاولة نحوِي. فضحكت.

قالت ماري: «حسناً. ها هو ذا تقرير الجناح. توجد في الغرفة الثانية جيسيكا مايرز، عدد حالات الحمل: واحدة، عدد الولادات القابلة للحياة: واحدة، في أسبوعها الأربعين ويومين، ولدت ولادة مهبلية في الساعة الثالثة صباح اليوم، الولادة غير معقّدة، من دون مسكنات أم. والطفلة ترضع على نحو جيّد. تبوّلت لكنّها لم تتغوّط بعد».

«سأعتني بها»، قلت أنا وكورين معاً.

جميع الممرضات يردن أن يأخذن المريضة التي ولدت، لأنه عمل أسهل. قلت: «كنت أشرف عليها في مرحلة الولادة النشطة».

فقال مارى: «صحيح، روث، إنها مريضتك»، ورفعت نظارة القراءة فوق أرنبة أنفها، ومضت تقول: «توجد في الغرفة رقم ثلاثة، ثيا ماكفون، عدد حالات الحمل: واحدة، عدد الولادات القابلة للحياة: صفر، في أسبوعها الحادي والأربعين وثلاثة أيام، إنها في مرحلة الولادة النشطة، مقدار التوسع أربعة سنتيمترات، والأغشية سليمة. معدّل ضربات قلب الجنين يبدو جيداً على الشاشة، والطفل يتحرك بنشاط. طلبت حقنة فوق الجافية، ويجري ترشيح سائلها الوريدي».

«هل أبلغ قسم التخدير». سألت كورين.

«نعم».

«سأشرف عليها».

جرت العادة أن نأخذ مريضة واحدة عندما تكون في مرحلة الولادة النشطة إذا استطعنا، وهذا يعني أنّ المريضة الثالثة - آخر مريضة هذا الصباح - ستكون مريضتي. «الغرفة رقم خمسة في الإنعاش. بريتاني باور، عدد حالات الحمل: واحدة، عدد الولادات القابلة للحياة: واحدة، في أسبوعها التاسع والثلاثين ويوم واحد. أُعطيت حقنة فوق الجافية، وولدت ولادة مهبلية عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً. الأم مصابة بداء السكري الحملي، ويُعطى الطفل سكرّاً في الدّم لمدة ثلاث ساعات، لمدة أربع وعشرين ساعة. لدى الأمّ رغبة في أن تُرضع الطفل من صدرها. لا يزالان ملتصقين ببعضهما».

يوجد عمل كثير في غرفة الإنعاش - إقامة علاقة وديّة بين الممرضة والمريضة. صحيح أنّ الولادة قد تمّت، لكن لا تزال هناك ترتيبات يجب

إنجازها: تقييم جسدي للمولود، والمعاملات الرسميّة الأخرى. «حسناً»، قلت
وابتعدتُ عن الطاولة لأذهب وأبحث عن لوسيل، الممرضة الليلية التي رافقت بريتاني
في أثناء ولادتها.

رأنتي أولاً، في دورة مياه الممرّضات، أغسل يديّ. قالت: «هذه أنتِ»، وأعطتني
ملفّ بريتاني باور، وقالت: «عمرها ستة وعشرون عاماً، عدد حالات الولادة: ولادة
واحدة، ولدت ولادة مهبلية صباح اليوم عند الساعة الخامسة والنصف، العجان سليم.
زمرة الدم O إيجابي، عندها مناعة ضدّ الحصبة الألمانية، التهاب الكبد «بي» وفيروس
نقص المناعة البشرية سلبيان، متلازمة غيلان سلبية. سكرّي الحمل، النظام الغذائيّ
خاضع للرقابة، غير ذلك حالتها غير معقّدة. الحقنة في الوريد لا تزال في ساعدها
الأيسر. فصلت عنها حقنة التخدير فوق الجافية، لكنّها لم تغادر السرير بعد، لذلك
اسألها إن كانت تريد أن تنهض وتتبول. نزيها جيد، وقاع مئانتها مشدود وثابت.»

فتحتُ الملفّ، وألقيت نظرة على الملاحظات، وحفظتُ التفاصيل في ذاكرتي. قرأت:
«ديفيس. هل هو الطفل؟»

«نعم. العلامات الحيويّة طبيعيّة، لكنّ سكرّ دمه مدّة ساعة كان أربعين، لذلك
دفعناه ليحاول أن يرضع من ثدي أمّه. رضع قليلاً من كلّ جانب، لكنّ بصاقه يسيل
كثيراً، ودائم النعاس، ولم يرضع كثيراً.»

«هل عيناه وفخذه سليمّة؟»

«نعم، إنّه يتبول، لكنّه لم يتغوّط. لم أحمم المولود، ولم أجرّ تقييماً عليه بعد.»

«لا توجد مشكلة»، قلت، «هل هذا كلّ شيء؟»

فأجابت لوسيل متردّدة: «اسم الأب تورك. ثمّة شيء... فيه.»

سألتها: «هل هو أب بصاص؟» في السنة الماضية، رأينا أباً يغازل طالبة
التمريض في الغرفة عندما كانت زوجته تلد. وعندما تقرّر إجراء عمليّة

قيصريّة، راح يتجوّل في غرفة العمليّات بدلاً من أن يقف خلف الستارة إلى جانب رأس زوجته، وقال لطالبة التمريض: هل الجوّ حارّ هنا، أم أنتِ فقط؟
فقالّت لوسيل: «لا، إنّه ليس من هذا النوع. تصرفه مع الأمّ جيّد. لكنّه فقط...
رجل مراوغ. لا يمكنني أن أعبر عن ذلك بدقّة».

كنت أقول لنفسي دائماً إنني لو لم أكن ممرضة توليد، لكنت منجّمة مزيفّة. إذ
نجيد قراءة مريضاتنا، ونعرف ما الذي يحتجن إليه قبل أن يعرفن ذلك، ونتمتع أيضاً
بموهبة استشعار المشاعر الغريبة، ففي الشهر الماضي، انطلق جهاز الرادار في داخلي
عندما جاء شخص غريب الأطوار، متخلّف عقلياً، مع امرأة أوكرانيّة تكبره سنّاً كان قد
تعرف إليها في متجر البقالة الذي كانت تعمل فيه. لاحظت شيئاً غريباً في طريقة
تصرفاتهما، واتبعت حدسي، فاتّصلت بالشرطة، ثمّ اتّضح أنّ المرأة الأوكرانيّة كانت قد
أمضت وقتاً في ولاية كنتاكي لتسرق طفل امرأة مصابة بمتلازمة داون.

لما دخلت غرفة بريتاني باور، أوّل مرّة، لم أشعر بالقلق.

قرعت الباب برفق وفتحته، قلت: «اسمي روث، سأكون ممرضتك اليوم»،
وأتجهت مباشرة إلى بريتاني، وابتسمت للرضيع الذي كانت تضمّه بين ذراعيها. «يا له
من طفل جميل! ما اسمه؟» سألتها مع أنّي أعرف اسمه. وسيلة لفتح حديث،
والتواصل مع المريضة.

لم تردّ بريتاني. نظرت إلى زوجها؛ رجل ضخم الجثة يجلس على حافة كرسيه، شعره
قصير مخلوق بأسلوب عسكريّ، يهزّ كعب حدائه الطويل كما لو أنّه لا يستطيع أن
يجلس ساكناً من دون حركة. أدركت ما كانت قد لاحظته لوسيل. دُكرني تورك باور
بخطّ كهرباء قُطع في أثناء هبوب عاصفة، ملقى على الطريق ينتظر أحداً يلمسه
لتنطلق شرارات منه.

ليس مهمّاً إن كنت خجولاً أو متواضعاً - فلا يوجد أحد رُزق بطفل تواء
يظلّ هادئاً لفترة طويلة - لأنّهم يريدون مشاركة الآخرين لحظة الحياة

المتغيّرة هذه. يريدون استحضار لحظات الطلق والولادة وجمال طفلهم، أمّا بريتاني، فبدا لي أنّها تنتظر منه إذناً كي تتحدّث. عنف أسري؟ تساءلت.

«ديفيس»، قالت متردّدة، «اسمه ديفيس».

«حسناً، مرحباً ديفيس»، دمدمت واقتربت من السيرير. «هل تمانعين إذا استمعْتُ إلى قلبه ورثتيه، وأقيس درجة حرارته؟»

شدّت ذراعيها حول المولود الجديد، وضمّته إليها بقوة.

قلت لها: «يمكنني أن أفعل ذلك هنا، يمكنك أن تبقيه معك».

يجب قطع الحبل قليلاً بين الأم الجديدة ووليدها، ولا سيّما الأم التي قيل لها إنّ نسبة السكر في دم طفلها منخفضة كثيراً. وضعت ميزان الحرارة تحت إبط ديفيس، وكانت حرارته طبيعيّة. نظرتُ إلى شعره الملتفّ على نفسه - لاحظت وجود بقعة بيضاء يمكن أن تشير إلى فقدان السمع، وقد يشير شكل الشعر المتناوب إلى وجود مشكلة في عمليّة التمثيل الغذائيّ. ضغطتُ السّماعَة الطبيّة على ظهر الطفل، ورحت أنصتُ إلى رثتيه. سللتُ يدي بينه وبين أمّه، ورحت أنصتُ إلى قلبه.

يا إلهي!

كان الصوت خافتاً إلى درجة كبيرة، إذ ظننت أنّي لم أسمعهِ جيّداً.

أنصتُ مرّةً أخرى لأتأكّد من عدم وجود ثقب، لكنّ تلك الهمهمة الطفيفة وراء إيقاع النبض الثابت.

نهض تورك ووقف ورائي. شابكاً ذراعيه. الأعصاب تبدو مختلفة عند الآباء. في بعض الأحيان، تصبح قتاليّة كما لو كان بإمكانهم أن يبعدوا أيّ خطأ.

«سمعت نفخة طفيفة جدّاً»، قلت برقّة، «لكن قد لا يكون هناك شيء».

لا يزال الوقت مبكراً، فهناك أجزاء من القلب لا تزال في طور النمو. حتّى لو كانت دمدمة، فقد تختفي بعد أيام قليلة. ومع ذلك، سأدّون ذلك في

السجل. سأطلب طبيبة الأطفال كي تأتي وتستمع إليها». بينما كنت أقول ذلك، محاولة أن أكون هادئة بقدر ما أستطيع، أجريت فحص سكر دم آخر. إنه Accu-Chek، الذي يعني أننا نستطيع أن نحصل على نتائج فورية - هذه المرة، اثنان وخمسون. قلت: «الآن، هذا خبر عظيم»، محاولة أن أعطي السيدة والسيد باور شيئاً إيجابياً يتمسكان به، ثم أضفت: «تحسن سكره كثيراً». توجهت إلى المغسلة وأجريت صنوبر الماء الدافئ، وملأت وعاء بلاستيكيًا، ثم وضعت على جهاز التدفئة، وقلت: «لا بد أن ديفيس ينبض بالحيوية، ويرجح أن يبدأ يرضع قريباً. لماذا لا أنظفه الآن، ليزداد حيوية، بعدها نحاول أن يرضع مرة أخرى؟»

انحنيت ومددت يدي، وأخذت منها الطفل. أدت ظهري للوالدين، ووضعت ديفيس على جهاز التدفئة، وبدأت أفحصه. سمعت برياتي وتورك يتهامسان بعنف عندما كنت منهمكة في فحص اليافوخ في رأس الطفل أبحث عن خطوط الدرز لأتأكد من أن العظام ليست متراكبة فوق بعضها. شعر الأبوان بالقلق، وهذا أمر طبيعي. الكثير من المرضى لا يحبون أخذ رأي الممرضة في أي مسألة طبية. عليهم أن يسمعوا ذلك من الطبيب ليصدقوا - مع أن ممرضات التوليد هن أول من يلاحظن وجود أشياء أو أعراض غريبة على المولود في معظم الأحيان. اسم طبيبة الأطفال أتكينز. سأتصل بها بعد أن أنهى فحص الطفل، وأطلب إليها أن تأتي وتستمع إلى قلب الطفل.

لكنَّ جلَّ اهتمامي كان منصباً على ديفيس الآن. رحمت أبحث عن كدمات في الوجه، أو كتلة دموية، أو شكل غير طبيعي للجمجمة. فحصت التجاعيد في راحتي يديه الصغيرتين، ومستوى أذنيه بالنسبة إلى عينيه، ثم قست محيط رأسه وطول جسده الذي كان يتلوى. فحصت إن كانت هناك شقوق في فمه وأذنيه، وتلمست عظام الترقوة، وأدخلت خنصري في فمه لأتحقق من ردة فعل المص لديه، وفحصت صعود وهبوط قفص صدره الصغير، لأتأكد من أن تنفسه ليس متقطعاً، ثم ضغطت على بطنه لأتأكد من أنه لين،

وفحصت أصابع يديه وقدميه، وتأكدت من عدم وجود طفح جلديّ أو آفات أو وحامات ولادة، ثمّ تأكدت من نزول خصيتيه، ووجود إحليل تحتاني، وتأكدت من أنّ مجرى البول موجود في المكان المفترض أن يكون فيه، ثمّ قلبته برفق ودققت في قاعدة العمود الفقريّ بحثاً عن دمامل أو لِمَاتٌ شَعْرِيَّةٌ أو أيّ مؤشرٍ آخر يدلُّ على وجود علةٍ في الأنبوب العصبيّ.

أدركت الآن أنّ الهمسات خلفي قد توقفت، لكن بدلاً من أن أشعر بالراحة، انتابني شعور بأنّ هناك ما ينذر بالسوء. هل يظنان أنّ ما أفعله غير صحيح؟

لَمَّا قلبت الطفل مرّةً أخرى، بدأت عينا ديفيس تخمضان. ينام الأطفال عادةً بعد ولادتهم بساعتين، وهذا أحد الأسباب التي تدعو إلى تغسيله الآن - لأنّ ذلك سيوقظه لفترة كافية، ويحاول أن يرضع مرّةً أخرى. توجد على جهاز التدفئة كومة من المناديل لتنظيف الرضيع. بحركات عملية واثقة غططت منديلاً في الماء الدافئ ونظّفت الطفل من رأسه حتّى قدميه، ثمّ حفّضته، ولففته بسرعة في بطانية مثل سندويشة بوريتو، وغسلت شعره تحت المغسلة بقليل من شامبو جونسون للأطفال. وفي النهاية، ثبتتُ عليه شريط تعريف يتطابق مع هوية والديه، وربطت سوارَ أمان إلكترونيّاً صغيراً حول كاحله يطلق جرس إنذار إذا ما اقترب الطفل كثيراً من أحد الأبواب.

يمكنني أن أشعر بأعين الوالدين حارّةً على ظهري. التفّتُ، وابتسمت تلك الابتسامة التي ترسم دائماً على وجهي، وقلت: «تفضلي»، وأعدت الرضيع إلى بريتاني، وأضفت، «أصبح نظيفاً كصافرة. لنرَ الآن إن كان بإمكاننا أن نسلّمه إلى ممرضة».

لَمَّا انحنيت لأساعد في تعديل وضعيّة الطفل، أجفلت بريتاني، وقال زوجها، تورك باور: «ابتعدي عنها. أريد أن أتحدّث إلى رئيستك».

كانت تلك أولى الكلمات التي قالها لي بعد الدقائق العشرين التي أمضيتها معه وأسرته في هذه الغرفة، والتي تحمل في طياتها تياراً مبطناً من الاستياء والتذمّر. كنت متيقنة من أنّه لا يريد أن يخبر ماري بالعمل الرائع الذي أنجزته توّاً، لكنني أوّماًت بتوتر وخرجت من الغرفة، واسترجعت في ذاكرتي كلّ كلمة قلتها، وكلّ حركة فعلتها منذ أن قدّمت نفسي لهما. اتّجهت إلى مكتب الممرّضات ورأيت ماري تملأ جدولاً. «لدينا مشكلة في الغرفة خمسة»، قلت لها، محاولة ألا يرتعش صوتي، «الأب يريد أن يراك».

سألّنتي ماري: «ما الذي جرى؟»

«لا شيء على الإطلاق»، أجبته، وأنا أعرف أنّ ما قلته صحيح، فأنا ممرّضة جيّدة، وأحياناً، ممرّضة عظيمة، فقد اعتنيت بهذا الرضيع كما أعنتني بأيّ مولود جديد في هذا الجناح، ثمّ أضفت: «قلت لهما إنّني سمعت ما بدا كأنّه نفخة قلبيّة، وإنّني سأنصل بطيية الأطفال، وغسلت الطفل وأجريت له فحصاً شاملاً».

لا بدّ أنّني لم أمكن من إخفاء مشاعري على نحو جيّد، لأنّ ماري نظرت إليّ نظرة ممتلئة بالتعاطف، وقالت: «رّبّما كانا قلقين بشأن قلب طفلهما».

كنت أسير على مسافة خطوة وراها عندما دخلنا الغرفة، ورأيت بوضوح قسّماّت الارتياح على وجهي الوالدين عندما رأيا ماري التي قالت لهما: «فهمت أنّك تريد أن تكلمّني، يا سيّد باور؟»

فقال تورك: «لا أريد أن تلمس هذه الممرّضة ابني مرّة أخرى».

شعرت بالحرارة تصعد من صدري إلى رأسي، فلا أحد يريد أن تُطرد الممرّضة أمام المشرفة عليها.

انتصبت ماري في وقفته، وتصلّب عمودها الفقريّ، وقالت: «يمكنني أن أوّكد لك أنّ روث إحدى أفضل الممرّضات لدينا يا سيّد باور. إذا كانت ثمّة شكوى رسميّة...»

فقاطعها الأب قائلاً: «لا أريدها هي أو أيّ شخص آخر يشبهها أن يلمس ابني»،
وشبك ذراعيه على صدره. كان قد شمّر كميّيه عندما خرجت، ورأيت وشم علم
الكونفدراليّة يمتدّ من الرسغ حتّى المرفق على إحدى ذراعيه.

لاذت ماري بالصمت.

للحظة، لم أفهم. فقد أصابني كلامه كأنني تلقّيت لكمة على وجهي: لا توجد
لديهما مشكلة بما فعلته.

لكن المشكلة تكمن في من أكون أنا.

تورك

أول زوجي التقيته قتل أخي الأكبر. جلسْتُ بين والديَّ في قاعة المحكمة في ولاية فيرمونت، مرتدياً قميصاً ذا ياقة عالية قاسية تكاد تخنقني، في حين كان رجال في بدلات رسميَّة يتجادلون ويشيرون إلى رسوم بيانية عن سيَّارات وأثار انزلاق إطارات. كنت في الحادية عشرة من عمري، وكان تانر في السادسة عشرة من عمره، لم يمضِ على حصوله على رخصة قيادة أكثر من شهرين. واحتفالاً بهذه المناسبة، أعدتُ أمِّي قالب كيك وزينته بقطع فاكهة، ووضعت فوقه السيَّارات الصغيرة القديمة التي كنت ألعب بها. كان الرجل الذي قتل أخي من ولاية ماساتشوستس، أكبر من أبي سنّاً، بشرته أغمق من خشب المنصَّة التي يجلس إليها الشهود، وأسنانه شديدة البياض. لم أستطع أن أتوقَّف عن التحديق إليه.

لم تتمكَّن هيئة المحلفين من التوصل إلى حكم - لم يتوصَّل المحلَّفون إلى قرار - كما قالوا، فأطلق سبيل الرجل. في تلك اللحظة فقدتُ أمِّي صوابها وراحت تصرخ وتهذي وتقول عبارات عن ابنها وعن العدالة. صافح القاتل محاميه، ثمَّ استدار وسار في اتجاهنا. لم يكن يفصل بيننا سوى حاجز، وقال: «سيِّدة باور، أنا أسف جداً لأنك فقدتِ ابنك».

كما لو أن لا علاقة له بكلِّ ما حدث.

توقَّفتُ أمِّي عن البكاء، وزمَّت شفتيها، وبصقت.

* * *

كنتُ أنا وبريت ننتظر هذه اللحظة منذ فترة طويلة.

كنت أقود الشاحنة الصغيرة، واضعاً يداً على المقود، ويدي الأخرى على المقعد بينما، تضغط عليها كلما أتاها انقباض. أستطيع أن أقول إنَّ ذلك

كان مؤملاً، لكن كلما شعرت بانقباض ضيقت عينيها وضغطت على فكها. لم يكن ذلك مفاجئاً لي - لأنني رأيتها تضرب شخصاً خدش سيّارتها بعربة تسوّق كان يدفعها في سوبرماركت (ستوب أند شوب) - لكنني لا أظنّ أنّها كانت بالنسبة إليّ أجمل ممّا هي الآن، قويّة وصامتة.

بطرف عيني كنت أنظر إلى طرف وجهها كلما توقّفنا عند إشارة المرور. مضت ستنان على زواجنا الآن، لكنني لا أزال لا أصدّق أنّ بریت أصبحت زوجتي، أجمل فتاة رأيتها طوال حياتي، وعندما تتحرّك، فإنّها أقرب ما تكون إلى فرد من الأسرة المالكة. شعرها الداكن يتلوّى في حبل معقود يتدلىّ حتّى ظهرها، خدّها أحمران، تنفخ، تطلق زفرات صغيرة كأنّها تجري في سباق ماراثون. التفتت إليّ فجأة. كانت عيناها برّاقتين زرقاوين مثل لهب نار، قالت: «لم يقل لي أحد إنّها صعبة هكذا».

ضغطت على يدها، مع أنّها كانت تضغط على يدي بقوة إلى درجة تؤلمني. قلت لها: «سيكون هذا المحارب قوياً مثل أمّه». كانت بریت قد تعلّمت منذ سنوات أنّ الربّ في حاجة إلى جنود، وأننا ملائكة هذه الحرب العرقيّة، ولولانا لأصبح العالم مرة أخرى مثل سدوم وعمورة. كان فرانسيس - والد بریت الأسطوري - واقفاً أمام جمهرة من الأعضاء الجدد يقول إنّه يجب أن نزيد أعدادنا كي نتمكّن من المقاومة. لكن، كمّا وصلنا أنا وبریت إلى المستشفى لننجب طفلنا إلى هذا العالم، كانت تخمّرني مشاعر متساوية من الانتصار والرب، لأنني مهما حاولت، فإنّ هذا المكان يظلّ بالوعة مجاري. ففي هذه اللحظة بالذات، لا يزال طفلي نقياً، لكنّه ما إن يأتي إلى هذا العالم، فإنّه سيُلوّث.

«تورك»، صاحت بریتاني.

انعطفْتُ إلى اليسار بحدّة إذ كدت أتجاوز مدخل المستشفى. «ما رأيك باسم ثور»، سألتها، لأغيّر الحديث إلى اختيار اسم للطفل، محاولاً أن ألهي بریت عن شعورها بالألم. قلت لها إنّ صديقاً عرفته عبر تويتر قد سمّى

ابنه لوكي. في الميثولوجيا الاسكندنافية كانت بعض المجموعات القديمة ضخمة لكنّها انقسمت إلى خلايا أصغر الآن. قلت لها إنّ العادات القديمة لا تموت بسهولة.

فقال بريتاني غاضبة: «أو الوطواط أو الفانوس الأخضر. لن أسمي طفلي بأسماء شخصيات من قصص مصوّرة». وفجأة انتابها تقلص آخر، وسألتنني: «وماذا لو كانت فتاة؟».

فاقترحت قائلاً: «المرأة الخارقة مثل أمها».

بعد موت أخي، انهار كل شيء. بدا كما لو أنّ تلك المحاكمة قد سلخت الطبقة الخارجية من الجلد، ولم يبقَ من أسرتي سوى الدم والأحشاء، ولم يعد هناك شيء يجمعها ويربطها معاً. فقد انفصل أبي وذهب وأقام في شقّة كل شيء فيها أخضر اللون - الجدران، والسجادة، ودورة المياه، والموقد - وكنت كلما زرته في تلك الشقّة، انتابني شعور بالغثيان، وبدأت أمني تشرب - بدأت بكأس نبيذ على الغداء ثمّ أصبحت تجرع القنينة بأكملها، وفقدت وظيفتها كمساعدة مهنية في المدرسة الابتدائية عندما أُغمي عليها في ملعب المدرسة، وسقطت طفلة مصابة بمتلازمة داون. كانت تقوم أُمّي على رعايتها، من فوق قضبان الألعاب، وانكسر رسغها. بعد ذلك بأسبوع، وضعنا كلّ الأشياء التي فملكها في شاحنة وانتقلنا إلى بيت جدّي.

كان جدّي غرامبس من المحاربين القدماء، لم يتوقّف قطّ عن خوض المعارك. لم أكن أعرفه معرفة جيّدة، لأنّه لم يحبّ أيّ قطّ. لكن، بعد أن أزيحت تلك العقبة الآن، تعهد بتربيتي بالطريقة التي يرى أنني يجب أن أنشأ عليها. كان يقول إنّ والدّي كانا يعاملانني بلطف شديد، وإنّني أصبحت مخنّثاً، وقال إنّه سيجعلني قوياً وقاسياً. بدأ يوقظني عند الفجر في عطلات نهاية الأسبوع ويأخذني معه إلى الغابة ليدرّبنني «التدريب الأساسي»، على حدّ تعبيره. علّمني كيف أميّز بين التوت السامّ والتوت الصالح للأكل، وأصبحت أميّز براز الحيوانات لأتمكّن من اقتفاء أثرها.

أصبحت أعرف الوقت من موقع الشمس. كان شيئاً يشبه تدريب الكشافة، وخلال ذلك كان يحكي لي قصصاً عن الأوغاد الذين حاربهم في فيتنام، وعن الأدغال التي يمكن أن تبتلعك إذا تركتها تفعل ذلك، وعن رائحة رجل وهو يُحرق حياً.

في أحد الأيام، قرّر جدّي أن يأخذني لإقامة مخيم مع أنّ درجة الحرارة في الخارج كانت تحت الصفر، وكان يتوقّع هطول الثلج. أخذني إلى حافة «المملكة الشمالية الشرقية» القريبة من الحدود الكنديّة. ذهبنا إلى دورة المياه، ولمّا عدت اختفى جدّي.

لم أر شاحنته التي كان قد ركنها إلى جانب محطة البنزين. كانت الآثار الوحيدة التي تشير إلى أنّه كان هناك آثار مسار إطارات شاحنته في الثلج. لقد غادر وأخذ حقيبتَي وكيس النوم والخيمة. عدتُ إلى محطة البنزين وسألْتُ العاملة إن كانت تعرف ما الذي حدث للرجل الذي كان يقود الشاحنة الزرقاء، فهزّت رأسها وقالت إنّها لا تعرف. «لا تعليق»، قالت، متظاهرة بأنّها لا تتكلّم الإنكليزيّة مع أنّها تعيش في فيرمونت.

كنت مرتدياً معطفي، لكن لم تكن لديّ قبعة أو قفّازان - إذ تركتها في الشاحنة - ولم يكن في جيبي سوى سبعة وستين سنتاً. انتظرتُ حتى وصل زبون آخر إلى المحطة، وعندما كانت العاملة مشغولة، سرقتُ قفّازين وقبعة صيد برتقاليّة وقبعة سوداء.

أضيت خمس ساعات وأنا أتعبّ آثار جدّي - بذلت جهداً عقلياً كبيراً لأتذكّر ما قاله لي عن الاتجاهات في صباح ذلك اليوم وأنا نصف نائم - وسرت في الطريق السريع لعليّ أجد أثراً يدلّني عليه، مثل كيس التبغ الذي يمضغه، وفردة من قفّازيّ. لمّا رأيت شاحنته مركونة إلى جانب الطريق، تمكّنت من تعقب آثار قدميه في الثلج إلى داخل الغابة، ولم أعد أرتجف. شعرت أنني ملتهب كالفرن. تبّين لي أنّ الغضب مصدر متجدّد للوقود.

لَمَّا وصلت إلى بقعة خالية من الأشجار، رأيته منحنيًا فوق نار أشعلها. ومن دون أن أنبس بكلمة واحدة، اتجهت نحوه ودفعته بقوة حتَّى كاد يسقط فوق الجمرات المشتعلة، وصحت: «يا بَنَ القحبة، لا يمكنك أن تذهب وتتركني هكذا».

فقال: «إذا لم أصنع منك رجلاً، فمن سيفعل ذلك بحقّ الجحيم!».

مع أنّ حجم جدّي ضعف حجمي، أمسكته من تلابيه وأوقفته على قدميه، ولمّا دفعت قبضتي إلى الخلف لأوجّه إليه لكمة، أمسك بيدي قبل أن تصل إلى وجهه.

«تريد أن تقاتل»، قال جدّي، وتراجع إلى الخلف وراح يدور حولي.

كان أبي قد علّمني أن ألكم أحداً. ضع الإبهام خارج قبضة يدك، ولّف الرسغ عند نهاية المرفق. كان كلّ ذلك مجرد كلام، إذ لم أضرب أحداً طوال حياتي.

أرجعت قبضتي إلى الورا الآن، ثمّ دفعتها إلى الأمام مثل سهم، لكنّ جدّي أمسك ذراعي وثناها وراء ظهري. كانت أنفاسه حارّة في أذني. «هل علّمك أبوك الضعيف ذو المؤخّرة السمينة ذلك؟». بدأنا نتصارع، لكنّه ثبتّني إلى الأرض، وقال لي: «هل تريد أن تتعلّم كيف تقاتل أو تريد أن تعرف كيف تنتصر؟»

كززت على أسناني، وقلت: «أريد... أن أنتصر».

شيئاً فشيئاً، أرخى قبضته، وأبقى يداً واحدة مثبتّة على كتفي اليسرى.

قال: «جسمك صغير، لذلك تكون في مستوى منخفض، ثمّ تعميني بجسدك، وأتوقّع منك أن ترفع قبضتك. وإذا أملتُ رأسي بسرعة، تكون قبضتي قد أصابت وجهك، وهذا يعني أنّي سأبقى منتصباً، وأصبح مكشوفاً تماماً. آخر شيء أتوقّعه هو أن تأتي من فوق الكتف هكذا».

رفع قبضته اليمنى، ولفّها إلى الأعلى في شكل قوس دائريّ أوقفت نفسهاً قبل أن تقبلّ عظام وجنتي. ثمّ تركني وخطا خطوة إلى الورا، وقال: «تابع».

لم أفعل شيئاً سوى أنني رحت أحدق إليه.

هكذا تشعر عندما تضرب أحداً: مثل شريط مطاطيٍ مشدود بإحكام يؤلمه ويبدأ يرتعش. وعندما ترمي تلك اللكمة، عندما تترك الشريط المطاطي، تكون الضربة قوية مثل تيار كهربائي. إنك تحترق، حتى إنك لم تدرك أنك تحترق.

سال الدم من أنف جدّي فوق الثلج، غطى ابتسامته، وقال: «هذا هو ابني».

كلما أفاقت بریت في أثناء الطلق، ازدادت التقلصات والتشنجات قوة، فتطلب منها الممرضة - شعرها أحمر، واسمها لوسيل - أن تستلقي على ظهرها، فتتوقف التقلصات، ثم تطلب إليها لوسيل أن تمشي. كانت حلقة مفرغة. بعد سبع ساعات، بدأت أتساءل إن كان ابني سيصبح مراهقاً قبل أن يأتي إلى هذا العالم. لكنني لم أقل ذلك لبریت.

لما أدخل طبيب التخدير حقنة فوق الجافية أمسكتها وثبتها بقوة - شيء توصلت إليه بریت، وفوجئت تماماً، لأننا كنا قد خططنا أن تكون الولادة طبيعية ومن دون أدوية، لأن معظم الأشخاص في الحركة ينظرون بازدراء إلى الأشخاص الذين يتناولون مخدراً. همست لها عندما انحنت على السرير، وراحت الطبيبة تجس عمودها الفقري، فسألتها هامساً إن كانت هذه فكرة جيدة، فقالت: عندما تلد أنت الطفل، قرّر بنفسك.

عليّ أن أفرّ بأن كل ما ضخوه في عروقه ساعدها فعلاً. استلقت على السرير، ولم تعد تتلوى من الألم، وقالت لي إنها لم تعد تشعر بشيء تحت بطنها، وإنها لو لم تتزوجني، لتزوجت طبيب التخدير.

دخلت لوسيل وقرأت النسخة الورقية المطبوعة من الجهاز الموصول بجسد بریت، الذي يقيس نبضات قلب الجنين، وقالت: «إنك تقومين

بعمل عظيم»، وأنا متأكد من أنّها تقول ذلك للجميع. لم أعد أستمع عندما كانت تكلم بريت - لا لأنني لم أعد أبدي اهتماماً بما تقوله لها، وإنما لأنّ هناك أشياء لا تريد أن تفكر فيها إذا أردت أن ترى زوجتك مثيرة مرّة أخرى - ثمّ سمعت لوسيل تقول لبريت إنّه قد حان الوقت كي تضغطي.

تعلّقت عينا بريت بعينيّ، وقالت: «حبيبي»، لكنّ الكلمة التالية علقت في حلقها، ولم تستطع أن تقول ما تريد قوله.

أدركت أنّ بريت خائفة كثيراً. هذه المرأة الشجاعة خائفة ممّا سيأتي. خللت أصابعي بين أصابعها، وقلت لها: «أنا هنا»، مع أنّي كنت خائفاً مثلها.

ماذا لو غيّر ذلك كلّ شيء بيني وبين بريت؟

ماذا لو ألقى هذا الطفل ولم أشعر تجاهه بأيّ شيء؟

ماذا لو اتضح لي أنّني قدوة سيئة؟ أب سيئ؟

«عندما تشعرين بانقباض بعد الآن، أريدك أن تضغطي إلى الأسفل»، قالت لها لوسيل ونظرت إليّ، وقالت: «قف وراءها، وعندما تشعر بانقباض، ساعدها في أن تعتدل في جلستها لتتمكّن من الدفع بقوة».

كنت ممتناً لطلبها هذا. لمّا احمرّ وجه بريت، وتقوّس جسدها، أمسكتُ بكتفيها، وبدأت تصدر حشرات من حلقها، مثل شخص يلفظ أنفاسه. بدأت لوسيل تقول لها: «خذي نفساً عميقاً. وصل الانقباض إلى ذروته الآن. قرّبي ذقنك من صدرك واضغطي نحو الأسفل...»

وبشهوة واحدة، استرخى جسد بريت، وأبعدت يديّ عن كتفيها كما لو أنّها لم تعد تحتمل أن أضعها عليها، وقالت: «ابتعد عني».

أشارت إليّ لوسيل أن أقرب منها، وهمست قائلة: «إنّها لا تقصد ذلك».

«لا، بحقّ الجحيم»، قالت بريت، وبدأ الانقباض يزداد حدّة.

قوّست لوسيل حاجبيها نحوي، وقالت: «قف هنا. سأمسك بساق بريت اليسرى، وأمسك أنت بالساق اليمنى...» إنّه ماراثون، وليس عدواً

سريعاً. بعد ساعة، التصق شعر بریت بجبينها من العرق الذي تفصد منها. خرمشتني بأظافرها، وشكّلت أقماراً صغيرة على ظاهر يدي، وبدأت تهذي. لا أعرف إلى أي مدى يمكنها أن تحتمل ذلك، ثمّ قوّست لوسيل كتفيها عندما انتابت بریت انقباضة طويلة، وتغيّرت تعابير وجهها، وقالت: «انتظري دقيقة»، واتصلت بالطبيبة، ثمّ قالت لها: «أريد أن تأخذي أنفاساً بطيئة يا بریت... واستعدّي لتكوني أمّاً».

بعد بضع دقائق، اندفعت طبيبة التوليد إلى الغرفة، وألبست يديها قفّازين. كانت محاولة مساعدة بریت بالأّ تضغط أكثر كما لو كنت تطلب إليها أن تصدّ موجة مدّ بكيس رمل واحد. قالت الطبيبة: «مرحباً سيّدة باور، لنخرج الجنين الآن»، وجلست على كرسيّ واطئ، لكنّ بریت شعرت بالتوتر مرّة أخرى. كان مرفقي لا يزال مشدوداً حول ركبتها لتتمكّن من الضغط عليها، وعندما نظرت إلى الأسفل، بدأ جبين طفلنا يظهر مثل قمر بين وادي ساقبيها.

لونه أزرق. ففي المكان الذي لم يكن فيه شيء يتنفّس قبل لحظات، بدا الآن رأس مستدير بحجم كرة ليّنة، لونه أزرق.

مذعوراً، نظرت إلى وجه بریت، لكنّ عينيها كانتا مغمضتين من الجهد الذي كانت تبذله. بدأ الغضب الذي يسري دائماً على نار هادئة في دمي، يغلي. إنهم يحاولون أن يُخرجوا طفلاً لنا. إنهم يكذبون. هؤلاء الملاعين -

ثمّ بدأ الطفل يبكي. ومع اندفاع الدم والسوائل، انزلق إلى هذا العالم، يصرخ ويضرب في الهواء بقبضات صغيرة، تخطب. وضعوا طفلي - ابني - فوق صدر بریت، ومسحوا جسمه بقطعة قماش. بدأت بریت تبكي، وأنا أيضاً. كانت نظرة بریت مركزة على الطفل، ثمّ قالت: «انظر إلى ما صنعناه معاً يا تورك».

«إنّه كامل»، همستُ فوق بشرتها، «إنّه كامل». ضمّت رأس مولودنا الجديد بين راحتيّ يديها، كما لو كنّا دائرة كهربائية اكتملت الآن، كما لو كان في استطاعتنا أن نزوّد العالم بالكهرباء.

لَمَّا كُنْتُ فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِي، وَقَعَ جَدِّي فِي الْحَمَامِ وَمَاتَ بِسَكْتَةٍ قَلْبِيَّةٍ. كَانَتْ رَدَّةً فَعَلِيٍّ كَمَا كَانَتْ إِزَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ - اخْتِلاَقَ الْمَشْكَلاتِ. لَمْ يَكُنْ يَبْدُو أَنَّ أَحَدًا يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعِي - حَتَّى أُمِّي الَّتِي كَانَتْ لَوْنُهَا يَشْحَبُ، وَتَكَادُ تَحْتَفِي دَاخِلَ الْجَدْرَانِ، إِلَى دَرَجَةِ أَنْتَنِي عِنْدَمَا أُسِيرُ إِلَى جَانِبِهَا لِأَكَادِ أَدْرِكُ أَنَّهَا مُوجُودَةٌ فِي الْغُرْفَةِ، وَلَا أَبِي الَّذِي يَعِيشُ حَالِيًّا فِي بَرَاتْلِبُورُو بِبَيْعِ سَيَّارَاتٍ فِي وَكَالَةِ هُونْدَا.

تَعَرَّفْتُ إِلَى رَايْنِ تَيْسِكُو عِنْدَمَا أَقَمْتُ فِي بَيْتِ أَبِي لِمُدَّةِ شَهْرٍ فِي أَثْنَاءِ الْعَطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَيْتُ السَّنَةَ الْأُولَى فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ. كَانَتْ صَدِيقَ أَبِي غَرِيغِ يَدِيرِ مَقْهَى بَدِيلًا (مَاذَا يَعْنِي ذَلِكَ؟ هَلْ لَأَتَّهَمُونَ الشَّاي؟) وَعَرَضَ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ عِنْدَهُ سَاعَاتٍ مُحَدَّدَةٍ فِي الْيَوْمِ. وَمَا أَنْتَنِي لَمْ أَكُنْ قَدْ بَلَغْتَ السَّنَّ الْقَانُونِيَّةَ لِأَعْمَلِ، كَمَا غَرِيغِ يَدْفَعُ لِي أَجْرًا خَفِيًّا، وَأَقُومُ بِأَعْمَالٍ مِثْلَ إِعَادَةِ تَنْظِيمِ الْمَخْرَنِ، وَمَهَامٍ أُخْرَى. كَمَا رَايْنُ صَانِعُ قَهْوَةِ أَكْسْبِرِيَسُو مُحْتَرَفًا، تَكْسُو ذِرَاعَهُ أَوْشَامًا، وَكَانَ يَدْخُنُ بِشْرَاهَةِ فِي فِتْرَاتِ اسْتِرَاحَتِهِ، وَلَدَيْهِ كَلْبٌ صَغِيرٌ جَدًّا لَا يَزِيدُ وَزْنَهُ عَلَى سِتَّةِ أَرْطَالٍ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ «مَيْت»، عَلَّمَهُ أَنْ يَنْفِثَ سِيَّجَارَةً أَيْضًا.

كَانَ رَايْنُ أَوَّلَ شَخْصٍ عَلَّمَنِي. رَأَيْتُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عِنْدَمَا خَرَجْتُ لِأَضْعَ الْقِمَامَةَ فِي حَاوِيَةِ الْقِمَامَةِ، وَقَدَّمْ لِي سِيَّجَارَةً - مَعَ أَنْتَنِي كُنْتُ فَتَى صَغِيرًا. تَظَاهَرْتُ بِأَنْتَنِي أَعْرِفُ مَا الَّذِي أَفْعَلُهُ، وَعِنْدَمَا بَدَأْتُ أَسْعَلُ بِقُوَّةٍ، لَمْ يَسْخَرْ مِنِّي، وَإِنَّمَا قَالَ: «يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ، يَا رَجُلًا»، وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، «أَقْصِدُ، وَالِدُكَ»، وَلَوَى وَجْهَهُ، وَقَلَّدَ أَبِي بِمَهَارَةٍ، ثُمَّ طَلَبَ لِي كُوبَ قَهْوَةِ بَحْلِبِ الصُّوْيَا الْخَالِي مِنَ الدَّسَمِ، مِنْ دُونِ رَغْوَةٍ.

كَلَّمْنَا ذَهَبْتُ لِزِيَارَةِ أَبِي، كُنْتُ أَلْتَقِي بِرَايْنِ. لَمَّا حَدَّثْتُهُ عَنِ الظُّلْمِ بِأَنْ يُسَجَّنَ فَتَى لِأَنَّهُ ضَرَبَ شَخْصًا، قَالَ إِنَّ أُمِّي سَكَّيْرَةٌ. قَالَ إِنَّ الْمَشْكَلَةَ لَا تَكْمُنُ فِيَّ وَإِنَّمَا فِي أَسَاتِذَتِي الَّذِينَ لَمْ يَدْرِكُوا طَاقَاتِي وَذِكَايَ، وَأَعْطَانِي كِتَابًا

لأقرأها، مثل رواية «يوميات تيرنر»، ليثبت لي أنني لست الشخص الوحيد الذي يشعر بأن الناس يتأمرّون عليه كي يجعلوا منه شخصاً محبباً. بدأ يعطيني أقراص سي دي لموسيقا حركة القوة البيضاء، بإيقاعاتها التي تبدو مثل مطرقة تطرب على مسامير، وكان يأخذني في جولة بسيارته، ويذكر لي كيف أنّ لجميع أصحاب الشبكات الإعلامية الرئيسة أسماء يهودية، مثل موونفز وزاكر، ويلقموننا بتلك الأخبار حتى نصدّق كلّ ما يريدون أن نصدّقه. كان يتحدّث عن الأشياء التي قد يفكّر فيها الناس، لكنهم لا يمتلكون الشجاعة لأن يقولوها علناً في الأماكن العامّة.

لم ير أحد غرابة في أن يرافق شابّ في العشرين من عمره فتى في الخامسة عشرة من عمره. وربما كان والداي يشعران بالارتياح عندما يعرفان أنني برفقة راين، لا أضرب أحداً، أو أهرب من المدرسة، أو أوْط نفسي في مشكلات. ولّمّا دعاني إلى حضور مهرجان مع بعض أصدقائه، وافقت على الفور. سألته: «هل توجد هناك فرق موسيقية؟» لأنّني كنت أظنّه أحد تلك التجمّعات الموسيقية التي تنتشر في الريف، في فيرمونت، ونُقام في شهر تموز (يوليه).

أجابني راين موضحاً: «نعم، لكنّه يشبه معسكراً صيفياً»، وأضاف، «لقد أخبرت الجميع أنّك ستأتي، وهم متحمّسون للتعرف إليك».

لم يكن هناك أحد متحمّساً لرؤيتي طوال حياتي، فكنت متلهفاً جداً للذهاب. في يوم السبت ذاك، حزمت جعبتي وكيس النوم لديّ وجلست في السيارة، ووضعت الكلب الصغير «ميت» في حضني، وأخذ راين ثلاثة أصدقاء آخرين - عرفوني كلّهم بالاسم كما لو أنّ راين قد حدّثهم عنّي، وكانوا يرتدون قمصاناً سوداً كُتبت على الصدر أحرف: NADS.

سألت راين: «ماذا تعني هذه الحروف؟»

فقال: «إنها تعني فرقة الموت في أمريكا الشمالية. هذه هي مهمّتنا».

اعتزنتي رغبة قويّة في أن أرتدي أحد تلك القمصان، وسألته بطريقة غير مباشرة، بقدر ما أستطيع: «إذًا، كيف أصبحتم جزءاً منها؟».

ضحك أحد الشبّان وقال: «يُطلب منك ذلك».

قرّرت في تلك اللحظة أن أفعل كلّ ما يمكنني ليدعوني إلى الانضمام إليها.

سارت بنا السيارة مدّة ساعة تقريباً، ثمّ خرج راين من أحد المنافذ، وانعطف يساراً عند لافتة كتب عليها بخط اليد IE مثبّتة على عصا. كانت هناك لافتات أخرى مثلها تشير إلى منعطفات عبر حقول الذرة وحظائر متداعية، حتّى في حقل ترعى فيه أبقار حلوب. لمّا وصلنا إلى سلسلة تلال، رأيتُ نحو مئة سيّارة مركونة في حقل موحل.

بدا كما لو أنّه كرنفال. كانت هناك خشبة مسرح، وفرقة تعزف بصوت مرتفع جداً، فبدأ قلبي يخفق معها في إيقاع ثابت قويّ. وكانت هناك أسر تتجوّل في أرجاء المكان، يتناولون نقانق الذرة وفطائر مقلّية، وثمّة أطفال يجلسون على أكتاف آبائهم، يرتدون قمصاناً كُتب عليها «أنا الطفل الأبيض الذي تحفظ العرّيق له». دار الكلب حول قدمي وراح يلتهم قطع الفشار التي سقطت من يد أحدهم. ربّت رجل على كتف راين، ورخّب به بحفاوة شديدة، فسرتُ بضعة أمتار نحو ميدان الرماية.

ثمّة رجل بدين له حاجبان يزحفان مثل يرقتين فوق جبينه، ابتسم لي وقال: «هل تريد أن تجرّبها أيّها الفتى؟»

كان هناك طفل في مثل عمري تقريباً يطلق النار على هدف تُبّت فوق جذع شجرة. أعطى الرجل العجوز بندقيّة البراوننج نصف الأوتوماتيكيّة وذهب ليثبّت الهدف الذي كان عبارة عن صورة رجل بأنف معقوف كبير جداً. «يبدو أنّك قتلت ذلك اليهوديّ يا غوتتر»، قال الرجل مبتسماً، ثمّ رفع الكلب الصغير بين ذراعيه وأشار إلى طاولة، وقال لي: «سأحمل الكلب، أمّا أنت فاذهب واختر الهدف الذي تريد».

كانت هناك كومة من الأهداف: صور ملامح يهودية، وصور لأشخاص سود بشفاة ضخمة وجباه منحدره. كانت هناك صورة مارتن لوثر كينغ الابن في دريئة كتب في أعلاها: «لقد تحقق حلمي».

للحظة، شعرت بغثيان في معدتي. ذكّرني الصور بالرسوم الكاريكاتورية السياسية التي كنّا ندرسها في فصل التاريخ في المدرسة، مبالغات شديدة أدّت إلى نشوب حروب عالمية. تساءلت ما هي تلك الشركات التي تصنع هذه الأهداف والدرايا، لأنّها لا تباع في قسم الصيد في متجر وول مارت الضخم. يبدو أنّه يوجد مجتمع سرّي تماماً لا أعرفه، وقد همس لي الآن بكلمة السرّ لأنضمّ إليه.

اخترتُ دريئة، وكانت تحيط بالهدف شجيرات أفريقية. ثبتّها الرجل على حبل غسيل، وقال ضاحكاً: «لا أستطيع حتّى أن أقول إنّها صورة جانبية». ثمّ وضع الكلب على الطاولة، ووضع الهدف الذي اخترته على حافة جذع الشجرة، وسألني: «هل تعرف كيف تستخدم سلاحاً؟»

كنتُ قد أطلقت طلقات بمسدّس جدّي، لكنّي لم أستخدم شيئاً كهذا قطّ. استمعت إلى الرجل عندما بدأ يشرح لي كيف تعمل البندقية، ثمّ وضعت سماعات الرأس والنظارة الواقية للحماية، وثبّتُ أخمص البندقية على كتفي، وأغمضت عيني، وضغطت على الزناد.

انطلق وابل من الطلقات، مثل نوبة سعال. لفت الصوت انتباه راين، فصقّ معجباً عندما أروني الدريئة وفيها ثلاث طلقات نظيفة في الجبهة، وقال: «انظر، هذا طبيعي».

طوى راين الدريئة ودسّها في جيبه الخلفي ليُري أصدقاءه أنّني أحميد الرماية. أمسكت بزمام الكلب وسرنا في ساحة الاجتماع. ثمّة رجل يقف على خشبة المسرح، وجوده طاغ إلى درجة أنّ صوته أصبح كالمغناطيس، جذبني فاقتربت لأراه بوضوح. قال الرجل: «أريد أن أحكي لكم جميعاً

قصة قصيرة. كان هناك زنجي في مدينة نيويورك، مشرد بالطبع. كان يسير في حديقة سنترال بارك، وسمعه الناس يصيح بصوت عال بأنه سيضرب رجلاً أبيض في أثناء نومه. لكن هؤلاء الناس لا يعرفون أننا نخوض حرباً، وأننا نحمي عرقنا، فلم يتصرف أحد منهم. تجاهلوا تلك التهديدات، وعدوها صادرة عن شخص أحمق مجنون. لكن، حدث أن هذا الوحش اقترب من رجل أبيض - رجل مثلكم، رُماً، أو مثلي، يعيش الحياة التي أراد له الرب أن يعيشها - رجل يعتني بأمه البالغة من العمر تسعين سنة، ثم لكم هذا الوحش الرجل فسقط على الأرض وارتطم رأسه بالرصيف ومات. لقد أصيب هذا الرجل الأبيض الذي كان يتنزه في الحديقة إصابة قاتلة. لكنني أسألكم - ما الذي حدث للزنجي؟ حسناً يا إخوتي وأخواتي... لم يحدث له شيء على الإطلاق».

تذكّرت قاتل أخي وهو خارج من قاعة المحكمة. رأيت الناس من حولي يهزّون رؤوسهم ويصفقون، وقلت في نفسي: إذاً، أنا لست وحدي.

سألت: «من الذي يتكلّم؟»

«إنه فرانسيس ميتشوم»، دمدم راين، «واحد من الحرس القديم، لكنّه أسطوري». لفظ اسم المتكلّم كما لو كان رجلاً ورعاً يتحدّث عن الربّ - جزء همساً، وجزء صلاة - «أترى شبكة العنكبوت الموشومة على مرفقه، لا يمكنك أن تحصل على واحدة منها إلا إذا كنت قد قتلت أحداً. مقابل كل شخص تقتله، يرسم لك عنكبوت إضافي». صمت راين قليلاً ثمّ أضاف: «يوجد لدى ميتشوم عشر منها».

«لماذا لا يتّهم الزوج دائماً بجرائم الكراهية»، سأل فرانسيس ميتشوم، «لماذا يتساهل معهم. حتّى إنّه لا يمكن تدجينهم حتّى لمساعدة الرجل الأبيض. انظروا من أين جاؤوا، من أفريقيا التي لا توجد فيها حكومة متمدّنة واحدة. إنهم يقتلون بعضهم في السودان. قبائل الهوتو تقتل

قبائل التوتسي، وها هم أولاء يفعلون ذلك في بلدنا أيضاً. العصابات تنتشر في مدننا - إنها حرب قبليّة بين الزنوج، وأصبحوا الآن يطاردون الرجل الأبيض لأنّهم يعرفون أنّهم يستطيعون الإفلات من العقاب». ثمّ ارتفع صوته وهو ينظر إلى الحشد أمامه، وقال: «إنّ قتل زنجي يساوي قتل غزال»، صمت قليلاً، ثمّ مضى يقول: «في الواقع، إنّي أتراجع عمّا قلته، لأنّكم تستطيعون أن تأكلوا لحم الغزال».

بعد بضع سنوات، أدركت أنّني عندما ذهبت إلى معسكر «الإمبراطورية الخفية» أوّل مرة، وسمعت فرانسيس ميتشوم يتحدّث - كانت بریت هناك أيضاً برفقة أبيها. أحبّ أن أتذكّر أنّها ربما كانت واقفة إلى الجانب الآخر من المنصّة تلك، تنصت إليه وهو يسحر الحشد بكلامه. ربّما ارتطم أحدنا بالآخر إلى جانب كشك غزل البنات، أو ربّما وقفنا جنباً إلى جنب عندما بدأت شرارات من ذلك الضوء المتقاطع تنطلق في سماء الليل.

ربّما كان ذلك قدرنا لأن نكون معاً.

لمدّة ساعة كاملة رحنا، أنا وبريت، نلقي أسماء مثل كرة بيسبول: روبرت، أجاكس، ويل، غارث، إريك، أودين. كلّما ظننت أنّني وجدت اسماً آرياً قوياً، تذكّرت بریت صبيّاً في فصلها في المدرسة يحمل هذا الاسم كان قد تناول شيئاً مقززاً أو تقيّاً على صدريته، وكلّما اقترحت اسماً تحبّه، تذكّرتني بشخص أحرق التقيته ذات يوم.

أخيراً، وبسرعة كبيرة، لمّا نظرتُ إلى وجه ابني النائم، همستُ: ديفيس، اسم آخر رئيس للكونفدراليّة.

قلّبت بریت الكلمة في فمها، وقالت: «إنّها مختلفة».

«المختلف جيّد».

فقالّت موضحة: «ديفيس، لكن ليس جيفرسون».

«لا، لأنّه سيصبح جيف»، وأضافت، «وجيف رجل يتعاطى المخدّرات، ويعيش في قبو أمّه».

فقلت: «لكن ديفيس هو الصبيّ الذي يتطلّع إليه الصبية الآخرون».
«لا ديف، أو ديفي، أو ديفيد».

«سيضرب كلّ من يناديه بذلك الاسم إذا أخطأ، أعدك بذلك».
لمستُ حافة بطانية الطفل لأنني لم أشأ أن أوقظه، وقلت: «ديفيس». يده الصغيرتان متّقدتان، كأنّه يعرف اسمه.

«يجب أن نحتفل»، قالت بریت هامسةً.
ابتسمت، وقلت لها: «هل تظنين أنّهم يبيعون شمانيا في الكافتيريا».
«إنّك تعرف جيّدًا ما الذي أريده. ميلك شيك بالشوكولاتة».

«كنت أظنّ أنّ الوحام يحدث قبل الولادة...»
ضحكت بریت، وقالت: «إني متأكّدة من أنّي سألعب ورقة الهرمونات لما لا يقلّ عن ثلاثة أشهر أخرى...»

نهضت واقفًا، وتساءلت إن كانت الكافتيريا لا تزال مفتوحة حتّى الساعة الرابعة صباحًا، لكنّي لم أشأ أن أغادر الغرفة لأنّ ديفيس وصل تواءً. سألتها: «ماذا لو فاتني شيء؟».

أجابت: «لا أظنّ أنّه سينهض ويمشي أو ينطق أوّل كلمة، وإذا فاتك شيء فسيكون أوّل براز له، وأظنّ أنّ هذا شيء تريد أن تتجنّبّه». رفعت بصرها، ونظرت إليّ بعينها الزرقاوين اللتين تبدوان أحيانًا غامقتين كالبحر، وأحيانًا شاحبتين كالزجاج، ما يجعلني مستعدًا دائمًا لأنّ أفعل أيّ شيء لأجلها. قالت: «لا تتأخّر أكثر من خمس دقائق».

«خمس دقائق». نظرت إلى الطفل مرّة أخرى، وشعرت أنّ حدائي قد علق في زفت، فأردت أن أبقى هنا وأعدّ أصابعه مرّة أخرى، وتلك الأظافر

الصغيرة جداً. أردت أن أرى كنفه ترتفعان وتنخفضان وهو يتنفس. أردت أن أرى شفتيه مزومتين كأنه يقبل أحداً في حلمه. كان النظر إليه ضرباً من الجنون، فهو من لحم ودم، وأعرف أن في استطاعتنا، أنا وبريت، أن نبنى شيئاً حقيقياً وصلباً من مادة ضبابية، وغير ملموسة كالحب.

«كريمة مخفوقة وكرز»، أضافت بريت، قاطعة عليّ حلمي، «إذا كان متوافراً لديهم».

متردداً، خرجت إلى البهو، وسرت أمام غرفة الممرضات، وأتجهت إلى المصعد. كانت الكافتيريا لا تزال مفتوحة، تعمل فيها امرأة تضع على رأسها شبكة تغطي شعرها، وتلعب لعبة الكلمات المتقاطعة. سألتها: «هل عندكم ميلك شيك؟» رفعت عينيها، وقالت: «لا».

«ما أنواع المثلجات التي لديكم؟»

«نعم، لكنّها نفذت. شاحنة التوريد تصل في الصباح».

بدا لي أنّها لا تريد خدمتي، وعادت إلى لعبتها.

قلت: «لقد أنجبتُ طفلاً منذ قليل».

فقلت: «واو. يا لها من معجزة طبيّة!».

فقلت مصححاً: «حسناً، زوجتي هي التي أنجبتّه، وهي تريد ميلك شيك بالحليب».

حدّجتنني كما لو أنّني أضيّع وقتها، كما لو أنّ مئة شخص ينتظرون خلفي، وأضفت: «أتريد نصيحتي، خذ لها حلوى. الجميع يحبّون الشوكولاتة»، ومدّت يدها إلى خلفها دون أن تنظر، وسحبت علبة شوكولاتة غيرارديللي. قلبت العلبة، ونظرت إليها. «هل هذا كلّ ما عندك؟».

«يوجد تخفيض في سعر شوكولاتة غيرارديللي».

قلبتها، ورأيت رمز OU - العلامة التي تثبت أنها كوشر (حلال)، وهذا يعني أنك تدفع للمافيا اليهودية ضريبة. أعدتها إلى الرف، وأخذت علبة شوكولا سكيترول الموجودة على الطاولة أمامها، ودفعت لها دولارين، وقلت لها: «يمكنك أن تحتفظي بالباقي».

بعد الساعة السابعة بقليل، فُتح الباب، شعرت بتوتر شديد. منذ مجيء ديفيس، دخلت لوسيل الغرفة مرتين - لتطمئن على بریت وعلى الطفل، وترى كيف يرضع. لكن هذه - هذه ليست لوسيل. قالت: «أنا روث، سأكون الممرضة المشرفة عليك اليوم». كان كل ما استطعت أن أفكر فيه هو: على جثتي.

تمالكت نفسي كي لا ألقى بها بعيداً عن زوجتي وابني، لكن رجال الأمن لا يعدون أكثر من مسافة زرع جرس، وإذا طردوني من المستشفى، فما الفائدة من ألا أكون موجوداً هنا لأحمي أسرتي. فقدت صوابي.

جلست على حافة الكرسي، كل عضلة في جسدي متأهبة لأن ترد.

ضمت بریت ديفيس إليها بقوة حتى ظننت أنه سيبدأ يصرخ.

«كم هو جميل!»، قالت الممرضة السوداء، «ما اسمه؟»

نظرت زوجتي إليّ، التساؤل يملأ عينيها. إنها لا تريد أن تتكلم مع هذه الممرضة أكثر مما تريد أن تتكلم مع عنزة أو أي حيوان آخر. لكنّها، مثلي، تدرك أن البيض أصبحوا أقلية في هذا البلد، وأننا معرضون للهجوم على الدوام، وأن علينا أن نلتحم معاً.

تشنجت ذقني، وتساءلت: هل ستري بریت ذلك؟ ثم قالت بحدّة: «اسمه ديفيس».

لما اقتربت الممرضة منّا، وقالت شيئاً، إنها تريد أن تفحص ديفيس، انكفأت بریت.

«ليس من الضروري أن تتركه»، قالت الممرضة أخيراً.

بدأت يداها تتحركان فوق ابني، مثل طيبة ساحرة مجنونة، وضغطت السماعية الطبية على ظهره، ثم وضعتها في الفراغ بينه وبين بریت. قالت شيئاً عن قلب ديفيس، لكنني لم أسمعها جيداً لأنّ الدم بدأ يتدفّق في أذني. ثمّ حملته.

صُدمت أنا وبریت عندما أبعدت طفلنا ووضعته على جهاز التدفئة لتغسله. لم يفه أحدنا بكلمة.

خطوت خطوة نحوها. كانت منحنية فوق ابني، لكنّ بریت أمسكت بذيل قميصي. لا تُحدث مشكلة.

هل يفترض بي أن أظلّ واقفاً هنا؟

هل تريدها أن تعرف أنّك غاضب وتريد أن تفرغ غضبك فيها؟

أريد أن تعود لوسيل. ما الذي حدث للوسيل؟

لا أعرف. ربّما غادرت.

كيف يمكنها أن تفعل ذلك، ومريضتها لا تزال هنا؟

لا أعرف يا تورك، فأنا لا أدبر هذا المستشفى.

راقبت الممرضة السوداء بعيني صقر وهي تمسح جسد ديفيس وتغسل شعره ثمّ تلتفه في بطانية مرّة أخرى، ووضعت سواراً إلكترونياً صغيراً حول كاحله - كالذي يضعونه أحياناً للسجناء الذين يُخلى سبيلهم ولا يزالون تحت المراقبة. كما لو أنّ النظام بدأ يعاقبه.

رحت أحدّق إلى الممرضة السوداء بشدّة، إلى درجة أنّني لن أفاجأ لو أنّ النار اشتعلت فيها. ابتسمت لي، وقالت: «أصبح الآن نظيفاً كصافرة، والآن، لنزّ إن كان في إمكاننا أن نجعله يرضع».

لَمَّا سارت لتبعد رداء المستشفى عن عنق بریت، لم أعد أحتمل، وقلت لها:
«ابتعدي عنها». كان صوتي منخفضاً وصحيحاً مثل سهم، «أريد أن أكلّم رئيسك».

بعد مضيّ عام على ذهابي إلى معسكر «الإمبراطورية الخفيّة»، سألتني راين إن كنت أريد أن أنضمّ إلى «فرقة الموت في أمريكا الشماليّة». لم يكن يكفي أن تؤمن بما يؤمن به راين بأنّ البيض هم العرق السيّد، ولم يكن يكفي أن تقرّ كتاب (كفاحي) ثلاث مرّات. وكي أصبح واحداً منهم، كان عليّ أن أثبت نفسي، وقد وعدني راين بأنّني سأعرف أين ومتى تحين اللحظة المناسبة.

في إحدى الليالي، لَمَّا كنت لا أزال أقيم في منزل أبي، استيقظت فجأة على صوت قرع على نافذة غرفة نومي. لم أخش أن يستيقظ أحد آخر في المنزل، لأنّ أبي ذهب ليحضر مأدبة عشاء عمل في بوسطن، ولن يعود إلّا بعد منتصف الليل. لَمَّا فتحت النافذة، انسلّ راين وشابان آخران إلى الغرفة، يرتدون ثياب نينجا سوداء. فجأة، ألقى بي راين على الأرض، وضغط بساعده على عنقي، وقال: «القاعدة الأولى، لا تفتح إذا لم تكن متأكّداً من الشخص الذي سيدخل». ظلّ كذلك حتّى بدأت أرى النجوم، ثمّ تركني، وأضاف: «القاعدة الثانية: لا تأخذ أسرى».

فقلت: «لم أفهم!».

قال لي: «نحن الليلة، يا تورك، الحماة. سننظّف فيرمونت من قذارتها».

وجدت كنزتين لونهما أسود، وقميصاً أسود أيضاً. وبما أنّه لا توجد لديّ قبعة سوداء محبوكة، أعطاني راين قبّعته، وعقد شعره إلى الخلف في شكل ذيل حصان. انطلقنا بسيارة راين، ورحنا مرّراً زجاجة يغيرميستر بيننا، ورفعنا صوت موسيقا البانك إلى أعلى صوت حتّى وصلنا إلى بلدة دومپرستون.

لم أكن قد سمعت عن (شركة قوس قزح للماشية)، لكن عندما وصلنا إلى هناك، عرفت ما هذا المكان، فقد كان هناك رجال يمسكون بأيدي

بعضهم يسرون من باحة موقف السيارات إلى الحانة، وكلّما فُتح باب الحانة، ظهر وميض من مسرح مضاء بأنوار ساطعة، ورأيت شاباً في ملابس نسائية يغني بتحرريك شفتيه.

«مهما فعلت، لا تتحنِ»، قال لي راين وهو يضحك.

«ماذا نفعل هنا؟»، سألته، لا أعرف لماذا جاء بنا إلى حانة للمثليين.

في تلك اللحظة، خرج شابان، يلفّ أحدهما الآخر. «هذا»، قال راين، وقفز على أحدهما، وراح يدقّ رأسه بالأرض، فأطلق رفيقه ساقيه للريح في الاتجاه الآخر، لكنّ أحد أصدقاء راين جرى خلفه وأمسك به.

فُتح الباب مرّة أخرى، وخرج رجلان آخران يتعثّران في عتمة الليل، رأس أحدهما لصق الآخر، يضحكان على نكتة. مدّ أحدهما يده إلى جيبه وراح يبحث عن مفاتيح السيارة. لمّا التفت نحو ساحة موقف السيارات، أضاء وجهه وهج سيارة عابرة.

كان عليّ أن أجمع الأمور معاً - شفرة الحلاقة الكهربائية الموجودة في خزانة الأدوية عندما كان أبي يستخدم شفرة الحلاقة. كيف غيرّ أبي طريقه كي يتوقّف عن شرب القهوة كلّ يوم وهو ذاهب إلى العمل في مخزن غريغ وعائد منه. كيف ترك أمي طوال تلك السنوات من دون تفسير، وحقيقة أنّ جدّي لم يكن يحبّه. خفضتُ قَبْعَتِي السوداء، ورفعت الياقة الصوفيّة التي أعطاني إيّاها راين كي لا يعرفني أحد.

ركل راين ضحيّته مرّة أخرى وهو يلهث ثمّ ترك الرجل يجري في ظلام الليل. اعتدل في وقفته وابتسم في وجهي، ورفع رأسه ينتظرنني كي أتولّى زمام الأمر. هنا، تساءلت كيف كان راين يعرف أشياء عن أبي لا أعرفها أنا.

لمّا كنت في السادسة من عمري، انفجر المرجل في بيتنا عندما لم يكن ثمّة أحد فيه. أتذكّر أنّني عندما سألت موظّف التأمين الذي جاء لتقييم الأضرار التي حدثت، قال شيئاً عن صمّامات الأمان والتآكل، ثمّ وقف

على قدميه وقال إنه عندما تتجمّع كمّيّة كبيرة من البخار، ولا يكون الهيكل متيناً بما يكفي لاستيعابه، فلا بدّ أن يحدث شيء من هذا القبيل. لقد تجمّع داخلي ذاك البخار طوال ستة عشر عاماً لأنّني لم أكن أخي الذي مات، ولن أكون، ولأنّني لم أمكّن من أن أبقى والديّ معاً، ولأنّني لم أكن الحفيد الذي أراده جدّي، ولأنّني كنت غيباً أو غاضباً أو شخصاً غريب الأطوار. أتذكّر تلك اللحظة جيّداً: كان الجوّ حاراً جداً: أمسكت أبي من رقبته، ورحت أدقّ جبهته على الرصيف، ولويت ذراعه وراء ظهره، وركلته على ظهره حتّى بدأ يبيص دماً. ثمّ قلبت جسده المرخيّ، وقلت له إنه لوطي، وضربتة بقبضتي على وجهه مرّات عدّة. لمّا سمعت صفارات سيارات الشرطة، وملأت الأضواء الزرق والحمراء ساحة انتظار السيّارات، سحبني راين إلى برّ الأمان.

انتشرت القصة كما تنتشر القصص، وتضخّمت أحداثها وتغيّرت: أحدثت عضو في فرقة الموت في أمريكا الشماليّة - أي أنا - ضرب ستة رجال في آن معاً، أحمل قضيباً من الرصاص بيد، وسكيناً باليد الأخرى، وقطعت أذن أحدهم بأسناني، وابتلعت شحمة أذنه.

بالطبع، لم يكن أيّ من ذلك صحيحاً. لكن هذا ما حدث: فقد ضربت أبي بشدّة حتّى نُقل إلى المستشفى، وأصبح يتناول طعامه بوساطة قشّة لأشهر عدّة. وهكذا، أصبحت شخصاً أسطورياً.

«نريد أن تعود الممرضة الأخرى»، قلت لماري أو مهما كان اسم الممرضة المسؤولة، «الممرضة التي كانت هنا الليلة الماضية».

طلبت إلى الممرضة السوداء أن تغادر الغرفة، وبقينا وحدنا. أسدلتُ كمّيّ إلى الأسفل، لكنّ عينيها ظلّتا تحدّقان إلى ذراعي.

ثمّ قالت: «يمكنني أن أوّكد لكما أنّ لدى روث أكثر من عشرين سنة من الخبرة في هذا المستشفى».

فأجبتها: «أظنُّ أننا، وأنا أنت، نعرفُ أنني لا أعرّضُ على خبرتها».

«لا يمكننا أن نُبعد ممرضة من الرعاية بسبب عرقها. إنه تمييز عنصري».

«لو طلبتُ طبية توليد بدلاً من طبيب ذكر، فهل يعدُّ ذلك تمييزاً؟»، سألتها بريت، «أو طبيبة بدلاً من طالبة طب. إنكم تسمحون بذلك طوال الوقت».

فقالت الممرضة: «هذا أمر مختلف».

سألتها: «كيف ذلك. ما يمكنني قوله هو أنك تؤدّين عملاً لخدمة الزبائن، وأنا الزبون، ويجب أن تفعلي الشيء الذي يريح الزبون». وقفت على قدمي وأخذتُ نفساً عميقاً، واقتربت منها كثيراً لإخافتها، وتابعت: «لا يمكنني أن أتخيّل كيف سيكون الأمر مزعجاً بالنسبة إلى جميع هؤلاء الأمهات والآباء الآخرين هنا، كما تعلمين، لو خرجت الأمور عن السيطرة. فإذا ارتفعت أصواتنا بدلاً من هذا الحديث اللطيف والهادئ الذي يدور بيننا، وإذا بدأت المريضات الأخريات يعتقدن أنه ربّما يجري تجاهل حقوقهنَّ أيضاً».

زمت الممرضة شفيتها، وقالت: «هل تهدّدني يا سيّد باور».

فأجبتها: «لا أظنُّ أنّ هذا ضروري. هل تظنين ذلك؟».

يوجد تسلسل هرمي للكراهية يختلف من شخص إلى آخر. أنا أكره جميع الناطقين بالإسبانية، القادمين من أمريكا اللاتينية، أكثر من كراهيتي للأسويين، وأكره اليهود أكثر، وتأتي على رأس القائمة كراهيتي للسود. لكن، حتّى أكثر من كلّ هذه المجموعات، فإنّ الأشخاص الذين أكرههم دائماً هم البيض الذين يناهضون العنصرية لأنهم انتهازيون.

للحظة، انتظرت لأرى إن كانت ماري واحدة منهم.

قفزت عضلة في حنجرتها، ودمدمت: «أنا متأكّدة من أننا نستطيع أن نجد حلاً مقبولاً لكلا الطرفين»، وأضافت، «سأضع ملاحظة في ملفّ ديفيس، عن... رغبتك».

فأجبتها: «أظن أن هذا شيء جيد».

لَمَّا خرجت بسرعة من الغرفة، ضحكت بریت، وقالت: «حبيبي، تبدو شخصاً مهماً عندما تكون شرساً. لكنك تعلم أن هذا يعني أنهم سوف يبصقون في الطعام قبل أن يقدموه لي».

اقتربت من المهدي، وحملتُ ديفيس. كان صغيراً جداً لا يكاد يبلغ طول ساعدي، وقلت لبریت، «سأحضر لك الفطائر من البيت»، ثم أُلصقتُ شفتي على جبين ابني، وهمست في جلده سراً بيننا فقط: «أعدك أنني سأحميك طوال حياتي».

بعد بضع سنوات من مشاركتي في (حركة القوة البيضاء)، عندما كنت أدير فرقة الموت في أمريكا الشماليّة في ولاية كونيتيكت، توقّف كبد أمي تماماً. عدت إلى المنزل لأصفي التركة وأبيع منزل جدّي. بينما كنت أفتش في أغراضها، وجدت وثائق محاكمة أخي. لا أعرف لماذا كانت تحتفظ بها. لا بدّ أنّها احتفظت بها لسبب ما. جلست على الأريضة الخشبيّة في غرفة الجلوس محاطاً بصناديق يفترض إرسالها إلى منظمة غودويل الخيريّة، وقرأتها - صفحة صفحة.

كانت شهادات وأدلة جديدة بالنسبة إليّ، كما لو أنني لم أعش كلّ دقيقة فيها. لا يمكنني أن أخبركم هل كنت صغيراً جداً فلم أتذكرها، أو أنني تعمّدت أن أنساها، لكن جميع الأدلة كانت تركز على الخط الذي يقسم الطريق في الوسط، وفحوص السموم. ليست التي تخصّ المتهم - وإمّا التي تخصّ أخي. كانت سيّارة تانر هي التي انحرقت نحو الطريق القادمة من الجهة الأخرى، لأنّه كان مخموراً. كان ذلك واضحاً في جميع الرسوم البيانيّة وصور آثار الإطارات: إثبات كيف أنّ رجلاً يُحاكم بتهمة قتل بسبب الإهمال كان قد بذل كلّ ما في وسعه ليتفادى سيّارة انحرقت إلى مساره. كيف لم تتمكّن هيئة المحلفين من القول إنّ حادث السيّارة

نجم عن خطأ ارتكبه المُدَّعى عليه فقط. جلست مدَّة طويلة أفلب الأدلَّة في حضني،
أقرؤها، وأعيد قراءتها.

لكن، ما خلصت إليه هو أنَّه لو لم يكن ذلك الزنجي يقود سيَّارته في تلك الليلة لَمَا
مات أخي.

روث

طوال فترة عملي في المستشفى لمدة عشرين سنة، طردتني مريضة كنت أقوم على رعايتها، ولم يستغرق ذلك أكثر من ساعتين. لقد أثارت لغطاً، وألقت بزُهريّة ممتلئة بالأزهار على رأسي وهي في خضمّ آلام المخاض، لكنّها اعتذرت لي عندما جلبت لها الدواء.

بعد أن طلبت إليّ ماري أن أغادر الغرفة، وقفتُ في الردهة للحظات أهرّ رأسي. «ماذا جرى؟» سألتني كورين، ورفعت عينيها عن الجدول البياني الذي كانت تقرؤه في غرفة الممرّضات.

«أب فائز آخر»، قلت وقد ارتسمت على وجهي تعابير جامدة.

فأجفلت كورين وقالت: «أسوأ من الرجل الذي استوصلت قناته المنويّة».

في أحد الأيام، كنت أرى مريضة جاءها المخاض، وكان زوجها قد أجرى عمليّة قطع القناة المنويّة قبل يومين، وكانت كلّما اشتكت من الألم الذي يعترِبها، كان زوجها يشتكي أيضاً. وفي إحدى المرات، دعاني إلى داخل الحَمّام وأنزل سرواله ليريني كيس الصفن الملتهب، في حين كانت زوجته تصرخ وتلهث، قلت له إنّه يجب أن يرى الطبيب.

لكنّ تورك باور ليس رجلاً سخيلاً وأناانياً، فبالطريقة التي كشف فيها عن وشم العلم الكونفدرالي، لا أظنّ أنّه يحبّ الملوّنين كثيراً، «لا بل أسوأ من ذلك».

هزّت كورين كتفيها، وقالت: «تعرف ماري كيف تهدّئ الأشخاص الغاضبين. أنا متأكّدة من أنّها ستتمكّن من حلّ أيّ مشكلة، مهما كانت».

لن تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا كان بإمكانها أن تجعلني بيضاء، قلت في نفسي، ثمّ قلت لها: «سأذهب إلى الكافيتيريا لمدة خمس دقائق. خذي مكاني».

قالت كورين: «إذا أحضرت لي شوكولا تويزلر».

وقفت في الكافتيريا بضع دقائق أفكر في الوشم على ذراع تورك باور. لا توجد لدي مشكلة مع البيض، فأنا أقيم في حي معظم سكانه من البيض، ولدي أصدقاء بيض، وأرسلت ابني إلى مدرسة معظم طلابها من البيض، وأعاملهم بالطريقة التي أريد أن يعاملوني بها - بحسب صفاتهم الفردية كبشر، لا بحسب لون بشرتهم.

لكن الأشخاص البيض الذين أعمل معهم وأتناول الغداء معهم، والذين يعلمون ابني ليسوا متحيزين علناً.

اشترت كيس تويزلر لكورني وكوب قهوة لي. حملت كوب القهوة إلى الطاولة التي يوجد عليها الحليب والسكر. كانت هناك امرأة مسنة تحاول أن تفتح غطاء علبة الحليب، وضعت حقيبتها على المنضدة، لكن ما إن اقتربت، حتى أخذت حقيبتها وعلقت الحزام على كتفها.

قلت لها: «هل يمكنك أن أساعدك في فتح غطاء علبة الحليب؟».

عندما أعدت إليها العلبة، شكرتني وابتسمت لي.

أنا متأكدة من أنها لم تع أنها أزاحت حقيبتها عندما اقتربت منها.

لكني أدركت ذلك.

قلت في نفسي، انفضي كل ذلك من رأسك يا روث، فأنا لست من ذلك النوع الذي يرى الأشياء السيئة في كل شخص كما تفعل أختي أديسا. أخذت المصعد وعدت إلى الجناح. لمّا وصلت رميت كيس التويزلر إلى كورين وأنجّهت نحو باب غرفة بريثاني باور حيث كان جدولها البياني وجدول ديفيس الصغير معلّقين عليه من الخارج. أخذت جدول الطفل لأتأكد من أن طبيبة الأطفال قد انتبهت إلى مسألة النفخة القلبية المحتملة، لكن، لمّا فتحت الجدول، وجدت قصاصة وردية اللون ملصقة على الأوراق.

لا يسمح لأيّ عامل طبيّ أمريكيّ من أصل أفريقيّ برعاية هذه المريضة.

كست الحرارة وجهي. لم أجد ماري في مكتبها، فبحثت عنها حتّى رأيتها تتحدّث مع طبيب الأطفال في غرفة الحضّانة. «ماري»، قلت لها وألصقتُ ابتسامة على وجهي، «هل لديك دقيقة؟».

تبعنتني إلى غرفة الممرّضات لأنّني لم أشأ أن أكلمها في مكان عام. كمّا دخلنا غرفة الاستراحة، قلت لها: «هل أنتِ جادّة؟»

لم تتظاهر بأنّها لم تفهم قصدي، وقالت: «روث، إنّها لا شيء. فكّرني في الأمر كما تفكّرني في التفضيلات الدينيّة التي تفرضها أيّ أسرة لرعاية المريضة.»
«لا يمكنك أن تقارني ما حدث بالتفضيلات الدينيّة!».

ردّت: «إنّهُ مجرد إجراء شكليّ، الأب متهور. هذه أسهل طريقة لجعله يهدأ قبل أن يُقدم على عمل شيء عنيف.»
سألتها: «أليس هذا عملاً عنيفاً؟!»

قالت ماري: «انظري. إن كنت أفعل شيئاً، فإني أسدي لك معروفًا. لذلك، لا تتعاملي مع هذا الرجل بعد الآن. بصراحة، الأمر لا يتعلّق بك يا روث.»
«حقّاً»، قلت لها، «كم أمريكيّ من أصل أفريقيّ موجود في هذا الجناح؟».

كلّنا نعرف الجواب عن هذا السؤال. لا يوجد أحد. نظرتُ في عينيها مباشرة، وقلت: «إنّك لا تريدين أن ألمس ذاك الطفل، حسنًا، لن ألمسه.»

وصفقت الباب ورائي بقوة.

ذات مرّة، تدخّل الدين في رعايتي لمولود جديد؛ إذ جاء إلى المستشفى زوج وزوجة مسلمان، لأجل ولادة طفلهما، وقال لي الأب إنّهُ يريد أن يكون أوّل شخص يكلم المولود. فقلت له إنّني سأفعل كلّ ما في وسعي

لتلبية طلبه، لكن إذا حدثت مضاعفات في أثناء الولادة، فإنَّ أولويتي العمل على إنقاذ الطفل - وهذا يتطلب التواصل، وهو يعني أنَّ الصمت في غرفة الولادة ليس أمراً محتملاً أو ممكناً.

تركت الزوجين وحدهما ليبحثا في الأمر، ثمَّ ناداني الأب وقال: «إذا حدثت مضاعفات فأرجو أن الله سيتفهم ذلك».

قبل فترة قصيرة من بدء الولادة، ذُكرت طبيبة الأطفال بما طلبته المريضة. أخرجت الطبيبة الرأس، ثمَّ الكتف اليمنى، ثمَّ اليسرى، كما لو كانت لعبة كرة القدم. كان بكاء الطفل الصوت الوحيد المسموع في الغرفة. أخذتُ المولود الذي كان زلماً مثل سمكة نهرية صغيرة، ولففته في بطانية، ووضعتُه بين ذراعي والده، فانحنى الرجل فوق رأس ابنه الصغير، وراح يهمس في أذنه شيئاً باللغة العربيَّة، ثمَّ وضع الطفل بين ذراعي زوجته، فانفجرت الغرفة بالضوضاء من جديد.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، لمَّا عدت لزيارة مريضتي وطفلها، كانا نائمين. كان الأب واقفاً فوق مهد الطفل يحدِّق إليه كما لو أنه لم يفهم تماماً كيف حدث ذلك. نظرة رأيتها كثيراً على وجوه الآباء الذين لم يكن الحمل بالنسبة إليهم شيئاً حقيقياً حتَّى تلك اللحظة، أمَّا الأمُّ فلديها تسعة أشهر حتَّى تعتاد مشاركته البقعة التي يقبع فيها في قلبها، أمَّا بالنسبة إلى الأب، فإنَّ ذلك يأتي فجأةً، مثل عاصفة تغيِّر المشهد إلى الأبد.

لمَّا قلت له: «يا له من طفل جميل!»، ابتلع ريقه. تعلَّمت أنَّه توجد مشاعر لم نجد لها العبارات المناسبة. تردَّدتُ قليلاً، ثمَّ سألتُه ممَّا يدور في خاطري منذ الولادة، وقلت له: «إذا لم تكن وقاحة مني أن أسألك، فهل يمكنك أن تقول لي ما الذي همست به لابنك؟».

فقال الأب: «الأذان، وهو: الله أكبر، لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله»، ثمَّ نظر إليَّ، ومضى يقول وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة، «في الإسلام، نريد أن تكون أولى الكلمات التي يسمعها الطفل هي الأذان».

بدا لي ذلك شيئاً رائعاً، لأنَّ كلَّ طفل معجزة. إنَّ الفرق بين طلب الأب المسلم وطلب تورك باور كالفرق بين الليل والنهار.

بين الحبِّ والكراهية.

كانت فترة ما بعد الظهر حافلة بالنشاط، فلم يتح لي الوقت لأتحدّث إلى كورين عن المريضة الجديدة إلّا بعد أن ارتدينا معاطفنا وسرنا في اتجاه المصعد. سألتني كورين، «ما الذي حدث؟»

لَمَّا قلت لها: «إنَّ ماري أبعثتني عن معالجتها لأنني سوداء»، جعّدت كورين أنفها، وقالت: «لا يمكن أن تفعل ماري ذلك».

التفتُ إليها، ويداي لا تزالان فوق طيِّة صدر معطفي، وقلت لها: «إذاً أنا كاذبة». وضعت كورين يدها على ذراعي، وقالت: «لا، طبعاً. إنِّي واثقة بأنَّ شيئاً آخر يحدث».

لم يكن من اللائق أن أُفرغ إحباطي على كورين التي عليها أن تتعامل مع تلك الأسرة الفظيعة الآن، ولم يكن من الملائم أن أغضب منها لأنني غاضبة من ماري. كانت كورين دائماً شريكة لي في الجريمة، وليست خصماً لي. لكنني شعرت بأنني أستطيع أن أتكلّم وأُفرغ ما يجيش في صدري، لكنها لن تفهم سبب كل ذلك. ربّما ينبغي لي أن أتكلّم كي أنفّس عن غضبي، وربّما أصبح بعدها مقبولة لدى أسرة باورز.

قلت: «مهما يكن، فهذا الطفل لا يعني لي شيئاً».

أمالت كورين رأسها، وقالت: «هل تريدين أن نتناول كأساً من النبيذ قبل أن نعود إلى البيت».

أرخيْتُ كتفيّ، وقلت: «لا أستطيع. إديسون ينتظرنني».

رَنَّ جرس المصعد، وفُتِح الباب. كان ممتلئاً لأننا في نهاية فترة المناوبة. بحر من الوجوه البيض الساهمة راحت تحدَّقني.

لم أكن أفكر في ذلك عادة، لكن فجأة، كان هذا كل ما رأيته.

سئمت كوني الممرضة السوداء الوحيدة في قسم الولادة.

سئمت أن أتظاهر بأن هذا لا يهم.

تعبتُ.

«تعرفين ماذا»، قلت لكورين، «أظنُّ أنني سأخذ الدرج».

لَمَّا كنت في الخامسة من عمري، لم أستطع أن أندمج. فعلى الرغم من أنني بدأت أقرأ مُذ كنت في الثالثة من عمري - نتيجة تعليم أمي الدؤوب كل ليلة عندما تعود من عملها - وعندما أصادف كلمة tree (شجرة)، كنت ألفظها «ree»، حتّى اسم أسرتي «بروكس»، كنت ألفظه «رووكس». فذهبت أمي إلى المكتبة وجلبت كتاباً عن الحروف الساكنة وظلّت تعلّمني مدّة سنة كاملة، وجعلتني أشارك في اختبار برنامج الموهوبين، وبدلاً من أن أذهب إلى المدرسة في حيّ هارلم - حيث نعيش - كانت تأخذنا معها بالحافلة، أنا وأختي مدّة ساعة ونصف صباح كل يوم إلى مدرسة حكوميّة في حيّ ويست سايد، معظم تلاميذها من اليهود. كانت توصلني حتّى باب غرفة الصفّ، ثمّ تأخذ مترو الأنفاق لتعود إلى عملها في منزل أسرة هالويل.

لم تكن أختي راشيل تلميذة مجتهدة مثلي، وكانت الرحلة بالحافلة تستنزف طاقتنا جميعاً. انتقلنا في الصف الثاني إلى مدرستنا القديمة في حيّ هارلم حيث أمضيت سنة انخفضت في أثنائها درجاتي كثيراً، فدمر ذلك أمي. لَمَّا قالت ذلك للسيدة مينا، سعت إلى نقلني إلى مدرسة دالتون الخاصّة التي تدرس فيها ابنتها كريستينا، وكانت إدارة المدرسة تبحث عن التلמיד. حصلت لي السيدة مينا على منحة دراسيّة كاملة، وبقيت متفوّقة في صفّي، وكنت أحصل على جوائز في كلّ مناسبة، وبذلت

كلّ ما في وسعي لأكافئ إيمان أمي وثقتها بي، في حين كانت راشيل تقيم صداقات مع أطفال في حيناً لا أعرف أحداً منهم. لم تكن مدرسة دالتون ملائمة لي، وكذلك هارلم، فقد كنت طالبة متفوّقة غير قادرة على الاندماج.

كانت بعض الطالبات يدعونني إلى بيوتهنّ - فتيات يقلن أشياء مثل: «إنّك لا تتكلّمين كما يتكلّم السود»، أو «إنني لا أرى أنّك هكذا». بالطبع، لم تزرني أيّ منهنّ في حيّ هارلم، وكنت أتحدّث دائماً بأنني ملتزمة بدرس في الرقص، أو لديّ التزام أسريّ، أو واجبات منزليّة كثيرة. كنْتُ أتخيلهنّ أحياناً وهنّ يسرن عند ناصية الشارع الذي أقيم فيه بشعرهنّ الحريريّ الأشقر، ودعامات تقويم الأسنان. كان ذلك أشبه بتصوير دبّ قطبيّ في المناطق الاستوائية، ولم أكن أتساءل كثيراً كيف كنّ يرينني في دالتون.

لما التحقت بجامعة كورنيل، التي لم يتمكّن العديد من الطلاب في مدرستي من الالتحاق بها، كنت أسمعهم يتهامسون: قُبلت في الجامعة لأنّها سوداء، ونسوا أنّني حصلت على متوسط قدره 3.87، ولم يكتروا لأنني حصلت على درجات عالية في اختبارات القبول في الجامعة، ولم يابهاوا لأنني لم أكن أستطيع تحمّل تكاليف الذهاب إلى جامعة كورنيل، فذهبت إلى جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ. كانت أمي تردّد دائماً: «حبيبتني، ليس من السهل أن تحصل فتاة سوداء على كلّ ما تريد. يجب أن تثبتي لهم أنّك لست فتاة سوداء، وإمّا روث بروكس»، وتضغط على يدي، وتقول: «ستحصلين على كلّ شيء جيّد سيأتي إليك - لا لأنك تتوسّلين للحصول عليه، ولا بسبب لون بشرتك، وإمّا لأنك تستحقين ذلك».

أعرف أنّني لم أكن لأصبح ممرّضة لولا عمل أمي الدؤوب لتضعني في منتصف طريق التعليم الجيّد، وأعرف أيضاً أنّني كنت قد قرّرت منذ زمن أن أنغلّب على المشكلات التي تواجهني عندما يتعلّق الأمر بابني. لذلك، قرّرت أنا وزوجي، عندما بلغ إديسون الثانية من عمره، أن ننتقل إلى حيّ يقيم فيه البيض، حيث توجد مدارس فضلى، على الرّغم من أنّنا سنكون الأسرة الملوّنة

الوحيدة في ذلك الحيّ. لذا، تركنا شقتنا القريبة من خطّ السكّة الحديدية في نيو هافن، ولمّا كان دَلال العقارات يكتشف من نحن، يختفي اسمنا من قائمة المتقدمين لشراء البيت، حتّى وجدنا أخيراً بيتاً صغيراً في المنطقة الأكثر ثراءً في إيست إند، في الجانب الشرقيّ من مدينة نيويورك، حيث سجّلت إديسون في روضة أطفال، فبدأ يندمج مع الأطفال الآخرين، كي لا يبدو غريباً عنهم، وقد أصبح واحداً منهم منذ البداية. ولمّا كان يريد أن يمضي أصدقاؤه الليلة في بيتنا، لم يكن أحد من والديهم يستطيع أن يقول إنّ ذلك سيكون خطراً على ابنهم، لأننا نقيم في الحيّ الذي يقيمون فيه أيضاً.

نجحت خطّتي، لا بل نجحت نجاحاً عظيماً. في البداية، كان عليّ أن أدعّمه وأحميه - وأتأكد من أن يلاحظ أساتذته ذكاهه لا لون بشرته - وكانت نتيجة ذلك أنّ إديسون تبوّأ المراكز الثلاثة الأولى في فصله المدرسيّ. وحصل على شهادة التفوّق الأكاديميّ الوطنيّة، وهذا يعني أنّه سينتقل إلى الجامعة ويصبح كما يريد. بذلت حياتي كلّها لأحقّق ذلك.

لمّا كنت أعود إلى البيت من المستشفى، أجد إديسون يؤدّي واجباته المدرسية على طاولة المطبخ. «مرحباً حبيبي»، أقول له وأنحني فأقبّل رأسه، أمّا الآن فلم أعد أستطيع أن أفعل ذلك إلا إذا كان جالساً. لا أزال أذكر اللحظة التي أدركت فيها أنّه أصبح أطول قامته مني، وبدأت أرفع ذراعيّ إلى الأعلى بدلاً من أن أنزلهما إلى الأسفل، وأدركت أنّ الشخص الذي دعمته طوال حياته أصبح قادراً على أن يدعمني. لمّا دخلت هذا المساء، لم يرفع عينيه ويقول: «كيف كان عملك اليوم؟».

رسمت ابتسامة على وجهي، وقلت: «إنّك تعرف، الشيء نفسه».

خلعتُ معطفي، وأخذت سترة إديسون المرمية على ظهر الأريكة، وعلقتها في الخزانة، وقلت: «إني لا أقوم بأعمال تنظيف هنا...»

«إذاً اتركها في مكانها. لماذا يجب أن يكون كل شيء أفعله غلطاً»، انفجر إديسون، وابتعد عن الطاولة بسرعة حتّى كاد يرتطم بكرسيه، وترك جهاز كمبيوتره وكتابه المفتوح، وخرج من المطبخ محتدماً، ثمّ سمعتُ صوت باب غرفة نومه يصفق بقوة. هذا ليس ابني. ابني الذي يحمل مواد البقالة ويصعد بها ثلاثة طوابق ليوصلها إلى السيّد لاسكا العجوز، من دون حتّى أن تطلب منه ذلك. ابني الذي يفتح الباب دائماً لأيّ سيّد عندما تدخل، ويقول دائماً: من فضلك، وشكراً، الذي لا يزال يضع جميع بطاقات عيد الميلاد التي أكتبها له على منضدته.

في بعض الأحيان، تأتي أمّ جديدة إليّ، رضيعها يصرخ بين ذراعيها، وتسألني كيف يمكنها أن تعرف ما يحتاج إليه طفلها. إذا كان لديك ابن مراهق، لا يختلف الأمر كثيراً، من نواح عدّة، عن أن تنجبي طفلاً رضيعاً. أن تتعلّمي كيف تقرئين ردود أفعاله، لأنّه غير قادر على معرفة ما الذي يسبّب له الألم بدقّة.

مع أنّ كلّ ما أردت فعله هو أن أذهب إلى غرفة إديسون، وأضمّه إليّ وأهدده، كما كنت أفعل عندما كان صغيراً يتألّم، أخذتُ نفساً عميقاً ودخلت المطبخ، ولم أذهب إلى غرفته. كان إديسون قد ترك لي العشاء، صحناً مغطى بورق الألومنيوم. يستطيع إديسون أن يعدّ ثلاثة أطباق، وهي: المعكرونة بالجبن، البيض المقلّي، وسلوي جو، وفي الأيام المتبقية من الأسبوع، يسخّن الطعام الذي أعدّه له في أيام عطلتي. كان العشاء الليلة فطيرة انتشلاذ، وكان إديسون قد أعدّ أيضاً طبق بازلاء لأنني علّمته منذ سنوات أنّ الوجبة لا تعدّ وجبة حقيقيّة إلا إذا كانت مؤلّفة من أكثر من لون.

صبيّتُ لنفسي قليلاً من النبيذ من القنينة التي كانت ماري قد جلبتها لي في عيد الميلاد. ومع أنه كان لاذعاً، أرغمتُ نفسي على أن أرشف رشقات

عدّة كي ترتخي العقد في كتفيّ، وأمّكن من أن أغمض عينيّ حتى لا أرى وجه تورك باور.

بعد مضيّ عشر دقائق، طرقت على باب غرفة إديسون بهدوء، غرفته منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره، أمّا أنا فأنام على الأريكة القابلة للطي في غرفة الجلوس. أدت أكرة الباب فوجدته ملقى على سريره شابكاً ذراعيه وراء رأسه. لوهلة رأيت شبهاً كبيراً له مع أبيه، وشعرت أنّ الزمن قد عاد بي للحظة.

جلست على السرير إلى جانبه، وسألته: «هل تريد أن نتحدّث عنها، أو أنّنا سنتظاهر بأنّه لا يوجد شيء؟»

لوى إديسون فمه، وقال: «هل لديّ خيار حقاً؟».

فقلت، وابتسمت قليلاً: «لا، هل يتعلّق ذلك باختبار الحساب؟».

قطّب حاجبيه، وقال: «اختبار الحساب؟! حصلت فيه على ستّ وتسعين درجة. لقد تشاجرتُ مع برايس اليوم».

كان برايس أكثر أصدقاء إديسون قريباً مُدّ كانا في الصّفّ الخامس، أمّه قاضية في إحدى محاكم الأسرة، وأبوه أستاذ الأدب الكلاسيكيّ في جامعة ييل. توجد في غرفة الجلوس في بيتهم خزانة زجاجيّة كالتي يمكن أن تراها في متحف، فيها جرّة إغريقيّة أصليّة، وكانوا قد أخذوا إديسون معهم في إجازة إلى غستاد وسانتوريني.

ما أجمل الشعور بأن ينقل لي إديسون هذا العبء لأحلّ مشكلات شخص آخر لبعض الوقت! لقد أزعجني ما حدث في المستشفى كثيراً: أنا التي أعرف بأنني المرأة التي تجد حلولاً باستمرار. أنا لست المشكلة، لم أكن المشكلة قطّ.

«إني متأكّدة من أنّك ستهدأ، وسيمرّ كلُّ شيء بسلام»، قلت لإديسون وأنا أربّبت على ذراعه، «فأنتما مثل شقيقين».

استلقى على جانبه ووضع الوسادة فوق رأسه.

«هيه»، قلت له، «هيه»، وسحبت الوسادة، ولاحظت آثار دمعة جعلت لون بشره صدغه أغمق. همهمتُ، «حبيبي. ما الذي حدث؟». «قلت له إنني سأدعو ويتني إلى حفل انتهاء السنة». «ويتني...»، كررتُ، محاولة أن أحدد الفتاة من بين مجموعة أصدقاء إديسون. فقال: «شقيقة برايس».

لاحظت في بالي بسرعة فتاة ذات صفائر شقر بلون الفريز، كنت قد رأيتها منذ بضع سنوات عندما ذهبت لأجلب إديسون من الملعب حيث يلعب الأولاد، «تلك الفتاة المكتنزة التي تضع مقوم أسنان؟».

«نعم». لكنّها أزالّت مقوم الأسنان الآن. وهي ليست مكتنزة. لديها...»، قال إديسون، ولانت عيناه، وتخيّلت ما الذي يراه ابني. قلت له بسرعة: «ليس من الضروري أن تكمل هذه الجملة».

«حسنًا، إنّها فتاة رائعة، أصبحت في السنة الثانية الآن. أقصد أنّي أعرفها منذ زمن، لكنني عندما بدأت أنظر إليها مؤخرًا، لم أعد أرى أنّها شقيقة برايس الصغيرة، كما تعرفين، كنت قد خططت لكل ذلك. ثمّ طلبت إلى برايس أن ينقل إليها رسالة دعوة إلى الحفل في نهاية السنة، فرفض».

أخذتُ نفساً عميقاً، وقلت، أختار كلماتي بعناية: «يصعب أحياناً أن يرى أخ أنّ أخته الصغيرة صديقة محتملة لأحد، مهما كان قريباً من الشخص الذي يريد أن يدعوها».

زأغت عينا إديسون، وقال: «ليست هذه هي المشكلة».

«ربّما يحتاج برايس إلى بعض الوقت كي يتعوّد الفكرة. ربّما فوجئ بأنك تفكّر في أخته بهذه الطريقة لأنك مثل أحد أفراد الأسرة».

«المشكلة هي... أنني لست». اعتدل ابني في جلسته، وتدلت ساقاه الطويلتان على حافة السرير، وقال: «ضحك برايس وقال، أن نكون أنا وأنت صديقين شيء، لكنّ أمي وأبي سيستشيطان غضباً...»

قلت: «وماذا جرى بعد ذلك؟».

«سألته عن السبب. فقد سافرت مع أسرته إلى اليونان، فقال، أرجو ألا تشعر بالإساءة، لكنّ والدَيّ لا يحبّان أن تواعد أختي شاباً أسود. لا مانع أن يكون عندك صديق أسود يزورنا في الإجازات الأسيّة، لكن ليس من المقبول أن تكون هناك علاقة بين هذا الصديق وابنتك».

كنت أسعى طوال الوقت كي أبعاد إديسون عن شعور كهذا، ولم يخطر في بالي قط أنّه عندما يحدث - مع أنني كنت أرى أنّه سيحدث - فإنّه سيحترق أكثر لأنّه لم يكن يرى أنّه سيأتي.

أمسكت بيده وضغطت عليها، وقلت: «لن تكون أنت وويتني أول فتى وفتاة تجدان نفسيكما على جانبيّ جبل. كان هناك قبلكما روميو وجولييت، وأنا كارنينا وفرونسكي، وماريا وتوني، وجاك وروز».

نظر إديسون إليّ بعينين ممتلئتين رعباً، وقال: «إنّك تعرفين أنّ في كلّ مثال ذكرته، مات أحدهما في الأقلّ».

فقلت: «ما أحاول أن أقوله هو أنّه لو رأّت ويتني كم أنك شخص مميّز، لأرادت أن تكون برفقتك. وإذا لم تكن ترى ذلك، فإنّها لا تستحقّ أن تقاوم لأجلها».

لمّا وضعتُ ذراعي حول كتفيه، مال إديسون نحوي، وقال: «هذا لا يجعل الأمر أقلّ سوءاً».

فقلت تلقائياً: «اللغة. لا، لا تجعلها».

ليست هذه المرة الأولى التي أتمنّى فيها لو كان ويسلي لا يزال في قيد الحياة. كم كنت أتمنّى لو أنه لم يعد إلى أفغانستان في أثناء خدمته! كم

أهمنى لو أنه لم يكن في تلك القافلة عندما انفجر لغم تحت شاحنته! كم أهمنى لو أنه عرف إديسون عندما أصبح مراهقاً الآن، لا عندما كان طفلاً فقط! كم أهمنى لو كان هنا ليقول لابنه إنه عندما تجعل فتاة الدم يتدفق في جسدك فإنها تكون أول مرة بين مرّات عدّة!

كم أهمنى لو كان هنا!

لو استطعت أن ترى ما الذي صنعناه، قلت في نفسي بصمت، فهو أفضل منا كلينا. سألته فجأة: «ماذا حدث لتومي؟».

قال إديسون متجهماً: «تومي فيليبس؟»، «أظنّ أنه قُبض عليه لأنه كان يتعاطى الهيرويين خلف المدرسة السنة الماضية. إنه في سجن الأحداث الآن».

«هل تتذكّر عندما قال لك ذلك الجانح الصغير، عندما كنتما في مدرسة الحضانة، إنك تشبه قطعة خبز محمّص محروق؟».

ارتسمت على وجه إديسون ابتسامة بطيئة، وقال: «نعم».

كانت تلك أول مرّة يذكر فيها طفل لإديسون أنه مختلف عن التلاميذ الآخرين في صفّه - وقال ذلك بطريقة سيئة أيضاً: محروق، متفحّم، تالف.

ربّما كان إديسون قد لاحظ ذلك، وربّما لم يلاحظ، لكن كانت تلك أول مرّة أكلّم فيها ابني حول لون البشرة.

«هل تتذكّر ما قلته لك؟»

«إنّ لون بشرتي بنّي لأنّه يوجد لديّ ميلانين أكثر من أيّ شخص آخر في المدرسة؟».

«صحيح. لأنّ الجميع يعرفون أنّ من الأفضل أن يكون لديك شيء أكثر ممّا هو قليل، والميلانين يحمي بشرتك من التلف الناجم عن أشعّة

الشمس، ويساعد في تحسين بصرك، وسيظلّ تومي فيبس مفتقدًا ذلك دائماً. لذا، في واقع الأمر، أنت المحظوظ.»

شينا فُشيتًا، مثل ماء على رصيف جاف، تلاشت الابتسامة عن وجه إديسون، وقال: «لا أشعر أنّي محظوظ الآن.»

لَمَّا كُنَّا فتاتين صغيرتين، لم يكن هناك أيّ شبه بيني وبين أختي الكبرى، فقد كان لون بشرة راشيل بلون القهوة الطازجة، مثل لون بشرة ماما تمامًا، أمّا أنا فقد سُكبت من القدر عينها، لكن أضيفت إليّ كمية كبيرة من الحليب، فلم يعد بإمكانك حتّى أن تعرف اللون الحقيقيّ.

كان لون بشرتي الفاتح يدفع راشيل إلى حافة الجنون لأنّه يمنحني امتيازات لم أفهمها، فقد كان العاملون في البنك يقدّمون لي قطع حلوى عدّة، ثمّ بعد تفكير، يعطون أختي قطعة واحدة، وكان المعلّمون في المدرسة يدعونني أخت بروكس الجميلة، أخت بروكس الطيبة. ولَمَّا كانوا يلتقطون صوراً لتلاميذ الصفّ، يضعونني في الصفّ الأماميّ، في حين تختبئ راشيل في الصفوف الخلفيّة.

كانت راشيل تقول لي إنّ أبي الحقيقيّ أبيض البشرة، وإنّني لا أنتمي إلى أسرنا. وفي أحد الأيام، تشاجرنا أنا وراشيل، وقلت لها إنّني سأذهب وأعيش مع أبي الحقيقيّ، لكنّ أمّي أجلسني في حضنها في تلك الليلة، وأرتني صور أبي، الذي هو والد راشيل أيضًا - بشرته بيّنة فاتحة مثل بشرتي - يحملني بين ذراعيه عندما ولدت، وكان التاريخ المدوّن على الصورة قبل سنة كاملة من مغادرته لنا إلى الأبد.

نشأنا، أنا وراشيل، كما تنشأ شقيقتان. كنت قصيرة القامة، وهي طويلة مثل ملكة، وكنت طالبة مجتهدة، وكانت أذكى على نحو طبيعيّ، لكنّها تكره المدرسة. ولَمَّا كانت في العشرينات من عمرها، غيّرت اسمها رسميًا إلى أديسا، استنادًا إلى ما كانت تقول إنها «جذورها العرقيّة». وعلى الرّغم

من أن الكثير من الأسماء العرقية سواحيلية، فإن اسم أديسا مستمد من لغة اليوروبا التي ستقول لك إنها من غرب أفريقيا - «من البلد الذي جاء منه أسلافنا عندما جُلبوا إلى هنا كعبيد»، ويعني الشخص النقي، الواضح. حتى اسمها يحكم علينا بأننا لا نعرف الحقائق التي تعرفها هي.

تقيم أديسا حالياً في شقة قريبة من سكة القطار في نيو هافن، في منطقة تباع فيها المخدرات في وضوح النهار، ويتبادل الشبان إطلاق النار طوال الليل. لديها خمسة أطفال، وتعمل هي وزوجها في أعمال متدنية الأجر، بمشقة يتدبران أمر معيشتهم. أحب أختي حتى الموت، لكنني لا أفهم الخيارات التي تتخذها، ولا تفهم الخيارات التي أتخذها.

أتساءل هل كانت رغبتني في أن أصبح ممرضة، ورغبتني في أن أحقق الكثير لابني إديسون، لأنني كنت أتفوق عليها، وطالما تساءلت إن كان السبب الذي جعل راشيل تغير اسمها إلى أديسا أن تزيد النار التي تضطرم في داخلها اضطراباً.

في يوم الجمعة، يوم عطلتي، ذهبت مع أديسا إلى صالون لتقليم الأظافر. جلسنا إلى جانب بعضنا، أيدينا تحت فتحات التجفيف بالأشعة فوق البنفسجية. نظرت أديسا إلى زجاجة لون طلاء الأظافر الذي اخترته، وهزت رأسها، وقالت: «لا صدق أنك اخترت طلاء أظافر *Juice Bar Hopping*، فهو أكثر الألوان بياضاً».

فقلت: «إنه برتقالي وليس أبيض».

فقلت: «أقصد الاسم يا روث، الاسم. هل رأيت أحداً يذهب إلى حانة ليشرب عصيراً؟ لا، لأن أحداً لا يذهب إلى الحانة ليشرب العصير».

نظرت إليها، وقلت: «حقاً؟ لقد أخبرتك توّاً أنهم ممنوعون من رعاية مريضة، وتريدون أن تحدّثيني الآن عن لون طلاء أظافري؟»

فقالت أديسا: «إني أتحدّث عن اللون الذي اخترته لتعيشي حياتك»، وأضافت، «إنّ ما حدث لك يحدث لنا جميعاً كلّ يوم، كلّ ساعة. لقد تعودت اللعب وفاقاً لقواعدهم، حتّى إنك نسيت أنّ لديك بشرة أخرى في تلك اللعبة»، ثمّ ابتسمت ساخرة، «حسناً. بشرة فاتحة أكثر، لكن لا تزال داكنة في نظرهم».

«ماذا تقصدين؟»

هزّت كتفيها وقالت: «متى كانت آخر مرّة قلت فيها للآخرين إنّ ماما لا تزال تعمل خادمة؟»

«لم تعد تعمل الآن كثيراً. إنّك تعرفين ذلك. في الأساس، إنّها مؤسّسة خيرية تسهم فيها مينا».

«لم تجيبي عن سؤالِي».

قطبّت حاجبيّ، وقلت: «لا أعرف متى قلت ذلك آخر مرّة. هل هذا أول شيء تتحدّثين عنه في أيّ حديث مع الآخرين؟ بالإضافة إلى أنّه لا يهمّ ما يكون عليه لوني، فأنا أوّدي عملي على أكمل وجه، ولا أستحقّ أن أُنمّع من أداء عملي».

«وأنا لا أستحقّ أن أعيش في شارع تشيرش ساوث، لكنني أحتاج إلى أكثر من مئتي سنة من التاريخ حتّى أغيّر ذلك».

تحبّ أختي أن تلعب دور الضحية. كنا قد تبادلنا أحاديث حادّة حول هذا الأمر. إذا كنت لا تريدين أن يُنظر إليك بهذه الصورة النمطيّة، فلا تكوني كذلك. أمّا بالنسبة إلى أختي، فهذا يعني أن تلعب لعبة الرجل الأبيض، وأن تكون كما يريد لها هو، لا كما يجب أن تكون هي نفسها. تنطق أديسا كلمة اندماج بكثير من الحقد حتّى إنّهُ ليخيّل إليك أنّ الشخص الذي يسمعها - كما أسمعها - يتجرّع سمّاً.

وتحبّ أختي أن تتناول أيّ مسألة وتحوّلها إلى مشكلة تتحدّث عنها وتثير حولها لغطاً كبيراً.

«إنّ ما حدث في المستشفى ليس خطأك»، فاجأني أختي بقولها ذلك. ظننت أنّها ستقول إنّه لا بدّ أن يحدث لي ذلك، لأنّني أظاهر دائماً بأنني لست كذلك، وأنّني في أثناء ذلك، نسيت الحقيقة. ثمّ قالت: «إنّهم عالمهم يا روث، ونحن نعيش فيه فقط. تصوّري أنّك ذهبت إلى اليابان. بإمكانك أن تتجاهلي العادات السائدة هناك ولا تتعلّمي لغتهم، لكن لو فعلت ذلك، فإنّ حياتك ستصبح أكثر يسراً، الشيء نفسه ينطبق هنا. فكلّما فتحت التلفاز أو المذياع، فإنّك تشاهدين وتسمعين أخباراً عن أنّ البيض يذهبون إلى المدارس الثانوية والجامعات، ويتناولون العشاء، ويسيرون حفلات خطوبة، ويشربون نبيذ بينو نوار، فتتعلّمين كيف يعيشون حيواتهم، وتجيدين الحديث بلغتهم لتتمكّني من الاندماج معهم، لكن، كم شخصاً أبيض تعرفينه حاول أن يشاهد أفلام تايلر بيرري ليعرف كيف يتصرّف مع السود؟».

«ليست هذه هي الفكرة...»

«لا، الفكرة هي أنّك تستطيعين أن تفعلي كما يفعل الرومان، لكن هذا لا يعني أنّ الإمبراطور سيدعك تدخلين قصره».

فقلت أجادلها: «لا يدير العالم البيض فقط يا أديسا، يوجد عدد كبير من الملونين الناجحين أيضاً»، وذكرت لها أول ثلاثة أسماء خطرت لي: «كولين باول، كوري بوكر، بيونسيه...»

فردّت أديسا: «ليس أيّ منهم بشرته داكنة مثلي. هل تعرفين ما الذي يقولونه: كلّما دخلت في عمق المساكن الشعبيّة، ازداد لون الجلد قتامةً».

فقلت: «كلارنس توماس. بشرته أغمق من بشرتك، وهو قاض في المحكمة العليا».

ضحكت أختي وقالت: «روث، إنَّه محافظ جداً، إلى درجة أنَّه قد ينزف دماً أبيض».

لَمَّا رَنَّ هاتفي أخرجته من حقيبتني بحذر كي لا أفسد طلاء أظفاري.

«إديسون؟» سألتني أديسا على الفور. قل ما شئت عنها، لكنَّها تحبُّ إديسون كما أحبُّه.

«لا. إنَّها لوسيل من المستشفى». ما إنَّ ظهر اسمها على هاتفي، جفَّ حلقي. الممرضة التي كانت حاضرة في أثناء ولادة ديفيس باور، لكن اتصالها بي لا علاقة له بتلك الأسرة، فقد أصيبت لوسيل بمغص في معدتها وتريد بديلاً يحلُّ مكانها هذه الليلة. قالت إنَّها مستعدة لأنَّ تحلَّ مكاني طوال يوم السبت، وإنَّ بإمكانني أن أغادر عند الساعة الحادية عشرة، وهذا يعني نوبة عمل مزدوجة. بدأت أفكِّر كيف يمكنني أن أفعل ذلك الوقت يوم السبت. تذكَّرت أنَّ إديسون في حاجة إلى معطف شتويٍّ جديد هذه السنة - ففي أثناء الصيف ازداد طوله أربع بوصات، ويمكننا أن نتناول الغداء معاً بعد ذلك، وقد نذهب إلى السينما لنشاهد فيلماً أنا وإديسون. في الآونة الأخيرة، بدأت أدرك أنَّني سأبقى وحيدة عندما يذهب إلى الجامعة.

«يريدون أن أذهب لأعمل هذه الليلة».

«من، النازيون؟»

«لا، ممرضة، زميلتي متوعدة».

فقالت أديسا: «ممرضة بيضاء أخرى».

لم أرددَّ عليها.

أسندت أديسا ظهرها إلى الكرسي، وقالت: «يبدو لي أنَّهم ليسوا في وضع يجعلهم يطلبون إليك معروفاً».

أوشكتُ أن أدافع عن لوسيل التي لا علاقة لها بقرار ماري، عندما قاطعتنا مقلّمة الأظافر، وأخذت تتفحص أصابعنا لتعرف إن كان الطلاء قد جفَّ، وقالت: «حسناً. كلَّ شيء على ما يرام».

هزّت أديسا أصابعها، ظلال صادمة من اللون الوردِيّ الفاقع، وقالت بصوت منخفض: «لماذا نأتي دائماً إلى هذا الصالون. إنِّي أكرهه. إنَّهم لا ينظرون في عيني مباشرة، ولا يضعون باقي النقود في يدي. يبدو أنَّهم يظنُّون أنَّ بشرتي السوداء ستنتقل بالعدوى إليهم».

فقلت لها: «إنَّهنَّ من كوريا. هل خطر لك يوماً أنَّهنَّ، بحسب ثقافتهنَّ، يفعلن ذلك من باب التهذيب».

رفعت أديسا حاجبيها، وقالت: «حسناً يا روث. إنَّك لا تتوقَّفين عن القول لنفسك إنَّ كلَّ ذلك لا علاقة له بك».

بعد عشر دقائق من قبولي الذهاب لأحلَّ مكان زميلتي، ندمت لأنَّني وافقت. إذ هبَّت عاصفة قويَّة لم يتوقَّع خبراء الأرصاد الجوية حدوثها، وانخفض الضغط الجويّ إلى درجة كبيرة - الأمر الذي يوَدِّي إلى تمزُّق الأغشية في وقت مبكر للنساء اللاتي يأتيهنَّ مخاض مبكر، والمريضات اللاتي يتلوَّينَ من الألم في ردهات المستشفى لعدم وجود أماكن كافية لهنَّ. رحلت أجري مثل دجاجة مقطوعة الرأس، وكان ذلك شيئاً جيداً لأنَّه ألْهاني عن التفكير في تورك وبريتاني باور وطفلهما.

لكنَّ ذلك لم يمنعني من ألا ألقى نظرة على الجدول عندما وصلت، لأنَّني أردت أن أتأكد من أنَّ أحداً - أبيض البشرة - قد طلب أن يرى طبيب قلب الأطفال الطفل قبل أن يخرج من المستشفى. نعم، كان مدوَّناً في الجدول، بالإضافة إلى إجراء سحب دم من قدم الطفل بعد ظهر يوم الجمعة للتأكد من حالة المولود، ثمَّ سمعت صوتاً يناديني، ووجدت نفسي قد جُذبت فجأة إلى فلك امرأة في مرحلة المخاض، نُقلت تَوّاً من قسم

الطوارئ. بدا شريكها خائفاً، إذ كان من ذلك النوع من الرجال الذين اعتادوا إصلاح أشياء، لكنّه أدرك فجأة أنّه لا يستطيع أن يصلح ذلك. «أنا روث»، قلت للمرأة التي بدت أنّها تضغط على نفسها عند كلّ انقباضة تعترّبها، «سأكون معك هنا طوال الوقت».

كانت إليزا، هذا اسمها، يأتيها انقباض كلّ أربع دقائق، كما أخبرني زوجها جورج. هذا أول حمل لها. وضعت مريضتي في آخر غرفة ولادة متوافرة لدينا، وأخذت عينّة من البول، ثمّ أوصلتها إلى جهاز المراقبة، وقرأت السجّل المطبوع، ثمّ بدأت أسألها: ما شدّة الانقباضات التي تشعرين بها؟ وأين تشعرين بها - من الأمام أم من الخلف؟ وهل يتسرّب منك أيّ سائل؟ هل تنزفين؟ كيف يتحرّك الطفل؟

«إذا كنتِ مستعدّة يا إليزا، فإنّي سأفحص عنق الرحم»، قلت لها وارتديت قفّازين، وتحركت إلى أسفل السرير، ولمست ركبته.

لمح تعبير في وجهها، فتوقّفت قليلاً.

تفعل معظم النساء اللاتي يأتيهنّ الطلق أيّ شيء كي يخرج ذلك الطفل. نعم، هناك شعور بالخوف من الولادة، لكنّه يختلف عن الخوف من أن يُلمسنَ، وهذا ما قرأته في وجه إليزا.

عشرات الأسئلة تسابقت إلى طرف لساني. كانت إليزا قد غيرت ثيابها في الحمام بمساعدة زوجها، فلم أرَ إن كانت هناك كدمات يمكن أن تشير إلى وجود علاقة عنيفة. نظرت إلى جورج. بدا مثل أيّ رجل سيصبح أباً - متوترًا، قلقاً - وليس كرجل تنتابه ثورات غضب خارجة عن سيطرته.

تذكّرت أنّ تورك باور كان يبدو طبيعيّاً جدّاً حتّى شمّر عن ساعده.

هزرت رأسي لأبعد ذلك عن تفكيري. التفتُّ إلى جورج وابتسمت ابتسامة متكلفة فوق غرائزي، وقلت: «هل يمكنك أن تذهب إلى المطبخ الصغير وتجلب رقائق ثلج لإليزا لأنّها ستساعدها كثيراً».

مع أن هذه مهمة الممرضة - بدا الارتياح على وجه جورج لأنني طلبت إليه ذلك - لَمَّا خرج من الغرفة، التفتُّ إلى إليزا، وسألتهَا، وأنا أنظر في عينيها: «هل كلُّ شيء على ما يرام؟ هل هناك شيء تريدين أن تقوليهِ لي لا تستطيعين أن تقوليهِ في وجود جورج في الغرفة؟».

هزَّت رأسها، ثمَّ أجهشت إلى البكاء.

خلعتُ قفَّازي - بإمكان فحص عنق الرحم أن ينتظر قليلاً - ومددت يدي إلى يدها، وقلت لها: «إليزا، يمكنك أن تحدِّثيني».

قالت وهي تبكي: «حبلتُ لأنني اغتُصبت، وجورج لا يعرف ذلك. إنَّه سعيد جداً بالطفل... لم أستطع أن أخبره أنَّه قد لا يكون طفله».

خرجت هذه القصة، همساً، في منتصف الليل، عندما ذهب جورج إلى الكافتيريا. الطلق بهذه الطريقة محمَّز يزيد العلاقات قوَّة. ومع أنَّني غريبة عن إليزا، فقد صبَّت روحها فيَّ، كما لو أنَّها سقطت من فوق سطح سفينة في البحر، وأنا الشخص الوحيد الذي رآها في الأفق. كانت في رحلة عمل، تحتفل بإنهاء صفقة مع زبون مهمِّ مراوغ، ثمَّ دعاها الزبون إلى العشاء مع أشخاص آخرين، وقدَّم لها شراباً، وكان الشيء التالي الذي تتذكره إليزا هو أنَّها استيقظت ووجدت نفسها في غرفته في الفندق، تتألَّم في كلِّ أنحاء جسمها.

لَمَّا أنهت حديثها، جلسنا وتركنا الكلمات هي التي تتحدَّث. «لم أستطع أن أخبر جورج»، قالت إليزا، يداها فوق ملاءات السرير الخشنة، «لو ذهبت واشتريت إلى رئيسي، صدَّقيني إنَّه لن يجازف في أن يخسر هذه الصفقة لمجرد شيء حدث لي. وكان أفضل خيار أنني سأحصل على تعويضات نهاية الخدمة كي أبقى فمي مغلقاً».

«حتَّى لا يعرف أحد».

«إنَّك تعرفين»، قالت إليزا، ونظرت إليَّ، وأضافت، «ماذا لو أنني لم أستطع أن أحبَّ الطفل؟ ماذا لو أنني كلَّمنا نظرتُ إليه، تذكَّرت ما حدث؟»

فقلت لها: «رَبِّمَا يَجِبُ أَنْ تَجْرِيِ اِخْتِبَارِ اَلْحَمِضِ اَلنُّوَوِي (DNA)».

«ثُمَّ مَاذَا؟»

قلت: «سَتَتَأْكَدِينَ».

هَزَّتْ رَأْسَهَا، وَقَالَتْ: «ثُمَّ مَاذَا؟»

يا له من سؤال جيد، شعرت أنه تغلغل إلى أعماقي. هل من الأفضل عدم معرفة الحقيقة القبيحة والتظاهر بأنها غير موجودة، أو من الأفضل مواجهتها مع أن تلك المعرفة قد تصبح عبئاً تحمليه على كاهلك طوال عمرك؟

أوشكت أن أعطيها رأيي عندما شعرت بانقباض آخر، فأصبحنا كلتانا فجأة في خندق واحد، نكافح لأجل الحياة.

بعد ثلاث ساعات، دفعت إليزا ابنتها إلى العالم. بدأت إليزا تبكي كما تفعل كثير من الأمهات الجديديات، لكنني أعرف تماماً أنها لم تكن تبكي للأسباب عينها. لَمَّا سَلَّمْتَنِي طبيبة التوليد المولودة، رحْتُ أَحَدَقُّ إِلَى اَلْمَحِيْطِ اَلْغَاْضِبِ فِي عَيْنَيْهَا. لَا يَهْمُ كَيْفَ حَمَلْتِ بِهَا، اَلْمَهْمُ أَنَّهَا خَرَجَتْ إِلَى هَذَا اَلْعَالَمِ.

«إليزا»، قلت، وأنا أضعها على صدرها، «ها هي ذي ابنتك».

حَتَّى لَمَّا مَدَّ جُورْجُ يَدَهُ مِنْ فَوْقِ كَتْفِ زَوْجَتِهِ لِيَلْمَسَ فِخْذَ اَلْمَوْلُودَةِ اَلْمَلْطَّخِ، لَمْ تَنْظُرْ إِيْلَازَا إِلَى اَلطِّفْلَةِ. رَفَعْتُ اَلطِّفْلَةَ إِلَى اَلْأَعْلَى، وَقَرَّبْتُهَا مِنْ وَجْهِ إِيْلَازَا، وَقَلْتُ بِحَزْمٍ أَشَدَّ: «إِليزا. ابنتك».

وَجَّهْتُ نَظْرَتَهَا نَحْوِ اَلطِّفْلَةِ اَلَّتِي أَحْمَلُهَا. هَلْ رَأَتْ مَا أَرَاهُ: عَيْنَا زَوْجِهَا اَلزَّرْقَاوَانِ. شَكَلَ اَلْأَنْفُ نَفْسَهُ. الشَّقُّ الَّذِي يَشْبَهُ الشَّقَّ فِي ذِقْنِهِ. رَبِّمَا كَانَتْ هَذِهِ اَلطِّفْلَةُ نَسْخَةٌ مِصْغَرَةٌ مِنْ جُورْجِ. تَلَاشِي كُلَّ اَلتَشْتِجِّ مِنْ كَتْفِي إِيْلَازَا. قَرَّبْتُ ذِرَاعَيْهَا مِنْ طِفْلَتِهَا وَضَمَّمْتُ إِلَيْهَا بِقُوَّةٍ، وَلَمْ يَعْذِ هُنَاكَ مَكَانٌ إِلَّا لـ«مَاذَا لَوْ؟»، وَهَمَسْتُ فِي أذْنِهَا: «أَهْلًا حَبِيبَتِي».

ستصنع هذه الأسرة واقعها الخاص.

أتمنى لو كان الأمر بهذه السهولة لنا جميعاً.

عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، بدا أن كل نساء نيو هافن قد جئن إلى المستشفى ليلدن. رحلت أركض ذهاباً وإياباً بين ثلاث مريضات ولدن توأ، ودعوت ربي ألا تأتي امرأة أخرى وهي في حالة طلق نشط قبل أن أغادر المستشفى في الساعة الحادية عشرة. وبالإضافة إلى توليد إيزا، كانت لدي مريضتان أخريان الليلة الماضية - كان بإمكان إحدهما أن تلد الطفل وحدها، وقد فعلت ذلك تقريباً - وأجريت للأخرى عملية قيصرية، ويوجد وليدها حالياً في وحدة العناية الفائقة لأنه وُلد في الأسبوع السابع والعشرين.

لما وصلت كورين عند الساعة السابعة، كنت لا أزال في غرفة العمليات مع مريضة تلد ولادة قيصرية طارئة، ولم تر إحداً الأخرى إلا عند الساعة التاسعة صباحاً عندما كنت في حجرة الأطفال. «سمعت أنك ولدت طفلين»، قالت وهي تدفع عربة مولود إلى الغرفة. «ماذا تفعلين هنا؟»

يوضع الأطفال حديثو الولادة في غرفة الحضانة كي تمضي أمهاتهم ليلة هانئة من النوم قبل إعادتهم إلى غرف أمهاتهم لمدة أسبوع، لكن الغرفة أصبحت تُستخدم حالياً لتخزين بعض المواد والقيام بأعمال روتينية كالختان، التي لا يريد أي من الوالدين رؤيتها. قلت لكورين إنني أختبئ هنا، وأخرجت من جيبي لوح شوكولا غرانولا والتهمته في لقمتين.

ضحكت وقالت: «ماذا يجري هنا اليوم بحق السماء، ألم أرسل الدعوة لحضور نهاية العالم أو شيئاً من هذا القبيل؟»

«حدّثيني عنه»، قلت لها، ونظرت إلى الرضيع للمرة الأولى. سرت في جسدي قشعريرة عندما قرأت على البطاقة المعلقة على السرير إنه طفل باور، حتى من دون أن أقصد، رجعت خطوة إلى الوراء.

سألته: «كيف حاله الآن؟ هل بدأ يأكل على نحو أفضل؟»

فأجابت كورين: «نسبة السكر لديه عالية، لكنّه لا يزال بليداً، ثقيل الحركة، لم يرضع منذ ساعتين لأنّ الدكتوراة أتكينز ستفحصه».

لا بدّ أنّ كورين كانت قد استدعت طبيبة الأطفال الدكتوراة أتكينز التي جاءت إلى الغرفة. قالت: «كلّ شيء على ما يرام»، وهي تنظر إلى سرير الطفل، «حان الوقت ليبدأ مفعول التخدير، وقد تكلمت مع الوالدين منذ قليل. روث، هل أعطيتِ الطفل السويّتي؟»

السويّتي ماء محلّى بالسكر، يُفرك على لثة الطفل لتهدئته. كنت سأعطي الطفل سويّتي قبل الاختبار لو كنتُ الممرضة المشرفة عليه. قلت لها بحزم: «لم أعد أشرف على هذا المريض».

رفعت الدكتوراة أتكينز حاجبيها، وفتحت ملفّ المريض. رأت الملاحظة الملصقة على الملفّ، وبينما راحت تقرؤها، ساد صمت غير مريح امتصّ كلّ الهواء الذي يملأ الغرفة.

تحنّحت كورين، وقالت: «لقد أعطيته السويّتي منذ خمس دقائق تقريباً». فقالت الدكتوراة أتكينز: «عظيم. لنبدأ إذاً».

وقفت للحظة أراقب كورين وهي تزيل اللفافات عن الطفل وتجهّزه لهذا الإجراء الروتيني. التفتت الدكتوراة أتكينز إليّ. كان ثمة تعاطف في عينيها، وكان هذا آخر شيء أريد أن أراه. فأنا لست في حاجة إلى الشفقة بسبب قرار غيبي اتّخذته ماري. لست في حاجة إلى الشفقة بسبب لون بشرتي.

فقلت مازحة: «ربّما، بينما تفعلين ذلك، يمكنك أن تعظّمي».

هناك أشياء قليلة مرعبة في عمليات الولادة القيصرية الطارئة. إذ يصبح الهواء مشحوناً ويسود التوتر عندما يقول الطبيب ذلك، وتصبح الأحاديث سريعة وحيوية: هل أجريت حقنة في الوريد؟ هل يمكنك أن تجهّزي السرير؟ لتسجّل إحداكّنّ الوضع. تخبرين المريضة أن هناك شيئاً

على غير ما يرام، ويجب أن نتحرك بسرعة، ويُرسَل نداء من الطبيب في المستشفى إلى أي شخص في الفريق موجود خارج المبنى، وتنقلين أنتِ والممرضة المسؤولة المريضة إلى غرفة العمليات. وبينما تُخرج الممرضة المسؤولة الأدوات من كيسها الورقي المعقم وتشغّل معدات التخدير، تضعين المريضة على الطاولة، وتجهزين البطن والأغصية. وما إن يدخل الطبيب وطبيب التخدير الغرفة، يتم الشقُّ ويُخرج الوليد. تستغرق كل هذه العملية أقل من عشرين دقيقة. وفي المستشفيات الكبيرة، مثل ميل - نيو هافن، تستغرق سبع دقائق.

بعد مضيّ عشرين دقيقة على ختان ديفيس باور، اندلقت ماء الرأس لدى إحدى مريضات كورين. عقدة من الحبل السريّ كانت ملتفة بين ساقها، وطلبت كورين أن تذهب على الفور. حالة طوارئ. «راقبي الطفل عني»، قالت، واندفعت إلى غرفة المريضة. بعد لحظة، رأيت ماري تدفع سرير المريضة في اتجاه المصعد، وقد جثمت كورين على السرير بين ساقَي المريضة، يدها المكسوة بالقفاز في الظلّ، تحاول إبقاء الحبل السريّ في الداخل.

راقبي الطفل عني تعني أنّها تريدني أن أراقب ديفيس باور. يتطلّب البروتوكول أن يُفحص الطفل المختون روتينياً للتأكد من أنه لا يوجد لديه نزيف. وبانهماك ماري وكورين في تلك العملية القيصرية الطارئة، لم يبق أحد آخر يشرف على الطفل غيري.

دخلتُ غرفة الحضانة حيث كان ديفيس نائماً من صدمة الصباح.

قلت لنفسي، سأبقى هنا عشرين دقيقة حتى تعود كورين أو ماري.

شبكتُ ذراعِي ورحت أحدق إلى المولود الجديد. الأطفال لوح فارغ، لا يأتون إلى هذا العالم وهم يحملون المسلّمات والافتراضات التي تكوّنت لدى آبائهم، أو الوعود التي ستقدّمها إليهم كنيستهم، أو لديهم القدرة على تصنيف الناس وتقسيمهم إلى مجموعات يحبونها ويكرهونها. إنهم

يأتون إلى هذا العالم وهم لا يحملون شيئاً على الإطلاق، ماعدا حاجتهم إلى الراحة التي سيمنحها لهم أي شخص مهما كان.

تساءلت كم يستغرق الطلاب الذي تمنحنا إيّاه الطبيعة حتى يزول بوساطة التنشئة والتربية.

لمّا نظرت إلى السرير مرّة أخرى، لاحظت أنّ ديفيس باور قد توقّف عن التنفّس. انحنيت فوقه وتأكدت من أنّي لم أعد أرى صدره الصغير يصعد ويهبط، ومن الزاوية التي أقف فيها، لاحظت وجود بقع زرق على بشرته.

اقتربت منه على الفور، ووضعت السماعة الطبيّة على قلبه، ورحت أنقر عقبيه، وأزلت بطانية التكميط. يتعرّض كثير من الأطفال لانقطاع تنفّسهم في أثناء النوم، لكن إذا حرّكتهم قليلاً، وغيّرت وضعيّة استلقائهم من الظهر إلى البطن أو إلى أحد الجانبين، يعود التنفّس تلقائياً.

ثمّ تذكّرت: لا يسمح لأيّ شخص أمريكيّ من أصل أفريقيّ أن يقوم برعاية هذا المريض.

نظرتُ من فوق كتفي إلى باب غرفة الحضانة، وعدّلت زاوية جسدي كي يرى، إذا دخل أحدهم، ظهري فقط، ولا يرى ما أفعله.

هل تحفيز الطفل مثل إنعاشه؟ هل لمس الطفل من الناحية الفنيّة يعني العناية به؟

هل يمكن أن أخسر عملي لهذا السبب؟

هل ما أفعله شيء مهمّ؟

هل يهمّ إذا بدأ هذا الطفل يتنفس مرّة أخرى؟

تحوّلت أفكارني بسرعة إلى إعصار: لا بدّ أنّ تنفّسه قد توقّف، فلا يتعرّض الأطفال من حديثي الولادة لإصابات قلبيةّة. فقد لا يتنفس الطفل

من ثلاث إلى أربع دقائق، لكنَّ معدَّل ضربات قلبه يظلُّ 100، لأنَّ معدَّل ضربات قلبه الطبيعيّ هو 150... وهذا يعني أنّه حتّى لو لم يصل الدم إلى الدماغ، فإنه يروي بقية الجسم، وعندما يُزود الطفل بالأوكسجين، سيرتفع معدَّل ضربات القلب. لذلك، فإنَّ الضغط على صدر الرضيع أقلُّ أهميّة من التنفّس بالنسبة إليهم، وهذا عكس طريقة رعاية مريض بالغ.

لكن، حتّى لَمَّا وضعت شكوي جانباً، وجربت كلّ السبل التي يتطلبها التفاعل الطبيّ، لم يعد تنفّسه. جرت العادة أن أضع جهاز قياس النبض لأراقب الأكسجين ومعدَّل ضربات القلب. يجب أن أجد قناع أكسجين، أن أجري مكالمات.

ما الذي يُفترض بي أن أفعله؟

ما الذي لا يُفترض بي أن أفعله؟

في أيّ لحظة الآن يمكن أن تدخل كورين أو ماري غرفة الحضانة.

سترياني أندخل في رعاية هذا الرضيع، وماذا بعد ذلك؟

بدأ العرق يسيل من عمودي الفقريّ، ولففت الطفل بسرعة في البطانية مرّة أخرى، ورحت أحدقّ إلى جسده الصغير، وسمعت دقّات قلبي في أذني، بندول إيقاع الفشل.

لست متأكّدة إن كانت قد مرّت ثلاث دقائق، أو ثلاثون ثانية فقط عندما سمعت صوت ماري خلفي. قالت: «روث، ماذا تفعلين؟».

أجبت، وشعرت أنّني أصبت بالشلل: «لا شيء. لم أفعل شيئاً».

لَمَّا نظرت من فوق كتفي، رأيت بشرة خدّ الطفل الزرقاء، والتقت عينها بعينيّ للحظة. «أحضري لي جهاز التنفّس»، قالت لي ماري، وأزالت اللفافة عن الطفل، وراحت تنقر على قدميه الصغيرتين، وقلبتة على بطنه.

إنّها تفعل تماماً ما كنت قد فعلته.

وضعت ماري قناع التنفّس على أنف وفم ديفيس، وراحت تضغط على الكيس،
فانتفخت رثناه. «اتصلي بالرمز...»

نفّذت ما طلبته مّتي، واتصلت بالرقم 1500، هاتف الحضانة، وقلت: «الرمز أزرق
في حضانة الأطفال حديثي الولادة»، وتخيّلت أنّ أعضاء الفريق سيتركون أعمالهم
المعتادة في المستشفى - طبيب التخدير، ممرضة العناية المركّزة، ممرضة التسجيل،
ومساعدة ممرضة من طابق مختلف، والدكتورة أتكينز، طبيبة الأطفال التي رأت
الطفل منذ بض دقائق - ويهرعون بسرعة.

قالت لي ماري: «ابدئي بالضغط».

لم أتردّد هذه المرّة، ورحت أضغط على صدر الطفل بإصبعين، مّتي ضغطة في
الدقيقة. ولمّا وصلت عربة الإنعاش إلى غرفة الحضانة، مددت يدي الأخرى إلى أسلاك
التوصيل وألصقت الأقطاب الكهربائيّة على الطفل لنرى نتائج جهوديّ على جهاز
مراقبة القلب. فجأة، اكتنّطت غرفة الحضانة الصغيرة بالأشخاص، يتنافسون للحصول
على مكان أمام مريض لا يزيد طوله على تسع بوصات. «أحاول وضع أنبوب التنفّس
هنا». صاح طبيب التخدير في ممرضة وحدة العناية المركّزة التي كانت تحاول أن تجد
وريداً في فروة رأس الطفل.

فقال تجادله: «لم أجد الخطّ المرفقيّ».

قال طبيب التخدير: «هنا»، وتنحّى الطبيب جانباً ليفسح للممرضة مكاناً لترى
منه على نحو أفضل. راحت تضغط، وأنا أضغط بأصابعي بقوة، على أمل أن يبرز وريد
- أي وريد - بوضوح.

كان طبيب التخدير يحدّق إلى الشاشة، ثمّ قال: «توقّفي عن الضغط»، فرفعت
يديّ كما لو أنّه قبض عليّ متلبّسة في جريمة.

نظرنا جميعنا إلى الشاشة، لكنّ إيقاع نبضات الطفل كان 80. قال
الطبيب: «الضغط غير مجدٍ»، فبدأت أضغط بقوة أكثر على القفص
الصدريّ. ظهر خيط رفيع. لا توجد عضلات بطنية تحمي الأعضاء

الموجودة تحت هذا البطن الصغير. إذا ضغطت بقوة أكبر أو ابتعدت قليلاً عن المركز فقد أمزق كبد الطفل الرضيع.

«بدأ لون الطفل يصبح وردياً»، سألت ماري: «هل لا يزال الأكسجين يعمل؟»، وسأل طبيب التخدير: «هل يستطيع أحد أن يُحضر غازات الدم؟». اختلط سؤاله بسؤالها فوق جسم الطفل.

مدت ممرضة العناية المركزة يدها إلى فخذ الطفل لتتأكد من وجود نبض، محاولة أن تغرز الشريان الفخذي لتأخذ عينة من الدم لتعرف إن كان دم الطفل حامضياً. جرى أحد أفراد الفريق إلى المختبر يحمل بيده قارورة. لكن، عندما نحصل على النتيجة بعد نصف ساعة، لن يكون ذلك مهماً لأنَّ الطفل سيكون قد تنفَّس. أو أنه لن يعود يتنفس.

«اللعنة، لماذا لم نجد خطأً بعد؟»

«إذا أردت أن تحاولي، تفضلي»، قالت ممرضة وحدة العناية المركزة.

«أوقفي الضغط»، طلب إليَّ طبيب التخدير، فتوقفت. كان معدّل ضربات القلب على الشاشة 90.

«أعطني قليلاً من الأتروبين». أعطيت حقنة للطبيب الذي بدأ يضخّ الدواء في الأنبوب في رئتي الطفل، ثمّ واصل دفع الأوكسجين والأتروبين عبر الشعب الهوائية والأغشية المخاطية.

في أثناء أزمة كهذه، يصبح الوقت لزجاً، تسبح فيه ببطء شديد، لا يمكنك أن تعرف إن كنت تعيش أم تستعيد كل لحظة فظيعة. يمكنك أن ترى يديك تعملان كما لو أنهما لا تنتميان إليك. تسمع أصواتاً تتسلق سلم الذعر، وتصبح كلُّها نغمة واحدة تصم الآذان، ونشازاً.

«ماذا عن إدخال القنبية في السرة؟»، سألت ممرضة وحدة العناية المركزة.

فردت ماري: «لقد مضى زمن طويل على الولادة».

بدأت الأمور تنحدر بسرعة. غريزياً، بدأت أضغط بقوة أكبر.

«إنك تضغطين بعدوانية شديدة»، قال لي طبيب التخدير، «خففي الضغط».

لكنّ صراخاً كسر إيقاعي. فقد دخلت بريتاني باور الغرفة وهي تولول. أوقفتها ممرضة التسجيل عندما حاولت أن تقترب من الطفل بقوة، وراح زوجها المذهول الذي لم يتحرّك يحدّق إلى أصابعي وأنا أضغط على صدر ابنه.

«ماذا يحدث له؟»، صرخت بريتاني.

لا أعرف من سمح لهم بالدخول إلى هنا، لكن لم يكن هناك أحد يمكنه إخراجهم، فقد كان جميع العاملين في جناح المخاض والتوليد منهكين، ولم يكن هناك عدد كاف من الممرضات منذ الليلة الماضية. كانت كورين لا تزال في غرفة العمليات في قسم الولادة القيصرية، وماري معي هنا. ربّما سمع السيد والسيدة باور نداءات الطوارئ، ولا بدّ أنّهما شاهدا الممرضات والأطباء يهرعون نحو غرفة الحضانة حيث يفترض أنّ مولودهما الجديد يغطّ في النوم بعد التخدير.

كنت سأركض إلى هناك أنا أيضاً.

فُتح الباب بقوة، واندفعت طبيبة الأطفال، الدكتورة أتكينز، بسرعة إلى رأس سرير الطفل، وسألت: «ما الذي يجري هنا».

لم يجب أحد، وأدركت أنّي أنا التي يُفترض بها أن تجيب.

«كنت هنا مع الطفل»، قلت لها، كلماتي تتناغم مع الضغوطات التي لم أتوقّف عنها، «أصبح شاحباً جداً، وتوقّف تنفّسه. أنعشناه، لكن لم يكن هناك شهيق أو نفس عفويّ، فبدأنا الإنعاش القلبيّ الرئويّ».

«منذ متى وأنت في هذه الحالة؟»، سألت الدكتورة أتكينز.

«خمس عشرة دقيقة».

«حسناً يا روث، من فضلك توقّفي للحظة...» ونظرت الدكتورة أتكينز إلى شاشة القلب. وصل معدل ضربات القلب الآن إلى 40.

«شاهدة قبر»، دمدت ماري.

نستخدم هذا المصطلح عندما نرى مرگبات واسعة في مخطط القلب - حيث يستجيب الجانب الأيمن من القلب ببطء شديد قياساً إلى الجانب الأيسر من القلب. لم يكن هناك أي نتاج قلبي.
لا أمل.

بعد بضع ثوان، توقفت ضربات القلب تماماً. «لقد انتهى»، قالت الدكتورة أتكينز. أخذت نفساً عميقاً - ليس هذا أمراً سهلاً على الإطلاق، لكن يصبح أسوأ عندما يكون الطفل حديث الولادة - ثم سحبت الأنابيب وألقت بها في سلة المهملات، ثم قالت: «الوقت».

نظرنا جميعاً إلى الساعة على الحائط.

«لا»، صاحت بريتاني وهي تلهث، وسقطت على ركبتها، «أرجوك لا تتوقفني.
أرجوك لا تستسلمي».

فقال طبيبة الأطفال: «أنا أسفة جداً يا سيّدة باور، لكن لا يوجد شيء يمكننا فعله لأجل ابنك. لقد رحل».

أقلت تورك يده من يد زوجته وأخرج الأسلاك من سلة المهملات، ودفع طبيب التخدير عن طريقه، وراح يحاول أن يلصقها مرة أخرى بأنبوب تنفس ديفيس، وقال له متوسلاً، «أرني كيف. سأتولى الأمر بنفسي. يجب ألا تتوقف».
«أرجوك...».

«يمكنني جعله يتنفس. أعرف أنني أستطيع...»

وضعت الدكتورة أتكينز يدها على كتفه، فانهار تورك على نفسه في انفجار داخلي من الحزن. «لا توجد وسيلة تستطيع أن تعيد من خلالها ديفيس»، قالت له، فغطى وجهه بيده وأجهش إلى البكاء.

«الوقت»، كرّرت الدكتورة أتكينز.

جزء من بروتوكول الموت هو أنّ جميع من في الغرفة يوافق على لحظة حدوثه. «حسناً»، قالت ماري، ودمدما جميعنا، بصوت حزين: نوافق. خطوتُ إلى الورا، ورحتُ أحدقُ إلى يدي. كانت أصابعي متشنجة من عمليّة الضغط. قلبي يوجعني.

قاست ماري درجة حرارة الطفل: 95 بارد. كان تورك يقف الآن ثابتاً لا يأتي بأيّ حركة إلى جانب زوجته، يساعدها كي تقف على قدميها. وجهها شاحبان، خدران لا يصدّقان ما يريانه. بدأت الدكتورة أتكينز تكلمهما بهدوء، محاولة أن تشرح لهما المستحيل.

في هذه اللحظة، عادت كورين ودخلت غرفة الحضانة. «روث، ماذا حدث بحقّ الجحيم».

لقت ماري البطانية حول ديفيس بإحكام، ووضعت القبعة الصغيرة على رأسه. الدليل الوحيد على الصدمة التي عانى منها هو أنبوب صغير، مثل قشّة صغيرة، يخرج من فمه المزموم. حملت الطفل بين ذراعيها، كما لو أنّ الحنان لا يزال مهمماً. وأعطته لأمه.

«أنا آسفة»، قلت لكورين، في حين كنت أقصد ربّما «سامحيني». سرت إلى جانبها وتحاشيت السير إلى جانب والدين الحزينين والطفل الميت، ولم أكد أصل إلى الحّمّام حتّى اعتراني شعور بدوار شديد. ضغطتُ جبهتي على الحافة الخرفيّة الباردة لحوض الماء في دورة المياه وأغمضت عينيّ. حتّى تلك اللحظة، كنت لا أزال أشعر بها: ملمس القفص الصدريّ تحت أصابعي، وصوت تدفّق دمه في أذني، والحقيقة المرّة على لساني: لو لم أتردّد، لرّبما ظلّ هذا الطفل في قيد الحياة.

في أحد الأيام، كانت لديّ مريضة، فتاة مراهقة ولد طفلها ميتاً بسبب انفصال المشيمة من الدرجة الثالثة. إذ انفصلت المشيمة عن بطانة الرحم، ولم يعد الطفل يحصل على الأوكسجين. كانت شدة النزف تعني أننا سنفقد الأم والوليد معاً. أُرسل الوليد إلى مشرحة المستشفى لإجراء عملية التشريح - إجراء روتيني في ولاية كونيتيكت إذا توفي طفل حديث الولادة. وبعد اثنتي عشرة ساعة، وصلت جدّة الفتاة من ولاية أوهايو التي أرادت أن تحتضن حفيدها لمرة واحدة فقط.

نزلتُ إلى المشرحة التي يُحفظ فيها الرضع الذين ماتوا في ثلاجة عادية من طراز «أمانا»، مكّسين فوق الرفوف في أكياس جث صغيرة. سحبُ الطفل وأخرجته من الكيس، وتمّعت لدقيقة في ملامحه الصغيرة الجميلة. بدا كأنه دمية. بدا كأنه نائم.

لم أمكّن من أن أعطي هذه المرأة طفلاً بارداً، فعدتُ ولففته وذهبت إلى غرفة الطوارئ لأجلب بعض البطانيات الساخنة. ولما عدت إلى المشرحة، قمّطتُ الطفل بها، الواحدة تلو الأخرى، في محاولة لأن أزيل البرودة من جسمه. وأخذت إحدى القبّعات المحبوكة التي نلبسها عادة للأطفال حديثي الولادة لتغطية أعلى رأسه.

السياسة المعمول بها هنا في المستشفى أنّه إذا مات مولود جديد: فإننا لا نبعده عن أمّه. وإذا أرادت تلك المرأة الحزينة أن تضمّ وليدها لمدة أربع وعشرين ساعة، وتنام معه وهو فوق قلبها، وتمشّطه وتحمّمه، وتمضي كلّ اللحظات مع طفلها الذي لن تراه بعد ذلك أبداً، فإننا نتيح لها هذه الفرصة، وننتظر حتّى تصبح الأمّ مستعدة لأن تترك وليدها ونأخذها منها.

حملت تلك الجدّة حفيد ابنتها طوال فترة ما بعد الظهر. ثمّ أعادت الرضيع إلى ذراعيّ. وضعت منشفة على كتفي، كما لو كنتُ أرضعه، وصعدت في المصعد، وهبطت به إلى الطابق السفليّ حيث المشرحة.

رَجْمًا يَخِيلُ إِلَيْكَ أَنْ أَقْسَى جِزْءٍ فِي تَجْرِبَةٍ كَهَذِهِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَعْطِيكَ فِيهَا الْأُمَّ طِفْلَهَا، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ. لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ حَتَّى تَلِكَ اللَّحْظَةَ طِفْلَهَا. أَمَّا أَصْعَبُ لِحْظَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا فَهِيَ عِنْدَمَا نَخْلَعُ الْقَبْعَةَ الصَّغِيرَةَ الْمَحْبُوكَةَ وَالْبَطَانِيَةَ وَالْحَفَاضَاتِ عَنْهُ، وَنَضَعُهُ فِي كَيْسِ الْجِثْثِ وَنَغْلِقُهُ، ثُمَّ نَخْلُقُ بَابَ الثَّلَاجَةِ.

بعد ساعة، عدتُ إلى غرفة الممرّضات لأخذ معطفي من الخزانة، عندما مدّت ماري رأسها من الباب، وقالت: «من الجيّد أنك لا تزالين هنا. هل لديك دقيقة؟»
أومأت برأسي وأنا جالسة قبالتها إلى الطاولة. كان أحدهم قد وضع حفنة من قطع الحلوى. أخذت قطعة منها وأزلت عنها غلافها وتركتها تنزف في لساني، مع أمل أن تجعلني ألا أقول ما لا ينبغي قوله.
«يا له من صباح!»، تنهّدت ماري.

أجبتها: «يا لها من ليلة!».
«صحيح، فقد عملت في نوبتين»، قالت وهزّت رأسها، «تلك الأسرة المسكينة».
«ما حدث شيء فظيع. قد لا أنفق مع معتقداتهما، لكن هذا لا يعني أنني أرى أنّهما يستحقّان أن يفقدا طفلاً».

«كان علينا أن نعطي الأمّ مخدرًا»، قالت لي ماري، «وأنزل الطفل إلى الطابق الأرضي».

بحكمة منها، لم تذكر لي الأب.
وضعت ماري استمارة على الطاولة، وقالت: «إنّه مجرّد بروتوكول. أريد أن تكتبي كلّ ما حدث على نحو رسمي عندما توقّف تنفّس ديفيس باور. فقد كنت في غرفة الحضانة».

فأجبتها: «كنت أحلّ مكان كورين». كان صوتي ثابتاً، رقيقاً، مع أنّ كلّ كلمة تبدو خطرة مثل شفرة في حلقي، «استدعيت إلى غرفة العمليّات فجأة».

لم يكن بالإمكان ترك الطفل باور وحده من دون رقابة. لَمَّا كانت في قسم الولادة القيصريّة أيضاً، كنت الوحيدة المتاحة لأشرف على الطفل.»

كان قلم ماري يخدش على الاستمارة. سألتني: «متى لاحظتِ أنّ الرضيع توقّف عن التنفّس؟»

لفتت لساني حول قطعة الحلوى، ودفعته إلى أعلى خدّي، وقلت: «قبل أن تصلي بلحظة.»

بدأت ماري تتكلّم، ثمّ عصّت شفتها. نقرت على القلم مرتين، ثمّ أنزلته بنقرة نهائيّة، وكرّرت «لحظة» كما لو أنّها تزن نطاق وحجم هذه الكلمة. «روث... لَمَّا دخلت، كنت واقفة هناك.»

«كنت أفعل ما كان يفترض بي فعله،» صحّحت، «لم ألمس هذا الطفل». ونهضت من أمام الطاولة، وارتدبت معطفي، آملة ألا ترى يديّ وهما ترتجفان، وقلت: «هل هناك شيء آخر؟»

فقال ماري: «كان يوماً قاسياً. خذي قسطاً من الراحة.»

أومأت لها برأسي وغادرت غرفة الاستراحة. وبدلاً من أن آخذ المصعد إلى الطابق الأرضيّ ثمّ إلى الشارع، غصت في أحشاء المستشفى. تحت أضواء النيون الكاشفة في المشرحة، رفّت عيناى ريثما تتكيفان مع الضوء. تساءلتُ لماذا الوضوح شديد البياض دائماً.

كان الطفل الوحيد المبيت هناك. أطرافه لا تزال لدنة، ولم يبرد جلده بعد. كانت هناك بقع على خديّه وقدميه، لكن هذا هو الدليل الوحيد على أنّه أيّ شيء غير ما يبدو للوهلة الأولى: محبوباً لأحد ما.

استندت إلى نقّالة فولاذيّة، وضممته بين ذراعيّ. ضممته بالطريقة التي كنت سأضمّه بها، لو سُمح لي أن أفعل ذلك. همستُ اسمه، وصليتُ لروحه. رحّبت به في هذا العالم المحطّم، وقلت في الوقت نفسه وداعاً.

كينيدي

كان الصباح هادئاً.

أولاً، نمنا جميعاً حتّى وقت متأخّر لأنّني ظننت أنّ ميكا قد ضبط منبّه ساعته، وأنّني ضبطت منبّه ساعتي. ثمّ رفضت ابنتنا فيوليت، ذات السنوات الأربع، أن تتناول رقائق الذرة، وراحت تبكي حتّى وافق ميكا على أن يقلي لها بيضة، لكنّها انفجرت في البكاء مرّة أخرى عندما وضع الصحن أمامها، وصاحت: «أريد سكيناً عاهرة». ربّما كان ذلك الشيء الوحيد الذي أوقفنا، أنا وميكا، في غمرة اندفاعنا المحموم.

سألني ميكا: «هل قالت ما أظنّ أنّها قالته؟».

صرخت فيوليت وهي تبكي مرّة أخرى - هذه المرّة بوضوح أكثر: «أريد شوكة وسكيناً».

لَمَّا انفجرتُ ضحكاً، رمقني ميكا بنظرة مؤنّبة، وقال: «كم مرّة طلبت إليك أن تتوقّفي عن الشتائم! هل تظنين أنّ من المضحك أن تبدو ابنتنا ذات السنوات الأربع مثل بحّار؟»

«من الناحية الفنيّة، لم تقل ذلك. إنّك لم تسمعها جيّداً».

«لا تجادليني»، تمتم ميكا.

فقلت: «لا تلقي عليّ محاضرة».

لَمَّا غادرنا البيت - أخذ ميكا فيوليت إلى روضة الأطفال قبل أن يذهب إلى المستشفى ليُجرى ستّ عمليّات جراحية متتالية، وقدتُ سيّارتي في الاتجاه المعاكس إلى مكّتي - كان الشخص الوحيد في أسرتنا الذي يتمتّع بمزاج رائق فيوليت، التي تناولت طعام الفطور مستخدمة كلّ

أدوات المائدة، وأصرت على ارتداء حذاء ماري جينس السميك المرصع بالترتر البراق، لأنه لم تكن لأبي من والديها القدرة والطاقة على مجادلتها حول ذلك أيضاً.

بعد ساعة، تحولت يومي من سيئ إلى أسوأ. فمع أنني درست الحقوق في جامعة كولومبيا، وتخرجت بين الأوائل الخمسة في دفعتي، عملت مدة ثلاث سنوات في مكتب قاضي فيدرالي، رئيسي حالياً - رئيس دائرة نيو هافن القضائية، التابعة لقسم خدمات المحامي العام في ولاية كونيتيكت، أرسلني للتفاوض حول حملات الصدر.

جلس آل وجيكفيتز، مدير الإصلاحات في سجن نيو هافن، معي في غرفة اجتماعات خانقة مع نائبه ومحام خاص يدعى آرثر وانغ. انتبهوا، فأنا المرأة الوحيدة الموجودة في تلك الغرفة. كان الدافع إلى عقد هذا الاجتماع الذي أطلقت عليه اسم «إتي بيتي تيتي» أن المحاميات مُنعن منذ شهرين من دخول مبنى السجن إذا كنَّ يرتدين حمالات صدر لها سلك معدني لأنها تجعل أجهزة الكشف عن المعادن تطلق صافرتها باستمرار.

إذ لم يقبل المسؤولون في السجن إجراء التفتيش بالتربيت أو باللمس، وإنما أصروا على التفتيش بخلع الملابس، وهو أمر غير قانوني، ويستغرق وقتاً طويلاً. وبغية تجنب ذلك، بدأنا ندخل غرفة السيدات ونترك ملابسنا الداخلية فيها لنتمكّن من الدخول وزيارة موكلينا، لكن إدارة السجن قالت بعد ذلك إنه لا يمكننا أن ندخل إذا لم نكن نرتدي حمالات صدر.

حكّ آل صدغيه، وقال: «سيّدة ماكواري، يجب أن تفهمي أن ذلك يهدف إلى تقليل المخاطر إلى أدنى حدّ ممكن».

فأجبت: «لكنّهم يسمحون لك بأن تدخل وأنت تحمل مفاتيح. ماذا تظنّ أنني سأفعل؟ سأهرّب سجيناً من السجن في مشهد نساقي؟»

تنحني نائب مدير السجن، الذي لم يستطع أن ينظر في عيني مباشرة، وقال:
«ذهبْتُ إلى محالٍ تارغت، ورأيت حمّلات الصدر المعروضة للبيع هناك...»
وصل حاجبائي إلى منبت شعري، والتفتُ إلى آل، وسألته: «هل أرسلته ليجري بحثاً
ميدانياً؟»

قبل أن يتمكّن من أن يجيب، أسند آثر ظهره إلى كرسيه، وقال: «كما تعرفين، إن
ذلك يتطلب السؤال إن كان ينبغي إجراء مراجعة كاملة لسياسة الملابس بأكملها»،
وأضاف، «في السنة الماضية، أردت أن أقابل موكلي قبل أن آخذ إجازة، وكنت أنتعل
حينها صندلاً، فقالوا إنني لا أستطيع أن أدخل السجن وأنا أنتعل الصندل، والحذاء
الوحيد الآخر الذي كان في حوزتي حذاء غولف، وكان مقبولاً تماماً».

فقلت متسائلة: «الحذاء الذي توجد مسامير في أسفله؟ لماذا تسمحون لأحد
بالدخول بحذاء غولف توجد مسامير في أسفله، ولا تسمحون له بالدخول بالصندل؟»
تبادل مدير السجن ونائبه النظرات.

ثمّ قال النائب: «حسناً، بسبب الذين يحبُّون لعق أصابع الأقدام».

«هل تخشى أن يلحق أحد أصابع أقدامنا؟»

«نعم»، قال نائب مدير السجن بجمود، «صدّقيني، هذا الإجراء لحمايةك. إنَّها
أشبه بزيارة زوجيّة بقدمك».

لوهلة تخيلت الحياة التي كان من الممكن أن أعيشها لو أنني انضمت إلى شركة
محاماة عقيمة. تخيلت أنني ألتقي مع وكلائي في غرف اجتماعات مكسوة بألواح
خشبية، بدلاً من حجرات معدّة أصلاً للتخزين تفوح فيها روائح مثل رائحة منظفات
وبول. وتخيلت أنني أصافح عميلاً يده لا ترتجف - بسبب انسحاب الميثامفيتامين أو
الرعب التام في نظام قضائي لا يثق به.

لكن، هناك دائماً خيارات تفضيلية. إذ لَمَّا تعرَّفت إلى ميكا، كان طبيباً متدرِّباً في جراحة العيون في جامعة بيل - نيو هافن. فحصني، وقال إنَّ لديَّ أجمل ثُلَامات في عينيَّ رآها في حياته. في أول لقاء لنا، قلت له إنَّني أعتقد أنَّ العدالة عمياء، فقال إنَّ ذلك لأنَّه لم تتح لها الفرصة لإجراء عمليَّة بعد. لو لم أتزوَّج ميكا لرُبما عملت في مكاتب أنيقة مطلية بالكروم في إحدى المدن الكبرى. لكنَّ زوجي فتح عيادة، وتوقَّفت عن العمل لفترة لأنجب ابنتنا فيوليت. ولَمَّا أصبحت جاهزة للعودة إلى العمل مرَّة أخرى، ذكَّرني ميكا بنوع العمل الذي أرغب في ممارسته. وبفضل الراتب الذي يتقاضاه، استطعت أن أزاوِل مهنة المحاماة. كان ميكا يقول لي دائماً إنَّني أستطيع أن أكسب نقوداً، لكن بما أنَّني أعمل محامية في النيابة العامَّة، فلن أصبح غنيَّة أبداً، لكن يمكنني أن أنظر إلى نفسي في المرآة.

وبما أننا نعيش في بلد يُفترض فيه أنَّ العدالة تُطبَّق فيه مبدأ المساواة، مهما كنت تملك من مال، أو مهما كان عمرك أو عرقك أو جنسك أو إثنيَّتكَ، ألا يجب أن يكون المحامون الذين تعيَّنتهم المحكمة بارعين وعدوانيين ومبدعين مثل أيِّ محامٍ خاصٍّ آخر؟ بسطتُ يديَّ على الطاولة، وقلت لمدير السجن: «كما تعرف، فأنا لا أَلعب الغولف، لكنِّي أرتدي حَمَّالة صدر. هل تعرف من يرتدي حَمَّالة صدر أيضاً؟ صديقتي هاربيت سترونغ، المحامية في الاتحاد الأمريكيِّ للحريات المدنيَّة. درسنا معاً في كلية الحقوق، وتناول الغداء معاً مرَّة في الشهر. أظنُّ أنَّها ستحبُّ كثيراً أن تسمع عن الاجتماع الذي نعقدُه الآن، لأنَّ ولاية كونيتيكت تحظر التمييز على أساس التوجُّه الجنسيِّ والهويَّة الجنسيَّة، وأنَّ المحاميات فقط، اللاتي يُعرِّفن بأنهنَّ إناث، يرتدين حَمَّالات صدر عندما يزرن موكليهنَّ في هذا السجن، وهذا يعني أنَّ سياستك تنتهك حقوق المحاميات، ومنعنا من تقديم استشارتنا لموكلينا. وأنا على يقين تامٍّ أيضاً بأنَّ هاربيت تودُّ أن تتواصل مع نقابة المحامين في ولاية كونيتيكت

لتعرف كم عدد المحاميات الأخريات اللاتي يشتكين من هذا الأمر. بعبارة أخرى، إنَّ ذلك يعني أنك ستقع في ورطة إذا ما نُشر ذلك في الصحافة. لذلك، عندما آتي لزيارة موگلي في المرّة القادمة، فستكون معي حمّالة صدري «لو ميستير» قياس 34 - أرجو المعذرة لأنني أستخدم هذه الاستعارة - وسأفترض أنه لن تكون هناك أيّ تبعات. هل هذا صحيح؟».

زَمّ مدير السجن شفّتيه، وقال: «أنا واثق بأننا نستطيع أن نعيد النظر في مسألة حظر حمّالات الصدر التي يوجد فيها شريط معدنيّ». فقلت: «جيد»، وأخذت حقيبتني، «شكراً لوقتك. يجب أن أذهب الآن إلى المحكمة».

خرجت من تلك الغرفة الصغيرة يتبعني آرثر. لَمّا خرجنا من مبنى السجن إلى ضوء الشمس الساطع، ابتسم، وقال لي: «دكريني ألاّ ينتهي الأمر إلى أن أفق ضدك في المحكمة».

هزرت رأسي، وقلت: «هل تلعب الغولف حقاً؟» فقال: «أفعل ذلك عندما أريد أن أطري القاضي وأنال رضاه». ثمّ سألني: «هل قياسك حقاً 34؟»

«لن تعرف ذلك طوال حياتك يا آرثر»، ضحكت، وتوجّه كلّ منّا إلى سيّارته في ساحة وقوف السيارات، لنخدم عاملين مختلفين تماماً.

* * *

لا نتبادل أنا وزوجي عادة رسائل نصيّة، وإمّا تتألّف محادثاتنا الهاتفية من ذكر أسماء جنسيّات: فيتنامي، إثيوبي، مكسيكي، يوناني. مثل، «إلى أين سنذهب الليلة؟» لَمّا خرجت من الاجتماع في السجن، كانت هناك رسالة من ميكا: آسف، كنت أحمق صباح اليوم.

ابتسمتُ، وأرسلت إليه رسالة نصيّة. لا عجب أنّ ابنتنا تشتم.

هل يوجد موعد الليلة، كتب ميكا.

طار إبهامي فوق هاتفي، وكتبت: هندي؟

أتطلع إلى ذلك، أجب ميكا.

لهذا السبب لا يمكنني أن أظل غاضبة منه.

ترى أمي، التي نشأت في بيئة أرستقراطية في ولاية نورث كارولينا، أنه لا يوجد مطري بشرة أو كريم للعين لا يستطيع أن يعالج أي نوع من البشرة، لذلك، كانت تصر دائماً على أن أعتنني بنفسى لأبدو جميلة. وكيف يمكنني ذلك ولديّ ابنة صغيرة وقرابة مئة موكل في حاجة إلى خدماتي في أي لحظة، ويستحقون أن أمنحهم من وقتي أكثر من الوقت الذي أمضيه في صالون تصفيف الشعر لأصغ شعري.

بمناسبة عيد ميلادي، أهدتني أمي السنة الماضية هديّة حرصت على ألا أستخدمها حتى اليوم: بطاقة هديّة إلى صالون مسّاج لمدة تسعين دقيقة. يمكنني أن أفعل أشياء كثيرة في تسعين دقيقة. أجهّز ملفاً أو ملفين، وأناقش اقتراحاً، وأعدّ الإفطار، وأطعم فيوليت، حتى (إذا أردت أن أكون صادقة)، أن ممرح أنا وميكا تحت الملاءات، وإذا أتاحت لي تسعون دقيقة، فإن آخر شيء أريد فعله هو أن أمضيها وأنا عارية ممدّدة فوق طاولة وتقوم إحداهنّ بدهن جسمي بالزيت.

لكن، كما قالت لي أمي، فإنّ صلاحية تلك الدعوة تنتهي في غضون أسبوع، ولم أستخدمها حتى الآن. وبما أنّها تعرف أنّني مشغولة ولا أكرث لمثل هذه التفاصيل، فقد حرصت على أن تحجز لي في صالون «مسّاج» في أثناء النهار بما يناسب امرأة مشغولة دائماً، أو هذا ما قرأته على شعار البطاقة. جلست في غرفة الانتظار حتى نادت إحداهنّ اسمي.

تساءلت بقلق إن كان عليّ أن أبقى سروالي الداخلي تحت الثوب الذي قدّم لي، ثمّ وجدت صعوبة في فتح الخزانة التي سأضع فيها ملابسني

وإفقالها. قد تكون هذه الخطة الكبرى - إذ ينتاب الزبونات شعور بالإحباط عندما يصلن إلى مرحلة التدليك ولا يعود بإمكانهنَّ أن يغادرن إلا بعد أن يشعرن بأنهنَّ أصبحن في حال فضلى ممَّا كنَّ عليه عندما أتَيْنَ. «أنا كلاريس»، قالت المدلِّكة بصوت رقيق، رِقَّةً ناقوس قادم من جبال التيبِت، «سأُخرج لتشعري بالراحة».

كانت الغرفة معتمة ومضاءة بالشموع، وينبعث في أرجائها صوت موسيقا هادئة. خلعتُ الرداء والخفَّ وصعدت، وغطيت نفسي بالملاءة، ووضعتُ وجهي في تلك الفتحة الصغيرة على طاولة التدليك. بعد لحظات، سمعتُ نقرًا خفيفاً على الباب، وصوتاً يقول: «هل نحن مستعدُّون؟»

لا أعرف. مَنْ نحن؟

قالت كلاريس: «ما عليك الآن إلا أن تسترخي».

حاولت. أقصد، حاولت حقاً. أغمضتُ عينيَّ مدَّة ثلاثين ثانية ثمَّ فتحتهما، ورحت أهدِّقُ إلى قدميها المكسوَّين بحذاء رياضيَّ خفيف من الفتحة في طاولة التدليك. أخذت تمرُّ يديها على امتداد عمودي الفقريَّ بثبات. سألتها: «هل تعملين هنا منذ فترة طويلة».

«ثلاث سنوات».

«أراهن أنَّه توجد زبونات تتمنَّين ألا تضطرِّي إلى لمسهنَّ»، قلت مازحة، «أقصد، مثل الشعر في ظهري».

لم تردِّ. تحرَّكت قدماها على الأرض. تساءلت إن كانت تفكِّر في أنني واحدة من أولئك الزبونات.

تساءلت، هل ترى جسدي كما يراه الطبيب - لوح يجب أن تعمل عليه، أو أنَّها ترى السيلوليت في مؤخَّرتي وكتلة الدهن التي أخفيها عادة تحت حمَّالة صدري، وأفكَّر في أنَّ شكل الأمِّ التي دلَّكتها قبلي كانت تفضلني بكثير.

أليس كلاريس اسم الفتاة في فيلم (صمّت الحملان؟)

«فول ونبيد شيانتي أحمر»، تمتتُ.

«عفواً؟»

«أسفة»، دمدمتُ، ذقني غائصة داخل الفتحة في طاولة التدليك. «يصعب التكلّم وأنا في هذه الوضعيّة». بدأت أشعر باحتقان في أنفي، فعندما أستلقي ووجهي إلى الأسفل هكذا لفترة طويلة، يحدث لي ذلك، فأضطرّ إلى أن أتنفّس من فمي، وأظنّ أنّ المدلّكة لاحظت أنّ لعابي كان يسيل أحياناً من الفتحة. هذا من بين أسباب أخرى تجعلني لا أحبّ التدليك.

قلت لها: «أفكر أحياناً ما الذي يمكن أن يحدث لو أنّني تعرّضتُ لحادث سيّارة وعلقتُ هكذا رأساً على عقب»، وأضفت، «لا في السيّارة، وإمّا في المستشفى، وقد التصقت إحدى دعامات العنق تلك بجمجمتك كي لا تتحرّك فقراتك؟ ماذا لو قلبني الطبيب على بطني، واحتقن أنفي كما أشعر الآن، ولا أستطيع أن أخبره بذلك؟ أو إذا دخلت في غيبوبة حيث أكون مستيقظة لكنني محاصرة داخل جسدي ولا أستطيع أن أقول شيئاً، وأشعر بالرغبة في أن أفرغ احتقان أنفي؟» بدأ رأسي ينبض بقوة الآن لأنني مستلقية بهذه الوضعيّة. «ماذا لو عشت وبلغت مئة وخمس سنوات من العمر، وأنا في بيت رعاية وأصبت بالزكام، ولم يخطر في بال أحد أن يجلب لي بضع قطرات من أفرين؟»

ابتعدت قدما كلاريس عن نطاق رؤيتي، ثمّ شعرت بهواء بارد يهبّ على ساقيّ عندما بدأت تدلّك ربله ساقي اليسرى. قلت: «قدّمت لي أمي هديّة المسّاج بمناسبة عيد ميلادي».

«هذا شيء جميل...»

«إنّها من أشدّ المعجبات بمرطبات البشرة. قالت ذات مرة إنّ عدم وجود ديناصور في جلدي لن يقتلني إذا أردت أن يبقى زوجي معي،

فقلت لها إنّه إذا كانت مرطبات البشرة هي التي ستحافظ على زوجي فإنّ لديّ مشكلة أكبر بكثير ممّا إذا كان لديّ الوقت الكافي لأخذ موعداً للتدليك أم لا...»
«السيدة ماكواري»، قالت المدلّكة، «لا أظنّ أنّي رأيت زبونة في حاجة إلى تدليك بقدر ما تحتاجين».

لسبب ما، جعلني ذلك أشعر بالفخر.
«وفي مجازفة لأن أفقد إكراميتي، لا أظنّ أيضاً أنّي رأيت زبونة لا تحبّ التدليك».
جعلني ذلك أكثر فخراً، فقلت لها: «شكراً».
«ربّما يمكنك أن تحاولي فقط... استرخي. توقّفي عن الكلام. صوّي عقلك».
أغمضتُ عينيّ مرّة أخرى، وبدأت أستعرض في رأسي قائمة المهام التي يجب أن أفعلها.

«وأنا لا أجد ممارسة رياضة اليوغا أيضاً»، همهمت.
في الأيام التي أعمل فيها حتّى وقت متأخّر، ولا يزال ميكا في المستشفى، تأتي أمي وتأخذ فيوليت من المدرسة. الجميع رابحون في هذا الأمر - فلست مضطّرة إلى أن أدفع أجرة جليسة أطفال، ومضيّ أمي وقتاً مع حفيدتها الوحيدة، وفيوليت تحبّها كثيراً. لا يقيم أحد حفل شاي كما تفعل أمي التي تصرّ على استخدام أدوات الشاي الخزفيّة القديمة منذ يوم زفافها، ومناديل الكتّان، وصبّ الشاي الحلو من الإبريق. حينما أعود إلى البيت أعرف أنّ فيوليت قد استحمّت وقرّئ لها بعض القصص، ونامت. وستكون هناك بقايا قطرات من الليمون أو كعك الشوفان بالزبيب من حفل شاي أقامته بعد الظهر، لا تزال دافئة في أوعية بلاستيكيّة، ويكون مطبخي أنظف ممّا تركته في الصباح.

تكاد أمِّي تُفقد ميكا صوابه. «آفا حسنة النية»، كان يحبُّ أن يقول، «وكذلك جوزيف مكارثي». وكان يقول إنَّ أمِّي جرّافة متنكِّرة في ثوب حسناء من الجنوب. على نحو ما، هذا صحيح. فلدى أمِّي طريقته للحصول على ما تريد قبل أن تدرك أنَّها احتالت عليك.

«مرحباً»، قلْتُ، وألقيت حقيبتني على الأريكة عندما أَلقت فيوليت نفسها بين ذراعَيَّ.

«لقد رسمتُ بأصابعي»، قالت فيوليت، ورفعت كفيها نحوي. كانت أصابعها لا تزال زرقاء قليلاً، «لم أستطع أن أجلب الرسمة إلى البيت لأنَّ الألوان لم تجفَّ بعد».

«أهلاً حبيبتي»، قالت أمِّي وهي خارجة من المطبخ، «كيف كان يومك؟». صوتها يذكرني دائماً بنبات الهليوتروب ورحلة بسيارة مكشوفة والشمس تضرب تاج رأسك.

فقلت: «كالمعتاد. لم يحاول أحد أن يقتلني اليوم، وهذا شيء جميل». ففي الأسبوع الماضي، حاول رجل كنت أمثله في تهمة اعتداء مشدّدة أن يخنقني على طاولة الدفاع عندما قرَّر القاضي الإفراج عنه بكفالة بمبلغ مرتفع جداً. لا أزال غير متأكّدة إن كان موكلِّي غاضباً أم أنه كان يحاول أن يدَّعي الجنون. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أن أمنحه مزبّة لأنَّه يفكر لأجل المستقبل.

«كينيدي، ليس أمام الطفلة. عزيزتي، هل يمكنك أن تذهبي وتحضري محفظة جدّتك؟». وضعت فيوليت على قدميها، دلفت إلى الغرفة بجانب الباب الخارجي. «تعرفين أنَّك عندما تقولين أشياء كهذه تجعليني أريد أن أحصل على وصفة طبية لدواء زاناكس المضاد للقلق»، تنهّدت أمِّي، «ظننت أنَّك ستبحثين عن وظيفة حقيقية عندما ذهبت فيوليت إلى المدرسة».

«ألف، عندي وظيفة حقيقية، وباء، إنَّك تتناولين زاناكس تواءً، لذلك هذا تهديد خادع».

«هل عليك أن تجادلي في كل شيء؟»

«نعم، فأنا محامية». عندها أدركت أن أمي ترتدي معطفها، «هل تشعرين

بالبرد؟»

«قلت لك إنني لا أستطيع أن أبقى حتى وقت متأخر هذه الليلة. سنذهب أنا

ودارلا إلى حفل رقصة كوانتر».

اسمها رقصة كونترا»، قلت أصححها، «هذا أولاً، وثانياً، لم تخبريني من قبل».

«أخبرتك الأسبوع الماضي. فقط أردت ألا تنصتي يا حبيبتي». عادت فيوليت إلى

الغرفة وأعطتها حقيبتها. قالت لها: «إنك فتاة جيدة. أعطيني قبلة الآن».

ألقت فيوليت ذراعيها حول عنق أمي. فقلت لها: «لا يمكنك أن تذهبي الآن.

عندي موعد».

فقلت: «كينيدي، أنت متزوجة. إذا كان هناك أحد في حاجة إلى موعد فهو أنا.

وتوجد لدينا أنا ودارلا خطط كبيرة حول ذلك».

خرجت من الباب وجلست على الأريكة. «مامي»، قالت فيوليت، «هل يمكننا أن

نتناول بيتزا؟»

نظرت إلى حدائها المطرز بالترتر في قدميها، وقلت لها: «لدي فكرة فضلى».

«حسناً»، قال ميكا عندما رأي جالسة إلى الطاولة في المطعم الهندي مع فيوليت،

«يا لها من مفاجأة!».

فقلت له: «لقد ذهبت جليسة الأطفال»، ونظرت بطرف عيني إلى فيوليت، «وقد

تجاوزنا مرحلة الخطر».

بدأت فيوليت تلون على مفرش الطاولة الورقي، ثم قالت: «بابا، أريد بيتزا».

فقال لها ميكا: «لكنك تحبّين الطعام الهنديّ يا بي».

«لا، لا أحبّه. أريد بيتزا»، قالت بإلحاح.

في تلك اللحظة، أحضر النادل طعامنا. «توقيت مثالي»، دمدمت، «أترين يا عزيزتي؟»

رفعت فيوليت وجهها إلى النادل، عيناها الزرقاوان واسعتان، وهي تحدّق إلى عمامته التي يعتمرها السيخ عادة، وسألت: «لماذا يضع على رأسه منشفة؟»

فقلت لها: «لا تكوني وقحة يا حلوتي. هذه تُسمّى عمامة يرتديها بعض الهنود».

قوّست حاجبيها، وقالت: «لكنّه لا يشبه بوكاهونتاس».

أردت أن تنشقّ الأرض وتبتلعني، لكنّي رسمت ابتسامة على وجهي، وقلت للنادل الذي بدأ يُفرغ أطباقنا بأسرع ما يمكنه: «أنا آسفة جدّاً. فيوليت، انظري، طبقك المفضّل، دجاج تيكاسا. بدأت أسكب قليلاً في صحنها، محاولة أن أشتت انتباهها حتّى يذهب النادل».

«يا إلهي!»، همستُ لميكا، «ماذا لو ظنّ أنّنا آباء فظيعون، أو أناس فظيعون؟»

«ألقي اللوم على ديزني».

«رَبِّمَا كان عليّ أن أقول شيئاً مختلفاً؟»

ملأ ميكا ملعقة من طبق فيندالو ووضعه في صحنه، وقال: «نعم، كان بإمكانك أن تختاري مطعماً إيطالياً».

تورك

وقفت وسط الحضانة التي لن يستخدمها ابني أبداً.
قبضت يداي مشدودتين على جانبي. أريد أن أحركهما. أريد أن أضرب الجدار
بكلتا قبضتي حتى تنهار هذه الغرفة اللعينة كلها.
فجأة، أحسست بيد تلمس كتفي. «هل أنت مستعد؟» كان فرانسيس ميتشوم -
والد زوجتي - واقفاً خلفي.

هذا هو وجهه المزدوج - نعيش أنا وبريت في جانب، ويعيش في الجانب الآخر.
عبر فرانسيس الغرفة وسحب الستائر المرسوم عليها الأرنب بيتر، ثم صب كمية من
الطلاء في وعاء صغير، وبدأ يطلي الجدران باللون الأبيض فوق اللون الأصفر الباهت
الذي كنا قد طلينا به، أنا وبريت، الجدران منذ أقل من شهر. طبقة الطلاء الأولى لم
تغط الطبقة التي تحتها تماماً فبدا اللون الأصلي أشبه بشيء علق تحت الجليد. أخذت
نفساً عميقاً واستلقيت تحت سرير الطفل الصغير، وبدأت أرخي البراغي التي كنت قد
شددتها بإحكام، لأنني لم أشأ أن أكون السبب في أن يقع أي مكرهه لابني.

من كان يعرف أنه لم يكن يتوجب أن يكون هناك سبب؟

ترك بريت نائمة بسبب المهدئ. لقد تحسنت حالتها كثيراً عما كانت عليه صباح
اليوم عندما كنا في المستشفى. ظننت أنه لا يوجد شيء أسوأ من البكاء الذي لم
يتوقف، صوتها يتكسر إلى شظايا. لكن ذلك كله توقف عند الساعة الرابعة صباحاً، ولم
تقل بريت شيئاً، وإنما راحت تحددق إلى الحائط بعينين خاويتين، ولم تجب عندما
ناديتها باسمها، حتى إنها لم تنظر إلي. لقد أعطاهم الأطباء مهدئات لتنام، وقالوا لي إن
النوم أفضل وسيلة ليبراً الجسد.

لم يغمض لي جفن. لكنني كنت أعرف أن النوم لن يجعلني في حال فضلي، وكي أنام يجب أن أرتكب عملاً وحشياً، لحظة تدمير. كنت أريد أن أتخلص من الألم الذي يعتمل داخلي، وأفرغه في مكان آخر.

في آخر دورة ملفك البراغي، انهار السرير، وسقط الفراش الثقيل على صدري. لمّا سمع فرانسيس صوت وقوع السرير، التفت وسألني: «هل أنت على ما يرام؟»

فقلت له: «نعم». لقد سقطت المرتبة على صدري. كان ذلك مؤلماً، لكنني أعرف هذا النوع من الألم. ستحدث لي كدمة، لكنّها ستزول. انسلت من تحت الأخشاب المتشابكة وركلتها بحذائي، وقلت: «قطعة زبالة أخرى».

تجهّم وجه فرانسيس، وقال: «ماذا ستفعل بها؟»

لا يمكنني أن أحتفظ به. أعرف أننا نستطيع أن ننجب طفلاً آخر ذات يوم، إذا كنّا محظوظين، لكن إبقاء هذا السرير كما لو أننا ندع طفلنا الجديد ينام مع شبح.

عندما لم أجب، جفّف فرانسيس يديه بقطعة قماش، وراح يلملم قطع الخشب، وقال: «سنعطيه إلى رابطة النساء الآريات» التي كانت بریت قد حضرت بعض اجتماعهنّ: عضوات في حركة الرؤوس الحليقة السابقة كنّ يذهبن إلى جمعيّة توزيع حليب الأطفال ويحصلن على حليب الأطفال مجاناً بهويّات مزيّفة، يخدعن الحكومة ليجلبن حليب الأطفال للنسوة اللاتي يمضي أزواجهنّ فترة من التدريب لأجل القضية.

لم يعد شكل فرانسيس الذي كان يرأس فريق بنّائي الجدران، الذي كنت أعمل معه، جذّاباً الآن، والذي يتمتّع بتصنيف جيّد في (قائمة أنجي)، ويصوّت لحزب (حفلة الشاي) - (أعضاء الرؤوس الحليقة القدماء لم يموتوا، فقد كانوا ينضمّون إلى جماعة كوكلوكس كلان العنصرية، أمّا الآن فقد أصبحوا ينضمّون إلى حزب (حفلة الشاي). ألا تصدّقونني؟ اذهبوا واستمعوا

إلى متحدث قديم في جماعة كوكلوكس كلان، وقرانه بخطاب يلقيه عضو في حزب (حفلة الشاي) القومي، فبدلاً من أن يقولوا «يهودي»، أصبحوا يقولون الآن «الحكومة الفيدرالية». وبدلاً من أن يقولوا «فقراء»، أصبحوا يقولون «الطبقة الاجتماعيّة في بلدنا»، وبدلاً من أن يقولوا «زنجي»، أصبحوا يقولون «الرعاية الاجتماعيّة». كانوا في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي أسطورة، فقد كان جيش التحالف الأبيض الذي يقوده يتمتع بنفوذ كبير مثل جماعة المقاومة الآرية البيضاء التي يقودها توم ميتزجر، وكنيسة الخالق العالمية التي يقودها مات هيل، والتحالف الوطني الذي يقوده وليام لوثر بيرس، ومنظمة الشعوب الآرية التي يقودها ريتشارد بتلر. في ذلك الوقت، كان يرّي بريث وحده، وكانت فرقته الإرهابيّة تجوب شوارع نيو هافن وهم يحملون مطارق خفيفة وعصي هوكي مكسورة، وهراوات، وأنايب من الرصاص - يضربون الزنوج واللوطيين واليهود - في حين كانت الطفلة بريث تغطّي في النوم في السيّارة.

أمّا لمّا بدأت الأمور تتغيّر في منتصف تسعينيات القرن الماضي - عندما اتّخذت الحكومة إجراءات صارمة ضدّ حليقي الرؤوس - وجد القادة، مثل فرانسيس، أنفسهم مقيدين وسُجنوا، فأدرك فرانسيس أنك إذا لم تشأ أن تُكسر، فعليك أن تنحني. كان هو الرجل الذي غيّر هيكل حركة القوة البيضاء من منظمة كبيرة إلى خلايا صغيرة من الأصدقاء من ذوي الميول السياسيّة المشتركة. وطلب أن نطيل شعرنا، ونذهب إلى الجامعة، ونلتحق بالجيش، كي نندمج في المجتمع. ومساعدتي، أنشأ وأدار موقعاً إلكترونيّاً، وكان يردّد دائماً إننا لم نعد مجموعات الآن، وإمّا صرنا جيوباً ساخطة داخل النظام.

لمّا عرف الناس أننا أصبحنا نسير ونعيش بينهم غير مرثيين، ازدادوا رعباً.

قلت إنّ رابطة النساء الآريات هي التي ستأخذ سرير الطفل والطاولة التي اشتريتها بثمن رخيص وأصلحتها، وثياب الطفل التي جلبتها بريث

من مؤسّسة غوودويل الخيرية والتي وضعتها في الخزانة، وبودرة الأطفال والشامبو وكلّ هذه الأشياء، سيستخدمها طفل آخر، طفل في قيد الحياة.

لَمَّا نهضت ووقفت بسرعة، شعرت بدوار، ووجدت نفسي أهدّقي في المرآة التي رُسمت بالونات صغيرة على إطارها. كنت أعود إلى المنزل من العمل وأرى بريث جالسة إلى الطاولة بيدها فرشاة فأستثيرها وأقول لها إنها أصبحت مارثا ستوارت، فتقول إنّ الشيء الوحيد الذي يجمعها بمارثا ستوارت هو أنّها امرأة استثنائية، وتضحك. رسمت بالوناً على خديّ ثمّ قبّلته، في تلك اللحظة، لَمَّا ضممتها إليّ، ولم يكن ابننا قد ولد بعد، كان كلّ شيء على ما يرام.

أمّا الآن، فتحيط بعينيّ هالات سود، وبدأت لحيّتي تنمو، وأصبح شعري أشعث. صرت أبدو مثل هارب من شيء ما.

«اللعنة على كلّ هذه»، همستُ، وخرجتُ من غرفة الطفل إلى الحمام.

في الحمام، أنا وآلة الحلاقة الكهربائيّة. وضعتها في مقبس الكهرباء، وبحركة واحدة حلقت شعري في منتصف رأسي. رحت أمرّر الآلة في كلّ جانب، وبدأت خصلات شعري تتساقط على كتفيّ ثمّ إلى حوض المغسلة. كالسحر، عندما بدأ شعري يتساقط، ظهرت صورة في تاج رأسي، فوق منبت الشعر مباشرة: صليب معقوف أسود سميك، تشكل الحروف الأولى من اسمي واسم بريث. عرفت أنّها ستتزوّجني عندما قالت نعم.

كنت آنذاك في الحادية والعشرين من عمري، وكان وجهي متسخاً.

لَمَّا جنّت لأري بريث هذا الدليل على حبّي لها، لم تقل شيئاً لأنّ فرانسيس دخل الغرفة وصفعني على مؤخرة رأسي بقوة، وقال: «هل أنت غبيّ. أيّ جزء من السريّة لم تفهمه؟»

فقلت له: «إنّه سرّي»، وابتسمت لبرييت، «إنّه سرّنا. عندما ينمو شعري مرّة أخرى، لن يعرف أحد أنّها مرسومة هنا، إلّا نحن».

«وماذا لو أصبحت أصلع؟» سأل فرانسيس.

من قسمات وجهي، عرف أنني لم أفكر في هذا الأمر.

لم يدعني فرانسيس أغادر منزله طوال الأسبوعين التاليين، حتى أصبح ذلك الجرح الذي أحدثته عندما جززت شعري يبدو ظلاً قائماً كأنه آثار جَرَب.

أخذت مسطرة تقويم وقليلًا من كريم الحلاقة وأكملت العمل. مررت يدي فوق رأسي الأملس. شعرت بأنني أصبحت أخف وزناً، ولاحظت حركة الهواء وراء أذني.

عدت إلى غرفة الطفل، التي لم تعد غرفته. فقد اختفى السرير، وكُدّست قطع الأثاث الأخرى في الصالة. ووضعت الأشياء الأخرى في صناديق كما أمر فرانسيس. وقبل أن تخرج بریت من المستشفى بعد ظهر اليوم، سأعيد إطار السرير ومنضدة جانبية لترى أنها عادت غرفة ضيوف، كما كانت منذ بضعة أشهر.

رحت أحدق إلى وجه فرانسيس أتحداه على مواجعتي. تبعت عيناه خطوط وشمي، كما لو أنه يتحسس ندبة. ثم قال بصوت هادئ، «فهمت يا فتى، إنك ذاهب إلى الحرب».

* * *

لا يوجد شيء أسوأ من أن تغادر المستشفى من دون الطفل، وقد ذهبت إليه لتنجبه فيه. كانت بریت جالسة على كرسي متحرك (البروتوكول المتبع في المستشفى) تدفعها ممرضة مساعدة (بروتوكول آخر يتبعه المستشفى)، سرت خلفها وقد غطيت رأسي بقبعة خفضتها إلى أسفل جبھتي. ظلّت عينا بریت تحدّقان، ويدها مطويتان في حضنها. هل أنا وحدي أو أنّ الجميع يحدّقون إلينا؟ هل يتساءلون ما مشكلة هذه المرأة التي لم يكن رأسها حليقاً ولا توجد جبيرة أو أي شيء آخر عليها؟

كان فرانسيس قد ركن سيّارته ذات الدفع الرباعيّ أمام باب المستشفى، وفتح حارس الأمن باب السيّارة الخلفي، في حين ساعدت بريت في النهوض من الكرسيّ. دُهِشت كم بدت خفيفة الوزن، وتساءلت هل ستطير عندما تفلت يداها ذراعي الكرسيّ المتحرّك!

لوهلة، اكتسى وجهها بذعر شديد. أدركت أنّها أجفلت من كهف مقعد السيّارة الخلفيّ المظلم كما لو كان هناك وحش مختبئ في السيّارة. أو في مقعد السيّارة.

طوّقت خصرها بذراعي، وهمست لها: «حبيبتي، هل أنتِ على ما يرام؟». تشجّ عمودها الفقريّ، وأجفلت قبل أن تصعد في السيّارة. لَمّا أدركت أنّه لا يوجد إلى جانبها كرسيّ فارغ للأطفال، استرخت عضلات جسدها، وأسندت ظهرها إلى المقعد، وأغمضت عينيها.

جلسْتُ في المقعد الأمامي. رأني فرانسيس، فرفع حاجبه وسألها: «كيف حالك أيّتها الخنفساء؟» مستخدماً كلمة التحبّب التي كان يناديها بها عندما كانت طفلة. لم تجب. كان كلّ ما فعلته أنّها هزّت رأسها، وسالت دمعة كبيرة على خدّها. شجّل فرانسيس السيّارة وخرج من ممّر المستشفى، كما لو أنه يريد أن يتجاوز كلّ ما حدث فيه.

في مكان ما، في إحدى التلاجات في القبو، يقبّع طفلي. أو لعلّه ذهب الآن، وقد فُتح بطنه مثل ديك روميّ في عيد الشكر على طاولة الطبيب الشرعيّ. كان بإمكانني أن أخبره ما الذي حدث. كان بإمكانني أن أخبره ذلك الشيء الرهيب الذي أراه كلّما أغمضت عيني: تلك العاهرة السوداء التي كانت تضغط على صدر ابني.

كانت وحدها مع ديفيس. سمعت الممرّضات الأخريات يتحدّثن عن ذلك في الردهة. كانت وحدها عندما لم يكن من المفترض أن تكون هناك. من يعرف ما الذي جرى عندما لم يكن أحد يراها؟

نظرتُ إلى بريث. عندما نظرتُ إلى عينيها، كانتا فارغتين.

ماذا لو كان قد حدث شيء أسوأ من فقدان ابني؟ ماذا لو كنت قد فقدت زوجتي أيضاً؟

بعد أن تخرّجتُ في المدرسة الثانويّة، انتقلتُ إلى هارتفورد، وعملت في شركة (كولت للصناعات التحويلية)، ودرست هناك في الجامعة لفترة قصيرة، لكنّ الهراء الليبراليّ الذي كان يرده أولئك الأساتذة جعلني أشعر بالغثيان، فتركت الدراسة، لكنّي لم أتوقّف عن التسكّع حول مبنى الجامعة. أوّل شاب جنّده كان شاباً نحيفاً ذا شعر طويل، جاء ووقف أمام شابّ أسود في الطابور في كافيتريا الطلاب، فدفعه الشابّ الأسود، لكنّ يوركي عاد ودفع الشابّ الأسود أيضاً، وقال له: «إذا لم تعجبك الحياة هنا، فعدّ إلى إفريقيا». كان العراك الذي أعقب ذلك ملحماً، وانتهى الأمر إلى أنّي ساعدت يوركي، وأنهيته الشجار. لَمّا وقفنا خارج الكافيتريا ورحنا ندخّن، قلت له: «كما تعرف، ليس من المفترض أن تكون الضحيّة».

ثمّ أعطيته نسخة من نشرة (النداء الأخير) التي تصدرها (حركة أمّة الإسلام) التي كنت ألصقها على جميع لوحات الإعلانات في الحرم الجامعيّ. «أترى هذه؟» قلت له عندما بدأنا نمشي، وأنا متيقن من أنّه سيتبعني، «هل تريد أن تقول لي لماذا لا يذهب أحد إلى اتحاد الطلاب السود ويقبض عليهم بسبب خطاب الكراهية؟ لكن، لماذا لا يوجد اتحاد للطلبة البيض؟»

نخر يوركي، وقال: «لأنّ ذلك سيُعدُّ تمييزاً».

نظرت إليه كما لو كان أينشتاين، وقلت: «تماماً».

ثمَّ أصبح الأمر سهلاً. كُنَّا نبحث عن فتیان يتعرَّضون للتئمّر فنتدخّل ونقف إلى جانبهم ليعرفوا أنّ هناك أشخاصاً يحمونهم، ثمَّ ندعوهم إلى التجوّل معنا بعد انتهاء الدروس، وعندما يصعدون في السيّارة، أضع أشرطة موسيقا فرق سكرودرايفر، ونو ريمورس، وبيرزركر وستوريون، الفرقة الموسيقية التابعة لحركة القوة البيضاء التي تبدو مثل شيطان يزأر حتّى تجعلك ترغب في أن تدمّر العالم.

جعلتهم يعتقدون أنّ اللون الذي ولدوا فيه يمنحهم قيمة كبيرة، ولمّا كانوا يشكون من أيّ شيء في الجامعة، بدءاً من إجراءات التسجيل حتّى الطعام، أذكّرهم بأنّ رئيس الجامعة يهودي، وأنّ كلّ ذلك يشكّل جزءاً من خطة أكبر تدبّرها حكومة الاحتلال الصهيونيّ كي تقمعنا، وعلمتهم أنّ «نحن» تعني «أبيض».

أخذت منهم المخدّرات التي يتعاطونها ورميتها في القمامة لأنّ المدمنين يشون بك عادة. لقد صنعتهم وفاقاً لصورتي. قلت ليوركي: «لديّ حذاء طويل رائع ماركة دوك مارتينس، على مقاس قدمك، لكنني لا أستطيع أن أعطيه لشاب شعره يلمع ويعقده في شكل كعكة»، فجاء في اليوم التالي وقد قصّ شعره وشدّبه بعناية. وشكّلتُ فريقاً مقاتلاً، فرعاً جديداً لفرقة الموت في أمريكا الشماليّة في هارتفورد.

أراهن أنّني علّمت هؤلاء الطلاب أكثر ممّا علّمهم أيّ أستاذ بارع، وشرحت لهم الفروق الأساسيّة بين مختلف الأعراق، وكنت أقول لهم: «إذا لم تكن مفترساً، فإنّك ستكون الفريسة».

لمّا استيقظتُ، وجدت نفسي غارقاً في بركة من العرق، وحاولت بصعوبة أن أفيق من حلم مزعج. على الفور، بدأت أتحنّس بيدي الملاءة، أبحث عن برّيت، لكنني لم أجدها.

نزلت من السرير ورحت أسير في الظلام كما لو كنت أشقُّ طريقي عنوة بين حشد من الناس. ربما كنت أسير في نومي أيضاً، وتوجَّهت إلى الغرفة التي كنت أعيد طلاءها مع فرانسيس قبل مغادرة بريت المستشفى.

كانت بريت واقفة عند مدخل الغرفة، عاقدة يديها، كما لو أنَّها في حاجة إلى أحد يساعدها لتبقى منتصبة القامة. كان القمر قد اقترب من النافذة، فحاصرها ظلها. كما بدأت عيناى تتأقلمان مع عتمة الليل، حاولتُ أن أرى ما الذي تراه: الكرسي القديم ذو الذراعين المغطى بمفرش، وإطار سرير الضيوف الحديدي، وقد عادت الجدران بيضاء من جديد. كانت رائحة الطلاء الجديد الكريهة لا تزال تملأ أنفي.

تنحنحتُ، ثمَّ قلت بصوت خفيض: «قلنا إنَّ ذلك سيكون مفيداً».

استدارت نصف استدارة، وبدت لوهلة كأنها خلقت من النور، وهمست: «ماذا لو أنَّ هذا لم يحدث قط؟ ماذا لو كان مجرد كابوس؟»

كانت ترتدي أحد قمصاني الداخليَّة - الذي تحبُّ أن تنام فيه - واضعة يدها فوق بطنها.

«بريت»، قلت وخطوت خطوة نحوها.

«ماذا لو لم يتذكَّره أحد؟»

ضممتها إليّ، وشعرت بدائرة أنفاسها الحارَّة تهبُّ على صدري، كالنار. قلت: «حبيبتي، أقسم إنني لن أدع أحداً ينسى ذلك».

لا توجد لديّ سوى بدلة واحدة. في واقع الأمر، لدينا أنا وفرانسيس بدلة واحدة نتقاسمها. فلا داعي لارتداء ثياب أنيقة عندما تعمل في البناء في أثناء النهار، وتدير موقع حركة القوة البيضاء في الليل. لكن، في عصر اليوم التالي، اضطررت إلى ارتداء البدلة - سوداء، مقلَّمة، من النوع الذي أتخيَّل أنَّ آل كابوني كانوا سيبدون صارمين فيها - وقميص أبيض وربطة

عنى، وعدت أنا وبريت إلى المستشفى لنتلقى كارلا لونغو، المحامية المتخصصة في إدارة المخاطر في المستشفى، التي وافقت على مقابلتنا.

لَمَّا خرجتُ من الحَمَّام حليق الرأس، وقد بدا الوشم المرسوم في مؤخِّرة رأسي بوضوح شديد، فوجئت عندما رأيت بريت متكوِّرة على السرير، مرتدية قميصي الداخلي الذي تحبُّ أن تلبسه، وقلت لها: «حبيبتى، لدينا اجتماع مع المحامية، ألا تذكرين؟» كنت قد قلت لها ذلك قبل نصف ساعة. لا يمكن أن تكون قد نسيت.

تدحرجت عيناها نحوي كما لو كانتا كرتين معدنيتين، تتحرَّكان في رأسها. ودفع لسانها الكلمات حول فمها كما لو كانت طعاماً، وقالت: «لا... أريد... أن... أعود».

لَمَّا أدارت ظهرها، وسحبت الملاءة فوقها، رأيت القنينة على المنضدة إلى جانب السرير: الحبوب المنومة التي أعطاها إيَّها الطبيب لتساعدنا في النوم. أخذتُ نفساً عميقاً ثم حملت زوجتي وأجلستها. كانت مثل كيس رمل، ثقيلة، لا تتحرك. كان عليها أن تأخذ دشاً، قلت، لكنَّ ذلك يحتاج إلى أن أدخل معها الحَمَّام، ولا يوجد لدينا وقت. تناولت كأس الماء الموجودة على المنضدة إلى جانب السرير، ورششت منها وجهها. ارتعشت، وجعلها الماء تعتلد في جلستها. خلعت بيجامتها، وأخرجت من درج خزانها أول شيء بدا مناسباً - بنظلاً أسود وسترة بأزرار في المفدِّمة. وبينما رحت ألبسها ثيابها، ظهر لي وميض مفاجئ بأنني أفعل كما فعلت لابني، ثمَّ ضغطت على ذراع بريت بقوة فصرخت. قبَّلتها على راسها، ودمدمت: «أسف حبيبتى»، وبلطف أكثر، رحت أمرر مشطاً في شعرها محاولاً أن أجمعه معاً في شكل ذيل حصان، ثمَّ أدخلت قدميها في حذاء أسود صغير، ثمَّ رفعتها بين ذراعيَّ، وخرجنا إلى السيَّارة.

لَمَّا وصلنا إلى المستشفى، بدت كما لو كانت مشلولة. «أرجوكِ استيقظي»، قلت لها متوسلاً، وثبَّتها إلى جانبي عندما دخلنا، «لأجلِ ديفيس».

رَبِّمَا نجح ذلك، لأنَّنا لَمَّا دخلنا مكتب المحامية، فتحت عينها قليلاً.

كانت كارلا لونغو امرأةً حقيرة من أصل إسباني، كما خَمَّنت من اسمها، جالسة على كرسيٍّ، وأشارت إلينا أن نجلس على الأريكة أمامها. رأيتها تبتلع لسانها عندما خلعت قُبْعَةَ الصوف التي أضعها على رأسي. جيّد. دعها تعرف مع من تتعامل، منذ البداية.

مالت بریت نحوي.

قلْتُ لها موضَّحاً: «زوجتي، لا تزال على غير ما يرام».

هزَّت المحامية رأسها بتعاطف، وقالت: «السيد والسيدة باور، اسمحا لي أولاً أن أقول لكما إنَّني أسفة لفقدانكما ابنكما».

لم أجيبها.

ثمَّ قالت: «أنا متأكّدة من أن لديكما أسئلة تريدان أن تطرحاها عليّ».

انحنيت إلى الأمام، وقلت: «لا توجد لديَّ أسئلة. أعرف ما الذي حدث. لقد قتلت تلك الممرضة السوداء ابني. رأيتها بأَمِّ عيني وهي تضرب على صدره. قلت للمشرفة إنَّني لا أريد أن تلمس هذه الممرضة ابني، وماذا حدث؟ تحقَّقت أسوأ مخاوفي».

«أنا متأكّدة من أنك تدرك أن السيدة جيفرسون كانت تؤدِّي عملها فقط...»

«أوه، نعم؟ وهل كان عملها أيضاً أن تخالف تعليمات رئيستها؟ كلُّ شيء مسجَّل في سجِّلِ ديفيس».

وقفت المحامية على قدميها لتتناول ملفاً على طاولة مكتبها، ألصقت على جانبه قصاصات ملوَّنة صغيرة أظنُّ أنها رموز سرّية. فتحت الملف. من مكاني، رأيت القصاصات اللاصقة. تحرَّكت فتحتا أنفها، لكنَّها لم تعلق شيئاً.

قلت لها: «لم يكن من المفترض أن تقوم هذه الممرضة برعاية ابني، وقد تُركت وحدها معه».

نظرت كارلا لونغو إليّ، وقالت: «كيف عرفت ذلك يا سيّد باور؟»

«لأنّ العاملين لديك لا يستطيعون أن يتكلّموا بصوت منخفض. سمعتها تقول إنّها تعمل بالنيابة عن ممرضة أخرى. في اليوم السابق، غضبت لأنني طلبت ألا تقترب من ابني. وما الذي جرى؟ كانت تخبط على صدر ابني. كنت أراقبها»، قلت وقد بدأت الدموع تترقرق في عينيّ. جفّفتهما. أحسست بالغباء والضعف، ثمّ قلت: «أتعرفين؟ اللعنة على كلّ ذلك. سأرفع قضية على المستشفى. لقد قتلتم ابني، ستدفعون ثمن ذلك».

بصراحة، لا أعرف كيف يعمل النظام القانونيّ. كنت أبذل كلّ ما في وسعي حتّى لا تقبض الشرطة عليّ. لكنّي شاهدت إعلانات كثيرة عبر التلفاز تجعلني أعتقد أنك إذا استطعت أن تحصل على مبلغ من المال، ورفعت دعوى قضائيّة بسبب الإصابة ببعض أمراض الرئة الناجمة عن الأسبستوس، فمن المؤكّد أنك ستحصل على مبلغ كبير إذا مات طفلك الذي يفترض أنّه يحصل على رعاية طبية جيّدة.

أمسكت سترة بدلتني بيد، وسحبت بريث باليد الأخرى نحو باب المكتب. ولمّا هممت أن أفتحه، سمعت صوت المحامية خلفي، وسألتنني: «سيّد باور، لماذا سترفع دعوى على المستشفى؟ إنك تمزح، أليس كذلك؟»

خطت خطوة إلى الأمام، وكرّرت ما قالته: «لماذا سترفع دعوى على المستشفى، في حين أنّ كلّ شيء يوحى بأنّ روث جيفرسون هي التي قتلت طفلك؟»

بعد قرابة سنة من إدارتي جماعة فرقة الموت في أمريكا الشمالية في هارتفورد، أصبح لدينا دخل ثابت، وأصبح بإمكانني الحصول على مسدّسات كولت من خلال تزوير سجلات المخزون، ثمّ بيعها في الشارع. في معظم

الأحيان، كنّا نبيعها للسود لأنّهم سيقتلون بها بعضهم بعضاً، ولأنّهم يدفعون ثمّن المسدّس ثلاثة أضعاف أكثر ممّا يدفعه الإيطاليون. كنت أنا ويوركي نتولّى هذه العملية. وفي إحدى الليالي، بينما كنا عائدتين من صفقة عقدها مع أحدهم، رأينا سيّارة شرطة تتبعنا بأضوائها التي تومض.

أصيب يوركي بالذعر، وقال: «اللعنة، يا رجل، ماذا سنفعل؟»

فقلت له: «دعنا نتوقّف إلى جانب الطريق وننظاها بأنّه لا يوجد لدينا مسدّس في السيّارة، لأنّ هذا ما تسأل عنه الشرطة، وأننا عائدتان من حفل في شقّة أحد أصدقائنا». لكن، ما إن طلب منّا رجال الشرطة أن نترجّل من السيّارة، بدأ يوركي يتصبّب عرقاً كأنّه عامل منجم فحم، وبدا كما لو أنه ارتكب جرماً عظيماً، وأظنّ أنّهم فتّشوا السيّارة عندما لاحظوا ذلك. انتظرت لأنني أعرف أنه لا يوجد شيء في السيّارة أخفيه، لكن من الواضح أنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى يوركي. فبينما كنت أفاوض الشخص على بيع المسدّس، اشترى يوركي ثماني كرات من مخدّر الميثامفيتامين.

وبما أنّها كانت مخبّأة في صندوق التابلو في سيّارتي، فقد اتّهمت بحيازتها. كان السجن عالماً أفهمه، حيث يُفصل الجميع، ويوضعون بحسب العرق. لمّا حُكِم عليّ بالسجن لمدة ستّة أشهر، قرّرت أن أمضي كلّ دقيقة فيه للتخطيط لأنتقم. كان يوركي يتعاطى المخدّرات قبل أن ينضمّ إلينا، لكن لم يكن أحد من أفراد فرقتنا يتعاطى مخدّرات، وكانوا يحرصون على ألا يضع أحدهم مخدّرات في صندوق التابلو في سيّارتي.

في السجن، كان عدد أفراد العصابات السود يفوق عدد العصابات الأخرى، ما جعل أعضاء العصابات البيض والإسبان اللاتينيين يتحدون معاً. لكن محاولة أن تُبقي رأسك مرفوعاً في السجن وتبتعد عن المشاكل كانت شيئاً صعباً. كنت أعرف أنّه لو كان في السجن أحد ينتمي إلى (حركة القوة البيضاء) فإنّه سيعثّر عليّ عاجلاً أم آجلاً - لكنّي كنت آمل ألا يجدي الزنوج أولاً.

أبقيتُ أنفي مدفوناً في الكتاب المقدّس. كنت في حاجة إلى الله في حياتي. وإذا لم يكن هناك أحد يدافع عنك، فمن الأفضل لك أن تأمل أن يقف الله إلى جانبك. لكنّي لم أكن أقرأ الأجزاء التي قرأتها من قبل في الكتاب المقدّس عندما كنت أدرس تعاليم الهوية المسيحيّة، لكنّي وجدت نفسي أقرأ بنهم الصفحات التي تتحدّث عن المعاناة والخلاص والأمل. صمتُ لأنني قرأت شيئاً عن الصيام في الكتاب المقدّس، وفي أثناء الفترة التي صمت فيها طلب الله إليّ أن أحيط نفسي بأشخاص يشبهونني.

في اليوم التالي، ذهبت لأحضر دروساً مع مجموعة دراسة الكتاب المقدس في السجن. كنت الرجل الوحيد الذي لم يكن أسود.

في البداية، راح أحدنا يحدّق إلى الآخر، ثمّ أشار الرجل، الذي يدير الاجتماع، بذقنه إلى شابّ لا يكبرني كثيراً، ليفسح لي مكاناً أجلس فيه إلى جانبه. أمسك أحدنا بيد الآخر، ولمّا أمسكت بيده، كانت ناعمة مثل يديّ أبي. لا أعرف لماذا خطر في بالي ذلك، لكن هذا ما بدأت أفكر فيه عندما بدؤوا يتلون الصلاة الربانيّة، وفجأة وجدت نفسي أتلوها معهم.

بدأت أحضر دروس الكتاب المقدّس كلّ يوم. ولمّا كنّا ننهى قراءة مقاطع من الإنجيل ونقول آمين، يسأل بيغ أيكي، الذي يدير المجموعة: «من لديه محاكمة غدًا؟» فيقول أحد منهم إنّ لديه جلسة استماع أولية، أو إنّ الضابط الذي اعتقله سيدلي بشهادته أو شيئاً من هذا القبيل، فيقول بيغ أيكي: «حسناً، دعونا نصلّ لأجلك لئلاّ يرميك الشرطيّ تحت عجلات أيّ حافلة»، ويقرأ مقطعاً من الكتاب المقدّس عن الافتداء.

كان توينكي الشابّ الأسود الذي يقاربنني في العمر. تحدّثنا كثيراً عن الفتيات اللاتي لم نعد نصاحبهنّ، لكن صدقاً تحدّثنا أكثر عن الطعام الذي كنا نتوق إلى تناوله عندما نخرج من السجن. قلت له إنّني مستعدّ لأن ارتكب جريمة لأحصل على طبق من مطعم تاكو بيل، أمّا توينكي فقد كان

يريد تناول وجبة من مطعم شيف بوياردي. على نحو ما، لم يهمني لون بشرته كثيراً، لكن لو كنت قد رأيته في شوارع هارتفورد، لركلته في مؤخرته، أما في السجن، فقد أصبح الأمر مختلفاً. وعندما نلعب معاً لعبة البستوني، كنا نغش بإعطاء إشارات بيدنا وبأعيننا نتفق عليها مسبقاً، لأنه لن يتوقع أحد أن يتعاون رجل أبيض مع فتى أسود.

في أحد الأيام، بينما كنت جالساً في الغرفة المشتركة مع بعض الرجال البيض نسمع إلى نشرة أخبار منتصف النهار عبر التلفاز، ذكر المذيع عن وقوع حادثة جري فيها تبادل إطلاق نار، وذكر عدد الأشخاص الذين أصيبوا مصادفةً، فقلت: «لهذا السبب فإننا نتصر على تلك العصابات، فهم لا يطلقون النار كما نفعول. إنهم لا يعرفون كيف يستخدمون السلاح، انظروا إلى قبضة الموت تلك. خراء زنجي أمودجي». لم يكن توينكي جالساً معنا، لكني رأيته جالساً في الجانب الآخر من الغرفة، عيناه ترمقاني. وفي المساء، لعبنا الورق لقاء سجاثر، ولما أعطيته إشارة بأن يرمي الديناري، رمى الإسباتي فخرسنا. وبينما كنا خارجين من القاعة، التفئتُ إليه، وقلت له: «ماذا فعلت بحق الجحيم؟ لقد أعطيتك إشارة».

فحدجني وقال: «أظن أن هذا خراء زنجي أمودجي».

قلت في نفسي: اللعنة، لقد جرحت مشاعره. ثم قلت، وماذا في ذلك؟

يبدو أنني لم أتوقف عن استخدام هذه الكلمة. لكني أعترف أنني عندما أقولها أحياناً، فإنها تعلق في حلقي مثل حسك سمكة قبل أن أتمكن من أن أطلقها.

* * *

بينما كنت أنتعل حذائي، دفعت بقدمي واجهة الجدار القديمة فتهاتوت على الشرفة، وتناثرت شظايا الزجاج. لمَّا رأني فرانسيس من النافذة الأمامية، ثنى ذراعيه وقوس حاجبيه.

قلت له: «لا يزال الأمر في غاية السوء، ولم أجد متنفساً بعد».
اندفع الهواء البارد إلى داخل المنزل من الفتحة التي أحدثتها في الجدار.
شعرت بالراحة لوجودي هنا.

«هل لهذا علاقة باجتماعك؟»، قال فرانسيس موحياً بأن سبب ذلك نصف الساعة التي أمضيتها في مركز الشرطة. فما إن أوصلت بریت، التي زحفت إلى السرير، حتّى عدت مباشرة إلى مركز الشرطة.

لم يكن بالإمكان حتى تسميته اجتماعاً. فقد جلست أمام شرطي بدين اسمه ماكدوغال سجّل الشكوى التي قدّمها ضدّ روث جيفرسون، وتمتم قائلاً: «إنّه سيُجري قليلاً من البحث»، وهذا يعني أنني لن أسمع منه مرّة أخرى.

«ماذا قلت له؟»

«قلت له إن تلك العاهرة قتلت ابني».

لم يكن ماكدوغال يعرف شيئاً عن ابني، أو ما الذي حدث في المستشفى، فحكيت له القصة المأساوية بأكملها مرّة أخرى، ثمّ سألني ماكدوغال ما الذي أريده منه، كما لو كان الأمر غير واضح.

قلت له: «أريد أن أدفن ابني، وأريد أن تدفع ثمن ما اقترفته يداها».

فقال: «ربّما أسأت تفسير ما رأيت لأنك كنت حزينا». فقلت له: «لم تكن تنعش القلب والرئتين فقط، وإنّما كانت تؤذي ابني. حتّى إنّ الطبيب طلب إليها أن تخفّف من حدّة ضغطها على صدره».

لمّا قلت له إنّها كانت تضمّر لي الشرّ، نظر ماكدوغال إلى وشمي على الفور، وقال: «إنّك تمزح».

قلت لفرانسيس: «إنّها جريمة كراهية عاهرة، هذا كلّ ما في الأمر، لكن لم يعد أحد يدافع عن البيض لأننا أصبحنا أقلية الآن».

اقترب والد زوجتي ووقف إلى جانبي، وأزال قطعة زجاج تتدلى من تجويف في النافذة بيديه العاريتين، وقال: «إنك تحاول أن تقنعني بما أنا مقتنع به يا تورك».

ربّما لم يتحدث فرانسييس عن القوة البيضاء علناً منذ سنوات، لكنّي عرفت بطريق المصادفة أنّه يخزّن أسلحة في مستودع مقفل يبعد ثلاثة أميال من هنا، استعداداً للحرب العرقيّة المقدّسة، وقال: «آمل أنّك ترغب في سدّها»، فتظاهرت بأنّه لا يقصد النافذة.

بعد لحظات، رنّ هاتفني الخليوي. أخرجته من جيبي، لكنّي لم أعرف من صاحب الرقم الذي ظهر على الشاشة. قلت: «هالو؟»

«السيد باور؟ أنا السرجنت ماكدوغال، تحدّثنا قبل ظهر اليوم؟»

لففتُ يدي حول الهاتف واستدرت، مشكّلاً بظهري جداراً من الخصويّة.

«أردت أن أقول لك أنّه أتاحت لي فرصة التحدّث إلى إدارة المخاطر في المستشفى والطبيب الشرعيّ أيضاً. وقد أكّدت كارلا لونغو قصّتك. قال لي الطبيب الشرعيّ إنّ ابنك مات بسبب نوبة سكر الدم أدّت إلى توقّف التنفّس، ثمّ إلى توقّف القلب».

«وماذا يعني ذلك؟»

فقال: «حسناً، سلّمت شهادة الوفاة إلى المستشفى. يمكنك أن تدفن ابنك».

أغمضتُ عينيّ. للحظة، لم أجد رداً، ثمّ قلت: «حسناً».

«وهناك شيء آخر يا سيّد باور»، أضاف السرجنت ماكدوغال، «أكّد الطبيب الشرعيّ وجود كدمات فوق القفص الصدريّ لابنك».

توقّف مستقبلي كلّهُ على النفس بين هذه الجملة والجملة التي ستليها.

«ثمّة دليل على أنّه قد يكون لروث جيفرسون سبب في موت ابنك»، قال ماكدوغال، «وقد يكون قد حدث ذلك نتيجة دوافع عنصريّة»، ثمّ أضاف، «سأُتصل بمكتب المدّعي العامّ».

«شكراً لك»، قلتها بجفاف، وأغلقت الهاتف. ثمّ تداعت ركبتي، ووقعت أمام العتبة التي حطمتها. شعرت بيد فرانسيس على كتفي، وعلى الرغم من أنه لا يوجد حاجز يفصل بيني وبين الخارج، بدأت أتنفس بصعوبة.

«أنا آسف يا تورك»، قال فرانسيس، مسيئاً تفسير استجابتي.

«لا داعي للأسف»، نهضت وركضت إلى غرفة النوم المعتمة حيث تستلقي بريت تحت كومة من الأغطية. فتحت ستائر النافذة فغمرت أشعة الشمس الغرفة. انقلبت على ظهرها، ورفّت بعينها مذعورة. أمسكت بيدها.

لم أستطع أن أمنحها طفلنا، لكنني أستطيع أن أقدم لها الآن أفضل شيء بعده.

العدالة.

بينما كنت أخطئ للانتقام من يوري في الفترة التي أمضيتها في السجن طوال ستة أشهر، تحالف مع عصابة لسائقي الدراجات النارية، تطلق على نفسها اسم (الوثنيون)، بلطجية ضخام الجثث، أظنّ أنهم يتعاطون مخدّر الميثامفيتامين مثله، وكانوا سعداء لحمايته، إن كان ذلك يعني أنّ في استطاعتهم الإطاحة بزعيم فرقة الموت في أمريكا الشمالية، التي يقع مقرها في هارتفورد.

لما خرجت من السجن، حاولت في اليوم الأول أن أجمع شمل أعضاء فريقتي القدامى، وبما أنهم عرفوا أنني سُجنت، واعتذروا كلّهم عن مساعدتي، قلت لهم: «لقد تخلّيت عن كلّ شيء لأجلكم، أهكذا هي مكافأتكم لي؟»

لكن، لن أسمح أن يظنّ أحد أنّ دخولي السجن جعل حماسي تخبو. في تلك الليلة بالذات، ذهبت إلى مطعم البيتزا، الذي يُعدّ مقراً غير رسمي لهم، وانتظرت حتى سمعت هدير عشرات الدراجات النارية، ثمّ توقّفت. خلعتُ سترتي، وطققت مفاصلي، وخرجتُ إلى الزقاق خلف المطعم.

كان يوركي، ابن القهاء، مختبئاً وراء ستار من العضلات، طول أصغر واحد فيهم
قاربة مترين، ولا يقل وزنه عن مئة وأربعين كيلوغراماً.

مع أنّ حجمي أصغر منهم جميعاً، لكنني أمتاز بسرعة الحركة، ولم يتدرب أيّ من
هؤلاء الرجال على قبضة يد جدّي.

كنت أتمنى أن أخبركم بما جرى في تلك الليلة، لكن كلّ ما يمكنني قوله هو ما
سمعتُه من الآخرين: كيف اندفعتُ مثل وحش هائج نحو أضخم رجل فيهم، ورفعت
ذراعي، ووجّهتها إليه بسرعة كبيرة، فوقعت لكما تي على فمه مباشرة، وسقط صفّ
أسنانه الأمامية كلّها؛ وكيف رفعت أحدهم من قدميه وألقيت به مثل قذيفة مدفع
فوق الرجال الآخرين؛ وكيف ركلت راكب دراجة نارية بقوة على كليته، وسمعت أنّ
لون بوله ظلّ أحمر طوال شهر؛ وكيف أنّ الدم سال في الزقاق كما يسيل المطر على
الرصيف.

كلّ ما أعرفه أنّه لم يبقَ لي شيء لأخسره سوى سمعتي، وهذا يكفي لأنّ أشنّ حرباً.
لا أذكر أيّ شيء فعلته، سوى أنّي استيقظت في صباح اليوم التالي في مطعم البيتزا،
وقد وضعوا كيس ثلج على يدي المكسورة، وعيني المتورّمة.

لا أتذكر شيئاً ممّا جرى حينذاك، لكنّ الخبر انتشر في كلّ مكان، ومع أنّي لا أتذكر
شيئاً، أصبحت أسطورة مرة أخرى.

في اليوم الذي دُفن فيه ابني، كانت الشمس مشرقة، وكانت الريح تهبّ من
الغرب كما لو أنّ لها أسناناً. وقفت أمام الحفرة الصغيرة في الأرض.

لا أعرف من الذي نظّم كلّ هذه الجنازة. فقد كان على أحدهم أن يتصل ليحصل
على قطعة أرض، وإبلاغ الآخرين بموعد إقامة مراسم الصلاة. أظنّ أنّ فرانسيس هو
الذي وقف أمام النعش وراح يتلو آية من الكتاب المقدّس: «لأجل هذا الصّبي صليتُ
فأعطاني الرّبّ سؤالي الذي سألتُه من لدنّه، وأنا أيضاً أعرتُه للرّبّ جميع أيام حياته
للرّبّ. وسجد هناك للرّبّ».

تجمّع رفاق فرانسيس وبعض صديقات بریت في الحركة، بالإضافة إلى أشخاص لا أعرفهم، ليقدموا العزاء لفرانسيس، كان أحدهم توم ميتزجر مؤسس حركة المقاومة الآرية البيضاء، الذي يبلغ الثامنة والسبعين من عمره. وهو شخص منكفئ على نفسه مثل فرانسيس.

لمّا أجهشت بریت إلى البكاء في أثناء تلاوة المزمور، مددتُ لها يدي، لكنها سحبتها على الفور، والتفتت إلى ميتزجر الذي كانت تدعوه «العم تومي»، مذ كانت صغيرة، فوضع يده حول خصرها، وحاولتُ ألا أشعر بأنّ غيابها بمنزلة صفة لي.

سمعت اليوم الكثير من العبارات والكلمات التافهة المكرّرة مثل: إنّه أصبح في مكان أفضل؛ إنّه جنديّ شهيد؛ إنّ الزمن كفيل بمعالجة كلّ الجروح. لكنّ الشيء الذي لم يقله لي أحد إنّ الحزن وحيد. فمهما كان الشخص الآخر الذي جاء لتعزيتك، فإنّك تظّل وحدك قابعاً في زنازة صغيرة. حتّى عندما يحاول الآخرون مواساتك، فإنّك تدرك أنّ هناك حاجزاً بينك وبينهم، مصنوعاً من ذلك الشيء الفظيخ الذي حدث، والذي يجعلك تظّل معزولاً. كنت أظنّ أنّنا، بریت وأنا، سننألم، في الأقل، معاً، لكنّها لم تعد تطيق أن تنظر إلى وجهي. تساءلت عمّا إذا كان تصرّفها هذا ناجم عن السبب عينه الذي جعلني أتجنّبها: لأنني عندما أنظر إلى عينيها، بدأت أراها في وجه ديفيس، وعندما أرى الغمّامة التي تزيّن ذقنها يخيل إليّ أنّه توجد لدى ابني غمّامة مثلها. لقد أصبحت هي - التي كانت كلّ ما أصبو إليه - ذكرى مستمرة لكلّ ما فقدته.

رَكَزْتُ انتباهي على التابوت عندما بدأ ينزل إلى الأرض. فتحتُ عينيّ على وسعيهما لئلا تترقق الدموع في عينيّ، وكي لا أبدو ضعيفاً.

بدأت أدوّن في رأسي بعض الأشياء. الأشياء التي لن أراها أبداً في ابني: أن أراه يتسم للمرة الأولى، وأحتفل بأول عيد ميلاد له، وأجلب له مسدساً

هوائياً، وأنصحه كيف يسأل فتاة أن تخرج معه. معالم إرشادية، لكن يبدو أن معالم طريق الأبوة قد اختفت، بالنسبة إليّ.

وقف فرانسيس أمامي فجأة يحمل بيده المجرفة. ابتلعت ريقي بصعوبة، وأخذتها منه، وأصبحت أول شخص يبدأ بدفن ابني. بعد أن ألقيت حفنة من التراب في الحفرة، غرزتُ المجرفة في الأرض. ساعد توم ميتزجر بريت في أن ترفعها، ففعلت ذلك ويدها ترتعشان.

أعرف أنني يجب أن أقف متيقظاً في حين يوارى الجميع ديفيس التراب، لكنّ عقلي كان منشغلاً في مقاومة الرغبة في أن أنزل إلى تلك الحفرة، وأزيل التراب بيديّ العاريتين، وأرفع التابوت وأفتحه وأنقذ ابني. تمالكت نفسي بقوة حتّى أخذ جسدي كلّه يرتعش بقوة.

ثمّ حدث شيء بدّد كلّ هذا التوتر الذي كان يحيط بصمّام الأمان حتّى يتلاشى البخار الذي يعتمل داخلي. فقد انسَلَّت يد بريت إلى يدي، عيناها لا تزالان خاويتين من أثر المهدّئات والألم. كان جسدها بعيداً عنّي، لكن من المؤكّد أنّها مدّت لي يدها. لا بدّ أنّها في حاجة إليّ.

للمرّة الأولى منذ أسبوع، بدأت أقول لنفسي إنّنا نستطيع أن نتجاوز هذه المحنة.

* * *

عندما يدعوك فرانسيس ميتشوم، فلا بدّ أن تلبّي الدعوة على الفور. بعد المشاجرة التي نشبت بيني وبين «الوثنيين»، تلقّيت رسالة مكتوبة بخطّ فرانسيس قال فيها إنّهُ سمع تلك الشائعات، ويريد أن يتأكّد إن كانت صحيحة. دعاني إلى لقائه يوم السبت القادم في نيو هافن، وذكر عنوان المكان. لمّا وصلت إلى العنوان المحدّد وسط أراضٍ زراعيّة فوجئت عندما رأيت جميع السيارات مركونة أمام البيت، وقلت في نفسي ربّما كان اجتماعاً لأعضاء فريقه.

لَمَّا قرعت جرس الباب، لم يجبني أحد، لكنِّي سمعتُ حركةً في الفناء الخلفيِّ، فسرت إلى جانب المنزل، ودخلت عبر السياج المفتوح.

على الفور، رأيت عدداً من الأطفال في نحو الخامسة من أعمارهم، مع أنه ليست لديَّ خبرة في تقدير أعمار الناس بهذا الحجم. كانوا يركضون في اتجاه امرأة تمسك مضرب بيسبول، تحاول أن تجمع الأطفال غير المنضبطين ليصطفّوا في رتل. «إنَّه عيد ميلادي»، قال أحد الأطفال، «لذلك يجب أن أكون الأول»، وأخذ المضرب وراح يلوّح به أمام دمية: زنجيِّ مصنوع من الورق يتدلَّى من أنشودة.

حسناً، في الأقلِّ، عرفت أنني في المكان الصحيح.

التفتُّ إلى الجانب الآخر، وأصبحت وجهاً لوجه مع فتاة تحمل نجوماً في يديها، شعرها طويل مجعَّد، وعيناها زرقاوان كاشفتان.

دُهِشت مئات المرّات قبل الآن، لكنِّي لم أدهش كما دُهِشت الآن. حتّى إنَّني نسيت كلمة مرحباً.

«حسناً»، قالت، «أظنُّ أنّك كبير بعض الشيء على هذه الألعاب، لكن يمكنك أن تأخذ دوراً إذا أردت».

حدّقت إليها، مرتبكاً، حتّى عرفت أنها تشير إلى ملصق صورة لشخص ذي أنف معقوف مثبتة على حائط جانبيِّ. نعم، أردت أن ألعب، لكن لم يخطر في بالي أنني يجب أن أصيب بالسهم وجه ذاك اليهوديِّ.

قلت لها: «إنِّي أبحث عن فرانسيس ميتشوم. لقد طلب أن يراني؟»

نظرت إليَّ، مضيقّة عينها، وقالت: «لا بدَّ أنّك تورك. إنَّه ينتظرك». استدارت، ودخلت المنزل بسهولة شخص اعتاد أن يتبعها.

كان في المطبخ نساء عديدات، يتنقلن بين الثلاجة والخزانات، يثبّن مثل حبّات الفشار في صينية ساخنة، تندفع الواحدة تلو الأخرى بأوامر: أحضري الأطباق! لا تنسي الآيس كريم. وكان في الداخل عدد أكبر من الأطفال،

لكنهم أكبر سناً - يافعون، ذكروني بنفسى منذ فترة ليست بعيدة - استعبدهم الرجل الواقف أمامهم. كان فرانسيس ميتشوم أقصر قامة ممّا أذكّر، لكنّه كان واقفاً على منصّة عندما رأيته آخر مرّة. أبعد شعره الفضيّ الغزير عن وجهه، وكان يلقي محاضرة حول لاهوت الهوية المسيحيّة. لمّا قال: «مارست الأفعى الجنس مع حواء»، نظر الفتیان إلى بعضهم عندما ذكر كلمة «جنس»، كما لو أنّ سماعها تُنطق بصوت عالٍ، يعدُّ ترحيباً بهم إلى حرم البلوغ، «وإلاّ لماذا يقول الربُّ إنّه لا يمكنها أن تأكل تفّاحة؟ إنهما في حديقة. إنّ التفاحة رمز. جاء الشيطان إلى حواء متلبساً في شكل أفعى، وأغواها لممارسة الجنس معه، وحيلت. ثمّ عادت إلى آدم وأغوته لمواجعتها، فأنجبت قابيل الذي ولد وقد رُسمت علامة الشيطان عليه - 666، نجمة داود. هذا صحيح، كان قابيل أول يهودي، لكنّها أنجبت أيضاً هايبيل، ابن آدم. ثمّ قتل قابيل هايبيل لأنّه يغار. إنّه من نسل الشيطان».

«هل تؤمن بهذا الهراء؟» سألتني الفتاة الجميلة الواقفة إلى جانبي. كان صوتها ناعماً جداً. شعرت كأنّ سؤالها فخّ.

كان بعض أعضاء حركة القوّة البيضاء من أتباع «الهوية المسيحيّة»، وبعضهم الآخر ليسوا من أتباعها. كانت رين وفرانسيس وأنا نعتقد أنّنا نحن «بيت إسرائيل» الحقيقيّ الذين اختارنا الربّ، أمّا اليهود فهم دجّالون، وسيُمحون عن الوجود في الحروب العرقيّة.

ابتسمتُ ابتسامة عريضة، وقلت: «لمّا كنت في مثل عمرهم تقريباً، كنت جائعاً جداً وسرقت قطعة نقانق في محطة وقود. لم أكن أبالي كثيراً بالسرقة، لكنّي كنت مقتنعاً طوال أسبوعين بأنّ الربّ سيضربني وينتقم مني لأنّني أكلت لحم خنزير».

لمّا التقت أعيننا، شعرت كأنّها المسافة بين اللحظة التي تشعل فيها ضوء الموقد، واللحظة التي يشتعل فيها ويصبح أزرق. أحسست بأنّني سأنفجر.

«أبي»، قالت، «ضيفك هنا».

«أبي؟»

نظر فرانسيس ميتشوم إليّ، محوّلًا انتباهه عن مجموعة اليافعين الذين يتحدث إليهم، والذين راحوا يحذّقون إليّ أيضاً.

سار فرانسيس بين الفتیان وربّت على كتفي، وقال: «تورك باور. أنا سعيد أنك أتيت».

فأجبتّه: «إنّه لشرف كبير لي أن أدعى».

قال فرانسيس: «أرى أنك رأيت بريتاني منذ قليل».

«بريتاني. لم أتعرف إليها رسمياً»، ومددت يدي، وقلت: «مرحباً».

«مرحباً»، كرّرت بريت وضحكت. استمرت ضحكتها لحظة طويلة، لكنّها لم تكن كافية كي يلاحظها أحد.

ما عدا ميتشوم، الذي - أظنّ - لا تفوته أشياء كثيرة، قال: «دعنا نتمشّ قليلاً؟» ومشيت إلى جانبه، وعدنا إلى الفناء الخلفي.

تحدّثنا عن الطقس (بدأ الربيع متأخراً هذه السنة) وعن قيادة السيارة من هارتفورد إلى نيو هافن (توجد أعمال إصلاح كثيرة على الطريق السريع). كمّا وصلنا إلى ركن في الفناء، إلى جانب شجرة تفّاح، جلس ميتشوم على كرسيّ حديقة وأشار إليّ أن أجلس أيضاً. من المكان الذي جلسنا فيه، كنّا نرى لعبة بيناتا. جاء دور الصبيّ صاحب عيد الميلاد ليضرب اللعبة بالمبرب. لم تسقط أيّ قطعة حلوى حتّى الآن. قال ميتشوم: «هذا ابني بالمعمودية».

«إني أتساءل لماذا دعوتني إلى حفل للفتيان؟».

فقال: «أحبُّ أن أتحدّث إلى الجيل القادم، فذلك يجعلني أشعر بأنني شخص مهم».

«لم أكن أعرف ذلك يا سيدي. أريد أن أقول إنك لا تزال مهمماً».

فقال ميتشوم: «لقد صنعت لنفسك اسماً جيداً مؤخراً».

هزرت رأسي. لم أكن متأكداً لماذا يريد فرانسيس ميتشوم أن يراني.

قال: «سمعتُ أنّ زنجياً قتل شقيقك، وأنَّ أباك مزارع».

اشتعل رأسي، واحمرَّ خدّاي، وقلت له: «لم يعد أبي».

«هدئي من روعك يا بني. لا يمكننا أن نختار والدينا. المهمُّ هو ما نختار أن نجعل

منهما». نظر إليّ، وسألني: «متى رأيته آخر مرّة؟»

«عندما ضربته حتّى أغمي عليه».

مرة أخرى، شعرت أنني أجتاز اختباراً، وأن عليّ أن أجيب عن الأسئلة بحذر، لأنّ

ميتشوم واصل حديثه، «لقد بدأت تجمع فريقك، وبحسب روايات عدّة، فأنت أفضل

شخص يجنّد أعضاء في الساحل الشرقيّ. فقد جعلت شخصاً تافهاً في المرتبة الثانية في

القيادة، ثمّ لقتنه درساً عندما خرجت من السجن».

«فعلت ما كان عليّ فعله».

أجابني ميتشوم: «حسناً، لا يوجد أشخاص كثيرون مثلك هذه الأيام. كنت أظنّ أنّ

الشرف سلعة توشك أن تنقرض».

في تلك اللحظة، أصاب أحد الفتيان اللعبة وقطع عنقها، فتناثرت قطع الحلوى

فوق العشب. انهال الصبية عليها، وراحوا يجمعون قطع الحلوى في قبضاتهم.

خرجت والدة الفتى صاحب عيد الميلاد من المطبخ ويدها طبق مملوء بقطع

الكيك، وبدأت تغني «عيد ميلاد سعيد»، فتجمّع الصبية حول طاولة الحديقة.

خرجت بريتاني إلى الشرفة، أصابعها زرقاء من طبقة الكريمة.

قال ميتشوم: «لَمَّا كنت أدير فرقة، لم يُقبض على أحد في الحركة بتهمة الإدمان. أما الآن، لأجل حبِّ الربِّ، فإنَّ الفتيان الآريين يتعاونون مع الهنود الحمر في المحميات لصنع الميثامفيتامين في مكان لا تستطيع الشرطة الفدرالية أن تصل إليه».

عيد ميلاد سعيد!

قلت لميتشوم: «إنَّهم لا يتعاونون، وإنَّما يتحدون معاً لمواجهة أعداء مشتركين: المكسيكيون والسود. إنِّي لا أدافع عمَّا يفعلونه، لكنِّي أفهم لماذا يمكن أن يكونوا حلفاء غير محتملين».

عيد ميلاد سعيد عزيزي جاكسون!

ضيق ميتشوم عينيه، وكرَّر قائلاً: «حلفاء غير محتملين. مثال على ذلك، رجل عجوز ذو خبرة... وشاب لديه أكبر بيضتين رأيتهما في حياتي. رجل يعرف الجيل السابق من الأمريكيين البيض يمكنه أن يقود الجيل التالي. شخص نشأ في الشوارع... وشخص نشأ مع التكنولوجيا. لماذا يمكن أن يكون ذلك مزاجاً؟».

عيد ميلاد سعيد!

في الجانب الآخر من الفناء، رأيتي بريت واحمرَّ وجهها. قلت: «إنِّي أستمع».

* * *

بعد انتهاء مراسم الجنازة، عاد الجميع إلى منزلنا حيث قُدِّمت أطباق عدَّة وأنواع من الفطائر متنوعة، لم أتناول منها شيئاً، ولم يتوقَّف الناس عن تعزيتي والإعراب عن أسفهم وحنزهم، كما لو أنَّ لهم علاقة بما جرى. جلس فرانسيس وتوم في الشرفة التي لا تزال فيها بعض شظايا الزجاج، التي تناثرت من نافذتي، يشربان زجاجة الويسكي التي أحضرها توم.

جلست بریت علی الأریكة كأنها زهرة تحيط بها صديقاتها كأنهن بتلات. وحينما يقترب منها أحد لا تعرفه جيداً، كنَّ يقتربن منها كثيراً، ويلتفتفن حولها، ثمَّ يغادرن ويقلن لها أشياء من قبيل: اتصلي بي إذا احتجتِ إليّ، ومع مضي كلِّ يوم، سيصبح الأمر أسهل قليلاً. بعبارة أخرى: كلُّها أكاذيب.

بينما كنت أودّع آخر ضيف، توقّفت سيّارة. فُتح الباب وترجّل منها ماكدوغال، السرجنت الذي أخذ إفادتي. صعد الدرج إلى حيث أقف واضعاً يديه في جيبه، وقال بخشونة: «لا توجد لديّ معلومات جديدة لك الآن. جنّت لأقدّم لك تعازي».

أحسست أنّ بریت جاءت ووقفت خلفي مثل ظلّ، فقلت لها: «حبيبتي، هذا هو السرجنت الذي سيساعدنا».

سألته: «متى؟»

فقال: «حسناً يا سيّدي، التحقيقات في هذه الأشياء تأخذ وقتاً...»

راحت بریت تكرر: «هذه الأشياء، هذه الأشياء»، ثمَّ دفعتني جانباً واقتربت من الشرطيّ كثيراً، وقالت: «ابني ليس شيئاً، ولم يكن»، ثمَّ قالت مصحّحة، وصوتها يتهدّج، «لم يكن شيئاً».

ثمَّ استدارت واختفت داخل المنزل. نظرتُ إلى الشرطيّ، وقلت: «كان يوماً عصبياً».

«أفهم ذلك. عندما يتصل بي المدّعي العامّ، فسأكون في...»

لم يكمل جملته حتّى عمّ صوت ارتطام صاحب خلفي. «يجب أن أذهب»، قلت له، وأغلقت الباب في وجهه.

سمعت صوت ارتطام آخر قبل أن أصل إلى المطبخ. ما إن خطوت إلى داخل المطبخ حتّى طار صحن خزفيّ ومرّ إلى جانب وجهي، وارتطم بالحائط خلفي. «بريت»، صرخت وجريت نحوها، فألقت كأساً أصابت رأسي، وأصابت جفني، وللحظة، رأيت النجوم تتطاير أمام عينيّ.

«هل يفترض أن يجعلني ذلك أشعر على نحو أفضل؟» صاحت بریت، «إني أكرههم».

«حبيبتی»، أمسكتها من كتفها، «إنهم يحاولون أن يكونوا لطيفين».

قالت وبدأت الدموع تسيل على وجهها: «لا أريد أن يكونوا لطيفين. لا أريد مشاعر الشفقة تلك. لا أريد شيئاً سوى تلك القحباء التي قتلت ابني».

ضممتها إليّ، لكنّها ظلّت متيبسة، وقلت: «لم ينته الأمر بعد».

فجأة دفعتني بقوة إلى الوراء، وقالت، وقد امتلأت كلماتها بالسمّ حتّى شعرت بالشلل: «سيظلّ الأمر كذلك إذا لم تكن رجلاً حقيقياً».

خفقت عضلة في فكيّ، وأحكمت قبضتي، لكنني لم أفعل شيئاً. جاء فرانسيس الذي كان قد دخل الغرفة في لحظة ما، ووقف وراء بریت، وطوّق خصرها بذراعه، وقال لها: «تعالي الآن أيتها الخنفساء الصغيرة، لنصعد إلى الطابق العلويّ»، وأخرجها من المطبخ.

عرفت ما الذي تقصده: إنّ المحارب لا يعدّ محارباً حقيقياً إذا كان يحارب من وراء شاشة الكمبيوتر. صحيح أنّ فكرة العمل السريّ في حركتنا هي من بنات أفكار فرانسيس، وهي خطة رائعة وماكرة - لكنّ بریت على حقّ. فهناك فرق كبير بين البهجة الفورية التي تأتي من توجيه ضربة قوية، والفخر المتأخّر الذي يأتي نتيجة بثّ الذعر عبر الإنترنت.

أخذت مفاتيح السيارة من على طاولة المطبخ. بعد لحظات، كنت أتجوّل وسط المدينة، بالقرب من خطّ السكّة الحديدية. فكّرت في أن أبحث عن عنوان تلك الممرضة السوداء، فلديّ الخبرة التكنولوجية التي تمكّني من العثور عليه في أقلّ من دقيقتين، وهي المدّة التي يستغرقها رجال الشرطة لتوجيه أصابع الاتهام إليّ إذا ما حدث لها شيء أو لممتلكاتها.

لكنني ركنت سيّارتي أسفل جسر سكّة الحديد، وترجّلت من السيارة. بدأ قلبي يخفق بقوة، وارتفع الأدرينالين داخلي. مرّ زمن طويل لم أفعل

فيه شيئاً كهذا، ونسيت كيف يمكنني أن أشعر، بعكس أيّ شيء قد يسببه الكحول أو الرياضة أو حتّى الوقوع في الحبّ.

كان أولّ من اعترض طريقي رجل فاقد الوعي، متشرّد، لم أعرف إن كان سكراناً أم مخدراً، نائماً فوق قطعة من الورق المقوّى تحت جبل من أكياس بلاستيكيّة. لم يكن أسود البشرة، وإمّا كان... سهل المنال.

أمسكته من حنجرته. أخذ يرتجف من كابوس إلى آخر. «إلى ماذا تنظر؟» صرخت في وجهه وأنا أمسك به من رقبتة بقوة، حتّى لا ينظر إلى شيء سواي، «ما مشكلتك بحقّ الجحيم؟»

ثمّ نطحته برأسي على فمه، فخلعت أسنانه، ثمّ رميته على الرصيف مرة أخرى، وسمعت صوت صدع عندما ارتطمت جمجمته بالرصيف.

مع كلّ ضربة وجّهتها إليه، كنت أتنفّس براحة أكبر. لم أفعل ذلك منذ سنوات، لكن بدا لي ذلك كأنّه البارحة - تمتلك قبضتاي ذاكرة عضليّة. رحمت أكيل اللكمات إلى وجه هذا الرجل الغريب حتّى أصبح شخصاً لا يمكن التعرف إليه بسهولة، لأنّها الطريقة الوحيدة ليتذكّر من أكون.

روث

حينما تكونين ممرضة، فإنك تعرفين أكثر من أي شخص آخر أن الحياة لا تتوقف، وأن هناك أياماً جيّدة، وهناك أياماً سيئة، وهناك مريضات لا يفارقن ذاكرتك، وأخريات لا يمكنك أن تنتظري حتى نسيانهنّ. لكن، توجد دائماً أم أخرى في مرحلة المخاض أو توشك أن تلد، تدفعك إلى الأمام. هناك دائماً محصول جديد من البشر الصغار الذين لم يكتبوا حتى الجملة الأولى في قصص حيواتهم. في حقيقة الأمر، إنّ عمليّة الولادة أشبه بخط تجميع، تفاجئني دائماً عندما أضطرّ إلى أن أتوقّف وأنظر مرتين - كما لو أنّ طفلة ساعدت في ولادتها كما يبدو لي البارحة، تصبح فجأة مريضتي، وتريد أن تنجب طفلها. أو عندما يرنّ جرس الهاتف، وتسالني محامية المستشفى إن كان بإمكانني أن أذهب إلى مكتبها لتحدّث.

لست متأكّدة أنّ ممة حديثاً كان قد دار بيني وبين كارلا لونغو من قبل. في الواقع، لست متأكّدة إن كنت أعرف من هي محامية المستشفى - عفواً، مسؤولة الاتصال في إدارة المخاطر - اسمها كارلا لونغو. لكن حتى في ذلك الوقت، لم أواجه أيّ مشكلة، لم أكن أشكّل خطراً تنبغي إدارته.

مضى أسبوعان على وفاة ديفيس باور - أربعة عشر يوماً وأنا أذهب إلى عملي وأؤدّي واجبي: أعلّق الحقن الوريدية، وأطلب إلى النسوة أن يضغطن بقوة، وأعلمهنّ كيف يجعلن المولود الجديد يتعلّق بهنّ. لكن الأهمّ من كلّ ذلك، مضت أربع عشرة ليلة وأنا أستيقظ مجفلة، لا أعيش موت ذلك الرضيع، وإثما اللحظات التي سبقت ذلك. أستعيدها في شريط يجري بحركة بطيئة، وأعيده وأمحو حواف ما قيل في رأسي حتى أبدأ أصدّق ما قلته لنفسي. وما قلته للآخرين.

وما قلته لكارلا لونغو عبر الهاتف عندما اتّصلت بي.

«سأكون سعيدة بلقائك»، قلت لها، في حين كنت أقصد حقاً: هل أنا في ورطة؟

أجابت: «رائع. هل الساعة العاشرة وقت مناسب؟»

بما أنّ ورديتي ستبدأ اليوم الساعة الحادية عشرة، قلت لها حسناً. وبينما كنت أسجّل رقم الطابق الذي يوجد فيه مكتبها، دخل إديسون المطبخ. مرّاً إلى جانبي وفتح الثلاجة، وتناول منها زجاجة عصير البرتقال. بدا لي أنّه سيشرّب العصير من القنينة مباشرة، فرفعت حاجبي، لكن بدا أنّه لم يستجب.

«روث؟»، قالت كارلا لونغو في أذني، «هل أنتِ هناك؟»

«نعم، آسفة.»

«أراك في الموعد المحدّد إذًا؟»

«أنطّلِع إلى ذلك»، قلت لها بزهو، وأغلقت الخطّ.

جلس إديسون ووضع كومة من الحبوب في الصحن، وسألني: «هل كنتِ تتحدّثين

إلى شخص أبيض؟»

«ما هذا السؤال؟»

هزّ كتفيه بلا اكتراث، وصبّ الحليب في صحنه، ولفّ جوابه حول الملعقة التي وضعها في فمه، ثمّ قال: «صوتك بدأ يتغيّر.»

كان جورب كارلا لونغو منسولاً. كان ينبغي لي أن أفكّر في أشياء عدّة أخرى، بما في ذلك سبب هذه المقابلة، لكنّي رحّت أرگز على النسل الممتدّ في جوربها، وقلت في نفسي، لو كانت واحدة أخرى - امرأة أعدّها صديقة - لأخبرتها همساً بالأمر كي أجنبها أيّ شعور بالحرج.

مع أنّ كارلا ظلّت تقول إنّها تقف إلى جانبي (هل يوجد جانبان؟) وإنّ هذا ليس إلاّ إجراء شكلياً، وجدت صعوبة كبيرة في تصديقها.

أمضيت العشرين دقيقة الماضية وأنا أحكي لها بالتفصيل كيف انتهى بي الأمر وحدي مع طفل باور في غرفة الحضانة، لكنَّ المحامية ظلَّت تكرر: «إذًا، طُلب إليك ألا تلمسي الرضيع».

«نعم»، قلت لها للمرَّة العشرين.

«ولم تلمسيه حتَّى... كيف يمكنك التعبير عن ذلك؟» وهي تنقر بغطاء قلمها على الطاولة.

«حتَّى طلبت إليَّ ماري، الممرضة المسؤولة».

«وماذا قالت؟»

«طلبت إليَّ أن أضغط»، قلت وتنهَّدت، «انظري، لقد دوَّنت كلَّ ذلك. لا يمكنني أن أخبرك أيَّ شيء لم أخبرك به حتَّى الآن. ومناوبتي توشك أن تبدأ، فهل انتبهينا هنا؟» مالت المحامية إلى الأمام؛ مرفقاها متوازنان فوق ركبتيها، وسألتنِي: «هل حدث أيُّ تواصل بينك وبين والديين؟»

«قليلاً. قبل أن أُنمَّع من رعاية الطفل».

«هل كنتِ غاضبة؟»

«عفوًا؟»

«هل كنتِ غاضبة؟ أقصد، بقيتِ تقدِّمين الرعاية للطفل بعد أن طُلب إليك ألا تفعلي ذلك؟».

«كان لدينا نقص في عدد الممرَّضات. كنت أعرف أن كورين، أو ماري، ستأتي لتتسلَّم مِنِّي»، أحببتها، لكنِّي سرعان ما أدركت أنني لم أجب عن سؤالها، «لم أكن غاضبة».

فقالَت المحامية: «لكنَّ الدكتورة أتكنز قالت إنك قلت شيئاً يتعلَّق بتعقيم الطفل».

سقط فكّي. «هل تحدّثتِ إلى طبيبة الأطفال؟»

فقلت: «عملي يستدعي أن أتحدّث إلى الجميع».

نظرتُ إليها، وقلت: «كان من الواضح أنّ الوالدين يعتقدان أنني ملوثة. كانت مجرد مزحة غبية»، مزحة لا تعني شيئاً على الإطلاق، لو لم تحدث الأمور الأخرى. إذا. إذا. إذا.

«هل كانت عينك على الطفل؟ هل كنت تنظرين إليه؟»

تردّدتُ، حتّى في هذا التناقض، شعرت أنّ هذه هي النقطة الأساس، اللحظة التي سأندكّر فيها كلّ شيء بالتفصيل. لا يمكنني أن أقول للمحامية إنني لم أنفّذ تعليمات ماري، لأنّ ذلك قد يكلفني وظيفتي، لكن لا يمكنني أن أخبرها بأنني حاولت أن أنعش الرضيع، لأنّ هذه التعليمات ستبدو فجأة شرعيّة.

منذ أن لمست ذلك الطفل، ومات.

«كان الطفل بخير؟» قلت بحرص، «ثمّ سمعته يلهث».

«ما الذي فعلته؟»

نظرت إلى كارلا لونغو، وقلت لها: «لقد اتبعت التعليمات. طُلب إليّ ألا أفعل أيّ شيء، فلم أفعل»، تردّدت، ثمّ قلت: «كما تعرفين، ربّما نظرت ممرضة أخرى، لو كانت في مكاني، إلى تلك الملاحظة في ملفّ الطفل ووجدتها... متحيّزة».

عرفتُ ما ألمحتُ إليه: يمكنني أن أرفع دعوى على المستشفى بتهمة التمييز، أو أنّي أردتها أن تفكّر، في الأقلّ، في أنني أستطيع أن أفعل ذلك، مع أنّ عمل ذلك سيكلفني نقوداً لا أملكها لقاء أجور محام، بالإضافة إلى صداقاتي ووظيفتي.

فقلت كارلا بسلاسة: «بطبيعة الحال، إننا لا نريد ذلك في فريق العمل لدينا»، بمعنى آخر: استمرّي في التهديد بمقاضاة المستشفى، وتصبح حياتك

المهنية هنا مجرد تاريخ. دَوَّنت شيئاً ما في دفتر ملاحظاتها الجلديّ الأسود الصغير، ثمّ وقفت وقالت: «حسناً، شكراً للوقت الذي أمضيتُه هنا».

«لا توجد مشكلة. تعرفين أين تجديني».

«أوه، نعم»، قالت، وظلّت طوال الطريق، وأنا عائدة إلى جناح الولادة، أحاول أن أتخلّص من الشعور بأنّ هاتين الكلمتين البسيّتين قد تشكّلان تهديداً.

لكن، كمّما عدت إلى الطابق الذي أعمل فيه، لم يكن لديّ وقت لأنّ أتخبّط في بحر عدم الثقة بنفسي، فقد رأيتني ماري أخرج من المصعد، فأمسكت بذراعي بارتياح، وقالت: «روث، أعرفك إلى فيرجينيا. فيرجينيا، هذه روث، إحدى أكثر الممرّضات خبرة في قسم التوليد في المستشفى».

نظرتُ إلى المرأة الواقعة أمامي بعينين واسعتين عندما راحت تنظر إلى عربة تُدفع إلى قسم الولادة القيصرية. كان هذا كلّ ما أحتاج كي أفهم ما الذي يجري هنا. «فيرجينيا»، قلت بهدوء، «يوجد لدى ماري عمل كثير الآن، فلماذا لا تساعديني؟»

نظرت ماري بصمت نظرة تشي بالشكر، وجرت وراء العربة، ثمّ التفتتُ إلى فيرجينيا، «إذّا، طالبة غير تقليديّة؟»

بعكس معظم طالبات التمريض اللاتي تشبه وجوههنّ وجوه الأطفال، كانت فيرجينيا في الثلاثينات من عمرها. «بداية متأخرة»، قالت مفسّرة، «أو مبكرة، وذلك بحسب ما تنظرين إليها. كان أطفالها صغاراً، وأردت أن يخرجوا من المنزل قبل أن أبدأ حياتي المهنيّة. ربّما تقولين إنّني مجنونة لأنني عدت إلى المدرسة وأنا في هذا العمر».

فقلت لها: «أن تأتي متأخراً أفضل من ألا تأتي أبداً».

ثمّ أضفت: «سننوّلي مسؤوليّة غرفتين؛ في إحداهما أمّ مصابة بسكّري الحمل، ولدت صباح اليوم، ويحتاج طفلها إلى سكّر كلّ ثلاث ساعات؛ وفي

الغرفة الأخرى امرأة في حالة مخاض وقد أنجبت طفلاً من قبل، ففي الأقل لديها تجربة الولادة من قبل. ما عليك إلا أن تنفّذي تعليماتي».

ثمّ دخلنا الغرفة. «مرحباً، سيّدة براونشتاين»، قلت للمريضة التي تمسك بيد شريكها بقوة، «سمعت أنك جئت قبل الآن. اسمي روث وهذه فيرجينيا. فيرجينيا، يبدو أنّ بإمكان السيد براونشتاين أن يجلس على كرسيّ هنا. هل يمكنك أن تقرّبي كرسيّاً؟» بقيتُ أتكلّم بهدوء وأنا أفحص بطنها، «كلّ شيء يبدو في حالة جيّدة».

لَمَّا قالت المرأة: «لا أشعر أنّني في حالة جيّدة»، قلت لها بهدوء: «يمكننا أن نهتمّ بذلك».

التفتت السيّدة براونشتاين إلى فيرجينيا وقالت: «أريد أن ألد في الماء».

هزّت فيرجينيا رأسها بتردد، وقالت: «حسناً».

قلت: «بعد أن نراقبك لمُدّة عشرين دقيقة أو قرابة ذلك، سنرى كيف هي حال الطفل، فإذا كان ذلك ممكناً، فمن المؤكّد أننا سنضعك في حوض الاستحمام».

ثمّ أضافت السيّدة براونشتاين: «والشيء الآخر أنّنا لا نريد ختاناً، إذا كان صبيّاً، لأنّنا سنقيم حفل ختان خاصّ بنا».

قلت لها: «لا توجد مشكلة. سأدوّن هذه الملاحظة في الملفّ».

قالت: «لَمَّا أنجبت إيلي تقيّأت، وأشعر الآن بالغثيان...»

مددت يدي إلى وعاء التقيؤ ومرّرته إلى فيرجينيا.

«دعينا نرّ إن كان بإمكاننا أن نفحصك قبل أن يحدث ذلك»، قلت لها، ووضعت في يديّ قفّازين مطاطيين، وسحبت الملاءة أسفل السرير.

التفتت السيّدة براونشتاين إلى فيرجينيا، وسألتها: «هل أنت متأكّدة أنّها فكرة جيّدة؟»

«ممممم»، والتفتت إليّ، «نعم؟»

خفضتُ الملاءة وقلت: «سيدة براونشتاين، إنَّ فيرجينيا طالبة تمرير، وأنا أعلم هنا منذ عشرين سنة. إذا أردتِ، أنا متأكدة أنَّها ستكون سعيدة لأن تضيف إلى معلوماتها كم سنتمتراً بلغ حجم التوسُّع لديك. لكن، إذا كنتِ تشعرين بعدم الارتياح، وتريدين إنهاء ذلك، فإنِّي سأكون سعيدة لعمل ذلك».

«أوه»، امتقع لون وجه المريضة، «كنت أظنّ...»

... أنَّها الممرضة المسؤولة، ومع أنَّ فيرجينيا تصغرنى بعشر سنوات، فإنَّ بشرتها بيضاء.

أخذتُ نَفْساً عميقاً كما أطلب عادة من المريضات اللاتي سيصبحن أمهات، كي أنخلِّص - مثلهنَّ - من شعوري بالاستياء. وضعت يدي بلطف على ركبة السيدة براونشتاين، وابتسمت لها ابتسامة مهنيَّة، وقلت: «لنبدأ بإخراج الطفل الآن».

لا تزال أمِّي تعمل في منزل مينا هالويل المشيّد من الحجر البنيّ في مانهاتن. ومنذ أن توفّي السيّد سام، أصبحت أمِّي تساعد السيدة مينا، وانتقلت ابنتها كريستينا إلى بيت في مكان قريب، وأصبحت لها حياتها الخاصّة. أمّا ابنها لويس، فيعيش مع زوجته في لندن، ويعمل مدير إحدى الشركات وسط لندن. من الواضح أنّي الشخص الوحيد الذي يرى أنّ من المضحك أنّ أمِّي تساعد مينا التي تكبرها بثلاث سنوات. وكلّما طلبت إلى أمِّي أن تتقاعد وتتوقّف عن العمل، تجاهلتنى وقالت إنّ أسرة هالويل لا تزال في حاجة إلى خدماتها. يمكنني القول إنّ أمِّي في حاجة إلى أسرة هالويل بقدر ما تحتاج إليها الأسرة نفسها، وربّما تشعر بأنّه لا يزال لديها هدف في الحياة.

تأخذ أمِّي عطلتها يوم الأحد، وبما أنّني أكون نائمة عادة في ذلك اليوم بعد مناوبة طويلة ليلة يوم السبت، كنت أذهب وأزورها في بيت السيّد مينا، لكنّ زيارتي لها قليلة جداً. كنت أسوِّغ ذلك لنفسي وأقول إنّ ذلك

يُغزى إلى انشغالي في المستشفى أو مع ابني إديسون، أو لألف سبب وسبب. لكن، في واقع الأمر، إنِّي لا أزورها كثيراً لأنَّ قطعة صغيرة مِنِّي تموت كلِّما جئت إلى هذا البيت ورأيت أُمِّي ترتدي ذلك الرداء الأزرق غير الأنيق، وتلفُّ منزراً أبيض حول خصرها. كنت أظنُّ أنَّ السيدة مينا ستطلب إلى أُمِّي، بعد كلِّ هذا الوقت، أن ترتدي ثياباً كما تحبُّ هي، لكن لم يحدث ذلك. ربَّما، لهذا السبب أدخل من المدخل الرئيس عندما أزورها، حيث يقف البواب، ولا أستخدم مصعد الخدم خلف المبنى. ثمَّة جزء منحرف فيَّ يحبُّ أن يعرف أنه سيُعلن عن قدومي مثل أيِّ ضيف آخر، وأن يُسجِّل اسم ابنة الخادمة في سجِّل الزوَّار.

لَمَّا استقبلتني أُمِّي اليوم، ضمَّتني إليها، وعانقتني بقوة، وقالت: «روث، إن لم تكن هذه أفضل مفاجأة، فلقد عرفت الآن لماذا سيكون اليوم يوماً جيداً».

فقلت: «حقاً؟ لماذا؟»

«ارتديت معطفي الثقيل اليوم لأنَّ الطقس بدأ يتغيَّر فوجدت في جيبه عشرين دولاراً بقيت منذ الخريف الماضي، وقلت لنفسي إمَّا أنَّها فأل حسن، وإمَّا أنَّها بداية الزهايمر»، قالت وهي تبسّم، «لكنِّي اخترت الأول».

أحبُّ أن أرى كيف أنَّ تجاعيدها تحيط بابتسامتها. أحبُّ أن أرى كيف سيظهر العمر على وجهي ذات يوم.

«هل حفيدي حبيبي هنا أيضاً؟» سألتني وهي تنظر خلفي إلى البهو، «ألم تحضره

معك؟»

«لا، ماما، إنَّه في المدرسة الآن. يجب أن تكتفي بي وحدي».

«أنت وحدك»، قالت منزعجة، «كما لو أنَّ ذلك لم يكن كافياً». أغلقت الباب وراءها وبدأت أفكُّ أزرار معطفي. مدَّت يدها لتأخذه، لكنِّي علَّقته بنفسي على مشجب في الخزانة. آخر شيء يمكنني فعله هو أن تقوم أُمِّي

على خدمتي أيضاً. وضعت معطفي إلى جانب معطفها، وكما اعتدت، مرّرت يدي على وشاح أمي الناعم قبل أن أغلق باب الخزانة.

سألتها: «أين السيّدّة مينا؟»

فقلت: «ذهبت تتسوّق مع كريستينا والطفل.»

«لا أريد أن أقاطعك إذا كنت مشغولة...»

«لديّ الوقت كلّه لك يا حبيبتي. تعالي إلى غرفة الطعام. إني أنظف هنا قليلاً.» بدأت تعمل أسفل البهو، ورحت أتبعها، ولاحظت كيف أنّها تركز على استخدام ركبتها اليمنى لأنّ ركبتها اليسرى مصابة بالتهاب.

كانت تكسو طاولة غرفة الطعام ملاءة بيضاء، تتدلّى فوقها خيوط الكريستال التي تشكّل الثريا الضخمة مثل آثار دموع. في الوسط، يوجد وعاء فيه محلول الأمونيا تفوح منه رائحة لاذعة. جلست أمي وواصلت عملها، وراحت تمسح كلّ خيط، ثمّ تتركه يجفّ في الهواء.

«كيف أنزلتها؟» سألتها وأنا أنظر إلى الثريا.

«بحذر»، أجابت أمي.

فكرت كيف يمكنها أن توازن نفسها وهي واقفة على الطاولة أو على الكرسيّ، وقلت لها: «من الخطر عليك كثيراً أن تفعل هذه الأشياء بعد الآن...»

لوّحت لي بيدها، وقالت: «إني أفعل ذلك منذ خمسين سنة. أستطيع أن أنظف الكريستال وأنا في غيبوبة.»

«حسناً، لا تتوقّفي عن الصعود لإنزالها من الثريا، وقد تحصلين على ما ترغبين»،

قلت لها عابسة، «هل ذهبت إلى طبيب العظام الذي أعطيتك اسمه؟»

«روث، توقّفي عن حساباني طفلتك»، وبدأت تملأ الفراغ بيننا بالسؤال عن الدرجات التي حصل عليها إديسون. وقالت إن أديسا قلقة لأنّ ابنتها البالغة من العمر ستّة عشر عاماً توقّفت عن الذهاب إلى المدرسة الثانوية (لم تذكر لي

أديسا ذلك عندما كنّا في صالون تقليم الأظافر). وخلال حديثنا، كنت أساعدها في رفع خيوط الكريستال فأغمرها في محلول الأمونيا، وأشعر بالسائل يحرق بشرتي، وكان الكبرياء - أكثر مرارة - يحرق مؤخرّة حلقي.

لَمَّا كنّا، أنا وأختي، صغيرتين، كانت أمّي تحضرنا معها إلى هنا أيّام السبت. كانت تعدّ ذلك شيئاً كبيراً، امتيازاً - فلا يكون سلوك جميع الأطفال جيداً عندما يرافقون أحد أبويهم إلى مكان العمل. إذا أحسنت التصرف، يمكنك أن تضغطي على الزرّ الموجود على الناقل الذي ينقل الصحون من غرفة الطعام إلى المطبخ، لكنّ الشيء الذي بدأ شيئاً ممتعاً سرعان ما أصبح مصدر توتّر لي. صحيح أنّنا كنّا نلعب أحياناً مع كريستينا، وبألعابها الباربي، لكن عندما تأتي إحدى صديقاتها، كانت تطلب إلينا، أنا وراشيل، أن نذهب إلى المطبخ أو إلى غرفة الغسل لترينا أمّي كيف نكوي الأكمام والياقات. ولَمَّا بلغت العاشرة، تمرّدتُ أخيراً. «ربّما تقبلين ذلك، لكنّي لا أريد أن أصبح خادمة لدى السيدة مينا»، قلت لأمّي بصوت مرتفع ليسمعه آخرون، فصفعتني، وقالت مصحّحة ما قلته: «لا يمكنك أن تستخدمي هذه الكلمة لوصف عمل شريف بأجر، العمل الذي يضع تلك السترة على ظهرك، وذلك الحذاء في قديمك».

الشيء الذي لم أدركه في ذلك الوقت هو أنّ لتدريبتنا المهنيّ هدفاً أسمى. فقد كنّا نتعلّم طوال الوقت - كيف نرتّب الأسرة في المستشفى، وكيف نزيل البقع عن الجدران، وكيف نصنع الحساء. كانت أمّي تعلّمنا طوال الوقت أن نعتد على أنفسنا كي لا نصبح مثل السيّدّة مينا، لا نستطيع أن نفعل الأشياء بأنفسنا.

لَمَّا انتهينا من تنظيف قطع الكريستال، وقفتُ على كرسيّ، في حين راحت أمّي تناولني القطعة تلو الأخرى لألقها في الثريا. كانت جميلة جداً، ولَمَّا أوشكنا أن ننتهي، قالت أمّي: «إدّاً، هل ستقولين لي ما المشكلة، أو يجب أن أكتشف ذلك بنفسِي؟»

«لا توجد مشكلة. لقد اشتقت إليك، هذا كل شيء».

هذا صحيح، فقد جئت إلى مانهاتن لأنني أريد أن أراها. أردت أن أذهب إلى مكان أعرف أنني سأكون فيه موضع تقدير.
«ماذا حدث في العمل يا روث؟»

لَمَّا كُنْتُ طفلة، كان حدس أمي قوياً، واستغرقت سنوات عدّة حتّى أدركت أنّها لم تكن بصّارة تقرأ المستقبل. لم تكن تعرف المستقبل، وإمّا كانت تعرفني جيّداً.
«لا تتوقّفين عادة عن التحدّث عن إنجاب ثلاثة توائم أو عن والد زوجة وجّه لكمة إلى وجه أب جديد في غرفة الانتظار. أمّا اليوم، فلم تذكر لي شيئاً عن المستشفى على الإطلاق».

نزلت عن الكرسيّ وطويت ذراعيّ. إنّ أفضل الأكاذيب هي تلك التي تلتفّ حول جوهر الحقيقة. لذلك، مع أنني لم أذكر شيئاً عن تورك باور والطفل الذي مات، أو عن كارلا لونغو، حكيت لأمي عن طالبة التمريض والمريضة التي افترضت بسهولة أنّها هي المسؤولة وولست أنا. تدفّقت الكلمات مثل شلال، بقوة أكبر ممّا أتوقّع. لَمَّا انتهيت من حكاية القصّة، كنّا نجلس في المطبخ، وقد وضعت أمي كوب الشاي أمامي.
زمت أمي شفيتها، كما لو أنّها تزن الدليل، وقالت: «ربّما تخيلت ذلك».

تساءلت إن كان هذا هو السبب الذي يجعلني أنصرف هكذا، السبب الذي يجعلني أنحو إلى أن أقدم أعذاراً للجميع إلّا لنفسي، وأبذل جهداً كبيراً لأن أتلاءم بسلاسة، فقد كانت أمي أمودجاً لهذا السلوك منذ سنوات.

لكن، ماذا لو كانت محقّة؟ هل إنني أبالغ في ردّة فعلي؟ فكّرت في الأمر ملياً. إنّها ليست مثل حادثة تورك باور، لأنّ السيدة براونشتاين لم تذكر حتى لون بشرتي. ماذا لو كانت أمي على صواب وأنني شديدة الحساسية؟ ماذا لو أنني أخلق الافتراض بأنّ المريضة قالت ذلك لأنّ

فريجينا بيضاء وأنا لست كذلك؟ ألا يجعلني ذلك الشخص الذي لا يستطيع أن يرى
أبعد من مسألة العرق؟

تردد صوت أديسا في رأسي بوضوح شديد: هذا ما يريدونه، أن تشكّي في نفسك.
طالما أنهم يستطيعون أن يجعلوك تعتقدين أنك لست جديرة، فإنهم لا يزالون
يقيدونك بالسلاسل.

قالت أمي: «أنا متيقنة أن السيدة لم تقصد شيئاً عندما قالت ذلك».

لكن ذلك لم يجعلني أشعر بأنني أصغر.

لم أفلها بصوت مسموع، لكنني فكّرت فيها، وأرسلت هذه الفكرة رعشة في أسفل
ظهري. هذه ليست أنا. إني لا أتهم أحداً. لا أظن أن معظم البيض يحكمون عليّ لأنني
سوداء أو لأنهم يظنون أنهم يتفوقون عليّ. إني لا أطوف العالم أبحث عن مشاجرة.
كنت قد تركت ذلك لأديسا. أمّا أنا، فإني أبذل قصارى جهدي لأطير تحت الرادار.
بالطبع، أعرف أن العنصرية قائمة، وأن أشخاصاً مثل تورك باور يلوحون بها، لكنني لا
أحكم على جميع البيض من خلال أعمال تاريخية قامت بها حفنة من الناس.

أو بالأحرى، لم أفعل ذلك من قبل.

يبدو أن تلك القصاصة الصغيرة الملتصقة على ملف المريض ديفيس باور قد أصابت
شرياناً حيويّاً داخلي، ولا أعرف كيف يمكنني أن أوقف النزيف.

بغته، سمعنا صوت خشخشة مفاتيح وصخباً عندما عادت السيدة مينا وابنتها
وحفيدها. هرعت أمي إلى الردهة لتأخذ معاطفهم وأكياس التسوق منهم، وتبعتهما.
اتسعت عينا كريستينا عندما رأته وألقت ذراعيها حولي، في حين راحت أمي تساعد
في خلع سترة الثلج لابنها فيليكس البالغ من العمر أربع سنوات. ثمّ صاحت: «روث،
هذا هو القدر. ماما، ألم أحدثك منذ قليل عن ابن روث؟»

رفعت السيدة مينا عينيها إليّ، وقالت: «نعم، صحيح، عزيزتي روث، أأست جميلة. لا توجد تجعيدة واحدة في بشرتك. أقسم إنك لا تكبرين في السن».

مرّة أخرى، تردّد صدى صوت أديسا في رأسي: الأسود لا يُكسر. قويّ جداً. أخدمت هذا الصوت وعانقت السيدة مينا، ضئيلة الحجم، برفق، وقلت لها: «وأنتِ كذلك يا سيّدة مينا».

«هيا، استمري في الكذب عليّ»، وتظاهرت بأنّها لم تعبأ بكلماتي، ثمّ ابتسمت بمكر، وأضافت: «لا، بجد، أكملني. أحبّ أن أسمع الجميع يقولون ذلك».

حاولت أن أرسل إلى أمي الإشارة، وقلت: «رّجّما ينبغي لي أن أذهب...»

«لا تقطعي زيارتك لأننا جننا»، قالت السيدة مينا، وأخذت فليكس من ذراعي أمي، «ابقي كما تشائين»، والتفتت إلى أمي، وقالت: «لو، سنتناول الشاي في الغرفة الذهبية».

أمسكت كريستينا بيدي، وقالت: «تعال معي»، وصعدنا الدرج إلى غرفة النوم التي كنّا نلعب فيها.

كانت غرفة ممتلئة بأشياء كثيرة مختلفة، لا تزال فيها قطع الأثاث عيناها، التي كانت موجودة عندما كانت صغيرة، لكن، أصبح هناك سرير ومجموعة من اللّعب المتناثرة على الأرض. لمّا دسّ فوق شيء، كدت أتعتّر به، أدارت كريستينا عينيها، وقالت: «يا إلهي! إنّها لعب فليكس. أليس من الجنون إنفاق مئات الدولارات على أشياء مصنوعة من البلاستيك؟ لكنك تعرفين فليكس، فهو يحبّ ألعاب القراصنة».

انحنيت ورحت أنفحص السفينة المتشابكة، في حين راحت كريستينا تبحث في الخزانة. يوجد قبطان في معطف أحمر وقبّعة سوداء عليها ريش، وثمّة قراصنة عديدون متشابكين في شبكة بلاستيكية، وعلى ظهر السفينة قرصان من البلاستيك لونه برتقاليّ وبنّي، يلتفّ حول رقبتة طوق فضيّ صغير.

يا إلهي! هل يفترض أن يكون هذا عبداً؟

نعم، هذا دقيق من الناحية التاريخية، لكن لا يزال لعبة. لماذا هذا الجزء من الماضي؟ ماذا أيضاً - مجموعة لُعب في معسكر اعتقال أسرى حرب يابانيين؟ درب الدموع ليغو؟ لعبة سالم لمطاردة الساحرات؟

«أردت أن أخبرك قبل أن تقرئها في الصحيفة»، قالت كريستينا، «يفكر لاري في الترشح ليصبح عضواً في الكونغرس».

فأجبتها: «رائع، ما رأيك أنت؟»

ضمّنتي إليها، وقالت: «شكراً. هل تعرفين أنك أول صديقة أخبرها بذلك ولا تقول إن هذه هي الخطوة الأولى إلى البيت الأبيض أو يقولون إننا يجب أن نحصل على بيت في بيثيسدا أو أرلينغتون؟ أنت أول شخص يقول إنّه قد يكون لديّ رأي في هذه المسألة».

«حسناً، أليس كذلك؟ يبدو أنّ ذلك يسبّب اضطراباً كبيراً لجميع أفراد الأسرة».

«نعم»، قالت كريستينا، «لست متأكّدة أنني أملك الشجاعة لأن أصيح زوجة سياسي».

ضحكت وقلت: «لديك الجرأة والشجاعة لتديري البلد كله».

«هذا تماماً ما أعنيه. يبدو أنني يجب أن أنسى أنني تخرّجت ممرتبة الشرف، وأقف بدلاً من ذلك، أحمل ابني الجميل وأبتسم للطفيف، كأنّها الفكرة الوحيدة التي يمكنني أن أحتفظ بها في رأسي، وهي: ما لون أحمر الشفاه الذي يتناسب مع بلوزتي؟»، تنهدت كريستينا، وأضافت، «عديني بشيء؟ إذا قصصت شعري ورفعته في شكل يشبه الخوذة، فهل ستقتليني قتلاً رحيماً؟»

أترين، قلت لنفسي، هذا دليل. لقد عرفت كريستينا طوال حياتي. ونعم، ربّما توجد فروق بيننا - اجتماعيّة واقتصاديّة، وسياسيّة، وعرقية -

لكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نتواصل، إنساناً لإنسان، صديقة لصديقة.

قلت: «بيدو أنك قد اتخذت قرارك تَوّاً».

نظرت كريستينا إليّ، بيأس، وقالت: «لا أستطيع أن أقول له لا. لهذا السبب أحبته في المقام الأول».

«أعرف»، قلت لها، «لكن من الممكن أن يكون الأمر أسوأ».

«كيف؟»

فقلت: «يخدم أعضاء الكونغرس مدّة سنتين فقط. سنتان تمضيان في طرفة عين. تصوّري لو أنه أراد أن يصبح عضواً في مجلس الشيوخ!».

ارتجفت كريستينا، ثمّ ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «إذا تمكّن من الوصول إلى البيت الأبيض، فسأعيّنك رئيسة الموظفين».

«أو ربّما الجراح العامّ للرئيس».

شبكت كريستينا ذراعها في ذراعي وعدنا إلى الغرفة الذهبية حيث كانت أمّي تضع صينية من الخزف الصيني وإبريق شاي، وطبقاً ممثلاً بكعك لوز بيتي صنّعه بيديها. كان فليكس جالساً على الأرض يلعب بقطار خشبيّ.

«مممم، يا لو، منذ زمن أحلم بمثل هذه الكعكات»، قالت كريستينا وعانقت أمّي قبل أن تتناول واحدة منها، وأضافت، «إننا محظوظون جدّاً لأنك جزء من أسرنا».

الأسرة لا تتقاضى أجراً، قلت في نفسي.

ابتسمت. لكن مثل ثوب ترتديه لا يناسبك، لكنّه ضيق عليك.

في أحد أيام السبت، التي كنا نذهب فيها مع أمّي، بينما كنت ألعب لعبة الغميضة مع كريستينا وراشيل، دخلت خطأً غرفة يحظر علينا أن

نقترب منها، غرفة مكتب السيد هالويل، التي تكون عادة مغلقة، لكن عندما أدت مقبض الباب لأختبي من صيحات كريستينا التي كانت تقول: «جاهزة أم لا؟ لقد أتيت...»، وجدت نفسي أتعزّز داخل الحرم السريّ.

أمضينا أنا وراشيل وقتاً طويلاً نتخيّل ما يقبع وراء ذلك الباب المغلق. إذ كانت راشيل تظنّ أنّه مختبر ممتلئ بأجزاء أجساد موضوعة في الخلّ، أمّا أنا فكنت أظنّ أنّ فيها حلوى، لأنّ الحلوى كانت في ذهني البالغ من العمر سبع سنوات، أمّن شيء يمكن أن يُخبأ في غرفة مغلقة. لكن، لمّا جثوت على يديّ وركبتيّ على السجّادة الشرفيّة في مكتب السيّد هالويل، كانت الحقيقة مخيبة للآمال تماماً: فقد كانت فيها أريكة من الجلد، ورفوف كثيرة تشبه عجلات فضيّة، وشاشة أفلام نقالة، وكان سام هالويل نفسه يثبّت ثقب الفيلم في أسنان جهاز العرض.

كنت أرى السيد هالويل دائماً بأنه نجم سينمائيّ، وكانت أمّي تؤكّد صحة ذلك. لمّا التفت وأخذ يحدّق إليّ، حاولت أن أجد عذراً أسوّغ فيه سبب انتهاكي حرمة هذه المنطقة المحظورة، لكنّ عينيّ تركّزتا على الصورة المحبّبة على الشاشة، التي يظهر فيها تينكر بل وهو يطلق الألعاب النارية فوق القلعة.

قال: «هذا كلّ ما تعرفينه»، وشعرت أنّ كلامه مضحك، وكلماته غير واضحة. لمّا رفع كأس الماء إلى فمه، وسمعت قرقعة مكعّبات الثلج، قال: «لا توجد لديك فكرة كيف يكون الأمر عندما ترين العالم يتغيّر أمام عينيك».

ظهر على الشاشة رجل لا أعرفه، يقول: «اللون يضيء الأشياء ويجعلها برّاقة، أليس كذلك؟» في حين امتلأ جدار من الصور بالأبيض والأسود خلفه بكلّ ظلال قوس قزح.

«كان والت ديزني عبقرياً»، قال السيد هالويل، وجلس على الأريكة، وربّت على المقعد جانبه، فجلست. بطة من الرسوم المتحرّكة تضع نظّارة

وتتكلم بلهجة ثقيلة، تضع يدها في علب طلاء وتلقي بمحتوياتها على الأرض، وتمزجها كلها معاً حتى تصبح عجينة كالطين... ثم قالت البطّة ذات الزعانف، وهي تحرّك الطلاء بقدمها حتى أصبح لونها أسود، هكذا كانت الأشياء في بداية الزمن. أسود. كان الإنسان في الظلام فيما يتعلّق باللون. لماذا؟ لأنّه كان غيباً.

اقترب السيّد هالويل منّي كثيراً حتى بدأت أشمّ أنفاسه - حامضة، مثل رائحة عمّي إسبيا الذي لم يحضر عيد الميلاد السنة الماضية لأنّ أمّي قالت إنّهُ ذهب إلى مكان ما ليتوقّف عن شرب الخمر. «كريستينا ولويس وأنت وأختك لا تميّزون ذلك. يبدو الأمر لكم هكذا دائماً». ثمّ وقف فجأة والتفت إليّ فأظهر جهاز العرض ظلّ وجهه، رقصة من الصور الظليلة الساطعة. «سيقدّم البرنامج التالي بألوان حيّة عبر قناة NBC»، قال وفتح ذراعيه فانقلبت كأسه إلى الجانب، وانسكب السائل على السجادة. ثمّ سألني: «ما رأيك يا روث؟»

أردته أن يتحرّك قليلاً لأرى ما الذي ستفعله البطّة بعد ذلك.

ازداد صوت السيّد هالويل هدوءاً، وقال: «كنت أقول ذلك قبل بدء كلّ برنامج حتى أصبح التلفاز المملوّن شائعاً جداً، ولم يعد أحد في حاجة إلى تذكيره بأنّها معجزة. لكن، قبل ذلك - قبل ذلك - كنت صوت المستقبل. أنا. سام هالويل. سيقدّم لكم البرنامج التالي بالألوان الحيّة عبر شاشة NBC».

لم أطلب إليه أن ينزاح قليلاً لأتمكّن من رؤية فيلم الرسوم المتحرّكة. جلسنّ ويداى في حضني لأنني أعرف أنّه عندما يتحدث الناس أحياناً، فإنهم لا يتحدثون لأنّ لديهم شيئاً يقولونه، وإمّا لأنهم في حاجة ماسّة إلى أن يستمع إليهم أحد ما.

في وقت متأخّر من تلك الليلة، بعد أن عدنا إلى البيت ووضعتنا أمّي في سريرنا، رأيت كابوساً. فتحتُ عينيّ ورأيت كلّ شيء في ظلال رماديّة اللون،

مثل الرجل الذي ظهر على شاشة السينما قبل أن يصبح وردّي اللون وتتفجّر الخلفيّة بالألوان. رأيت نفسي أركض في المنزل المشيّد من الحجر البنيّ، أفتح الأبواب المغلقة، حتّى فتحت غرفة مكتب السيد هالويل. كان الفيلم الذي نشاهده ينبعث من جهاز العرض، لكن الصورة كانت بالأبيض والأسود أيضاً. بدأت أصرخ، فاندفعت أمّي وراشيل والسيدة مينا وكريستينا، حتّى السيد هالويل، إليّ، لكن لمّا قلت لهم إنّ عينيّ لم تعودا تريان، وإنّ كلّ الألوان في العالم تلاشت، ضحكوا عليّ، وقالوا: روث، هكذا كانت الحال دائماً، وستظلّ دائماً.

لمّا عدت بالقطار إلى نيو - هافن، كان إديسون جالساً محنياً فوق طاولة المطبخ يؤدّي واجباته المدرسيّة. لمّا دخلت، قلت له: «مرحباً حبيبي»، وقبلته على رأسه، وقبلته مرّة أخرى، وقلت له: «هذه القبلة من جدّتك لو».

«ألا يُفترض بك أن تكوني الآن في المستشفى؟»

«لديّ فترة نصف ساعة قبل أن تبدأ وردّيّتي، فقرّرت أن أمضيها معك بدلاً من أن أمضيها في زحمة المرور».

نظر إليّ وقال: «ستتأخّرين».

فقلت له: «إنّك تستحقّ ذلك». تناولت تفاحة من الطبق على طاولة المطبخ - أحفظ دائماً بشيء صحيّ لأنّ إديسون يأكل أيّ شيء يراه - وقضمتها، ومددت يدي إلى بعض الأوراق المتناثرة أمام ابني.

قرأت عبارة: «هنري أو فليبير». قلت له: «يبدو مثل جنّي».

«كان أوّل أمريكيّ من أصل أفريقيّ تخرّج في الأكاديميّة العسكريّة (ويست بوينت). يجب على كلّ طالب يدرس التاريخ الأمريكيّ أن يقدّم فصلاً عن بطل أمريكيّ، وأحاول أن أعرف ما يمكنني أن أقدم».

«ومن هو الشخص الآخر؟»

رفع إديسون عينيه، وقال: «بيل بيكيت - راعي بقر أسود، ونجم في مسابقات رعاة البقر. وكريستيان فليتوود، جنديّ أسود في الحرب الأهلية حصل على ميدالية الشرف».

نظرت إلى صورة كل رجل من هؤلاء، وقلت: «لا أعرف أحداً منهم».

«نعم، هذا هو الهدف»، قال إديسون، «لدينا روزا باركس والدكتور كينغ. هل سمعت يوماً عن أخ يُدعى لويس لاتيما؟ لقد رسم أجزاء الهاتف لأجل تقديم طلب براءة الاختراع لألكساندر غراهام بيل، وعمل رسّاماً وخبير براءات اختراع لتوماس إديسون، لكنك لم تسميني على اسمه لأنك لم تكوني تعرفين بوجوده. المرة الوحيدة التي يصنع فيها الأشخاص الذين يشبهوننا التاريخ، هذه ملحوظة هامشية».

قال ذلك من دون إحساس بالمرارة، قالها كما يقول إنّه لم يعد لدينا كاتب، أو إن لون جواربه أصبح وردياً في الغسّالة - كما لو أنّه شيء لم يكن سعيداً به، ولم يكن متحمساً، لأنّ ذلك لن يغيّر النتيجة في هذه اللحظة بالذات. عدت أفكر في السيّد براونستين وفيرجينيا. يبدو أنّها شيء لا يزال عالقاً في ذهني، وعاد إديسون وضغط عليه. هل صحيح أنّي لم ألحظ هذه الأشياء قبل الآن؟ أو أنني كنت أحرص على إبقاء عينيّ مغمضتين؟

نظر إديسون إلى ساعته، وقال: «ماما، سوف تتأخرين حقاً».

صحيح. قلت له، ما الذي يمكن أن يسخّنه لأجل العشاء، ومتى يأوي إلى الفراش، وفي أي ساعة تنتهي مناوبتي، وهرعت إلى سيارتي، وذهبت إلى المستشفى. ومع أنّي سلكت أقصر الطرق الممكنة وصلت متأخرة عشر دقائق. سعدت الدرج ولم أنتظر المصعد، ولما وصلت إلى جناح الولادة، كنت ألهث والعرق يسيل مني. رأيت ماري واقفة عند مكتب الممرّضات كأنّها تنتظرني. قلت لها على الفور: «أنا آسفة. كنت في نيويورك مع أمي، ثمّ علقت في زحمة المرور، و...»

«روث... لا أستطيع أن أسمح لك بأن تعلمي هذه الليلة».

دُهلُت. تأتي كورين متأخرة معظم الوقت، وعندما تأخرت قليلاً، أول مرة، توجّه إليّ عقوبة؟

قلت: «لن أتأخّر مرّة أخرى».

لكن ماري كرّرت: «لا أستطيع أن أسمح لك بأن تعلمي»، وأدرت أنّها لم تنظر في عينيّ، وأضافت: «أبلغني قسم الموارد البشريّة أنّ رخصتك قد علّقت».

تحوّلت فجأة إلى قطعة حجر. «ماذا؟»

«أنا آسفة جدّاً»، همست، «سيرافك رجال الأمن إلى خارج المبنى بعد أن تأخذي جميع أغراضك من خزانتك».

«انتظري»، قلت لها عندما لاحظت شايبين ضخمين يحومان خلف مكتب الممرّضات، «إنّك تمزحين. لماذا تُعلّق رخصتي؟ وكيف يمكنني أن أعمل بعد ذلك؟»

أخذت ماري نفساً عميقاً، والتفتت إلى حارسي الأمن اللذين تقدّما نحوي. «سيديتي؟» قال أحدهما وأشار إلى غرفة الاستراحة، كما لو أنّني لا أعرف الطريق بعد عشرين عاماً من العمل في هذا المكان.

* * *

في صندوق الكرتون الصغير الذي حملته إلى السيّارة توجد فرشاة أسنان ومعجون أسنان وعلبة حبوب «أدفيل» وسترة صوفيّة، ومجموعة من صور إديسون. كان هذا كلّ ما كنت أحتفظ به في خزانتي في المستشفى. وضعت الصندوق في المقعد الخلفيّ، وظلّ يجذب انتباهي في المرآة الخلفيّة، يفاجئني، مثل راكب لم أكن أتوقّعه.

لم أخرج من باحة موقف السيارات قبل أن أتصل بمحامي النقابة. كانت الساعة الخامسة مساءً، ولم تكن فرصة وجوده في مكتبه كبيرة، لذلك، لمَّا رَدَّ عبر الهاتف، انفجرت في بكاء. أخبرته كلُّ شيء عن تورك باور وابنه، فراح يهدِّئني، وقال إنَّه سيجري بعض التحريات ثمَّ سيتصل بي.

كان عليَّ أن أعود إلى المنزل وأتأكد أن إديسون على ما يرام، لكن عودتي من العمل ستثير جدالاً بيننا، ولست متأكّدة أنني أستطيع مناقشة هذا الأمر الآن. وإذا ما نجح محامي النقابة فقد أستطيع أن أعود إلى عملي.

ثمَّ رنَّ هاتفي. «روث؟» قالت كورين، «ما الذي يجري بحقِّ الجحيم؟»
أسندت ظهري إلى مقعد السيارة، وأغمضت عيني، وقلت: «لا أعرف».

قالت: «انتظري»، وسمعت جلبة مكتومة، «أنا في غرفة التخزين اللعينة كي لا يسمعني أحد. اتّصلت بك عندما سمعت».

«سمعتِ ماذا؟ لا أعرف شيئاً. كلُّ ما أعرفه أنَّهُم أوقفوا العمل برخصتي».

«حسناً، قالت محامية المستشفى الحقيرة شيئاً لماري يتعلَّق بسوء سلوك مهنيّ...»

«كارلا لونغو؟»

«من هي؟»

«محامية المستشفى الحقيرة. لقد ألقت بي تحت الحافلة»، قلت لها بمرارة. تحدّثنا أنا وكارلا وظننت أن الأمر قد انتهى. لم أتوقَّع أن تفعل ذلك بهذه السرعة، «لا بدَّ أنَّ ذلك الأب العنصريّ قد هدَّدها برفع دعوى قضائية، فضحَّت بي لتتقذ المستشفى».

مرّت لحظة صمت. لحظة صغيرة جداً إلى درجة أنني لو لم أكن أرهاق السمع لما سمعتها. ثمَّ قالت كورين - زميلتي، صديقتي - «أنا متيقنة من أن الأمر لم يكن مقصوداً».

في مدرسة دالتون، كانت هناك طاولة يجلس إليها جميع الأطفال السود على الغداء، إلآي. في إحدى المرآت، دعاني طالب حاصل على منحة دراسية لأنضم إليهم إلى طاولة الغداء. شكرته، واعتذرت، وقلت له إني أعطي دروساً عادة لصديقة بيضاء لا تفهم درس المثلثات جيداً. لم يكن ذلك صحيحاً، وإمّا الحقيقة أن الطاولة التي يجلس إليها الطلاب السود تجعل أصدقائي البيض متوترين، لأنهم، حتّى لو جلسوا معي هناك، فلن يكون مرحباً بهم.

أمّا الحقيقة الأخرى، فهي أنني لو جلست مع الصبية الملونين الآخرين، فلن أتمكّن من التظاهر بأنني مختلفة عنهم. ولمّا بدأ السيد أدامسون، أستاذ التاريخ، يتحدّث عن مارتن لوثر كينغ، ولم يرفع عينيه عنيّ، تجاهل أصدقائي البيض، وقالوا إنّه لم يكن يقصد ذلك. وإذا قال أحد الطلاب الجالسين إلى الطاولة السوداء، إنّ السيد أدامسون كان يحدّق إليّ طوال الدرس، فإنّ طالباً أسود آخر سيؤكّد ذلك، ويقول: لقد حدث لي ذلك أيضاً.

لمّا كنت في المدرسة الثانويّة، كانت لديّ رغبة قويّة في أن أندمج مع الآخرين، فأحطت نفسي بطلاب يمكنهم إقناعي بأنني إذا ما شعرت بأنني أستبعد بسبب لون بشرتي، فإنني أحتلق ذلك، وأبالغ في التفكير في هذا الأمر، وإنني سخيّة.

أمّا في كافيتريا المستشفى، فلم تكن هناك طاولة يجلس إليها السود، فقد كان عدد العاملين الملونين قليلاً بالإضافة إلى طبيب أو طبيين، وأنا.

لم أسأل كورين إن كانت تصرّفات كارلا لونغو متعمّدة أم كانت بمحض المصادفة. قلت لها إنني يجب أن أذهب، وأغلقت الهاتف وهي لا تزال تتكلّم، ثمّ خرجت من بوابة المستشفى الذي عملت فيه لعقدين من الزمن، واتجهت نحو الطريق السريع المزدهم في اتجاه نيويورك، مثل شريان. مررت بمدينة من الخيام الصغيرة التي يعيش فيها مشرّدون من المحاربين القدماء، ورأيت صفقة مخدّرات تعقد أمام عينيّ، ثمّ ركنت

سيّارتي خارج الحيّ الشعبيّ الذي تعيش فيه أختي. فتحت لي الباب وهي تسند إلى
وركها طفلاً صغيراً ويدها ملعقة خشبيّة، وكانت قسّمت وجهها تشي بأنّها تنتظرني
منذ سنوات.

«لماذا أنتِ دهشة هكذا؟» سألتني أديسا، «ماذا كنت تتوقّعين أن يحدث، أن
تنتقلي إلى ويتفيل؟»

«إيست إند»، صحّحت لها، فرمقتني بعينيها الدهشتين.

جلسنا إلى طاولة المطبخ. قياساً إلى عدد الأطفال الذين تعيش معهم، فقد كانت
الشقة نظيفة ومرتبّة. صفحات من دفتر تلوين ملصقة على الحائط، وهناك طبق
سباغيتي في الفرن. وفي المطبخ، كانت تيانا، أكبر بنات أديسا، تُطعم الطفلة الصغيرة
الجالسة على كرسيها المرتفع، وممّة صبيّان يلعبان لعبة النينتندو في غرفة الجلوس.
طفلتها الأخرى اسمها ميا.

«أكره أنّي قلت لك ذلك...»

«لا»، همتمتُ، «كنتِ تنتظرين أن تقولي لي ذلك منذ زمن.»

هزّت كتفيها موافقة، وقالت: «أنتِ التي كنتِ تقولين لي دائماً، أديسا إنّك لا
تعرفين ما تقولين. حتّى إنّ لون بشرتي ليس سبباً. إنّك لست واحدة منهم، أليس
كذلك؟»

«كما تعرفين، لو أردت أن أكون كيس اللكمات لتمكّنت من البقاء في المستشفى»،
قلت لها ودفنت وجهي بين يديّ، «كيف يمكنني أن أخبر إديسون؟»

فقال أديسا: «لا يوجد عيب في الحقيقة؟ فلم ترتكبي أيّ خطأ. من الأفضل أن
يعرف أنّ بإمكانه أن يصادق أشخاصاً بيضاً، لكنّ ذلك لن يجعله أقلّ سواداً.»

لَمّا كان إديسون أصغر سنّاً، كانت أديسا ترعاه بعد المدرسة عندما يكون
لديّ عمل في فترة ما بعد الظهر، حتّى أصبح يتوسل إليّ بأن يبقى في البيت

وحده لأنَّ أبناء خالته يضربونه لأنه لا يفهم كلماتهم العامية، ولمَّا بدأ يتقنها، بدأ صداؤه البيض في المدرسة ينظرون إليه كما لو أنه أصبح ذا رأس آخر. حتَّى إنَّني كنت أجد صعوبة في فهم أبناء أختي؛ أحدهم يدفع الآخر مرفقه على الأريكة حتَّى ضربتهم تيانا بمنشفة أطباق كي ينام الطفل الصغير. ربَّما لم يكن إديسون يتلاءم مع زملائه البيض في مدرسته بسبب لون بشرته، لكنَّه لم يكن يتلاءم مع أبناء خالته أيضاً، مع أنَّهم يشبهونه.

طوت أديسا ذراعها، وقالت: «تحتاجين إلى محام لمقاضاة ذلك المستشفى اللعين».

فقلت: «هذا يكلف الكثير من النقود. لا أريد إلا أن يختفي كلُّ هذا».

بدأ قلبي يخفق بقوة. لا يمكنني أن أفقد بيتنا. لا يمكنني أن أنفق كلَّ ما أدخرته لأجل جامعة إديسون، على الطعام وتسديد رهن البيت وفاتورة الغاز. لا يمكنني أن أدمر فرص مستقبل ابني لأنَّ فرصتي انفجرت في وجهي.

لا بدَّ أن أديسا رأت أنني سأنهار، فأمسكت بيدي، وقالت بهدوء: «روث. قد ينقلب عليك صداؤك، لكن هل تعرفين ما هو الشيء الجيِّد في أن تكون لديك أخت؟ إنها دائماً».

ثبَّت عينيها في عيني - كانت عيناها داكنتين إلى درجة أنك تكاد ترى الحافة التي تفصل بين القزحية والحدقة، لكنَّهما كانتا ثابتتين، لم تتركاني، وشيئاً فشيئاً، بدأت أننفس.

لمَّا عدت إلى البيت، في الساعة السابعة، هرع إديسون إلى الباب الخارجي، وسألني: «ماذا تفعلين في البيت؟ هل كلُّ شيء على ما يرام؟»

ألصقتُ ابتسامة على وجهي، وقلت له: «أنا بخير، حبيبي. حدثت فوضى في المناوبات، فخرجت أنا وكورين وتناولنا العشاء في مطعم أوليف غاردن».

«هل تبقي شيء من الطعام؟»

بارك الله في الصبيِّ المراهق الذي لا يرى أبعد من وخزات الجوع، فقلت له: «لا. تناولنا مقبّلات فقط».

فقال متذمّراً: «حسناً، يبدو أنّها فرصة ضائعة».

«هل انتهيت من كتابة موضوعك عن لاتيمر؟»

هزّ رأسه، وقال: «لا. أظنّ أنّني سأختار أنتوني جونسون. أول صاحب أراضٍ أسود منذ سنة 1651».

أجبتُه: «عظيم».

«نعم، لكن اعترضتني عشرة هنا. انظري، فقد كان عبداً جاء من إنكلترا إلى فرجينيا وعمل في مزرعة تبغ هاجمها الهنود الحمر وقُتل الجميع ماعدا خمسة أشخاص. وحصل هو وزوجته ماري على مئتين وخمسين فدّاناً من الأرض. لكنّ الشيء المثير للاهتمام أنّه كان يقنني عبيداً. لا أعرف إن كنت أريد أن أخبر الطلاب الآخرين بذلك، فقد يستخدمون ذلك ضدّي في أثناء المناقشة». هزّ رأسه، مستغرقاً في التفكير، وأضاف: «أقصد، كيف يمكنني أن أفعل ذلك، إذا كنتُ أعرف ما الذي يعنيه العبد؟»

فكرتُ في جميع الأشياء التي فعلتها كي أشعر أنّني في القمّة - التعليم، الزواج، هذا المنزل، الحفاظ على حاجز بيني وبين أختي. «لا أعرف»، قلت بصوت منخفض، «في عالمه، كان ذوو النفوذ يمتلكون أشخاصاً آخرين. ربّما هذا ما كان يرى أنّه في حاجة إلى فعله ليشعر بالقوّة أيضاً».

فقال إديسون: «هذا لا يعني أنّه كان محقّقاً».

لفتت ذراعِي حول خصره، وضممته إليّ بقوّة، وضغطت وجهي على كتفه لئلا يرى الدموع التي تفرقت في عينيّ.

«لأجل ماذا كلّ ذلك؟»

دمدمتُ: «لأنّك تجعل هذا العالم مكاناً أفضل».

ضمّني إديسون إليه، وقال: «تخيّلي ما يمكنني أن أفعل لو أحضرت لي وجبة دجاج بالجن».

لَمَّا أوى إلى فراشه، بدأت أفرز الرسائل الواردة بالبريد: فواتير وفواتير، ومزيد من الفواتير، بالإضافة إلى مظروف صغير من وزارة الصحّة العامة، يبلغونني فيه أنّهم علّقوا رخصة التمريض خاصتي. حدّقت إليها مدّة خمس دقائق كاملة، لكنّ الكلمات لم تتجسّد في أيّ شيء آخر سوى أنّ الدليل على أنّ هذا ليس كابوساً قد أستيقظ منه، دهشةً من مخيلتي المجنونة، جلست في غرفة الجلوس، وراحت أفكاري تتلاطم في رأسي، فلم يعد بإمكانني أن أفكر. إنّه خطأ، هذا كلّ ما في الأمر. أعرف ذلك، وأريد أن يراه الجميع أيضاً، فأنا ممرّضة أشفي الناس، وأجلب لهم الراحة. أصلح الأشياء، ويمكنني أن أصلح هذا أيضاً.

رَنّ هاتفي في جيبي. نظرت إلى الرقم - محامي النقابة يتصل بي. لَمَّا أجبت، قال: «روث، أرجو ألا يكون الوقت متأخراً جداً».

كدت أضحك، كما لو أنني سأتمكّن من النوم الليلة. سألته: «لماذا سحبت وزارة الصحّة العامّة رخصتي؟»

فقال: «بسبب ادّعاء وجود إهمال محتمل».

«لكنّي لم ارتكب أيّ خطأ. عملت هناك عشرين سنة. كيف يمكنهم أن يطردوني هكذا؟»

«لديك مشكلات أكبر من مجرد الحفاظ على وظيفتك. فقد قدّمت ضدّك قضية جنائيّة يا روث. تحمّلك الولاية مسؤوليّة وفاة الطفل».

قلت له: «لم أفهم». كانت الجملة حادّة مثل سكاكين فوق لساني.

«لقد شكّلوا توتاً هيئة محلّفين كبرى. أنصحك بأن تعيّنني محام للدفاع عنك. لم يعد ذلك ضمن اختصاصي».

هذا ليس حقيقياً. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. «لقد طلبت إليّ الممرضة المشرفة ألا ألمس الرضيع، ولم ألمسه، والآن أعاقب لأنني فعلت ذلك؟»

فأجاب محامي النقابة: «الولاية لا يهتمها ما الذي قالته لك الممرضة المشرفة. إنَّها ترى فقط أنَّ الطفل مات. إنَّهم يستهدفونك لأنهم يرون أنَّك لم تؤدِّي عملك كما يجب».

«أنت مخطئ». هزرت رأسي في الظلام، وقلت الكلمات التي ابتلعها طوال حياتي. «إنَّهم يستهدفونني لأنني سوداء».

على الرِّغم من كلِّ ذلك، مُت. عرفت ذلك لأنني عندما سمعت المطرقة الهوائية عند الساعة الثالثة صباحاً، ظننت أنني أحلم بأنني عالقة في زحمة المرور، وقد تأخرتُ عن عملي، وأقام عمال الطرق وادياً بيني وبين المكان الذي يجب أن أكون فيه. في حلمي، أطلقت بوق السيارة، لكنَّ المطرقة الهوائية لم تتوقَّف.

وهكذا، انفجرت من سطح الوعي، وانطلقت المطرقة الهوائية عندما اقتلع رجال الشرطة الباب من مصلاته، ودخلوا غرفة الجلوس شاهرين مسدساتهم. صحت بهم: «ماذا تفعلون؟ ماذا تفعلون هنا؟»

«روث جيفرسون؟» صاح أحدهم، لم أستطع أن أجد صوتي، لم أستطع أن أقول شيئاً، وارتعشت ذقني: نعم. وعلى الفور سحب ذراعي وثبَّتْها وراء ظهري، ودفعني إلى الأسفل، فالتصق وجهي بالأرض، ووضع ركبته على ظهري، وعقد رباطاً بلاستيكياً حول رسغي، في حين راح الآخرون يقبلون الأثاث، ويفتحون الأدراج، ويلقون بمحتوياتها على الأرض، ويرمون الكتب من على الأرفف، ثمَّ قال الشرطي: «لقد وجَّهت إليك هيئة محلِّفين كبرى تهمة القتل، والقتل غير العمد. أنتِ مقبوض عليك».

ثمَّ اخترق صوت آخر صدى هذه الكلمات. صوت إديسون وهو يسألني: «ماما؟ ما الذي يحدث هنا؟»

اتَّجهت كلَّ الأعين نحو مدخل غرفة النوم. «لا تتحرَّك»، صاح شرطيٌّ آخر، ووجَّه مسدَّسه نحو ابني، «ارفع يديك».

بدأت أصرخ.

هجموا كلَّهم على إديسون، دفعه ثلاثة منهم إلى الأرض، وقيدوا يديه مثلي. رأيتَه يبذل جهده ليزحف نحوي، والذعر يغلِّف كلَّ عضلة من عضلات رقبتَه، وبياض عينيه يتحرَّك في جميع الاتجاهات ليعرف إن كنت على ما يرام. «دعوه وشأنه»، صحت، «لا علاقة له بكلِّ ذلك».

لكنَّهم لا يعرفون ذلك. كان كلُّ ما يرونه فتى أسود طوله ستُّ أقدام. صحت به: «افعل ما يقولونه لك يا إديسون، ثمَّ اتصل بخالتك».

سمعت صوت طقطقة مفاصلي عندما سحبني الشرطيُّ الذي أمسك بي فجأة من رسغي وأوقفني على قدمي، ولمَّا قاومته قليلاً، جاء رجال الشرطة الآخرون، وتركوا محتويات خزائن مطبخي، ورفوف كتبتي وأدراجي مكوَّمة على الأرض.

لمَّا أخذوا يجروني، وأنا في ثوب نومي وصندي، إلى أسفل الدرج، استيقظتُ تماماً. تعرَّضتُ وخُذت ركبتي على الرصيف قبل أن يدفع أحدهم رأسي إلى مقعد سيَّارة الشرطة. دعوت الله أن يسأل جيراني الذين أيقظتهم الجلبة في شارعنا النائم في الساعة الثالثة صباحاً، والذين وقفوا أمام بيوتهم يعكس القمر وجوههم البيض، أنفسهم ذات يوم ما لماذا ظلُّوا صامتين، ولم يسأل أحد منهم إن كان في استطاعته أن يساعدني.

كنت قد ذهبت إلى مركز الشرطة عندما سحج أحدهم سيارته بسيارتي في ساحة وقوف السيارات وهرب السائق الأحمق الذي فعل ذلك. وفي أحد الأيام، أمسكت بيد مريضة تعرَّضت لاعتداء جنسيٍّ، لكن لم تكن لديَّ الشجاعة الكافية لأخبر السلطات، أمَّا اليوم فقد أدخلت مركز الشرطة من

الشارع الخلفي ولم أتمكن من أن أرى بوضوح بسبب أضواء النيون الساطعة. سُلمت إلى شرطي آخر، شاب، طلب إلي أن أجلس، وسألني عن اسمي وعنواني وتاريخ ميلادي ورقم الضمان الاجتماعي. كنت أتكلّم بصوت منخفض، فطلب إليّ لمرات عدّة أن أرفع صوتي، ثم أخذت إلى جهاز يشبه آلة نسخ الفوتوكوبي، لكنّها ليست كذلك. وضعت أصابعي، الواحد تلو الآخر، فوق سطح زجاجي. عندما ظهرت بصمات أصابعي على الشاشة، قال الشرطي الشاب: «جيد». ثم أوقفت قبالة جدار من الطوب، وصوّروني. ثمّ قادني الشرطي الشاب إلى الزنزانة الوحيدة الموجودة في مركز الشرطة هنا، وكانت صغيرة ومظلمة وباردة جداً، ويوجد في الزاوية مرحاض ووعاء طويل العنق. «عفواً»، قلت له وهو يقفل الباب، «كم سألني هنا؟»

نظر إليّ نظرة لا تخلو من التعاطف، وقال بغموض: «لا أعرف»، وذهب.

جلست على المقعد المعدني، فتسلّلت البرودة عبر ثوب النوم الذي أرتديه. شعرت بالحاجة إلى أن أتبول، لكنني شعرت بحرج شديد لأن أفعل ذلك هنا، في مكان مكشوف.

تساءلت هل اتصل إديسون بأديسا لتحاول إخراجي من هنا؟ تساءلت، هل أخبرته أديسا عن الطفل الذي مات؟ تساءلت، هل سيلومني ابني؟

فجأة، تذكّرت نفسي قبل اثنتي عشرة ساعة، عندما كنت أغمر خيوط كريستال الثريا في محلول الأمونيا وموسيقا كلاسيكية تصدح في منزل أسرة هالويل. هذا التناقض جعلني أكتف ضحكة، أو إجهاشة إلى بكاء، لا أعرف.

إذا لم تتمكن أديسا من إخراجي من هنا، فربّما تستطيع أسرة هالويل، التي تعرف أشخاصاً مهمّين، لكن يجب أن يخبر أحد ما أمي بما حدث أولاً، ومع أنّها ستدافع عني حتّى يوم موتها، فإني أعرف أنّها ستتساءل كيف حدث ذلك؟ كيف انتهى الأمر بهذه الفتاة التي كسرت ظهري كي تعيش حياة سعيدة، في زنزانة السجن؟ وأنا أيضاً لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال

أيضاً. لقد كان تعليمي: شهادة التمريض، وعشرون سنة من الخدمة في المستشفى، وبيتي الصغير الأنيق، وسيارتي الجميلة تويوتا RAV4، وابني الذي حصل على مرتبة الشرف في كفة، لبنات وجودي الأساسية، ولون بشرتي السمراء في الكفة الأخرى.
حسناً.

لم أبدل كل هذا الجهد كي لا أحقق شيئاً. لا يزال بإمكانني أن أستخدم شهادتي الجامعية الرائعة والسنوات التي أمضيتها برفقة الطلاب البيض لأغبر هذا الوضع، وأقنع الشرطة بأن هذا مجرد سوء تفاهم. فأنا مثلهم أعيش في هذه المدينة. ومثلهم أَدفع ضرائبي، ولديهم قواسم مشتركة معي أكثر ممّا لديهم مع ذلك المتعصب العنصري الحانق الذي أثار هذه المشكلة.

لا أعرف متى سيعود أحد إلى الزنزانة، فلا أملك ساعة يد، ولا توجد ساعة حائط، لكن هناك متسع من الوقت كي أستعيد شرارة الأمل التي تحترق داخل صدري.
جاء الشرطي الشاب، وقال: «سأخذك الآن إلى غرفة الاستجواب. كما تعرفين، يجب أن أفعل...»، وأشار إلى يديّ.

نهضت واقفة، وقلت له: «لا بدّ أنّك منهك لأنك لم تنم طوال الليل».

هرّ كتفيه، لكنّه احمرّ خجلاً، وقال: «شخص آخر سيفعل ذلك».

«أراهن أنّ أمك فخور بك. أعرف أنّني سأكون كذلك. أظنّ أنّ ابني أصغر منك بسنتين فقط». مددت يديّ أمامي، لكنّه قال ببراءة وهو ينظر بعينيه الواسعتين إلى رسغيّ، «أظنّ أنّنا نستطيع أن نذهب من دونها».

وضع يده على ذراعي بإحكام، وسرنا.

أخفيت ابتسامتي وحسبت ذلك انتصاراً.

بقيت وحدي في غرفة فيها امرأة كبيرة أعرف أنها نافذة لغرفة أخرى في الجانب الآخر من الجدار. يوجد جهاز تسجيل على الطاولة، ومروحة تدور في

السقف، مع أنّ المكان بارد جداً. طويت يديّ فوق حضني، ورحت أنتظر. لم أنظر في صورتني المنعكسة في النافذة لأنني أعرف أنهم يراقبونني. ألقيت نظرة سريعة لأرى نفسي وقد بدوت مثل شبح وأنا مرتدية قميص النوم.

لمّا فُتح الباب، دخل محققان اثنان - ثور في هيئة رجل، وعفريتة ضئيلة الحجم. «أنا المحقّق ماكدوغال»، قال الرجل، «وهذه المحقّقة ليونغ.»

ابتسمت لي. حاولت أن أقرأ ما يقبع وراء ابتسامتها. إنّك امرأة أيضاً، أرجو أن نتواصل بالتخاطر. إنك أمريكية من أصل آسيويّ، تجلسين في المقعد الذي أجلس فيه مجازاً، إن لم يكن حرفياً.

«هل أجب لك ماء يا سيّدة جيفرسون؟» سألتني المحقّقة ليونغ.

فقلت: «نعم، شكرًا».

لمّا ذهبت لتجلب الماء، أوضح لي المحقّق ماكدوغال أنّه لا يتعيّن عليّ أن أقول لهما شيئاً. لأنّني إذا تفوّهت بشيء، فقد يُستخدم ما أقوله ضدّي في المحكمة، وأضاف إذا لم يكن لديّ شيء أخفيه، يمكنني أن أحكي لهما جانباً من القصة.

فقلت: «نعم»، مع أنّني كنت قد شاهدت ما يكفي من البرامج عبر شاشة التلفاز تجعلني أعرف أنّني يجب أن ألوذ بالصمت. لكن، ما نشاهده ضرب من الخيال، وهنا واقع الحياة. فأنا لم أفعل شيئاً ضدّ القانون، وإذا لم أشرح لهما ذلك، فكيف سيعرفان؟ إذا لم أشرح حالتي، ألا يجعلني ذلك أبدو مذنباً؟

سألني إن كان من الممكن أن يشغّل جهاز التسجيل.

فقلت: «طبعاً، وشكراً لك. شكراً جزيلاً لأنك مستعدّ لأن تسمعني. أظنّ أنّ هذا كلّه مجرد سوء تفاهم كبير».

لمّا عادت المحقّقة ليونغ، ناولتني كأساً كبيرة من الماء، فشربته كلّها. لم أكن أعرف كم كنت ظمأى إلّا عندما بدأت أشرب.

«مهما كان الأمر يا سيدة جيفرسون»، قال ماكدوغال، «فلدينا بعض الأدلة القوية التي تتناقض مع ما تقولينه. إنك لا تنكرين أنك كنت موجودة عندما مات ديفيس باور؟»

فأجبت: «لا، كنت هناك. كان شيئاً فظيئاً».

«ماذا كنت تفعلين في ذلك الوقت؟»

«كنت جزءاً من فريق الطوارئ. فقد أصبح الطفل مريضاً جداً، وبسرعة كبيرة. بذلنا كل ما في وسعنا».

«لكنتي انتهيت تَوَّأً من النظر إلى صور الطبيب الشرعي، التي توحى بأنَّ الطفل تعرَّض لإيذاء جسدي...»

صحت: «حسناً، أنا لم ألمس هذا الطفل».

فقال ماكدوغال: «قلتِ تَوَّأً إنَّك أحد أفراد فريق الطوارئ».

«لكنتي لم ألمس الطفل إلَّا عندما بدأت حالته تزداد سوءاً».

«في تلك اللحظة بدأتِ تضغطين على صدر الطفل...»

تدفَّق الدم إلى وجهي، وقلت: «ماذا؟ لا، كنت قد بدأت عمليَّة الإنعاش القلبي الرئوي...»

«بشيء من الحماس، استناداً إلى شهود عيان»، أضاف المحقِّق.

مَن؟ قلت في نفسي، ورحت أستعرض في ذهني كلَّ الأشخاص الذين كانوا موجودين في الغرفة. من الذي رأى ما كنت أفعله ولا يعرف ما كنت أفعل حقاً: رعاية طبيَّة طارئة؟

«السيدة جيفرسون»، سألتني المحقِّقة ليونغ، «هل ناقشتِ أحداً في المستشفى عن

مشاعرك تجاه هذا الطفل وأسرته؟»

«لا، فقد كنتُ قد أُخرجت من رعايته، وانتهى الأمر».

ضيق ماكدوغال عينيه، وقال: «ألم تكن لديك مشكلة مع تورك باور؟»

أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «لم ينظر أحدنا إلى الآخر وجهاً لوجه».

«هل هذا شعورك تجاه الأشخاص البيض؟»

فقلت له، وأنا أنظر في عينيه مباشرة: «عدد من أعرّأ أصدقائي هم من البيض».

حدّق ماكدوغال إليّ طويلاً حتّى رأيت حدقتيه تتقلّصان. كنت أعرف أنّه كان ينتظر أن أشيح بنظري عنه أولاً، لكنّي رفعت ذقني.

نهض وقال: «يجب أن أُجري مكالمة»، وخرج من الغرفة.

عددت ذلك انتصاراً أيضاً.

جلست المحققة ليونغ على طرف الطاولة، شارتها عند وركها، تلمع مثل لعبة جديدة. ثمّ قالت: «لا بدّ أنّك متعبة جداً»، كان بإمكانني أن أسمع في صوتها اللعبة نفسها التي حاولت أن ألعبها مع الشرطيّ الشاب في ززانة الحجز.

فقلت لها بصوت هادئ: «اعتادت الممرّضات العمل لفترات طويلة مع فترات نوم قليلة».

«وأنت تعملين ممرّضة منذ فترة من الزمن، أليس كذلك؟»

«منذ عشرين عاماً».

ضحكت، وقالت: «يا إلهي! لقد بدأت عملي هذا منذ تسعة أشهر. لا يمكنني أن أتخيّل أن أفعل شيئاً كلّ هذه المدّة. أظنّ أنّه لا يمكنك أن تنجحي في عملك إذا لم تكوني شغوفاً به، أليس كذلك؟»

أومأت برأسي، متوّخية الحذر. لكن، لو سنحت لي الفرصة ليفهم هذان المحقّقان أنّي بريئة، فستكون معها هي، فقلت: «صحيح، وأنا أحبّ مهنتي».

فقالت: «لا بدّ أنّك انزعجت كثيراً عندما طلبت إليك المشرفة أن تتوقّف عن رعاية ذلك الطفل، ولا سيّما بالنظر إلى مستوى خبرتك».

«لم يكن أفضل يوم أمضيته في حياتي، لا».

«في أول يوم خرجت فيه إلى العمل؟ قادت سيارة الشرطة على الطريق السريع لأقف في موقع بناء. حقاً. كنت قد حصلت على أعلى الدرجات في امتحان المحققين، لكن في الميدان، فإن ذلك يبدو مزحة. لا يزال الرجال الآخرون في دوري ينادونني «صدمة». أقصد، لكن صادقين، يجب على المحقق الأثني أن تعمل ضعف ما يفعله المحقق الرجل، لكنهم لا يتذكرون إلا خطأً بسيطاً ارتكبته. كنت مستاءة جداً، ولا أزال».

نظرت إليها. ظهرت الحقيقة على لساني مثل قطعة حلوى صلبة. لم يكن من المفترض أن ألمس الطفل. لكني لمستته، مع أنه كان من الممكن أن أقع في ورطة.

ثم أضافت: «انظري يا روث، إذا كان ذلك مجرد حادث، فالآن الوقت المناسب لتقولي ذلك. ربما أثر فيك شعورك بأنك جُرحت كثيراً. سيكون ذلك مفهوماً تماماً. فقط قولي لي، وسأفعل كل ما في وسعي لأجعل الأمر يسير بسهولة أكبر».

في تلك اللحظة، أدركت أنها لا تزال تعتقد أنني مذنبه.

وأنها لم تكن لطيفة معي عندما حكّت لي قصتها، وإنما تحاول أن تتلاعب بي.

وأن تلك البرامج المتلفزة غير حقيقية.

ابتلعت ريفي بصعوبة، حتى إنَّ الصدق قبع في حفرة بطني. ثم قلت كلمتين قصيرتين بصوت لم أميزه: «أريد محامياً».

المرحلة الأولى التحوُّل

مفاتيح البيانو باللونين الأسود والأبيض،
لكنّها تبدو مثل مليون لون في دماغك.

ماريا كريستينا مينا

كينيدي

لَمَّا وصلت إلى المكتب، كان إد غوركيس - أحد زملائي - يتحدث عن الشخص الذي عُيِّن في المكتب مؤخراً بعد أن تركت إحدى المحاميات المساعدات الشابات العمل لإنجاب طفلها، وأبلغت قسم الموارد البشرية بأنها لن تعود إلى العمل. كنت أعرف أنَّ رئيسنا هاري يجري مقابلات، لكنِّي لم أكن أعرف أنه اتخذ قراره إلا عندما جاء إد إلى مكنتبي.

«ألم تلتقيه بعد؟» سألني إد.

«ألتقي مَنْ؟»

«هوارد، الموظف الذي عُيِّن مؤخراً».

يعمل إد محامياً عاماً لأنه يستطيع ذلك. وبما أنَّ لديه صندوق ائتمان كبيراً فهو لا يعبأ بالرواتب الضئيلة التي نتقاضها. ومع أنه نشأ وهو يتمتع بجميع الامتيازات الممكنة، فلا يوجد شيء يرضيه، فهو دائم التذمُّر والشكوى: مقهى ستاربكس على الطرف الآخر من الشارع يقدم قهوة ساخنة جداً، وقع حادث على الطريق السريع جعله يتأخَّر عشرين دقيقة، لم تعد آلة البيع في المحكمة تبيع كاندني سكيلتز.

«لم يمضِ على وصولي أكثر من أربع ثوان. كيف يمكنني أن أرى أحداً؟»

«من الواضح أنه عُيِّن هنا لتحقيق أهداف عدَّة، فهو شابٌ غرٌّ».

«وماذا لو كان شاباً غرّاً؟ ألم تكن أنت شاباً غرّاً أيضاً ذات يوم؟».

فقال إد بصوت منخفض: «كان هناك مرشَّحون أكثر جدارة».

بدأت أبحث بين الأكوام المكدَّسة على طاولة مكنتبي عن الملقَّات التي أحتاج إليها. كانت هناك رسائل كثيرة على الهاتف تعمَّدت تجاهلها، ودمدمتُ: «أسفة لأنَّ ابن أختك لم يُختر لهذه الوظيفة».

«ماكوري، أنت سخيفة».

«انظر يا إد، لديّ عمل يجب أن أنجزه. لا يوجد لديّ وقت للثرثرة في أحاديث المكتب». انحنيت نحو شاشة حاسوبي، وتظاهرت بأنني بدأت أقرأ أول بريد إلكترونيّ تصادف أنّه إعلان من محالّ نورد ستروم تراك.

في نهاية الأمر، أدرك إد أنّني لن أشاركه الحديث، فذهب إلى غرفة الاستراحة، حيث لا شكّ في أنّ القهوة لن تكون فيها جيدة، ولم تبق لدينا نكهة الكريما التي يفضلها. أغمضت عينيّ، وأسندت ظهري إلى الكرسيّ.

فجأة، سمعت حفيفاً على الجانب الآخر من مقصوريّ، ورأيت شاباً أسود طویل القامة ونحيفاً واقفاً، يرتدي بدلة رخيصة بربطة عنق في شكل قوس، ويضع نظارة كالتّي يضعها أنصار موسيقا الجاز. لا بدّ أنّه الموظف الجديد الذي اختاره المدير للعمل معنا، والذي كان جالساً هناك طوال الوقت يستمع إلى ما يقوله إد عنه.

قال: «اسمي هوارد، إذا كان لديك أدنى شكّ».

أرخت وجهي إلى ابتسامة، ورحت أتخيّل الدّمى التي تشاهدها فيوليت في برنامج افتح يا سمسم. «هوارد»، كزرت، وقفرت واقفة على قدميّ، ومددت يدي على الفور لمصافحته، وقلت: «أنا كينيدي. يسرّني حقاً أن ألتقيك».

فقال: «كينيدي، مثل جون ف؟»

أسأل كثيراً عن اسمي، فأقول: «أو روبرت»، مع أنّ هوارد كان محقاً. لعليّ أفضل أن يُطلق عليّ اسم السياسيّ الذي حقّق أشياء كثيرة في مجال الحقوق المدنيّة، لكنّ أمّي كانت معجبة بأخيه سيّ الحظّ، وأسطورة قصر كاميلوت.

سأبدل جهدي ليعرف هذا الشابّ المسكين أنّ شخصاً واحداً في الأقلّ، في هذا المكتب، سعيد بوجوده هنا، فقلت له، والابتسامة على وجهي:

«إذًا، أهلاً بك. إذا احتجت إلى أي شيء، وإذا كان لديك أي سؤال عن طريقة العمل هنا - فلا تردد في أن تسألني».

«عظيم. شكراً لك».

«وربما نتناول الغداء معاً؟»

هز هوارد رأسه، وقال: «يسعدني ذلك».

«حسناً. يجب أن أذهب إلى المحكمة الآن»، قلت مترددة، ثم التفتُّ إلى الفيل القابع في الغرفة، وقلت: «لا تستمع أيضاً إلى إد. لا يفكر الجميع هنا بالطريقة نفسها»، ابتسمت له، وأضفت، «أظنُّ أنّ من الرائع أن تردَّ الجميل لمجتمعك».

ابتسم هوارد، وقال: «شكراً، لكن... لقد نشأتُ في دارين».

دارين. إحدى أغنى البلدات في الولاية.

ثمَّ جلس، واختفى وراء الحاجز الذي يفصل بيننا.

لم أكن قد شربت فنجان القهوة الثاني بعد، وكان عليّ أن أشقِّ طريقي بصعوبة في حركة المرور الكثيفة، ومجموعة المراسلين المتشابكة، فتساءلت ما الذي يجري في قاعة المحكمة العليا. أنهينا حتّى الآن ثلاث قضايا: انتهاك جنائيٍّ لأمر تقييديٍّ لمُتهمٍ لا يتكلّم اللغة الإنكليزيّة، ومُتهمةٌ للمرّة الثانية شعرها مصبوغ باللون الأبيض ومُتّمة هالات ترسم تحت عينيها، يُزعم أنّها أصدرت شيكاً من دون رصيد بقيمة 1200 دولار لشراء حقيبة يد من ماركة مشهورة، ورجل كان من الغباء بحيث إنّه لم يسرق هويّة شخص وبدأ يستخدم بطاقات ائتمانه وحسابه المصرفيّ فحسب، وإمّا اختار أن يسرق امرأة اسمها كاثي، ولم يخطر في باله أنّه سيُقبض عليه.

ومرّة أخرى، كنت أردّد لنفسني إنّه لو كان زبائني أكثر ذكاء، لانقرضت مهنتنا.

إنَّ الطريقة التي نعمل بها في المحكمة العليا في نيو هافن عند توجيه اتهام إلى أحدهم، أن يعمد أحد المحامين في مكتب المساعدة القضائية، الذي أعمل فيه، إلى تمثيل أي شخص يمثل أمام القاضي ولا يوجد لديه محام خاص. وكما لو كنت عالماً في باب دوار، كلُّما دخلت المبنى، رأيت ديكوراً وتصميماً جديدين، وتتوقَّع أن تعرف ما هي وجهتك، وكيف ستبحر هناك. في معظم الأوقات، أقابل موكلِّي الجدد عند طاولة الدفاع لأفهم بسرعة سبب اعتقالهم، وأحاول أن أخرجهم بكفالة.

هل قلت إنني أكره اليوم الذي يتم فيه توجيه الاتهام؟ حتى لو أبلت بلاء حسناً، وتمكَّنت من إخراج المدعى عليه بكفالة شخصية، التي لولاها سيُسجن حتى يحين موعد المحاكمة، من المرجَّح أنني لن أكون المحامية التي ستواصل قضيتَه. أمَّا القضايا المهمة التي أريد الدفاع عنها، فإمَّا أن يأخذها مني محام أقدم في المكتب، وإمَّا أن تنقل إلى محام خاص، أي محام لقاء مبلغ كبير من المال.

لا بدَّ أن مسار المتهم التالي سيكون على هذا النحو: «التالي: الولاية ضدَّ جوزيف دوز هوكينز الثالث»، نادى كاتب المحكمة.

كان جوزيف دوز هوكينز شاباً صغيراً يملأ حبَّ الشباب وجهه. بدا خائفاً جداً، وهذا ما استفعله لك ليلة في السجن عندما تقتصر تجربتك المتعلقة بالسلوك الإجرامي على مشاهدة المسلسل المتلفز «The Wire».

قال القاضي: «السيد هوكينز، أرجو أن تعرّف نفسك لأجل السجل؟»

«ممم، جو هوكينز»، أجاب الصبي، بصوته المتهذِّج.

«أين تقيم؟»

«139، غراند ستريت، ويستفيل».

قرأ كاتب المحكمة الاتهام الموجَّه إليه: تجارة مخدرات.

بحسب قِصَّةِ شَعْرِ الْفَتَى، مرتفعة الثمن، واستجابته بعينيه الواسعتين للنظام القانوني، لا بدَّ أنَّه كان يتعاطى شيئاً من قبيل أوكسي، وليس الميث أو الهيروين. قال القاضي على الفور: «جو، أنت متهم بتجارة المخدرات. هل تفهم ماذا تعني هذه التهمة؟»

عندما هزَّ الصبِّي رأسه، أضاف القاضي: «هل يوجد محامي دفاع هنا اليوم؟»

نظر الصبِّي من فوق كتفه إلى القاعة، وبدا شاحباً قليلاً، ثمَّ قال: «لا».

«هل تريد أن تتحدَّث إلى محامٍ عامٍّ؟»

فقال: «نعم، يا حضرة القاضي».

وهنا جاء دوري.

تقتصر الخصوصيَّة على ما يسمَّى مخروط الصمت عند طاولَةِ الدفاع. قلت: «أنا

كينيدي ماكوري. كم عمرك؟»

«ثماني عشرة سنة. في السنة الأخيرة في هوبكنز».

طبعاً المدرسة الخاصَّة. «منذ متى وأنت تعيش في ولاية كونيتيكت؟»

«منذ أن كان عمري سنتين؟»

سألته: «هل هذا سؤال أو إجابة؟»

فقال: «إجابة»، وابتلع ريقه. كان حجم تفاحة آدم لديه بحجم عقدة قبضة فرد.

«هل تعمل؟»

تردَّد قليلاً، ثمَّ قال: «هل تقصدين إلى جانب بيع الأوكسي؟»

فأجبت على الفور: «لم أسمع».

«أوه، قلت...»

«لم أسمع ما قلته».

رفع عينيه، وهزَّ رأسه، وقال: «فهمت. لا، لا أعمل شيئاً».

«مع مَنْ تسكن؟»

«مع أمِّي وأبي».

وضعت علامة على القائمة المرجعية التي كنت قد وضعتها في ذهني، وطرحت عليه وإبلاً من الأسئلة، ثمَّ سألته أخيراً: «هل لدى والديك الموارد الكافية لتوكيل محام خاص؟»

نظر إلى بدلي التي اشتريتها من محالّ تارغيت، والتي عليها بقعة حليب، عندما قلبت فيوليت صحن الحليب هذا الصباح، وقال: «نعم».

قلت له: «اسكت، ودعني أتكلّم»، والتفتُّ إلى منصّة القاضي، وقلت: «حضرة القاضي، إنّ عمر جو الشاب لا يتجاوز الثمانية عشر عاماً، وهذه أول جنحة له. وهو طالب في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية، ويعيش مع أمّه وأبيه - أمّه معلّمة في حضانة أطفال، وأبوه مدير بنك - لديهما منزلهما. أطلب بإطلاق سراحه بكفالة على أساس تعهد رسمي منه».

التفت القاضي إلى نظيرتي في هذه الرقصة، المدّعية العامّة، التي تقف عند الطرف الآخر من منصّة الدفاع، واسمها أوديت لوتون، التي تحبّ كثيراً أن تطالب بأحكام مثل عقوبة الإعدام. ومع أنّ معظم المدّعين العامّين والمحامين يدركون أنّنا طرفان لعملة واحدة في جداول رواتب الموظّفين، ونترك العداء خلفنا في قاعة المحكمة، وتتواصل اجتماعياً خارجها، فإنّ أوديت تطلّ منطوية على نفسها. «ما الذي تريد أن تتوصّل إليه الولاية هنا أيتها المستشار؟»

رفعت عينها. شعرها قصير جدّاً، وعيناها داكنتان إلى درجة أنّك لا تستطيع أن ترى بؤبؤ عينها. بدت مرتاحة تماماً، كما لو أنّها عادت تواء من صالون تجميل. فقد كان مكياجها لا تشوبه شائبة.

نظرتُ إلى يديّ. إمّا أنّ بشرتي قد تأكلت، وإمّا أنّ هناك طلاء أخضر تحت أظفري، أو أنّني بدأت أتعفن من الداخل.

قالت أوديت: «إنّها تهمة خطيرة، إذ لم نعثر على مخدر في حوزة السيّد هوكينز فحسب، وإمّا كانت لديه نيّة لبيعه. إنّ جعله طليقاً في المجتمع يشكّل تهديداً وخطأً فادحاً. تطلب الولاية أن تكون الكفالة عشرة آلاف دولار مع ضمان».

كرّر القاضي قائلاً: «تحدّد الكفالة بعشرة آلاف دولار»، واقتاد حارس المحكمة جوزيف داووز هوكينز الثالث إلى خارج القاعة.

حسناً، لا يمكنك أن تفوزي بها كلّها. النّبأ السارّ هنا هو أنّ بإمكان أسرة جوزيف أن تغطّي مبلغ الكفالة - حتّى لو كان ذلك يعني أنه سيضطرّ إلى عدم قضاء عطلة عيد الميلاد في باربادوس، والخبر الأفضل هو أنّني لن أرى جوزيف داووز هوكينز الثالث مرة أخرى. ربما أراد أبوه أن يلقنه درساً بعدم إحضار محامي الأسرة منذ البداية، كي يمكث في زنائه طوال الليل، لكنني متيقنة من أنّها مسألة وقت قبل أن يتّصل ذلك المحامي الذي يتقاضى أجراً عالياً بمكتبنا ويتولّى قضية جوي.

ثمّ سمعت صوتاً يقول: «الولاية ضدّ روث جيفرسون».

رأيت امرأة تُقاد إلى قاعة المحكمة مقيدة بالسلاسل، لا تزال في ثوب نومها، وقد لفتت وشاحاً حول رأسها. لمّا دخلت القاعة، جالت بعينها قاعة المحكمة، وللمرة الأولى أدركت أنّ قاعة المحكمة مكتظة في يوم الثلاثاء هذا أكثر من المعتاد، لا بل كانت تغطّ بالناس.

قال لها القاضي: «أرجو أن تعرّفي نفسك لأجل السجّل؟»

فقالت: «روث جيفرسون».

«قاتلة»، صاحت امرأة من قاعة المحكمة، فثارت جلبة بين الحاضرين تحوّلت إلى هدير. أجفلت روث. رأيتها تدير وجهها نحو كتفها، ثمّ أدركت أنّها تمسح البصاق الذي بصقه عليها أحدهم من وراء الحاجز.

هرع حرس المحكمة، وجزّوا الرجل من مكانه - شخص ضخم فظّ لم أستطع أن أراه إلا من الخلف، وقد رسم وشم صليب معقوف عليه أحرف عدّة على فروة رأسه. أمر القاضي بإحلال النظام في القاعة. وقفت روث جيفرسون شامخة، وراحت تبحث بعينها عن شخص - أو شيء - لم تجده.

«روث جيفرسون»، صاح كاتب المحكمة، «أنتِ متّهمة بالتهمة الأولى، جريمة قتل، والتهمة الثانية، القتل بسبب الإهمال».

كنت منهمكة في محاولة أن أعرف ما الذي يجري هنا، ولم أدرك أنّ الجميع كانوا ينظرون إليّ، وأنّ هذه المرأة المدّعى عليها قد قالت للقاضي إنّها في حاجة إلى محامٍ عامّ.

نهضت أوديت واقفة وقالت: «لقد ارتكبت عملاً إجرامياً شنيعاً شمل قتل رضيع لا يزيد عمره على ثلاثة أيام، يا حضرة القاضي. وقد أبدت المدّعى عليها كراهيتها وعداءها لوالديّ هذا الطفل، وستثبت الولاية أنّ تصرفها ذاك هو عن سابق إصرار، وبحقد متعمّد، في تجاهل طائش لسلامة المولود الذي تعرّض في حقيقة الأمر لصدمة على يديها، أدّت إلى موته».

هل قتلت هذه المرأة مولوداً جديداً؟ بدأت سيناريوهات تدور في رأسي: هل هي مريّة؟ هل هي حالة هزّ الرضيع؟ هل هو موت مفاجئ؟

«هذا جنون»، انفجرت روث جيفرسون قائلة. لكزتها بمرفقي برفق، وقلت لها: «ليس هذا هو الوقت المناسب».

قالت بإصرار: «دعيني أتحدّث إلى القاضي».

قلت لها: «لا، دعيني أتحدّث إلى القاضي نيابة عنك». التفتُّ إلى منصّة القاضي، وقلت: «حضرة القاضي، هل يمكننا أن نتحدّث لحظة؟»

أخذتها إلى طاولة الدفاع، على بعد خطوات قليلة من المكان الذي كنّا نقف فيه، وقلت لها: «أنا كينيدي ماكواري. سنتحدّث عن تفاصيل

قضيتك لاحقاً، لكنِّي أريد الآن أن أطرح عليك بعض الأسئلة. منذ متى تقيمين هنا؟»
فقالت بصوت أجشّ وعنيف: «لقد قيّدوني. جاؤوا إلى منزلي في منتصف الليل،
وكبّلوا يديّ بالأصفاد، وكذلك ابني...»
«أفهم أنّك منزعجة. لكن، لدينا عشر ثوان تقريباً لتعرّفي إليّ، وأمكّن من
مساعدتك في الخروج من هذه التهمة.»

فقالت: «هل تظنّين أنّك تستطيعين أن تعرفيني في عشر ثوان؟»
ترجعتُ. إذا كانت هذه المرأة تريد أن تفسد مثلها أمام المحكمة، فهذا ليس
ذنبِي.

«السيدة ماكواري»، قال القاضي، «لا يمكنني أن أنتظر كثيراً، من فضلك...»
التفتُ نحو القاضي، وقلت: «نعم، حضرة القاضي.»

«تقرّ الولاية بالطبيعة الخبيثة والبغيضة لهذه الجريمة»، قالت أوديت وهي تنظر
إلى روث مباشرة. كان الانقسام بين هاتين المرأتين السوداوين أمراً لافتاً للنظر: البدلة
الأنيقة التي ترتديها المدّعية العامّة والحذاء العالي، والقميص الأبيض إزاء ثوب النوم
ووشاح الرأس، اللذين ترتديهما روث. بدا ذلك كأنّها لقطّة في فيلم سينمائيّ. كما لو
أنّها دراسة حالة في دورة دراسيّة لا أذكر متى حضرتها، «ونظراً لجسامة التهم الموجهة
إليها، تطلب الولاية احتجاز المدّعي عليها وعدم منحها كفالة.»

كان بإمكانني أن أشعر بالهواء الذي يندفع من رثتيّ روث. قلت: «حضرة القاضي»،
ثمّ توقّفت.

لا توجد لديّ معلومات يمكنني أن أستخدمها. لا أعرف ما هي مهنة روث
جيفرسون. لا أعرف إن كانت تمتلك منزلاً أم أنّها انتقلت إلى ولاية كونيتيكت البارحة.
لا أعرف إن كانت قد وضعت وسادة على وجه ذلك الطفل حتّى توقّف عن التنفّس،
أم أنّها غاضبة بحقّ لأنّه وُجهت إليها تهمة ملفّقة.

«حضرة القاضي»، كَرَّرت، «لم تقدّم الولاية أيّ دليل على مزاعمها المتوهّمة. فهذه تهمة شديدة الخطورة من دون دليل تقريباً. وفي ضوء ذلك، سأطلب إلى المحكمة أن تحدّد كفالة معقولة بمبلغ خمسة وعشرين ألف دولار».

كان ذلك أفضل ما يمكنني فعله لندرة المعلومات التي قدّمتها. وتكمن مهمّتي في أن أخرج روث جيفرسون من هذه التهمة الموجهة إليها بأكبر قدر ممكن من الكفاءة والإنصاف. نظرت إلى ساعة الحائط. ربّما لا يزال هناك عشرة موكلين آخرين بعدها.

فجأة، شعرتُ أحداً يشدّني من كميّ. «هل ترين ذلك الشاب؟» تمتمت روث وهي تنظر إلى قاعة المحكمة. ثبتت نظراتها على شاب يقف على قدميه في الجزء الخلفي من قاعة المحكمة، كما لو أنّ مغناطيساً سحبه وجعله يقف منتصباً. «ذاك هو ابني»، قالت روث، ثمّ التفتت إليّ، «هل لديك أولاد؟»

فكرت في فيوليت. تساءلت، أكبر مشكلة في حياتك هي ألا يراك ابنك محبطة وأنت مكبّلة اليدين.

«حضرة القاضي»، قلت، «أودّ أن أراجع عمّا قلته توّأً.

«عفواً أينها المحامية؟»

«قبل أن نناقش موضوع الكفالة، أودّ أن تتاح لي الفرصة لأتحدّث قليلاً إلى موكلتي».

قطّب القاضي حاجبيه، وقال: «لقد منحتك وقتاً قبل قليل».

فقلت معدّلة كلامي: «أريد أن أحصل على فرصة لأتحدّث إلى موكلتي لأكثر من عشر ثوانٍ».

فرك القاضي يده على وجهه، وقال: «حسنًا. بإمكانك أن تتكلّم مع موكلتك في أثناء الاستراحة، وسنعيد النظر في هذه القضية مرّة ثانية».

أمسك الحارس ذراعِي روث. يمكنني أن أقول إنّها لا تعرف ما الذي يجري من حولها. «سأراك بعد قليل»، قلت لها، ثمّ اقتيدت خارج قاعة

المحكمة. بعد لحظات، وجدت نفسي أدافع عن شاب في العشرين من عمره، يطلق على نفسه الرمز # («مثل أمير، لكنّه ليس أميراً»، كما قال لي) رسم قضيياً عملاقاً على جدار جسر على الطريق السريع، ولم يفهم لماذا يُعدُّ ذلك عملاً إجرامياً، وليس فناً.

لديّ عشر قضايا أخرى، كنت أفكر في أثنائها في روث جيفرسون. وبفضل العقد الذي أبرمته نقابة كتّاب الاختزال، الذي يفرض إعطاء استراحة لمدة خمس عشرة دقيقة للذهاب إلى دورة المياه، خرجت من قاعة المحكمة وتوجّهت مباشرة إلى زنزانية الحجز الرطبة القذرة التي وضعوا فيها موكلتي.

رفعت عينيها عن السرير المعدنيّ الذي تجلس عليه وهي تفرك راسها بعد أن أزالوا الأصفاد عن راسها، التي كانت مكبّلة بها في قاعة المحكمة، مثل أيّ متهم آخر، متّهم بارتكاب جريمة قتل، فسألته بصوت حادّ: «أين كنت؟» فأجبتها: «أودّي عملي».

نظرت روث إلى عينيّ، وقالت: «هذا ما كنت أفعله أنا أيضاً. فأنا ممرضة». بدأت أجمع الألبسة معاً: لا بدّ أنّ خطأ ما قد حدث في أثناء رعاية روث للرضيع. أمر يعتقد الادعاء أنّه لم يكن حادثاً. قلت لها: «يجب أن أحصل منك على بعض المعلومات. إذا لم ترغب في أن تُحتجزي هنا حتّى يحين موعد محاكمتك، فيجب أن نعمل معاً».

صمتت روث لحظة طويلة، وقد فاجأني ذلك. فمعظم الأشخاص الذين في وضعها يتشبّهون بشريان الحياة الذي يتيح لهم محامي الدفاع، أمّا هذه المرأة فقد بدا أنّها تحاول أن تعرف إن كنتُ أرقى إلى مستوى الدفاع عنها.

يجب أن أقرّ بأنّه شعور مزعج، إذ لا ينحو موكليّ إلى أن يصدروا أحكاماً على أحد، وإمّا هم أشخاص اعتادوا أن تصدر أحكام في حقهم.

هزّت رأسها أخيراً.

قلت: «حسناً»، وانبعث من فمي نَفَسٌ لم أعرف أنني كنت أحبسه، «كم عمرك؟»
«أربعة وأربعون».

«هل أنتِ متزوجة؟»

قالت روث: «لا. توفّي زوجي في أفغانستان عندما أُرسل إلى هناك في مهمّة للمرّة الثانية. انفجرت به عبوة ناسفة. حدث ذلك منذ عشر سنوات».
سألتها: «ابنك - هل هو ابنك الوحيد؟».

قالت: «نعم. إديسون، طالب في المدرسة الثانوية»، وأضافت، «وهو يقدّم حالياً أوراؤه إلى الجامعة. جاءت تلك الحيوانات إلى منزلي وقيدوا طالباً متفوقاً بمرتبة الشرف».

«سنصل إلى ذلك بعد قليل»، وعدتها، «هل لديك شهادة في التمريض؟»
«درست في جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ ثمّ في مدرسة التمريض في جامعة ييل».

«هل أنتِ موظّفة؟»

«أعمل في مستشفى الرحمة - ويست هافن منذ عشرين سنة، في جناح الولادة. لكنّهم طردوني البارحة».

دوّنت هذه الملاحظات في دفتر الملاحظات القانونية، ثمّ سألتها: «ما مصدر دخلك حالياً؟»

هزّت رأسها، وقالت: «تعويضات وفاة زوجي العسكري».

«هل تملكين منزل؟»

«المنزل في حيّ إيست إند».

إنَّه الحيّ نفسه الذي أقيم فيه أنا وميكا، حيّ يسكنه البيض الأغنياء. أرى عادة وجوهاً سوداء البشرة داخل سيّاراتهم. أعمال العنف نادرة في هذا الحيّ، وعندما تحدث سرقة أو سرقة سيّارة، يمتلئ قسم التعليقات في صفحة صحيفة نيو هافن إندبندنت على الإنترنت بأشخاص من منطقة إيست إند يشكون كيف أنّ «عناصر» من الأحياء الفقيرة مثل ديكسويل ونيوهولفيل يتسلّون إلى قرينتا الصغيرة المثاليّة.

بكلمة «عناصر»، فإنّهم يقصدون ذوي البشرة السوداء بالطبع.

«يبدو أنّك فوجئت»، قالت روث.

فأجبت بسرعة: «لا. فقد تصادف أنّني أسكن هناك أيضاً، ولم أرك قطّ».

فقال بجفاف: «إنّي لا أخرج كثيراً».

تنحنحتُ وقلت: «هل لديك أقارب في ولاية كونيتيكت؟»

«أختي أديسا، الجالسة إلى جانب إديسون. إنّها تعيش في شارع تشيرش ستريت

ساوث».

إنّهُ مجمّع سكنيّ يعيش فيه ذوو الدخل المحدود في حيّ هيل، يقع بين محطة قطار الأنفاق يونيون وحيّ بيل الطيّب. يعيش نحو 97 في المئة من الأطفال في هذا الحيّ في فقر، ولديّ نصيبي من الموكّلين الذين أرفع عنهم من هذا الحيّ. ومع أنّه لا يبعد عن حيّ إيست إند سوى بضعة أميال، فهو عالم آخر: فتیان يبيعون مخدّرات لإخوانهم الأكبر سنّاً، وإخوانهم الأكبر سنّاً يبيعون المخدّرات لأنّه لا يوجد لديهم عمل، وتمارس بعض الفتيات الدعارة، وتطلق العصابات هناك النار كلّ ليلة. تساءلت كيف تعيش روث حياة مختلفة عن حياة أختها.

«هل لا يزال والداك في قيد الحياة؟»

«أمّي تعمل في أبر ويست إند في مانهاتن»، قالت روث وأشاحت بعينها عن

عينيّ، وقالت: «هل تتذكّرين سام هالويل؟»

«الذي يعمل في شبكة التلفزة؟ أم ميت؟»

«نعم. لكنّها لا تزال تعمل لدى أسرته».

فتحتُ الملفّ باسم روث، الذي يضمّ لائحة الاتهام التي أصدرتها هيئة المحلّفين الكبرى، والتي عجّلت مسألة القبض عليها. لم يتح لي الوقت الكافي لأنظر في أكثر من التهم الموجّهة إليها قبل الآن، لكنّي رحّت أتصفّح الأوراق بسرعة، ثمّ سألتها: «مَن هو ديفيس باور؟»

لان صوت روث، وقالت: «الطفل الذي مات».

«أخبريني، ما الذي حدث؟».

بدأت روث تنسج قصّتها. مقابل كلّ حقيقة سوداء كثيفة تدور حولها، يلوح وميض فضيٍّ من العار. حدّثتني عن والدَي الطفل، وملاحظة المشرفة، والختان والولادة القيصرية الطارئة، والنوبة التشنجية للمولود الجديد، وقالت إنّ الرجل الذي يوجد وشم صليب معقوف على ذراعه، والذي بصق عليها في قاعة المحكمة هو والد الطفل. بدأت الخيوط تتشكّل من حولنا، مثل الحرير المنبعث من شرنقة.

«... والشيء التالي الذي عرفته»، قالت روث، «هو أنّ الطفل مات».

ألقيتُ نظرة على محضر الشرطة، وسألتها: «أمّ تلمسيه قط؟»

حدّثت إليّ لحظة طويلة كأنّها تحاول أن تعرف إن كان بإمكانها أن تثق بي، ثمّ هزّت رأسها، وقالت: «لم ألمسه إلا بعد أن طلبت إليّ الممرّضة المسؤولة أن أضغط على صدره».

انحنيْتُ إلى الأمام. «إذا استطعت أن أخرجك من هنا وتعودين إلى منزلك وإلى ابنك، يجب أن ترسلي نسبة مئويّة من مبلغ الكفالة. هل لديك نقود كافية؟» عدّلت كتفيها، وقالت: «النقود التي ادّخرتها لأجل دراسة إديسون في الجامعة، لكنّي لن ألمسها».

«هل أنتِ مستعدةٌ لأن ترهني منزلك؟»

«ماذا يعني ذلك؟»

قلت لها موضحة: «أن تمنحي الولاية حقَّ رهن البيت.»

«ثمَّ ماذا؟ إذا خسرت القضية، فهل هذا يعني أنَّ إديسون لن يعود لديه مكان

يعيش فيه؟»

«لا. هذا مجرد إجراء للتأكد من أنك لن تغادري المدينة إذا أخلوا سبيلك.»

أخذت روث نفساً عميقاً، وقالت: «حسناً. لكن أريد أن تسدي لي معروفاً. أن

تخبري ابني أنني على ما يرام.»

هزرت رأسي موافقة، ثمَّ هزَّت رأسيها.

في تلك اللحظة، لم نعد امرأة بيضاء وأخرى سوداء، أو محامية ومتهمة. لا يفصلنا ما أعرفه عن النظام القانوني وما الذي ستتعلمه. وإمَّا أمان، تجلس إحدانا إلى جانب الأخرى.

لَمَّا سرت في قاعة المحكمة، شعرت أنني وضعت الآن عدسات تصحيحية. لاحظت الجالسين في القاعة، الذين لم أبدأ اهتماماً بهم منذ قليل. قد لا تكون لديهم وشوم مثل والد الطفل، لكنهم من البيض. قلة قليلة منهم ينتعلون أحذية دوك مارتنز، أمَّا الباقون فينتعلون أحذية رياضية. هل هم من ذوي الرؤوس الحليقة أيضاً؟ يحمل بعضهم لافتات عليها اسم ديفيس، وثبَّت بعضهم الآخر شرائط زرق بدبابيس على قمصانهم تضامناً. كيف فاتي كل ذلك عندما دخلت قاعة المحكمة؟ هل تجمَّعوا هنا ليدعموا أسرة باور؟

فكَّرت في روث وهي تسير في الشارع في إيست إند، وتساءلت كم شخصاً من سگان الحي الآخريين يتساءلون ما الذي تفعله هنا، حتَّى لو لم يقولوا ذلك في وجهها. كم من السهل الاختباء وراء البشرة البيضاء، قلت

لنفسى وأنا أنظر إلى هؤلاء المتعصّبين المحتملين، الذين يدّعون أنّ العرق الأبيض عرق متفوّق. قرينة الشكّ لصالحك. فأنت لست مشتبهاً فيك.

برزت الوجوه السود القليلة في القاعة في تناقض شديد. توجّهت نحو الشابّ الذي أشارت إليه روث، والذي نهض واقفاً على الفور. قلت له: «إديسون؟ اسمي كينيدي».

كان أطول قامته منّي بثلاثين سنتمتراً تقريباً، لكنّ وجهه لا يزال وجه طفل. سألني: «هل ماما بخير؟»

«إنّها على ما يرام، وقد أرسلتني لأخبرك بذلك».

«حسناً، لقد أمضيت معها وقتاً طويلاً»، قالت المرأة الواقفة إلى جانبه، لها ضفائر طويلة يتخللها لون أحمر، وبشرتها أغمق بكثير من بشرة روث. كانت تشرب كولا مع أنّه لا يسمح بإدخال الطعام أو الشراب إلى قاعة المحكمة، ولما رأته أنظر إلى علبة الكولا، رفعت حاجبها كما لو أنّها تتحدّثني أن أجرو وأقول لها شيئاً.

«لا بدّ أنكِ أخت روث».

«لماذا؟ لأنني الزنجية الوحيدة في هذه القاعة بالإضافة إلى ابنها؟»

تذكّرت الكلمة التي استخدمتها، والتي أنا متأكدة من أنّها ردّة الفعل التي تنتظرها. إذا كانت روث حكيمية أو حادة، فإنّ أختها مثل فنفض تعاني من مشكلة عدم التحكّم بغضبها. «لا»، قلت بالنبرة عينها التي أستخدمها مع فيوليت عندما أحاول مجاراتها، «أولاً، وقبل كلّ شيء، أنت لست الشخص الوحيد... الملون... هنا. وثانياً، قالت لي أختك إنّك تجلسين مع إديسون».

«هل يمكنك أن تُخرجيها؟» سألني إديسون.

رُكّزت انتباهي عليه، وقلت: «سأبذل قصارى جهدي».

«هل أستطيع أن أراها؟»

«ليس الآن».

فُتح الباب المؤدِّي إلى مكتب القاضي، ودخل كاتب المحكمة، وطلب إلى الجميع الوقوف، ثم أعلن عن عودة القاضي.

قلت له: «يجب أن أذهب».

رَكَزَت أخت روث نظرهما عليّ، وقالت: «ابدلي جهدك أيتها الفتاة البيضاء».

جلس القاضي إلى المنصّة، واستدعى قضية روث من جديد. أُحضرت روث من داخل المبنى، وأخذت مكانها إلى جانبي. نظرت إليّ نظرة ممتلئة بالتساؤل، فأومأت لها برأسي: كل شيء على ما يرام.

«السيدة ماكوري»، قال القاضي، «هل أتيج لك متسع من الوقت لتحدّثي إلى

موكّلتك؟»

فقلت: «نعم، حضرة القاضي. قبل بضعة أيام فقط، كانت روث جيفرسون ممرضة في مستشفى الرحمة -ويست هافن، تقوم على رعاية النسوة اللاتي يدخلن في مرحلة المخاض، والأطفال حديثي الولادة، كما كانت تفعل طوال السنوات العشرين الماضية. وعندما تحدث حالة طبية طارئة تتعلّق بطفل رضيع، فإن روث تعمل مع أشخاص آخرين في المستشفى لإنقاذ حياة الطفل. وعلى نحو مأساويّ، لم يكن من المفترض أن يحدث، ونتيجة التحقيق الذي لم يُبْت فيه، أوقفت روث في عملها. إنّها خريجة جامعيّة، وابنها طالب متفوّق بمرتبة شرف، وزوجها بطل عسكريّ ضحّى بحياته في سبيل بلدنا في أفغانستان. تعيش مع ابنها في الحيّ، ولديها أسهم المنزل الذي تسكنه. لذلك، فإنّي أطلب إلى المحكمة أن تقدّم كفالة معقولة، فلا تشكّل موكّلتني خطراً شديداً، ولا يوجد لديها سجلّ سابق، وهي مستعدة للالتزام بأيّ شروط تحدّدتها المحكمة بشأن كفالتها. إنّها قضية يمكن الدفاع عنها بقوة».

لقد أظهرت روث أنّها مواطنة أمريكيّة مستقيمة أسيء فهمها. والشيء الوحيد الذي لم أفعله هو أن أرفع العلم الأمريكيّ وألّوح به في قاعة المحكمة.

التفت القاضي إلى روث، وقال: «ما مقدار الأسهم التي تتحدّث عنها؟»
«أستمحيك عذراً؟»

سألته: «ما قيمة الرهن العقاري على منزلك؟» فأجبت روث: «مئة ألف دولار». هرّ القاضي رأسه، وقال: «سأحدّد كفالة بقيمة مئة ألف دولار. كشرط من شروط الكفالة، وسأقبل بوضع المنزل في الكفالة. القضية التالية؟»

بدأ أنصار البيض العنصرين في قاعة المحكمة يطلقون صيحات استهجان. لست متيقنة من أنّهم سيكونون سعداء بأيّ حكم أقلّ من الإعدام بالسحل والقتل على أيدي الرعا. أمر القاضي بإحلال النظام والهدوء في قاعة المحكمة، وراح يضرب بمطرقته، ثمّ قال أخيراً: «أخرجوهم من قاعة المحكمة»، وبدأ حراس المحكمة يتحرّكون بين الممرّات.

«ما الذي يجري الآن؟» سألتني روث.

«ستخرجين.»

«شكراً لله. كم سيستغرق ذلك؟»

نظرت إليها، وقلت: «يومين.»

أمسك الحارس بذراع روث ليعيدها إلى زنزانة الحجز. بينما كانت تُقاد بعيداً، انزلقت تلك الستارة خلف عينيها، وللمرّة الأولى رأيت الذعر فيهما.

ليس الأمر كما يُعرض عبر التلفاز وفي أفلام السينما، إذ إنك لا تخرج من قاعة المحكمة حرّاً هكذا، وإنّما عليك أن تحصل على بعض الوثائق المحدّدة والتعامل مع ضامنين. أعرف ذلك لأنني محامية عامّة، ويعرف معظم موكلّي ذلك لأنّ بعضهم يرتكب جناحاً متكرّرة.

أما روث، فهي ليست مثل معظم موكلِّي.

حتى إنَّها ليست واحدة منهم، عندما تفكّر في الأمر جيّداً.

أعمل في مكتب المحامي العامّ منذ أربع سنوات تقريباً، وتولّيت قضايا سرقة وفساد إجراميٍّ وسرقة هويات وشيكات بلا رصيد عدّة، حتى أصبح بإمكانني أن أرافق فيها في نومي. أمّا هذه فهي قضية جريمة قتل، محاكمة عالية المستوى، ستُخرج من يدي عندما يُحدّد موعد المحكمة، وستذهب إلى محام آخر في مكنتبي ذي خبرة أكثر منّي أو إلى محام خاصّ.

على المدى البعيد، لن أكون محامية روث، أمّا الآن، فأنا لا أزال محاميتها، وأستطيع مساعدتها.

بصمت، شكرت العنصرين البيض الذين أحدثوا هذه الجلبة. ثمّ جريت في الممرّ في قاعة المحكمة إلى إديسون وخالته، وقلت لأختها: «اسمعي. يجب أن تُحضري نسخة مصدّقة من سند ملكيّة منزل روث، ونسخة مصدّقة من التقييم الضريبي، ونسخة من آخر دفعة للرهن العقاري تُظهر المبلغ المتبقّي من الرهن، ويجب إحضارها كلّها إلى مكتب الكاتب...»

لاحظت أنّ أخت روث راحت تحدّق إلى وجهي كأنني كلّمتها باللّغة الهنغاريّة، لكنني تذكّرت أنّها تقيم في شارع تشيرش ستريت ساوث، وأنّها لا تمتلك المنزل الذي تسكن فيه، لذلك قد تكون هذه أيضاً لغة أجنبية بالنسبة إليها.

ثمّ رأيت إديسون يدوّن كلّ ما قلته على ظهر إيصال أخرجه من محفظته، وقال: «سأحضر كلّ ما طلبته».

أعطيته بطاقتي، وقلت له: «هذا رقم هاتفي الخليوي. إذا كان لديك أيّ أسئلة، يمكنك أن تتصل بي، لكن لن أكون الشخص الذي سأدافع عن قضيتك أمك. سيتواصل شخص آخر من مكنتبي معك بعد أن تخرج».

أثار هذا الاعتراف انتباه أخت روث، فقالت: «إذاً، هذا كلّ شيء؟ وضعت منزلها قيد الرهن لتخرجيها من السجن، إذاً هل أنهيت عملك

الجيد الآن؟ أظن، بما أن أختي سوداء، فمن الواضح أنها هي التي ارتكبت الجريمة وأنت تفضلين ألا توسخي يديك، أليس كذلك؟»

ما قالته شيء سخيف على مستويات عدّة، ليس أقلها أن معظم موكلّي أمريكيون من أصل أفريقيّ. لكن، قبل أن أتمكّن من توضيح التسلسل الهرميّ للسياسة في مكتب المحامي العامّ، تدخّل إديسون، وقال: «خالتي، اهديّ» ثمّ التفت إليّ، وقال: «أنا آسف».

«لا»، قلت له، «أنا كذلك».

لَمّا عدت إلى البيت، في تلك الليلة، كانت أمّي جالسة على الأريكة تشاهد برنامج ديزني جونيور عبر شاشة التلفاز، في يدها كأس من النبيذ الأبيض. إنها تشرب كأساً من النبيذ الأبيض مساء كلّ يوم، منذ أن تسعفني ذاكرتي كانت تسميه «دواءها» عندما كنت صغيرة، وكانت فيوليت متكورة إلى جانبها، تغطّي في نوم. قالت أمّي إنّ قلبها لم يسمح لها بأن تحرّكها من مكانها. جلست إلى جانب ابنتي بحذر، وتناولت زجاجة النبيذ من على الطاولة الصغيرة، وأخذت جرعة منها مباشرة. قوّست أمّي حاجبيها، وسألتنني: «هل كان الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة؟»

«لا تعرفين كم كان سيئاً»، ومسدّتُ شعر فيوليت، «لا بدّ أنّك أرهقتها اليوم».

«حسناً»، تردّدت أمّي، «حدثت مشادة بيننا في أثناء العشاء».

«هل بسبب شرائح السمك؟»

«لا، تناولتها، وستشعرين بالسعادة عندما تعرفين أنّ أرييل غادر المبنى. في الواقع، هذا ما أزعجها. بدأنا نشاهد الأميرة والظفدع، وقالت فيوليت إنّها تريد أن تكون تيانا في عيد الهالوين».

ثمّ قالت: «كينيدي، ألا تظنين أنّ فيوليت ستكون سعيدة أكثر لو ارتدت ثوباً مثل سندريلا؟ أو رابونزيل؟ أو حتّى تلك اللعبة الجديدة ذات الشعر الأبيض التي تحوّل كلّ شيء إلى ثلج؟»

قلت: «إلسا؟ لماذا؟»

فقالت: «لا تجعليني أقولها بصوت عالٍ يا حبيبتي».

«هل تقصدين لأنّ تيانا سوداء؟» قلت، وتذكّرت على الفور روث جيفرسون

والبيض العنصرين الذين أطلقوا صيحات استهجان في قاعة المحكمة.

«لا أظنّ أنّ فيوليت تعبر عن مسألة المساواة بقدر حبّها للضفادع. قالت لي إنّها

ستطلب لعبة حيوان لأجل عيد الميلاد، وتقبّله، وترى ما الذي سيحدث».

«لن تحصل على ضفدع في عيد الميلاد. لكن، إذا أرادت أن تكون تيانا في عيد

الهالوين، فسأشتري لها الثوب».

«سأخيط لها الثوب»، صحّحت أمي، «لن تشتري حفيدي ثوباً رخيصاً يمكن أن

تشتعل فيه النار إذا مشت إلى جانب فانوس».

«رائع. أنا سعيدة لأنك استطعت أن تتغلّبي على مقاومتك لتحقيق حلم فيوليت».

رفعت أمي ذقتها قليلاً، وقالت: «لم أخبرك بذلك حتّى لا تلوميني يا كينيدي. إنّ

نشأتي في الجنوب لا تعني أن أصبح متحيّزة».

قلت لها: «ماما، كانت لديك مرّية سوداء البشرة».

فقالت أمي: «كنت أحبّ بيتي كثيراً، كما لو أنّها كانت واحدة من الأسرة، غير

أنّها... لم تكن».

صبّت أمي مزيداً من النبيذ في كأسها، ثمّ تنهّدت وقالت: «كينيدي. إنّهُ مجرد

ثوب سخيف».

شعرت فجأة بتعب شديد. لا بسبب إيقاع عملي السريع أو بسبب عدد القضايا

الكبير التي تولّيتها فحسب، وإمّا التساؤل إن كان ما أفعله يحدث فرقاً حقيقياً أيضاً.

«في إحدى المرّات»، قالت أمي بصوت رقيق، «لَمَّا كُنْتُ في عمر فيوليت، حاولت أن أشرب من بركة الماء التي يشرب منها الملوّنون في الحديقة، عندما لم تكن بيتي تنظر. صعدت فوق الحاجز الإسمنتيّ وأدرتُ المقبض. كنت أتوقّع أن يحدث شيء غير عاديّ. كنت أتوقّع أن تظهر ألوان قوس قزح، لكنّها كانت مثل الماء الذي يشربه أيّ شخص آخر». التقت عيناها عينيّ، وأضافت: «اللون البنفسجيّ سيجعل أجمل سنديلا صغيرة».

«ماما...»

«كنت أقول. كم سنة استغرقت ديزني حتّى أعطت كلّ أولئك الفتيات ذوات البشرة السوداء أميرتهنّ الخاصّة بهنّ؟ هل تظنين أنّ من الصواب أن تريد فيوليت شيئاً تنتظره منذ زمن بعيد؟»

«ماما».

رفعت يديها باستسلام، وقالت: «حسنًا. تيانا إذاً. انتهينا».

رفعت قنينة النبيذ، وأملتها إلى الأعلى، وشربتها حتّى آخر قطرة فيها. بعد أن ذهبَت أمي، غطّطت في النوم على الأريكة مع فيوليت، ولمّا استيقظت، كان فيلم (الملك الأسد) يُبث عبر قناة ديزني للأطفال. فتحت عينيّ لأرى على الشاشة موت موفاسا الذي داس فوقه جاموس الماء، عندما دخل ميكا وخلع ربطة عنقه الخانقة بيد واحدة. قلت له: «مرحباً. لم أسمع صوت السيّارة».

«لأنّني نينجا عبقريّ متنكّر في زيّ طبيب عيون». انحنى وقبّلني، وابتسم ليفوليت التي كانت تشخر بصوت ناعم، وأضاف: «كان يومي ممتلئاً بالمياه الزرقاء (الغلوكوما) والسوائل الزجاجيّة. كيف كان يومك؟»

فقلت: «أقلّ جسامّة من المعتاد».

«هل عادت المجنونة شارون؟»

لدى المجنونة شارون شيء لبيتر سالوفي، رئيس جامعة ييل. تترك له أزهاراً، ورسائل حبّ، وفي إحدى المرات تركت له ثياباً داخلية. دافعت عنها في ستّ دعاوى قضائية، ويشغل سالوفي منصب رئيس الجامعة منذ عام 2013.

فقلت: «لا»، وحدّثته عن روث وإديسون وذوي الرؤوس الحليقة في قاعة المحكمة.

«حقاً؟» قال ميكا مبدئاً اهتماماً كبيراً بذوي الرؤوس الحليقة، «مثل أولئك ذوي حمّالات السراويل والسترات الضيقة والأحذية الطويلة، وكلّ شيء؟»

«رقم واحد، لا، ورقم اثنان، هل يجب أن أخاف لأنك تعرف كلّ ذلك؟» أزحّت قلمي من فوق الطاولة الصغيرة ليجلس أمامي، «في الواقع، إنهم يشبهوننا تماماً. إنّه أمر مثير للذعر حقاً. أقصد، ماذا لو كان جارك واحداً من أولئك العنصريين البيض وأنت لا تعرف ذلك؟»

فقال ميكا: «سأخرج بحذر، وأقول إنّ السيّدة غرينبلات ليست من منظمة حليقي الرؤوس»، قال ذلك ورفع فيوليت برفق بين ذراعيه.

«في كلّ حال، إنّها نقطة خلافيّة. إنّها قضية كبيرة لا يمكنني أن أدافع عنها»، قلت له وأنا أصعد الدرج إلى غرفة نوم ابنتنا، ثمّ أضفت، «روث جيفرسون تعيش في إيست إند».

«ها»، قال ميكا الذي وضع فيوليت في سريها وغطّأها وقبّلها على جبينها. «ماذا يُفترض أن يعني ذلك؟» سألته بعنف، مع أنّي أبدت ردّة الفعل نفسها.

فقال ميكا: «ليس من المفترض أن تعني أيّ شيء. إنّهُ مجرد ردّ». «ماذا تقصد حقاً، لكنك مهذب جداً ولا يمكنك أن تقولها؛ إنّهُ لا توجد أسر من السود في إيست إند».

«أظنّ. ربّما».

تبعته إلى غرفتنا وفككت سحاب تنورتي، وخلعت جوربي. ارتديت الفانيلة والشورت اللذين أنام بهما عادة، ودخلت الحمام، وبدأت أنظف أسناني إلى جانب ميكا. بصقت، مسحت فمي بظاهر يدي. «هل تعلم أنه في مسلسل الأسد الملك، تتحدث الضباع - الأشخاص الأشرار - إمّا بلهجة السود وإمّا بلهجة القادمين من أمريكا اللاتينية؟ ويُطلب إلى الأشبال الصغار ألا يذهبوا إلى المكان الذي تعيش فيه الضباع؟»
نظر إليّ دهشاً.

«هل تدرك أنّ بشرة سكار (الندبة)، الشرير، داكنة أكثر من بشرة موفاسا؟»
«كينيدي»، قال ميكا، ووضع يديه على كتفي، ثمّ انحنى وقبّلني، «هناك احتمال ضئيل بأنك تغالين في التفكير في هذا الأمر.»
في هذه اللحظة بالتحديد، عرفت أنّي سأقيم الدنيا وأقعدّها لأجل الدفاع عن روث.

تورك

من فخامة مكتبه عرفْتُ أنَّ هذا المحامي جيّد؛ إذ لم تكن جدران مكتبه مطلية بالدهان وإمّا تكسوها ألواح خشبيّة، وكانت كأس الماء التي أحضرتها لي السكرتيرة من الكريستال الثقيل. حتّى الهواء تبعث منه رائحة قويّة، مثل عطر سيّدة تخجل منّي عندما تراني في شارع عامّ.

مرّة أخرى، ارتديت اليوم السترة التي أنقاسمها أنا وفرانسيس، بعد أن كويت بنطالي، ووضعت على رأسي قبّعة صوفيّة، وأنزلتها على وجهي، ولم أتوقف عن فتل خاتم زواجي حول إصبعي. ربّما أصبحت أبدو مثل أيّ شخص عاديّ يريد أن يرفع دعوى على شخص آخر، بدلاً من الشخص الذي يتجنّب عادة النظام القانونيّ ويأخذ حقّه بيده.

فجأة، رأيت رورك ماثيوز واقفاً أمامي. بدلته في غاية الأنافة، حذاؤه يلمع، يشبه أحد نجوم المسلسلات المتلفزة، ما عدا أنّ أنفه غريب الشكل قليلاً، كما لو أنّه كُسر عندما كان يلعب كرة القدم في المدرسة الثانويّة. مدّ يده ليصافحني، وقال: «السيّد باور، لماذا لا تأتي معي؟»

أخذني إلى مكتب أكثر فخامة، ممتلئ بالجلد الأسود والكروم، وأشار إلى مكان على الأريكة الصغيرة لأجلس. «اسمح لي أن أعبرّ لك عن أسفي على ما فقدته»، قال ماثيوز، كما يقول لي الجميع هذه الأيام. لقد أصبحت هذه الكلمات عادية جداً، وأصبحت تبدو مثل حبّات مطر لم أعد ألاحظها. «تحدّثنا عبر الهاتف عن إمكان رفع دعوى مدنيّة...»

قاطعته قائلاً: «مهما كان اسمها. لا أريد شيئاً إلا أن يدفع المجرم عقاب هذا».

فقال ماثيوز: «آه. لهذا السبب طلبت إليك أن تأتي إلى هنا. كما ترى، فالأمر معقد جداً».

«ما الأمر المعقد جداً فيها؟ إنك ستقاضي الممرضة، فهي التي فعلت ذلك».

تردّد ماثيوز، وقال موافقاً: «يمكنك أن ترفع دعوى على روث جيفرسون»، ثمّ أضاف، «لكن، لنكن واقعيين - إنها امرأة مفلسة. كما تعلم، تجري الولاية حالياً محاكمة جنائية، وهذا يعني أنك إذا رفعت دعوى مدنيّة في الوقت نفسه، فإنّ السيّد جيفرسون ستطلب إظهار كلّ الوثائق المتعلّقة بالقضيّة كي لا تجرّم نفسها في أثناء فترة تعليق المحاكمة الجنائيّة. وإذا رفعت دعوى مدنية ضدها، فقد تُستخدم ضدك عند استجواب الشهود في أثناء الدعوى الجنائيّة».

«لم أفهم».

فقال ماثيوز بصراحة: «سيظهرك الدفاع بأنك شخص انتهازيّ تسعى وراء المال، وأنت حاقد على المتهمّة».

عدت وجلست، ووضعت يديّ على ركبتيّ، وقلت: «هكذا إذا؟ لا توجد لديّ قضيّة؟»

فأجاب المحامي: «لم أقل ذلك، وإمّا أظنّ أنك اخترت الهدف الخطأ. بعكس السيدة جيفرسون، فلدى المستشفى جيوب عميقة، ولديه التزام بالإشراف على العاملين فيه، وهو مسؤول عن تصرفات الممرضة أو عدم تصرفها. هذا ما أوصيك بأن ترفع الدعوى ضده. وسنظلّ نذكر اسم روث جيفرسون - لا تعرف، فهي لا تملك شيئاً حالياً، لكن ربّما تربح غداً اليانصيب أو تحصل على ميراث»، ورفع حاجبه، وأضاف، «بعد ذلك يا سيد باور، قد لا تحصل على العدالة فحسب - وإمّا تحصل على مبلغ كبير أيضاً».

هزرت رأسي، وأنا أتخيّل ذلك. فكّرت كيف يمكنني أن أخبر بريث إن كنت أفعل الشيء الصحيح لأجل ديفيس. «إذاً، ماذا نفعل لنبدأ؟»

فقال ماثيوز: «الآن؟ لا شيء. لا شيء حتى تنتهي الدعوى الجنائية. سنظلّ الدعوى المدنية قابلة للتطبيق عندما تنتهي الدعوى، وبهذه الطريقة لا يمكن استخدامها لتجريم شخصك». مال إلى الوراء، وفرد يديه، وقال: «عد إليّ عندما تنتهي المحاكمة. سأكون هنا».

في البداية لم أصدّق فرانسيس عندما قال إنّ الموجة الجديدة للبيض المتفوّقين ستكون حرباً لا تُدار بقبضة اليد، وإمّا بالأفكار التي تُنشر بطريقة تخريبية ومجهولة عبر الإنترنت. لكنّي لم أكن غيباً إلى درجة أن أقول له إنّهُ ليس إلاّ عجوزاً مجنوناً ساذجاً، لسبب واحد، وهو أنّه لا يزال يُعدُّ أحد أساطير الحركة، والأهمّ من كلّ ذلك، فهو والد الفتاة التي لم أتوقّف عن التفكير فيها.

كانت بريث ميتشوم بالغة الجمال، تمتلك أنعم بشرة لمستها في حياتي، ولها عينان زرقاوان شاحبتان تحيطهما بكحل غامق. وبخلاف ذوات الرؤوس الحليقة الأخريات، فهي لا تحلق شعرها عند التاج وتترك ضفائر خفيفة توطّر بها وجهها ومؤخرة عنقها، وإمّا كان شعرها كثيفاً يصل حتى منتصف ظهرها، تضفره أحياناً، وتكون الضفيرة سميقة بحجم رسغي. كنت أفكر دائماً كيف سأشعر عندما تتدلّى هذه الضفائر وتلامس وجهي مثل ستارة عندما تقبلني.

لكن، آخر شيء كان يمكنني فعله هو أن أغازل فتاة يستطيع أبوها أن يقصم عمودي الفقريّ بمكالمة هاتفية واحدة، فبدأت أزورهما كثيراً بحجة أنّ لديّ سؤالاً لفرانسيس الذي كان يحبّ أن يراني لأنني منحته الفرصة لأن يعبر عن أفكاره عبر موقع البيض المتفوّقين على الإنترنت، بالإضافة إلى أنني كنت أساعده في تغيير زيت شاحنته، وأصلح له حوض تصريف النفايات. أصبحت أساعده في كلّ شيء، أمّا بالنسبة إلى بريث، فقد كنت أعشقها من بعيد.

دُهلّت عندما جاءت ذات يوم وأنا أقطع الحطب لفرانسيس، وقالت: «قل لي إذاً، هل الشائعات صحيحة؟»

سألته: «أيّ شائعات؟»

فقلت: «يقولون إنك هزمت كلّ أفراد عصابة الدرّاجات الناريّة، وأنت قتلت والدك».

فقلت: «في هذه الحالة، لا».

«إذاً، ما أنت سوى صغير مثل الرجال الآخرين الذين يحبّون التظاهر بأنهم من البيض المتفوقين العنصريين لينعموا بدفء أبي؟»

مصدوماً، رفعتُ عينيّ إليها، ورأيتُ فيها يرتعش. رفعتُ الفأس فوق رأسي، وشددتُ عضلاتي، وهويتُ بالفأس على قطعة الخشب التي انفلقت إلى نصفين، ثمّ قلت: «أحبّ أن أرى نفسي بين هذين النقيضين».

«ربّما أريد أن أرى ذلك بنفسي»، قالت، واقتربت منّي أكثر، «في المرة القادمة ستخرج مجموعتك للصيد».

ضحكت، وقلت: «لا يمكنني أن أخرج ابنة فرانسيس ميتشوم مع رفاقي».

«لمّ لا؟»

«لأنّك ابنة فرانسيس ميتشوم».

«هذا ليس جواباً».

يا إلهي! نعم، الأمر كذلك، حتّى لو أنّها لم تكن ترى ذلك.

«ياخذني أبي مع مجموعته طوال حياتي».

وجدت صعوبة في تصديق ذلك. (اكتشفت لاحقاً أنّ ما قالته صحيح، لكنّه كان يتركها نائمة في مقعد سيّارته الخلفي). «إنّك لست قويّة بما يكفي كي تأتي مع رفاقي»، أضفت لأزيحها عن ظهري.

عندما لم تردّ، ظننت أنّها لن تأتي. لكن، كمّا رفعتُ الفأس عالياً وهويتُ بها على قطعة الخشب، اندفعتُ برّيت كالبرق أمام مسار نصل الفأس،

فألقيت المقبض على الفور، وأحسست أن الفأس أفلتت من يدي ووقعت على الأرض على مسافة ست بوصات منها. صرختُ: «يا إلهي! ما خطبك؟»

فأجابت: «ألسْتُ قويّة بما يكفي؟»

فقلت لها: «الخميس بعد حلول الظلام».

في كل ليلة، أسمع ابني يبكي.

يوقظني الصوت، وهكذا أعرف أنه طيف. أما بريت فلا تسمعه، لكنّها لا تزال تطفو في ضباب من الحبوب المنومة. أغادر الفراش وأتبوّل، وأتبع الضوضاء التي تزداد صخباً، لكن ما إن أصل إلى غرفة الجلوس، تتلاشى وتختفي، لا أجد فيها أحداً سوى شاشة الكمبيوتر، خضراء تلمع في وجهي.

أجلس على الأريكة، وعلى الرّغم من أنني أنجّر سقناني من البيرة، أظل أسمع صوت ابني وهو يبكي.

قال لي والد زوجتي إن حزني سيدوم أسبوعين، ثم أبدأ أشرب كل البيرة الموجودة في المنزل. في إحدى الليالي، جاء فرانسيس ووجدني جالساً على الأريكة في غرفة الجلوس، رأسي مدفون بين يديّ، أحاول ألا أسمع صوت بكاء الطفل. لوهلة ظننت أنه سيهدئ من روعي - مع أنه رجل عجوز، لكنه يفهمني - لكن بدلاً من أن يفعل ذلك، سحب سلك الكهرباء من الكمبيوتر المحمول وألقاه في وجهي، وقال ببساطة: «كن متوازناً»، وعاد إلى غرفته.

بقيت جالساً في مكاني لفترة طويلة، جهاز الكمبيوتر يضغط في جانبي مثل فتاة تطلب أن أرقص معها.

لا أستطيع أن أقول إنني مددت يدي إليه، وإنما بدا أنه عاد إليّ.

بلمسة مفتاح، حُملت صفحة الإنترنت. لم آتِ إلى هذه الغرفة من قبل أن تلد بريت ابنا.

لما تعاونت مع فرانسيس لإنشاء موقعنا على الإنترنت، قرأت كتيبات كثيرة حول ترميز البيانات والبيانات الوصفية، في حين كان فرانسيس

يلقمني المवादّ التي سننشرها. أطلقنا على موقعنا اسم «LONEWOLF» (الذئب الوحيد) لأننا أردنا أن نكون هكذا.

لم نعد في ثمانينيات القرن العشرين عندما خسرنا أفضل رجالنا في السجون. كان الحارس القديم قد بدأ يتقدّم في العمر، وبدأ الشبان يتحمّسون كثيراً لحضور التجمّعات التي تقيمها جماعة كو كلوكس كلان حيث يجلس عدد من الشبان الأجلاف يشربون ويتحدّثون عن الأيام الجميلة السابقة، لا يريدون سماع حكايات الزوجات القديمة، من قبيل أنّه تفوح من السود رائحة كريهة عندما يصبح شعرهم رطباً. كانوا يريدون إحصاءات يمكنهم أن يأخذوها إلى أساتذتهم وأقاربهم اليساريين الذين لا يتقبّلون فكرة أنّنا أصبحنا ضحايا التمييز الحقيقيين في هذا البلد. قدّمنا لهم كلّ ما طلبوه.

نشرنا الحقيقة: فقد ذكر مكتب الإحصاء الأمريكي أنّ البيض في الولايات المتحدة سيصبحون أقلية في عام 2043، وأنّ 40 في المئة من السود المسجّلين في برنامج الرعاية الاجتماعيّة قادرين على العمل، لكنّهم لا يعملون، وأنّ حكومة الاحتلال الصهيونيّة تستولي على بلدنا، ويمكن تتبع ذلك حتّى آلان غرينسبان في الاحتياطيّ الفيدراليّ.

سرعان ما أصبح موقع Lonewolf.org على الإنترنت شيئاً أكبر من نفسه، وأصبح البديل الأكثر شباباً وعصريّة. حافة التمرد الجديدة.

بدأت يداي تتحرك الآن فوق لوحة المفاتيح عندما دخلت الموقع بصفتي مدير الموقع. إنّ سبب إنشاء هذا الموقع هو السرية والقدرة على التوازي وراء ما أوّمن به. كلّنا مجهولو الهوية هنا، وكلنا إخوة أيضاً. هذا هو جيشي من الأصدقاء الذين لا تُعرف هوياتهم الحقيقيّة.

لكن، كلّ شيء سيتغيّر اليوم.

عدد كبير منكم يعرفونني من منشوراتي على مدونتي التي استجبت لها بكتابة ردودكم وتعليقاتكم. إنكم مثلي وطنيون حقيقيون. مثلي، أردتم اتباع فكرة، لا شخص، واليوم، سأخرج إلى النور لأنني أريد أن تعرفوني. أريد أن تعرفوا ما الذي جرى لي. اسمي تورك باور، إنِّي أكتب. وسأحكي لكم قصة ابني.

بعد أن ضغطت على زرّ الإرسال، رأيت قصة حياة ابني القصيرة الشجاعة على شاشة الكمبيوتر. أردت أن أصدق أنه إذا كان عليه أن يموت، فإنه سيموت في سبيل قضية. لأجل قضيتنا.

لم أشرب في تلك الليلة، ولم أنم، وإمّا رحّت أراقب العدّاد في الجزء العلويّ من العنوان الذي يمثّل عرض كلّ صفحة.

1 قارئ.

6 قراء.

37 قارئاً.

409 قراء.

لَمَّا أشرقت الشمس، أصبح أكثر من ثلاثة عشر ألف شخص يعرفون اسم ديفيس. أعددت القهوة، ورحت أتصفّح التعليقات وأنا أشرب أول كوب. أنا في غاية الأسف لخسارتك هذه.

كان ابنك محارباً لأجل العرق الأبيض.

لم يكن ينبغي أن يسمح للعلكة الزرقاء الملعونة أن تعمل في مستشفى للبيض. تبرّعت باسم ابنك لحزب الحرية الأمريكيّة.

لكنتي تسمّرت في مكاني عندما قرأت ما كتبه لي أحدهم:

تقول الرسالة إلى المؤمنين في روما: 12:19: يا أحبائي، لا تنتقموا لأنفسكم، بل اتركوا العقاب للربِّ لأنَّه يقول في الكتاب: هذا كلام الربِّ، أنا أنتقم، أنا أجازي.

في يوم الخميس، بعد أن تفادت بریت ضربة فأسّي، تناولت العشاء معها وأبيها. كُنَّا لا نزال نتناول الحلوى بعد العشاء عندما رفعت بریت عينيها، كما لو أنها تذكّرت شيئاً تريد أن تقوله لنا، وقالت: «لقد صدمتُ زنجياً بسيّارتي اليوم».

دفع فرانسيس كرسيه إلى الوراء مرة أخرى، وسألها: «وماذا كان يفعل أمام سيّارتك؟»

«لا أعرف. أظنُّ أنّه كان يمشي. لكنّه بعج الحاجر الأمامي».

«يمكنني أن ألقى نظرة عليها»، قلت لها، «كنت أعمل في إصلاح هياكل السيارات».

ارتسمت ابتسامة حول فم بریت، وقالت: «أراهن أنّك كنت تفعل ذلك».

احمرَّ وجهي ثلاثين درجة من اللون الأحمر عندما قالت بریت لأبيها إنّها أقنعتني بأن نذهب لمشاهدة فيلم رومانسي بعد العشاء. ربّت فرانسيس على ظهري، وقال: «إنّك أفضل منّي يا بني»، وبعد قليل، سعدنا في سيّارتي لنمضي ليلة ممتعة.

كانت بریت مثل سلك حيّ، يترّ في المقعد إلى جانبي. لم تتوقّف عن الكلام. لم تتوقّف عن طرح أسئلة: إلى أين سنذهب؟ من سيكون هدفنا؟ هل كنتُ هناك من قبل؟

قلت في نفسي، إمّا أن تسير الليلة على ما يرام وأكسب احترام بريتاني دائماً، وإمّا ألا تسير على ما يرام ويلوي أبوها عنقي لأنني عرضت ابنته للخطر.

أخذتها إلى باحة وقوف سيارات مهجورة، إلى جانب كشك لبيع النفاق، معظم زبائنه من المثليين الذين يلتقون هنا أحياناً ثمّ يختفون

وراء الأشجار. (حقاً، هل هناك عبارة مبتذلة أكثر من أن يلتقي المثلثيون في كشك نقاق؟ إنهم يستحقون أن يُضربوا لأجل ذلك فقط).

سألته: «هل سيلتقي الرجال الآخرون هنا؟»

فقلت: «لا يوجد رجال آخرون. كانت لدي مجموعة من الشبان، لكن بعد أن انقلب أحدهم عليّ، أدركت أنني يجب أن أعمل وحدي. بهذه الطريقة، بدأت الشائعات تنتشر حول عصابة سائقي الدراجات النارية. كان السبب الوحيد الذي جعلني أقضي على عصابة كاملة وحدي هو أنني لم أعد أثق بأحد آخر».

فقلت بريث: «فهمت. إنه شيء فظيع أن يتخلى عنك الأشخاص الذين يُفترض بهم أن يدعموك».

نظرتُ إليها، وقلت: «بطريقة ما أظنُّ أنّك عشت حياة مرفهة».

«نعم، ما عدا ذلك الجزء من حياتي الذي تخلت فيه أُمِّي عني عندما كنت طفلة، كما لو كنت... نفاية».

كنت أعرف أنه لا توجد لدى فرانسيس زوجة، لكنني لا أعرف ما الذي جرى، فقلت: «هذا شيء مقرف. أنا آسف».

لدهشتي، لم تكن بريث منزعجة، وإنما غاضبة. «أنا لست آسفة»، قالت وعيناها تحترقان مثل جمرتين في النار، «قال أبي إنها هربت مع زنجي».

في تلك اللحظة، دخل رجلان كشك النقانق، وطلبا سندويشتين، ثمَّ خرجا وسارا في اتجاه طاولة الحديقة نصف المكسورة.

«هل أنت جاهزة؟» سألت بريث.

«ولدتُ وأنا جاهزة».

أخفيتُ ابتسامتي. هل أنا شجاع إلى هذه الدرجة؟ ترجلنا من سيّارتي ومشينا في الشارع كما لو أننا سنتناول سندويشة أيضاً، لكنني توقفت أمام

الطاولة وابتسمت، وقلت: «هيه، هل توجد لدى أحد منكم، أيُّها المنكوحان، سيجارة؟»

تبادلا النظرات فيما بينهما. أحبّ تلك النظرة. إنَّها النظرة عينها التي تراها في عيني حيوان عندما يدرك أنه أصبح محاصراً. قال الشابُّ الأشقر، القصير النحيف، لرفيقه: «لنذهب من هنا».

«انظر، هذا لا يصلح لي»، قلت وأنا أقترّب منه أكثر، «لأنني لا أزال أعرف أنك هنا»، وأمسكت بالشابِّ الأشقر من حنجرته ولكمته لكمة جعلت الدنيا تسودُّ في عينيه.

سقط على الأرض مثل قطعة حجر. لمّا التفّ، رأيت بریت تثب فوق ظهر الشاب النحيف وقد ركبت فوقه مثل كابوس، وغرزت أظافرها في خده، ولمّا تعثّر وسقط على الأرض، أخذت تركله على كليتيه، ثمّ جلست فوقه، ورفعت رأسه وضربته على الرصيف.

لقد قاتلت مع نسوة من قبل. ثمّة اعتقاد مغلوط شائع بأنّ الفتيات حليقات الرؤوس خاضعات وحافيات الأقدام، حبالى في معظم الأوقات، لكن إذا أردت أن تنتمي إلى جماعة حليقات الرؤوس، يجب أن تكوني عاهرة قاسية. ربما لم توسّخ بریت يديها من قبل، لكنها كانت طبيعية.

لمّا كانت لا تزال تضرب جسداً متراخياً، فاقد الوعي، سحبتها وحثشتها قائلاً: «هيا»، وجرينا معاً إلى السيارة.

انطلقنا إلى تلّ يطلُّ على مهبط الطائرات في مطار تويد. كانت أضواء المدرج تومض في وجهنا عندما جلسنا فوق غطاء السيارة، تسبح بریت في الأدرينالين الذي غمرها. «يا إلهي!»، صاحت ورفعت حنجرتها إلى سماء الليل، «كان ذلك شيئاً لا يصدّق. أشعر... أشعر...»

لم تجد الكلمة، لكنّي وجدتها. فأنا أعرف كم تكون محتقناً في داخلك وتريد أن تنفجر. أعرف كيف تشعر عندما تسبّب ألماً لشخص آخر لبضع

ثوان، بدلاً من أن تشعر به أنت نفسك. قد يكون مصدر قلق بریت مختلفاً عن مصدر قلقي، لكنّها كانت تكبح نفسها حتّى وجدت أخيراً منفذاً لها. قلت لها: «إنّه شعور بالحرية».

«نعم»، تنفّست وراحت تحدّق إلى وجهي، «هل شعرت يوماً أنّك لا تنتمي إلى بشرتك؟ مثل أن تشعر بأنك شخص آخر؟»

طوال الوقت، قلت في نفسي. لكن بدلاً من أقول لها ذلك، انحنيت وقبّلتها. دارت حول نفسها ثمّ جلست فوقي، وجهها يلاصق وجهي. قبّلتني بعنف، عضّت شفّتي، وراحت تلتهمني. حشرت يديها تحت ذيل قميصي، وراحت تتحصّس أزرار بنطالي. «هيه»، قلت لها، وحاولت أن أمسك رسغيها، «لسنا في عجلة من أمرنا». فهمست وفمها على رقبتي: «نعم، توجد».

كانت تشتعل كالنار، ولو اقتربت من النار كثيراً، فإنّها ستشتعل فيك أيضاً. تركتها تنزلق تحت سحاب بنطالي، وساعدتها في رفع تنورتها وخلع سروالها الداخلي. أنزلت بریت نفسها فوقي، ورحت أتحرك في داخلها مثل بداية شيء ما.

في صباح يوم الاستدعاء إلى المحكمة، ارتديت ثيابي، في حين كانت بریت لا تزال نائمة في البيجاما التي لم تخلعها منذ أربعة أيام. تناولت فطوري وهيأت نفسي للحرب. رأيت في المحكمة قرابة عشرين صديقاً لم أكن أعرفهم، كانوا أتباعاً مخلصين لموقع «LONEWOLF»، ويكتبون تعليقات على الموقع، رجالاً ونساء قرؤوا عن ديفيس، وأرادوا أن يفعلوا أكثر من مجرد إبداء تعاطفهم كتابة. وكانوا مثلي، لا يبدون كما يتوقّع معظم الناس أن يكون شكل «حليقي الرؤوس»، فلم يكن أحد منهم حليق الرأس إلا أنا، يرتدون جميعاً ثياباً عادية، ووضع بعضهم دبابيس صغيرة على ياقاتهم عليها صورة

«عجلة الشمس»، ووضع بعضهم شريطاً أزرق لأجل ديفيس. ربّت بعضهم على كتفي أو ناداني باسمي، وأوماً آخرون برؤوسهم، بأن أمالوا رؤوسهم قليلاً عندما كنت أسير في الممرّ، لإبلاغي أنّهم جاؤوا إلى هنا لدعمني.

في تلك اللحظة، اقتربت منّي امرأة سوداء. كدت أدفعها وأبعدها عنّي عندما بدأت تتكلّم - ردّة فعل غير عادية - ثمّ علمت أنّها المدّعية العامّة من صوتها. كنت قد تحدّثتُ إلى أوديت لوتون عبر الهاتف، لكنّي لم أتخيّل أنّها سوداء. شعرت كأنّ أحداً وجّه إليّ صفة، مؤامرة ما.

لعلّ ذلك شيء جيّد. ليس من المستغرب أنّ الليبراليين الذين يديرون نظام المحاكم هم ضدّ الأنغلو - ساكسون الأمريكيين، لذلك لا يمكننا أن نحصل على محاكمة عادلة. سوف يحولون الاتّهام ضدّي بدلاً من إدانة تلك الممرّضة، لكن إذا كانت المحامية التي تدافع عن قضيتي سوداء، فليس من الممكن أن أكون متحيّزاً، أليس كذلك؟ لن يعرفوا ما يدور في رأسي من أفكار أبداً.

تلا أحدهم اسم القاضي - دوبونت - الذي لا يبدو أنّه اسم يهودي، وهي بداية جيّدة. ثمّ جلست أمام أربعة متهمين آخرين قبل أن ينادوا اسم روث جيفرسون. انبعث أزيز في قاعة المحكمة مثل أزيز شواية، وبدأ الحاضرون يطلقون صيحات استهجان، ورفعوا لافتات عليها صورة وجه ابني - الصورة التي وضعتها على الموقع، الصورة الوحيدة التي أملكها عنه، ثمّ أدخلت الممرّضة وهي ترتدي ثوب نوم، ويدها مقيدتان. راحت تنظر حولها في أرجاء القاعة تبحث عن شيء ما. تساءلت إن كانت تحاول أن ترائي.

قررت أن أسهلّ عليها المهمّة.

في حركة سريعة، نهضت ووقفت، واستندت إلى الحاجز المنخفض الذي يفصلنا عن المحامين وكاتب الاختزال. أخذتُ نفساً عميقاً، وبصقتُ بصقة كبيرة أصابت العاهرة على خدّها.

يمكنني أن أعرف اللحظة التي عرفتني فيها.

على الفور، هرع اثنان من حراس المحكمة، وأمسكا بي، وجراني إلى خارج قاعة المحكمة، لكن لا بأس في ذلك أيضاً، لأنه حتّى عندما يجزّونني إلى الخارج، فسترى الممرضة الصليب المعقوف يتلوّى مثل أفعى في مؤخرة فروة رأسي.

لا مانع من أن تخسر معركة تشنّها لتربح حرباً.

ألقي بي حارسا المحكمة الأحمقان خارج أبواب قاعة المحكمة الثقيلة، وقال لي أحدهم محدّراً: «لا تفكّر في أن تعود مرّة أخرى»، ثمّ دخلا واختفيا.

أرخيّت يديّ على ركبتيّ، والتقطت أنفاسي. قد لا أمكّن من دخول قاعة المحكمة، لكن هذا بلد حرّ، بقدر ما أعلم. لا يمكنهم أن يمنعوني من الوقوف هنا لأرى روث جيفرسون وهي تُنقل إلى السجن.

لمّا رفعتُ عينيّ، رأيتهم: شاحنات صغيرة تعلوها أطباق الأقمار الاصطناعيّة، الصحافيّات يسوّين تنازيهنّ الضيّقة، وبخترن ميكروفوناتهنّ. لقد جاءت وسائل الإعلام لتنقل وقائع هذه القضية.

قال المحامي إنهم في حاجة إلى والد حزين، لا إلى والد غاضب؟ يمكنني أن أمنحهم ذلك.

لكن، أوّل ما فعلته أنني أخرجت هاتفني الخلويّ واتصلت بفرانسييس في البيت، وقلت له: «أيقظ بريت واجعلها تغادر السرير وتجلس أمام التلفاز»، ونظرت إلى عربات الأخبار، وأضفت، «القناة الرابعة».

ثمَّ أخرجت من جيبي القلنسوة التي وضعتها على رأسي في قاعة المحكمة صباح اليوم كي لا ألفت الانتباه إلى وشمي، إلا عندما أريد ذلك. وضعتها على رأسي.

تذكّرت ديفيس، لأنَّ ذلك كان كلَّ ما أحتاج إليه كي تملأ الدموع عينيّ.

«هل رأيتِ ذلك؟» دنوت من مراسلة كنت قد رأيتها على شاشة محطة إن بي سي،

«هل رأيتِ كيف أخرجاني من قاعة المحكمة؟»

نظرت إليّ، وقالت: «آه، نعم. آسفة، لكننا هنا لنغطي قصة أخرى».

فقلت: «أعرف، لكن أنا والد الطفل الذي مات».

قلت للمراسلة كم كنا أنا وبريت متحمسين لإنجاب طفلنا الأول. وقلت لها إنني

لم أر قط شيئاً أجمل من يديه الصغيرتين وأنفه الذي يشبه أنف بريت تماماً. قلت لها

إن زوجتي لا تزال حزينة جداً على ما حدث لديفيس، ولم يعد في مقدورها أن تغادر

السرير، حتّى إنّها لم تستطع أن تأتي إلى المحكمة اليوم.

قلت لها إنّها مأساة كبيرة بالنسبة إلى شخص تعهد بأن يشفي الناس ويقتل رضيعاً

لا حول له ولا قوة عن عمد، فقط لأنها انزعجت عندما مُنعت من رعاية مريضتها»،

ثمَّ أضفت، وأنا أنظر إلى المراسلة، «أفهم أننا لم نرَ ذلك وجهاً لوجه، لكن ذلك لا يعني

أنَّ ابني يستحقُّ أن يموت».

سألني: «ماذا تأمل أن تكون النتيجة يا سيّد باور؟»

فقلت لها: «أريد أن يعود ابني، لكنَّ ذلك لن يحدث».

ثمَّ اعتذرت. الحقيقة أنّني بدأت أشعر بالاختناق عندما تذكّرت

ديفيس. ولم أשא أن أظهر عبر التلفاز وأنا أبكي مثل امرأة، فابتعدتُ عن

المراسلين الآخرين الذين اندفعوا ليتحدّثوا إليّ، لكنهم سرعان ما ابتعدوا

عني عندما فُتحت أبواب المحكمة، وخرجت أوديت لوتون، وبدأت تقول

إنّها جريمة شنعاء، وإنَّ الولاية حريصة على تحقيق العدالة. انسللت إلى

جانب المبنى حيث كان البواب يدخن سيجارة، وتوجهت إلى رصيف التحميل في الخلف. أعرف أنه يؤدّي إلى الباب في الأسفل، المفضي إلى زنانات الاحتجاز.

لم أتمكن من الدخول بسبب الحراس، لكنني وقفت على مسافة بعيدة، متكوراً على نفسي من الريح، حتى توقفت شاحنة كُتب على جانبها «مؤسسة يورك الإصلاحية». إنّه السجن الوحيد للنساء في الولاية، ويقع في نيانتيك. المكان الذي لا بدّ أنهم سيأخذون الممرضة إليه.

في آخر لحظة، وقفت في طريقها فاضطّر السائق إلى أن يحدد عن الطريق.

أعرف أنّ روث جيفرسون ستهتزّ داخل الشاحنة من هذه الحركة، وستنظر من النافذة لترى ما الذي سبّب تلك الهزّة.

وأني سأكون آخر شيء تراه قبل أن تذهب إلى السجن.

بعد أن أخذتُ بريث إلى كشك بائع النقانق، أصبحتُ زائراً دائماً إلى منزلها حيث كنت أدير من غرفة جلوس فرانسيس موقع *LONEWOLF* على الإنترنت، كنّا نستضيف فيه مناقشات: منتديات عن الضرائب، نتحدّث عن «جو القانوني»، العامل الأبيض، ضدّ خوسيه، السارق غير القانوني؛ مقالات تدور حول السبب الذي جعل أوباما يدمّر اقتصادنا؛ ونادي الكتاب عبر الإنترنت؛ وقد خصّصنا قسماً للكتابة الإبداعية والشعر - شمل ثلاثمئة صفحة انتهت مع الحرب الأهلية، وخصّصنا قسماً خاصاً للنساء الأنغلو - سكسونيات، ليتمكن من التواصل مع بعضهنّ بعضاً، وقسماً آخر للمراهقين لمساعدتهم في معرفة ما يجب أن يفعلوه عندما يقول لهم أحد الأصدقاء إنّه مثلي (ضع حدّاً للصدقة على الفور، أو قل له إنّه لا يولد أحد هكذا، وإنّ هذا الميل سيتلاشى في النهاية)، وخصّصنا صفحة للرأي (أيهما أسوأ: مثلي أبيض أم أسود سوي؟ ما هي الجامعات المعادية للبيض؟). وكان أكثر موضوعاتنا شعبية إقامة مدرسة للبيض

القوميين بدءاً من رياض الأطفال حتى الصف الثاني عشر، ويوجد لدينا أكثر من مليون تعليق وبوست.

وخصّصنا أيضاً على الموقع قسماً للاقتراحات حول ما يمكن أن يفعله الأشخاص سواء أكانوا وحدهم أم داخل خلاياهم إذا ما أرادوا القيام بعمل ما من دون الترويج للعنف الصريح. وفي معظم الأحيان، كنّا نجد سبلاً نزرع فيها الرعب في نفوس الأقليات لأنّها تعتقد أنّه يوجد جيش منا بينهم، في حين لسنا في الواقع سوى شخص أو شخصين.

مارسنا، أنا وفرانسيس، ما كنّا نبشّر به وندعو إليه، وكنا نتوجّه إلى منطقة معظم سكّانها من السود، ونضع لافتة على الطريق السريع تقول إنّها تخصّ جماعة «كولوس كلان» (KKK). في إحدى الليالي، توجّهنا إلى (مركز الجالية اليهوديّة) في ويست هارتفورد. وفي أثناء صلاة ليلة الجمعة، وضعنا نشرة تحت ممسحة الزجاج الأمامي على كلّ سيارة مركونة في ساحة انتظار السيّارات: صورة لأدولف هتلر وهو يؤدّي تحيته المعروفة، كتبنا تحتها بحروف كبيرة: «المحرقة كذبة كبرى»، وكتبنا على الجانب الآخر من الصورة هذه الحقائق خلف الصورة:

- كانت مادة «سيكلون باء» لإزالة القمل، وكي تُستخدم كغاز تحتاج إلى كميات ضخمة من المقصورات مُحكمة الإغلاق، ولم يكن أيّ منها موجوداً في المعسكرات.

- لم تكن هناك بقايا لآثار القتل الجماعي في المعسكرات. أين هي شظايا العظام والأسنان؟ أين هي أكوام الرماد؟

- المحارق الأمريكية تحرق جثة واحدة كل ثماني ساعات، أمّا محارق الجثث في أوشفيتز فقد كانت تحرق 25 ألف جثة في اليوم؟ هذا مستحيل.

- كان الصليب الأحمر يتفقّد المعسكرات كلّ ثلاثة أشهر، وقدم شكواى كثيرة - لم يرد في أيّ منها ذكر عن قتل ملايين اليهود بالغاز.

- كَرَسَتْ وسائل الإعلام اليهودية الليبرالية هذه الأسطورة تُبْرز أجدتها.

في صباح اليوم التالي، نشرت صحيفة (هارتفورد كورانت) مقالاً عن أن أحد النازيين الجدد تسَلَّل إلى الحيّ، وأنَّ الآباء بدؤوا يشعرون بالقلق على أطفالهم. سيكون الجميع خائفين، وهذا ما نسعى إليه. ليس علينا أن نهرب أحداً ما دام بإمكاننا بثُّ الذعر في نفوسهم.

في طريق عودتنا إلى المنزل، قال فرانسيس: «حسناً. كان ذلك عمل ليلة سعيدة». هزرت رأسي، لكنني أبقيت عينيَّ على الطريق. كان فرانسيس يحرص على ذلك - فلم يكن يدعني أقود السيارة وجهاز الراديو مفتوح مثلاً حتَّى لا يتشَتَّت انتباهي بسهولة.

ثمَّ قال: «أريد أن أسألك سؤالاً يا تورك». انتظرت أن يسألني كيف يمكننا الحصول على أعلى تصنيف لموقعنا على الإنترنت في محرك البحث غوغل، أو إن كان في مقدورنا أن نبتَّ حلقات صوتيَّة، لكنَّه بدلاً من ذلك، التفت إليّ، وقال: «متى ستجعل من ابنتي امرأة شريفة؟»

كدتُ أبتلع لساني، ثمَّ قلت: «أنا، ممم، يشرفني أن أفعل ذلك».

نظر إليّ، يقيمني، ثمَّ قال: «جيد. افعل ذلك قريباً».

كما تبين، استغرق ذلك بعض الوقت. فقد أردت أن يكون كلُّ شيء مثاليًّا، فسألت عن اقتراحات على الموقع. اقترح أحدهم أن أتقدَّم لخطبتها وأنا أرثدي بدلة رسم عليها شعار الغستابو. وقال آخر إنَّه أخذ حبيته إلى المكان الذي التقيا فيها أول مرة، لكنني رأيت أن كشك بائع النقانق مع رجال مثليين ينفخ أحدهم الآخر في الغابة وراء الأشجار ليس المكان المناسب، وظهرت تعليقات عدَّة حول ما إذا كان خاتم الخطوبة ضرورياً أو لا، لأنَّ اليهود هم الذين يديرون صناعة الألماس.

قرّرت في النهاية أن أنقل إليها مشاعري. أخذتها ذات يوم إلى ذلك المكان. «حقاً؟»
قالت، «هل ستطبخ؟»

«أظنّ أنّ بإمكاننا أن نفعل ذلك معاً»، قلت لها عندما دخلنا المطبخ. التفتُ بعيداً
لأنّني ظننت أنّها سترى مدى رعبي.
«ماذا يوجد لدينا؟»

«حسناً، لا تدعي أملك يخب»، قلت لها وأريتها علبة حمّص، كتبت في الأعلى: لا
توجد كلمات لأقول كم أحبّك أيّها الحمّص.»
ضحكت، وقالت: «جميل.»

أعطيتها كوز ذرة، وأشرت لها أن تقشّره. لمّا سحبت القشرة سقطت قصاصة كتب
عليها: أظنّ أنك رائعة.

بابتسامة عريضة، مدّت يدها لأعطيها شيئاً آخر.
أعطيتها قنينة كاتشب عليها ملصق كتب عليه: أحبّك من طماطم رأسي.
«هذا جميل»، قالت بریت وهي تبتسم.

«أنا مقيد بالموسم»، ومرّرت إليها قطعة زُبد.
أنتِ نصف زبدتي.
ثمّ فتحتُ الثلاجة.

على الرفّ العلويّ برزت أربع حبّات كوسا لتشكل الحرف M، وثلاث حبّات جزر
لتشكل حرف A، وموزتان منحنيّتان: r، r، وقطعة من جذر الزنجبيل حرف: Y.
وعلى الرفّ التالي، كانت هناك صرّة مغلّفة بالسيلوفان من اللحم المفروم الذي
شكلته في هيئة الحرفين ME.

وعلى الرفّ السفليّ، وضعت قطعة قرع حفرت عليها اسم بريّتاني.

غطت بریت فمها بيدها، وجثوت على ركبتي. قدّمت لها علبة فيها خاتم أزرق من الزبرجد بلون عينيها، وقلت لها متوسّلاً: «قولي نعم».

لَمَّا نهضت واقفاً وضعت الخاتم في إصبعها. «كنت أتوقّع أن أرى ربطة عنق كبيرة بعد كلّ ذلك».

تبادلنا القبلات، ورفعتها إلى المنضدة، فلأفت ساقها حولي. فكّرت في أن أمضي بقية حياتي مع بریت. فكّرت في أطفالنا. كيف سيشبهونها تماماً، وكيف سيكون لديهم أب أفضل من أبي ملبون مرّة.

بعد ساعة، لَمَّا احتضنا بعضنا على أرضيّة المطبخ، فوق كومة ثيابنا، التصقت بریت بي وهمست: «أظنّ أنّ الجواب نعم».

أضاءت عيناها، وجرّت إلى التلاجة، وعادت بعد ثوانٍ قليلة، وقالت: «نعم، لكن يجب أن تعديني أولاً بشيء. نحن...» وأسقطت في يدي بطيخة.

بطيخة صفراء.

* * *

لَمَّا عدت من المحكمة ودخلت البيت، كان التلفاز لا يزال مفتوحاً. قابلني فرانسيس عند الباب، نظرت إليه، يلوح على شفّتي سؤال. قبل أن أسأله، رأيت بریت جالسة على الأرض في غرفة الجلوس، ووجهها على بعد بضع بوصات من الشاشة. كانت تذاع أخبار منتصف النهار، وكانت أوديت لاونتون تتحدّث إلى المراسلين.

التفتت بریت، وللمرّة الأولى منذ أن ولد ابننا، للمرّة الأولى منذ أسابيع، ابتسمت، وقالت: «حبيبي». كانت مشرقة وجميلة. بادلتها الابتسامة، وقلت لها: «حبيبتني، أنتِ نجمة».

روث

قَيَدُوا يَدَيَّ بِالسَّلَاسِلِ.

هكذا تماماً، قَيَدُوا يَدَيَّ أَمَامِي، كما لو أن ذلك لا يجعل مئتي سنة من التاريخ تجري في عروقي مثل تيار كهربائي، كما لو أنني لا أستطيع أن أشعر بجدة جدتي وأمها وهما تقفان في ساحة المزاد. قَيَدُونِي بِالسَّلَاسِلِ، وابني - الذي دأبت على أن أقول له، كل يوم منذ اليوم الذي ولد فيه، إنك أكثر من لون بشرتك - يراني.

كان ذلك مهيناً أكثر من ظهوري في ثوب نومي أمام أعين الجميع، وأكثر من أن أضطرَّ إلى أن أتبول من دون أي خصوصية في زنزانة الحجز، وأكثر من أن يبصق عليّ تورك باور، وهناك شخص غريب يتحدث بالنيابة عني أمام القاضي. سألتني إن كنت قد لمست الطفل، وكذبت عليها، لا لأنني كنت لا أزال أظن ذلك في تلك اللحظة، ولا لأنه لا تزال لدي وظيفة يمكنني أن أحتفظ بها، وإنما لأنني لم أستطع أن أفكر بسرعة كافية ما هو الردّ الصحيح، الإجابة التي قد تطلق سراحني، ولأنني لم أكن أثق بهذه المرأة الغريبة التي تجلس أمامي، والتي لست سوى واحدة من بين عشرين متهماً ستراهم اليوم.

رحت أنصت إلى هذه المحامية التي اسمها كينيدي كذا، نسيت اسم أسرتها، وهي تتراشق بالكلام مع محامية أخرى. أما المدعية العامة، وهي امرأة ملونة، فلم تنظر في عيني مباشرة. تساءلت إن كان سبب ذلك أنها لم تكن تشعر بشيء إلا بالازدراء تجاهي، مجرمة مزعومة... أم لأنها تعرف أنها إذا كانت تريد أن تؤخذ بجديّة، فعليها أن توسّع الهوة بيننا.

أوفت كينيدي بوعدا وأخرجتني بكفالة. كم أردت أن أعانق هذه المرأة! أشكرها. «ماذا يحدث الآن؟» سألتها، عندما سمع الناس في قاعة المحكمة القرار، وأصبح شيئاً حياً يتنفس.

قالت لي: «ستخرجين».

«الحمد لله. كم سيستغرق ذلك من الوقت؟»

توقعت دقائق. ساعة في الأكثر. لا بدّ من إجراء معاملات ورقية، وأذهب لأثبت أنّ كلّ ذلك كان مجرد سوء تفاهم.

«يومان»، قالت كينيدي، ثمّ جاء حارس ضخم، أمسك بذراعي ودفعني بقوة، وأعادني إلى حجرة الأرناب في زنازين الاحتجاز في قبو هذا المبنى البائس.

انتظرت في الزنانة التي نقلوني إليها في أثناء فترة الاستراحة في المحكمة. أحصيت الكتل الخرسانية الموجودة على الحائط: 360. أحصيتها مرة أخرى. رحت أفكر في شكل وشم العنكبوت على فروة رأس تورك باور، وكيف أنني لم أكن أصدّق أنّه يمكن أن يكون سيئاً إلى هذه الدرجة، لكنني كنت مخطئة. لا أعرف كم مرّ من الوقت قبل أن تأتي كينيدي. «ما الذي يجري؟» انفجرت، «لا يمكنني أن أبقى هنا أياماً أخرى».

تحدّثت عن سندات الرهن العقاري ونسبها المئوية. كانت الأرقام تسبح في رأسي. قالت: «أعرف أنّك قلقة لأجل ابنك. أنا واثقة بأنّ أختك ستعتني به».

نشيخ تضخّم مثل أغنية في حنجرتي. تذكّرت منزل أختي الذي يرّد فيه أولادها على أبيهم عندما يطلب إلى أحدهم أن يلقي القمامة خارج البيت، وطعام العشاء حيث لا يتبادلون الأحاديث خلاله، وإنّما يتناولون وجبات طعام صينيّ جاهزة وهم يشاهدون التلفاز مرتفع الصوت جداً. تذكّرت إديسون عندما كان يرسل لي رسائل نصيّة وأنا في العمل.

«إذًا، سأبقى هنا؟» سألتها.

«سُرحَلين إلى السجن».

«سجن؟» سرت قشعريرة في جسدي، «لكّني ظننت أنّي سأخرج بكفالة؟»

«صحيح. لكنّ عجلات العدالة تتحرّك ببطء شديد، ويجب أن تبقي هنا ريثما تصبح الكفالة جاهزة».

فجأة، ظهر حارس لم أره من قبل عند باب الزنزانة، وقال: «أي تان السيّدتان، انتهى حديث القهوة».

نظرت كينيدي إليّ، كلماتها سريعة وشرسة مثل طلقات رصاص، «لا تتحدّثي إلى أحد عن تهمك. سيحاول بعضهم إبرام صفقة لانتزاع معلومات منك. لا تثقي بأحد».

بمن فيهم أنت؟ تساءلت.

فتح الحارس باب الزنزانة وأمرني أن أمدّ ذراعِي. عادت تلك الأغلال والسلاسل من جديد. «هل هذا ضروري؟» سألته كينيدي.

فقال الحارس: «لست أنا من يضع القوانين هنا».

قادني إلى ممرّ آخر، ثمّ إلى رصيف التحميل حيث تنتظر شاحنة فيها امرأة أخرى مقيدة بالسلاسل، ترتدي فستاناً ضيقاً، عيناها مكحلتان، وسترة تصل إلى منتصف أسفل ظهرها. «هل تحبّين ما تريته؟» سألتني، فأشحت عينيّ عنها على الفور.

صعد الضابط إلى المقعد الأمامي وشغّل محرك السيارة.

«أيّها الضابط»، قالت المرأة، «أنا فتاة تحبّ جواهرها، لكنّ هذه الأساور لا تتناسب مع أناقتي».

عندما لم يجبها، حوّلت عينيها إليّ، وقالت: «أنا ليزا. ليزا لوت».

لم أمالك نفسي. ضحكت وقلت لها: «أهذا هو اسمك حقاً؟»

«من الأفضل أن يكون كذلك لأنني اخترته. أحبه أكثر بكثير من... بروس». زمّت شفيتها، وراحت تحدّثني، تنتظر ردّة فعلي. انتقلت عيناى من يديها الضخمتين المشدبتين المطليتين بلاء الأظافر إلى وجهها المذهل. إذا كانت تتوقع أن أصدّم، فلديها شيء آخر قادم. فأنا ممرّضة رأيت كلّ شيء حرفياً، بما في ذلك، رأيت رجلاً متحوّلاً جنسياً وهو حامل، في حين كانت زوجته عاقراً، ورأيت امرأة لديها مهبّلان.

التقت نظراتي نظراتها، رافضة أن تخيفني، وقلت: «أنا روث».

«هل تناولتِ سندويشتك، يا روث؟»

«ماذا؟»

«الطعام، يا حلوة. إنّها أفضل بكثير في المحكمة ممّا هي عليه في السجن، أليس

كذلك؟»

هزّزت رأسي، وقلت: «لم أفعل ذلك قبل الآن».

«يجب أن تكون لديّ بطاقة مُتَّعَبَةٌ. كما تعلمين، من ذلك النوع الذي يمكنك أن تحصلي بها على قهوة مجانية أو أنبوب صغير من المسكرا في زيارتك العاشرة»، وابتسمت ابتسامة عريضة، وأضافت: «لماذا أنتِ هنا؟»

قلت: «أتمنّى لو كنت أعرف».

«ماذا بحقّ الجحيم يا بنت؟» ردّت ليّز، «كنتِ في قاعة المحكمة، ووجّهت إليك

تهمة، ألم تسمعي ما هي تهمتك؟»

أشحت بوجهي، ورحت أركّز على المشهد خارج النافذة، ثمّ قلت: «طلبت إليّ المحامية ألا أتحدّث إلى أحد عن ذلك».

فقالّت باستياء: «حسناً. عفواً يا صاحبة الجلالة».

في المرأة الخلفيّة، ظهرت عينا الضابط، كانتا حادثتين وزرقاوين، وقال: «إنّها متّهمة بجرمة قتل»، ولم يقل أحدنا شيئاً آخر طوال الطريق.

لَمَّا تقدَّمتُ بطلب إلى مدرسة التمريض في جامعة ييل، طلبت أمي إلى راعي كنيستها أن يصلي مرّة أخرى لأجلي، على أمل أن يتمكن الله من التأثير في لجنة القبول إذا لم تكن علاماتي تؤهّلني للقبول في الجامعة. أتذكّر أنّني شعرت بالخوف عندما جلست في الكنيسة إلى جانبها، عندما رفع المصلّون أرواحهم وأصواتهم إلى السماء لأجلي، فثمّة أشخاص يموتون بالسرطان، وأزواج عقيمون يأملون في إنجاب طفل، والحروب القائمة في دول العالم الثالث - بعبارة أخرى، توجد أشياء أهمّ بكثير يجب على الله أن يفعلها في آن معاً، لكنّ أمي قالت إنّ قضيتي مهمّة بالقدر عينه، في الأقلّ بالنسبة إلى المصلّين. فقد كنت قصّة نجاحهم، خريجة الجامعة التي ستُحدث فارقاً.

قبل بدء الدراسة بيوم واحد، أخذتني أمي لنتناول العشاء في أحد المطاعم. قالت لي: «مُقدّرٌ لك أن تفعل أشياء صغيرة عظيمة، كما قال الدكتور كينغ». كانت تشير إلى أحد الاقتباسات الأثرية لديها: إذا لم أستطع أن أفعل أشياء عظيمة، يمكنني أن أفعل أشياء صغيرة بطريقة عظيمة. وتابعت، «لكن، لا تنسي من أين أتيت». لم أفهم ما الذي كانت تقصده تماماً، فأنا واحدة من عشرات الأطفال في الحيّ الذي نعيش فيه، الذين ذهبوا إلى الجامعة، لكن قلة منهم سيلتحقون بالدراسات العليا. كنت أعلم أنّها فخورة بي، وتشعر بأنّها تعمل بدأب كي تضعني في مسار مختلف. ربّما كانت تحثني على أن أخرج من ذلك العرش منذ أن كنت صغيرة، فلماذا تريد أن أحمل الأغصان التي صنعتها؟ ألا يمكنني أن أطير من دونها؟

أخذتُ دروساً في التشريح وعلم وظائف الأعضاء، وعلم العقاقير ومبادئ التمريض، وكنت أحرص على أن أعود دائماً إلى البيت فأتناول طعام العشاء مع أمي، وأحكي لها ما الذي جرى في يومي، ولم يكن يهّمُ أنّني كنت أستغرق ساعتين كلّ يوم في الذهاب إلى الجامعة والعودة منها. كنت أعرف أنه لولا أن أمضت أمي ثلاثين سنة وهي تنظّف وتفرّك الأرض في منزل السيدة مينا، لما ركبت هذا القطار.

«أخبريني كلَّ شيء»، كانت أُمِّي تقول وهي تسكب ما طهته في صحنِي، فأحكي لها كل الأشياء الرائعة التي تعلَّمتها، مثل أنَّ نصف السكان يحملون في أنوفهم جراثيم المكورات العنقودية الذهبية المقاومة للميثيسيلين (MRSA)، وأنَّ النتروغليسرين قد يسبب مغطاً إذا لامس جلدك، وأَنَّ تكون أطول قامة في الصباح ممَّا في المساء بنحو نصف بوصة بسبب السائل الموجود بين أقراص العمود الفقريِّ. لكن، هناك أشياء لم أكن أحكيها لها.

مع أنني درست في إحدى فضلى كليات التمريض في البلد، لم يكن ذلك شيئاً مهماً إلَّا في الحرم الجامعي. ففي جامعة ييل، كانت بعض طالبات التمريض يطلبن أن أريهنَّ الملاحظات الدقيقة التي أدونها أو أن أنضمَّ إلى مجموعتهنَّ الدراسية، وفي أثناء المناوبات السريرية في المستشفى، كان الأساتذة يشيدون بمهاراتي. وفي آخر النهار، كنت أذهب إلى مخزن صغير وأشتري زجاجة كوكا كولا فيتبعني صاحب المخزن حيثما تحركت ليتأكد أنني لن أسرق شيئاً. ولمَّا كنت أجلس في القطار، تمرَّ نساء بيض مستات من أمامي من دون أن ينظرن إليَّ بالرغم من وجود مقعد شاغر إلى جانبي.

بعد انتهاء فترة تدريبي في مدرسة التمريض بشهر، اشتريت كوباً عليه شعار جامعة ييل، فظنَّت أُمِّي أنني اشتريته لأنني سأغادر قبل فجر كلِّ يوم لألحق بالقطار المتَّجه إلى نيو هافن، فتستيقظ باكراً وتعدُّ لي كوباً من القهوة الطازجة تملأ بها الكوب، لكن لم يكن الكافيين هو ما أحتاج إليه، إمَّا تذكرة لدخول عالم مختلف. إذ كنت أضع الكوب كلِّما صعدت في القطار، وأدير كلمة «ييل» عمداً ليتمكَّن الركاب الآخرون من قراءتها عندما يصعدون في الحافلة. إنَّها راية، لافتة، تقول: أنا واحدة منكم.

تبين لي أنَّ سجن النساء يبعد عن نيو هافن ساعة كاملة بالسيارة. لمَّا وصلنا، نُقلنا أنا وليزا إلى زنزانة احتجاز تشبه الزنزانة التي قبعت فيها في قاعة المحكمة، بفارق أنها أكثر ازدحاماً، فيها خمس عشرة امرأة أخرى، ولا توجد

فيها مقاعد. جلست على الأرض بين امرأتين، مدّت إحداهما يديها أمامها تدمدم صلاة تحت أنفاسها بالإسبانية، وتقضم الأخرى بشرتها.

تكَأت ليزا على القضبان وراحت تنسج شعرها الطويل في ضفيرة ذيل سمكة. «المعذرة»، قلت بصوت منخفض، «هل تعرفين إن كانوا يسمحون لي بأن أجري مكالمة هاتفية؟»

رفعت عينيها ونظرت إليّ، وقالت: «أوه، الآن تريدين أن تكلميني».

«أسفة. لا أقصد أن أكون وقحة. أنا... أنا جديدة هنا».

طقطقت شريطاً مطاطياً في نهاية ضفيرتها، وقالت: «بالتأكيد، ستتلقين مكالمة هاتفية مباشرة بعد أن يقدّموا لك الكافيار مع مسّاج لطيف».

صُدمت. أليست المكالمة الهاتفية حقاً أساسياً للسجناء؟ «كما يَصوِّرون لنا ذلك في الأفلام»، همهمت.

وضعت ليزا يديها تحت ثديها ثمّ أفلتتهما، وقالت: «لا تصدّقي كلّ ما ترينه».

فتحت حارسة باب الزنزانة. نهضت المرأة التي كانت تصلّي ووقفت على قدميها، وعيناها ممتلئتان بالأمل، لكنّ الشرطيّة توجّهت إلى ليزا، وقالت: «يا إلهي! ليزا، هل عدتِ مرّة أخرى؟»

«ألا تعرفين شيئاً عن الاقتصاد؟ كلّه عرض وطلب. لسْتُ في هذا العمل وحدي. لو لم يكن هناك طلب كبير على خدماتي، لتوقّف العرض».

ضحكت الحارسة، وقالت: «توجد صورة الآن»، وأخذت ليزا من ذراعها وقادتها إلى خارج الزنزانة.

أُخرجت من الزنزانة امرأة تلو الأخرى، ولم تكن السجينة التي تخرج تعود. وكى أشتت انتباهي، رحمت أعدّ قوائم بالأشياء التي يجب أن أتذكّرها

لأخبر أديسا ذات يوم عندما يصبح بإمكانني أن أتذكّر ما حدث، وأضحك: بأنّه لا يمكن تحديد نوع الطعام الذي قدّموه لنا في أثناء انتظارنا لساعات عدّة، فلم أعرف إن كانت خضراوات أو لحماً. وأنّ السجينة التي كانت تمسح الأرض عندما دخلنا تشبه كثيراً معلّمتي في الصف الثاني، ومع أنني كنت محرّجة من ثوب النوم الذي ارتديته، فهناك امرأة معي في ززانة الحجز ترتدي ثوباً كالذي ترينه في مباريات كرة القدم في المدرسة الثانوية. ثمّ فتحت أخيراً الحارسة التي كانت قد أخذت ليزا الباب، ونادت اسمي.

ابتسمت لها، محاولة أن أكون مطيعة قدر الإمكان. قرأت اسمها على البطاقة: غيتس. لمّا خرجنا وابتعدنا عن مرمى مسامح النساء الأخريات في الززانة، قلت لها: «أيتها الضابط غيتس، أعرف أنّك تؤدّين عملك، لكن أطلق سراحي بكفالة. أريد أن أتصل بابني...»

فقلت: «وقّري ذلك لمحاميتك أيتها السجينة». ثمّ أخذت صورة أخرى لي، ثمّ بصمات أصابعي مرّة أخرى، وملأت استمارة، وسألتنني عن كلّ شيء، بدءاً من اسمي وعنواني وجنسي إلى وضعي من فيروس الإيدز وتاريخ تعاطي المخدّرات، ثمّ قادتنني إلى غرفة أكبر قليلاً من خزّانة لا يوجد في داخلها شيء إلا كرسيّ.

لمّا قالت لي: «اخلعي ثيابك، وضعي ملابسك على الكرسيّ»، رحّت أحدقّ إليها.

كرّرت: «اخلعي ثيابك».

ثنت ذراعيها واستندت إلى الباب. إذا كانت أول حرّية تفقدونها في السجن الخصوصية، فإنّ الحرّية الثانية التي تفقدونها هي الكرامة. أدّرت ظهري وسحبت ثوب النوم فوق رأسي. طويته بعناية ووضعت على الكرسيّ، ثمّ خلعت سروالي الداخليّ وطويته أيضاً، ووضعت نعلي فوق الكومة.

عندما تكونين ممرضة، تتعلمين كيف تجعلين المريضة تشعر بالراحة في اللحظات التي قد تكون مهينة أو مخجلة - كيف تغطي ساقَي امرأة في أثناء المخاض، وعندما تنغوّط الأمّ في أثناء المخاض بسبب ضغط رأس الطفل، تنظفونها بسرعة وتقولين لها إنّ ذلك يحدث للجميع، وتتجاهلين أيّ موقف محرج، وتبذلين كلّ ما في وسعك للتخفيف من حدّته. كما وقفت عارية وأنا أرتجف، تساءلت إن كان عمل هذه الحارسة عكس عملي تماماً، هذا إن لم يكن هدفها أكثر من أن تجعلني أشعر بالعار.

قررت ألا أمنحها هذا الشعور بالرضا.

«افتحي فمك»، قالت الشرطيّة، فمددتُ لساني كما أفعل في عيادة الطبيب.

«انحني إلى الأمام وأريني ماذا يوجد وراء أذنك».

فعلت ما أمرتني به، مع أنّي لم أستطع أن أتخيّل ما الذي يمكن أن تخفيه الواحدة وراء أذنيها، ثمّ أمرتني أن أرفع شعري، وأفتح أصابع قدميّ وأرفعهما لتتمكّن من رؤية المؤخّرة.

ثمّ قالت الحارسة: «اجلسي القرفصاء، واسعلي ثلاث مرّات».

أتخيّل ما الذي يمكن أن تهزّبه امرأة إلى داخل السجن بسبب المرونة الملحوظة في تشريح الأنتى. تذكّرت كيف كان عليّ، عندما كنت طالبة في كليّة التمريض، أن أتدرب على معرفة عرض عنق رحم متوسّع. سنتيمتر واحد هو فتحة بحجم طرف إصبع. سنتمتران ونصف سنتيمتر هما الإصبعان الثاني والثالث، تنزلق في فتحة بحجم عنق قنينة مزيل أطافر. أربعة سنتيمترات من اتّساع الرحم بحجم تلك الأصابع نفسها، تنتشر في عنق قنينة تتسع لأربعين أونصة من صلصة الشواء «سويت بيبي راي»، حجم فتحتها خمسة سنتيمترات لقنينة كاتشب ماركة «هاينز».

«باعدي بين إلتيك».

في مرّات عدّة ساعدت في توليد امرأة تعرّضت لاعتداء جنسيّ. من المنطقيّ أنّه قد تثار في أثناء الولادة ذكريات اغتصاب، فالجسد خلال المخاض جسد مجهد، وقد يؤدّي ذلك لدى امرأة تعرّضت للاغتصاب إلى ردّة فعل للبقاء في قيد الحياة تؤدّي إلى إبطاء التقدّم أو إيقافه من الناحية الفسيولوجيّة. لذلك، من المهمّ جداً في هذه الحالات أن تكون غرفة المخاض والولادة مكاناً آمناً، للاستماع إلى المرأة حتّى تشعر بأنّها رأياً فيما يحدث لها.

ربّما لا ينبغي لي أن أقول أشياء كثيرة هنا، لكن لا يزال بإمكانني أن أختار ألا أكون ضحيّة، فالهدف من هذه الإجراءات هو أن أشعر بأنّني أقلّ درجة من حيوان، وأنّ أشعر بالخزي من عريّ.

لكنّني أمضيت عشرين سنة وأنا أرى جمال المرأة - لا من حيث مظهرها، وإنّما بما يمكن أن يتحمّله جسدها.

وقفت أمام المرأة الضابط، أتحدّثها ألا تنظر إلى بشرتي البنيّة الملساء، وحلقتي حلمتيّ الداكنتين، وانتفاخ بطني، وطبقة الشعر بين ساقيّ. أعطتني البدلة البرتقالية على مقاسي، وبطاقة سجل عليها رقمي كسجينة، كهويّة لي، بحسابي جزءاً من مجموعة، ولست فرداً. رحّت أهدقّ إليها حتّى لاقت عيناها عينيها، فقلت لها: «اسمي روث».

فطور من الدرجة الخامسة. كان أنفي مدفوناً في كتاب، وكنت أقرأ البيانات بصوت عالٍ. قلت: «كان هناك توءمان وُلدا بفارق ثمانية وثمانين يوماً».

جلست راشيل أمامي وهي تتناول رقائق الذرة، ثمّ قالت: «إذاً هما ليسا توءمين أبّتها الغبيّة».

«ماما»، صحت على الفور، «قالت راشيل إنّني غبيّة». قلبت الصفحة. «قتل رجل ميت مقطوع الرأس سيغورد القوي، وربط رأس الرجل في سرجه، ولمس أحد أسنانه فأصيب بالتهاب ومات».

هرعت أمي إلى المطبخ، وقالت: «راشيل، لا تقولي لأختك غيبية. وروث، توقفي عن قراءة أشياء مقرفة في أثناء الطعام».

أغلقت الكتاب على مضض، لكن ليس قبل أن أدع عينيّ تضيئان على حقيقة أخيرة: كانت هناك أسرة في ولاية كنتاكي، بشرتها زرقاء منذ أجيال عدّة بسبب زواج الأقارب. جميل، قلت في نفسي، وبسطت يدي وقلّبتها.

«روث»، قالت أمي بحدّة. كان ذلك كافياً لأعرف أنها لم تكن المرّة الأولى التي تنادي فيها اسمي، «أذهبي وغيّري قميصك».

«لماذا؟» سألتها، قبل أن أذكّر أنني يجب ألا أتكلّم مرّة أخرى.

أمسكت أمي بلوزتي التي عليها بقعة بحجم عشرة سنتات على صدري. قلت لها متجهمة: «ماما، لن يراها أحد عندما أرتدي كنزتي».

سألنتي: «وإذا خلعتِها؟» ثمّ أضافت، «لا تذهبي إلى المدرسة وعلى قميصك بقعة، لأنك لو فعلت ذلك، فلن يقول الناس إنك فتاة مهملة ووسخة، وإمّا سيقولون لأنك سوداء».

كنت أعرف أنني يجب ألا أعضب أمي، فأخذت الكتاب وجريت إلى الغرفة التي نتقاسمها أنا وراشيل، وبحث عن قميص أبيض نظيف. لمّا زررت القميص، انجرف نظري نحو كتاب (الأشياء التافهة) الذي كنت قد رميته وظلّ مفتوحاً على سريري.

قرأت إنّ أكثر المخلوقات وحدة على وجه الأرض هو حوت أمضى أكثر من عشرين سنة وهو ينادي رفيقة له، لكن صوته كان مختلفاً تماماً عن أصوات الحيتان الأخرى فلم يردّ عليه أحد.

في المساء، أُعطيت ملاءات وبطانية وشامبو وصابون ومعجون أسنان وفرشاة أسنان، وعُهد بي إلى سجينّة أخرى قالت لي أشياء مهمة مثل: من الآن فصاعداً، يجب أن أشتري كل مستلزمات النظافة الشخصية الخاصة بي من المفوّض؛ وإذا أردت أن أشاهد برنامج القاضية جوودي عبر التلفاز

في غرفة الاستراحة، فيجب أن أكون هناك في وقت مبكر لأتمكّن من الحصول على مقعد جيد؛ وإنّ وجبات الطعام الحلال هي الوجبات الوحيدة التي تؤكل، لذلك يمكنني أن أقول إنّني مسلمة؛ وإنّ إحداهنّ تُدعى «ويغ» ترسم أفضل الوشوم لأنّ الحبر الذي تستعمله ممزوج بالبول، وهذا يعني أنّه يدوم لفترة أطول.

لَمَّا سرنا أمام الزنانات، لاحظت أنّه توجد سجينتان في كلّ زنزانه، وأنّ معظم السجينات من ذوات البشرة السوداء، أمّا الشرطيّات فلسن كذلك. في جزء منّي شعرت كما كنت أشعر عندما كانت أمي تطلب إلى أختي أن تأخذني مع صديقاتها في الحيّ الذي نقطن فيه. كانت الفتيات يسخرن منّي لأنني مثل بسكويت «أوريو» سوداء من الخارج وبيضاء من الداخل. وكنت أُلزم الصمت حتّى لا أقول شيئاً أبدو من خلاله غبيّة. ماذا لو كانت امرأة كهذه رفيقتي في المسكن؟ ما هي الأشياء المشتركة التي قد تجمعنا؟

إنّ ما يجمعنا هو حقيقة أنّنا كلتينا في السجن.

استدرتُ عند الزاوية، ومدّت السجينة ذراعها في إيماءة كبيرة، وقالت: «لقد عدتُ إلى بيتي الجميل». لَمَّا نظرت إليها رأيت امرأة بيضاء تجلس على سرير من طابقين.

وضعت لفافة السرير على المرتبة الفارغة، وبدأت أسحب الملاءات والبطانية.

سألني المرأة: «هل قلتُ لك إنّك تستطيعين أن تنامي هناك؟»

تسرّمتُ في مكاني، وقلت: «أنا... ممم، لا».

«هل تعرفين ما الذي حدث للمرأة التي كانت تقاسمني الزنزانه؟» لها شعر أحمر مجعّد وعينان لا تنظران في الاتجاه نفسه. هزرت رأسي. اقتربت منّي كثيراً، وهمست: «ولا أحد آخر»، ثمّ انفجرت ضاحكة، وقالت: «آسفة، إنّني أمزح معك. اسمي واند».

بدأ قلبي يخفق في مؤخرة حنجرتي، وقلت بصعوبة: «روث»، ثمَّ أشرت إلى المرتبة الفارغة، «إذًا، هذا هو...»

«حسنًا، كما تشائين. لا يهمني، طالما بقيت بعيدة عن أشياءي».

هزرت رأسي موافقة، وبدأت أرتب السرير، في حين كانت واند تراقبني، ثمَّ سألتني: «هل أنت من هنا؟»

«من إيست إند».

«أنا من بانتام. هل ذهبتِ إلى هناك قبل الآن؟» هزرت رأسي، ثمَّ أضافت، «لم تذهبي إلى بانتام، هل هذه أول مرّة؟».

رفعت عينيَّ بارتباك، وقلت: «في بانتام؟»

«في السجن».

«نعم، لكنني لن أبقى هنا لفترة طويلة. إنِّي أنتظر صدور الكفالة».

ضحكت واند، وقالت: «حسنًا، إذًا».

التفتُ إليها ببطء، وقلت: «ماذا؟»

«أنا أنتظر مثلك مرّ ثلاثة أسابيع الآن».

ثلاثة أسابيع. شعرت بانحلال ركبتيّ، وغصت في المرتبة. ثلاثة أسابيع؟ قلت لنفسني إنَّ حالتي ليست مثل حالة واند. لكن لا يهمّ: ثلاثة أسابيع.

سألتني: «إذًا، ما تهمتك؟»

«لا شيء».

«من المدهش أن يأتي أحد إلى هنا ولم يرتكب شيئاً غير قانوني». استلقت واند على سريرها، ومدّت ذراعها فوق رأسها. «قالوا إنني قتلت زوجي، وقلت لهم إنه هو الذي اصطدم بسكّيني». نظرت إليّ، وقالت: «كانت تلك حادثة. كما تعرفين، بالطريقة نفسها التي كسر فيها ذراعي، وجعل عيني سوداء، ودفعني إلى أسفل الدرج. كانت كلّها حوادث أيضاً».

كانت هناك أحجار في صوتها. تساءلت إن كان صوتي سيصبح هكذا أيضاً مع مرور الوقت. تذكّرت أنّ كينيدي قالت لي إنني يجب أن أتجنّب الاختلاط بالآخرين.

تذكّرت تورك باور، وتخيّلت الوشم الذي رأيته في قاعة المحكمة يلمع على فروة رأسه الحليق. تساءلت إن كان قد أمضى فترة في السجن، وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنّ لدينا شيئاً مشتركاً أيضاً.

ثمّ تخيّلت طفله متكوراً بين ذراعَيّ في المشرحة، بارداً وأزرق مثل حجر.
قلت: «أنا لا أوّمن بالحوادث»، وتركت الأمر عند هذا الحدّ.

كان المستشار، الضابط راميريز، ذو الوجه المستدير والطري مثل فطيرة، يتناول حساءه، وظلّ الحساء ينسكب على قميصه، وكنت أحاول ألا أنظر إليه كلّما حدث ذلك. «روث جيفرسون»، قال وهو يقرأ ملفّي، «هل كان لديك سؤال حول الزيارات؟» فأجبته: «نعم. أريد أن أتصل بابني إديسون حتّى يعرف كيف يجمع الأوراق التي نحتاج إليها للإفراج عني بكفالة، فهو لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره».

أخذ راميريز يبحث على طاولة مكتبه. أخرج مجلّة - بنادق وذخيرة - ومجموعة من النشرات عن الاكتئاب، ثمّ أعطاني استمارة، وقال: «اكتبي أسماء وعنوانات الأشخاص الذين تريدين أن يكونوا في قائمة الزوّار».

«ثمّ ماذا؟»

«ثمّ أرسلها بالبريد، وعندما يوفّعونها ويعيدونها، تتمّ الموافقة على الاستمارة، ويصبح كلّ شيء على ما يرام».

«لكنّ هذا قد يستغرق أسابيع».

فقال راميريز: «عشرة أيام عادة»، وتابع شرب الحساء.

ترقرقت الدموع في عينيّ. إنّ ذلك أشبه بالكابوس، من النوع الذي يهزّ فيه أحدهم كتفك وتقول لنفسك إنّه حلم، وتقول: هذا ليس حلاً. «لا أستطيع أن أتركه وحده كلّ هذه الفترة».

«يمكنني أن أتصل بخدمات حماية الطفل...»

«لا»، قلت، «لا».

ثمّة شيء جعله يضع الملعقة، وحدّق إليّ، وقال: «يوجد دائماً أمر السجن. يمكنه أن يمنحك زيارة مجاملة لزاثنين بالغين قبل الموافقة على الطلب الرسميّ. لكن، بما أنّ ابنك في السابعة عشرة من عمره، فيجب أن يأتي بصحبة شخص بالغ آخر».

أديسا، قلت في نفسي. ثمّ تذكّرت على الفور لماذا لن يوافق أمر السجن على زيارتها أبداً: فلديها سجلّ بسبب شيك إيجار مزوّر منذ خمس سنوات.

أعدت الاستمارة إليه. بدت الجدران كما لو كانت مصراع كاميرا يغلق، وقلت له: «شكراً لك في كلّ حال»، وعدت إلى زنانتني.

كانت واندا جالسة على سريرها، تقضم شوكولاتة تويكس. نظرت إليّ، ثمّ قطعت قطعة صغيرة منها وقدمتها لي.

أخذتها، وأطبقت قبضتي عليها، فبدأت الشوكولاتة تذوب فيها.

«ألم يسمحوا لك بإجراء مكالمة هاتفية؟» سألتني واندا. هززت رأسي، وجلست على طرف سرير مولية ظهري لها، أنظر إلى الحائط.

«حان وقت برنامج القاضية جودي»، قالت واندا، «هل تريدن مشاهدته؟»

عندما لم أردّ، خرجت واندا من الزنانة وذهبت إلى غرفة الاستجمام. لعقت الشوكولاتة من يدي ثمّ ضغطت براحتيّ معاً، ورحت أكلّم شريحة

الأمل الوحيدة المتبقية لديّ. رحمت أصليّ، يا الله، أرجوك، أرجوك، أرجوك أنصت إليّ. لمّا كنت صغيرة، كنت أنام في منزل كريستينا المشيّد من الحجر البنيّ. كنّا نمدّ أكياس نومنا في غرفة الجلوس، ويشغّل سام هالويل جهاز العرض السينمائيّ فيعرض لنا أفلام رسوم متحركة قديمة لا بدّ أنّه حصل عليها عندما كان مديراً تنفيذياً في محطة التلفزة. في ذلك الوقت، كان ذلك شيئاً عظيماً - فلم تكن هناك أجهزة فيديو أو أفلام فيديو عند الطلب. كان العرض الخاصّ متعة مخصّصة لنجوم السينما فقط - وأظنّ لأطفالهم أيضاً، ومع أنّي كنت أشعر بالسعادة لأنني لن أعود إلى منزلنا في تلك الليلة، فقد كان ذلك ثاني أفضل شيء: لأنّ أمّي كانت تعدّ لنا الحمام، وتلبسني بيجامتي، وتعدّ لنا كوباً من الكاكاو الساخن والبسكويت قبل أن تغادر، وعندما نستيقظ تكون قد عادت وأعدتّ لنا بعض الفطائر المحلّاة.

على الرّغم من الاختلافات القائمة بيني وبين كريستينا، فقد أصبحت دائماً لا تمحى مع تقدّمنا في العمر. لم يكن من السهل أن أظاهر بأنّه ليس من المهمّ أن تعمل أمّي في منزلهم، أو أنّه كان عليّ أن أعمل بعد المدرسة، أو أنّ الثياب التي ارتديها أيام الجمعة كانت ثياب كريستينا. لم يكن الأمر أنّها لم تكن ودوداً معي، وإمّا أنا التي أقمت حاجزاً بيني وبينها بشكوكي، لبنة من الإحراج كلّ مرّة. وكانت جميع صديقات كريستينا شقراوات، جميلات، ذوات أجساد ممشوقة، يظفن حولها مثل ندف ثلج متشابهة. كنت أقول لنفسي، إنّني لم أكن أصادقهنّ، لأنني لم أكن أريد أن تشعّر كريستينا بأنّ عليها أن تضمّني إلى مجموعة صديقاتها، لكنّ السبب الحقيقيّ الذي جعلني أنأى بنفسني عنها هو أنّ الابتعاد أقلّ إيلاماً من المخاطرة عندما تحين تلك اللحظة الحتميّة لأصبح فيها شيئاً ثانوياً.

كان السبب الوحيد الذي جعلني لا أبتعد عن كريستينا هو أنّه لم تكن لديّ صديقات عديدات. إذ كانت هناك طالبة باكستانية، وفتاة مصابة بإعتمام

عدسة العين كنت أعطيها دروساً في الرياضيات، لكن الشيء المشترك الوحيد بيننا هو أننا لم نجد مكاناً آخر نتلاءم فيه. ومع أنه كانت هناك مجموعة من الأطفال السود الآخرين، فقد كانت تربيتهم بعيدة عن تربيتي - مع أن آباءهم كانوا يعملون سمسرة في البورصة، ويأخذون دروساً في المبارزة، ويملكون بيوتاً صيفية في نانتوكيت. وهناك راشيل، التي حملت بطفلها الأول وهي في الثامنة عشرة من عمرها. ربما كانت تحتاج إلى صديقة، لكن حتى لَمَّا كُنَّا نتحدّث وجهاً لوجه عبر طاولة المطبخ، لم أكن أجد شيئاً واحداً أقوله لها، لأنّ الأشياء التي كانت تريدها في حياتها تختلف عن الأشياء التي كنت أريدها، وبصراحة كنت أخشى أنني إذا ما بدأت أخرج معها، فإنّ جميع الصور النمطيّة التي لَقْتُ نفسها بها ستتلاشى مثل ملمّع أحذية، وتجعل من الصعب أن أتلاءم بسهولة في قاعات جامعة دالتون.

ربّما لهذا السبب، لَمَّا دعّنتي كريستينا إلى حفل ستقيمه لصديقاتها يوم الجمعة، وافقت على الفور. قلت لها نعم، وتمنّيت أن تثبت لي أنني مخطئة. برفقة جميع صديقاتها الجديّدات، أردت أن أشاركهنّ تبادل النكات، وأحكي لهنّ كيف اختبأنا، أنا وكريستينا، في مصعد الخدمة، ووضعنا على رأسينا خوذتين من ورق الألمنيوم، وتظاهرنّا أننا في مركبة فضائيّة تصعد إلى القمر؛ أو عندما تغطّ كلب السيدة مينا، فيرغوس، على سريرها، واستخدمنا طلاء أبيض لنعطي البقعة، وظننا أن أحداً لن يلاحظ ذلك. كنت أريد أن أكون الشخص الوحيد الذي يعرف في أيّ خزانة في المطبخ توجد الأطعمة، وأين تُحفظ أغذية السرير الإضافية، وأسماء كلّ لعب الحيوانات القديمة المحشوة التي تملكها كريستينا. أردت أن يعرف الجميع أننا، أنا وكريستينا، صديقتان قبل أن يكنّ صديقاتها.

كانت كريستينا قد دعّت صديقتين من الصّفّ الثاني - ميسّتي، التي كانت تدّعي أنّها تعاني من صعوبة في القراءة كي تحصل على تسهيلات في واجباتها المدرسيّة، لكن يبدو أنه لا توجد لديها مشكلة في القراءة بصوت

عالٍ من كومة مجلات كوزمو التي أحضرتها كريستينا إلى الغرفة العلوية؛ وكيرا، المهووسة بروب لوي، وبالفتححة عند فخذها. كُنَّا قد مددنا مناشف الأرضية الخشبية، ورفعت كريستينا صوت المذياع عندما انطلقت أغنية داير ستريتس، وغنّت كلمات الأغنية كلّها عن ظهر قلب. تذكّرت كيف كنا نستمع إلى أسطوانات السيّدة مينا - التي كانت كلها أسطوانات برودواي أصلية - ونرقص ونتظاهر بأننا سنديريلًا أو إيفا بيرون أو ماريا فون تراب.

أخرجت من حقيبتني قنينة طلاء واق من الشمس. كانت الفتيات الأخريات قد دهنن أجسادهنّ بزيت الأطفال، كما لو كنّ شرائح لحم فوق شواية، لكن آخر شيء كنت أريده أن أزداد سواداً، لاحظت أنّ كيرا تنظر إليّ، ثمّ سألتني: «هل تجعل الشمس بشرتك سمراء أكثر؟»

فقلت لها: «نعم»، لكنّي لم أخض معها في التفاصيل لأنّ ميستي قاطعتها. «هذا رائع جداً»، قالت، «الغزو البريطانيّ»، وأدارت المجلّة لنتمكّن من رؤية العارضات، كلّ واحدة أنحف من الأخرى، ترتدي ملابس الموسم المقبل، وعليها العلم البريطانيّ، ومعاطف حمراء لها أزرار ذهبية ذكّرتني بمايكل جاكسون.

جلست كريستينا إلى جانبي وأشارت بإصبعها، «ليندا إيفانجليستا، تبدو رائعة». «آه، حقاً؟ تبدو كأنّها نازية. سيندي كروفورد طبيعيّة جداً»، ردّت عليها كيرا. نظرتُ إلى الصور. ثمّ أضافت كيرا: «ستذهب أختي إلى لندن هذا الصيف. السفر بحقيقية سفر واحدة والتجوّل في أوروبا. جعلت أبي يعدني، بخط يده، بأنني عندما أبلغ الثامنة عشرة من عمري يمكنني أن أذهب أيضاً».

«السفر بحقيقية ظهر فقط؟» سألتها ميستي، «لماذا؟»

«لأنه رومانسيّ. فكّري في ذلك. بطاقات قطار Eurail. نُزل الشباب. التعرّف إلى شبّان مثيرين».

فقلت ميستي: «أظن أن فندق سافوي رومانسي أيضاً، ولديهم حمامات».

نظرت كيرا إليّ، وقالت: «ادعمني يا روث. لا يلتقي أحد في رواية رومانسية في بهو فندق سافوي أبداً. يصطدم أحدهم بالآخر على رصيف محطة القطار، أو يأخذ أحدهم حقيبة شخص آخر بالخطأ، أليس كذلك؟»

فقلت: «يبدو كأنه قدر»، لكن الشيء الذي كنت أفكر فيه هو أنه لا يمكنني ألا أعمل في أثناء عطلة الصيف، حتى لو كنت أخطئ للذهاب إلى الجامعة.

نقرت كريستينا على بطنها فوق المنشفة، وقالت: «أنا جائعة. يجب أن نطلب وجبات خفيفة»، ثم نظرت إليّ، وقالت: «روث، هل يمكنك أن تحضري لنا شيئاً نأكله؟»

لَمَّا دخلت المطبخ الذي تعبق فيه رائحة تشبه رائحة الجبنة، ابتسمت أمي. صينية من البسكويت تُرکت لتبرد، وصينية أخرى في الفرن. مدّت أمي ملعقة المزج ودعتني ألعق العجين، وسألتنى: «كيف تسير الأمور في سان تروبيه؟»

فقلت لها: «كلهنّ جائعات. كريستينا تريد طعاماً».

«أوه، هكذا إذاً، لماذا لم تأتِ وتسالني بنفسها؟»

فتحْتُ فمي لأردّ لكنّي لم أستطع أن أجيها. لماذا طلبت منّي؟ لماذا أتيت؟

زمت أمي شفيتها، وسألتنى: «لماذا أرسلتكِ إلى هنا يا حبيبتي؟»

نظرت إلى الأسفل بين قدمي الحافيتين، وقلت: «قلت لك - نحن جائعون».

فكررت قائلة: «روث. لماذا أنتِ هنا؟»

لم أستطع أن أظاهر هذه المرّة بأنني لم أفهم قصدها، فقلت بصوت خفيض حتى إنني لم أكد أسمع صوتي، وكنت أمل ألا تسمعني أمي أيضاً: «لا يوجد مكان آخر أذهب إليه».

فقال بإصرار: «هذا غير صحيح. عندما تكونين جاهزة، سنكون في انتظارك».

أخذت صحنًا وبدأت أملؤه بالكعك. لم أعرف ما الذي كانت أمي تقصده، ولم أشأ أن أعرف. تحاشيتها في الفترة المتبقية من بعد الظهر، ولمّا غادرت في الليل، جلسنا في غرفة نوم كريستينا، ورحنا نلعب لعبة «ديبيش مود»، ونرقص فوق السرير. استمعت إلى الفتيات الأخريات وهنّ يعترفن بقصصهنّ السريّة، وتظاهرنّ بأنّ لديّ قصّة أيضاً لأشاركهنّ الحديث. لمّا جلبت كيرا قنينة ممتلئة بالفودكا («فيها أقلّ سعرات حراريّة، إذا أردت أن تسكرنّ»)، تصرّفت كما لو أنّه لا توجد مشكلة، مع أنّ ضربات قلبي بدأت تخفق بقوة. لم أشرب لأنّ أمي ستقتلني لو فعلت ذلك، ولأنّني أعرف أنّني يجب أن أبقى صاحية. في كلّ ليلة، قبل أن أخلد إلى النوم، أدهن بشرتي بمرهم وأفرك ركبتيّ وكاحليّ ومرفقيّ بزبدة الكاكاو حتّى لا تصبح رماديّة، وأمشط شعري وألفه حول رأسي ليزداد موه ثمّ ألفه بوشاح. كانت أمي تفعل ذلك، وراشيل أيضاً، لكنني متأكّدة أنّ هذه الطقوس ستبدو غريبة على الفتيات هنا، حتّى على كريستينا. لم أشأ أن أجب عن أسئلتهنّ، أو أفعل أكثر ممّا فعلت، وتقصّدت أن أكون آخر فتاة تذهب إلى الحمام لأبقى فيه حتّى ينمنّ جميعهنّ... ثمّ أستيقظ قبل الفجر وأصلح شعري قبل أن تتحرّك أيّ واحدة منهنّ.

بقيت مستيقظة عندما بدأت ميستي تحكي بتفصيل شديد كيف أنّها مارست الجنس الفمويّ، فهرعت كيرا إلى الحمام وتقيّأت. انتظرت حتّى نظفن أسنانهنّ، وانتظرت لفترة طويلة حتّى بدأت أسمع شخيرهنّ، ثمّ خرجت في الظلام الدامس.

انحسرنّا، أربعتنا، مثل سمك السردين على سرير كريستينا. رفعت الغطاء وانسللت إلى جانب كريستينا التي تفوح منها رائحة شامبو الخوخ

الذي تستخدمه دائماً. ظننت أنها كانت نائمة، لكنّها انقلبت على ظهرها ونظرت إليّ. كان وشاحي ملفوفاً حول رأسي، أحمر مثل جرح، تتدلى أطرافه إلى أسفل ظهري. رأيت عينيّ كريستينا تومضان نحوه، ثمّ نظرت في عينيّ. لم تقل شيئاً عن الوشاح. «أنا سعيدة بوجودك هنا»، همست كريستينا، ولفترة قصيرة مباركة، كنت أنا كذلك.

في وقت متأخّر من تلك الليلة، بينما كانت واندنا تشخر، ينبعث منها صوت يشبه الصفير، استلقيت وبقيت مستيقظة. عند كلّ نصف ساعة، يأتي حارس بيده مصباح يدويّ يضيئه داخل الزنزانة ليتأكد أنّ الجميع نائمون. وعندما يأتي إلى زنزانتنا، كنت أغمض عينيّ وأتظاهر بأنني نائمة. تساءلت إن كان النوم أسهل مع أصوات مئات النساء من حولك. تساءلت إن كان الأمر سيصبح أسهل بعد فترة قصيرة.

في أثناء إحدى تلك الجولات، كان ضوء المصباح يقفز مع خطوات الحارس الذي توقّف أمام زنزانتنا. استوت واندنا في جلستها على الفور متجهّمة. «انهضي»، قال الحارس.

«ماذا في الأمر بحقّ الجحيم؟» قالت واندنا بتحدّ، «إنك تزعج الزنانات كلّها في منتصف الليل؟ ألم تسمع يوماً عن حقوق السجناء...؟»
«ليس أنتِ»، هزّ الحارس رأسه نحوي، وقال: «هي».

لَمَّا سمعتُ ذلك، رفعت واندنا يديها وتراجعت. ربّما كانت مستعدّة لأن تقاسمني لوح شوكولاتة تويكس، لكنّي أصبحت وحدي الآن.

ارتعشت ركبتيّ عندما نهضت ومشيت نحو باب الزنزانة المفتوح، وسألته: «إلى أين ستأخذني؟»

لم يردّ الحارس وقادني في الممرّ، ثمّ توقّف أمام أحد الأبواب. رنّ الجرس على لوحة التحكّم، ثمّ سمعت طنيناً عندما فُتح القفل. دخلنا في محبس

هوائِيَّ وانتظرنا حتَّى أُغلق الباب خلفنا قبل أن يُفتح الباب المجاور بطريقة سحرية.

قادني بصمت إلى غرفة صغيرة تشبه خزانة، وسلّمني كيساً ورقياً.

نظرت إلى داخل الكيس ورأيت ثوبي وصندي. خلعت بدلة السجن عن جسدي، وطويتها كعادتي، ثمّ تركتها في كومة على الأرض. ارتديت ثيابي القديمة. عدت إلى حياتي القديمة.

انتظر الحارس حتَّى فُتح الباب مرّة أخرى، وقادني هذه المرّة إلى الزنزانة التي انتظرت فيها أوّل ما وصلت إلى هنا، فيها الآن امرأتان نائمتان على الأرض، تفوح منهما رائحة كحول وقيء، ثمّ خرجنا فجأة، وعبرنا سياجاً من الأسلاك الشائكة.

التفتُّ إليه مذعورة، وقلت: «لا أملك نقوداً». أعرف أنّنا على مسافة ساعة أو قرابة ذلك من نيو هافن، ولا أملك أجرة حافلة أو هاتفاً أو حتّى ثياباً مناسبة.

هزّ الحارس رأسه وأشار إلى مكان بعيد، فلاحظت أنّ الظلام يتحرّك، ظلّ إزاء ليلة غير مقمرة. تحرّكت الصورة الظليّة حتّى بدأت أرى ملامح سيارة فيها شخص. خرج من السيارة وركض نحوي. «ماما»، قال إديسون، ودفن وجهه في رقبتني، «لنعد إلى البيت».

كينيدي

هناك نوعان من الأشخاص الذين يصبون محامين عامين تعيّنهم المحكمة للدفاع عن المتهمين الذين لا يمكنهم تعيين محام خاص: أولئك الذين يعتقدون أنهم يستطيعون إنقاذ العالم، وأولئك الذين يعرفون جيداً أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك. الفئة الأولى هم من خريجي كلية الحقوق الحالمين، المفرطين في التفاؤل، المقتنعين أنّ في مقدورهم أن يحدثوا فارقاً في الحياة. أمّا الفئة الثانية، فهم الذين عملوا في هذا السلك، ويعرفون أن المشكلات التي تعترضنا أكبر منّا ومن موكلينا بكثير. فما إن تصبح ندوب القلب النازفة أمراً واقعاً، حتّى تصبح الانتصارات فردية: أن تتمكّن من لمّ شمل أمّ أخضعت لإعادة تأهيل مع ابنها الذي أودع في مركز للرعاية، والقدرة على التعامل مع مئات القضايا، ومعرفة الذين هم في حاجة إلى أكثر من إجراء مقابلة معهم والدفاع عنهم. وكما يتبين، فإنّ المحامين العامّين هم أقلّ قدرة من سوبرمان، وأكثر قدرة من سيزيف. إنّ عدد المحامين الذين ينتهي بهم الأمر إلى أن يُسحقوا تحت وطأة القضايا غير النهائية وساعات العمل الطويلة والأجور المتدنية، ليس قليلاً. لذلك، فإنّنا نتعلّم بسرعة أنّه إذا كان علينا أن نُبقي جزءاً صغيراً من حياتنا مقدّساً، فيجب ألاّ نجلب عملنا معنا إلى البيت.

لذلك، لمّا حلمتُ بروث جيفرسون لليلتين متتاليتين، عرفت أنّني في ورطة.

في الحلم الأول، عقدت مع روث اجتماعاً كالذي يعقده المحامي مع موكله. طرحت عليها مجموعة من الأسئلة التي أطرحها عادة على أيّ موكل، لكنّها كلّما تكلمت، كانت تتكلّم بلغة لا أفهمها. حتّى إنني لم

أعرف ما هي تلك اللغة، فكنت أضطرُّ إلى أن أسألها وأنا محرجة أن تعيد ما قالته. ثم فتحت فمها أخيراً، وبدأت تنطلق منه فراشات زرق.

وفي الليلة الثانية، حلمتُ أن روث دعنتني إلى العشاء. كانت أفخم مائدة، عليها أصناف كثيرة من الطعام تكفي لإطعام فريق كرة قدم كامل، وكلُّ طبق ألدُّ من الطبق الآخر. شربت كأساً من الماء، ثمَّ كأساً أخرى، وكأساً ثالثةً حتى فرغ إبريق الماء. لمَّا سألت إن كان بإمكانني أن أملأ الإبريق مرّةً أخرى، بدا الذعر على وجه روث، وقالت: «ظننتُ أنك تعرفين»، ولمَّا رفعت عينيَّ إليها أدركت أننا مسجوتتان في زنزانة واحدة في السجن.

استيقظت وأنا أكاد أموت من شدة العطش. انقلبت إلى جانبي، ومددت يدي وتناولت كأس الماء التي أضعتها عادة إلى جانبي على الطرييزة، إلى جانب السرير، وشربت ماءً بارداً. شعرت بذراع ميكا تطوّق خصري ويجذبني إليه. قبّل رقبتي، ووضع يده فوق قميص بيجامتي.

سألته: «ماذا ستفعل لو دخلت السجن؟»

فتح ميكا عينيه، وقال: «إني متأكد تماماً، بما أنك زوجتي، وعمرك فوق الثامنة عشرة، فإن ذلك أمر قانوني».

«لا»، قلتُ، واستدرت إليه، «ماذا لو أنني فعلت شيئاً... وأدنتُ؟»

«هذا شيء مثير»، قال ميكا، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، «محامية في السجن. حسناً، سألعب معك. ماذا فعلت؟ لنقل إنك ارتكبت عملاً فاضحاً على الملأ. أرجوك قولي إنّه عمل غير محتشم»، وشدّني إليه.

«حقاً. ماذا سيحدث لفيوليت؟ كيف ستشرح لها الأمر؟»

«كينيدي، هل هذه طريقتك لتخبريني أنك قتلت مديرِك أخيراً؟»

«إنّه سؤال افتراضي».

«في هذه الحالة، هل يمكننا أن نؤجل الإجابة عن هذا السؤال خمس عشرة دقيقة؟» أغمض عينيه وراح يقبلني.

بينما كان ميكا يحلق ذقنه، كنت أحاول أن أرفع شعري وأعقده في شكل كعكة، سألني: «هل ستذهبين إلى المحكمة اليوم؟»

كان وجهه لا يزال متورداً، ووجهي أيضاً.

«سأذهب بعد ظهر اليوم. كيف عرفت؟»

«لا تثبتين إبراً في رأسك إلا إذا كنت ستذهبين إلى المحكمة.»

فقلت: «إنها دبائيس شعر لأيّ أحاول أن أبدو امرأة مهنّية.»

«تبدين مثيرة أكثر ممّا تبدين امرأة مهنّية.»

ضحكتُ، وقلت: «أرجو ألا ينتاب موكلي هذا الشعور،» وأمسكت خصلة شعر فالتة، وأسندت رديّ إلى المغسلة، «أفكر في أن أطلب إلى هاري أن يسند إليّ قضية جنائيّة.»

«فكرة عظيمة»، قال ميكا بشيء من السخرية، «أقصد، بما أنّه توجد لديك الآن خمسمئة قضية مفتوحة، يجب أن تأخذي قضية تتطلّب مزيداً من الوقت والطاقة.»

هذا صحيح. بما أنّني محامية عامّة فهذا يعني أنّ لديّ نحو عشرة أضعاف عدد القضايا التي توصي بها جمعية المحامين الأمريكيّة، وأنّ لديّ في المتوسط أقلّ من ساعة لأحصّر كلّ قضية تحال إلى المحكمة، وفي معظم الأوقات التي أعمل فيها، لا أتمكّن من تناول طعام الغداء، أو يتاح لي وقت لأذهب إلى دورة المياه.

«إذا كان ذلك يجعلك تشعرين بأنك في حال فضلى، فقد لا يسندها إليك.»

دقّ ميكا موسى حلاقته على خرف المغسلة. في بداية زواجنا، كنت أهدق إلى الشعرات الصغيرة جداً التي تجفّ في حوض المغسلة بدهشة، وكنت أظنّ

أنني أستطيع أن أقرأ فيها مستقبلاً كما تقرأ أوراق الشاي، ثم سألني: «هل لهذا الطموح المفاجئ علاقة بسؤالك عن دخول السجن؟»

«ربما؟»

«حسناً، أفضل أن تأخذي قضيتك بدلاً من أن تنضمي إليه وراء القضبان.»

«قضيتها»، صححت له، «روث جيفرسون. تلك الممرضة. قضتها لا تفارقني.»

حتى لو كان موكلتي قد ارتكب عملاً غير قانوني، فقد أتعاطف معه. يمكنني أن أقرّ بأنه اختار خياراً سيئاً، لكنني لا أزال أؤمن بالعدالة، ما دام جميع الناس يتمتعون بفرص متساوية للحصول على العدالة - وهذا ما يجعلني أفعل ما أفعله.

أمّا فيما يتعلّق بروث، فثمّة شيء غير مفهوم تماماً في قضيتها. لمّا اندفعت فيوليت فجأة إلى الحمام، شدّ ميكا المنشفة حول خصره، وعقدتُ رداً، وقالت: «ماما، بابا، أصبحت اليوم أشبه ميني.»

كانت تحمل بيدها لعبة ميني ماوس المحشوة، وقد ارتدت تنورة منقطة، وانتعلت حذاء رياضياً أصفر، ولبست قميص بكيني أحمر، ووضعت في كفيها قفازين أبيضين طويلين أخذتهما من سلّة الثياب. نظرت إليها، وتساءلت كيف يمكنني أن أشرح لها أنها لا تستطيع أن ترتدي بكيني إلى المدرسة.

«ميني امرأة ساقطة»، قال ميكا، «أقصد مرّت سبعون سنة. يجب أن تضع ميني خاتماً في إصبعها.»

«ماذا تعني امرأة ساقطة؟» سألت فيوليت.

قبّلت ميكا، وقلت له مازحة: «سأقتلك.»

فأجابني: «آه، إذًا، لهذا السبب ستذهبن إلى السجن.»

في المكتب يوجد جهاز تلفاز - شاشته صغيرة محشورة بين آلة القهوة وفتّاحة
علب. إنّه ضرورة مهنيّة لمشاهدة التغطيات الصحفيّة التي تجري أحياناً لبعض
موكّلينا. وفي الصباح، قبل أن تعقد المحكمة جلساتها، يوضع على برنامج (صباح الخير
يا أميركا). كان إد مهووساً بالثياب التي ترتديها المذيعة لارا سبنسر، أمّا أنا فأرى في
جورج ستيفانوبولوس التوازن المثاليّ بين المراسل الدقيق والأناقة. نجلس ونشاهد
جولة من استطلاعات الرأي الافتراضيّة بين مرشّحي الرئاسة، في حين يعدّ هوارد قهوة
طازجة، ويحكي لنا إد عن سهرة العشاء مع أصهاره. لا تزال حماته تناديه باسم زوجته
السابقة، مع أنّه مضى على زواجهما تسع سنوات. «إدّاً هذه المرة»، قال إد، «سألّني
عن كميّة ورق التواليت التي أستخدمها».

«ماذا قلت لها؟»

فأجاب: «ما يكفي فقط».

«لماذا تريد أن تعرف؟»

فأجاب إد: «قالت إنّهم يحاولون التقليل من استخدامها لأنّهم من ذوي الدخل
المحدود. دعيني أعلمك أنّهم يذهبون إلى فوكسود ثلاث مرات في نهاية عطلة
الأسبوع في الشهر، والآن يجب أن نقن استخدام ورق التواليت؟»
«هذا هراء»، قلت مبتسمة، «هل رأيت ماذا فعلت هناك؟»

كان روبين روبرتس يُجري مقابلة مع رجل مهيب في منتصف العمر، أحمر الشعر،
فُبلت قصيدته في مجموعة مختارات أدبية رفيعة - لكن بعد أن قدّمها باسم ياباني
مستعار، قال الرجل: «رُفضت 35 مرة، لذلك أظنّ أنّهم ربّما ينتبهون إليّ أكثر لو كان
اسمي أكثر...»

«ممتلئاً بالألوان؟» قال روبرتس.

نخر إِد، وقال: «يوم بطيء بالأخبار».

خلفي، سقطت ملعقة من يد هوارد، فأطلقت رنيناً في حوض المغسلة. «لماذا يُعدُّ ذلك شيئاً؟» سأَل إد.

فقلت: «لأنها كذبة. إنَّه يعمل في شركة تأمين، وقد اختار ثقافة شخص آخر ليحصل على خمس عشرة دقيقة من الشهرة».

«إذا كان ذلك كلُّ ما يتطلبه الأمر، ألا تُنشر مئات قصائد الشعراء اليابانيين كلِّ سنة؟ من الواضح أنَّ ما كتبه جيّد. كيف تصادف أنَّ أحداً لم يتحدَّث عن ذلك؟»

دخل هاري بلات، مديري، غرفة الاستراحة فجأة، معطفه يتطاير مثل إعصار حول ساقيه، وقال: «أكره المطر كثيراً. لماذا لم أنتقل إلى أريزونا؟» بهذه التحيّة، تناول كوباً من القهوة وعاد إلى مكتبه.

تبعته، وطرقت على باب مكتبه المغلق بهدوء.

لَمَّا دخلت، كان هاري لا يزال يعلِّق معطفه المبلَّل، قال: «ماذا؟»

«هل تتذكَّر تلك القضية التي دافعت فيها عن روث جيفرسون جيفرسون؟»

«دعارة؟»

«لا، إنَّها الممرضة من مستشفى «الرحمة - ويست هافن. هل يمكنني أن آخذ

القضية؟»

استقرَّ وراء طاولة مكتبه، وقال: «حسناً. الطفل الميت».

عندما لم يقل شيئاً آخر، تلعثمتُ لأملأ الفراغ، وقلت: «إنِّي أمارس المحاماة منذ خمس سنوات تقريباً، وأشعر بأنني تعلّقت بهذه القضية. أودُّ أن تتاح لي فرصة الدفاع عنها».

فقال هاري: «لكنها جريمة قتل!».

«أعرف. لكنني أظن أنني المحامية العامّة المناسبة لهذه القضية»، ثمّ أضفت بابتسامة، «وسوف تكلفني بقضية جنائية، عاجلاً أم آجلاً، لذلك أقترح عليك عاجلاً». همهم هاري. أي شيء أفضل من كلمة لا. ثمّ قال: «حسناً، سيكون من الجيد أن يكون هناك محام آخر في القضايا الكبيرة. لكن، بما أنك مبتدئة، فسيقدّم لك إيد المساعدة».

لم أكن أمانع حتّى لو جلس معي في المحكمة إنسان نياندرتال.
آه، انتظر.

قلت لهاري: «يمكنني أن أفعل ذلك وحدي». لم أدرك أنني كنت حابسة أنفاسي إلا عندما هزّ رأسه أخيراً.

* * *

أحصيت عدد الساعات والمحاكمات التي يجب أن أحضرها قبل أن أذهب إلى سجن النساء بسيّارتي. لمّا كنت أتوقّف في أثناء زحمة السير، أفكّر كيف سأبدأ الحديث مع روث كي تثق بي كمحامية أَدافع عنها. قد لا أكون قد دافعت عن أحد في جريمة قتل قبل الآن، لكنني شاركت في عشرات المحاكمات المتعلقة بالمخدرات والاعتداء ومحاكمات أمام هيئة محلفين محليّة. «هذه ليست أول محاكمة لي»، قلت بصوت عالٍ وأنا أنظر في المرأة الخلفية.
«إنّه لشرف لي أن أمثلك».

لا سيبدو ذلك كما لو كان لقاءً دعائياً لميريل ستريب. أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «مرحباً. اسمي كينيدي».

بعد عشر دقائق، ركنت سيّارتي، وارتديت عباءة الثقة الزائفة، ودخلت المبنى. رمقني الشرطيّ ذو البطن الذي جعله يبدو حاملاً في شهره العاشر، وراح يتفحّصني، ثمّ قال: «انتهت مواعيد الزيارات».

قلت له: «جئت لأرى موگلتني. روث جيفرسون؟»
دقق الشرطي في جهاز الكمبيوتر، وقال: «حسناً، لم يحالفك الحظ».
«عفواً؟»

فقال: «أطلق سراحها منذ يومين».

اشتعل خدائي لهيباً. لا يمكنني أن أتخيل كم بدوت غيبية لأنني لم أعرف ذلك عن موگلتني، ثم قلت: «نعم! طبعاً»، متظاهرة بأنني أعرف ذلك، وأنني سألته لأختبره. ظللت أسمع صوت ضحكته، وهو يغلق بؤابة السجن خلفي.

بعد بضعة أيام من إرسال رسالة رسمية إلى منزل روث - العنوان الذي حصلت عليه من طلب الكفالة - جاءت إلى المكتب. كنت في طريقي إلى آلة الفوتوكوبي عندما فُتح الباب ودخلت، متوترة ومترددة، كما لو أن هذا المكان لا يمكن أن يكون المكان المناسب، بأكداس الصناديق والأوراق تلك، كان المكان يبدو مثل متجر سيُفتح أو سيغلق أبوابه قريباً، أكثر من كونه مكتباً قانونياً.

«روث! أهلاً بك»، قلت لها ومددت يدي، «أنا كينيدي ماكوري».

«أندزكر».

كانت أطول مني قامة، تقف باستقامة رائعة. قلت في نفسي إن أمي ستعجب بها كثيراً.

«لقد تسلّمت رسالتي»، قلت لها الشيء البديهي، «أنا سعيدة بوجودك هنا لأن لدينا أشياء كثيرة يجب أن نتحدّث عنها». نظرتُ حولي، وتساءلت أين يمكنني أن أذهب لتجلس. فمقصوري تكاد تتسع لي، وغرفة الاستراحة ليست مكاناً رسمياً. وهناك مكتب هاري، لكنه موجود الآن فيه. يستخدم (إد) عادة غرفة الاجتماعات الوحيدة لأخذ إفادات الموكلين. «هل تريد أن نأكل شيئاً؟ يوجد مطعم بانيرا عند ناصية الشارع. هل تأكلين؟...»

«طعاماً؟» أنهت الجملة، «نعم».

دفعْتُ عنها ثمن الحساء والسلطة، واخترت مقصورة في الجزء الخلفي من المطعم. تحدّثنا عن المطر، وعن مدى حاجتنا إليه، ومتى يمكن أن يتغيّر الطقس. «أرجوك»، قلت لها في إيماءة إلى طعامها، «تفضّلي».

أخذت سندويشتي وبدأت أفضمها عندما حنت روث رأسها وقالت: «إلهي! نشكرك على طعامنا، إذ تغذي أجسادنا لأجل المسيح».

كان فمي لا يزال ممتلئاً عندما قلت آمين.

«إذاً، فأنتِ ترتادين الكنيسة؟»، أضفت، بعد أن ابتلعت اللقمة.

رفعت روث عينيها ونظرت إليّ وقالت: «هل هذه مشكلة؟»

«لا أبداً. في الواقع، من الجيّد أن أعرف ذلك، لأنّه شيء قد يساعد المحلّفين، مثلك».

للمرّة الأولى، نظرتُ إلى روث بإمعان. إذ لَمَّا رأيتها آخر مرة، كان شعرها ملفوفاً، وهي في ثوب النوم. أما الآن، فهي ترتدي ثياباً محتشمة، بلوزة مخطّطة، وتنورة زرقاء فاتحة، وتنتعل حذاء مسطّحاً لامعاً. شعرها منسدل، مشدود في عقدة عند قاعدة رقبتها، بشرتها أفتح مما أتذكّر، بلون القهوة بالحليب تقريباً التي كانت أُمي تسمح لي بأن أشربها عندما كنت صغيرة.

يظهر التوتر في أشكال مختلفة لدى الأشخاص المختلفين. فأنا أصبح ثرثرة، ويستغرق ميكا في التفكير ويبدو جدياً، وتزداد أُمي غطرسة. أمّا روث فيبدو أنها تصبح متوترة ومتشجّة، وهو شيء آخر أسجّله، لأنّ المحلّفين الذين يرون ذلك قد يسيئون تفسيره، ويرون أنّه غضب أو غطرسة.

«أعرف أنّ الأمر صعب»، قلت لها بصوت منخفض كي لا يسمعا أحد، «لكنني أريد أن تكوني صادقة معي مئة في المئة. مع أنّي غريبة. أقصد، أمل ألا أكون غريبة لفترة طويلة. لكن من المهمّ أن تدريكي أن لا شيء تقولينه لي يمكن أن يُستخدم ضدّك. فهذا امتياز يتمتّع به الموكل».

وضعت روث شوكتها بحذر وهزّت رأسها، وقالت: «حسناً».

أخرجتُ دفترًا صغيراً من حقيبتي، وقلت: «حسناً، أولاً، هل تفضّلين استخدام عبارة سوداء أو أمريكية من أصل أفريقيّ أو من أصحاب البشرة الملوّنة؟»

حدّقت روث إليّ، وقالت بعد لحظة: «من أصحاب البشرة الملوّنة».

دوّنت ذلك في دفترتي، ووضعت تحتها خط، ثمّ قلت: «أريد فقط أن تشعري بالراحة. بصراحة، حتّى إنّني لا أرى لونا. أقصد أنّ العرق الوحيد المهمّ هو الإنسان نفسه، أليس كذلك؟»

زمت شفيتها بقوة.

تنحنثُ لأكسر عقدة الصمت، ثمّ سألتها: «ذكريني مرّة أخرى في أيّ جامعة درست؟»

«جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ، ثمّ في كلية التمريض في جامعة ييل».

«شيء رائع»، تمتمتُ ودوّنت ذلك.

قالت: «سيّدة ماكواري».

«كينيدي».

«كينيدي... لا يمكنني أن أعود إلى السجن»، قالت روث وهي تنظر في عينيّ، وللحظة، استطعت أن أرى ما الذي يدور في قلبها. «لديّ ابني، ولا يوجد أحد يمكن أن يربّيه ليصبح الرجل الذي أعرف أنّه سيكون».

«أعرف. اسمعي، سأبدل كلّ ما في وسعي. لديّ خبرة كبيرة في التعامل مع القضايا التي تتعلق بأشخاص مثلك».

ذلك القناع جمّد قسمات وجهها مرّة أخرى، وقالت: «أشخاص مثلي؟»

فشرحت لها: «أشخاص متّهمين بجرائم خطيرة».

«لكنّي لم أفعل شيئاً».

«أصدِّقك. لكن علينا أن نقع هيئة المحلفين. لذلك، يجب أن نعود إلى الأساسيات لنعرف سبب توجيه التهمة إليك».

فقال روث بهدوء: «أظنُّ أنّ هذا أمر في غاية الوضوح. إذ لم يشأ والد ذلك الطفل أن أقترّب من ابنه».

لَمَّا قلت لها: «ذلك العنصريّ الأبيض؟ لا علاقة له بقضيتك»، رَفَّت روث بعينيها، وقالت: «لا أفهم كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً».

«ليس هو من اتهمك».

نظرت إليّ كما لو أنني فقدت عقلي، «لكنني أنا الممرضة الوحيدة الملوّنة في جناح الولادة».

«بالنسبة إلى الولاية، لا يهمّ إن كنت سوداء أم بيضاء أم زرقاء أم خضراء. بالنسبة إليهم، كان لديك واجب قانوني لرعاية طفل تحت مسؤوليتك. فقط لأنّ المشرفة عليك قالت لا تلمسي الطفل لا يعني أنّك تحصلين على تصريح مفتوح بأن تقفي هناك ولا تفعلي شيئاً». انحنيتُ إلى الأمام، «حتّى إنّهُ لا يتعيّن على الولاية أن تحدّد درجة جريمة القتل. يمكنهم مناقشة نظريّات عدّة - نظريّات متناقضة. إنّها أشبه باصطياد سمكة في دلو - فإذا تمكّنوا من الإمساك بواحدة منها، فإنّك تقعين في ورطة. وإذا استطاعت الولاية أن تثبت وجود ضرر ضمنيّ متعمّد لأنك كنت غاضبة جداً بسبب منعك من رعاية الطفل، وألححتِ إليّ أنه كانت لديك رغبة في أن يموت، تستطيع هيئة المحلفين أن تدينك بتهمته القتل. حتّى لو قلنا لهيئة المحلفين إنّ ذلك حدث بمصادفة محضة، فإنك ستعترفين بأنك ارتكبت خرقاً في أثناء تأدية واجبك في الرعاية، وإهمالاً جنائياً مع تجاهل طائش ومتعسف لسلامة الطفل - فإنك تقدّمين لهم في الأساس جريمة قتل بسبب الإهمال على طبق من فُصّة. وفي أيّ من هاتين الحالتين، ستدخلين السجن. وفي أيّ من هاتين الحالتين، لا يهمّ لون بشرتك».

أخذت نفساً عميقاً، وقالت: «هل تعتقدين حقاً أنني لو كنت بيضاء، لكنت جالسة معك هنا الآن؟»

لا يمكنك أن تنظري إلى قضية توجد في جوهرها ممرضة، الممرضة الوحيدة الملونة في القسم، وأب أبيض عنصري، وقرار متسرع اتخذه مسؤول في المستشفى... ولا نفترض أن العرق يشكّل عاملاً أساسياً.

لكن.

إنَّ أيَّ محامٍ عامٍ يقول لك إنَّ العدالة عمياء هو يكذب عليك كذبة كبيرة. شاهدي التغطيات الإخبارية للمحاكمات التي تنطوي على دلالات عنصريّة، والشيء الذي سيربز بعمق، الطريقة التي يبذل فيها المحامون والقضاة والمحلفون جهودهم ليقولوا إنه لا توجد علاقة لذلك بالعرق، على الرغم من وضوح ذلك. فإنَّ أيَّ محامٍ عامٍ سيقول لك أيضاً إنَّ مع معظم موكلينا يوجد أشخاص ملونون، ولا يمكنك أن تلعب ورقة العرق في أثناء المحاكمة.

إنَّ إثارة مسألة العرق في المحكمة انتحار مؤكد. إنك لا تعرفين كيف تفكّر هيئة المحلفين في قضيتك، ولا يمكنك أن تكوني متأكدة بماذا يفكّر القاضي. في واقع الأمر، فإنَّ أسهل طريقة لخسارة قضية ذات دوافع عنصرية في جوهرها هي أن نسميها كما هي، وإثبات تجديد لهيئة المحلفين سبباً. خيط إثبات يمكن أن يبرئ موكلك، ويسمح لهؤلاء الاثني عشر رجلاً وامرأة أن يعودوا إلى بيوتهم وهم يتظاهرون بأنَّ العالم الذي نعيش فيه عالم تسوده المساواة.

«لا»، قلت لها، «أظنُّ أنَّ إثارة هذه المسألة في المحكمة أمر محفوف بالمخاطر»، وانحنيت نحوها وأضفت، «إني لا أقول إنك لم تتعرّضي للتمييز يا روث، وإثبات أقول إنَّ هذا ليس الوقت أو المكان المناسبين للتحدُّث عن ذلك».

«إذاً متى؟» سألتني بصوت أجش، «إذا لم يتحدّث أحد عن العرق في المحكمة، فكيف سيتغيّر أيّ شيء؟»

لا يوجد لديّ جواب عن ذلك. عجالات نظام العدالة بطيئة. لكن لحسن الحظ، يوجد قدر قليل من الزيت في آلة العدالة الشخصية التي تلقي نقوداً على الضحايا لتزيل عنهم شيئاً من المعاملة المهينة التي تعرّضوا لها. «ترفعين دعوى مدنية. لا يمكنني أن أفعل ذلك بالنيابة عنك، لكن يمكنني أن أجد لك محامياً يعمل في مجال التمييز في التوظيف والعمل».

«لكن، لا يمكنني أن أتحمّل تكاليف محام...»

«سيأخذون قضيتك على أنّها قضية طوارئ، وستتقاضون ثلث المبلغ الذي يمكن أن تربحيه»، شرحت لها، «لأكون صادقة معك، أظن أنك ستتمكنين من الحصول على تعويضات عن الراتب الذي خسرت، بالإضافة إلى تعويضات عقابية عن القرار الغبي الذي اتخذه المسؤول في عملك».

فغرت فمها، وقالت: «تقصدين أنّ من الممكن أن أحصل على مبلغ من المال؟»
فقلت لها: «لن أفاجأ أن يكون المبلغ بضعة ملايين». عقدت الدهشة لسان جيفرسون.

«أمامك مئة وثمانون يوماً لتقديم شكوى إلى لجنة تكافؤ فرص العمل».

«ثمّ ماذا؟»

«تدرس اللجنة الشكوى ريثما تنتهي المحاكمة الجنائية».

«لمذا؟»

قلت لها بصراحة: «لأنّ إصدار حكم بالإدانة ضدّ المدّعى عليها أمر مهمّ، لأنّه سيغيّر الطريقة التي سيعدّ فيها محاميك المدنيّ الشكوى

نيابة عنك. وإذا ما انتهت القضية فإنَّ ذلك يعدُّ إدانة، وسيلحق ضرراً بقضيتك المدنية».

قلَّبت روث الأمر في رأسها، وقالت: «لهذا السبب لا تريدان أن تتحدَّثي عن التمييز خلال هذه المحاكمة»، وأضافت روث، «عندها لن يصدر حكم الإدانة»، وثنت يديها ووضعتهما في حجرها، وصمتت. هزَّت رأسها، ثمَّ أغمضت عينيها.

«لقد مُنعتِ من أداء عملك»، قلت لها بهدوء، «لا تمنعيني من أداء عملي».

أخذت روث نفساً عميقاً وفتحت عينيها، والتقت عيناها عيني، وقالت: «حسناً، ماذا تريدان أن تعرفي؟»

روث

في صباح اليوم الذي أعقب خروجي من السجن، استيقظت ورحت أحدق إلى الشق القديم، الصدع الذي في السقف، الذي كنت أنوي دائماً أن أصلحه ولم أفعل ذلك قط. أحسست بقضيب ناتئ يبرز من الأريكة ويخز ظهري. أغمضت عيني ورحت أنصت إلى التناغم اللطيف لصوت شاحنات القمامة التي تمر في شارعنا.

مرتدية رداء النوم (رداء جديد. سأترع بالقديم الذي ارتديته في المحكمة إلى الجمعية الخيرية في أول فرصة تسنح لي) بدأت أعدُّ كوباً من القهوة، واتجهت إلى غرفة نوم إديسون. كان ابني نائماً كالموتى، حتى عندما أدت مقبض الباب ودخلت الغرفة وجلست على حافة السرير، لم يُبدِ أيَّ حركة.

لَمَّا كان إديسون صغيراً، كنت أراقبه أنا وزوجي عندما يكون نائماً. كان زوجي، ويسلي، يضع أحياناً يده على ظهر إديسون ويراقب صعود وهبوط رثتيه. إنَّ علم تكوين إنسان آخر شيء عظيم، ومهما كانت المرات التي تعلّمت فيها عن الخلايا والانقسام والأنابيب العصبية والأشياء الأخرى التي تتعلق بتكوين طفل، لا يسعني إلا أن أقول إنَّ هناك قدراً من المعجزة فيها أيضاً.

قرر إديسون بعمق في صدره وفرك عينيه، وقال: «ماما؟» قال وانتصب جالساً. استيقظ على الفور، وسألني، «ماذا في الأمر؟»

فقلت له: «لا شيء. كلُّ شيء على ما يرام في العالم.»

أطلق زفرة ونظر إلى ساعته، وقال: «يجب أن أستعدَّ للذهاب إلى المدرسة.»

من الحديث الذي دار بيننا في السيارة عندما كنا عائدتين إلى البيت الليلة الماضية، عرفت أن أديسون لم يذهب إلى المدرسة البارحة ليتمكّن من إرسال الكفالة لإخراجي من السجن، وربما أصبح يعرف أموراً تتعلّق بالرهن العقاري والعقارات أكثر ممّا أعرفه. قلت له: «سأتصل بسكرتيرة المدرسة لتسويغ غيابك البارحة».

لكنّنا نعرف كلانا أنّ هناك فرقاً بين أن أقول «أرجو أن تعذري إديسون لغيابه البارحة لأنّه كان يعاني من اضطراب في معدته» وبين «أرجو أن تعذري إديسون لغيابه لأنّه كان يعمل على إخراج أمه من السجن بكفالة». هزّ إديسون رأسه، وقال: «لا داعي لذلك. سأكلّم أسانديتي».

لم تلتق عيناه عينيّ، وأحسست بوجود شرخ يفصل بيننا.
«شكراً لك مرّة أخرى»، قلت بصوت خفيض.

فدمدم قائلاً: «لا يتعيّن عليك أن تشكريني يا ماما».

«لا، يجب أن أشكرك». لصدمتي، أدركت أنّ كلّ الدموع التي حبستها طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية، تجمّعت فجأةً في عينيّ.
«هيه»، قال إديسون وضمّني إليه.

«أنا أسفة»، دمدمت على كتفه، «لا أعرف لماذا بدأت أنهار الآن».

«كلّ شيء سيكون على ما يرام».

شعرت بها مرّة أخرى، حركة الأرض تميد تحت قدميّ، عودة ارتكاز عظامي فوق روعي. ثمّ أدركت أنّه للمرة الأولى في حياتينا، كان إديسون هو الذي يواسيني، بدلاً من أن أواسيه أنا.

كنت أتساءل دائماً إن كانت الأمّ تستطيع أن ترى التحوّل الذي يطرأ على ابنها عندما يصبح بالغاً. تساءلت إن كان بالإمكان معرفة ذلك سريرياً، كما في فترة بداية مرحلة البلوغ، أو عاطفياً مثل أول مرّة تحطّم فيها قلبه، أو مؤقتاً مثل اللحظة التي قال فيها إنّي أفعل. كنت أتساءل

هل الكتلة الحرجة للخبرات الحياتية - التخرُّج، أول وظيفة، أول مولود - هي التي رجحت الميزان، أو إذا كان ذلك الشيء الذي تلاحظه على الفور عندما تراه في المرأة مثل بقعة نبيذ ظهرت فجأة على قميصك، أو أنها تسَلَّت إليه ببطء، مثل التقدُّم في العمر.

أدركت الآن أنَّ سنَّ البلوغ خطُّ مرسوم في الرمال، ففي مرحلة ما، ستجد ابنك واقفاً على الجانب الآخر.

استغرقتُ وقتاً طويلاً لأختار الثوب الذي يجب أن أرتديه لأذهب إلى مكتب الحمامية، فمنذ خمس وعشرين سنة، أرتدي ثياب المستشفى، وأحتفظ بثيابي الأنيقة للذهاب إلى الكنيسة. لكن لا أظنُّ أنَّ الفستان المزهر بياقة الدانتيل والحذاء ذا الكعب الواطئ ملائمان لاجتماع عمل. ارتديت أخيراً التنورة الزرقاء الغامقة التي أرتديها عادة إلى اجتماع الآباء والأساتذة في مدرسة إديسون، وبلوزة مخططة كانت قد اشترتها لي أمي بمناسبة عيد الميلاد، وانتعلت حذاء مسطحاً مناسباً.

لَمَّا وصلت إلى العنوان المدوَّن في الرسالة، قلت في نفسي لا بدَّ أنني جئت إلى المكان الخطأ، فلا يوجد أحد عند مكتب الاستقبال - بل لا يوجد مكتب استقبال أصلاً، وتوجد مقصورات وأبراج من الصناديق تشكّل متاهة كما لو أنَّ الموظفين فئران، وأنَّ هذا المكان جزء من تجربة علمية كبيرة. خطوط بضع خطوات إلى الداخل، وسمعت فجأة أحداً ينادي اسمي.

«روث! مرحباً! أنا كينيدي ماكواري».

كيف يمكنني أن أنساها. أومأت برأسي وصافحتها عندما مدَّت لي يدها. لم أفهم تماماً لماذا أصبحت محاميّتي.

بدأت تتكلَّم بسرعة حتَّى إنَّني لم أفهم كلمة كاملة قالتها، ربَّما لأنني كنت متوترة مثل الجميع، فأنا لا أملك نقوداً كافية لتوكيل محام خاص، إلا إذا أنفقت كلَّ ما وقرته لأجل دراسة إديسون، لكنني مستعدة لأن أمضي

حياتي كلها في السجن ولا أسمح بأن يحدث ذلك. حتّى لو تمكّن جميع الناس من توكيل محامٍ في هذا البلد فإنّ هذا لا يعني أنّ المحامين جميعاً سواسية. ففي المسلسلات المتلفزة، يحصل الأشخاص الذين يوكلون محامين خاصين على البراءة، ويُدعى الذين تعيّن لهم الولاية محامين بأنه لا يوجد فرق.

اقترحت السيّدّة ماكوري أن نخرج من المكتب ونتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة، مع أنّه لم يكن في وسعي أن أتناول شيئاً لأنني كنت قلقة إلى درجة كبيرة. لمّا تناولنا الطعام، بدأت أخرج محفظتي لكنّها أصرت على أن تدفع عني ثمن الوجبة. في البداية انزعجت قليلاً - فمنذ أن كنت صغيرة، وبدأت أرثدي الثياب التي تتخلّى عنها كريستينا، لم أعد أرغب في أن يتصدّق عليّ أحد. لكن، قبل أن أتذمّر، تريئنت قليلاً. فماذا لو كان هذا ما فعله مع جميع موكلّيها لتقيم معهم علاقة وديّة؟ ماذا لو أنّها تحاول أن تجعلني أشعر بالارتياح تجاهها بقدر ما أحاول أن تشعر بذلك تجاهي؟

لمّا جلسنا أمام أطباق الطعام، بدأت أصلي صلاة المائدة، بدافع العادة. كانت كورين الملحده تمزح دائماً وتقول عندما تسمعني أصلي أو ترايني أحني رأسي فوق الطعام: «وحش السباغيتي في السماء»، لذلك لم أدهش عندما رأيت السيّدّة ماكوري تحدّق إليّ عندما أنهيت صلاتي، وقالت: «إذاً أنتِ ترتادين الكنيسة».

قلت لها: «وهل في ذلك مشكلة؟» فربما تعرف شيئاً لا أعرفه، مثل أنّ المحلّفين قد يدينون الأشخاص الذين يؤمنون بالله.

فقلت: «لا، أبداً. في الواقع من الجيد أن أعرف ذلك لأنّه أمر قد يساعد المحلّفين، مثلك».

لمّا قالت ذلك، نظرت إلى حضني وتساءلت هل وجدنتي امرأة غير محبوبه وتريد أن تبحث عن أشياء يمكن أن تؤثّر في الناس لصالحها؟

ثمَّ قالت: «أولاً، هل تفضّلين استخدام كلمة سوداء أو أمريكية من أصل أفريقيّ أو من أصحاب البشرة الملوّنة؟»

أردت أن أقول لها إنني أفصّل روث، لكنني ابتلعت ردّي وقلت: «من أصحاب البشرة الملوّنة».

في إحدى المرّات، غضب ممرضٌ يدعى ديف في المستشفى وأخذ يصيح محتجّاً على هذه العبارة، وقال: «كما لو أنه لا لون لي»، وقد مدّ ذراعيه الشاحبتين، وأضاف، «انظروا، فأنا لست شفّافاً، أليس كذلك؟ لكنّي أظنّ أنّ الأشخاص ذوي الألوان الداكنة ليسوا كذلك»، ولمّا رأي في غرفة الاستراحة، امتقع لونه حتّى منبت شعره، وقال: «أسف يا روث، لكنك تعرفين، قلّما أحسبك سوداء البشرة».

كانت محاميتي لا تزال تتكلّم، «حتّى إنني لا أرى لونا»، قالت، «أقصد، العِرق الوحيد الذي يهّم هو الإنسان، أليس كذلك؟»

من السهل تصديق أننا جميعاً في هذا معاً عندما لا تكون الشخص الذي جرّته الشرطة من بيتك. لكن، أعرف أنّه عندما يقول أشخاص بيض أشياء من هذا القبيل، فإنّهم يقولون ذلك لأنّهم يعتقدون أنّه الشيء الصحيح الذي يجب أن يقولوه، لأنّهم يدركون كيف يمكن أن يبدو ذلك عفويّاً. قبل سنتين، غضبت أديسا عندما انتشرت في تويتر عبارة «حياة الجميع مهمّة» كردّ فعل على النشطاء الذين كانوا يحملون لافتات تقول: «حياة السود مهمّة». قالت لي أديسا: «إنّ ما يقولونه حقاً هو أنّ حياة البيض تهمّ، ومن الأفضل أن يتذكّر ذلك السود قبل أن ندافع عن مصالحنا».

سعلت السيدة ماكواري سعلة خفيفة، وأدركت أنّني شردت في تفكيري، فأرغمت نفسي على أن أنظر إلى وجهها. ابتسمت قليلاً وسألتنني: «ذكريني مرّة أخرى في أيّ جامعة درست؟»

شعرت بأنها تختبرني، فقلت لها: «جامعة بلاتسبيرغ التابعة لولاية نيويورك، ثمّ في كلية التمريض في جامعة ييل».

«رائع».

ما الرائع؟ أنني خريجة جامعيّة؟ أم لأنني درستُ في جامعة ييل؟ هل هذا ما سيتعرّض له إديسون طوال حياته أيضاً؟

إديسون.

قلت: «السيدة ماكواري»، ثمّ استدركت، «كينيدي».

«كينيدي»، تستقرّ الألفة على نحو غير مريح على لساني، «لا يمكنني أن أعود إلى السجن». تذكّرت إديسون عندما انتعل حذاء أبيه حين كان طفلاً وسار فيه. سيمضي إديسون عمره كله ليرى أنّ السحر الذي كان يؤمن به عندما كان طفلاً سيُمحى، في مواجهة بعد الأخرى. لا أريد أن يتعرّض لذلك في وقت قريب، «لديّ ابني، ولا يوجد أحد يمكن أن يربيّه ليصبح الرجل الذي أرغب في أن يكون».

مالت السيّدّة ماكواري - كينيدي - إلى الأمام، وقالت: «سأبذل كلّ ما في وسعي. لديّ خبرة كبيرة في التعامل في قضايا مثل أشخاص مثلك».

وسم آخر. «أشخاص مثلي؟»

«أشخاص انّهموا بجرائم خطيرة».

على الفور، أخذت موقفاً دفاعياً، وقلت: «لكنني لم أفعل شيئاً».

«إني أصدّقك. لكن، يجب أن نقنع هيئة المحلفين بذلك. لذا، يجب أن نعود إلى الأساسيات لنعرف سبب اتهامك».

أمعنت فيها النظر، محاولة أن أمنحها فائدة الشكّ. إنّها القضية الوحيدة الثابتة في جهاز راداري، لكن ربّما لديها مئات. ربّما نسيت حليق الرأس ذا الوشم الذي بصق في وجهي في قاعة المحكمة. «أظنّ أنّ الأمر في غاية الوضوح. لم يشأ والد ذلك الطفل أن اقترب من ابنه».

«ذلك العنصريّ الأبيض؟ لا علاقة له بقضيّتك».

لوهلة، انعقد لساني، ولم أفه بكلمة واحدة؛ فقد مُنعت من رعاية المريض بسبب لون بشرتي، ثمّ عوقبت لأنني نفّذت تلك التعليمات عندما دخل الطفل المريض في مرحلة الخطر. بحقّ السماء، كيف يمكن ألا يكون الأمران مترابطين؟
«لكنّني كنت الممرّضة الوحيدة المملّونة في جناح الولادة».

«لا يهّمّ الولاية إن كنت سوداء أم بيضاء أم زرقاء أم خضراء. بالنسبة إليها، كان لديك واجب قانونيّ لرعاية الطفل الذي تقومين على رعايته». وبدأت تعدّد السبل التي يمكن أن تدينني فيها هيئة المحلّفين، كلّ إدانة مثل لينة ترصف في مكانها المناسب إلى أن أقع في فخّ تلك الحفرة. عندها أدركت أنني ارتكبت خطأ جسيماً: فقد ظننت أنّ العدالة منصفة حقاً، وأنّ المحلّفين سيفترضون براءتي حتّى تثبت إدانتني، لكنّ التحيز نقيض ذلك تماماً؛ فالحكم موجود قبل وجود الدليل.
لا توجد لديّ فرصة.

قلت لها بهدوء: «هل تظنين حقاً أنني لو كنت بيضاء لرأيتني جالسة معك هنا الآن؟»

هزّت رأسها، وقالت: «لا. أظنّ أنّ إثارة هذه المسألة في المحكمة أمر محفوف بالمخاطر».

إذاً، يفترض أن نربح القضية إذا ادّعينا أنّ سبب حدوثها غير موجود؟ هذا خداع. مثل القول بأنّ مريضاً مات لأنه أصيب بالداحس من دون ذكر أنّه مصاب بداء السكري من النوع الأول.

قلت: «إذا لم يتحدّث أحد عن العرق في المحكمة، فكيف يُفترض أن يتغيّر أيّ شيء؟»

ثنت يديها على الطاولة بينما، وقالت: «ترفعين دعوى مدنيّة. لا يمكنني أن أفعل ذلك بالنيابة عنك، لكن يمكنني أن أجد لك محامياً مختصاً في مجال التمييز في التوظيف والعمل»، وشرحت ما الذي يعنيه ذلك قانونياً بالنسبة إليّ.

كانت الأضرار التي ذكرتها أكثر ممّا كنت أتخيّله في أكثر أحلامي جموحاً.

لكن، هناك شيء آخر، فالدعوى التي قد تكلفني هذا المبلغ قد تساعدني في توكيل محام خاصّ قد يكون مستعداً للإقرار بأنّ العنصرية هي التي جعلتني أقف في المحكمة في المقام الأول، ولا يمكن رفع تلك الدعوى إلّا بعد انتهاء هذه الدعوى. بعبارة أخرى، إذا ثبت أنّي مذنبّة الآن، فقد أقول وداعاً للمبلغ الذي وفرته لأجل المستقبل.

فجأة، أدركت أنّ عدم رغبة كينيدي في إثارة مسألة العرق في المحكمة قد لا يكون نابعاً من جهل، وإمّا على العكس تماماً، لأنّها تعرف حقّاً ما يجب أن أفعله لأحصل على البراءة.

قد أكون كذلك عمياء وضائعة، وقد تكون كينيدي ماكوري الوحيدة التي لديها خريطة طريق. نظرت في عينيها، وقلت: «ما الذي تريد أن تعرفيه؟»

كينيدي

لَمَّا عدت إلى المنزل في الليلة بعد أول لقاء لي مع روث، كان ميكا لا يزال يعمل في المستشفى حتّى وقت متأخّر، وكانت أمّي تعتني بفيوليت. كانت رائحة الزعتر والعجين الطازج تعبق في أرجاء المنزل. «هل هذا يوم سعدي؟» قلت بصوت عال لأزيح عن كاهلي عبء عملي، فنهضت فيوليت من عند الطاولة التي ترسم عليها. «هل هناك بيتزا على العشاء؟»

حملت ابنتي بين ذراعيّ ويدها قلم تلوين أحمر، وقالت: «صنعت لك واحدة. احزري ما هي؟».

خرجت أمّي من المطبخ تحمل وعاء فيه كتلة عجين. «أوه، من الواضح أنّها...» نظرت في وجه أمّي التي هزّت رأسها، ومن وراء ظهر فيوليت، رفعت يديها وكشفت عن أسنانها. «ديناصور»، قلت مصحّحة، «أقصد...»

ابتسمت فيوليت ابتسامة عريضة، وقالت: «لكنّه مريض»، وأشارت إلى حَبَّات الأوريغانو المنثورة فوق الجبن، «لذلك أصيب بطفح جلديّ». «هل هو جدرى الماء؟» سألتها، وتناولت لقمة.

فقال: «لا»، «مصاب بخلل وظيفيّ يصيب الزواحف».

كدت أبصق قطعة البيتزا من فمي. وعلى الفور، وضعت فيوليت على قدميها. لَمَّا ركضت إلى الطاولة لتواصل الرسم والتلوين، رفعت حاجبيّ، وسألت أمّي بصوت خافت: «ماذا كنتما تشاهدان؟»

تعرف أمّي أنّ البرنامج الوحيد الذي نسمح لفيوليت بمشاهدته عبر التلفاز هو برنامج «افتح يا سمسم» و«ديزني الصغير»، لكن من نظرة البراءة المدروسة التي ارتسمت على وجه أمّي، عرفت أنّها تخفي عني شيئاً، وقالت: «لا شيء».

استدرتُ ورحتُ أحدّقُ إلى شاشة التلفاز البيضاء. بحدسٍ داخليّ، التقطتُ جهاز التحكّم عن بعد، الملقى على الأريكة، وشغّلته.

كان والاس ميرسي واقفاً بكلّ مجده وبهائه خارج مبنى البلدية في منهاتن بشعره الأبيض الجامح المرفوع كما لو أنّه صُقع بتيار كهربائيّ، رافعاً قبضته تضامناً مع أيّ عمل غير عادل يؤازره الآن. «إخواني وأخواني، أسألكم: متى أصبحت كلمة سوء الفهم مرادفة لإطالة أمد العنصريّة؟ إنّنا نطالب باعتذار من مفوض شرطة مدينة نيويورك عن الشعور بالعار والمشقّة اللذين تعرّض لهما هذا الرياضيّ الشهير...» وكان شعار قناة فوكس نيوز يجري تحت وجه رجل وسيم مألوف داكن البشرة.

لا نشاهد أنا وميكا عادة قناة فوكس نيوز التي تعرض بسهولة إعلانات كثيرة عن ضعف الانتصاب.

«هل سمحتَ لفيوليت بمشاهدة هذا؟»

فقالَت أمّي: «طبعاً لا. شاهدته عندما كانت نائمة.»

رفعت فيوليت رأسها من على الورقة التي تلوّنها، وقالت: «برنامج خمسة أمتار.»

حدّجت أمّي بحدّة، وقلت لها: «تشاهدين هذا البرنامج مع ابنتي التي لا يتجاوز عمرها أربع سنوات!».

رفعت يديها، وقالت: «حسناً، حسناً، نعم، أفعل ذلك أحياناً. إنّهُ برنامج إخباريّ، وليس برنامجاً إباحيّاً. بالإضافة إلى ذلك، هل سمعت عن هذا؟ إنّهُ سوء فهم بسيط، وهذا القسّ المزيفّ السخيف يعترض مرّة أخرى لأنّ الشرطة كانت تحاول أن تؤدّي واجبها.»

ثمّ نظرت إلى فيوليت، وقلت لها: «عزيزتي، لماذا لا تذهبين وتختارين البيجامة التي تريدين ارتدائها وكتابين قبل النوم؟»

ركضت فيوليت إلى الطابق العلويّ وعدتُ إلى التلفاز، وقلت لأمي: «إذا كنت ترغبين في مشاهدة والاس ميرسي، ففي الأقلّ ضعيه على قناة MSNBC.»

«لا أريد أن أشاهد والاس. في الحقيقة لا أظنُّ أنه يقدّم خدمة ممالك نادون بالدفاع عن قضيتّه.»

مالك نادون، الذي يبدو مألوفاً، هو الذي فاز ببطولة الولايات المتحدة المفتوحة منذ بضع سنوات. سألتها: «ماذا حدث؟»

«لَمَّا خرج من فندقه قبض عليه أربعة رجال شرطة.

يبدو أنّ التباساً في تحديد هويّته قد حدث.»

جلست أُمّي إلى جانبي على الأريكة، في حين اقتربت الكاميرا كثيراً لتُظهر غضب والاس ميرسي اللفظي، فبرزت عروق رقبتّه، وكان هناك وريد ينبض في صدغه. إنّ هذا الرجل ينتظر أن تحدث له نوبة قلبيةّ، «هل تعرفين؟»، قالت أُمّي، «لو لم يكن غاضباً هكذا طوال الوقت، لاستمع إليه عدد أكبر من الناس.»

لم يكن عليّ أن أسألها من.

تناولت لقمة أخرى من بيتزا الديناصور، ثمّ قلت لأُمّي: «ماذا لو فتحنا التلفاز فقط على قناة لا توجد فيها إعلانات تجارية لها آثار جانبية؟»

ثنت أُمّي ذراعيها، وقالت: «أفكر في جميع الأشخاص الذين لا تريدين أن تتعلّم ابنتك منهم يا كينيدي.»

«إنّها طفلة يا أُمّي. لا أريد أن تفكر فيوليت في أنّ رجال الشرطة قد يعتقلونها ذات يوم.»

«أرجوك. كانت فيوليت تلون. لقد مرّ كلّ ذلك تحت سمعها. الشيء الوحيد الذي علّقت عليه هو تسريحة والاس ميرسي البشعة.»

ضغطتُ بأصابعي على زوايا عينيّ، وقلت: «حسناً. إنني مرهقة. لئن هذا الحديث الآن».

أخذت أُمِّي صحنِي الفارغ ووقفت، وقد بدت منزعة، وقالت: «حاشا لي أن أرى نفسي مجرد مساعدة بأجر».

اختفت في المطبخ، وذهبت لأضع فيوليت في سريها. كانت قد اختارت كتاباً عن فأر له اسم لا تستطيع أيّ من صديقاتها أن تنطقه، و(اذهب أيّها الكلب، اذهب) العنوان الذي أكرهه أكثر من أيّ شيء آخر في مكتبتها. سعدت إلى السرير معها وقبّلتها على رأسها الذي تفوح منه رائحة فقاعات الصابون بالفراولة وشامبو جونسون، كالذي كنت أستخدمه عندما كنت طفلة. لمّا بدأت أقرأ لها بصوت عالٍ، شكرت أُمِّي في سريّ لأنّها تحمّم فيوليت وتطعمها وتحبّها مثلي، حتّى لو جعلتها تشاهد غضب والاس ميرسي المسوّغ.

في تلك اللحظة، تذكّرت روث. لا أريد أن تفكّر فيوليت في أنّ رجال الشرطة يمكن أن يقبضوا عليها ذات يوم، كما قلت لأُمِّي. لكن صدقاً، إنّ احتمالات أن تكون طفلي ضحية بسبب خطأ في تحديد الهوية أقلّ بكثير من احتمالات روث.

«ماما»، قالت فيوليت، فأدركت أنّني توقّفت عن القراءة من دون أن أشعر، وشرّد تفكيري.

«هل تحبّين قَبّعتي؟» قرأت بصوت عالٍ، «لا، لا أحبّها»

روث

قالت أديسا إنني في حاجة إلى أن أروِّح عن نفسي، ودعتني إلى مقهى صغير يقدم نوعاً خاصاً من الخبز، بكمية كبيرة حتى ينتهي بك الأمر دائماً إلى أن يصل نصفه إلى البيت. كان المقهى مزدحماً، فجلسنا أمام البار.

بدأت أمضي وقتاً أطول مع أختي، وهو أمر مريح وغريب في الوقت نفسه. قبل الآن، كنت أعمل في معظم الأوقات عندما لا أكون مع إديسون، أما الآن فقد أصبح لدي وقت فراغ طويل.

«هذا رائع، وكلّ شيء»، قالت لي أديسا، «لكن، هل فكرت كيف ستدفعين ثمن طعامك بعد ذلك؟»

فكرت في ما قالته كينيدي البارحة حول رفع دعوى قضائية مدنيّة. إنها نقود، لكنها نقود لا يمكنني أن أعول عليها حتى الآن - ربّما أبداً. قلت لها: «إنّي قلقة أكثر حول توفير الطعام لابني».

ضيّقت عينيها وسألتنني: «إلى متى يكفيك؟»

لا فائدة من الكذب عليها، قلت لها: «ثلاثة أشهر تقريباً».

«عندما تحتاجين إلى شيء، يمكنك أن تطلبي مني مساعدة، أليس كذلك؟»

لم أمالك نفسي عن أن أبتسم، وقلت لها: «حقاً؟ لقد أقرضتك مبلغاً الشهر الماضي».

ابتسمت أديسا ابتسامة عريضة، وقالت: «قلت يمكنك أن تطلبي مني مساعدة، ولم أقل إنني سأكون قادرة على أن أقدمها»، وهزّت كتفيها بلا مبالاة، ثم أضافت، «بالإضافة إلى ذلك، فإنك تعرفين أنّ هناك جواباً».

إنَّ ما تعلَّمته هذا الأسبوع هو أنني أمتلك مؤهلات تزيد عن المطلوب لجميع الوظائف الإداريَّة المبتدئة في نيو هافن، بما فيها جميع وظائف السكرتارية والاستقبال، فاقترحت أختي أن أتقدَّم بطلب للحصول على إعانة بطالة. لكنني أعدُّ ذلك احتياطاً، لأنَّه ما إن تسوَّى أموري، فإنني سأعود إلى عملي، ورأيت أنَّ الحصول على عمل بدوام جزئيٍّ بديلٍ آخر، لكنني ممرضةٌ مؤهلة، ورخصتي معلقة، فتحاشيت التحدُّث عن ذلك.

قالت أديسا: «كلُّ ما أعرفه أنَّه عندما أُلقي القبض على صديق تيانا بتهمة السرقة وقُدِّم إلى المحكمة، كان موعد المحكمة بعد ثمانية أشهر، لذلك يجب أن تنتظري خمسة أشهر أخرى. ما النصيحة التي قدَّمتها لك تلك المحامية البيضاء النحيلة؟»
«اسمها كينيدي، إنَّها تحاول أن تجد طريقة لا أذهب فيها إلى السجن، ولم نتحدَّث كيف يمكنني أن أعيِّل نفسي حتَّى تبدأ المحاكمة».

نخرت أديسا وقالت: «نعم، لأنَّ هذه التفاصيل لا تحدث لشخص مثلها».
فقلت لها: «لقد قابلتها مرَّة واحدة. إنَّك لا تعرفين عنها شيئاً».
«أعرف أنَّ الذين يصبحون محامين عامِّين يفعلون ذلك لأنَّ الأخلاق بالنسبة إليهم أهمُّ من المال، وإلاَّ فإنَّهم يفتحون مكتب محاماة ويصبح لديهم شركاء في المدينة الكبيرة. وهذا يعني أنَّه يوجد لدى السيدة كينيدي صندوق ائتمان أو لها أب غني».
«لقد أخرجتني بكفالة».

«تصحيح: ابنك هو الذي أخرجك بكفالة».
ألقيت نظرة قوية إلى أديسا، وحوَّلت انتباهي إلى النادل الذي كان يلْمَع الكؤوس.

دحرجت أديسا عينيها، وقالت: «إنك لا تريد أن تتكلم، هذا جيد»، ونظرت إلى التلفاز المعلق فوق البار، الذي كان يعرض بعض الإعلانات، ثم قالت للنادل: «هيه، هل يمكننا أن نشاهد شيئاً آخر؟»

«تفضلي»، قال لها وأعطاهما جهاز التحكم عن بعد.

بعد دقيقة، بينما كانت أديسا تقلب بين محطات التلفزة، توقفت عندما سمعت أنشودة مألوفة من الكتاب المقدس: يا رب، يا رب، يا رب، ارحمنا! ثم انتقلت الكاميرا إلى الناشط والاس ميرسي الذي كان ينتقد اليوم مدرسة محلية في تكساس لأن الشرطة اعتقلت طالباً مسلماً عندما أحضر ساعة منزلية صنعها بنفسه إلى المدرسة ليربها لمدرسة العلوم، فظنت أنها قبلة موقوتة. ثم بدأ والاس يقول: «أحمد، إذا كنت تسمعني، أريد أن أقول لك شيئاً. أريد أن أقول لجميع الأطفال السود والسمر، هناك أيضاً الذين يخشون أن يُساء فهمهم أيضاً بسبب لون بشرتهم...»

أنا متأكدة أن والاس ميرسي كان واعظاً، لكني لا أظن أن أحداً ذكره بأنه ليس في حاجة إلى أن يصرخ عندما يكون أمام مايكرفون عبر التلفزة.

«أريد أن أقول إنني كنت أظن، أنا أيضاً، أنني أقل مما كنت بسبب شكلي. ولن أكذب - في بعض الأحيان، عندما يهمس الشيطان بالشك في أذني، فأني لا أزال أعتقد أن هؤلاء الناس على حق. لكن في معظم الأحيان، أظهرت جميع هؤلاء المتهمين. لقد نجحت على الرغم منهم. و.... أنتم كذلك.»

قالت أديسا وهي تلهث: «يا إلهي يا روث! هذا ما تحتاجين إليه. والاس ميرسي.»

«أنا متأكدة تماماً أن والاس ميرسي هو آخر شيء أحتاج إليه.»

«ماذا تقولين؟ إن قصتك من النوع الذي يحب أن يدافع عنه. التمييز الوظيفي

بسبب العرق؟ سيجعل كل شخص في البلد يعرف أنك تعرّضت للظلم.»

أخذ والاس يهزّ قبضته عبر شاشة التلفاز، ومضى يقول: «هل يجب أن يكون غاضباً هكذا طوال الوقت؟»

ضحكت أديسا، وقالت: «حسناً يا بنت. أنا غاضبة طوال الوقت. أنا منهكة من كوني سوداء طوال اليوم»، وأردفت، «في الأقل، إنه يعطي صوتاً لأشخاص مثلنا». «بصوت مرتفع».

«تماماً. اللعنة يا روث، كنت تشربين طوال الوقت كووول إيد. سبحت مع سمك القرش لفترة طويلة، ونسيت أنك من نوع سمك كريل».

«ماذا؟»

«ألا يأكل سمك القرش سمك كريل؟»

«إنه يأكل البشر».

«هذا ما أقوله لك»، قالت أديسا، «لقد أمضى البيض سنوات في منح السود حريتهم على الورق، لكن في أعماقهم، لا يزالون يتوقَّعون منا أن نقول نعم، ماسوه، وأن نكون هادئين وممتنين لما حصلنا عليه، وإذا عبّرنا عما نفكر فيه، فقد نفقد وظائفنا ومنازلنا، لا بل حتى حياتنا أيضاً. إن والاس هو الرجل الذي يغضب لأجلنا، ولو لم يكن موجوداً، لما عرف البيض قطّ الخراء الغبيّ الذي يزعجوننا به، وسيزداد السود غضباً وجنوناً لأنهم لا يستطيعون أن يجازفوا ويردّوا. إن والاس ميري هو الذي يمنع برميل البارود في هذا البلد من أن ينفجر».

«حسناً، كل هذا جيّد، لكنني لا أحاكم الآن لأنني سوداء، وإمّا لأنّ طفلاً مات عندما كنت في الخدمة».

ابتسمت أديسا ابتسامة متكلفة، وقالت: «من قال لك ذلك؟ محاميتك الزبقة البيضاء؟ طبعاً، فهي لا ترى أنّ الأمر يتعلّق بالعرق. إنها لا تفكر في العرق، نقطة آخر السطر. فهي ليست مضطّرة إلى أن تفعل ذلك».

«حسناً، عندما تحصلين على شهادتك في الحقوق، يمكنك أن تنصحيني في هذه القضية. حتى ذلك الحين، سأستمع إلى ما تقوله لي». ترددت، ثم قلت: «كما تعرفين، بالنسبة إلى شخص يكره أن يوضع في صورة فمطية، من المؤكد أنك تفعلين ذلك عن نفسك كثيراً».

رفعت أختي يديها، مستسلمة، وقالت: «حسناً يا روث. أنت محقة. أنا مخطئة».

«إنِّي أقول فقط - حتى الآن، تؤدِّي كينيدي ماكوري عملها».

فقال أديسا: «عملها لتتقذك حتى تشعر بالرضا عن نفسها»، ثم ضيقت عينها في وجهي، وأضافت، «وأنت تعرفين ما يوجد على الجانب الآخر من طيف الألوان ذلك».

لم أمنحها فرصة للشعور بالرضا وأردت عليها. لكننا نعرف الجواب.

الأسود: لون شرير.

لم أزر كريستينا في منزلها في مانهاتن إلا مرة واحدة بعد أن تزوجت لاري سوير، كي أقدم لها هدية زفافها، لكنها لم تكن تجربة جيدة، فقد أقامت كريستينا ولاري حفل زفافهما في جزر تركس وكايكوس السياحية، وأعربت كريستينا عن أسفها لأنها لم تتمكن من دعوة جميع صديقاتها إلى هناك، واقتصرت على دعوة عدد محدود من صديقاتها. ولما فتحت هديتي - مجموعة من مناشف الشاي المصنوعة من الكتان، طبعت عليها وصفات الكعك والكيك والفطائر التي تحبها كثيراً، والتي كانت تعدّها لها أمي - انفجرت في بكاء وعانقتني، وقالت إنها أكثر هدية شخصية تلقّتها، وإنّها ستستخدمها كل يوم.

الآن، بعد أكثر من عشر سنوات، أتساءل إن كانت قد استخدمت مطبخها، ناهيك عن مناشف الشاي. كانت أسطح المناضد المصنوعة من الغرانيت تلمع، وكان هناك وعاء زجاجي أزرق ممتلئ بالتفاح الطازج. لم

يكن هناك شيء يدل على وجود طفل في الرابعة من عمره. شعرت بالرغبة في أن أفتح باب الفرن، ماركة فاكينغ، المزدوج لأرى إن كان فيه فتات كيك أو بقعة شحم واحدة.

«تفضلي واجلسي»، قالت كريستينا، وأشارت إلى كرسيّ في المطبخ.

جلست. فوجئت عندما سمعتُ صوت موسيقا هادئة ينبعث من الحائط خلفي.

قالت وهي تضحك في وجهي: «إنه مكبّر صوت مخفي».

تساءلت كيف يشعر المرء وهو يعيش في مكان يبدو كأنه جزء من جلسة تصوير مستمرة. إذ كانت كريستينا، التي أعرفها، تترك أثراً من الفوضى وراءها من الردهة حتى المطبخ عندما تعود من المدرسة، فتلقي معطفها وحقيبة كتبها وتركل حذاءها. في تلك اللحظة، ظهرت امرأة بهدوء شديد، كما لو أنها انبثقت من الحائط أيضاً. وضعت طبقاً من سلطة الدجاج أمامي، وطبقاً أمام كريستينا.

«شكراً يا روزا»، قالت كريستينا، وأدركت أنها ربما لا تزال ترمي معطفها وحقائبها وحذاءها عندما تعود إلى المنزل، لكنّ روزا هي أمي بالنسبة إليها، مجرد امرأة أخرى، الآن تجري وراءها وتلملم ما ترميه وراءها.

لَمَّا خرجت الخادمة، بدأت كريستينا تتحدّث عن حفل جمع تبرّعات لأحد المستشفيات، وكيف أنّ برادلي كوبر وافق على أن يحضر الحفل، لكنّه تراجع في آخر لحظة لأنّه أصيب بالتهاب في حنجرته، لكنّ مجلة *Us Weekly* صورته في الليلة نفسها وهو في إحدى الحانات الرخيصة في شارع تشيلسي مع صديقتة. تحدّثت كثيراً عن موضوعات لا تهمني، ولم أدرك سبب دعوتها لي إلّا قبل أن أنهي نصف صحن السلطة الذي أتناوله.

«إذاً»، قاطعتها، «هل سمعتِ عن ذلك من أمي؟»

تجهّم وجهها، وقالت: «لا، من لاري. بعد أن قدّم أوراقه للترشح، تأتينا الأخبار طوال الأسبوع». عصّت شفتها السفلى، وأضافت، «هل كان ذلك فظيماً؟»

بدأت ضحكة تتجمّع في حلقي، وقلت: «أيّ جزء منها؟»

«حسناً، كلّ ذلك. طردي من العمل. إلقاء القبض عليّ». اتّسعت عيناها، وسألتنى:

«هل دخلت السجن؟ هل كان ذلك مثل مسلسل البرتقالي هو الأسود الجديد؟»

«نعم، لكن من دون الجنس»، قلت ونظرت إليها، «لم يكن خطئي يا كريستينا.

يجب أن تصدّقيني».

مدّت يدها عبر الطاولة وأمسكت بيدي، وقالت: «أصدّقك. أصدّقك يا روث. أرجو

أن تعرفي ذلك. كما تعرفين، كنت أريد أن أساعدك. طلبت إلى لاري أن يوظّف محامياً من شركته القديمة ليمثلك».

تجمّدت في مكاني. حاولت أن أرى ذلك بادرة صداقة، لكن بدا لي كما لو أنّني

مشكلة يجب حلّها. «لا... أستطع أن أقبل ذلك...»

«حسناً، قبل أن تفكّري في أنّني أمك في قصص الخيال. صدقاً، كان لاري مثلي

مستاء جداً لأنّ هذا ليس الوقت المناسب ليكون على صلة بشيء يثير الفضيحة بسبب ترشّحه إلى الكونغرس».

يثير الفضيحة. تذوّقت الكلمة، وقضمتها مثل حبة توت، وشعرت أنّها انفجرت.

«تجادلنا حول هذا الموضوع. أقصد، مثل، طلبت منه أن ينتقل إلى

غرفة النوم الثانية وكلّ شيء. لا يتعلّق الأمر بأنّه يؤيّد النازيين الجدد، لكن

الأمر ليس بهذه البساطة، كما أظنّ. إنّ العلاقات العرقيّة في حالة فوضى في

الوقت الحالي، ويتعرّض مفوض الشرطة للهجوم، لذلك يجب أن يبقى

لاري بعيداً عن كل ذلك بقدر ما يستطيع، وإلا قد يكلفه ذلك الانتخابات»، ثم هزّت رأسها، وأضافت، «أنا آسفة جداً يا روث».

شعرت بفكّي مشدوداً. سألتها: «هل هذا هو السبب الذي جعلك تطلبين إليّ أن آتي إلى هنا؟ لتخبريني أنه لا يمكنك أن تكوني على صلة بي بعد الآن؟»

كم كنتُ غيبيةً عندما ظننت أنّها زيارة وديّة؟ فلأول مرّة بعد عشر سنوات قرّرت كريستينا أن تدعوني إلى الغداء فجأة؟ أم أنّني كنت أعرف طوال الوقت أنّني جئت إلى هنا لأنني كنت أمل في أن تحدث معجزة في شكل هالويلز - حتّى لو كنت أفخر بأن أعترف بذلك؟

للحظة طويلة، حدّقت إحدانا الأخرى. قالت كريستينا: «لا. أردت أن أراك بأمر عيني. أردت أن أتأكد أنّك... كما تعلمين... على ما يرام».

الكبرياء تتّين شرّير. ينام تحت قلبك ثمّ يزار عندما تحتاج إلى الصمت.
«حسناً، يمكنك أن تشطبي ذلك من قائمة أعمالك الخيريّة»، قلت لها بمرارة، «أنا على ما يرام».

«روث».

رفعت يدي، وقلت: «لا تفعلي ذلك يا كريستينا، اتفقنا؟ فقط... لا تفعلي ذلك».
حاولت أن أبحث في سلسلة تاريخنا عن النتوء، الصدع بين تلك الحلقات، عندما انتقلنا من فتاتين تعرف إحداهما كل شيء عن الأخرى - نكهة الآيس كريم المفضّلة، العضو المفضّل في فرقة *New Kids on the Block* الموسيقية، الإعجاب بالمشهورين - إلى امرأتين لا تعرفان شيئاً عن كيف تعيش الأخرى. هل ابتعدنا كثيراً عن بعضنا أو أنّ قربنا من بعضنا هو المشكلة؟ هل مشاعرنا بالألفة تعود إلى الصداقة أو إلى الجغرافيا؟
«أنا آسفة»، قالت كريستينا بصوت خافت.

«وأنا أيضاً»، همست.

ابتعدت فجأة عن الطاولة وعادت بعد لحظات، وأفرغت محتويات حقيبتها. نظّارة شمسيّة ومفاتيح وقلم أحمر شفاه وإيصالات تناثرت على سطح الطاولة؛ أقرص أدفيل المسكّنة، في أسفل حقيبتها، اندلقت مثل قطع حلوى. ثمّ فتحت محافظتها وأخرجت رزمة من الأوراق النقديّة وضغطتها في يدي، وقالت: «خذي هذه. بيننا فقط».

لمّا لمست يدي يدها، شعرت بصدمة كهربائيّة، فقفزت كما لو كانت صاعقة من البرق. «لا»، قلت وأنا أخطو إلى الوراء. إنّ هذا خطأ إذا ما تجاوزه فإنّ كلّ شيء سيتغيّر بيني وبين كريستينا. ربّما لم نكن متساويتين قطّ، لكن، في الأقلّ، كان في استطاعتي أن أتظاهر بذلك. وإذا أخذتُ النقود، فلا يمكنني أن أستمرّ في خداع نفسي. «لا أستطيع».

كانت كريستينا عنيّة، ثنت أصابعي حول النقود بقوة، وقالت: «خذيها»، ثمّ نظرت إليّ كما لو أنّ كلّ شيء في العالم يسير على ما يرام، كأنّ شيئاً لم يتغيّر، كما لو أنّني لم أصبح مجرد متسوّلة عند قدميها، أو إنسان يستحقّ الصدقة. «ستتناول حلوى»، قالت كريستينا، «روزا»؟

تعثّرت بالكرسيّ، وكادت أسقط عندما حاولت أن أهرب. «لست جائعة»، متحاشية النظر إليها، «يجب أن أذهب».

أخذتُ معطفي وحقيبتني من الرفّ في الردهة، وخرجت بسرعة، وأغلقت الباب خلفي، ورحت أضغط على زرّ المصعد لمرة عدّة، كما لو أنّ ذلك سيجعله يصل أسرع.

ثمّ عددت المبلغ: خمسمئة وستة وخمسون دولاراً.

أصدر المصعد رنيناً.

ركضت نحو البساط الممدود أمام باب بيت كريستينا، ووضعت النقود تحته.

هذا الصباح، قلت لإديسون إننا لم نعد قادرين على قيادة السيارة لأن صلاحية تسجيلها قد انتهت ولا أملك نقوداً لتجديدها. سيكون بيعها الملاذ الأخير بالنسبة إليّ، حتى أتمكّن من توفير مبلغ دفع رسوم الولاية والرسوم الفيدرالية والبنزين، سنستقل الحافلة.

صعدت في المصعد وأغمضت عينيّ حتى وصلت إلى الطابق الأرضي. رحلت أجمري في حديقة سنترال بارك ويست حتى بدأت ألهث، حتى عرفت أنني لن أغيّر رأيي.

يشبه المبنى في شارع همفري جميع المباني الحكوميّة الأخرى: كتلة بيروقراطية إسمنتية مربّعة. كان مكتب الرعاية الاجتماعية مزدحماً، يجلس على جميع الكراسي البلاستيكيّة المشقّقة أشخاص يملؤون استماراتهم. اتّجهنا أنا وأديسا إلى الكاونتر. تعمل حالياً (كاشير) بدوام جزئيّ، وتحصل على الحد الأدنى من الأجور - لكنّها جاءت إلى هذا المكتب ستّ مرات عندما كانت تبحث عن عمل، لذلك فهي تعرف كيف تسير الأمور. «أختي تريد أن تقدّم طلباً للحصول على معونة»، قالت أديسا للموظّفة كما لو أنّ ذلك لم يجعلني أموت في داخلي.

يبدو أنّ السكرتيرة في مثل عمر إديسون، تضع قرطين طويلين يتأرجحان مثل سندويشة تاكو. «املئي هذه»، قالت، وأعطتني استمارة.

لَمّا لم نجد مكاناً نجلس فيه، استندنا إلى الحائط. وبينما راحت أديسا تبحث عن قلم في حقيبتها التي تشبه مغارة، رحلت أنظر إلى النساء اللاتي كنّ يحاولن أن يملأن استماراتهنّ وأطفالهنّ الصغار على ركبهنّ، وإلى الرجال الذين تفوح منهم رائحة الكحول والعرق، ورأيت امرأة لها ضفيرة رماديّة طويلة تمسك دمية بيدها وتغني لنفسها. نصف الموجودين في القاعة من البيض، من أصل أوروبيّ - أمّهات يمسن أنوف أطفالهنّ بحشوات مناديل، ورجال متوترون يرتدون قمصاناً بياقات ينقرون بأقلامهم على أرجلهم وهم

يقروون كل سطر في الاستمارة. لَمَّا رأَنتي أديسا أنظر إليهم، قالت: «ثلثا الرعاية الاجتماعية تذهب إلى أشخاص بيض. تخيَّلي».

لم أشعر بالامتنان لأختي كما أشعر به الآن.

ملأت الاستفسارات القليلة الأولى: الاسم والعنوان وعدد الأشخاص الذين أعييلهم. قرأت، الدخل.

بدأت أدون راتبي السنوي، ثم شطبتَه. قالت أديسا: «اكتبي صفر دولار».

«حصلت على مبلغ صغير من ويسلي...»

فكرت أديسا قائلة: «اكتبي صفر دولار. أعرف أشخاصاً رُفض طلب تسجيلهم في برنامج الإعانة الغذائية لأنهم يملكون سيارات تساوي كثيراً. إنك ستفسدين النظام كما أفسدك النظام».

عندما لم أبدأ أكتب، أخذت مني الاستمارة وملأت الفراغات، وأعادتها إلى السكرتيرة.

مرت ساعة ولم يُستدع أحد من غرفة الانتظار. «كم يستغرق ذلك؟» همست لأختي.

أجابت أديسا: «مهما طالت الفترة التي يجعلونك تنتظريها، فإن نصف سبب عدم تمكّن هؤلاء الأشخاص من الحصول على وظيفة هو أنهم مشغولون بالجلوس هنا في انتظار الحصول على مزايا ثم يذهبون ويقدمون طلباً آخر في مكان آخر».

أصبحت الساعة الثالثة تقريباً - مضى على مجيئنا أربع ساعات - ثم جاءت إحدى الموظفات إلى الباب، ونادت: «روبي جيفرسون؟»

نهضت واقفة، وقلت: «روث؟»

نظرت إلى الأوراق، وقالت: «رَما».

تبعثها أنا وأديسا في الممرِّ إلى مقصورة صغيرة وجلسنا. «سأطرح عليك بعض الأسئلة»، قالت بصوت رتيب، «هل لا تزالين موظفة؟»
«إنَّها مسألة معقدة... لقد أُوقفت عن العمل».
«ماذا يعني ذلك؟»

«أنا ممرضة، وقد علقت رخصتي ريثما تنتهي الدعوى القضائية». قلت هذه الكلمات بسرعة، كما لو أنَّها تخرج من داخلي.
فأُقيمت أديسا: «لا يهم. سأشرح لك الأمر. لا يوجد لديها عمل، ولا تملك نقوداً». حدقتُ إلى أختي. كنت أمل في أن تتوصل أنا والموظفة إلى أرضية مشتركة، وألا تعدني مقدّمة طلب معونة من الحكومة مثل الآخرين وإنَّما شخصاً من الطبقة المتوسطة لم يحالفها الحظ. لكنَّ أديسا بدأت تستخدم في كلامها اللهجة التي يتحدّث بها السود، وأفشلت محاولتي.

رفعت الموظفة نظارتها فوق أنفها، وقالت: «وماذا عن مبلغ جامعة ابنك؟»
قلت: «إنَّه خمسة وتسعة وعشرون. لا يمكنني أن أستخدمه إلا لأجل دراسته».
«إنَّها في حاجة إلى علاج طبي»، قاطعتها أديسا.
نظرت المرأة إليّ، وقالت: «ما المبلغ الذي تدفعينه حالياً للتأمين الصحي؟»
«ألف ومئة في الشهر»، أجبتها، وقد احمرَّ وجهي، «لكنني لن أكون قادرة على تسديد هذا المبلغ في الشهر القادم».
هزّت المرأة رأسها، وقالت: «ألغي تأمينك السابق. يحقُّ لك أن تحصيلي على تأمين برنامج رعاية أوباما الطبي».

فقلت: «أوه، لا، لم تفهمي قصدي. لا أريد أن أتخلّص من تأميني. أريد فقط أن أحصل على تمويل مؤقت، فهذا التأمين الصحي يأتي من المستشفى. سأستعيد وظيفتي في نهاية الأمر».

التفتت أديسا نحووي، وقالت: «وفي غضون هذه الفترة، ماذا لو كُسرت ساق إديسون؟»

«أديسا...»

«هل تظنين نفسك أو جي سيمسون؟ إنك لست أوبرا، ولست كيري واشنطن. إنهم يحصلون على تصاريح من البيض لأنهم أشخاص مشهورون. أنت لست سوى زنجية أخرى تسير أمورها إلى الهاوية.»

كنت واثقة بأنه كان في استطاعة الموظفة رؤية البخار وهو يتصاعد من شعري. جمعت أصابعي في قبضة حتى شعرت بالدم ينسحب مني. لا أعرف ما الذي جعلني أريد أن أقتل أختي.

بحقّ الجحيم، فأنا متهمّة تواءً بارتكاب جريمة قتل.

نقلت الموظفة نظراتها من أديسا إليّ ثمّ إلى الأوراق، ثمّ تحنّحت وقالت، وهي تشعر بالسعادة لأنها ستتخلّص منّا: «حسنًا، يحقّ لك أن تحصل على مساعدة طبيّة ومساعدة مالية نقدية من برنامج مساعدة التغذية التكميلية. ستسمعان منّا قريباً.»

شبكت أديسا ذراعها في ذراعي وجرتني من الكرسيّ، وتمتمت: «شكرًا»، وسحبتي إلى خارج المقصورة.

«الآن، لم يكن ذلك سيئًا جدًّا، أليس كذلك؟» قالت عندما ابتعدنا عن مرمى سمع الموظفة، ووقفنا إلى جانب أصيص نبتة عند المصعد. فجأة عادت إلى طبيعتها.

استدرت إليها، وقلت: «ماذا فعلت بحقّ الجحيم؟ كنت في غاية الحماقة.»

فقال أديسا: «حمقاء التي حصلت لك على النقود التي تحتاجين إليها. يمكنك أن تشكريني لاحقًا.»

بعد استفاد كلّ الوظائف المؤقتة لدى مكتب الوكالة، تقدّمت بطلب إلى ماك دونالدز، وقلت لهم إنني أخذت إجازة من عملي لأتفرّغ لتربية

ابني، ولم أذكر لهم أنني ممرضة. لم أكن أريد شيئاً سوى توظيفي لأتمكّن من التخلي عن بعض المزاي التي حصلت عليها من مكتب البطالة. ولأجل سلامتي العقلية، كنت في حاجة إلى أن أعتقد بأنني لا أزال، في الأقلّ جزئياً، قادرة على الاعتناء بنفسي وبابني. لَمَّا اتّصل المدير بالهاتف ليعرض عليّ العمل، وسألني إن كان بإمكانني أن أبدأ العمل على الفور لأنهم يعانون من نقص في العاملين، تركت ملاحظة قصيرة لإديسون على طاولة المطبخ، قلت له فيها إنَّ لديّ مفاجأة له، واستقللت الحافلة من وسط المدينة.

لم أكن قطّ من الأشخاص الذين يرفضون القيام بأعمال صغيرة. إذ كان لي في عملي كممرضة نصيب من إمساك أحواض التقيؤ، وتغيير الملاءات المتسخة. لَمَّا كنت أفعل ذلك، كنت أقول لنفسي دائماً إنَّ المريضة تشعر بالحرّج - جسدياً أو عاطفياً، أو كليهما - أكثر مني. كانت مهنتي تحتم عليّ أن أجعل الأمور أفضل للمريضة بقدر الإمكان. لذلك، لم أشعر بالحرّج من العمل في مطعم للوجبات السريعة، فأنا لست هنا لأجل المجد، وإنما لأجل المبلغ الذي سأتقاضاه، مهما كان ضئيلاً.

«ممممم، سأخذ وجبة بيغ ماك»، سمعت أحدهم يقول، «وأنت ماذا تريد؟»

«نسيت محفظتي في البيت...»

استدرتُ لأنني عرفت ذلك الصوت. رأيت بريس صديق إديسون واقفاً أمام الكاونتر، وإلى جانبه ابني ويدا محشورتان في جيبي سترته.

كان بإمكانني أن أرى الرعب المطلق في عينيّ إديسون وهو ينظر إلى شبكة شعري، صديرتي، حياتي الجديدة. وبدلاً من أن أبتسم له، أو أرحّب به، أدت ظهري قبل أن يراني برايس ويعرفني أيضاً. وقبل أن أسمع إديسون يقدّم عذراً آخر لهذا الموقف، سجّلت طلبه.

لَمَّا عدت إلى المنزل، لم يكن إديسون هناك. خلعتُ بدلة ثياب العمل وأخذتُ دُشًّا لأزِيل رائحة الدهن. كتبت له رسالة نصيئة، لكنَّهُ لم يجب. أعددت العشاء، متظاهرة بأنه ليس ثمَّة خطب ما. لَمَّا عاد أخيراً، كنت قد وضعت القدر على المائدة. قلت له: «إنَّها ساخنة»، لكنَّهُ ذهب إلى غرفة نومه مباشرة. ظننت أنه لا يزال منزعجاً من عملي الجديد، لكنَّهُ عاد بعد لحظة وبِيده مرطبان ممتلئ بقطع نقود معدنيَّة ودفتري شيكات، وضعها على الطاولة، وقال: «ألفان وثلاثمئة وستة وثمانون، بالإضافة إلى بضع مئات موجودة في المرطبان».

قلت له: «هذه النقود لأجل دراستك في الجامعة».

«إنَّنا في حاجة إليها الآن. سأعمل في عطلتي الربيع والصيف. يمكنني أن أجلب مزيداً من النقود».

أعرف كيف تمكَّن إديسون من توفير هذه النقود من مخزن البقالة الذي يعمل فيه مذ كان في السادسة عشرة من عمره. كُنَّا قد اتفقنا على أن يستخدم هذه النقود لدراسته في الجامعة بالإضافة إلى المنح الدراسية التي سيحصل عليها، وبرنامج معونة الطلَّاب الفيدرالي، وخطَّة 529 التي بدأناها لأجله منذ أن كان طفلاً صغيراً، وسأكمل بقية تلك الرسوم. إنَّ فكرة أخذ النقود المخصَّصة للجامعة تجعلني أشعر بالغثيان. قلت له: «إديسون، لا».

تقلَّص وجهه، وقال: «ماما، لا يمكنني أن أدعك تعملين في ماكدونالدز ولديَّ نقود نستطيع أن نستخدمها. هل تعرفين كيف يجعلني ذلك أشعر؟»

«أولاً، هذه ليست نقود، إنَّها مستقبلك. ثانياً، لا عيب في يوم عمل جيِّد وشريف، حتَّى لو كان ذلك إعداد بطاطا مقلية»، قلت له وضغطت على يده، «وهذا العمل لفترة قصيرة جداً، حتَّى تنجلي الأمور وأعود إلى العمل في المستشفى».

«يمكنني أن أتوقَّف عن ممارسة الرياضة وأعمل لساعات أكثر».

«لا، لن تفعل ذلك».

«أنا لا أهتمُّ برياضة غبية».

فقلت له: «وأنا لا أهتمُّ بشيء آخر غيرك». جلست قبالته، وقلت: «حبيبي، دعني أفعل ذلك. أرجوك». شعرت بالدموع تملأ عيني، وأضفت: «لو سألتني من هي روث جيفرسون قبل شهر، لقلت لك إنها ممرضة جيدة، وأمٌ جيّدة، أمّا الآن، بدأ أشخاص يقولون إنني لست ممرضة جيّدة، وإذا لم أتمكن من أن أضع طبقاً على المائدة وثياباً على ظهرك - فعندئذ سأشكُّ في نفسي كأمٌ أيضاً. إذا لم تدعني أفعل ذلك... إذا لم تدعني أعتني بك... فلن أعرف من يُفترض أن أكون بعد الآن».

ثنى ذراعيه على صدره، وأشاح بعينه عني، وقال: «الجميع يعرفون. أسمعهم يتهايمسون ثم يصمتون عندما أقرب منهم».

«الطلاب؟»

فقال: «والمعلمون أيضاً».

قلت بانزعاج: «هذا شيء لا يغتفر».

«لا، ليس الأمر كذلك. إنهم يبذلون كلّ ما في وسعهم لمساعدتي. يقولون إنهم يعرفون أنّ الأمور صعبة في المنزل الآن... وكلّما قال لي أحدهم ذلك - إنهم في غاية اللطف ومفهمون - أشعر أنني أريد أن أضرب شيئاً، لأنّ ذلك أسوأ ممّا يحدث عندما يتظاهر الناس بأنهم لا يعرفون أنك لم تذهب إلى المدرسة لأن أمك كانت في السجن»، وأضاف متجهماً، «لم أرسب في ذلك الاختبار لأنني لم أدرس جيداً، وإمّا لأنني لم أحضر الدروس بعد أن حاصرني السيد هيرمان وسألني إن كان بإمكانه أن يفعل أيّ شيء لمساعدتي».

«أوه، إديسون...»

فانفجر قائلاً: «لا أريد مساعدتهم. لا أريد أن أكون شخصاً يحتاج إلى مساعدتهم. أريد أن أكون مثل أيّ شخص آخر، ولست حالة خاصّة. ثمّ أغضب

من نفسي لأنني أتدمر كما لو أنني الشخص الوحيد الذي يعاني من مشكلات عندما تكون... عندما تكون...» صمت وراح يفرك كفيّيه على ركبتيه.

«لا تقل ذلك»، قلت له وضممته بين ذراعيّ، «لا تفكر في الأمر». ثمّ ابتعدت عنه قليلاً، ووضعت كلتا يديّ على جانبي وجهه الجميل، «لسنا في حاجة إلى مساعدتهم. سنتجاوز كل ذلك. أعرف أنك تصدقني؟»

نظر إليّ، تأملني جيّداً مثل حاجّ يبحث في سماء الليل عن معنى، وقال: «لا أعرف».

فقلت بحزم: «حسناً، أنا أعرف. الآن، تناول طعامك لأنني متأكّدة أنني لن أذهب إلى ماكدونالدز إذا برد».

التقط إديسون شوكته، ممتناً لأنني أبعدت تفكيره قليلاً. وحاولت ألا أفكر، في الحقيقة، في أنني كذبت على ابني للمرة الأولى في حياتي.

بعد أسبوع، بينما كنت أهمم بالذهاب إلى عملي، رنّ جرس الباب. لمّا فتحت الباب، رأيت، لدهشتي، والاس ميرسي، بشعره الأبيض الأجدد، وبدلته المؤلفة من ثلاث قطع، وساعة جيب، وكلّ شيء. قلت: «يا إلهي!». خرجت الكلمات مثل زخات من أنفاسي، جافّة في صحراء عدم التصديق.

«أختي»، قال مبتسماً، «اسمي والاس ميرسي».

ضحكت. في الواقع قهقهت، فمن لا يعرف والاس ميرسي؟

ألقيت نظرة سريعة خلفه لأرى إن كانت حاشيته تتبعه، كاميرات. لكنّ الدليل الوحيد على شهرته كان سيّارة ليموزين سوداء فخمة مركونة أمام المنزل لا تزال غمّازاتها تومض، مع سائق جالس في المقعد الأمامي. «أتساءل إن كان بإمكانني أن آخذ لحظة من وقتك؟»

كان أقرب احتكاك لي مع الشهرة عندما تعرّضت زوجة مضيف برنامج متلفز الحامل في وقت متأخّر من الليل لحادث سيارة بالقرب من المستشفى، ونُقلت إلى الجناح الذي أعمل فيه لمراقبتها لمدة أربع وعشرين ساعة. ومع

أنها كانت في حالة جيّدة، تحوّل دوري من مقدّمة رعاية صحّيّة إلى مسؤولة عن إبعاد حشد المراسلين الذين أوشكوا أن يقتحموا الجناح. وفي المرّة الثانية، الوحيدة في حياتي، التي أقابل فيها شخصاً مشهوراً، أرتدي ثياب العمل البولستر. «طبعاً، تفضّل»، وشكرت الله بصمت أنني أعدت سريري القابل للطّي إلى أريكة، «هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً تشربه؟»

فقال: «ستكون القهوة نعمة».

لَمَّا شَعَّلْتُ آلة القهوة، قلت في نفسي، كانت أديسا ستموت لو كانت هنا. تساءلت إن كان من الوقاحة أن ألتقط صورة سيلفي مع والاس ميرسي وأرسلها إليها. «منزلك جميل»، قال لي ونظر إلى الصور الموضوعة على رفّ الموقد. «هذا ابنك؟ سمعت أنه شاب متفوّق».

مَمَّنْ؟ تساءلت، «هل تفضّل حليباً؟ سكرًا؟ مع القهوة».

فقال والاس ميرسي: «كليهما». تناول الكوب وأشار إلى الأريكة، «هل لي؟» هزرت رأسي، وأشار لأجلس على الكرسيّ إلى جانبه، ثمّ قال: «السيدة جيفرسون، هل تعرفين لماذا أنا هنا؟»

«بصراحة، لا أستطيع حتّى أن أصدّق أنك هنا، ناهيك عن أن أعرف سبب زيارتك».

ابتسم. لديه أكثر الأسنان بياضاً وتناسقاً رأيتهما في حياتي، تلمع إزاء بشرته الداكنة. عن قرب، أدركت أنّه أصغر سنّاً ممّا كنت أتوقّع. «جئت لأخبرك أنّك لست وحدك».

مرتبكة، أملت رأسي، وقلت: «هذا لطف كبير، لكن لديّ كاهن...»

«لكنّ مجتمّعك أكبر بكثير من كنيستك. يا أختي، ليست هذه هي المرّة الأولى التي يُستهدف فيها شعبنا. قد لا نمتلك القوة الكافية بعد، لكن الشيء المتاح لنا هو أن يساعد أحدنا الآخر».

حرّكت فمي عندما بدأت أحاول أن أجمع الكلمات معاً. قلت له: «هذا لطف كبير منك أن تأتي إلى منزلي، لكنني لا أظن أن قصتي ستكون موضع اهتمام خاص بالنسبة إليك».

«على العكس تماماً. هل يمكنني أن أتجرأ وأسألك سؤالاً؟ لِمَا انثُقيتِ من بين الآخرين، وطُلب إليك ألا تتدخّلي في رعاية طفل أبيض، هل وقفت إحدى زميلاتك إلى جانبك ودافعت عنك؟»

تذكّرت كورين وهي ترتجف عندما رحلت أشتكي من تعليمات ماري غير العادلة، ثمّ دافعها عن كارلا لونغو. «كانت صديقتي تعرف أنني مستاءة».

«هل تكلمت لأجلك؟ هل كانت ستجازف بعملها لأجلك؟»

«لم أطلب إليها أن تفعل ذلك»، قلت له، وبدأت أشعر بشيء من الانزعاج.

«ما لون بشرة زميلتك؟» سألتني والاس مباشرة.

«كوفي سوداء، لوني لم يشكّل أيّ مشكلة في علاقتي مع زميلاتي في العمل».

«لم يكن الأمر كذلك إلى أن أصبح في حاجة إلى كبش فداء. إنّ ما أحاول قوله يا روث - هل يمكنني أن أدعوك ذلك؟ - هو، إنّنا نقف معك. سيقف إخوتك وأخواتك السود إلى جانبك. سيجازفون بوظائفهم لأجلك. سيخرجون في تظاهرات احتجاجيّة دافعاً عنك، وسيثيرون هديراً لا يمكن تجاهله».

نهضت واقفة، وقلت: «شكراً لأجل... اهتمامك بقضيّتي. لكن، عليّ أن أناقش هذا الأمر مع محاميتي، ومهما كان...»

«ما لون بشرة المحامية التي تدافع عنك؟» قاطعني والاس.

«ما الفرق في ذلك؟» قلت متحدّية، «كيف يمكنك أن تتوقّع أن يعاملك الناس البيض جيّداً إذا كنت تبحث عن عيوبهم باستمرار؟»

ابتسم كما لو أنّه سمع ذلك من قبل، وقال: «أظنّ أنّك سمعتِ عن تريفون مارتن».

طبعاً سمعت. لقد تأثرت كثيراً بموت ذلك الفتى. لا لأنه كان في عمر إديسون فقط، وإنما لأنه كان، مثل ابني، طالباً متفوقاً، ولم يرتكب أيّ ذنب، سوى أنه أسود البشرة.

فقال والاس: «هل تعلمين أنه في أثناء تلك المحاكمة، منعت القاضية - القاضية البيضاء - استخدام العبارة العنصرية النمطية في قاعة المحكمة؟»، وأضاف، «كانت تحرص على أن تعرف هيئة المحلفين أنّ القضية لا علاقة لها بالعرق، وإنما بجريمة القتل».

اخترقتني كلماته بسهام. الكلمات نفسها التي قالتها لي كينيدي حول قضيتي.

«كان ترايفون فتى طيباً وذكياً. أنت ممزّعة محترمة. إنّ السبب الذي جعل القاضية لا تريد إثارة مسألة العرق - وهو السبب عينه الذي جعل محاميتك تتحاشاه كما لو كان وباء الطاعون - أنه يُفترض أن يكون السود، مثلك ومثل تريفون، استثناء. إنك التعريف الدقيق عندما تحدث أشياء سيئة لأشخاص طيبين، لأنها الطريقة الوحيدة التي يمكن لحراس البوابة البيض تقديم الأعذار لسلوكهم من خلالها». انحنى إلى الأمام وكوب القهوة في يده، وأضاف: «لكن، ماذا لو لم تكن تلك هي الحقيقة؟ ماذا لو لم تكوني أنتِ وترايفون الاستثناء... وإنما القاعدة؟ ماذا لو كان الظلم هو المعيار؟»

«كلّ ما أريد أن أفعله أن أقوم بعملتي، وأعيش حياتي، وأربي ابني. أنا لست في حاجة إلى مساعدتكم».

فقال: «قد لا تحتاجين إليها، لكن من الواضح أن هناك أشخاصاً كثيرين يريدون مساعدتك. لقد ذكرتُ قضيتك الأسبوع الماضي باختصار في برنامجي». تحرك قليلاً ومدّ يده إلى جيب سترته الداخلي وسحب مغلفاً صغيراً، ثم نهض واقفاً وأعطاني إياه، وقال: «حظاً سعيداً يا أختي. سأصلي لأجلك».

لمَّا أغلق الباب خلفه، فضضتُ المغلّف وأفرغْتُ محتوياته: ورقات مالِيّة من فئة عشرة وعشرين وخمسين دولاراً، بالإضافة إلى عشرات الشيكات التي كتبها لي أناس لا أعرفهم. قرأت العناوين عليها: تولسا في أوكلاهوما؛ شيكاغو؛ ساوث بيند، أولمبيا في واشنطن. وفي أسفل الكومة وجدت بطاقة والاس ميرسي.

جمعتها كلّها في المغلّف، ووضعتها في إناء فارغ على رفّ في غرفة الجلوس، ثمّ رأيته: واقفي الشمس الذي أبحث عنه منذ فترة داخل صندوق الكابل.

يبدو كما لو كان مفترق طرق.

وضعت واقفي الشمس على رأسي، وأخذت محفظتي ومعطفي، وخرجت من الباب إلى عملي.

احتفظ على الرفّ بصورتِي التي أحبها كثيراً مع ويسلي. كان ذلك في أثناء حفل زفافنا، التقطها ابن عمّه ونحن ننظر بعيداً. في الصورة، كُنّا واقفين في بهو الفندق الأنيق الذي أقمنا فيه حفل الاستقبال - كان استئجاره هديّة زفافنا قدّمها لي سام هالويل؛ ذراعي تطوّقان رقبة ويسلي، ورأسي متّجه إلى الجهة الأخرى، وكان ويسلي منحنيّاً إلى الأمام، وعيناه مغمضتان، يهمس لي شيئاً.

حاولت جاهدة أن أتذكّر ما الذي كان يهمس به لي زوجي الوسيم في بدلته الأنيقة. أريد أن أصدّق أنّه كان يهمس لي إنَّك أجمل مخلوق رأيته في حياتي، أو إنني لا أطيق أن أنتظر أكثر لنبدأ حياتنا معاً. لكن، هذا ما يحدث في الروايات والأفلام، أمّا في الواقع، فإني كنت متيقّنة من أنّنا كُنّا نخطّط لنهرب من القاعة الممتلئة بالمهتئين لأذهب إلى دورة المياه.

مع أنّني لا أستطيع أن أتذكّر ما دار بيني وبين ويسلي من حديث عندما التّقطت تلك الصورة، لكنني أتذكّر الحديث الذي دار بيننا بعد ذلك. فقد كان هناك صفّ طويل من السيّدات اللاتي ينتظرن أمام دورة

مياه السيدات خارج الردهة الرئيسة، فتطوّع ويسلي بشجاعة ليقف حارساً أمام دورة مياه الرجال كي لا يدخل إليها أحد في أثناء وجودي فيها. استغرقت وقتاً طويلاً وأنا أحاول رفع ثوب زفافي، ولمّا خرجتُ أخيراً من دورة المياه كانت قد مرّت عشر دقائق، كان ويسلي لا يزال خلالها واقفاً خارج الباب، حارسي، بيده بطاقة خدمة ركن السيارات.

سألته: «ما هذه؟» لأنّه لم تكن لدينا سيّارة حينذاك، وكنا قد جئنا إلى الحفل بالحافلة.

هزّ ويسلي رأسه، وقال وهو يضحك: «دنا مّني أحدهم وطلب أن أحضر له سيّارته المرسيدس».

ضحكنا وأعطينا البطاقة إلى مكتب ركن السيارات في الفندق. ضحكنا لأننا كنا عاشقين. لأنّه عندما تكون الحياة زاخرة بالأشياء الجيدة، لا يبدو من المهم أن يرى رجل أبيض عجوز رجلاً أسود في فندق فاخر ويفترض بطبيعة الحال أن لا بدّ أنّه يعمل في الفندق.

في صباح اليوم، دخل أحد المشرّدين، الذين يجوبون شوارع نيو هافن، ماكدونالدز. كان المدير يقدّم لهم طعاماً إذا أراد أن يتخلّص منهم بسرعة، مثل البطاطا المقلية التي لا تُباع للزبائن بعد أن يمضي عليها خمس دقائق. ويأتون أحياناً التماساً للدفع. وفي إحدى المرّات، بال رجل مشرّد في حوض الحّمّام. أمّا اليوم، فقد دخل رجل ذو شعر طويل متشابك ولحية تكاد تصل إلى بطنه، كُتبت على قميصه الوسخ عبارة «ناماستاي في السرير»، والوسخ يملأ ما تحت أظافره. قلت له: «مرحباً. أهلاً بك في ماكدونالدز، هل يمكنني أن أسجّل طلبك؟»

حدّقني بعينيه الدامعتين الزرقاوين، وقال: «أريد أن أسمع أغنية».

«عفواً؟»

«أغنية»، ارتفع صوته، «أريد أغنية».

جاءت المديرية المناوبة، امرأةً ضئيلة الحجم، اسمها باتسي، وقالت: «سيدي، يجب أن تخرج من هنا».

«أريد أغنية عاهرة».

تضرّج وجه باتسي، وقالت: «سأتصل بالشرطة».

قلت لها: «لا، انتظري». نظرت في عين الرجل، وبدأت أذندن أغنية بوب مارلي. فقد كنت أذندن أغنية (ثلاثة طيور صغيرة) لإديسون كل ليلة عندما كان صغيراً. لعلّي سأتذكّر كلماتها حتى يوم مماتي.

توقّف الرجل عن الصراخ، وخرج من الباب. ألصقتُ ابتسامة على وجهي كي أتمكّن من استقبال الزبون التالي. «أهلاً بك في ماكدونالدز»، قلت وأنا أنظر إلى كينيدي ماكوري.

كانت ترتدي بدلة سوداء فاحمة، تمسك بيد فتاة صغيرة تنبعث من فروة رأسها خصلات شعر شقر بلون الفراولة مجعّدة. قالت الفتاة: «أريد فطائر بانكيك مع سندويشة بيض».

«حسناً، هذا ليس خياراً»، قالت كينيدي بحزم، ثم لاحظت وجودي، وقالت: «أوه، واو. روث. أنت... تعملين هنا».

عرتني كلماتها. ماذا تتوقعين أن أفعل عندما تحاولين أن تبني قضية؟ أنفق جميع مدّخراتي؟

«هذه ابنتي فيوليت»، قالت كينيدي، «اليوم يوم خاص. آه، لا نأتي عادة إلى ماكدونالدز كثيراً».

«ماما، نعم نأتي»، قالت فيوليت، واحمرّت خدّاً كينيدي.

أدركتُ أنها لا تريد أن أفكر في أنّها ليست من ذلك النوع من الأمّهات اللاتي يطعمن أطفالهنّ وجباتنا السريعة وقت تناول الفطور، لا أكثر ممّا أريدها أن تفكّر فيّ بأنّني شخص أعمل هنا لو كان لديّ خيار آخر. أدركت أننا، كلتينا، نريد بقوة أن نكون شخصين لسنا هما حقاً.

منحني ذلك مزيداً من الشجاعة.

لَمَّا همستُ لفيوليت: «لو كنت مكانك لاخترت فطائر بانكيك»، صَفَّقت بيديها وابتسمت، وقالت: «إِذَا، أريد بانكيك».

«أَيُّ شيءٍ آخر؟»

أجابت كينيدي: «كوباً صغيراً من القهوة فقط لي. لديّ حليب في المكتب».

«ممممم». ضغطت على الشاشة، «سيكون ذلك خمسة دولارات وسبع سنتات».

فتحت سَحَابَ محفوظتها وعدَّت بضع أوراق نقدية.

«إِذَا»، سألتها عرضياً، «هل توجد أخبار جديدة؟» قلت ذلك بالنبرة نفسها، كما لو أنّني أسألها عن الطقس.

«ليس بعد. لكن هذا طبيعي».

طبيعي. أخذت كينيدي يد ابنتها وتراجعت عن الكاونتر مستعجلة لتخرج بسرعة من هذه اللحظة مثلي. ابتسمت ابتسامة متكلفة، وقلت: «لا تنسي الفراطة».

* * *

بعد أسبوع من حياتي المهنية كطالبة في مدرسة دالتون، انتابني ألم في معدتي. ومع أنّني لم أصب بالحمى، سمحت لي أمي بالأأذهب إلى المدرسة، وأخذتني معها إلى منزل أسرة هالويل. كنت كلما فكّرت في تجاوز أبواب المدرسة، شعرت بوخز في أحشائي، أو أنّني سأنتقياً، أو كلا الأمرين.

بسماح من السيّدة مينا، لفّتنني أمي ببطانيات ووضعتني في غرفة مكتب السيّد هالويل، ووضعت لي بعض الموالح والزنجبيل، وفتحت التلفاز، ثمّ أعطتني أيضاً وشاحها الذي يجلب لها الحظ لأضعه حولي، وقالت إنّهُ سيفيدني كما يفيدها. كانت تأتي لتطمئنّ عليّ كلّ نصف ساعة،

لذلك فوجئت عندما دخل السيد هالويل الغرفة، وقال مرحباً، واتّجه إلى طاولة مكتبه، وراح يتصفّح كومة من الأوراق حتّى وجد ما يبحث عنه - مجلّد أحمر، ثمّ التفت إليّ وسألني: «هل مرضك معدّ؟»

هزرت رأسي، وقلت له: «لا، يا سيّدي». أقصد لم أكن أظنّ ذلك.

«قالت أمك إنّ بطنك يؤلمك.»

هزرت رأسي.

«وهل شعرتِ بذلك فجأة بعد أن ذهبت إلى المدرسة هذا الأسبوع؟...»

هل يظنّ أنني أمارض؟ لا لم أكن أفعل ذلك. كان الألم حقيقياً.

سألني: «كيف كانت المدرسة؟ هل أحببت معلّمتك؟»

«نعم يا سيّدي». فقد كانت الآنسة توماس ضئيلة الحجم، وجميلة، تقفز من مقعد تلميذ في الصفّ الثالث إلى آخر مثل طائر زُرُور في فناء بيت صيفي، وهي تبتسم دائماً عندما تذكر اسمي، بعكس مدرّستي في هارلم العام الماضي - المدرسة التي لا تزال شقيقتي تذهب إليها - فلهذه المدرسة نوافذ كبيرة وضوء الشمس يتسلّل عبر ممرّاتها، وأقلام التلوين التي نستخدمها في دروس الفنّ لا تتفتّت، والكتب المدرسيّة نظيفة وخالية من أيّ كتابة عليها، وصفحاتها كاملة، وهي تشبه المدارس التي نراها عبر التلفاز، والتي كنت أظنّ أنّها من نسج الخيال، إلى أن وطأت قدمي إحدى تلك المدارس.

«هممم». جلس سام هالويل إلى جانبي على الأريكة، وسألني: «هل تشعرين

كما لو أنّك تناولت سندويشة بوريّتو ليست نظيفة؟ تأتي وتذهب في موجات؟»

نعم.

«في الغالب، عندما تفكّرين في الذهاب إلى المدرسة؟»

نظرتُ إليه مباشرة، وتساءلت هل يستطيع أن يقرأ ما يدور في العقول.

«أظنُّ أنّني عرفت ما الذي يزعجك يا روث، لأنّني أصبت بهذه الحشرة ذات يوم أيضاً. كان ذلك بعد أن تولّيت مسؤولية البرمجة في شبكة التلفزة. كان لديّ مكتب كبير وأنيق، وكان الجميع يتسابقون لإسعادي، وهل تعرفين ماذا؟ شعرت أنّني مريض مثل كلب». نظر إليّ، وأضاف، «كنت متيقناً من أنّه في أيّ دقيقة سينظر إليّ أحد ما ويدرك أنّني لا أنتمي إلى ذلك المكان».

تذكّرت كيف كنت أشعر عندما أجلس في الكافتيريا الجميلة المكسوّة بألواح خشبية وأنا التلميذة الوحيدة التي لديها كيس طعام الغداء. تذكّرت كيف أرّتنا السيّد توماس صوراً لأبطال أميركيين، ومع أنّ جميع التلاميذ عرفوا من هو جورج واشنطن وإلفيس بريسلي، كنت الوحيدة في الفصل التي عرفت صورة روزا باركس فشعرت بالفخر والحرّج في آن واحد.

ثمّ قال لي سام هالويل: «إنّك لست مخادعة. لم تذهبي إلى تلك المدرسة من باب الحظّ، أو لأنه تصادف أنّك كنت في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، أو لأنّ شخصاً مثلي لديه علاقات. أنتِ هناك لأنّك أنتِ، وهذا إنجاز رائع في حدّ ذاته».

تذكّرت هذا الحديث وأنا أنصت الآن إلى مدير مدرسة إديسون الثانوية، وهو يقول إنّ ابني المهذب الذي لا يسحق بقّة، ضرب أعرّ صديق له على أنفه في أثناء فرصة الغداء اليوم، في أول يوم عاد فيه إلى المدرسة بعد عطلة عيد الشكر. «مع أنّنا ندرك أنّ الأمور في المنزل... صعبة، من الواضح يا سيّد جيفرسون أنّنا لا نتسامح مع هذا النوع من السلوك».

«يمكنني أن أوّكد لك أنّ ذلك لن يحدث مرّة أخرى». وفجأة، عدت إلى مدرسة دالتون، وشعرت أنّه يجب أن أكون ممتنة لأنّني موجودة هنا في مكتب المدير.

«صدّقيني، لقد تساهلت في الأمر لأنّني أعرف أنّه توجد ظروف مخفّفة. في العادة، تُسجّل حوادث كهذه في سجّل إديسون الدائم، لكنّي

لن أفعل ذلك. لكنّه سيُحرم من الدوام في المدرسة حتّى نهاية الأسبوع. إنّ السياسة المتبعة في هذه المدرسة هي عدم التسامح التامّ في مثل هذه الأمور، ولا يمكننا أن ندع طلابنا يشعرون بالقلق على سلامتهم».

«نعم، طبعاً»، تمتمتُ وخرجتُ من مكتب المدير، يتملّكني شعور بالمهانة. فقد اعتدت أن آتي إلى هذه المدرسة تغلّفني سحابة انتصار افتراضية: لأرى ابني وهو يتلقّى جائزة أفضل طالب متفوق في امتحان اللغة الفرنسيّة، وأصفّق له عندما يُتوجّ بجائزة أفضل طالب رياضيّ لهذا العام. أمّا الآن، فلا يسرّ إديسون على خشبة المسرح في المدرسة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يصافح المدير، وإمّا جالس على مقعد خارج باب مكتب المدير وعلى وجهه قسمات بأنّه لم يعد يعبر العالم أيّ اهتمام. أريد أن أشدّه من أذنيه.

ابتسم عندما رأيته، وقال: «لماذا أتيتِ إلى هنا هكذا؟»

نظرت إلى بدلتني وقلت: «لأنّني كنت في منتصف عملي عندما اتصل بي مكتب المدير ليقول إنّ ابني سيُطرد من المدرسة».

«مطروود لفترة...»

فقلت له بقسوة: «لا تقل شيئاً الآن. ولا تصحّح ما أقوله». خرجنا من المدرسة في يوم شديد البرودة كأنّنا في بداية فصل الشتاء. «هل تريد أن تخبرني لماذا ضربت برايس؟»

«ظننتُ أنّي يجب ألا أتكلّم».

«لا تردّ عليّ بوقاحة. بمَ كنت تفكّر يا إديسون؟»

أشاح إديسون بوجهه عني، وقال: «هل تعرفين فتاة اسمها تايلّا؟ إنّك تعملين معها».

تخيلتُ فتاة نحيفة يملأ وجهها حبّ الشباب. «نحيلة؟»

«نعم. لم أكلمها في حياتي قط. جاءت اليوم إليّ عند الغداء وقالت إنّها تعرفك من مطعم ماكدونالدز، وظنّ برايس أنّ من المضحك أنّ أمّي تعمل هناك».

فأجبتّه: «كان عليك أن تتجاهله. لن يعرف برايس كيف يقوم بعمل يوم جيد لو وضعت مسدّساً على رأسه».

«بدأ يسخر منك».

«قلت لك إنّه لا يستحقّ أن تعيره أيّ اهتمام». أطبق إديسون فكه، وقال: «قال برايس، «لماذا تشبه أمك سندويشة ماك كبيرة؟ لأنّها ممتلئة بالدهون ولا تساوي إلاً دولاراً واحداً»».

اندفع الهواء كلّه من رئتّي. بدأت أسير نحو باب المدرسة. «سألقتن ذلك المدير درساً».

أمسك ابني بذراعي، وقال: «لا، أرجوك، فقد أصبحت الآن موضع سخريّة الجميع. لا تزيد الأمر سوءاً». هزّ رأسه، وأضاف، «لقد سئمت كلّ ذلك. بدأت أكره هذه المدرسة العاهرة، ومنحها الدراسيّة المنكوحه، وتظاهرها الكاذب المنكوح».

لم أطلب إلى إديسون أن ينتبه إلى الكلمات التي يقولها. لم أعد أستطيع أن أتنفّس. كنت أعدّ إديسون طوال الوقت، وأقول له إنّك لو اجتهدت، وكان سلوكك ممتازاً، فإنّك ستحصل على المكانة التي تستحقّها. وكنت أقول له إنّنا لسنا مخادعين، وأنّ ما نسعى إليه، ونحصل عليه، نستحقّه. لكن، ما لم أقله له هو أنّ هذه الإنجازات قد تطلّ، في أيّ لحظة، بعيدة المنال.

من المدهش كيف أنّه يمكنك أن تنظر في المرآة طوال حياتك وتظنّ أنّك ترى نفسك بوضوح. ثمّ تقشّر ذات يوم طبقة رماديّة من النفاق، وتدرّك أنّك لم تر نفسك على حقيقتها قطّ.

بذلت جهداً لأجد الردّ الصحيح هنا: أن أقول لإديسون إنّه كان محقّقاً فيما فعله، وإنّه كان بإمكانه أن يضرب جميع الفتیان في تلك المدرسة لأنّ ذلك لن يحدث فارقاً على المدى الطویل. كافحت كي أجد طريقة أجعله فيها يعتقد بأنّه على الرّغم من ذلك، يجب أن نضع قدماً أمام القدم الأخرى كلّ يوم، وندعو أن يكون أفضل مع كلّ يوم تشرق فيه الشمس، وأنه إذا لم يكن إرثنا استحقاقاً، فلا بدّ أنّه أمل.

لأنّه إذا لم يكن كذلك، فإنّنا نصبح حاملين، مشرّدين، مهزومين. نصبح كما يظنّون من نحن.

استقللنا أنا وإديسون الحافلة إلى المنزل، ولم ينبس أحدنا بكلمة واحدة. لمّا انعطفتنا عند ناصية الشارع، قلت له إنّه محروم من الخروج من البيت. سألتني: «إلى متى؟»

فقلت: «مدّة أسبوع».

ابتسم، وقال: «حتّى إنّه لن يُدوّن في سجلي».

«كم مرّة قلت لك إنّه إذا أردت أن تؤخذ بجديّة، فعليك أن تكون أفضل من أيّ شخص آخر؟»

فقال إديسون: «أو ربّما يمكنني أن ألكم عدداً أكبر من البيض»، ثمّ أضاف، «لقد أخذني المدير على محمل الجدّ لأنّني فعلت ذلك».

زمنت شفّتي وقلت: «لمدّة أسبوعين».

اندفع محتتماً، وصعد الدرج في قفزة واحدة، ودفع باب البيت. كاد يوقع امرأة واقفة أمام الباب تحمل صندوقاً كبيراً من الورق المقوّى.

كينيدي.

كنت غاضبة جداً بسبب ما جرى لإديسون في المدرسة حتّى إنّني نسيت أنّنا كنّا قد اتفقنا على أن نلتقي بعد ظهر اليوم لمراجعة حقائق القضية التي توصلت إليها الولاية. «هل هذا وقت غير مناسب؟» سألتني

كينيدي بلطف، «يمكننا أن نؤجل الموعد...» شعرت بالحرارة تتدفق إلى خديّ، وقلت: «لا، الآن جيّد - شيء... غير متوقّع... حدث. يؤسفني أنّك سمعت ذلك. ابني ليس فظاً عادة». أبقيت الباب مفتوحاً لتدخل كيندي، «يزداد الأمر صعوبة عندما لا يعود بإمكانك أن تضربهم على المؤخّرة بعد الآن لأنهم أصبحوا أضخم منك».

بدأت أنّها كانت مصدومة، لكنّها غطّت ذلك بسرعة بابتسامة مهذبّة.

لمأ أخذت معطفها لأعلقه على المشجب، نظرت إلى الأريكة والكرسيّ ذي الذراعين، والمطبخ الصغير، وحاولت أن أرى كلّ ذلك بعينها: «هل تحبّين أن تشربي شيئاً؟»

«سيكون الماء رائعاً».

ذهبت إلى المطبخ لأملأ كأساً بالماء - كنت على بعد بضع خطوات منها فقط، تفصلني عنها الطاولة - في حين راحت كينيدي تنظر إلى الصور المصطّفة على الرّف. كانت أحدث صورة مدرسيّة لإديسون، وصورة لنا عندما كنّا في مركز التسوّق في واشنطن العاصمة، وصورة لي أنا وويسلي في يوم زفافنا.

بدأت تُفرغ صندوق الملفات الذي جلبته، وأنا جالسة على الأريكة. كان إديسون في غرفة نومه، غاضباً. ثمّ قالت كينيدي: «ألقيت نظرة على الوثائق، لكنّي أحتاج هنا إلى مساعدتك. إنّهُ جدول بيانات الطفل. يمكنني أن أفهم المصطلحات القانونيّة، لكنّي لا أجد قراءة المصطلحات الطبيّة».

فتحّطّ الملفّ، وشعرت بكتفي قد تشجّجت عندما قلبت صفحة الصورة الفوتوكوبي للملاحظة التي كتبها ماري. «كلّ شيء دقيق - الطول والوزن وحاصل أبغار والعينان والفخذان...»

«ماذا؟»

«إنّه مرهم مضادّ حيويّ للعين وجرعة فيتامين ك. إنّهُ معيار قياسيّ للأطفال حديثي الولادة».

مدّت كينيدي يدها وأشارت إلى رقم، وسألتنى: «ماذا يعني هذا؟»
«كان سكر دم الطفل منخفضاً. لم يكن قد رضع بعد. وكانت الأم مصابة بسكري الحمل، لذلك لم يكن ذلك أمراً مفاجئاً».

سألتنى: «هل هذا خطأ يدك؟»

«لا، لم أكن الممرضة المسؤولة عن الولادة. هذا خطأ لوسيل التي توليت المسؤولية عنها عندما انتهت ورديتها». قلبت الصفحة، ورحت أقرأ، «هذا تقييم المولود - الاستمارة التي كنت قد ملأتها. درجة الحرارة ثمانية وتسعون ونقطة واحدة، لا شيء يتعلّق بخصل شعره أو اليافوخ. فحص السكري: اثنان وخمسون - كان سكره يتحسن، رتاه صافيتان. لا توجد كدمات أو شكل غير طبيعيّ للجمجمة. الطول تسعة عشر إنشاً وخمس بوصات، ومحيط الرأس ثلاثة عشر إنشاً وخمس بوصات». هزرت كتفي، وأضفت، «كان الفحص جيّداً، باستثناء احتمال وجود نفخة قلبية. يمكنك أن تري أين ذكرت ذلك في الملف، ووضعت علامة تنبيه لفريق طبّ قلب الأطفال».

«ماذا قال طبيب القلب؟»

«لم يتسنّ له تشخيص الطفل، فقد مات قبل أن يُفحص». عبستُ، وسألتها: «أين نتائج فحص قدم الكعب؟»

«ما هذا؟»

«اختبار روتيني».

«سأطلبها»، قالت كينيدي، وراحت تقلّب الأوراق والملفّات حتّى ورقة عليها ختم الطبيب الشرعيّ، «آه، انظري إلى هذه... سبب الوفاة: نقص السكر في الدم أدّى إلى حدوث نوبة نقص السكر في الدم، أدّت إلى توقّف التنفّس والسكتة القلبية»، قالت كينيدي: «توقّف القلب كما في حال وجود: عيب خلقيّ في القلب؟»

أعطتني التقرير. قلت: «حسناً، صحيح، فقد كان صمّام قلب الطفل مفتوحاً من الدرجة الأولى».

«هل هذا يهدّد الحياة؟»

«لا، وعادة ما تُغلق من تلقاء نفسها في السنة الأولى من العمر».

«عادة»، قالت مكرّرة، «لكن ليس دائماً».

هزرت رأسي، ذاهلة، «لا يمكننا أن نقول إنّ الطفل مريض إذا لم يكن كذلك».

«ليس على الدفاع عبء الإثبات. يمكننا أن نقول أيّ شيء - إنّ الطفل تعرّض لفيروس إيبولا، وإنّ ابن عمّ بعيد له مات بمرض القلب، وإنّه أول طفل يولد لديه خلل في الكروموسومات لا تتوافق مع الحياة - علينا فقط أن نضع مساراً من فتات الخبز لهيئة المحلّفين، وأمل في أن يكونوا جائعين بما يكفي لمتابعتة».

رحت ألقب صفحات الملفّ الطيّ مرّة أخرى حتّى وجدت نسخة من ملصق الملاحظة، وقلت: «يمكننا أن نريهم هذه دائماً».

فقال كينيدي على نحو قاطع: «هذا لا يثير الشكّ، في الواقع، هذا يجعل هيئة المحلّفين تظنّ أنّه قد يكون لديك سبب بأنك كنت مستاءة في المقام الأول. دعيها تمرّ يا روث. ما الأمر المهمّ هنا حقاً؟ الأم من كدمة صغيرة أصابت غرورك؟ وإلا فإنّ المقصلة تتدلى فوق رأسك؟»

أطبقت بيدي على الورقة بقوة حتّى شعرت بوخزها، «ليست تلك كدمة صغيرة أصابت غروري».

«عظيم. إذاً اتفقنا. هل تريد أن تربحي القضية؟ ساعديني في إيجاد مسألة طبية تظهر أنّ الطفل كان سيموت، حتّى لو اتّخذت كلّ الإجراءات الممكنة لإنقاذه».

عندها، كدت أقول لها. كدت أقول إنني حاولت أن أنعش ذلك الطفل، لكن ذلك سيجعلني أعترف بأنني كذبت على كينيدي، عندما أقف هنا وأقول لها من الخطأ أن نكذب حول وجود خلل في القلب. فأدخلت إصبعي في فمي ورحت أمص الجرح. وجدت في المطبخ علبة ضمادات ووضعتها على الطاولة، ولففت ضمادة حول إصبعي الوسطى.

إنها ليست قضية عن نفخة قلبية. إنها تعرف ذلك، وأنا أعرف ذلك.

نظرت إلى طاولة المطبخ، ومررت إبهامي فوق حبيبات الخشب، وسألتها: «هل تعدين لابنتك الصغيرة سندويشات بزبدة الفول السوداني والجيلي؟»
«ماذا؟» رفعت كينيدي عينيها، وقالت: «نعم، بالتأكيد».

«كان إديسون صعب الإرضاء في الطعام عندما كان صغيراً. كان يقرّر أحياناً أنه لا يريد المرّي، وكان عليّ أن أحاول إزالته عن قطعة الخبز. لكن، كما تعلمين، لا تستطيعين أن تزيل المرّي من سندويشة زبدة الفول السوداني عندما تضعينهما. لا يزال بإمكانك أن تتذوقيه».

نظرت إليّ المحامية كما لو أنني فقدت صوابي.

«قلت لي أن لا علاقة لهذه الدعوى القضائية بالعرق، لكن هذا هو السبب الذي جعلها تحدث، ولا يهم ما إذا كان بإمكانك إقناع هيئة المحلفين بأنني متقمصة شخصية فلورنس نايتنجيل - لا يمكنك أن تستبعدي الواقع بأنني سوداء. فلو كانت بشرتي مثل بشرتك لما حدث لي كل هذا».

ثمّة شيء أغلق في عينيها. «أولاً»، قالت كينيدي بصوت هادئ، «قد توجه إليك التهمة بغض النظر عما هو عرقك. إن الآباء والأمهات الحزاني والمستشفيات التي تحاول ألا تجعل أقساط التأمين ترتفع كثيراً تخلق وصفاً مثالية لإيجاد كبش فداء. ثانياً، إنّي لا أختلف معك. صحيح أنه توجد لمسات عرقية محدّدة في هذه القضية، لكن في رأيي المهني، من المرجح أن يعوقك إثارته في المحكمة أكثر من أن تساعدك في الحصول على

حكم بالبراءة، ولا أظنَّ أنّها مجازفة يجب أن تجازفي بها فقط لتشعري بأنك أصبحت
تشعرين بالارتياح تجاه إهانة متخيّلة».

«إهانة متخيّلة»، قلت. رحّت أقلب الكلمات في فمي، وأمّرر لساني عبر الحواف
الحادة، «إهانة متخيّلة»، رفعت ذقتي وحدّقت إلى كينيدي، وسألته: «ما رأيك لو
كنتُ بيضاء؟»

هزّت رأسها، وقد شحب وجهها، وقالت: «لم أفكر في ذلك. قلت لك عندما جلسنا
في أول لقاء لنا إنّي لا أرى لونها».

«لا نتمنّع جميعنا بهذا الامتياز». مددت يدي إلى الضمادة ورحت أهرّها فوق
ملفّاتها وأوراقها. «لون البشرة»، قرأت العلبة، وقلت لها: «قولي لي، أيّ من هذه هو
لون البشرة؟ لون بشرتي؟»

برزت بقعتان لامعتان على خدّي كينيدي، وقالت: «لا يمكنك أن تلوميني على
ذلك».

«لا يمكنني؟»

اعتدلت في جلستها، وقالت: «أنا لسْتُ عنصريّة يا روث. وأنا أتفهّم أنّك مستاءة،
لكن ليس من العدل أن تتهميني بذلك، وأنا أحاول أن أبذل كلّ ما في وسعي -
أستخدم أفضل إمكاناتي المهنيّة - لمساعدتك. والله، لو كنت أسير في الشارع، وكان ثمّة
رجل أسود قادماً نحوي وأدرت أنّي أسير في الاتجاه الخطأ، فيأتي أوصل السير في
الاتجاه الخطأ بدلاً من أن ألتفت حتّى لا يفكر تلقائياً في أنّي خائفة منه».

فقلت: «هذه مبالغة في التعويض، وهذا شيء سيئٌ بالقدر نفسه»، وأضفت،
«قلت إنك لا تزين لون البشرة... لكن، هذا كلّ ما ترينه. إنك تفرطين في إدراك ذلك،
وفي محاولة أن تظهرني بأنك لست متحيّزة، حتّى إنك لا تستطيعين أن تفهمي ذلك
عندما تقولين إنّ العرق لا يهمُّ وكلّ ما أسمعُه منك أنّك تتجاهلين ما كنت أشعر به،
وما عشته، وكيف أشعر عندما أُحبط بسبب لون بشرتي».

لا أعرف أيّ واحدة منّا فوجئت بثورة غضبي أكثر: كينيدي لأنها تظنّ أنني ممتنة للاستماع إلى نصائحها المهنية، أم أنا لأنني أطلقت العنان لوحش كان مختبئاً داخلي طوال هذه السنوات. كنت أكنم متربّصة، أنتظر شيئاً يهزّ تفاؤلي الذي لم يكن يتزعزع ثمّ أحزّه من عقاله.

هزّت كينيدي رأسها، زامة شفيتها، وقالت: «إنك على حقّ. فأنا لا أعرف كيف تكون الحال عندما يكون المرء أسود. لكنّي أعرف كيف تكون الحال في قاعة المحكمة. فإذا ما أثرت مسألة العرق في المحكمة، فإنّك ستخسرين القضية. يحبّ المحلّفون الوضوح. يحبّون أن يكونوا قادرين على القول، بسبب ألف، النتيجة باء. وإذا رششتِ العنصرية فوق ذلك، فسيصبح كلّ شيء غامضاً وغائماً»، قالت وبدأت تجمع ملفّاتها وتقاريرها وتعيدها إلى حقيبتها، ثمّ أردفت: «لا أحاول أن أجعل الأمر يبدو كأنّ مشاعرك لا تهمني، أو أنني أعتقد أنّ العنصريّة ليست شيئاً حقيقياً. إنّي أحاول فقط أن أبرّئك».

الشكّ مثل لسعة صقيع، رحت أرتجف عند حواف دماغي. «لعلنا يجب أن نهدأ كلتانا»، قالت كينيدي بطريقة دبلوماسيّة.

نهضت واقفة على قدميها وسارت نحو الباب، وقالت: «أعدك يا روث، يمكننا أن نربح هذه القضية من دون إثارة هذا الأمر».

بعد أن أغلق الباب خلفها، جلست شابكة يديّ في حضني.

كيف، تساءلت، يمكن أن نربح القضية؟

حككت عند حافة الضمادة حول إصبعي، ثمّ اتّجهت نحو الزهرية المركونة على الرفّ إلى جانب التلفاز. أخرجتُ المغلّف، ورحت أبحث بين الشيكات حتّى وجدت ما كنت أبحث عنه.

بطاقة والاس ميرسي.

تورك

يحبّ فرانسيس أن يفتح منزله لأعضاء الحركة بعد ظهر كلّ يوم أحد. فعندما تتوقّف المجموعات عن الطواف في الشوارع لتصيد أشخاصاً يمكن العبث بهم، لا يكاد أحدنا يرى الآخر. ويمكنك أن تتواصل مع كثير من الأعضاء عبر شبكة الويب العالميّة، لكنّه يظلّ مجتمعاً بارداً، يخلو من العلاقات الشخصية الدافئة. وما أنّ فرانسيس يعرف ذلك، كان الشارع يمتلئ مرتين في الشهر بسيارات قادمة من ولايات بعيدة مثل نيوجيرسي ونيو هامبشاير، ويستمتعون بضيافة فرانسيس في المساء. فتحت التلفاز على مباراة كرة قدم للرجال، وتجمّعت النسوة مع بریت في المطبخ، يجهزن الطعام، ويتبادلن الأحاديث. وأخذ فرانسيس على عاتقه ترفيه الفتیان الأكبر سنّاً بالقاء محاضرات عليهم. يمكنك أن تقف من بعيد، وتكاد ترى الكلمات تنبعث من فمه كاللهب، كما لو كان تينناً، في حين يجلس عند قدميه الفتیان مأخوذین بما يقوله.

مضت ثلاثة أشهر تقريباً منذ آخر لقاء يوم الأحد. إذ لم نر هؤلاء الأشخاص منذ جنازة ديفيس. صدقاً، لم أفكر في ذلك لأنني لا أزال أتعزّ مثل زومبي. لكن، لمّا طلب إليّ فرانسيس أن أوجّه دعوة على موقع Lonewolf.org، فعلت ذلك على الفور، فلا يمكنك أن تقول لا لفرانسيس.

امتلاً البيت مرّة أخرى، لكنّ الأمر كان مختلفاً قليلاً هذه المرّة، فقد أراد الجميع أن يتحدثوا إليّ والاطمئنان عليّ. مكثت بریت، التي ألمّ بها صداع، في غرفة نومنا، حتّى إنّها لم تشأ أن تتظاهر بأنّها اجتماعيّة، وظلّ فرانسيس المضيف السعيد، يفتح قناني البيرة، ويمتدح السيدات على قصّات شعرهنّ، والأطفال ذوي العيون الزرق، أو طعم أنواع الكعك اللذيذ. لمّا

وجدني جالساً وحدي إلى جانب الكراج، عندما ذهبت لأفرغ كيس القمامة، قال:
«يبدو أن الناس يمضون وقتاً ممتعاً».

هزرت رأسي، وقلت له: «يحبّ الناس البيرة المجانيّة.»

نظر إليّ بمكر وسألني: «هل كلّ شيء على ما يرام؟» وهو يقصد بعبارة «كلّ شيء»، «بريت. لمّا هزرت كتفي، زمّ شفّتيه، وقال: «كما تعرف، لمّا غادرت أمّ بريّت، لم أفهم لماذا بقيتُ هنا. فكّرت كثيراً في الانتقال من هنا. كنت أعتني بطفلي البالغة من العمر ستّة أشهر، لكنّي لم أجد الإرادة للانتقال من هنا. وفي أحد الأيام، فهمت السبب: عندما نفقد الأشخاص الذين نحبّهم، فإنّنا نشعر بامتنان أكبر للأشخاص الذين لا يزالون بين ظهرانيّنا. إنّه التفسير الوحيد الممكن.»

رَبّت على ظهري بقوة وسار إلى الباحة الخلفيّة الصغيرة المسيّجة. انتبه المراهقون الصغار الذين أحضرهم أبائهم إلى هنا، واستيقظوا على جاذبيته. جلس وأسند ظهره إلى جذع شجرة وبدأ نسخته من مدرسة يوم الأحد. «من يحبّ الألغاز؟» هناك إمّاءة، دندنة عامة بالموافقة، «جيد. من يستطيع أن يقول لي من هو إسرائيل؟»
«إنّه لغز محير»، تمتم أحدهم نكزه الصبيّ الجالس إلى جانبه بمرفقه.
صاح صبيّ آخر: «بلد ممتلئ باليهود.»

فقال فرانسيس: «ارفعوا أيديكم، ولم أسأل ما هي إسرائيل. سألت مَنْ هو؟»
لوّح فتى، نبت زغب فوق شفّته العليا، بيده، فأشار إليه فرانسيس. «يعقوب. بدأ يُدعى بهذا الاسم بعد أن حارب الملاك في فنوئيل.»

فقال فرانسيس: «لدينا فائز هنا»، ومضى يقول: «لقد أنجب إسرائيل اثني عشر ابناً - ومن هنا جاء أسباط إسرائيل الاثني عشر، هل تتابعون ما أقوله?...»

لَمَّا عدتُ إلى المطبخ، رأيت بضع نسوة يتحدّثن، تحمل إحداهنّ طفلة تبكي بحرقة، «كلّ ما أعرفه أنّها لم تعد تنام طوال الليل، وكنت متعبة جداً حتّى إنّني خرجت من البيت وأنا في ثياب النوم لأذهب إلى العمل، لكنّي سرعان ما أدركت ذلك».

فقال لها إحداهنّ: «إنّي أستخدم الويسكي، أفركه على لثة الطفل».

«لا يمكننا أن نعطيهم ذلك في سنّ مبكرة جداً»، قالت امرأة أكبر سنّاً، فضحكن.

لَمَّا رأييني واقفاً هناك، سقط الحديث كما تسقط صخرة من منحدر، ثمّ قالت المرأة الأكبر سنّاً: «تورك». لم أكن أعرف اسم تلك المرأة، لكنّي عرفتُها من وجهها، لأنّها كانت هنا قبل الآن، «لم أرك عندما دخلت».

لم أردّ عليها. التصقت عيناى بالطفلة ذات الوجه الأحمر، وهي تلوّح بقبضتيها وتبكي بحرقة، ولم يعد بإمكانها أن تلتقط أنفاسها.

امتدّت ذراعاى إليها وقلت: «هل أستطيع...؟»

نظرت النسوة إلى بعضهنّ، ثمّ وضعت الأمّ الطفلة بين ذراعيّ. دُهمشت لخفّة وزن الطفلة، وتشنّجت ذراعاها وساقاها وهي تبكي. «شش»، بدأت أقول لها، وأرَبت عليها، «اهدئي الآن».

لَمَّا بدأت أفرك ظهرها بيدي، ووضعتها على كتفي، بدأ صراخها يتحوّل إلى فواق. «انظر إليه، مهدّي الأطفال»، قالت أمّها وهي تبتسم.

هكذا كان من الممكن أن يكون.

هكذا كان ينبغي أن يكون.

أدركت فجأة أنّ السيدات لم يعد ينظرن إلى الطفلة، وإمّا رحن يحدّقن إلى شيء خلفي. التفتُّ. نامت الطفلة بسرعة، وتشكّلت فقاعات صغيرة من البصاق بين شفّتيها.

«يا يسوع!»، صاحت بریت. ثم استدارت وركضت خارج المطبخ. ثم سمعت باب غرفة النوم يصفق خلفها بقوة. «المعذرة»، قلت وأعدت الطفلة إلى أمها بلطف وبسرعة، ثم ركضت وراء بریت.

كانت مستلقية على سريرنا وقد أولت ظهرها لي. ثم قالت: «أكرههنّ. أكرههنّ لأنهنّ في بيتي».

«بریت. إنهنّ يحاولن أن يکنّ لطيفات».

فقلت بصوت عالٍ: «هذا أكثر شيء أكرهه». كان صوتها حاداً مثل نصل سكين: «أكره الطريقة التي ينظرن بها إليّ».

«ليس هذا ما...»

«كلّ ما أردته هو أن أشرب كأس ماء مينك. هل هذا كثير؟»

«كنت سأجلب لك الماء...»

«ليست هذه هي المشكلة يا تورك».

«وما هي؟» همست.

استدارت بریت. عيناها تسبحان بالدموع، وقالت: «تماماً»، وأجهشت إلى البكاء مثل تلك الطفلة، لكن حتى بعد أن ضممتها إليّ بقوة، ورحت أفرك ظهرها، لم تتوقّف عن البكاء.

كان شعوراً غريباً أنّني أهدئ بریت وهي تبكي كما لو أنّني أهدهد طفلاً رضيعاً. هذه ليست المرأة التي تزوّجتها. تساءلت إن كنت قد دفنت تلك الروح الشرسة مع جثة ابني.

بقينا هناك، في شرنقة غرفة النوم، حتى بعد أن غربت الشمس وذهبت جميع السيارات وعاد المنزل خاوياً بوقت طويل.

في الليلة التالية، جلسنا جميعاً في غرفة الجلوس نشاهد التلفاز. كنت قد بدأت أكتب على الكمبيوتر منشوراً على موقع Lonewolf.org عن

شيء حدث في سينسيناتي. أحضرت لي بریت كأساً من البيرة وتكوّرت إلى جانبي، أوّل تواصل منذ، حسناً، لا أستطيع حتّى أن أتذكّر. «ماذا تكتب؟» سألتني، ومدّت رقبتها لتتمكّن من قراءة ما كتبه.

قلت لها: «ثمّة زنجيان ضربا صبيّاً أبيضاً في المدرسة وكسرا ظهره، لكن لم توجّه إليهما أيّ تهمة. يمكنك أن تراهني على أنّه لو كان الأمر عكس ذلك، لأتهمّ الصبية البيض بالاعتداء.»

وجّه فرانسيس جهاز التحكّم إلى التلفاز، وقال: «هذا لأنّ مدينة سينسيناتي تقع في الشريحة المئويّة التاسعة والتسعين من المدارس الخرائيّة»، وأضافت، «الطاقم الإداري فيها كلّ من السود. ما الذي نريده حقّاً لأطفالنا؟»

«هذا جيّد»، قلت وطبعت الكلمات التي قالها، «سأنهي المنشور بها.»

أخذ فرانسيس يقلّب محطّات الكابل، ثمّ سأل: «كيف تصادف أنّه توجد قناة ترفيهيّة للسود (*Black Entertainment TV*) ولا توجد قناة ترفيهيّة للبيض؟» ويقول الناس إنّّه لا توجد عنصرية عكسية. أطفأ التلفاز ونهض واقفاً، وقال: «سأذهب لأنام.»

قبّل بریت على جبينها وخرج وتوجّه إلى جناحه في البيت ذي الطابقين. توقّعت أن تنهض بریت أيضاً، لكنّها لم تبدِ أيّ حركة لتغادر.

ثمّ سألتني: «ألا يقتلك الانتظار؟»

رفعت عينيّ إليها وسألتها: «ماذا تقصدين؟»

«يبدو أنّه لم يعد هناك شيء عاجل. إنك لا تعرف من هم الذين يقرؤون الأشياء التي تنشرها.» التفتُّ وأصبحنا وجهاً لوجه، وجلست القرفصاء، وقالت: «في الماضي كانت الأمور أكثر وضوحاً. فقد تعلّمت ألواني من النظر إلى أربطة أحذية الرجال الذين كان أبي يلتقيهم. إذ يستخدم أعضاء القوة البيضاء والنازيون الجدد أربطة أحذية حمراء أو بيضاء، أمّا

أعضاء منظمة حليقي الرؤوس المناهضة للتحيز العنصري، فهم يستخدمون أربطة زرقاء أو خضراء».

ابتسمت ابتسامة متصنعة، وقلت: «أجد صعوبة في أن أتصور أن والدك يلتقي أعضاء من منظمة حليقي الرؤوس المناهضة للتحيز العنصري لأنهم أكبر خونة للعرق يمكنك أن تلتقي بهم. إنهم يستهدفون الذين يحاربون الضوء الجيد منا للقضاء على الأجناس الأقل أهمية. يظنون أنهم ينكحون الرجل الوطواط، كل واحد من هؤلاء.

فأجابت بریت: «لم أقل لك إنه كان... لقاء ودياً. لكنه كان يفعل ذلك أحياناً. لقد فعلت ما كان عليك أن تفعله - حتى لو بدا متناقضاً مع المنطق - لأنك ترى الصورة الكبيرة». نظرت إليّ، وسألتنى: «هل تعرف العم ريتشارد؟»

لا أعرفه شخصياً، لكن بریت تعرفه. إنه ريتشارد بتلر، رئيس منظمة الشعوب الآرية، الذي مات عندما كانت بریت في السابعة عشرة من عمرها.
«كان العم ريتشارد صديق لويس فرخان».

زعيم أمة الإسلام؟ كان هذا خبراً جديداً بالنسبة إليّ. «لكنه...»
«أسود؟ نعم. لكنه يكره اليهود والحكومة الفيدرالية بقدر ما نكرههما نحن. كان أبي يقول دائماً إن عدو عدوي صديقي». هزت بریت كتفيها بلا مبالاة، وأضافت: «كان ذلك نوعاً من التفاهم غير المعلن: بعد أن نعمل معاً لإسقاط النظام، يبدأ أحدهما يقاتل الآخر».

لا شك في أننا سننتصر.

نظرت إليّ ملياً وقالت: «ما الذي نريده حقاً لأطفالنا؟»، مكررة تعليق فرانسيس السابق، «أنا أعرف ما الذي أريده لابني. أريد أن تبقى ذكراه حيّة».
«حبيبتى، تعرفين أننا لن ننسأه».

فقالَت بریت: «ليس نحن»، وفجأة، أصبحت كلماتها قاسية، «الجميع». نظرت إليها. أعرف ما الذي تقوله: إنَّ كتابه مدوَّنة قد تتسبَّب في انهيار الأسس، لكنَّ الشيء الأكثر إثارة - والأسرع - هو أن تفجَّر المبنى من أعلاه إلى أسفله. إلى حدِّ ما لم أواكب حركة حليقي الرؤوس التي كانت في أوج أيامها قبل أن أولد بعشر سنين. تخيلت عالماً عندما رأيت الناس فيه قادماً، هربوا. تذكَّرت كيف أمضينا أنا وفرانيسيس السنيتين الماضيتين ونحن نحاول إقناع الأعضاء بأنَّ عدم الكشف عن هوياتهم الحقيقيَّة أكثر مكرماً وخداعاً - ومرعباً - من التهديدات العلنيَّة. قلت: «أبوك لا يوافق على ذلك».

انحنيت بریت وقبَّلتني برقَّة، وابتعدت قليلاً حتَّى أصبحت أريد المزيد. يا إلهي! كم اشتقت إلى ذلك! كم اشتقتُ إليها!
أجابت: «الشيء الذي لا يعرفه أبي لا يمكن أن يؤذيه».

كان راين سعيداً بمكالمتي الهاتفيَّة. لم أره منذ سنتين. لم يحضر حفل زفاني لأنَّ زوجته كانت قد أنجبت طفلهما الثاني. كَمَا قلت له إنِّي سأمضي اليوم في براتلبورو، دعاني لتناول الغداء في منزله. كان متحمَّساً جداً، فكتبْتُ العنوان على منديل.

في البداية، حُيِّل إليَّ أنني ذهبت إلى المكان الخطأ: مزرعة صغيرة في طريق مسدود، على جانبها صندوق بريد في شكل قطة، ووضعت على العشب أمام المنزل لوحة بلاستيكية حمراء تلمع، وعُلِّقت إلى جانب الباب الخارجي لعبة في شكل رجل ثلج خشبيٍّ، صغيرة الحجم، وكُتِب على الحصيِّرة الممدودة أمام الباب عبارة ترحيب: أهلاً وسهلاً. نحن التسكو.

ثمَّ ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة بطيئة. هذا اللقيط الذكيُّ؛ فقد نقل فكرة التواري عن الآخرين إلى مستوى جديد تماماً. أقصد، من يتوقَّع أن يكون الأب الذي يعيش في البيت المجاور، والذي يغسل شرفته

باستمرار ويسمح لابنه أن يقود درّاجة بثلاث عجلات على الدرب - من العنصرين البيض؟

فتح راين الباب حتّى قبل أن تتاح لي الفرصة لأقرعه، يحمل بين ذراعيه طفلاً صغيراً مكتنزاً، ومن بين برجّي ساقيه، أطلّت فتاة صغيرة خجول، ترتدي تنورة مهترئة، وتضع على رأسها تاج أميرة. ابتسم ابتسامة عريضة، ومدّ يديه ليعانقني. لم أمالك نفسي من ألا ألاحظ أنه يضع طلاء أظافر وردياً براقاً.

«أخي»، قلت وألقيت نظرة سريعة على أصابعه، «عرض أزياء جميل».

«يجب أن ترى كم أنني جيّد في حفلات الشاي. تفضّل. يا رجل، كم سعدت برؤيتك!»

دخلتُ، وقد اندسّت الفتاة الصغيرة وراء ساقّي رين. «ميرا»، قال وهو يقرفص على الأرض، «هذا تورك، صديق بابا».

وضعت الفتاة إبهامها في فمها، كما لو أنّها تقيّم حجمي. «إنّها لا تجيد التعامل مع الغرباء»، قال راين وهو يداعب الطفل الذي يحمله بين ذراعيه، «هذا الصبّي الضخم إسحق».

تبعته إلى داخل المنزل حيث تناثرت اللعب مثل قصاصات الورق، ودخلنا غرفة الجلوس. أحضر لي راين علبة بيرة باردة، لكنه لم يجلب علبة لنفسه. سألته: «هل سأشرب وحدي؟»

هزّ كتفيه وقال: «لا تحبّ سال أن أشرب أمام الأطفال. إنّها ترى أنّني لا أقدم لهما مثلاً جيداً عندما أفعل ذلك، وهراء من هذا النوع».

سألته: «أين سالي؟»

قال: «في العمل! إنّها تعمل في قسم التصوير بالأشعة في مستشفى المحاربين القدامى. أنا أعمل من حين إلى آخر، لذلك أمكث في المنزل مع الطفلين».

قلت: «جميل»، ورشفت رشفة طويلة من القنينة.

وضع راين إسحق على الأرض، فبدأ يمشي مترنحاً مثل سكران صغير. وجرت ميرا في الردهة إلى غرفة نومها، تخبط بقدميها مثل طليقة مدفعية. «إذاً، كيف أحوالك يا رجل؟» سألني راين، «هل أنت على ما يرام؟»

أسندت مرفقي على ركبتي، وقلت: «يمكن أن أكون أفضل. وهذا ما جاء بي إلى هنا».

«مشكلات في الجنة؟»

أدركت أن راين لا يعرف أننا، أنا وبريت، أنجبنا طفلاً وفقدناه. بدأت أحكي له القصة بأكملها - بدءاً من تلك الممرضة السوداء إلى اللحظة التي توقفت فيها ديفيس عن التنفس، ثم قلت: «إني أدعو كل الفرق، بدءاً من فرقة الموت في أمريكا الشمالية في فيرمونت حتى حليقي الرؤوس في ولاية ماريلاند. أريد يوم ثار لأجل ابني».

لما لم يجب راين، انحنيت إلى الأمام، وقلت: «إني أتحدث عن القيام بأعمال تخريب. قتال كما الطريقة القديمة. قنابل نارية. أي شيء يمكن أن يسبب ضحايا. الأمر متروك للفرق الفردية وقادتها، لكن أريد شيئاً مرئياً يلفت الانتباه إلينا. أعرف أن ذلك يتعارض مع ما كنا نعمل لأجله عندما اندمجنا، لكن ربما حان الوقت لتذكير بسيط بقوتنا، كما تعرف؟ قوتنا في أعدادنا. فإذا ما فعلنا عملاً كبيراً فلن يتمكنوا من اعتقالنا جميعاً». نظرت في عينيه، وأضفت، «إننا نستحق ذلك. ديفيس يستحق ذلك».

في تلك اللحظة، سارت ميرا في الردهة، ووضعت تاجاً على رأس أبيها. رفعه ونظر إلى القوس الرخيص المصنوع من ورق القصدير، وقال لها: «حبيبتى، هل يمكنك أن تذهبي وترسمي لي صورة؟ إنها فتاة جيدة». تبعها بعينيه وهي تسير عائدة إلى غرفتها. ثم قال لي: «أظن أنك لم تسمع».

«أسمع ماذا؟»

«لقد خرجت يا رجل. لم أعد في الحركة».

رحت أحَدَق إليه، مشدوهاً. إذ كان راين هو من عَرَفني إلى القوة البيضاء، ولمَّا انضمت إلى فرقة الموت في أمريكا الشمالية أصبحنا إخوة مدى الحياة. إنَّه شيء لا يمكنك أن تتخلى عنه بسهولة.

ثمَّ تذكَّرت فجأةً وشم الصليب المعقوف الذي كان مرسومًا على طول ذراع راين. نظرت إلى كتفيه، عضلات ذراعيه. لقد عدَّل وشم الصليب المعقوف وحوَّله إلى شكل عريشة عنب، ولم يعد بإمكانك أن تعرف الرموز التي كانت مرسومة على ذراعه.

«حدث ذلك منذ سنتين. كنَّا قد ذهبنا أنا وسالي إلى أحد تلك التجمُّعات في ذلك الصيف، مثلك ومثلي، والشبان أمثالنا، وكان كلُّ شيء رائعاً ماعداً أنَّه كان هناك شبَّان ينتظرون في طابور لمضاجعة فتاة من ذوي الرؤوس الحلبيقة في خيمتها. أَرعب ذلك سالي لأنَّنا أخذنا طفلتنا إلى مكان تحدث فيه مثل هذه الأشياء، فبدأت أذهب إليها وحدي، وأترك الطفلة مع سالي. وفي أحد الأيام، استُدعينا إلى روضة الأطفال لأنَّ ميرا حاولت أن تدفن طفلاً صينياً في صندوق الرمل، وقالت إنَّها كانت تلعب لعبة القطَّة، وهذا ما تفعله القطط ببرازها. تظاهرتُ بأنني صُدمت، لكن عندما خرجنا من مبنى المدرسة قلت لميرا إنَّها فتاة جيِّدة. وفي أحد الأيام، ذهبت إلى مخزن بقالة، وأخذت ميرا معي. أظنُّ أنَّها كانت في الثالثة من عمرها. كنَّا ننتظر دورنا، وكانت العربة ممتلئة بالأغراض التي اشتريناها، وكان الناس يحدِّقون إليَّ، كما تعرف، بسبب الوشم وهذه الأشياء، وكنت معتاداً ذلك. كان يقف وراءنا في الطابور رجل أسود، فقالت ميرا ببراءة: «بابا، انظر إلى هذا الزنجي». رفع راين عينيه، وأضاف، «لم أفكر في الأمر، لكنني سمعت المرأة الواقفة أمامنا في الطابور تقول لي: «عيب عليك»، وقالت لي العاملة في المخزن: «كيف تجرؤ على تعليم طفلة بريئة ذلك؟» وسرعان ما بدأ جميع من في المخزن يصرخون، وبدأت ميرا تبكي، فأمسكت بابنتي وتركت العربة الممتلئة بالأغراض خلفي وجريت إلى سيارتنا. في تلك اللحظة، بدأت أتساءل، ربَّما إنَّني لم أكن أفعل

الشيء الصحيح. أقصد أنّ من واجبي أن أربي أطفالي ليكونوا محاربين عنصريين - لكن ربّما لم يكن ذلك لصالح ميرا، وربّما كان كلّ ما كنت أفعله أنني أعدّها لحياة تجعل الجميع يكرهونها».

رحت أحده. «ماذا ستخبرني أيضاً؟ أن تتطوّع في المعبد المحليّ؟ أعزّ صديق لك هو آسيويّ؟»

«لعلّ الخراء الذي كنّا نقوله طوال تلك السنوات غير قانوني. إنّه الطّعم المطلق يا رجل. لقد وعدونا بأننا سنكون جزءاً من شيء أكبر منا، وأننا سنفتخر بتراثنا وبعرقنا، وربّما لم يكن ذلك يتجاوز عشرة في المئة من الصفقة كلّها، والبقية كراهية أيّ شخص آخر لأنّه موجود. لمّا بدأت أفكر في ذلك، لم أستطع أن أتوقف، ربّما لهذا السبب كنت أشعر بالاشمئزاز دائماً، كما لو كنت أريد أن أهشم وجه أحدهم، لأذكّر نفسي أنّ في استطاعتي أن أفعل ذلك. لم أكن أمانع بأن أعمل ذلك، لكنني لم أشأ أن يكبر أطفالي على تعلّم هذه الطريقة في الحياة». هزّ كتفيه، وأضاف، «ذات يوم، انتشر خبر بأنني أريد أن أنسحب. كنت أعرف أنّها مسألة وقت. هاجمني أحد رفاقي في ساحة وقوف السيارات بعد أن ذهبنا أنا وسالي إلى السينما، أوسعني ضرباً، فنقلت في إثرها إلى المستشفى، وعالجوني ببعض القطب. لكن، بعد ذلك، انتهى كلّ شيء».

نظرت إلى راين، الذي كان أعزّ صديق لي، وكما لو أنّ الضوء قد انزاح وبدأت أرى شيئاً مختلفاً تماماً. جان. خاسر.

«إنّ ذلك لا يغيّر شيئاً»، قال راين، «ما زلنا إخوة، أليس كذلك؟»

فقلت: «بالتأكيد. دائماً».

ثمّ اقترح قائلاً: «ربّما تأتي أنت وبريت ونذهب للتزلّج هذا الشتاء».

«سيكون ذلك رائعاً». أنهيت بيرتي ونهضت واقفاً، وقلت له إنني يجب أن أذهب قبل حلول الظلام. وبينما بدأت أبتعد بالسيارة، راح راين يلوّح لي، وكذلك طفله إسحق.

أعرف أنني لن أراها مرة أخرى.

* * *

بعد يومين، التقيتُ قادة الفرق السابقين على امتداد الساحل الشرقي، الذين كانوا يشاركون، ماعدا راين، في كتابة منشورات عبر موقع *Lonewolf.org*، وكلهم يعرفون ما الذي حدث لديفيس حتى قبل أن أبدأ أحكي لهم القصة. كان لديهم جميعاً تاريخ مع فرانسيس - فقد سمعوه ذات يوم وهو يتحدث في أحد التجمعات الحاشدة، وكانوا يعرفون أنه قتل رجلاً.

مرهقاً وجائعاً، ركنت سيّارتي أمام منزلنا. لمّا رأيت وميض التلفاز في غرفة الجلوس - مع أنّ الساعة تقارب الثانية صباحاً - أخذت نفساً عميقاً، فقد كنت أمل أن أنسلّ إلى المنزل من دون أن يلاحظني أحد، لكن كان عليّ الآن أن أختلق عذراً لفرانسيس عن سبب خروجي من دون أن أخبره.

لدهشتي، كانت بريت جالسة على الأريكة، مرتدية أحد قمصاني، ويصل إلى فخذيها مثل فستان. عبرت الغرفة، انحنيت، وقبّلتها على رأسها، وقلت لها: «حبيبتي، ألم تنامي بعد؟»

هزّت رأسها. نظرتُ إلى شاشة التلفاز حيث كانت ساحرة الغرب الشرييرة منحنية إلى جانب دوروثي، تهددها. سألتني: «هل شاهدت هذا من قبل؟»
«نعم. هل تريد أن أقول لك كيف ستنتهي؟» قلت لها مازحاً.

«لا، أقصد أنها تشبه قصة خرافية كاملة عن منظمة القوة البيضاء. الساحر الذي يسحب خيوط الجميع يهودي صغير. ولون بشرة الشريير غريبة، وهو يعمل مع القروود.»

جثوت أمامها، موجّهاً انتباهها. «لقد فعلتُ ما وعدتُ به. قابلت كلّ الرجال الذين كانوا يديرون الفرق. لكن، لم يشأ أحد منهم أن يجازف. أظنّ

لأنَّ والدك أحسن صنعاَ عندما أقنعهم بأنَّ أسلوبنا الجديد هو السريَّة. إنَّهم لا يريدون أن يجازفوا بأنفسهم ويدخلوا السجن».

«حسناً، أنا وأنت يمكنكنا...»

«بريت، إذا حدث خطأ ما، فإنَّ أول شخص ستبحث عنه الشرطة هو الشخص الذي له صلة بالحركة. وقد ذُكر اسمنا في وسائل الإعلام بسبب الدعوى القضائيَّة». تردَّدت قليلاً، «تعرفين أنني مستعدَّة لأن أفعل أيَّ شيء لأجلك، لكنك بدأت تعودين إليَّ. إذا حُكم عليَّ بالسجن، فإنِّي سأخسرك مرَّةً أخرى». ضمنتها إليَّ، وأضفت: «أنا آسف يا عزيزتي، ظننت أنني سأنجح في ذلك».

قبَّلتني، وقالت: «أعرف. لكن الأمر جدير بالمحاولة».

«لنذهب إلى السرير؟»

أطفأت بريت التلفاز، ودخلنا غرفة النوم. نزعْتُ عنها قميصها ببطء، وتركتها تخلق حذائي وبنطالي الجينز. لمَّا اندسسنا تحت الغطاء، ضغطتُ بجسدي على جسدها، لكن عندما بدأت أتحركُ بين ساقَيْها، كان مرخيًّا، انزلق من داخلها.

نظرت إليَّ في الظلام، عيناها غائمتان، وذراعها فوق بطنها الناعم. «هل أنا السبب؟» سألتني بصوت يكاد يكون همساً كدت أسمعُه.

«لا»، أقسمتُ، «إنك جميلة. هذا الخراء الغبي الذي يدور في رأسي».

تدحرجت بعيداً عني. حتَّى وهي بعيدة عني، يمكنني أن أشعر بحرارة بشرتها الحمراء من الخجل.

قلت لها من وراء ظهرها: «أنا آسف».

لم تردِّ بريت.

استيقظت في منتصف الليل ومددت يدي نحوها. لم أفكر في السبب الذي جعلني أفعل ذلك. ربَّما إذا لم أعد أفكر بالطريقة التي أفكر فيها،

فقد أشعر بشيء من الراحة. راحت يدي تجوس فوق الملاءات، لكنّها لم تجد بریت. في البداية، كان هناك عدد كبير منّا، وكنا جميعاً مختلفين. قد تكون من منظمة الشعوب الآرية، لكنك لست من «حليقي الرؤوس» وذلك يتوقّف على ما إذا كنت تعتنق لاهوت الهوية المسيحيّة أم لا. فقد كان معظم البيض الذين يؤمنون بتفوّق العرق الأبيض أكاديميين ينشرون إطروحات، أمّا حليقو الرؤوس فهم أكثر عنفاً، يفضّلون تلقين دروس بقبضات أيديهم. أمّا الانفصاليون البيض فهم الذين يشتررون أراضي في نورث داكوتا، ويحاولون تقسيم البلد، وإلقاء أيّ شخص ليس أبيض خارج المحيط الذي صنعوه لأنفسهم. وكان النازيون الجدد خليطاً بين منظمة الشعوب الآرية ومنظمة الإخوان الآريين في السجون - إذا كان هناك عنصر إجرامي في عصابات شوارع عنيفة للحركة، فإنّهم هم. وهناك الأودونيون والخلقيون وأتباع كنيسة الخالق العالمية. لكن، على الرّغم من الأيديولوجيّة التي قسمتنا إلى جماعات منفصلة، فإنّنا نلتقي جميعاً في يوم محدّد في السنة لنحتفل: 20 نيسان (أبريل)، عيد ميلاد أدولف هتلر.

تقام مهرجانات للاحتفال بعيد الميلااد في جميع أرجاء البلد، مثل اجتماعات جماعة كو كلوكس كلان القديمة التي حضرتها عندما كنت مراهقاً. يلتقون عادة في بقعة نائية، أو في أرض محمية لا يعرفها أحد، أو في أي قرية تشبه قرية في جبال الألب، وتعطى الاتجاهات شفويّاً، وتوضع إشارات على المنعطفات بأعلام صغيرة حمراء. قد أكون قد حضرت خمسة مهرجانات أقامتها منظمة الشعوب الآرية منذ انضمامي إلى حركة القوة البيضاء، لكنّ هذا المهرجان كان خاصاً. ففي هذا المهرجان، أوشكت أن أتزوج.

حسناً، في الروح، في الأقل. من الناحية القانونية، كان علينا، أنا وبريت، أن نذهب إلى مبنى البلدية الأسبوع المقبل لنملاً الأوراق الرسميّة، أمّا من الناحية الروحيّة، فقد كان حفل الزفاف سيقام تلك الليلة.

كنت في الثانية والعشرين من عمري، وكنت في ريعان شبابي. لم تشأ بريت أن أبقى معها بصحبة فتيات أخريات، فذهبت إلى المكان الذي يقام فيه المهرجان. على نحو عام، كان عدد الأشخاص الموجودين أقلّ بكثير ممّا كان يوجد في الاحتفالات السابقة التي حضرتها قبل خمس سنوات، ويعزى ذلك في الغالب إلى أنّ رجال الشرطة الفيدرالية بدؤوا في اتّخاذ إجراءات صارمة في الأماكن التي نلتقي فيها. لكن، على الرّغم من ذلك، كانت هناك المجموعات المعتادة من السكارى، يتشاجر بعضهم، ويتبول بعضهم الآخر وراء الخيام المحمولة حيث يبيع الباعة كلّ شيء بدءاً من نقانق الذرة حتّى كيلوات تونخ المكتوب عليها عبارة (أحبّ حليقي الرّؤوس). وكان هناك مكان مخصّص للأطفال توجد فيه دفاتر تلوين وقلعة مطاطية يقفزون فوقها، يرفرف عليها علم النازيين، كبير الحجم، ملفوفاً إلى الوراء كما كان يُرى في القصر الرّياضيّ حيث يلقي هتلر خطاباته النارية. وفي نهاية صفّ بائعي الأطعمة والسلع الأخرى، يوجد رسّامو الوشم، الذين يزداد الطلب عليهم في هذه المهرجانات.

اخترقت الطابور، مع أنّي كنت أعرف أنّ ذلك سيثير غضب الرجل الذي أخذت دوره. تشاجرنا، ولكمته على أنفه فسأل قليل من الدم، فأغلق فمه وتركني آخذ مكانه. لمّا جلست أمام فنّان الوشم، نظر إليّ وسألني: «ما الوشم الذي تريد أن ترسمه؟»

نعمل أنا وفرانسييس منذ ستّة أشهر لإقناع الفرق بالتوقّف عن المباهاة بإظهار الوشم ذي الترس الشمسيّ، والرّؤوس الحليقة، والبدء في الظهور كأشخاص عاديّين، وكان ذلك يعني أن ترتدي قمصاناً بأكمام طويلة أو

المعالجة بمواد حمضية لتغطية حبر الوشم على وجوهنا. أما اليوم فكان يوماً مميزاً. فقد أردت اليوم أن يعرف الجميع ما الشيء الذي أذافع عنه.

لَمَّا خرجت من تلك الخيمة، كانت هناك ثمانية حروف قوطية، كل حرف على كل مفصل من أصابعي. وعلى اليد اليمنى، عندما أغلق يدي في شكل قبضة، تظهر حروف: ك - ر - ا - ه - ي - ة. وعلى يدي اليسرى، الجانب الأقرب إلى قلبي، كلمة «حب».

عند الغروب، حان الوقت. تناهت من بعيد أصوات هدير الدراجات النارية، واصطف جميع من في المهرجان في صفين. انتظرت، يداي مشدودتان أمامي، لا يزال الجلد أحمر متورماً من الوشم الجديد.

ثم افترق الحشد فجأة، ورأيت بريت، يضيء خلفها ضوء برتقالي وأصفر في نهاية اليوم. كانت ترتدي فستاناً أبيض موّسّى بالدانتيل. ابتسمت. ابتسمت ابتسامة عريضة حتى شعرت أن فكّي سيتمزق.

لَمَّا اقتربت كثيراً، وأصبح بإمكانني أن ألمسها، شبكت ذراعها في ذراعي. إذا انتهى العالم في تلك اللحظة، فإني سأكون سعيداً. ما إن بدأنا نسير في الممر الذي صنعه لنا حتى ارتفعت الأذرع، وصاح الجميع: «زيغ هايل» (يحييا النصر). كان فرانسيس واقفاً في آخر الصف. ابتسم لنا، عيناه مشرقتان وحادتان. كان قد ترأس حفلات زفاف عدّة للجماعة الآرية، لكن هذا الحفل كان مختلفاً. وقال بصوت أجش: «أيتها الخنفساء، ألسيت شيئاً جميلاً؟» ثم التفت إليّ، وقال: «إذا أزعجتها فسأقتلك».

فقلت: «نعم، يا سيدي».

بدأ فرانسيس يقول: «بريتاني، هل تعدين بأن تطيعي تورك وتواصلني تراث العرق الأبيض؟»

فقلت: «نعم».

«وتورك، هل تكرم هذه المرأة في الحرب على أنّها زوجتك الآرية؟»

فقلت: «نعم».

استدار أحدنا تجاه الآخر. نظرتُ في عينيها، بثبات، وبدأنا نتلو الأربع عشرة كلمة، الشعار الذي وضعه ديفيد لين عندما كان يدير الطائفة: يجب أن نكفل وجود شعبنا ومستقبلاً للأطفال البيض.

قبَّلتُ بریت، وأشعل أحدهم صليباً معقوفاً خشبياً خلفنا احتفاءً بهذه اللحظة السعيدة. أقسم إنني أحسست أن تحولاً ما طرأ عليّ في ذلك اليوم. كما لو أنني قد سلّمت نصف قلبي لهذه المرأة التي منحتني قلبها، وأنّ الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نواصل فيها الحياة هي هذا المزيج.

لم أكد أدرك أن فرانسييس كان يتكلم، والناس يصفقون. لكنني انجذبت نحو بریت، كما لو كنا آخر شخصين بقيا على وجه الأرض.

رَمَّا كُنَّا كذلك.

كينيدي

«موگلتني تکرهني»، قلت لميکا عندما کنا واقفين في المطبخ نغسل الصحون.
«أنا متأكد أنها لا تکرهک».

نظرت إليه وقلت: «إنها تظن أنني عنصريّة».

«لديها وجهة نظر»، قال ميکا بلطف. التفتُ إليه، وقد ارتفع حاجباي ووصلا إلى أعلى جبيني، ثم أضاف: «أنت بيضاء وهي ليست كذلك، وتصادف أنكما تعيشان في عالم يمتلك فيه البيض كل القوة».

قلت: «إني لا أقول إن حياتها أصعب من حياتي. أنا لست واحدة من أولئك الذين يظنون أنه مجرد أننا انتخبنا رئيساً أسود، فقد تجاوزنا العنصرية بطريقة سحرية. أنعامل كل يوم مع موكلين من الأقليات يدمرهم نظام الرعاية الصحية ونظام العدالة الجنائية، والنظام التعليمي. أقصد أن السجون تدار كأنها مؤسسة تجارية. أحدهم يستفيد من إبقاء أشخاص يتدفقون إلى السجن باستمرار».

دعونا عدداً من زملاء ميکا إلى العشاء. كنت أمل أن أقدم لهم وجبة عشاء شهية، لكنني لم أعد لهم شيئاً سوى بضع سندويشات تاكو، وقدمت لهم فطيرة اشتريتها من المخبز بعد أن أزلت حواف القشرة قليلاً لأجعلها تبدو أنني خبزتها في البيت. كنت سارحة البال طوال السهرة. لا يستطيع أحد أن يلومني على ذلك، ولا سيّما عندما يدور معظم الحديث حول معدلات فقدان طبقة الألياف العصبية الشبكية في الجانب المقابل من العين لمرضى الغلوكوما. ولم تفارق الأحاديث التي دارت بيني وبين روث تفكيري.

قلت لها: «لكن لا يمكنك إثارة مسألة العرق في محاكمة جنائية»، وأضفت، «فهى واحدة من القواعد غير المعلنة، مثل عدم استخدام الضوء الساطع في سيارتك في الليل. حتى القضايا التي تستند إلى قوانين «دافع عن أرضك»، التي يكون تسعة وتسعون في المئة فيها رجل أبيض في فلوريدا قد خاف من طفل أسود وضغط على الزناد وقتله، تتعد عن إثارة موضوع العرق. أفهم أنّ روث تشعر بأنّ ربّ عملها قد ميّزها عن الآخرين، لكن لا علاقة لأيّ من ذلك بتهمة جريمة القتل».

مرّر لي ميكا صحناً لأجفّفه، وقال: «لا تفهمي ذلك بطريقة مغلوبة يا حبيبتى، لكن في بعض الأحيان، عندما تحاولين أن تفسّري شيئاً، وتظنين أنّك تلمّحين إليه، فإنّك تكونين بذلك أشبه بشاحنة ماك».

التفتُ إليه ملوّحة بمنشفة الصحون، وقلت: «ماذا لو كانت إحدى مريضاتك مصابة بالسرطان، وأنت تحاول علاجها، لكنّها تظّل تقول لك إنّها مصابة بالبلاب السامّ. ألن تقول لها إنّه يجب التركيز على القضاء على السرطان أولاً، ثمّ نعالج الطفح الجلدي؟» فگر ميكا في الأمر، ثمّ قال: «حسنًا، أنا لستُ طبيب أورام، لكن أحياناً، عندما تنتابك حكّة، فإنّك لا تتوقّفين عن حكّها، ولا تدركين أنّك تفعلين ذلك».

ضعتُ تماماً، وقلت: «ماذا؟»

«إنّها الاستعارة التي استخدمتها أنت».

تنفّست الصعداء، وقلت مرة أخرى: «موكّلتى تكرهني».

في تلك اللحظة، رنّ الهاتف. كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف، فترة المكالمات المتعلّقة بالنوبات القلبية والحوادث. رفعت السماعة بيدي المبللة، وقلت: «هلو؟»
«هل هذه كينيدي ماكوري؟» قال صوت عميق، صوت أعرفه لكنّني لم أستطع تمييزه.

«نعم».

«ممتاز. السيِّدة ماكواري، أنا القسّ والاس ميرسي».

والاس ميرسي؟

لم أدرك أنني قلت ذلك بصوت مسموع حتّى عندما سمعته يضحك، وقال: «إنّ الشائعات بأنّني نجم مُبالغ فيها كثيراً»، ثمّ أضاف: «أتصل الآن بشأن صديقة مشتركة بيننا - روث جيفرسون».

فقلت له على الفور: «قسّ ميرسي، ليست لديّ الحربة لأنّ أناقش أمراً يتعلّق بموكلتي».

«أؤكّد لك أنك تستطيعين. لقد طلبت روث منّي أن أكون مستشاراً لها، من نوع ما...»

صررت على أسناني، وقلت: «لم توفّع موكلتي على شيء ينصّ على ذلك».

«التصريح، نعم، طبعاً. أرسلته إليها بالإيميل منذ ساعة، وسيكون على مكتبك صباح الغد».

ماذا بحقّ الجحيم. لماذا تذهب روث وتوفّع شيئاً كهذا من دون استشارتي؟ لماذا لم تذكر لي أنها تكلمت شخصاً مثل والاس ميرسي؟

لكنّي أعرف الإجابة: لأنّني قلت لروث إنّه لا علاقة لقضيّتها بالتمييز العنصريّ، هذا هو السبب. ولا يهتمّ والاس ميرسي بشيء إلّا بالتمييز العنصريّ.

«استمع إليّ»، قلت له وقلبي يخفق بقوة، حتّى إنّني كنت أسمع نبضاته في كلّ كلمة أقولها، «إنّ تبرئة روث جيفرسون مهمّتي، وليست مهمّتك. هل تريد أن تزيد تقييماتك؟ لا تفكّر في أنّك تستطيع أن تفعل ذلك على حسابي».

أنهيت المكالمة، وضغطت على زرّ الإغلاق بقوة فانزلق الهاتف من يدي وسقط على أرضية المطبخ. أغلق ميكا صنبور الماء، وقال: «اللجنة على

الهواتف اللاسلكية. كان الأمر أفضل بكثير عندما كان بإمكانك أن تغلقي الهاتف في وجوههم، أليس كذلك؟» اقترب منّي، يدها في جيبه، وقال: «هل تريدان أن تحكي لي كلّ شيء؟»

«كان والاس ميرسي عبر الهاتف. روث جيفرسون تريد أن ينصحاها».

فقال ميكا: «أنت على حقّ. إنّها تكرهك».

* * *

فتحت روث الباب وهي في ثوب النوم ورداء الحمّام. «من فضلك»، قلت لها، «أحتاج فقط إلى خمس دقائق من وقتك».

«أليس الوقت متأخراً قليلاً؟»

لا أعرف إن كانت تقصد أنّ الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً الآن، أو لأننا افترقنا في لحظة من التوتّر بعد ظهر اليوم. اخترت الافتراض الأول، وقلت لها: «أعرف أنّي لو اتّصلت بك، فإنّك ستعرفين رقمي ولن تردّي».

فكرت قليلاً وقالت: «رّبّما».

شدت كنزتي حولي بإحكام. إذ ركبت سيّارتي بعد مكالمة والاس ميرسي على الفور ونسيت أن أرتدي معطفي. كان كلّ ما فكرت فيه هو أنّني يجب أن أصل إلى بيت روث قبل أن توفّع البيان وتعيده إليه بالإيميل.

أخذت نفساً عميقاً، وقلت لها: «ليس الأمر أنّي لا أبا لي كيف عوملت - إنّني أهتمّ بذلك، لكنّي أعرف أنّ مشاركة والاس ميرسي سيكلّفك كثيراً على المدى القصير، إن لم يكن على المدى الطويل أيضاً».

رأنتي روث وأنا أرتجف. «تفضّلي»، قالت بعد لحظة. كانت الأريكة مرّتبة، عليها وسائد وأغطية وبطانية، فجلست إلى طاولة المطبخ، في حين مدّ ابنها رأسه من غرفة نوم، وقال: «ماما؟ ما الذي يجري هنا؟»

«لا شيء يا إديسون. اذهب ونم».

بدا مرتاباً، لكنّه دخل وأغلق الباب.

«روث»، قلت متوسّلة، «لا توقّعي ذلك البيان».

جلست على كرسيّ أمام الطاولة أيضاً، وقالت: «لقد وعدني بأنّه لن يتدخّل في ما تفعلينه في المحكمة...»

«ستلحقين بنفسك ضرراً كبيراً»، قلت لها بصراحة، «فكّري في الأمر - حشود غاضبة في الشارع، وظهور وجهك عبر شاشات التلفزة كلّ ليلة، وسيتحدّث المعلقون القانونيون عن القضية في برامج الصباح - لا أظنّ أنّك تريدين أن يتحكّم هؤلاء بطريقة سرد هذه القضية قبل أن تتاح لنا الفرصة لعمل ذلك»، وأشارت إلى باب غرفة نوم إديسون المغلق، «وماذا عن ابنك؟ هل أنت مستعدّة لأنّ تجرّيه إلى أعين العامّة؟ لأنّ هذا ما يحدث عندما تصبحين رمزاً. سيُعرف العالم كلّ شيء عنك وعن ماضيك وعن أسرّتك، ويصلّبونك. سيصبح اسمك مألوفاً تماماً مثل اسم تريفون مارتين. لن تستعيدي حياتك بعد ذلك أبداً».

التقت عيناها بعينيّ، وقالت: «ولا هو أيضاً».

حقيقة، إنّ هذا البيان سيفصلنا مثل واد. أنظر إلى قعر تلك الهاوية وأرى كلّ الأسباب التي لا تجعل روث تفعل ذلك، لكنّ لَمّا نظرت إلى الأسفل، فلا شكّ في أنّها رأت كلّ الأسباب التي تجعلها تفعل ذلك.

«روث، أعرف أنّّه لا توجد لديك أسباب تجعلك تثقين بي، ولا سيّما بسبب الطريقة التي عاملك بها البيض مؤخّراً، لكن إذا نشر والاس ميرسي قضيتك على الملأ، فلن تكوني في وضع آمن. آخر شيء تريدينه هو أن تُحاكم قضيتك في وسائل الإعلام. أرجوك، دعينا نفعل ذلك بطريقةتي. أعطيني فرصة»، تردّدت، «أرجوك».

طوت ذراعيها، وقالت: «ماذا لو قلت لك إنّني أريد أن تعرف هيئة المحلّفين ما الذي جرى لي؟ أن يسمعو القصة من جانبي؟»

هزرت رأسي، واتفقنا في صفقة: «أعدك بأننا سنجعلك تقدّمين شهادتك».

الأمر المثير في جاك ديناردي هو أنه يضع كرة مطايطية على مكتبه بحجم رأس مولود جديد. وما عدا ذلك، فهو تماماً ما تتوقّع أن تجده يعمل في غرفة صغيرة خانقة في مستشفى الرحمة - ويست هافن: كرش، بشرة رمادية، يغطي صلعته بالشعرات المتبقية في رأسه. موظف بيروقراطي. كان السبب الوحيد لمجيئي إلى هنا أنني أريد اصطیاد بعض المعلومات، وأرى إن كان هناك أي شيء يمكن أن يقوله عن روث يمكن أن يساعدها - أو يضرّها.

قال جاك ديناردي: «تعمل في هذا المستشفى منذ عشرين سنة».

سألته: «كم مرة رُقّيت روث إبان السنوات العشرين هذه؟»

«دعينا نرّ»، وراح يفتّش في المملّقات، ثمّ قال: «مرة واحدة».

«مرّة واحدة إبان عشرين سنة؟» قلت بريية، «ألا يبدو لك ذلك قليلاً؟»

هزّ جاك كتفيه، وقال: «في الحقيقة لا أستطيع أن أناقش هذه المسألة».

«لماذا؟» قلت لأضغط عليه، «أنت جزء من المستشفى. أليس عمك مساعدة

الناس؟»

«المرضى»، أوضح، «لا العاملين فيه».

شهقت. يُسمح للمؤسّسات أن تدقّق في شؤون موظفيها وتسجّل كلّ خطأ يرتكبونه - لكن لا يوجّه أحد العدسة المكبّرة عليهم أبداً.

قلّب مزيداً من الأوراق والمملّقات، ثمّ قال: «إنّ العبارة المستخدمة في آخر مراجعة لأدائها هي مشكلة شائكة».

لن أختلف معه في ذلك.

«من الواضح أنّ روث جيفرسون مؤهّلة. لكن، ممّا يمكنني أن أجمعه من ملّفها هو أنّه جرى تجاوزها في الترقيات لأنّ المسؤولين يرون أنّها امرأة معتدّة بنفسها...

قليلاً...»

تجهمَّ وجهي. قلت: «المشرفة على روث، ماري مالون... منذ متى تعمل هنا؟»
نقر على مفاتيح الكمبيوتر قليلاً، ثمَّ قال: «منذ عشر سنوات تقريباً.»
«إذاً، شخص يعمل هنا منذ عشر سنوات يصدر الأوامر والتعليمات لروث - أوامر
مشكوك فيها - وربما كانت روث تناقشها فيها أحياناً؟ هل يبدو ذلك أنها مغرورة... أو
حازمة؟»

التفت نحوي وقال: «لا أستطيع أن أقول.»

نهضتُ، وقلت له: «شكراً لوقتك يا سيّد ديناردي.» أخذتُ معطفي وحقيتي،
وقبل أن أجتاز عتبة الباب، استدرتُ، وقلت: «مغرورة... أم حازمة؟ هل من الممكن أن
تتغيّر الصفة بحسب لون الموظفة؟»

«أنا أرفض هذا التفسير يا سيّدة ماكواري»، قال جاك ديناردي زاماً شفّيته، «إنّ
مستشفى الرحمة - ويست هافن لا يميّز على أساس العرق، أو العقيدة، أو الدين، أو
التوجّه الجنسي.»

فقلت: «آه، حسناً. أرى ذلك. إذاً كان من سوء الحظ أنّ روث جيفرسون هي
الموظفة التي اخترتم لتلقوا بها إلى الذئاب.»

لَمَّا خرجت من المستشفى، قلت في نفسي إنّه لا يمكن الاستفادة من كلّ هذا
الحديث في المحكمة. حتّى إنني لست متأكّدة ما الذي جعلني أعود في اللحظة الأخيرة
وألقي بهذا السؤال الأخير على موظف شؤون الموظفين.

إلا إذا كانت روث قد أنّرت فيّ.

في نهاية عطلة ذلك الأسبوع، هطلت أمطار غزيرة. جلسْتُ أنا وفيوليت إلى
الطاولة الصغيرة، نلّون معاً. كانت فيوليت تخربش على الصفحة من دون أيّ حسابان
لخطوط الراكون المرسومة أصلاً في دفتر التلوين.

«جدتي تحب أن تلون داخل الخطوط»، قالت لي ابنتي، «تقول إن هذه هي الطريقة الصحيحة».

قلت تلقائياً: «لا توجد طريقة صحيحة أو طريقة خطأ»، وأشارت إلى انفجار اللونين الأحمر والأصفر، «انظري كم لوحتك جميلة».

من الذي وضع هذه القاعدة؟ لماذا وضعوا خطوطاً؟

لَمَّا سافرنا، أنا وميكا، إلى أستراليا لقضاء شهر العسل، أمضينا ثلاث ليالٍ في مخيم في المركز الأحمر في البلد، حيث كانت الأرض متصدعة مثل حلق جاف، وبدت سماء الليل مثل وعاء مقلوب من الأماس. صادفنا رجلاً من السكّان الأصليين، أراناً طائر «الإيمو» في السماء، النجم القريب من كوكبة الصليب الجنوبي، التي لا تعدُّ لغزاً من النقاط المتراصة إلى جانب بعضها مثل الكواكب التي نراها في سماء بلدنا، وإِنَّمَا المسافات بين النقاط - السُدُم التي تدور عكس درب التبانة لتشكّل العنق الطويل والسيقان المتدلية للطائر العظيم. في البداية، لم أره، لكن لَمَّا رأيته، كان ذلك كلَّ ما استطعت أن أراه.

لَمَّا بدأ هاتفي الخليوي يرّن، ورأيت رقم هاتف روث، التقطته على الفور. سألتها: «هل كلُّ شيء على ما يرام؟»

«نعم»، بدا صوت روث جامداً، «كنت أتساءل إن كان لديك وقت بعد ظهر اليوم».

نظرتُ إلى ميكا الذي دخل غرفة الجلوس تَوّاً. قلت له هامسة: «إنّها روث». رفع فيوليت بذراعيه، ودغدغها، ليتيح لي الوقت لأكلم روث. قلت لها: «هل حدث شيء في الأمر الذي كنت تريدان أن تتحدّثي عنه؟»

«ليس تماماً. أريد أن أذهب لأشتري هدية عيد ميلاد لأمي، وقلت في نفسي ربّما ترغبين في أن تأتي معي».

رأيت غصن زيتون، وقلت: «يسعدني ذلك».

بينما كنت أقود سيارتي للقاء روث، فكّرت في جميع الأسباب التي تجعل ذلك خطأً فادحاً. إذ لمّا بدأت العمل محامية عامة، كنت أنفق راتبي الذي لم يكن يغطي مشترياتي طوال الأسبوع على موكليّ عندما أرى أنهم في حاجة إلى ثياب نظيفة أو وجبة طعام ساخنة. استغرق ذلك فترة من الزمن حتى أدركت أن مساعدة موكليّ لا يمكن أن تمتدّ إلى حسابي المصرفي. أعرف أنّ روث امرأة معتدّة بنفسها، ولا أظنّ أنّها ستأخذني معها إلى السوق، وتلمّح بأنّها تريد أن تشتري حذاءً جديداً. قلت في نفسي لا بدّ أنّها تريد تنقية الأجواء بيننا.

في طريقنا إلى المركز التجاريّ، تركّز معظم حديثنا حول الطقس - متى سيتوقّف هطول المطر، وهل سيتحوّل إلى جليد - ثمّ تحدّثنا عن المكان الذي سنمضي فيه عطلاتنا القادمة. ثمّ اقترحت روث أن أركن سيّارتي بالقرب من محالّ تي جي ماكس، ثمّ سألتها: «إذاً، هل تبحثين عن شيء محدّد؟»

هزّت روث رأسها، وقالت: «سأعرف ما هو عندما أراه. هناك أشياء تصيح باسم أمّي تكون مغطاة عادة بالترتر»، وابتسمت، وأضافت، «عندما ترتدي ثيابها وتذهب إلى الكنيسة، تظنّ أنّها ذاهبة إلى حفل زفاف. أظنّ أنّها تفعل ذلك لأنّها ترتدي طوال الأسبوع ثياب العمل. ربّما كانت هذه هي طريقتها للانعقاد والتحرُّر».

«هل نشأت هنا في ولاية كونيتيكت؟» سألتها ونحن نترجّل من السيارة.

فقلت: «لا، نشأت في حيّ هارلم. كنت أستقلّ الحافلة كلّ يوم إلى مانهاتن مع أمّي لتذهب إلى مكان عملها، وأنزل في دالتون».

سألتها: «هل ذهبتِ أنتِ وأختك إلى دالتون؟»

«أنا فقط. لم تكن أديسا... تحبّ الدراسة. ويسلي هو الذي جعلني أستقرّ في ولاية

كونيتيكت».

«كيف التقيتما؟»

فقال روث: «في المستشفى. كنت طالبة تمريض في جناح المخاض والولادة، وكانت هناك امرأة توشك أن تلد طفلها، كان زوجها عسكرياً في الجيش. حاولت أن تتصل به مرّات كثيرة. ولدت توءمين قبل أن يحين موعدها بشهر. كانت مرعوبة، ومقتنعة بأنها ستنجب طفلها وحدها. وفجأة، دخل شاب في بدلة عسكرية مموّهة. نظر إليها ووقع مغميًّا عليه مثل صخرة، فرحت أعنتني به».

قلت لها: «انتظري. هل كان ويسلي متزوجاً امرأة أخرى عندما التقيتما؟»

«هذا ما ظننته أيضاً. إذ لمّا دخل الغرفة، بدأ يلاطفني. قلت في نفسي إنّه أكبر حمار رأيته في حياتي، يلاطفني أمام زوجته التي تلد توءميهما، وقلت له ذلك، فعلمت أنّهما ليسا طفليه، وأنّ والدهما صديقه في الجيش ولم يتمكّن من الحصول على إجازة، فوعده ويسلي بأنّ يقدّم يد المساعدة لزوجته رقيقة». ضحكت روث وأضافت، «عندها، بدأت أقول لنفسي لعلّه ليس أكبر حمار. وأمضينا أنا وويسلي سنوات جميلة معاً».

«متى مات؟»

«عندما كان إديسون في السابعة من عمره».

لا يمكنني أن أتخيّل أنّي أفقد ميكا. لا أستطيع أن أتخيّل أن أربّي فيوليت وحدي. أدركت أنّ ما فعلته روث في حياتها أكثر شجاعة من أيّ شيء آخر فعلته في حياتها. قلت لها: «أنا أسفة».

تنهّدت روث، وقالت: «وأنا أيضاً، لكنك تتعلّمين كيف تواصلين الحياة، لأنّه لا يوجد أمامك خيار آخر؟» التفتت إليّ، وقالت: «علّمتني أمّي ذلك، وقد أجد ذلك مطرّراً على وسادة».

«بأحرف برّاقة»، قلت لها ونحن نسير عبر أبواب المخزن.

حدّثتني روث عن سام هالويل الذي قرع اسمه جرساً باهتاً في رأسي، وكيف أنّ أمّها تعمل عاملة منزليّة في منزله منذ خمسين سنة تقريباً.

وحدّثني عن كريستينا التي أعطتها أول رشفة غير مشروعة من البراندي وهي في الثانية عشرة من عمرها، وحكت لي أيضاً كيف أنّ كريستينا حاولت أن تعطيها نقوداً. فقلت لها: «إنّها تبدو فظيعة».

فكّرت روث قليلاً، وقالت: «لا، إنّها ليست فظيعة. هذا ما تعرفه فقط. لم تتعلّم في حياتها طريقة أخرى».

سرنا عبر الممرّات، نتبادل القصص. قالت إنّها كانت ترغب في أن تصبح عالمة أنثروبولوجيا، حتّى إنّها درست لوسي أستراالوينثكس: كم امرأة من إثيوبيا تعرفين اسمها لوسي؟ حكيت لها كيف انفجرت ماء الرأس في أثناء المحاكمة، ولم يؤجّل القاضي الحقير الجلسة. حكّت لي عن أديسا التي أفنعتها عندما كانت في الخامسة من عمرها أنّ السبب في أنّ لون روث فاتح لأنها تصبح شبحاً، وأنها ولدت سوداء مثل حبة توت، لكنّ سوادها يخفت شيئاً فشيئاً. حدّثتها عن وكيلتي التي خبأتها في قبو منزلي لمدة ثلاثة أسابيع لأنها كانت متيقنة من أنّ زوجها سيقتلها. وحدّثني عن رجل قال لصديقتة، وهي في أثناء المخاض، إنّها يجب أن تزيل شعرها بالشمع، واعترفت لها أنّني لم أرَ أبي الموجود حالياً في مؤسّسة لمرضى الزهايمر منذ أكثر من سنة، لأنّني حزنت كثيراً عندما زرتة آخر مرة، ولم أنس تلك الزيارة لشهور عدّة. واعترفت روث بأنّ السير في الحيّ الذي تقيم فيه أديسا يثير فزعها.

شعرت بجوع شديد، فاشترت علبة من ذرة الكراميل من إحدى الواجّهات وفتحتها ونحن نتحدّث، ووجدت روث تحدّق إلى وجهي، وسألتنني: «ماذا تفعلين؟»

«أكل؟» قلت، وفمي ممتلئ بالفشار، «تفضّلي. إنّني أحبّه كثيراً»

«لكنّك لم تدفعي ثمنه بعد».

نظرت إليها كما لو كانت مجنونة، «طبعاً سأدفع ثمنه عندما نخرج. ما المشكلة؟»

«أقصد...»

لكن، قبل أن تجيب، قاطعتنا موظفة وسألت روث وهي تنظر إليها مباشرة: «هل يمكنني أن أساعدك في إيجاد شيء؟»
فقال روث: «إننا نستعرض الأشياء».

ابتسمت المرأة لكنّها لم تتركنا، وراحت تتبعضنا حيثما ذهبنا من مسافة قصيرة مثل لعبة طفل تُسحب بخيط. إمّا أنّ روث لم تلحظها وإمّا أنّها أرادت ألاّ تلحظها. اقترحت عليها أن تأخذ قفّازات أو وشاحاً شتوياً جميلاً، فقالت روث إنّ لدى أمّها وشاحاً قديماً يجلب لها الحظّ، ولن تقبل أن تستبدله بوشاح آخر. واصلنا الحديث ونحن نبحث حتّى وجدنا قسماً لأقراص فيديو دي في دي بأسعار مخفضة في الطابق السفليّ. «قد يكون هذا ممتعاً. يمكنني أن أختار مجموعة كاملة من مسلسلاتها المتلفزة المفصلة»، وراحت تبحث في صناديق أقراص الـ دي في دي، فاخترت أفلام (الجرس)، و(منزل كامل) و(باني القاتل مصّاص الدماء).

مددتُ يدي إلى أسفل الصندوق وأخرجت شريط (عرض كوسبي). فكّرت في أن أريه لروث، لكنّي أخفيته تحت علبة شريط (ملفات إكس)، لأنني خشيت أن تظنّ أنّي اخترت هذا الشريط بسبب لون بشرتهما؟ لكنّ روث خطفته من يدي، وسألتنني: «هل شاهدت هذا عندما كان يُعرض عبر التلفاز؟»

فقلت: «طبعاً. ألم يشاهده الجميع؟»

«أظنّ كان ذلك هو الهدف. فإذا جعلت الأسرة الأكثر وظيفيّة تجتمع حول التلفاز لمشاهدة شخص أسود، فرمّا لن ينتاب البيض الشعور بالرعب عينه».

«لا أعرف أنّني سأستخدم كلمتيّ كوسبي والوظيفيّة في الجملة نفسها هذه الأيام»، قلت لها عندما توجّهت نحونا الموظّفة في تي جي ماكس.

«هل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم»، قلت لها بانزعاج، «سنعلمك إذا ما احتجنا إلى مساعدة». ثم اختارت روث شريط المسلسل المتلفز ER، لأن أمها تحب جورج كلوني، بالإضافة إلى قفازي خيط على حوافهما فرو أرنب حقيقي. اخترتُ بيجامة لفيوليت ومجموعة من القمصان الداخلية لميكا. لَمَّا توجَّهنا إلى صندوق الدفع، كانت الموظفة تتبعضنا. دفعْتُ أولاً، وأعطيت أمينة الصندوق بطاقتي الائتمانية، ثم انتظرت ريثما تنتهي روث من دفع ثمن الأشياء التي اشتريتها.

«هل لديك هوية شخصيّة؟» سألتها الكاشير. فأخرجت روث رخصتها وبطاقة الضمان الاجتماعيّ. نظرت إليها الكاشير، ثم إلى الصورة في الرخصة، ومررت الأعراس. في طريقنا للخروج، أوقفنا حارس أمن، وقال لروث: «سيّدتي، هل يمكنني أن أرى إيصال مشترياتك؟»

بدأتُ أبحث في حقيبتني عن إيصالي أيضاً، لكنّه لَوَح لي بيده ألا أفعل ذلك، وقال: «أنتِ كما يجب»، وعاد ووجّه انتباهه إلى روث، وراح يطابق محتويات الحقيبة مع الإيصال.

هنا، أدركت لماذا أرادت روث أن أرافقها لأساعدها في اختيار هدية لأمها.

لقد أرادت أن أرافقها كي أنفهم مشاعرها.

تتبع الموظفة لنا خشية أن تحدث سرقة، وحرص الكاشير.

الحقيقة هي أنه من بين عشرات الأشخاص الذين غادروا تي جي ماكس في ذلك الوقت، كانت روث المرأة الوحيدة التي فُتشت حقيبتها.

شعرت بخدّي يلتهبان - محرجة بالنيابة عن روث، محرجة لأنني لم أكن أدرك ما الذي كان يحدث حتّى عندما كان يحدث. لَمَّا أعاد حارس الأمن الحقيبة إلى روث، غادرنا المخزن، وجرينا تحت المطر الدافئ إلى سيّارتي.

جلسنا في السيارة نلهث مبليين بالمطر الذي شكّل حاجزاً بيننا وبين العالم. قلت لها: «فهمت».

نظرت روث إليّ، وأجابت بلطف: «لم تبدئي في فهم الأمر جيداً بعد».

قلت لها: «لكنّك لم تقولي شيئاً. هل اعتدتِ ذلك؟»

«لا أتصوّر أنّك تعتادين ذلك. لكنّك تبدئين تعرفين كيف تتركين الأمر يمرّ».

سمعت كلماتها عن كريستينا يتردّد صداها في رأسي: لم تتعلّم قطّ طريقة أخرى للوجود.

التقت أعيُننا. «اعتراف حقيقيّ؟ كانت أدنى درجة حصلت عليها في الجامعة هي فصل تاريخ السود. كنت الفتاة البيضاء الوحيدة في الفصل. كان أدائيّ جيداً في الامتحانات الأخرى، لكنّ نصف الدرجات كانت مُمنح لحضور الدروس والمشاركة فيها، لكنّي لم أفتح فمي قطّ في أثناء الفصل الدراسيّ كلّهُ، لأنّني أعرف أنّني إذا قلت شيئاً، فإنّني سأقول أشياء مغلوطة، أو أشياء غبيّة تجعلني أبدو متحيّزة».

صمتت روث للحظة، وقالت: «اعتراف حقيقيّ؟ إنّ السبب الذي جعلنا لا نتحدّث عن العرق هو أنّنا لا نتحدّث لغة مشتركة».

جلسنا بضع لحظات ننصت إلى صوت هطول المطر. «اعتراف حقيقيّ؟ لم أكن أحبّ برنامج كوسبي شو غير التلفاز».

«اعتراف حقيقيّ؟» ابتسمت روث، «ولا أنا».

طوال شهر كانون الأول (ديسمبر)، ضاعفتُ جهودي لأشجّد أفكاري، أكتب مرافعات ما قبل المحاكمة. القضايا الثلاثون الأخرى التي تزامم قضية روث للحظة في اهتمامي. بعد الغداء، كان من المفترض أن تدلي فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها ضربها صديقها عندما اكتشف أنّها نامت مع أخيه بشهادتها، لكنّ سيّارة الشاهدة اصطدمت بسيارة وهي قادمة على الطريق فاضطررنا إلى تأجيل الجلسة، وأصبح لديّ ساعتان من الوقت. رحّت

أنظر إلى أكوام الملفات والأوراق المحيطة بمكتبي ثم اتَّخذت قراراً سريعاً. نظرت من فوق حافة مقصورتى إلى حيث يجلس هوارد، وقلت له: «إذا سأل أحد عني، فقل له إنني خرجت لأشتري سدادات قطنيّة».

«انتظري، حقاً؟»

«لا. لكنهم سيشعرون بالحرج، ولن يبحثوا عني».

كان الجوُّ دافئاً على نحو غير معتاد - نحو خمسين درجة فهرنهايت. أعرف أنه عندما يكون الطقس لطيفاً، تأخذ أُمِّي فيوليت عادة من المدرسة وتذهبان إلى ملعب الأطفال. تتناولان وجبة خفيفة - تفّاح ومكسّرات - ثم تلعب فيوليت قليلاً، ثم تعودان إلى المنزل. لكنني رأيت فيوليت معلّقة من رأسها من قضبان الألعاب، وتنورتها تلامس ذقنها. لمّا رأيتني صاحت: «ماما»، وبالرشاقة التي لا بدّ أنّها ورثتها من جينات ميكا، ففرت إلى الأرض وجرت نحوي.

لمّا رفعتها بين ذراعيّ، استدارت أُمِّي الجالسة على مقعد الحديدية، وقالت: «هل طردوك من العمل؟»

رفعت جيني، وقلت: «هل هذا حقاً أول شيء يخطر في بالك؟»

«حسناً، آخر مرّة جنّت فيها في منتصف النهار فجأة كانت، كما أظنّ، عندما توفّي والد ميكا».

«ماما»، صاحت فيوليت، «صنعتُ لك هدية عيد الميلاد في المدرسة، قلادة تستطيع الطيور أن تأكلها أيضاً». لمّا بدأت تتلوّى بين ذراعيّ، أنزلتها إلى الأرض فجرت تلعب. ربّنت أُمِّي على المقعد إلى جانبها. كانت ترتدي ثياباً سميقة مع أنّ الطقس دافئ، وقد وضعت على حضنها قارئاً إلكترونيّاً، وإلى جانبها علبة صغيرة فيها شرائح تفّاح ومكسّرات مختلطة، وقالت: «إذاً، إذا كنت لا تزالين تحتفظين بوظيفتك، فما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟»

«حادث سيّارة - لم يقع لي»، قلت ووضعت حفنة من المكسّرات في فمي، ثمّ سألتها: «ماذا تقرئين؟»

«لماذا يا حبيبتي، فأنا لا أقرأ قطّ عندما تلعب حفيدتي على الألعاب لأنني لا أبعاد عينيّ عنها أبداً».

التفت نحوها، وسألتها: «ماذا تقرئين؟»

فقلت: «لا أتذكّر الاسم. شيء عن دوقّة مصابة بالسرطان ومصاص دماء يعرض عليها أن يجعلها خالدة. يبدو أنّها (الرواية) تنتمي إلى نوع أدبيّ يدعى الأدب المريض. إنّها لنادي الكتاب».

«من اختاره؟»

«لم اختره أنا. فأنا لا أختار الكتب. أنا أطف العنب فقط».

فقلت لها: «كان آخر كتاب قرأته الكلّ يتغوّط، لذلك لا أظنّ أنّني أستطيع أن أحكم عليه».

ملت إلى الموراء، وأدرتُ وجهي نحو شمس المساء. ربّنت أُمّي على حجرها، وتمدّدتُ على المقعد. مسّدت شعري كما كانت تفعل عندما كنت في عمر فيوليت. «هل تعرفين أصعب شيء في أن تكوني أمّاً؟» قلت بتكاسل: «هو أنّه لم يعد لديك وقت لتكوني طفلة».

فأجابت أُمّي: «لن تحصلي على الوقت أبداً. وقبل أن تعرفي ذلك، تكبر ابنتك الصغيرة لتنفذ العالم».

«الآن تستمتع بحشو وجهها»، قلت، ومددت يدي لأحصل على مزيد من المكسّرات. ما إن وضعت واحدة بين شفّتيّ حتّى بصقتها على الفور، وقلت: «يا إلهي! أنا أكره الجوز البرازيليّ».

«لماذا؟» سألت أُمّي.

فقلت: «طعمه يشبه رائحة القدمين. إنّه أسوأ أنواع المكسّرات التي لا يحبّها أحد».

تذكّرت فجأة عندما كنت في عمر فيوليت تقريباً، وذهبت إلى بيت جدّي لتناول عشاء عيد الشكر. كان البيت ممتلئاً بعمّاتي وأعمامي وأبناء عمومتي. كنت أحبّ فطيرة البطاطا الحلوة التي تصنعها، والمفارش التي تمّدها فوق قطع الأثاث في بيتها، التي تكون كلّها مختلفة، مثل رقائق الثلج. لكنني كنت أبدل كلّ ما في وسعي لأتفادى العمّ ليون، شقيق جدّي، الذي كان صاحباً جداً، يسكر كثيراً، والذي يبدو دائماً أنه يقبلك على شفتيك وهو يوجّه شفتيه إلى خدك. كانت جدّي تضع صحناً كبيراً من المكسّرات، وكان العمّ ليون يكسر البندق بالكسّارة ويقدمها للأطفال: الجوز والبندق والكاجو واللوز والمكسّرات البرازيليّة، لكنّه لم يقل قط إنّ اسمه بندق برازيليّ. كان يرفع قشرة جوز بنية طويلة مجعّدة، ويقول: «أصابع زنجيّ للبيع. من يريد إصبع قدم زنجيّ؟»

«هل تتذكّرين العمّ ليون؟» سألتها فجأة، واعتدلت في جلستي، وسألتها: «ماذا كان يسمّيها؟»

تنهّدت أمّي، وقالت: «نعم. كان العمّ ليون شخصيّة غريبة».

في ذلك الوقت، لم أكن أعرف ما الذي تعنيه كلمة «زنجيّ». كنت أضحك للآخرين. «كيف تصادف أنّه لم يقل له أحد شيئاً في ذلك الوقت؟ كيف لم يسكته أحد؟»

نظرت أمّي إليّ باستياء، وقالت: «لم يكن ذلك سيغيب شيئاً في ليون».

«لو لم يكن لديه جمهور يستمع إليه»، قلت، وأومأت نحو صندوق الرمل حيث تقف فيوليت إلى جانب فتاة سوداء صغيرة، تُبعدان الرمل بعضاً، وأضفت: «ماذا لو كرّرت ما كان يقوله ليون لأنّها لا تعرف أفضل من ذلك؟ كيف كان سيبدو الأمر في رأيك؟»

فقالت أمّي: «لم تكن ولاية نورث كارولينا آنذاك كما هي الآن».

«رَبِّمَا لَمْ يَكُن الْأَمْرُ سَيَكُونُ عَلَي هَذَا النِّحْوِ لَوْ تَوَقَّفَ أَشْخَاصٌ مِثْلَكَ عَن تَقْدِيمِ
الأَعْذَارِ».

انزعجت عندما غادرت الكلمات فمي لأنني أعرف أنني أُلوم أُمِّي في الوقت الذي
أُلوم فيه نفسي. فمن الناحية القانونية، مازلت أعرف أن أفضل مسار لروث هو تجنّب
أَيِّ نِقَاشٍ يَتَعَلَّقُ بِالْعِرْقِ، لَكِنِّي أَجِدُ صَعُوبَةً فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مِنَ النَّاحِيَةِ
الأَخْلَاقِيَّةِ. مَاذَا لَوْ كَانَ سَبَبَ رَفْضِي السَّرِيعِ لَعَدَمُ إِثَارَةِ مَوْضُوعِ الْعِرْقِ فِي قَضِيَّةِ رُوْثِ
هُوَ أَنَّ نِظَامَنَا الْقَضَائِيَّ لَا يَتَحَمَّلُ هَذَا الْعَبْءَ؟ أَوْ لِأَنَّيْ وَلِدْتُ فِي أُسْرَةٍ كَانَتْ النِّكَاتِ
فِيهَا عَن السُّودِ تَعَدُّ مِنْ تَقَالِيدِ الْأَعْيَادِ مِثْلَ السَّجْقِ وَالخَرْزِفِ الصِّينِيِّ؟ لَقَدْ نَشَأْتُ أُمِّي
مَعَ امْرَأَةٍ تَشْبَهُ أُمَّ رُوْثِ فِي الْمَنْزَلِ - تَطْبِخُ، وَتَنْظُفُ، وَتُوصِلُهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَتَأْخُذُهَا إِلَى
مَلْعَبٍ كَمَا تَفْعَلُ مَعَ فَيُولِيَتِ الْآنَ.

لبثت أُمِّي صَامِتَةً لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّيْ أُسَأْتُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: «فِي عَامِ
1954، لَمَّا كُنْتُ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عَمْرِي، قَضَتْ الْمَحْكَمَةُ بِأَنَّ خَمْسَةَ أَطْفَالٍ سُوْدِ
سَيَلْتَحِقُونَ بِمَدْرَسَتِي. أَتَذَكَّرُ صَبِيًّا فِي فَصْلِي الدَّرَاسِيِّ قَالِ إِنَّ لَدِي هُوْلَاءَ الصَّبِيَّةِ قَرُونًا
مُخَبَّأَةً فِي شَعْرِهِمُ الْمَجْعَدِّ، وَحَدَّرْتَنَا مَعْلَمْتِي مِنْ أَنَّهُمْ قَدْ يَحَاوِلُونَ سَرَقَةَ النُّقُودِ الَّتِي
سَنَشْتَرِي بِهَا طَعَامَ الْغَدَاءِ»، ثُمَّ التَفْتَتِ إِلَيَّ، وَأَضَافَتْ: «قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْمَدْرَسَةِ بَلِيلَةً
وَاحِدَةً، عَقَدَ أَبِي اجْتِمَاعًا. كَانَ الْعَمَّ لِيُونَ مَوْجُودًا. تَحَدَّثُوا كَيْفَ يَمْكَنُ أَنْ يَتَعَرَّضَ
الأَطْفَالُ الْبَيْضُ لِلتَّنْمُرِ، وَسَتَحَدِّثُ مَشْكَلاتِ لِّلسَّيْطَرَةِ عَلَي الْفَصْلِ، لِأَنَّ هُوْلَاءَ الأَطْفَالِ لَا
يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ. اسْتِشْاطُ الْعَمِّ لِيُونَ غَضَبًا، وَامْتَقَعُ وَجْهَهُ، وَفَاحَتْ مِنْهُ رَائِحَةٌ
عِرْقِي قَوِيَّةً. قَالِ إِنَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ تَكُونَ ابْنَتُهُ فَارَةً تَجَارِبُ، وَقَرَّرُوا الْإِعْتِصَامَ خَارِجَ الْمَدْرَسَةِ
فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ لِيَمْنَعُوا الصَّبِيَّةَ السُّودِ مِنْ دُخُولِ الْمَدْرَسَةِ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ
رِجَالَ الشَّرْطَةِ سَيَكُونُونَ هُنَاكَ. وَأَقْسَمَ أَبِي إِنَّهُ لَنْ يَبِيعَ لِلْقَاضِي هُوْتُورِنَ سَيَّارَةَ مَرَّةً
أُخْرَى».

بدأت أُمِّي تجمع المكسرات وجبات التفاح وتضعها في العلبه، ثم قالت: «كانت بيتي، خادمتنا، موجودة في تلك الليلة أيضاً، تقدّم لنا عصير الليمون والكعك الذي خبزته عصر ذلك اليوم. وفي منتصف الاجتماع، مللت ودخلت المطبخ حيث رأيتها تبكي. لم أر بيتي تبكي قطّ من قبل. قالت إنّ ابنها الصغير أحد أولئك التلاميذ الخمسة الذين سيأتون إلى المدرسة». هزّت أُمِّي رأسها، وأضافت: «لم أكن أعرف أنّ لديها صبيّاً صغيراً. فقد كانت بيتي تعمل في بيت أسرتي من قبل أن أمشي أو أتكلّم، ولم يخطر في بالي قطّ أنّها يمكن أن تنتمي إلى أحد غيرنا».

سألتها: «وماذا حدث؟»

جاء هؤلاء الصبية إلى المدرسة. أدخلهم رجال الشرطة المدرسة، ونعتهم الصبية الآخرون بأسماء شنيعة. بصق أحدهم على أحد الصبية. أتذكّره لأنّه كان يمشي إلى جانبي، وسال اللعاب على ياقته البيضاء، وتساءلت إن كان هو ابن بيتي». هزّت كتفيها، ومضت تقول: «في النهاية، جاء عدد آخر منهم، لكنهم ظلّوا معزولين، يأكلون وحدهم عند الغداء، ويلعبون معاً في فترة الاستراحة، وبقينا نحن وحدنا. لا أستطيع أن أقول إنّّه كان نوعاً من إلغاء التمييز العنصري».

أومأت أُمِّي برأسها نحو فيوليت وصديقتها الصغيرة، وهما تتثران قطع الطين فوق العشب، ثمّ أضافت: «استمرّ ذلك لفترة أطول بكثير من أيّ منّا يا كينيدي. من المكان الذي نشأت فيه، في حياتك، يبدو أنّه لا تزال أمامنا أميال علينا أن نقطعها. أمّا أنا؟» ابتسمت للفتاتين، «فأنظر إلى ذلك، وأدهش كم قطعنا من شوط».

بعد عيدَي الميلاد ورأس السنة الجديدة، عملت عمل محامين اثنين، حرفياً، لأنّ إد ذهب في إجازة مع أسرته في كوزوميل. وقد مثلت أحد موكّلي إد في المحكمة، الذي انتهك أمراً تقييدياً، فقرّرت أن أدقّق في جدول

المحكمة لأعرف من هو القاضي الذي سيُكلّف بقضية روث. تتمثل إحدى وسائل التسلية الأموذجية للمحامين في البحث عن تفاصيل حياة القضاة الشخصية - من هنّ زوجاتهم؟ وهل هم أغنياء؟ وهل يرتادون الكنيسة يوم الأحد أو في أثناء الإجازات؟ وهل هم أغبي من كيس ممتلئ بالمطارق؟ وهل يحبّون مشاهدة المسرحيات الغنائية؟ وهل يخرجون مع محامين خارج أوقات الدوام ويشربون؟... نخزّن هذه الحقائق والشائعات مثل السناجب التي تخزّن الجوز لفصل الشتاء، فعندما نرى من هو القاضي الذي يُعبّن في قضيتنا، يمكننا أن نُخرج التفاصيل الدقيقة ونعرف إن كانت لدينا فرصة جيّدة لربح القضية.

لَمَّا رأيت من هو القاضي، غاص قلبي في أضلاعي.

إنّ القاضي ثاندر يرقى إلى مستوى اسمه الذي يعني «الرعده». فهو القاضي الذي يحكم بالإعدام، ويحكم مسبقاً على القضايا، وإذا أدنت، فإنك ستمضي فترة طويلة جداً في السجن. لا أعرف ذلك من الأقاويل، وإمّا من التجربة الشخصية.

قبل أن أصبح محامية دفاع عامّ، لَمَّا كنت أعمل كاتبة لدى قاض فيدراليّ، تورّط أحد زملائي في قضية أخلاقية شملت تضارباً في المصالح مع عمله السابق في شركة محاماة. كنت جزءاً من الفريق الذي يمثّله، وبعد سنوات من بناء القضية، ذهبنا إلى المحاكمة التي ترأسها القاضي ثاندر، الذي كان يكره أنواع السيرك الإعلاميّ. ومع أنّه كانت لدينا قضية محكمة، فقد أراد ثاندر أن يشكّل سابقة للمحامين الآخرين، فأدين زميلي وحُكم عليه بالسجن لمدة ستّ سنوات. وإذا لم يكن ذلك صادماً إلى درجة كافية، فقد التفت القاضي إلينا، نحن الذين كنّا في فريق الدفاع، وقال مويّخاً: «يجب أن تخجلوا من أنفسكم. فقد خدعكم السيّد ديني كلّكم. لكنّه لم يخدع هذه المحكمة». كانت تلك القشة الأخيرة بالنسبة إليّ، فقد كنت أحرق الشمعة من كلا الطرفين، وأعمل طوال أسبوع تقريباً من دون أن

أعرف النوم. كنت مريضة مثل كلب، أتناول أدوية الزكام وجرعات كبيرة من البريدنيزون، مرهقة ومُحِبطة بعد أن خسرت القضية - لذلك، ربّما لم يكن في وسعي التفكير بجلاء في تلك اللحظة.

ربّما قلت للقاضي ثاندر أن يلحق قضبي.

ما أعقب ذلك أن عُقد اجتماع توَسَّلْتُ خلاله ألا تُشطب عضويتي من نقابة المحامين، وأكّدت للقاضي أنه لا يوجد لديّ في الواقع عضو ذكري، وأنني قلت، يا لهذا السحر! لأنني أُعجبت كثيراً بالحكم الذي أصدره.

كانت لديّ قضيتان أمام القاضي ثاندر منذ ذلك الحين، وخسرتهما كليهما. عزمت على ألا أخبر روث عن تاريخي مع القاضي، فقد تكون المرّة الثالثة بمنزلة مصيبة.

زررت أزرار معطفي، وتأهّبت لمغادرة قاعة المحكمة، ورحت أحدث نفسي حديثاً مشجعاً صامتاً طوال الطريق، إذ لن أدع أيّ إزعاج، مهما كان صغيراً، أن يؤثر في القضية التي سأصدّي لها، ولا سيّما أنّ المحكمة ستختار هيئة محلّفين الشهر المقبل. لَمَّا خرجتُ من المبنى، تناهى إليّ صوت موسيقا كنسيّة.

في شارع نيو هافن غرين، رأيتُ بحراً من الأشخاص السود، شابكين أيديهم معاً، أصواتهم تملأ السماء بانسجام: سنننصر، وهم يرفعون لافتات كتب عليها اسم روث. في المقدّمة، رأيت والاس ميرسي يهتف بحماس، تقف إلى جانبه أديسا، أخت روث.

روث

عند اقتراب انتهاء نوبتي في ماكدونالدز، بدأت أشعر بألم في قدميَّ وظهري. ومع أنني عملت ساعات إضافية كثيرة، كان عيد الميلاد كئيباً وهزلياً، أمضى إديسون معظمه متجهماً متقلّب المزاج، ولمّا عاد إلى المدرسة في الأسبوع التالي، طرأ عليه تحوّل مزلز - فلم يعد يكلمني إلا قليلاً، وأصبح يردّ على أسئلتني بوقاحة، ولم يعد يؤدّي واجباته المدرسيّة على طاولة المطبخ، وبدأ يختفي في غرفته ويفتح جهاز التسجيل بأعلى صوت على أغاني دريك وكينديريك لامار، ولم يعد هاتفه يتوقّف عن الرنين معلناً عن تسلمه رسائل نصيّة، وعندما كنت أسأله من الذي يرسل إليه كلّ هذه الرسائل، يقول: «إنّه شخص لا أعرفه». لم أعد أتلقّى مكالمات من المدير، أو رسائل إلكترونيّة من أساتذته يقولون لي فيها إنّه متقاعد في دراسته، لكنّ هذا لا يعني أنني لم أكن أتوقّع أن يحدث لي.

إذاً، ما الذي يجب فعله؟ كيف يمكنني أن أشجّع ابني على أن يكون أفضل ممّا يتوقّعه معظم الناس؟ كيف يمكنني أن أقول له إنك تستطيع أن تصبح أيّ شيء تطمح إليه في هذا العالم - فمع أنني عملت واجتهدت كثيراً في دراستي وتفوّقت، ها أنا ذي أحاكم على جريمة لم أقترفها؟ وكلّما تحدّثنا في هذا الأمر، أنا وإديسون، في هذه الأيام، رأيت ذاك التحديّ في عينيه، كأنه يقول لي أتحدّك. أتحدّك أن تقولي إنك لا تزالين تؤمنين بهذه الكذبة.

لمّا أنهيت عملي ورأيت ستّ مكالمات هاتفية فائتة من كينيدي، ازداد يومي سوءاً، فاتصلت بها مباشرة. «ظننت أنّك وافقتِ على أنّ العمل مع والاس ميرسي فكرة سيّئة»، قالت من دون أن ترحّب بي.

«ماذا؟ نعم وافقت، وأوافق».

«إذًا، أنت لا تعرفين أنه قاد مسيرة لأجلك اليوم أمام مبنى المحكمة؟»

توقفت في مكاني، وتركت المشاة يدورون من حولي، وقلت: «لا بد أنك تمزحين يا كينيدي، فأنا لم أكلم والاس».

«كانت أختك معه كتفًا بكتف».

حسنًا، حلّ اللغز. قلت لها: «تريد أديسا أن تفعل ما تشاء».

«ألا تستطيعين أن توقفيها؟»

«أحاول ذلك منذ أربع وأربعين سنة لكنني لم أنجح بعد».

فقال كينيدي: «ابدلي جهداً أكبر معها».

ركبت الحافلة وذهبت إلى شقة أختي، بدلاً من أن أعود إلى بيتي مباشرة. لمّا دعنتني ابنتها دونتي للدخول، رأيت أديسا جالسة على الأريكة تلعب لعبة كاندي كراش على هاتفها، مع أنّ الوقت يقارب موعد العشاء.

«حسنًا، ها قد جاءت القطعة المخدرة»، قالت، «أين كنت؟»

«كنت مشغولة جداً منذ رأس السنة الجديدة، بين العمل ومتابعة أمور المحاكمة، لم أحتظّ بدقيقة واحدة».

«زرتك في ذلك اليوم، هل أخبرك إديسون؟»

أنزلت قدميها من على الأريكة لتفسح لي مكاناً لأجلس إلى جانبها.

قلت لها: «جئت لتقولي لي إنّ والاس ميري سي أصبح أعمّ صديق لك؟»

لمعت عينا أديسا، وقالت: «هل رأيتني في نشرة الأخبار اليوم؟ لم تظهر صورتي كاملة. فقط من مرفقي حتّى رقبتني، لكن تستطيعين أن تعرفيني من المعطف ذي الياقة المنقطة...»

فقلت لها: «أريد أن تتوقفي عن ذلك، فأنا لست في حاجة إلى والاس ميري».

«هل محاميتك البيضاء هي التي قالت لك ذلك؟»

تَهَدَّت وقلت: «أديسا، لم أشأ قط أن أكون طفلة أحد يرفع صوري».

«حتى إنك لم تمنحي القس ميري فرصة. هل تعرفين كم شخصاً مرّوا في تجارب مثل تجربتك؟ كم مرّة قيل لهم لا بسبب لون بشرتهم؟ إنها أكبر من قصّتك، وإذا كان هناك شيء جيّد يمكنه أن يُظهر ما حدث لك، فلماذا لا تدعيه يفعل ذلك؟» اعتدلت أديسا في جلستها، وأضافت: «كلّ ما يريده أن تمنّحه فرصة لأن يجلس معنا يا روث في مقابلة عبر التلفزة الوطنية».

دقّت أجراس الإنذار في رأسي، وكرّرت: «نحن».

أشاحت أديسا بعينيها بعيداً، وقالت: «حسناً، قلت إنني قد أمكّن من تغيير رأيك».

«إذاً، هذا لا يتعلّق حتى بمساعدتي في أن أستمّر، وإمّا لتحصلي على شيء من التقدير. يا إلهي يا أديسا! هذا مستوى متدنّ جديد، حتى بالنسبة إليك».

«ماذا يعني ذلك؟» نهضت ووقفت على قدميها، وراحت تحدّق إلى وجهي، مسندة يديها على وركيها، «هل تظنين حقاً أنّه يمكنني أن أستخدم أختي الصغيرة بهذه الطريقة؟»

قلت لها متحدّية: «ستقفين هنا وأنتِ مبلّلة حتى العظم، وتقولين لي إنها لا تمطر؟»

قبل أن تجيبني، سمعنا صوت ارتطام عال عندما سقط باب من مفصلاته وارتطم بالحائط. خرج ابنها تاباري من إحدى غرف النوم مع صديقه، وهو يضحك. كانا في غاية الحماس، يتكلّمان بصوت مرتفع، يرتديان بنطلونين مسحوبين إلى أسفل جداً. لا أعرف لماذا يكلّفون أنفسهم عناء ارتدائها! كلّ ما يمكنني أن أفكر فيه هو أنني لن أدع إديسون يخرج من المنزل بهذه الهيئة.

لَمَّا استدار صديق تاباري، أدركت أنّه ابني. «إديسون؟»

«أليس هذا رائعاً»، قالت أديسا وهي تبتسم، «ابنا خالة يمضيان الوقت معاً؟»
«ماذا تفعلين هنا؟» قال إديسون بنبرة جعلتني أعرف أنّها لم تكن مفاجأة سارّة
له.

«ألا توجد لديك واجبات مدرسيّة يجب أن تنجزها؟»
«أنجزتها».

«وطلبات التقديم إلى الجامعة؟»
نظر إليّ، وقال: «لا يزال هناك وقت حتّى نهاية الأسبوع».
«لا؟»

«ما المشكلة؟» سألتني، «تقولين لي دائماً إنّ الأسرة مهمّة»- قال ذلك كما لو كانت
هذه الكلمة شتيمة.

«إلى أين ستذهب أنت وتاباري بالتحديد؟»

رفع تاباري عينيه وقال: «إلى السينما يا خالتي».

«السينما» كالجحيم، قلت لنفسني، «ما الفيلم الذي ستشاهدانه؟»

تبادل هو وإديسون نظراتهما وضحكا، وقال تاباري: «سنختار فيلماً عندما نصل
إلى هناك».

تقدّمت أديسا بضع خطوات، شابكة ذراعيها، وقالت: «هل لديك مشكلة في ذلك
يا روث؟»

«نعم. نعم لديّ»، انفجرت فيها، «لأنّني أظنّ أنّ ابنك سيأخذ إديسون إلى جانب
ملعب كرة السلة ليدخّن الحشيش، ولن يذهب لمشاهدة الفيلم المرشّح للأوسكار».

أرخت أختي فمها، وقالت بازدراء: «تحكّمين على أسرتي، في حين أنت تُحاكّمين
بتهمة ارتكاب جريمة قتل؟»

أمسكتُ بذراع إديسون، وقلت: «ستأتي معي»، ثم التفتُ إلى أديسا وقلت لها: «استمتعي بإجراء مقابلتك مع والاس ميرسي. لكن احرصي على أن تقولي له، وللجمهور العاشق، إنك وأختك لم تعودا في وفاق، ولم تعد إحداكما تكلم الأخرى».

ثمّ دفعتُ ابني خارج منزلها، ونزعت من على رأسه تلك القبعة عندما هبطنا الدرج، وطلبت إليه أن يرفع بنطاله إلى خصره. لم يقل إديسون شيئاً حتى أصبحنا في منتصف الطريق إلى موقف الحافلة، فقال: «أنا آسف».

أجبت: «من الأفضل أن تكون آسفاً. هل فقدت عقلك اللعين؟ لم أربك لتكون هكذا».

«تاباري ليس سيئاً مثل أصدقائه».

بدأت أمشي، ولم أنظر إلى الوراء، ثمّ قلت: «تاباري ليس ابني».

لما كنت حاملاً بإديسون، كان كل ما أعرفه هو أنني لم أكن أريد أن تكون تجربة ولادتي مثل تجربة ولادة أديسا - التي ادّعت أنها لم تدرك أنها حامل حتى بلغت شهرها السادس. أنجبت طفلها الأول، ثمّ أنجبت طفلها الثاني عملياً في مترو الأنفاق. أما أنا، فكنت أريد أن أحصل على أفضل رعاية يمكنني أن أحصل عليها، وأفضل الأطباء. وما أنّ ويسلي كان في الخدمة، فقد أشرفت أمي على ولادتي. ولما اقترب وقت الولادة، استقللنا سيارة أجرة إلى مستشفى الرحمة - ويست هافن، لأنّ أمي لا تجيد قيادة السيارة، ولم أكن أستطيع أن أقودها بنفسي. كنت قد خطّطت لأنّ ولد ولادة طبيعياً، لأنني سجّلت هذه اللحظة في رأسي ألف مرّة بحسابي ممرضة مخاض وولادة، لكن مثل أيّ خطة جرى التخطيط لها جيّداً، لم تتحقّق على الوجه الأكمل. بينما أخذت إلى غرفة العمليّات لأجري عمليّة قيصرية، كانت أمي تردّد ترانيم معمداية، ولما أفتت بعد العمليّة، رأيتها تحمل ابني بين يديها.

«روث»، قالت لي، وعيناها ممتلئتان بالفخر، ولم أر لون عينيها هكذا من قبل،
«روث، انظري إلى ما خلقه الله لك».

لَمَّا أعطتني الطفل، أدركت فجأة أنه على الرغم من أنني كنت قد خطّطت لولادتي الأولى بدقّة شديدة، لم أخطّط لثانية واحدة لما يمكن أن يحصل بعد ذلك، ولم تكن لديّ أي فكرة حول كيف أكون أمّاً. كان ابني متببساً بين ذراعيّ، ثمّ فتح فمه وبدأ يبكي، كما لو كان هذا العالم إهانة له.

مدعورة، نظرت إلى أمي. كنتُ طالبة متفوّقة في المدرسة، لم أتخيّل قطّ أنّ هذه - أكثر العلاقات طبيعيّة - ستجعلني أشعر بأنّي ضعيفة. لَمَّا هزّزت الطفل بين ذراعيّ، بدأ يبكي بصوت أعلى، وراحت قدماه تركلان كما لو كان مسافراً على درّاجة خياليّة، ذراعاه تلوّحان، أصابعه الصغيرة مثنية ومتصلّبة. ثمّ ازداد صراخه حدّة، غضب تتخلّله عقدة صغيرة من الفواق، ثمّ احمرّ خداه من الجهد الذي يبذله، لأنّه كان يحاول أن يقول لي شيئاً لم أكن مستعدّة لفهمه.

«ماما؟» قلت لها متوسّلة، «ماذا أفعل؟»

مددتُ ذراعيّ إليها مع أمل أن تأخذه منّي وتهدّئه، لكنّها لم تفعل شيئاً سوى أن هزّت رأسها، وقالت: «قولي له من أنتِ بالنسبة إليه»، ثمّ خطت خطوة إلى الورا، كأنّها تريد أن تذكّرني بأنني وحدي في هذا الأمر.

قربّت وجهي من وجهه، وضغطت على عموده الفقريّ تحت قلبي حيث كان قابلاً لأشهر عدّة، وهمستُ له، «اسمك إديسون ويسلي جيفرسون. أنا أمك، وسأمنحك أفضل حياة يمكنني أن أمنحك إيّاها».

رفّ إديسون عينيه، ونظر إليّ بعينه الداكنتين، كما لو كنت ظلاً يجب أن يميّزه عن بقية هذا العالم الجديد الغريب. توقّف عن البكاء مرّتين، قطار خرج عن مساره، ثمّ اصطدم بالصمت.

يمكنني أن أخبركم بالتحديد الدقيقة التي استرخى فيها ابني في محيطه الجديد. أعرف هذه التفاصيل جيداً لأنها اللحظة التي فعلتُ فيها الشيء نفسه. «انظري»، قالت أمي من خلفي، من مكان خارج دائرتنا نحن الاثنين فقط، «لقد قلت لك ذلك». بدأنا نلتقي أنا وكينيدي كل أسبوعين، حتى لو لم تكن هناك معلومات جديدة نتبادلها. كانت ترسل إليّ أحياناً رسائل نصيّة، أو تأتي إلى ماكدونالدز لتسلّم عليّ. وفي إحدى تلك الزيارات، دعتنا أنا وإديسون إلى العشاء. قبل أن أذهب إلى منزل كينيدي، غيرتُ ثيابي ثلاث مرات حتّى قرع إديسون باب الحمّام أخيراً. وقال: «هل نحن ذاهبان لزيارة محاميتك، أو لزيارة الملكة؟»

إنّه محقّ. لا أعرف لماذا كنت متوتّرة هكذا، ماعدا أنّ ذلك يبدو أشبه بعبور خطّ، لأنّ مجيئها إلى بيتي لمراجعة المعلومات المتعلقة بقضيتي شيء، لكن ليس لهذه الدعوة علاقة بها، إذ تبدو زيارة اجتماعيّة.

ارتدى إديسون قميصاً وبنطالاً كاي اللون، وأنذرته بأنني سأقتله إذا لم يتصرّف مثل الجنتلمان الذي أعرفه، أو أنني سأضربه عندما نعود إلى البيت. كمّا قرعنا جرس الباب، فتح لنا زوجها - اسمه ميكا - وقد اندسّت فتاة صغيرة تحت ذراعه مثل دمية من القماش، وقال: «لا بدّ أنّك روث»، وأخذ طاقة الأزهار التي قدّمتها له، فصافحني بحرارة، ثمّ صافح إديسون. استدار في الاتجاه الآخر، وقال: «ابنتي، فيوليت، هنا في مكان ما... كنت قد رأيته منذ قليل... أنا متأكّد من أنّها تريد أن تسلّم عليكما». كمّا استدار، دارت الفتاة الصغيرة حوله، شعرها يتطاير، وقد تساقطت ضحكاتهما على قدمي مثل فقاعات.

انسَلت من ذراع والدها، وجثوت على ركبتي. كانت فيوليت ماكواري نسخة مصغّرة عن أمها، مع أنّها ترتدي ثوب الأميرة تيانا. أعطيتها كرة

زجاجية فيها أضواء بيض صغيرة، ولمَّا ضغطتُ على الزرّ أضاءت كلها، وقلت لها: «هذه لك، إنَّها كرة زجاجية من قصص الحوريات».

اتَّسعت عينا فيوليت، وقالت: «واو». أخذتها وجرت.

نهضت وقلت لميكا: «وتتحوّل أيضاً إلى ضوء ليليّ رائع»، في اللحظة التي خرجت فيها كينيدي من المطبخ في بنطال جينز وكنزة ومريّلة.

«لقد جنّت»، قالت وارتسمت على وجهها ابتسامة، وبدت بقعة صلصة معكرونة على ذقنها.

فقلت: «نعم. لا بدّ أنّي مررت من أمام بيتك مئة مرّة. لم أكن أعرف أنّك تقيمين هنا».

كنت سأظّل لا أعرف لو لم أُنهم بجرّيمة القتل. أعرف أنها قالت لنفسها ذلك أيضاً، لكنّ ميكا أنقذ اللحظة، وقال: «هل تشربين شيئاً؟ هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً يا روث؟ لدينا نبيذ وبيرة وجن وتونيك...»
«نبيذ من فضلك».

جلسنا في غرفة الجلوس. كان على الطريزة صحن فيه جبن. «انظري إلى ذلك»، تمتم لي إديسون، «سلّة ممتلئة بالسكويت».

رمقته بنظرة حادّة في مقدورها أن تُسقط طائراً من السماء. «إنّه لطف كبير أن تدعواننا إلى منزلكما»، قلت بتهذيب.

فقال كينيدي: «لا تشكريني بعد، فالعشاء مع طفلة في الرابعة من عمرها ليس تجربة جيدة على الطعام». ابتسمت فيوليت التي كانت تلوّن على الطرف الآخر من الطاولة. ثمّ أضافت: «بصراحة، لم نستضف زوّاراً كثيرين هذه الأيام».

«أتذكّر عندما كان إديسون في ذلك العمر. إنّي متأكّدة أنّنا كنّا نتناول أنواعاً مختلفة من السباغيتي والجبن كلّ ليلة لمُدّة سنة كاملة».

لَفَّ ميكا ساقاً على ساق، وقال: «إديسون، قالت لي زوجتي إنك طالب متفوق».

نعم. لأنني لم أذكر لكيينيدي أنه طُرد مؤقتاً من المدرسة مؤخراً.

فأجابه إديسون: «شكراً لك سيدي. أقدم حالياً طلبات إلى جامعات عدّة».

«أوه... هذا رائع. ماذا تريد أن تدرس؟»

«ربما التاريخ، أو العلوم السياسيّة».

هزّ ميكا رأسه باهتمام، وسأله: «هل أنت من كبار المعجبين بأوباما؟»

لماذا يفترض البيض ذلك دائماً؟

فقال إديسون: «كنت صغيراً نوعاً ما عندما كان مرشحاً للرئاسة، لكنني شاركت

أمي في حملة رئاسة هيلاري عندما رشحت نفسها ضده. أظن أنني أصبحت حساساً

تجاه القضايا العسكريّة بسبب أبي، وكان موقفها من حرب العراق منطقياً أكثر في ذلك

الوقت. فقد كانت مؤيدة بصراحة للغزو، وكان أوباما معارضاً منذ البداية».

شعرت بفخر شديد. «حسناً»، قال ميكا منبهراً، «أتطلع لأن أرى اسمك في قائمة

المرشّحين للرئاسة ذات يوم».

بدا أن فيوليت شعرت بالملل من هذه الأحاديث، فخطت من فوق ساقها لتعطي

إديسون قلم تلوين، وسألته: «هل تريد أن تلون؟»

فأجابه إديسون: «نعم»، وانحنى على ركبتيه، كتفأً بكتف مع ابنة كينيدي ليصل

إلى دفتر التلوين. وبدأ يلون فستان سندريلا باللون الأخضر.

«لا»، قاطعته فيوليت، المستبدة الصغيرة، «يفترض أن يكون ذلك باللون الأزرق»،

وأشارت إلى فستان سندريلا في دفتر التلوين، المخفي نصفه وراء راحة يد إديسون

العريضة.

«فيوليت»، قالت لها كينيدي، «دعي ضيوفنا يتَّخذوا خياراتهم بأنفسهم، هل تتذكَّرين؟»

فأجابها إديسون: «لا بأس يا سيِّدة ماكواري، لن أعبت بلون فستان سندريلا». فأعطته الفتاة الصغيرة بزهو قلم التلوين الصحيح، الأزرق. حتى إديسون رأسه وبدأ يخربش من جديد.

«ستبدوون اختيار هيئة المحلِّفين في الأسبوع المقبل؟» سألتها، «هل ينبغي لي أن أشعر بالقلق؟»

«لا. طبعاً لا. إنَّها مجرد...»

«إديسون؟» سألته فيوليت، «هل هذا سلسال؟»

لمس القلادة التي أصبح يضعها منذ أن بدأ يرافق ابن خالته، وقال: «نعم، أظنَّ ذلك».

فقالت له: «هذا يعني أنكَ عبد».

«فيوليت»، صاح ميكا وكينيدي اسمها في وقت واحد.

«يا إلهي! إديسون، روث. أنا آسفة جداً»، قالت كينيدي باندفاع، «لا أعرف من أين سمعت ذلك...»

«في المدرسة»، أجابت فيوليت، «قالت يوشيا لتايشا إنَّ الأشخاص الذين يشبهونها كانوا يضعون سلاسل، وإنَّ تاريخهم يقول إنَّهم كانوا عبيداً».

فقال ميكا: «سنناقش ذلك لاحقاً. فيوليت إنَّه ليس شيئاً يمكن أن نتحدَّث عنه الآن».

فقلت: «حسناً»، مع أنَّني بدأت أشعر بعدم الارتياح في الغرفة، كما لو أنَّ أحداً امتصَّ كلَّ الأكسجين منها. سألتها: «هل تعرفين ما هو العبد؟»

هزَّت فيوليت رأسها.

«تعني عندما يملك شخص شخصاً آخر».

رأيت أن الفتاة الصغيرة بدأت تقلّب ذلك في رأسها، وسألت: «مثل حيوان أليف؟»
وضعت كينيدي يدها على ذراعي، وقالت هامسة: «ينبغي لك ألا تفعل ذلك».
«ألا تظنين أنه يجب أن أفعل ذلك، مرّة واحدة؟» ونظرتُ إلى ابنتها مرّة أخرى،
«شيء مثل حيوان أليف، لكنّه مختلف أيضاً. منذ زمن بعيد، وجد الأشخاص الذين
يشبهونك ويشبهون أمك وأبيك مكاناً في العالم يشبه أناساً مثلي ومثل إديسون ومثل
تايشا، وكنا سعيدين هناك ونفعل أشياء عظيمة هناك - بنينا بيوتاً، ونطهو الطعام،
ونصنع أشياء من لا شيء - فأرادوا أن نفعل ذلك في بلدهم أيضاً، فجلبوا الأشخاص
الذين يشبهونني من دون أن يأخذوا رأينا. لم يكن لدينا خيار. لذلك، فإنّ العبد - هو
شخص لا يوجد لديه خيار في ما يفعله، أو في ما فعلوه به».

وضعت فيوليت قلم التلوين، وبدأت تفكّر.

أضفت: «لم نكن أول العبيد. هناك قصص في كتاب أحبه اسمه الكتاب المقدّس.
فقد استعبد المصريون الشعب اليهوديّ ليينوا لهم مدناً. كان في استطاعتهم أن يجعلوا
الشعب اليهوديّ عبيداً لهم لأنّ المصريين كانوا يمتلكون القوة».

ومثل أيّ طفلة أخرى، في الرابعة من عمرها، عادت فيوليت إلى مكانها، إلى جانب
ابني، وقالت له: «دعنا نلوّن رابونزيل بدلاً من ذلك»، لكنّها قالت بعد تردّد، «أقصد،
هل تريد أن تلوّن رابونزيل؟»

فقال إديسون: «حسناً».

ربّما كنت الشخص الوحيد الذي لاحظ ذلك، لكن بينما كنت أشرح لها، نزع
إديسون ذلك السلسال من عنقه ووضعه في جيبه.

«شكرًا»، قال ميكا، «كان حقاً درساً جيداً في تاريخ السود».

فقلت: «إن العبودية ليست تاريخ السود، إنها تاريخ البشرية كلها».

انبعث صوت المؤقت، فنهضت كينيدي. لَمَّا ذهبت إلى المطبخ، دمدمت شيئاً عن رغبتني في أن آتي معها وأساعدتها، فلحقت بها. التفتت على الفور وخذاًها يشتعلان، وقالت: «أنا أسفة جداً لأجل ذلك يا روث».

«إنها طفلة. إنها لا تعرف شيئاً أفضل بعد».

«حسناً، لقد شرحت لها بطريقة أفضل بكثير مما كنت سأشرحه لها».

مدت يدها إلى داخل الفرن وأخرجت صينية لازانيا.

قلت: «لَمَّا عاد إديسون إلى البيت من المدرسة، وسأل إن كنا عبيداً، كان في عمر فيوليت تقريباً. وكان آخر شيء أريد أن أتحدث عنه هذا الحديث وأتركه يشعر بأنه ضحية».

«قالت لي فيوليت الأسبوع الماضي إنها تتمنى أن تكون مثل تايشا لأنها تضع خرزات في شعرها».

«ماذا قلت لها؟»

لم تتردّد كينيدي، وقالت: «لا أعرف. لعلي لم أجبها إجابة صحيحة. قلت لها شيئاً عن أنّ كلّ شخص مختلف عن الآخر، وهذا ما يجعل العالم رائعاً. أقسم إنها عندما تسألني أشياء عن العرق، أصبح مثل إعلان كوكا كولا».

ضحكت، وقلت لها: «لعلك لا تتحدّثين في دفاعك عن ذلك بقدر ما أتحدّث أنا عنه. الممارسة تؤدّي إلى الإتقان».

«لكن، أتعرفين؟ لَمَّا كنت في عمرها، كانت توجد تايشا في الفصل أيضاً، مع فارق أنّ اسمها كان ليزلي. كنت أريد أن أكون هي. كنت أحلم بأنني سأستيقظ ذات يوم وأنا سوداء. بلا مزاح».

رفعت حاجبيّ متظاهرة بالرعب، وقلت: «وتتخلّين عن ورقة اليانصيب الرابحة؟ هذا مستحيل».

نظرت إليّ، وضحكنا كلتانا. في تلك اللحظة، لم تكن سوى امرأتين تقفان أمام صينية اللازانيا، نقول الحقيقة. في تلك اللحظة، لمّا بدأت عيوبنا واعترافاتنا تنسلّ مثل خيط في ثوب، شعرنا أنّ لدينا قواسم مشتركة أكثر ممّا لدينا من اختلافات. ابتسمتُ، وابتسمت كينيدي، وفي تلك اللحظة، في الأقلّ، رأيت إحدانا الأخرى كما هي حقيقتها. إنها البداية.

فجأة، دخل إديسون المطبخ ويده هاتفي الخلوي. «ماذا في الأمر؟ لا تقل لي إنك طُردت لأنك جعلت آرييل سمراء؟»
فقال: «ماما، السيّدّة مينا على الخط. أظنّ أنّ من الأفضل أن تكلمينا».

لمّا كنت في العاشرة من عمري، أُهديتُ في أحد أعياد الميلاذ (الكريسماس) لعبة باربي سوداء اسمها كريستي، تشبه كثيراً الدمى التي تمتلكها كريستينا، ما عدا لون بشرتها، وكان لدى كريستينا صندوق ممتلئ بملابس باربي التي لم يكن في مقدور أمي أن تشتري مثلها، فخاطت للعبة كريستي ثياباً من الجوارب القديمة ومناشف الصحن. صنعت لي منزل الأحلام من علب الأحذية. كنت في غاية السعادة، وقلت لأمي إنّها أفضل من مجموعة كريستينا لأنني الشخص الوحيد في العالم الذي يمتلكها. سخرت منّي أختي راشيل التي كانت في الثانية عشرة من عمرها، وقالت لي: «قولي عنها ما تشائين، لكنّها تظلّ مقلّدة».

كانت معظم صديقات راشيل يقاربنها في العمر، لكنهنّ كنّ يتصرّفن كما لو كنّ في السادسة عشرة من أعمارهنّ. لم أكن أرافقهنّ كثيراً لأنهنّ يذهبن إلى المدرسة في هارلم، أمّا أنا فكنت أذهب إلى مدرسة دالتون، وإذا ما أتيتُ في عطلة نهاية الأسبوع، كنّ يسخرن منّي لأنّ شعري متموّج وليس مفتولاً في ضفائر مثل شعرهنّ، ولأنّ بشرتي فاتحة وليس داكنة مثل بشرتهنّ، وكنّ يقلن لي: «أتظنين أنّك كلّ هذا؟»، ويضحكن من وراء

ظهور بعضهنَّ كما لو كنَّ يضحكن على نكتةٍ سرّيةٍ بينهنَّ. وعندما تطلب أمي إلى راشيل أن تعتني بي في عطلة نهاية الأسبوع، نستقلّ الحافلة إلى مركز التسوّق، فكنّت أجلس في مقدّمة الحافلة، في حين يجلسن جميعهنَّ في الخلف.

بدلاً من أن يناديني باسمي، كنَّ يطلقن عليّ اسم «أفرو ساكسونية»، ويغنين أغاني لا أعرفها. ولمّا قلت لراشيل إنني لا أحبّ أن تسخر صديقاتها مني، قالت إنني يجب ألا أكون حسّاسة إلى هذه الدرجة، «وإنهنَّ يمزحن معي، وإذا ما صادقتن أكثر، فقد يحببني أكثر».

في أحد الأيام، صادفتُ صديقاتها وأنا عائدة إلى البيت من المدرسة، ولم تكن راشيل معهنَّ هذه المرّة. «أوه، انظرن من هنا»، قالت فانتاسي، أطولهنّ قامّة، وشدّت ضفيري الفرنسيّة، إذ كانت الفتيات في مدرستي يضرفن شعرهنَّ بهذه الطريقة في ذلك الوقت، وقالت: «تظنين أنّك جميلة جدّاً»، وأحاطت بي الفتيات الثلاث، «ماذا؟ ألا يمكنك أن تقولي شيئاً عن نفسك؟ هل تريدين أن تتكلّم أختك عنك؟»
فقلت لهنَّ: «توقّفن. اتركنني وشأني لو سمحتنَّ».

«أظنّ أنّ أحداً يجب أن تتذكّر من أين جاءت»، وأخذن حقيبتَي المدرسيّة، وفتحنها ورمين دفاتري في برك الماء على الأرض، ودفعنني إلى الوحل، ثمّ أمسكت فانتاسي بدميتي كريستي وفكّكتها إلى قطع. فجأة، ظهرت راشيل مثل ملاك منتقم، فسحبت فانتاسي وضربتها على وجهها، فسقطت فوق إحدى الفتيات وأوقعت فتاةً ثالثة. ولمّا تجمّعن معاً، وقفت فوقهنَّ بقبضتها، ورحن يزحفن بعيداً مثل سرطان البحر في بالوعة، ثمّ نهضن على أقدامهنَّ ورحن يجريّن. جثوت إلى جانب لعبتي كريستي المكسورة، وجثت راشيل إلى جانبي، وقالت: «هل أنت على ما يرام؟»

قلت: «نعم... لكن... أذيت صديقاتك».

فأجابت راشيل: «لديّ صديقات أخريات، أمّا أنتِ فإنّك أختي الوحيدة»، وشدّنتني حتّى وقفت على قدميّ، وأضافت: «هيا، لنذهب كي تنظّفي نفسك».

عدنا إلى البيت صامتتين. لمّا رأَت أمّي شعري وجوري الممزّق، أدخلتني الحمام، ووضعت قطع ثلج على مفاصل أصابع راشيل.

ثمّ ألصقت أمّي الأجزاء المفكّكة من كريستي، لكنّ ذراعها ظلّت تسقط، وكان هناك ثقب دائم في مؤخّرة رأسها. في الليل، جاءت راشيل إلى سريري. كانت تفعل ذلك عندما كنّا صغيرتين حين تحدث عواصف رعدية. أعطتني كرسياً صنعته من علبة سجائر فارغة وكوب لبن وصحيفة. أشياء جمعتها وألصقتها معاً، وقالت: «أظنّ أنّ كريستي تستطيع أن تستخدم هذه».

هزرت رأسي، وقلّبتها في يدي. لعلّها ستنهار عندما تجلس كريستي عليها، لكن لم يكن هذا هو المهمّ. رفعت الملاءة، واستلقت راشيل خلفي، وألصقت بطنها على ظهري، وأمضينا الليلة هكذا، كما لو كنّا توءمين سيامين، نتقاسم قلباً واحداً ينبض بيننا.

أصببت أمّي بأول جلطة دماغية عندما كانت تنظّف الأرض بالمكنسة الكهربائيّة. سمعت السيّدة مينا صوت ارتطام جسدها على الأرض، ووجدتها مستلقية على حافة السجادة الفارسيّة ووجهها مضغوط على أهداب السجادة، كما لو كانت تتفحصها، وأصببت بجلطة دماغية ثانية عندما نقلتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى. لمّا وصلنا إلى المستشفى فارقت الحياة. كانت السيّدة مينا تتنظروننا، تبكي بحرقة. بقي إديسون معها، في حين ذهبت لأرى أمّي.

مرّضة لطيفة تركنتني مع جسد أمّي. دخلتُ المقصورة الصغيرة المغلقة بستارة، وجلست إلى جانبها. أخذت يدها التي كانت لا تزال دافئة. «لماذا

لم أتصل بك الليلة الماضية؟» دمدت، «لماذا لم أتِ وأزورك في نهاية الأسبوع الماضي؟»
جلست على حافة السرير، ثم حشرت نفسي تحت ذراعها للحظة. استلقيت
ووضعت أذني على صدرها الهامد. هذه آخر فرصة أكون فيها طفلتها.

تملّكني شعور غريب بأنني أصبحت يتيمة فجأة، كما لو أنني فقدت دقة التوجيه
التي تجعلني أسير على الدرب الصحيح، وهو أمر لم أكن أكثر له كثيراً. من سيعلمني
الآن كيف أكون أمّاً وأربي ابني، وكيف أواجه قسوة الغرباء، وكيف أكون متواضعة؟
أدركت أنها كانت قد فعلت ذلك.

توجّهت بصمت إلى حوض المغسلة، وملأت وعاء بالماء الدافئ والصابون ووضعت
إلى جانب أمي. سحبت الملاءة التي غطيت بها، بعد فشل المعالجة الطارئة. لم أر أمي
عارية منذ زمن بعيد، لكن بدا لي كما لو أنني أنظر في مرآة شوّهتها السنون. هكذا
سيصبح ثدياي وبطني، وها هي ذي علامات التمدد والتشققات في بطنها، وها هو ذا
منحنى العمود الفقري الذي لم يتوقّف عن العمل طوال عمرها، وها هي ذي خطوط
الضحك التي تنبعث من عينيها.

بدأت أغسلها كما لو أنني أغسل مولوداً جديداً. مرّرت قطعة القماش على طول
ذراعيها وساقها، وجففت بين أصابع قدميها. أجلستها، وأسندتها إلى صدري. بدت
عديمة الوزن. وبينما بدأت قطرات الماء تسيل على ظهرها، أسندت رأسي على كتفها،
عناق من طرف واحد. لقد جلبتني إلى هذا العالم، وسوف أساعدها في مغادرته.

لَمَّا انتهيت، ضممتها بين ذراعيّ، وأعدتها وأسندتها برفق إلى الوسادة، سحبت
الملاءة إلى الأعلى وطويتها تحت ذقنها، ثم همست: «أحبك يا ماما».

ثمَّ فُتحت الستارة، ووقفت أديسا هناك. بعكس حزني الهادئ، أجهشت إلى البكاء، وألقت بنفسها فوق أُمِّي، وأمسكت بقبضتيها جانبي الملاءة.

مثل أيَّ نار ملتهبة، كنت أعرف أنَّها ستخبو. انتظرت حتَّى تحوَّلت صرخاتها إلى فواق. لَمَّا التفتت ورأنتي واقفة هناك، خُيِّلَ إليَّ حقاً أنَّها أدركت، للمرَّة الأولى، أنَّني هنا في الغرفة.

لا أعرف إن كانت هي التي فتحت ذراعيها نحوي أم أنا التي فتحتُ ذراعيَّ لها، لكن إحدانا ضمَّت الأخرى بقوة، نتمسك بالحياة العزيرة. تحدَّثنا مع بعضنا - هل اتصلت بك مينا؟ هل كانت في صحَّة سيِّئة؟ متى تحدَّثتِ إليها آخر مرة؟ دارت الصدمة والحزن في حلقة، مني إليها ومنها إليَّ.

ضمَّنتي أديسا بقوة. علقت يداي في ضفائرها. همست في أذني: «أخبرت والاس ميرسي أن يجد موضوعاً جديداً يتحدَّث عنه».

ابتعدتُ قليلاً ونظرت في عينيها.

هزَّت أديسا كتفيها، كما لو أنَّني سألتها سؤالاً، ثمَّ قالت: «أنت أختي الوحيدة».

أقيمت جنازة أُمِّي كما كانت تريد، وامتلات الكنيسة التي ترتادها منذ زمن بعيد في هارلم بأبناء الرعيَّة الذين يعرفونها منذ سنوات. جلستُ في الصَّف الأمامي إلى جانب أديسا، أحدقُ إلى الصليب الخشبي الضخم المعلق على جدار المذبح، بين لوحين ضخمين من الزجاج الملون، تحته نافورة ماء، ووضع على المذبح نعش أُمِّي - أصرتُ السيِّدة مينا على أن يكون النعش من أفخر الأنواع، وقد تكفَّلت بدفع كلِّ تكاليف الجنازة. وقف إديسون إلى جانب القسِّ هارولد، وقد بدا مصدوماً، يرتدي بدلة سوداء قصيرة عند رصغيه وكاحليه، وينتعل حذاء رياضياً، ويضع نظارة شمسيَّة عاكسة، على الرِّغم من أنَّه داخل الكنيسة. في البداية، ظننت أنَّ ذلك يشي بقلَّة احترام، لكنني سرعان ما أدركت السبب؛ فأنا، بحكم عملي

كمنمضة، أرى الموت طوال الوقت، لكن هذه أول تجربة لإديسون مع الموت. فقد كان صغيراً جداً لا يتذكّر شيئاً عندما جُلب أبوه إلى البيت في نعش، ملفوفاً بالعلم.

سار صفّ طويل من الناس في الممرّ، رقصة مروّعة ليلقوا نظرة على تابوت أمي المفتوح، في ثوبها الأرجوانيّ المفضّل لديها، الذي تزيّن كنفه حبات من الترت، وحذائها الأسود الذي كان يؤمّ قدميها، وأزرار الماس التي أهدتها لها السيدة مينا والسيد سام في إحدى السنوات بمناسبة عيد الميلاد، لكنّها لم تستخدمها قطّ لأنّها كانت تخشى أن تسقط وتفقدّها. أردت أن أدفنها بوشاحها الذي يجلب لها الحظ، والذي بحثت عنه في شقّتها لكنّي لم أجده. «يبدو أنّها في سلام»، سمعت ذلك مرّات كثيرة، أو «إنّها تبدو كما كانت تماماً، أليس كذلك؟» لم يكن أيّ من ذلك صحيحاً. إذ كانت تبدو مثل رسمة في كتاب ثنائيّ الأبعاد، تريد أن تقفز من الصفحة.

لمّا أتحت للجميع فرصة إلقاء نظرة أخيرة عليها، بدأ القسّ هارولد الصلاة، وقال: «السيدات والسادة، الإخوة والأخوات... هذا ليس يوماً حزيناً». ابتسم بلطف لابنة أختي تيانا التي أجهشت إلى البكاء. «إنّه يوم سعيد، لأننا هنا لنحتفل بصدیقتنا الحبيبة، وأمنّا وجدّتنا، لوان برووكس، التي أصبحت تسير أخيراً في سلام إلى جانب الربّ. لنبدأ الصلاة.

حينئذٍ رأسي، لكنّي اختلست نظرة إلى الكنيسة التي امتلأت بالمعزيّن الذين كانوا جميعهم يشبهونها، ما عدا السيّدة مينا وكريستينا، وفي الخلف، كينيدي ماكوري وامرأة تكبرها سنّاً.

فوجئت عندما رأيتهَا، لكنّها بالطبع تعرف قليلاً عن أمي، فقد كنتُ في منزلها عندما سمعتُ الخبر.

وعلى الرّغم من ذلك، فقد بدا الأمر مثل خطّ ضبابيّ، مثل النبيذ والجبن في منزلها. كما لو أنّي أحاول أن أضعها في علبة وتطلّ تسيل من جوانبها.

بدأ القسّ يقول: «لقد ولدت صديقتنا لوان عام 1940، لجيرمين ومادي برووكس، أصغر أبنائهما الأربعة. لديها ابنتان، وقد بذلت كلّ ما في وسعها طوال حياتها، بعد رحيل والدهما، وربّتهما لتصبحا امرأتين طبيبتين وقوّيتين، وكوّست حياتها لخدمة الآخرين، وأنشأت بيتاً سعيداً للأسرة التي عملت عندها لأكثر من خمسين سنة. وقد فازت في سوق كنيسةنا الخيريّ بشرائط للفطائر والكعك الذي كانت تصنعه أكثر من أيّ شخص آخر من المصلّين، وأعتقد أنّ ما لا يقلّ عن عشرة باوندات حول وسطي يمكن أن تُعزى إلى الحلويات التي كانت تصنعها. كانت تحبّ موسيقا الإنجيل والخبزّ ويسوع، وقد خلفتها ابنتاها وأحفادها الستة المحبوبون».

أنشدت الجوقة الترانيم التي كانت تحبّها أمي كثيراً: «خذ بيدي، أيّها الربُّ الثمين» و«سأحلّق بعيداً». ثمّ عاد القسّ إلى المنصّة، رفع عينيه إلى المصلّين، وقال: «الله طيب».

فردّ الجميع: «دائماً».

«وقد دعا ملاكه إلى بيت المجد».

بعد أن ردّد الحاضرون «آمين»، دعا القسّ الأشخاص الذين يرغبون في التحدّث عن التأثير الذي أحدثته أمي في حيواتهم. وقفت بعض صديقاتها وتحركن ببطء كما لو كنّ يعرفن أنّ دورهنّ التالي. قالت إحداهنّ إنّها ساعدتني في علاج سرطان الثدي، وقالت أخرى إنّها علّمتني كيف أخط حاشية ثوب. كنت أعرف أمي على نحو ما، لكنّها كانت بالنسبة إليهنّ شيئاً مختلفاً - معلّمة وصديقة مؤمّنة على أسرارهنّ، متواطئة في جرائمهنّ. وبينما كانت قصصهنّ تروى عن أمي، كان الناس يبكون ويصلّون لأجلها.

ضغطت أديسا على يدي وصعدت إلى المنصّة. لمّا قالت: «كانت ماما صارمة»، ضحك الحشد على هذه الحقيقة، ومضت تقول: «كانت صارمة فيما يتعلق بالسلوك والأخلاق، والواجبات المدرسيّة، والمواعدة، ومقدار

الجلد العاري الذي يمكننا إظهاره عندما نخرج إلى الأماكن العامة. كانت هناك نسبة، صحيح يا روث؟ كان ذلك يتغيّر بحسب الفصل»، ابتسمت أديسا قليلاً ومضت تقول: «أتذكّر كيف أنها وضعت ذات يوم أدوات المائدة على خوان العشاء، وقالت لي، يا بنت، عندما تغادرين الطاولة، يمكن أن تبقى هذه في مكانها.»

نعم، فعلت ذلك، سمعت أحداً يقول من خلفي.

«كنت طفلة جامحة، ولعلي لا أزال كذلك. كانت ماما تلبسنا ثياباً لم يكن الآباء الآخرون يكثرثون لمثلها، وكان يبدو لي ذلك حينذاك ظلماً. وسألتها ما الفرق الذي سيحدث في مخطط الله الكبير لو أنني ارتديت تنورة قصيرة حمراء، فقالت لي شيئاً لن أنساه في حياتي: لا يوجد لديّ وقت ثمين كثير كي تنتمي إليّ، وسأحرص على ألا يكون أقصر ممّا يجب أن يكون. كنتُ صغيرة جداً وغوغائية، ولم أفهم قصدها، أمّا الآن، فقد أصبحت أفهم ذلك. كان الشيء الذي لم أكن أفهمه حينذاك هو الجانب الآخر من العملة: فقد كان لديّ القليل من الوقت الثمين كي تكون أُمّي.»

ثمّ تنحّت جانباً والدموع تترقرق في عينيها. بصراحة، لم أكن أعرف أنّ أديسا متحدّثة جيّدة هكذا، لكنّها، مرّة أخرى، كانت دائماً الفتاة الجريئة، أمّا أنا، فقد تراجعت إلى الخلف، ولم أشأ أن أقول شيئاً في الجنازة، لكن أديسا قالت لي إنّ الناس ينتظرون مني أن أقول شيئاً، واقترحت أن أحكي لهم قصّة. صعدت إلى المنصّة، وتنحّنت، وأمسكت بحافة المنصّة الخشبيّة وأنا أرتجف. لمّا قلت: «شكراً» انبعث من الميكروفون صفير. عدت إلى الورا، «أشكركم لمجيتكم لتوديع ماما. كانت ستحبّ أن تعرف أنّكم أبديتم جميعكم كلّ هذا الاهتمام، وإذا لم تأتوا فإنكم تعرفون أنّها في السماء تُلقني بظلالها على تصرفاتكم». ألقىت نظرة على الحاضرين - من المفترض أنّها مزحة، لكنّ أحداً لم يضحك.

بلعتُ ريقِي، وتقدّمت قليلاً، «كانت ماما تضع نفسها دائماً في الآخر. تعلمون كلّمكم أنّها كانت تُطعم الجميع - حاشى لله أن تكونوا قد غادرتم منزلنا جائعين - كما قال القسّ هارولد - أراهن أنّكم تناولتم كلّمكم الفطائر وأنواع الكعك التي كانت تصنعها. في إحدى المرّات، كانت تخبز كعكة الغابة السوداء لأجل مسابقة الكنيسة، وأصررت على أن أساعدها. كنت صغيرة جداً. وبينما كنت أساعدها، سقطت منّي ملعقة القياس في المزيج، وخشيت أن أخبرها، فخبّرت داخل قالب الكيك، ولمّا بدأ حكم المسابقة يقسم القالب وجد الملعقة، فعرفت ماما ما الذي جرى، وبدلاً من أن تغضب منّي، قالت للحكم إنّ هذه خدعة خاصّة تستخدمها ليبقى قالب الكيك طرياً. لعلّمكم تتذكّرون كيف كانت توجد داخل عدد من قوالب الكيك التي شاركت في مسابقة العام التالي ملاعق قياس معدنيّة - حسناً، الآن عرفتم السبب». انطلقت موجة من الضحك، وأطلقتُ نَفْساً لم أكن أدرك أنّني كنت أحبسه. «سمعتكم تقولون إنّ ماما كانت تفخر بالأشياء التي تخبئها، لكن، كما تعرفون، هذا غير صحيح. إذ كانت تعمل بكلّ طاقتها، وكانت تعمل بكلّ طاقتها في كلّ شيء. كانت تقول لنا إنّ الكبرياء خطيئة، وفي الحقيقة، كان الشيء الوحيد الذي رأيتها تفتخر به هو أنا وأختي».

بينما كنت أقول هذه الكلمات، تذكّرت النظرة التي ارتسمت على وجهها عندما أخبرتها بالتهمة التي وُجّهت إليّ. قالت لي عندما عدت إلى المنزل من السجن، وأرادت أن تراني وجهاً لوجه لتتأكّد أنني على ما يرام، «روث، كيف يمكن أن يحدث لك هذا؟» كنت أعرف ما الذي كانت تقصده، إذ كنت طفلتها الذهبيّة، فقد أفلتتُ من تلك الدائرة. حققت إنجازاً في حياتي. كسرت السقف الذي أمضت حياتها كلها وهي تنطحه برأسها، وكرّرت: «كانت تفخر بي كثيراً»، لكنّ الكلمات كانت لزجة، بالونات تنفجر ما إن تلامس الهواء، وتترك رائحة خبيّة أمل خفيفة.

«لا بأس يا حبيبتي»، سمعت من الحاضرين.

لم تقل أمي أشياء كثيرة، لكن هل لا تزال تفخر بي؟ هل يكفي أن أكون ابنتها؟ أم أن اتهامي بجريمة لم أرتكبها تشبه إحدى تلك البقع التي كانت تسعى إلى إزالتها؟

أردتُ أن أقول أشياء أخرى، لكنني لم أعد أتذكر شيئاً. ربّما كانت الكلمات المدونة على قصاصة الورق الصغيرة مكتوبة بالهيروغليفيّة. رحّت أحَدَقَ إليها، لكن لم يعد هناك شيء له معنى. لا أستطيع أن أتخيّل عالماً قد أدخل فيه إلى السجن لسنوات. لا أستطيع أن أتخيّل عالماً لا توجد فيه أمي. ثمّ تذكّرت شيئاً قالته لي ذات مرّة، في تلك الليلة التي ذهبت فيها إلى حفل كريستينا. عندما تكونين مستعدّة لنا، فسنكون في انتظارك. في تلك اللحظة، شعرت بحضور آخر لم أشعر به من قبل، أو ربّما بحضور لم أحظه قطّ، صلب كالجدار، ودافئ على البشرة. إنّه مجتمع من الأشخاص الذين يعرفون اسمي، حتّى عندما لا أتذكر أسماءهم دائماً. مصلّون لم يتوقّفوا عن الصلاة لأجلي، حتّى عندما طرت وابتعدت عن العشّ. إنّه أصدقاء لا أعرف أنّهم كانوا أصدقاؤني، لديهم ذكريات أبعدها وركنتها في مؤخّرة دماغي، لقد نسيت.

سمعت صوت تدفّق النافورة خلفي، وفكّرت كيف يمكن أن يرتفع الماء ويتحوّل إلى ضباب، ويغازل عندما يصبح سحابة، ثمّ يعود مطراً. هل تسمّي ذلك سقوطاً؟ أم هو عودة إلى الأصل؟

* * *

بعد أن أنشدت الجوقة ترنيمة «قريباً وقريباً جداً» حُمِل النعش من الكنيسة، واصطففنا وراءه. بعد انتهاء مراسم الدفن، حيث ألقى القسّ كلمة أخرى، اجتمعنا في شقّة أمي - البيت الصغير الذي نشأت فيه. قامت سيدات الكنيسة بواجبهنّ كاملاً. كانت هناك أطباق ضخمة من سلطة البطاطا وسلطة الكرنب وأطباق من الدجاج المقليّ وضعت على مفارش مائدة وردية جميلة، ووضعت أزهار من الحرير في كلّ مساحة

أفقية تقريباً، وفكر أحدهم في أن يجلب كراسي قابلة للطي، مع أنه لم يكن هناك مكان كاف يتسع للجميع.

ذهبتُ إلى المطبخ، ونظرت إلى الأطباق المكدّسة بالكعك وقطع الليمون، ثمّ مشيت إلى رفّ كتب صغير فوق المغسلة عليه دفتر صغير بالأبيض والأسود. فتحتّه، ذكّرني خطأ ماما بالتلال والوديان ذوات الأشواك الشائكة. قرأت: فطيرة البطاطا الحلوة. أحلام جوز الهند. كعكة الشوكولاتة لكسر رجل. ابتسمت لهذه الوصفة الأخيرة - الوصفة التي كنت قد أعددتها لويسلي قبل أن يتقدّم لخطبتي، بعدها قالت لي ماما: «ألم أقل لك ذلك».

لَمّا سمعت كلمة «روث» التفتُّ ورأيت كينيدي والمرأة البيضاء الأخرى التي ترافقها، والتي بدت غريبة في مطبخ أُمّي.

وصلت إلى الهاوية، لكنّي استعدتُ لباقتي. قلت لهما: «شكراً لقدومكما. إنّه يعني لي الكثير».

خطت كينيدي خطوة إلى الأمام، وقالت: «أودّ أن تتعرّفني إلى أُمّي، آفا».

مدّت المرأة المسنّة يدها بتلك الطريقة الجنوبيّة، مثل سمكة مرخية، وضغطت بأطراف أصابعها على أطراف أصابعي، وقالت: «تعازي». كانت جنازة لائقة».

هزرت رأسي. حقاً، ما الذي يمكن أن أقوله؟

«كيف حالك؟» سألتني كينيدي.

«ما زلت أفكر في أنّ أُمّي ستطلب إليّ أن أذهب وأقول للقسّ هارولد أن يضع صينية على طاولتها الصغيرة». لا توجد لديّ الكلمات لأقول لها كيف أشعر حقاً وهي مع أمّها، وأنا أعرف أنه لم يعد لديّ هذا الخيار. تشعر كما لو كنت بالوناً عندما يفلت أحدهم الخيط.

نظرت كينيدي إلى الدفتر المفتوح في يدي، وسألتني: «ما هذا؟»

«دفتر وصفات. لم يكتمل بعد. ظلّت ماما تقول لي إنّها ستكتب لي أفضل الصفات التي تعرفها، لكنّها كانت مشغولة دائماً بالطهو لشخص آخر». أدركت كم بدا صوتي مريراً، «لقد ضيّعت حياتها، مستعبدة لشخص آخر. تلمّع الفضة، وتطهو ثلاث وجبات في اليوم، وتفرك وتنظّف المراحيض، وتعتني بطفلة شخص آخر».

تحشرج صوتي في تلك الجملة الأخيرة. سقط من أعلى الجرف. مدّت أمّ كينيدي، آفا، يدها في حقيبتها، وقالت: «طلبْتُ أن آتي اليوم مع كينيدي، فأنا لا أعرف أمّك، لكنّي كنت أعرف شخصاً يشبهها. كنت أحبّها كثيراً».

أرتني صورة قديمة حوافها مهترئة. صورة امرأة سوداء في زيّ خادمة تحمل فتاة صغيرة بين ذراعيها. للفتاة شعر فاتح كالثلج، تضغط بيدها على خدّ الخادمة في تناقض مذهل. هناك أكثر من واجب يربط بينهما. هناك كبرياء. هناك حبّ. «أنا لا أعرف أمّك، لكن يا روث - لم تضيّع حياتها سدى».

اغرورقت بالدموع عيناى. أعدت الصورة إلى آفا، وشدّتي كينيدي إليها وعانقتني. بعكس المعانقة القاسية التي أتذكّرها من النسوة البيض، كما تفعل السيدة مينا أو مديرة المدرسة الثانويّة، فإنّ هذه المرأة لا تشعر بأنّها مجبرة أو متعجرفة أو زائفة.

ابتعدنا قليلاً وأصبحنا وجهاً لوجه، «أنا حزينة لأجل مصابك»، قالت كينيدي، وكان هناك شيء يهور بيننا: وعد، وأمل في أنّه عندما نذهب إلى المحكمة، فلن تعبر تلك الكلمات نفسها شفيتها.

كينيدي

في عيد زواجنا السادس، نقل إليّ ميكا عدوى أنفلونزا المعدة. بدأت الأسبوع الماضي بفيوليت، مثل معظم الفيروسات المعدية التي تدخل بيتنا. ثمّ بدأ ميكا يتقيماً. قلت لنفسي إنّه لا يوجد لديّ وقت أمرض فيه، وظننت أنّني في أمان حتّى غرقت في منتصف الليل بالعرق، وجريت إلى الحمام.

استيقظت وأنا أضغط خديّ على البلاط البارد، وميكا واقف فوقي. «لا تنظر إليّ هكذا»، قلت له، «الأرض نظيفة».

فقال ميكا: «ستتحسّنين».

تنهّدت وقلت: «جيد».

«كنت سأعدّ لك وجبة الفطور في السرير، أمّا الآن فسأعدّ لك كأساً من الزنجبيل».

«أنت أمير». لمّا اعتدلت في جلستي، بدأت الغرفة تدور بي.

«هيه. اثبتي مكانك يا بنت»، قال ميكا وقرص إلى جانبي، وساعدني في النهوض،

ثمّ حملني بين ذراعيه إلى غرفة النوم.

قلت له: «في أيّ ظرف آخر، سيكون ذلك رومانسياً جداً».

ضحك ميكا، وقال: «إيّ مدين لك بذلك في وقت لاحق».

«بذلت كلّ ما في وسعي كي لا أتقيماً عليك».

«لا أستطيع أن أقول لك كم أقدر لك ذلك»، قال بجديّة عاقداً ذراعيه، «هل

تريدين أن تتشاجري الآن لأنّك لن تذهبي إلى المكتب اليوم؟ أم هل تريدان أن تنتهي

كأس الزنجبيل أولاً؟»

«إنك تستخدم ضديّ الأساليب التي استخدمها. فهذا يشبه عندما أقول لفيوليت
إما - أو...»

«انظري، وتظنين أنني لا أستمع أبداً.»

«سأذهب إلى العمل»، قلت وحاولت أن أفف على قدمي، لكنني فقدت الوعي.
لَمَّا رَفَّت عيناى بعد لحظة، رأيت وجه ميكا قريباً من وجهي. فهمستُ: «لن أذهب
إلى العمل.»

«إجابة جيّدة. اتصلت منذ قليل بأفا. ستأتي لتؤدّي دور الممرضة.»

أطلقت تنهيدة، وقلت: «ألا يمكنك أن تقتلني بدلاً من ذلك؟ لا أظنّ أنني أستطيع
أن أتعامل مع أمي. إنها تظنّ أنّ جرعة من ويسكي بوربون تشفي كلّ شيء.»

«سأغلق خزانة المشروبات. هل تحتاجين إلى أيّ شيء آخر؟»

«حقيقتي؟» قلت متوسّلة.

يعرف ميكا أنّ من الأفضل ألا يقول لا لذلك. لَمَّا هبط إلى الطابق السفليّ ليجلبها،
رفعت نفسي من على الوسائد. لديّ أشياء كثيرة يجب أن أنجزها، لكن بدا جسدي أنه
يخذلني.

غفوت في الدقائق القليلة التي استغرقها ميكا ليعود إلى غرفة النوم. حاول أن
يضع الحقيبة برفق على الأرض كي لا يزعجني، لكنني مددت يدي إليها، وبالغت في
تقدير قوتي، فانسكبت محتويات الملفّ الجلديّ فوق السرير وعلى الأرض، فانحنى
ميكا ليجمعها. «هاه»، قال وهو يمسك ورقة، «ماذا تفعلين بتقرير مختبر؟»

كانت الورقة مُجعّدة لأنّها انسلّت من بين الملفّات واستقرت في قعر
حقيبتني. رحت أحدّق إليها، ورأيت سلسلة من الرسوم البيانيّة. إنّها نتائج
فحص حديثي الولادة التي طلبتها من مستشفى الرحمة - نيو هافن، التي لم
تكن موجودة في ملفّ ديفيس باور، وقد وصلت هذا الأسبوع، ومما أنّني

لا أفهم في الكيمياء جيداً، ألقيت عليها نظرة سريعة، وقلت إنني سأريها لروث بعد انتهاء جنازة أمها. قلت لميكا: «إنها اختبار روتيني».

فأجاب ميكا: «لا يبدو أنها كذلك. التحليل يظهر خللاً في الدم». أخذتها من يده، وسألته: «كيف عرفت ذلك؟»

فقال ميكا، مشيراً إلى الرسالة المرفقة التي لم أكلف نفسي عناء قراءتها، «لأنها تشير هنا إلى وجود خلل في تحليل الدم».

دققت في الرسالة الموجهة إلى الدكتورة مارلين أتكينز، وسألته: «هل يمكن أن تكون مميتة؟»

«لا أعرف».

«لكنك طبيب».

«لقد درست طب العيون ولم أدرس الإنزيمات».

رفعت عيني إليه، وسألته: «ماذا جلبت لي في عيد زواجنا؟»

فقال ميكا: «كنت سأخذك لتتناول العشاء في المطعم».

فقلت: «حسناً، بدلاً من ذلك خذني إلى طبيب حديثي الولادة».

حينما نقول في أمريكا إنه يحق لك أن تُحاكم من قبل هيئة محلفين من أقرانك، فإننا لا نقول الحقيقة تماماً. إذ لا يتم اختيار هيئة المحلفين عشوائياً كما يُخيّل إليك، وبفضل التدقيق الدقيق من قبل الدفاع والادعاء العام لإبعاد طرفي منحنى الجرس - فمن المرجح أن يصوّت بعض الأشخاص ضدّ أفضل مصالح موكلينا. فنستبعد الأشخاص الذين يرون أنّ الأشخاص مذنبون حتّى تثبت براءتهم، أو الذين يقولون لنا إنهم يرون أمواتاً، أو الذين يحقدون على النظام القانوني لأنهم اعتقلوا ذات مرّة. وندرس أيضاً كلّ حالة على حدة. فإذا كان موكلي متهرباً من التجنيد، فإنّي أحاول أن أقلل من عدد المحلفين الذين يفتخرون بأنهم خدموا في الجيش

بافتخار. وإذا كان موكلّي مدمن مخدّرات، فإنّي لا أريد أن يكون هناك أحد في هيئة المحلفين فقدّ أحد أفراد أسرته لأنّه تناول جرعة مخدّر زائدة. فلدى كلّ شخص أحكام مسبقة، وتتمثل مهمّتي في أن أتأكد أنّهم سيعملون لصالح الشخص الذي أمثله.

ومع أنّي لن ألعب ورقة العرق عندما تبدأ المحاكمة - كما أمضيت شهوراً في توضيح ذلك لروث - فإنّني سأحاول أن أجمع كلّ الاحتمالات قبل أن تبدأ.

لذلك، قبل أن نبدأ في اختيار المحلّفين، ذهبْتُ إلى مكتب مديري، وقلت له إنّي كنت مخطئة.

قلت لهاري: «إنّي أشعر بإرهاق شديد، وأظنّ أنّي أحتاج إلى شريك يساعدني». أخذ مصّاصة من مرطبان يضعه على طاولة مكتبه، وقال: «لدى إيد محاكمة ستبدأ هذا الأسبوع...»

«إنّي لا أتحدّث عن إد. أفكّر في هوارد».

«هوارد». نظر إليّ مرتبكاً، «الفتى الذي لا يزال يجلب وجبة طعامه في علبة طعام؟»

صحيح، إنّ هوارد قد تخرّج مؤخّراً في كليّة الحقوق ولم يتسلّم حتّى الآن، في غضون الأشهر القليلة التي أمضاها في المكتب، سوى قضايا جنح بسيطة: مثل خدم منازل، وبعض الأعمال المخلّة بالنظام. ابتسمت له أكثر ابتساماتي نعومة، وقلت: «نعم. كما تعرف، لن يكون سوى مساعد لي. ساعي بريد. وفي أثناء ذلك، سيحصل على خبرة جيّدة في المحكمة».

أزال هاري الغلاف عن المصّاصة ووضعها في فمه، وقال وهو يمسك العود بأسنانه: «مهما يكن».

مباركته، أو أقرب مباركة يمكنني أن أحصل عليها، عدت إلى مقصوري ومددت رأسي فوق الحاجز الذي يفصلني عن مقصورة هوارد، وقلت له: «احزر ماذا. ستساعدني في قضية جيفرسون. سيجري اختيار هيئة المحلفين هذا الأسبوع».

رفع عينيه ونظر إليّ، وقال: «انتظري. ماذا؟ صحيح؟»

إنها صفقة كبيرة بالنسبة إلى مبتدئ لا يزال يؤدّي أعمالاً بسيطة في المكتب. «سنذهب الآن»، قلت له، وأخذت معطفي، وأنا أعرف أنه سيتبعني.

أحتاج إلى أيّد مساعدة، وأريد أن تكون أيضاً من السود.

بدأ هوارد يجري إلى جانبي في أروقة المحكمة. قلت له: «لا تتكلم مع القاضي إذا لم أطلب إليك ذلك»، وأضفت، «لا تُبدِ أيّ مشاعر، مهما قدّمت أوديت لوتون عرضاً مسرحياً - فالمدّعون العامون يفعلون ذلك ليشعروا كأنهم منقار غريغوري في الطائر المحاكي».

«من؟»

«الله. لا تهتمّ». نظرت إليه، «كم عمرك؟»

«أربع وعشرون».

«لديّ كنزات أكبر منك»، تمتمت، «سأعطيك وقائع القضية لتقرأها الليلة. سأحتاج إليك بعد ظهر اليوم لتجري بحثاً ميدانياً».

«بحثاً ميدانياً؟»

«نعم، لديك سيارة، أليس كذلك؟»

هزّ رأسه.

«وبعد أن ندخل المحلفين، ستصبح بمنزلة كاميرا الفيديو البشريّة بالنسبة إليّ. يجب أن تسجّل كلّ حركة وتعليق يبيدهما أيّ شخص من المحلفين المحتملين عندما يردّون على أسئلتني، لندرسها ونعرف من هم

المُرشَّحون الذين يمكن أن يزعجوننا. لا يتعلَّق الأمر من هم في هيئة المحلِّفين... وإمَّا
من هم ليسوا في هيئة المحلِّفين. هل لديك أسئلة؟»

تردَّد هوارد، وقال: «هل صحيح أنكِ قلت للقاضي ثاندر العنق قضيبي؟»
توقَّفت ونظرت إليه، يداي على وركي، وقلت: «إنك لا تعرف بعد كيف تنظِّف
ماكينة صنع القهوة، لكنك تعرف ذلك؟»

دفع هوارد نظَّارته إلى أعلى أنفه، وقال: «أمارس حقِّي في إبداء الصمت كي لا
أجرِّم».

«حسناً، إنَّ ما سمعته قد أُخرج من سياقه لأنني كنت قد تناولت دواء بريدينزون
في ذلك اليوم. اخرس الآن واطهر بأنك أكبر من أن تكون في الثانية عشرة من عمرك،
بحقِّ الله». لمَّا دفعت الباب إلى غرفة القاضي ثاندر، كان جالساً وراء طاولة مكتبه،
والمدَّعية العامَّة موجودة في الغرفة. «مرحباً، حضرة القاضي».

نظر إلى هوارد، وقال: «مَن هذا؟»

فقلت: «مساعدتي».

طوت أوديت ذراعيها، وسألت: «منذ متى؟»

«منذ نحو نصف ساعة».

حدِّقنا كلُّنا إلى هوارد، في انتظار أن يعرِّف بنفسه. نظر إليَّ، زاماً شفَّتيه بقوة. لا
تتكلَّم مع القاضي إلَّا عندما أقول لك. «تكلِّم»، دمدمت.

مدَّ يده، وقال: «هوارد مور. إنَّه شرف... ممم... لي يا حضرة القاضي».

أخرج القاضي ثاندر مجموعة ضخمة من الاستثمارات المكتملة التي تُرسل
إلى الأشخاص الذين يتمُّ استدعاؤهم للمشاركة في هيئة المحلِّفين، ممتلئة
بالمعلومات العمليَّة، مثل: أين يعيش، أين يعمل... لكنَّها تشمل أيضاً أسئلة
محدَّدة: هل لديك أيُّ مشكلة بفرضية البراءة؟ إذا لم يُدَلِّ المدَّعي عليه

بشهادته، فهل تفترض أنه يخفي شيئاً؟ هل تفهم أن الدستور يمنح المدعى عليه الحق في عدم قول أي شيء؟ وإذا أثبتت الولاية هذه القضية بما لا يدع مجالاً للشك، فهل لديك أي مخاوف أخلاقية بشأن إدانة المدعى عليه؟

قسّم القاضي مجموعة الاستثمارات إلى نصفين، وقال: «السيدة لوتون، خذي هذه المجموعة لمدة أربع ساعات، والسيدة ماكواري، خذي هذه. سنعقد اجتماعاً في الساعة الواحدة بعد الظهر، وتبادل المجموعتين، ثم نبدأ استجواب المحلفين بعد يومين».

لما عدنا إلى مكتبنا، شرحت لهوارد الأمور التي نريد أن نبحث عنها عادة، وقلت له: «يكون لدى النساء المسنّات في هيئة المحلفين أكبر قدر من التعاطف، وهنّ أكثر خبرة، وأقلّ الناس إصداراً للأحكام، ويكنّ قاسيات على الرعاع الصغار مثل تورك باور، وتفادى جيل الألفية».

«لماذا؟» سألت هوارد وقد فوجئ، «أليس الشباب أقلّ عنصريّة؟»

فقلت: «هل تقصد شبّاناً مثل تورك؟ جيل الألفية هو جيلي. يعتقدون عادة أنّ كلّ شيء يدور في فلكرهم، ويتخذون قرارات تستند إلى ما يجري في حيواتهم، وكيف ستؤثّر في حيواتهم. بعبارة أخرى، إنهم حقول ألغام من الأنانية».

«فهمت».

«من الناحية المثالية، نريد محلفين يتمتعون بمكانة اجتماعية رفيعة لأنّهم يميلون إلى التأثير في المحلفين الآخرين في أثناء المداولات».

فقال هوارد: «إذاً، فإننا نبحث عن وحيد القرن».

«رجل أبيض مستقيم شديد الحساسية وواع من الناحية العنصريّة».

فأجبتّه بجدية: «يمكن أن يكون مثلياً، يهودياً، أنثى - أي شيء يمكن أن يساعدهم في التماهي مع التمييز بأي شكل سيكون بمنزلة مكافأة لروث».

«لكننا لا نعرف أيّاً من هؤلاء المرشّحين. كيف يمكننا أن نصبح وسطاء روحيين بين عشية وضحاها؟»

فقلت: «لن نصبح وسطاء روحيين. سنصبح محقّقين ومتحرّرين. ستأخذ نصف الاستثمارات وتذهب بها إلى العناوين الواردة فيها. يجب أن تعرف كلّ ما يمكنك أن تعرفه. هل هم متديّنون؟ هل هم أغنياء؟ فقراء؟ هل توجد لافتات تدلّ على حملة سياسيّة أمام حدائق بيوتهم؟ هل يعيشون فوق مكان عملهم؟ هل لديهم سارية علم في الفناء الأمامي؟»

«وما جدوى كلّ ذلك؟»

فقلت موضّحة: «في معظم الأحيان، يكون هذا الشخص محافظاً جداً.»

«وماذا ستفعلين؟» سألني، «هل ستفعلين الشيء عينه؟».

رحت أنظر إلى هوارد وهو يغادر، يسجّل أوّل عنوان على نظام تحديد المواقع (GPS) على هاتفه، ثمّ سرت في ردهات المكتب، وسألت المحامين الآخرين إن كان قد ورد اسم أيّ من هؤلاء الأشخاص في قوائمهم - لأنّه يجري استدعاء الكثير من المحلّفين مرّة أخرى. كان إديهم بالخروج من الباب ويتوجّه إلى المحكمة، ينظر في حزمة من الأوراق التي يحملها بيده. «أتذكّر هذا الرجل»، قال وهو يسحب إحدى تلك الأوراق، «كان عضواً في هيئة المحلّفين في قضيتي يوم الاثنين - قضية سرقة كبيرة.»

بعد عشر دقائق، سجّلت عنواناً على نظام تحديد المواقع في هاتفني، ووجدت نفسي أقود سيّارتي عبر نيوهالفيل. أقفلت أبواب السيارة لأجل سلامتي. يعدّ المبنى السكني «الحدائق الرئاسيّة» الذي يقع بين جادّي شيلتون وديكسويل، جيّاباً يعيش فيه السكّان من ذوي الدخل المنخفض في المدينة، حيث يعيش ربع السكّان تحت خطّ الفقر، أمّا الشوارع المحيطة بتلك المساكن فهي ممتلئة بتجار المخدّرات. تقيم نيفا جونز في مكان ما في هذا المبنى. رأيت طفلاً صغيراً يخرج من باب

إحدى البنائيات، لا يرتدي معطفاً، وبدأ يركض عندما شعر بلسعة البرد، ومسح أنفه بكمّته.

هل ستصدر امرأة من هذه المنطقة إذا رأّت روث حكماً عليها بسرعة؟ أو أنّها سترى الفروق الاجتماعيّة والاقتصاديّة بينهما وتشعر بالاستياء؟
إنّه قرار صعب. في حالة روث الفريدة، قد لا يكون أفضل عضوٍ في هيئة المحلّفين من لون البشرة نفسه.

وضعت علامة استفهام في الجزء العلويّ من الاستمارة - تحتاج هذه المرأة إلى مزيد من التفكير. قادت السيارة ببطء وغادرت الحيّ، وانتظرت حتّى رأيت أطفالاً يلعبون في الخارج، ثمّ ركنت سيّارتي عند ناصية الشارع، واتّصلت بهوارد. «إذا؟» سألته عندما أجاب، «كيف تجري الأمور معك؟»
فقال: «مممم. أنا عالق تقريباً».

«أين؟»

«إيست شور».

«ما المشكلة؟»

فقال هوارد: «إنّه مجمّع سكنيّ مغلق، ويوجد سياج منخفض استطعت أن أنظر من فوقه، لكن يجب أن أخرج من السيّارة».
«إذاً، أخرج من السيّارة».

«لا أستطيع. انظري، لمّا كنت في الجامعة، وضعت قاعدة لنفسي - لا تخرج من السيّارة إلّا إذا كان هناك شخص أسود يعيش سعيداً في الأفق»، وأضاف، «إني أنتظر منذ خمس وأربعين دقيقة، لكنّ الأشخاص الوحيدين في هذا الجزء من نيو هافن هم من البيض».

ليس بالضرورة أن يكون ذلك شيئاً سيئاً لروث. سألته: «ألا يمكنك أن تذهب وتلقي نظرة من فوق الحائط؟ تأكّد أنّه لا توجد لافتة كُتب عليها ترامب في حديقة بيتها؟»

«كينيدي - توجد كاميرات مراقبة الحيّ في كلّ مكان. ماذا تظنين ما سيحدث إذا رأوا شاباً أسود يحاول أن يختلس النظر من فوق الحائط؟»

«أوه»، قلت محرجة، «فهمت». نظرت من النافذة إلى ثلاثة أطفال يقفزون فوق أكوام من أوراق الشجر. فكّرت في الصبيّ الأسود الصغير الذي رأيته يخرج من مباني «الحدائق الرئاسية». قال لي إد الأسبوع الماضي إنّه دافع عن طفل في الثانية عشرة من عمره متورّط في عملية إطلاق نار مع شابين في السابعة عشرة من عمريهما، وإنّ النيابة العامّة تريد أن تحاكم الثلاثة بحسبانهم بالغين. «امنحني ساعة ثمّ قابلني في 560 شارع تيودور في إيست إند، و... هوارد؟» عندما تصل إلى هناك، فإنّ الخروج من السيارة آمن، فأنا أعيش هناك».

وضعت كيس الطعام الصينيّ برفق على طاولة مكتبي في البيت، وقلت: «أحضرت أشياء لذيذة»، وأخرجت طبق طعام «لو مين» الصينيّ.

قال هوارد: «وأنا كذلك»، وأشار إلى كدسة أوراق طبعها من الطابعة.

كانت الساعة العاشرة مساءً، فأقمنا معسكراً في منزلي. إذ تركتُ هوارد هناك طوال فترة ما بعد الظهر يبحث عبر الإنترنت، في حين تبادلنا، أنا وأوديت، أكداً الاستمارات. عانيت لساعات من ازدحام المرور، ودققت في قوائم المحلّفين بحسب الحيّ وقوائم المدّعي والمدّعى عليها في قاعة المحكمة لأرى إن كان أيّ من المحلّفين المحتملين كان محكوماً جنائياً أو لديه أقارب جرت مقاضاتهم جنائياً.

«وجدت ثلاثة رجال متّهمين بالعنف المنزليّ»، قال هوارد، وامرأة أدّينت أمّها بتهمة الحرق العمد، وسيّدة عجوز جميلة دهم رجال الشرطة بيتها بسبب وجود مختبر ميثامفيتامين فيه لحفيدها السنة الماضية».

انعكست الشاشة بلونها الأخضر حول وجه هوارد وهو يُجري مسحاً ضوئياً للصفحة. قال: «حسناً»، وفتح وعاء بلاستيكيّاً فيه حساء، وشرب من

طرفه من دون أن يستخدم ملعقة، «يا إلهي! إنِّي أتصوّر جوعاً. ها هو ذا الشيء أخيراً: يمكنك أن ترى بعض الأوساخ على فيسبوك، لكن ذلك يتوقّف على إمدادات الخصويّة».

«هل جرّبت موقع LinkedIn؟»

فقال: «نعم، إنه منجم ذهب».

أشار هوارد إلى الأرض حيث نشر الاستثمارات وأرفق مع كل منها ورقة مطبوعة، وقال: «هذا الشخص؟ «إننا نحبه. إنّه يدرّس العدالة الاجتماعيّة في جامعة بيل، والأفضل من ذلك أنّ أمّه ممرّضة». رفعت يدي استحساناً، وقلت «هذا هو الشخص المفضّل الثاني».

أعطاني استمارة أخرى. كانديس وايت. في الثامنة والأربعين من عمرها، أمريكيّة من أصل أفريقيّ، أمينة مكتبة، وأمّ لثلاثة أطفال. قد تكون صديقة لروث، وليست مجرد حكم لصالح الدفاع. برنامجها المتلفز المفضّل والاس ميرسي. ربّما لا أريد أن أدع القسّ ميرسي يعبث بقضيّة روث، لكن من المؤكّد أنّ الذين يشاهدونه سيتعاطفون مع موكلتي.

تابع هوارد يستعرض اكتشافاته. «لديّ ثلاثة أعضاء في الاتحاد الأمريكيّ للدفاع عن الحريّات المدنيّة. وقد كرّمت هذه الفتاة إريك غارنر في مدوّنتها مسلسلة بعنوان (أنا لا أستطيع أن أتنفّس أيضاً).
«جيد».

فقال هوارد: «على الطرف الآخر من الطيف، فإنّ هذا الرجل المحبوب هو شمّاس كنيسته، ويدعم أيضاً راند بول، ويدعو إلى إلغاء جميع قوانين الحقوق المدنيّة». أخذت الاستثمارة من يده ووضعت على اسمه في الأعلى علامة X حمراء.

«شخصان نشرا معلومات حول تخفيض التمويل للرعاية الاجتماعية»، قال هوارد،
«لست متأكدًا ما الذي تريد فعله بهما».

فأجبتة: «ضعهما في الكومة، في الوسط».

«حدّث هذه الفتاة معلوماتها الشخصية منذ ثلاث ساعات: يا يسوع المسيح!
صدم أحد الأغبياء جانب سيّارتي».

وضعت استثماراتها فوق استثمارات أنصار بول راند، بالإضافة إلى شخص آخر يضع
صورة غلين بيك في ملفّه الشخصي عبر تويتر. رفض هوارد استثمارتين لأنّ صاحبها
وضعا علامة إعجاب على صفحات جماعة «الجمجمة» و«يوم السيف» على
الفيسبوك. «هل هذه من ألعاب العروش؟» سألته، مذهولة.

فقال هوارد: «إنّهم فرق القوّة البيضاء»، وأنا متأكّدة من أنّه احمرّ خجلاً. «وجدت
مجموعة تطلق على نفسها اسم Vaginal Jesus أيضاً. لكن لا يوجد أحد من المحلّفين
المحتملين يستمع إليهم».

«ما تلك الكومة الكبيرة في الوسط؟»

فقال هوارد: «غير محدّدة. لديّ بعض صور أشخاص يرفعون شارات العصابات
المسلّحة، وحفنة من رماة الحجارة، وثمّة أحرق سجّل مقطع فيديو لنفسه وهو يدخّن
الهيروين، ولديّ ثلاثون صورة لسلفي لأشخاص ثمّلين».

«ألا يسعدنا من صميم قلوبنا أننا نعرف أنّ النظام القضائيّ يمكن أن يثق بهؤلاء
الأشخاص؟»

كنت أمزح، لكنّ هوارد نظر إليّ ملياً، وقال: «أصدقك القول، كان اليوم صادماً لي
قليلاً. أقصد لم أكن أعرف كيف يعيش الناس حيواتهم، وماذا يفعلون عندما يظنون أنّ
أحدًا لا يراهم...»، ونظر إلى صورة امرأة تلوّح بكأس حمراء، «أو حتّى عندما يكونون
كذلك».

«عندما تبدأ ترى أسفل بطن أمريكا القذر، فستنتابك الرغبة في أن تذهب وتعيش في كندا».

«وهذه»، قال هوارد مشيراً إلى شاشة الكمبيوتر، «أوه، افعلي بها ما تشائين».

قُطِبَ جبيني عندما رأيت اسم WhiteMight @ على تويتر، وسألته: «من هو هذا المحلّف؟»

فقال: «إنّه ليس من المحلّفين، وأنا واثق بأنّ مايلز ستاندأب اسم مزيف». لمّا نقر مرّتين على صورة الملفّ الشخصيّ ظهرت صورة رضيع حديث الولادة. «أين رأيت هذه الصورة من قبل...؟»

«إنّها صورة ديفيس باور نفسها التي رفعوها أمام مبنى المحكمة قبل جلسة توجيه الاتهام. دققت في الصور. أظنّ أنّ هذا حساب تورك باور».

«الإنترنت شيء جميل»، قلت، ونظرت إلى هوارد بافتخار، «أحسنت صنعاً».

نظر إليّ متفائلاً، وقال: «هل انتهينا هذه الليلة؟»

«أوه هوارد»، ضحكت، «لقد بدأنا الآن».

في صباح اليوم التالي، التقيت أوديت في أحد المطاعم لنستعرض أرقام استمارات المحلّفين المحتملين الذين تريد كلّ واحدة منّا أن ترفضه. وفي الحالات النادرة التي تطابقت فيها أرقامنا (الشابّ البالغ من العمر 25 عاماً، الذي خرج تَوّاً من مستشفى الأمراض النفسيّة، والرجل الذي قُبِضَ عليه الأسبوع الماضي) وافقنا على استبعادهما.

لا أعرف أوديت معرفة جيّدة. إنّها امرأة قاسية، جيّدة. في الاجتماعات القانونيّة، حينما يكون الجميع سكارى، تجلس في الزاوية تشرب الصودا مع ليمون، وتخزّن ذكريات يمكن أن تستخدمها ضدنا لاحقاً. كنت أقول لنفسي دائماً إنّها امرأة متوتّرة، وتساءلت: عندما تذهب إلى التسوّق، هل

يُطلب إليها، مثل روث، أن تُظهر إيصالاتها قبل أن تخرج من المتجر؟ هل تبرز إيصالاتها وهي صامتة؟ أو أنها تقول لهم بصوت حادّ إنها هي التي تقدّم السارقين من تلك المتاجر إلى المحاكمة؟

في محاولة لأقدّم لها غصن زيتون، ابتسمت لها، وقلت: «ستكون تجربة جيّدة، أليس كذلك؟»

وضعت ملفّ الاستثمارات في حقيبتها، وقالت: «كلّها محاكمات كبيرة».

«لكنّ هذه... أقصد...»، تلعثمت، أحاول أن أجد الكلمات.

التقت عينا أوديت، اللتان تشبهان رقائق صوّان، عينيّ، وقالت: «إنّ اهتمامي بهذه القضية يساوي اهتمامك بها. إنّي أقاضيهما لأنّ الجميع في مكّتي يعملون فوق طاقتهم القصوى، وقد هبطت على مكّتي. ولا يهتمّني إن كانت موكّتك سوداء أو بيضاء أو مرقّطة. لا يوجد لون لجريمة القتل». لمّا قالت ذلك، نهضت واقفة وقالت: «أراك غداً»، وذهبت.

«الحديث معك لطيف أيضاً»- تمتمت.

في تلك اللحظة، اندفع هوارد. نظّارته مائلة، وأطراف قميصه خارج بنطاله، ويبدو أنّه تناول حتّى الآن عشرة فناجين من القهوة، وقال: «كنت أجري بعض الأبحاث»، وجلس على الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه أوديت منذ قليل.

«متى؟ في الحمام؟» أعرف تماماً متى توقفنا عن العمل الليلة الماضية، فلم يكن لدينا سوى وقت فراغ قصير.

«إذًا، هناك دراسة أجرتها نايدا تريكلسن من جامعة ستوني بروك في نيويورك بين العامين 1991 و1992، حول كيف يقيّم الناخبون البيض السياسيين السود الذين يرشحون أنفسهم لمنصب الرئاسة، وكيف يؤثّر التحيز في تقييمهم، وكيف يتغيّر ذلك بالنسبة إلى الأشخاص الذين يبذلون جهدهم لئلا يتّسم تصرفهم بالتحيز...»

فقلت: «أولاً، إننا لا نستخدم دفاعاً يقوم على أساس العرق، وإنما على أساس العلم. ثانياً، إن روث ليست مرشحة لمنصب الرئيس».

فقال هوارد: «نعم، لكن هناك تداعيات متقاطعة في الدراسة أظن أنها يمكن أن تقول لنا أشياء كثيرة عن المحلّفين المحتملين»، وأضاف، «اسمعي فقط. فقد أخذت تيركيلسن عينة عشوائية من زهاء ثلاثمئة وخمسين شخصاً أبيض من هيئة المحلّفين في مقاطعة جيفرسون في كنتاكي. وضعت ثلاث مجموعات عن مرشحة مزيفة لمنصب حاكم الولاية، لها السيرة الذاتية نفسها، والسيرة المهنية والبرنامج السياسي نفسها، وكان الفارق الوحيد هو أنّ المرشّح كان رجلاً أبيض. وفي صور أخرى، عدّلت لتصبح رجلاً أسود ذا بشرة فاتحة، أو رجلاً أسود ذا بشرة داكنة. وطُلب إلى الناخبين تحديد ما إذا كانوا متحيّزين من الناحية العنصريّة، وما إذا كانوا يميلون إلى أن يدركوا هذا التحيز العنصري».

حرّكت يدي أحثّه على أن يسرع.

قال هوارد: «حصل السياسي الأبيض على أكثر الردود إيجابية».

«مفاجأة كبيرة».

«نعم، لكن هذا ليس الجزء المثير للاهتمام. فمع تزايد التحيز، انخفض تصنيف الرجل الأسود ذي البشرة الفاتحة أكثر من تصنيف الرجل الأسود ذي البشرة الداكنة. لكن، عندما قُسم الناخبون المتحيّزون إلى الذين يدركون أنّهم عنصريون، والذين لا يدركون ذلك، تغيّرت الأمور. فقد كان الأشخاص الذين لم يبدوا اهتماماً بأنهم متحيّزون أقسى على الرجل الأسود ذي البشرة الداكنة أكثر من الرجل الأسود ذي البشرة الفاتحة. أمّا الناخبون الذين كانوا قلقين حول ما الذي يمكن أن يقوله الناس عنهم بأنهم عنصريّون، فوضعوا الرجل الأسود ذا البشرة الداكنة في مرتبة أعلى من الرجل الأسود ذي البشرة الفاتحة. هل فهمت ما أقصده؟ فإذا كان ثمة

شخص أبيض يحاول جاهداً ألا يبدو عنصرياً، فإنّه سيبالغ في التعويض عن تحييزه بقمع مشاعره الحقيقيّة تجاه الشخص ذي البشرة الداكنة».

حدّثت إليه وسألته: «لماذا تقول لي ذلك؟»

فقال: «لأنّ روث سوداء. بشرتها فاتحة، لكنّها لا تزال سوداء. ولا يمكنك أن تثقي بالضرورة بالأعضاء البيض في هيئة المحلّفين تلك حتّى لو قالوا إنهم ليسوا متحيّزين. فقد يكونون ضمناً عنصريين أكثر بكثير ممّا يظهرونه إلى الخارج، وهذا يجعلهم أورافاً خطيرة في هيئة المحلّفين».

نظرت إلى الأسفل، إلى الطاولة. أوديت مخطئة. إنّ جريمة القتل ليست من لون واحد. إنّنا نعرف ذلك من الذهاب مباشرة من المدرسة إلى السجن. هناك أسباب كثيرة تجعل كسر هذه الحلقة أمراً صعباً - وأحدها أنّ المحلّفين البيض يأتون إلى المحاكمة وهم متحيّزون. من المرجّح أنّهم يقدّمون تنازلات مدّعى عليه يشبههم أكثر من الشخص الذي لا يشبههم.

قلت لهوارد: «حسناً، ما خطّتك؟»

لَمّا سعدت إلى السرير في تلك الليلة، كان ميكا يغطّ في النوم، لكنّه مدّ يده بعد قليل وضمّني إليه، فقلت له: «لا، أنا متعبة جداً ولا أستطيع أن أفعل أيّ شيء الآن».

قال: «حتّى اشكريني؟»

استدرت نحوه وسألته: «لماذا؟»

فقال: «لأنّني وجدت لك اختصاصيّ حديثي الولادة».

اعتدلت في جلستي على الفور، وقلت: «و...؟»

«وسنراه في نهاية هذا الأسبوع. أعرفه من كليّة الطب».

«ماذا قلت له؟»

«قلت له إن زوجتي المحامية المجنونة لن تنام معي إلى أن أجلب لها خبيراً في هذا الاختصاص».

ضحكت، ثم وضعت يدي على وجه ميكا وقبّلته قبلاط طويلة وبطيئة. بحركة سريعة، أمسكني وألقاني على ظهري واعتلاني. ابتسامته تلمع في ضوء القمر. «إذا كنتِ ستفعلين لي ذلك لأنني وجدت لك طبيب أطفال حديثي الولادة»، قال مغمغماً، «فماذا ستعطيني لو وجدت لك شيئاً أهمّ من ذلك، مثل طبيب طفيليات؟ أو طبيب جذام؟»

فقلت: «إنك تفسدني بدلالك»، وشدته فوقتي.

التقيت روث عند المدخل الخلفي للمحكمة، تحسباً لأن يكون والاس ميرسي قد قرّر أن هيئة المحلفين تستحق وقته وطاقته. كانت ترتدي البدلة الأرجوانية التي اشتريتها من محلّ تي جي ماكس الأسبوع الماضي، وقميصاً أبيض متموجاً، أمّا شعرها فمسحوب إلى الوراء ومعقود في مؤخّرة رقبتها. كانت تبدو امرأة مهنية في كلّ جزء فيها، وكنت سأظنّ أنها موجودة هنا في المحكمة لكونها محامية لولا أنّ ركبتيها كانتا ترتجفان بقوة.

أمسكت بذراعها، وقلت لها: «استرخي. لا يستحقّ الأمر كلّ هذا التوتر».

نظرت إليّ، وقالت: «فجأة... أصبح شيئاً حقيقياً».

عرّفتها إلى هوارد، وبينما كانا يتصافحان رأيت شيئاً يكاد يكون غير محسوس بينهما - إقرار بأنّه من المدهش أن يكونا كلاهما في قاعة المحكمة هذه، لكن لأسباب مختلفة. مشينا أنا وهوارد إلى جانبي روث، ودخلنا قاعة المحكمة، وجلسنا في مقاعدنا في منصّة الدفاع.

مع أنّ القاضي ثاندر مكروه من جميع المحامين، إلا أنّ المحلفين أُعجبوا به كثيراً. فقد كان يرتدي ثياباً تليق به، بشعره الفضّي المتموّج، وخطوط خيرة جادة حول فمه، تشكّل هلالين حول أيّ حكمة سينطق بها. لمّا تجمّع مئات المحلفين المحتملين في قاعة المحكمة، أعطى تعليمات أوليّة.

«تذكّر»، همست لهوارد، منحنية من وراء ظهر روث. «تكمن مهمتك في أن تدوّن ملاحظات. ملاحظات كثيرة حتى تتشجج يدك. إذا أجفل أحد هؤلاء المحلفين عند ذكر كلمة معيّنة، يجب أن أعرف ما هي تلك الكلمة، وإذا غطّوا في النوم، أريد أن أعرف متى».

أوماً برأسه في حين رحت أنفخّص وجوه المحلفين المحتملين. تعرّفت وجوه بعضهم من صورهم على الفيسبوك. لكن، حتى الذين لم أتذكّرهم ارتسمت على وجوههم قسّمات اعتدت رؤيتها: فهناك وجوه الذين أطلق عليهم سرّاً اسم الكشافة الذين يشعرون بالسعادة لأنّهم يؤدّون هذا الواجب لأجل بلدهم، وهناك وجوه مورغان ستانلي - رجال أعمال لا يتوقّفون عن النظر إلى ساعاتهم لأنّ وقتهم أهمّ بكثير من قضاء اليوم في مقصورة هيئة المحلفين. وهناك مرتكبو الجنح، الذين مرّوا بهذه العملية من قبل، ويتساءلون لماذا بحقّ الجحيم تمّ استدعاؤهم مرّة أخرى.

«سيداتي وسادتي، أنا القاضي ثاندر، وأودّ أن أرحّب بكم في المحكمة التي أراسها».

يا إلهي!

«في هذه القضية، تمثّل أوديت لوتون الولاية، وتمثّل مهمتها في إثبات هذه القضية بالأدلة القاطعة بما لا يدع مجالاً للشكّ. وتمثّل المدّعى عليها كينيدي ماكوارى». ولمّا بدأ يتلو التهم التي ارتكبتها روث - القتل والقتل غير العمد - بدأت ركباتها ترتجفان بقوة حتى مددت يدي تحت الطاولة وضغطت عليها.

مضى القاضي ثاندر يقول: «سأشرح لكم لاحقاً ما الذي تعنيه هذه الاتهامات، أمّا الآن، هل يوجد أيّ فرد في هيئة المحلفين يعرف طرفيّ هذه القضية؟»

رفع أحد المحلفين يده.

سأله القاضي: «هل يمكنك أن تقترب من منصة المحكمة؟»
اقتربتُ أنا وأوديت للمداولة، وشُغِّل جهاز الضواء حتى لا يسمع بقية أعضاء
هيئة المحلفين ما يقوله هذا الرجل الذي أشار إلى أوديت، وقال: «لقد سجنت أخي
بتهمة مخدّرات، وهي كذابة عاهرة».
وبالطبع، فقد أُعفي من هذه المهمّة.

بعد بضع استفسارات شاملة، ابتسم القاضي للمجموعة، وقال: «حسناً سأدعكم
تذهبون الآن، وسياخذكم حاجب المحكمة إلى غرفة هيئة المحلفين. سنناديكم الواحد
تلو الآخر لتمكّن المستشارتان من طرح أسئلة متابعة فردية عليكم. أرجو ألا تتحدّثوا
عن تجاربكم مع زملائكم المحلفين. كما قلت لكم، يقع على عاتق الولاية عبء
الإثبات. لم نبدأ بأخذ الأدلّة حتى الآن، لذا أحثكم على أن تكونوا منفتحي العقول، وأن
تكونوا صادقين في إجاباتكم أمام المحكمة. نريد أن نتأكد أنكم تشعرون بالراحة
كمحلفين في هذه القضية، كما يحقّ للأطراف المعنية أن يشعروا بأنّه سيحكم على
قضيتهم أشخاص عادلون ومحايدون».

أتمنّى أن يكون القاضي نفسه كذلك، قلت في نفسي.

إنّ استجواب المحلفين أشبه بحفل كوكتيل للتعارف، لكن من دون مشروبات.
تريد أن تتحدّث إلى أعضاء هيئة المحلفين، وتريد أن يحبّوك. تريد أن تبدي اهتماماً
بمهنهم، حتى لو كانت تلك المهنة مراقبة الجودة في مصنع فازلين. وعندما يمرّ كلّ
محلف أمامك، فإنك تقيّمه أو تقيّمها. إنّ المحلف المثاليّ هو الذي يحصل على خمس
درجات، في حين المحلف السيئ يحصل على درجة واحدة.

سيُدرج هوارد في قائمة الأسباب التي تجعل المحلف غير مقبول. في
نهاية المطاف سينتهي بنا الأمر إلى أن أقبل المحلفين الذين يحصلون على 3
و4 و5 درجات، لأننا نستطيع أن نستخدم سبع نقاط لطرد أحد المحلفين

من المجموعة من دون الحاجة إلى إبداء أيّ سبب. ولا نريد أن نستخدمها كلّها دفعة واحدة، لأنّه ماذا لو ظهر محلّف آخر يشكّل لنا مشكلة أكبر لم يأتِ دوره بعد؟

كان أوّل رجل يتقدّم إلى المنصّة يدعى ديريك ويلش، في الثامنة والخمسين من عمره، لديه أسنان سيّئة، ويرتدي قميصاً مزهراً تدلّت أطرافه خارج بنطاله. حيّته أوديت بابتسامة، وقالت له: «السيد ويلش، كيف حالك اليوم؟»

«أظنّ أنّني على ما يرام. جائع قليلاً».

ابتسمت وقالت: «وأنا أيضاً. قل لي، هل عملنا في أيّ قضية معاً قبل الآن؟»

فقال: «لا».

«ماذا تعمل يا سيّد ويلش؟»

«أدير محلاً لبيع الخردوات».

ثمّ سألته عن أبنائه وأعمارهم. نقر هوارد على كتفي. كان يبحث على نحو محموم في الاستثمارات، وهمس: «أخوه شرطيّ».

«أقرأ صحيفة وول ستريت جورنال»، قال ويلش عندما التفت إلى الورا، «وهارلان

كوبين».

«هل سمعت عن هذه القضية؟»

فقال: «قليلاً. في الأخبار. أعرف أنّ الممرضة اتّهمت بقتل طفل».

أجفّلت روث إلى جانبي.

«هل لديك أيّ فكرة إن كانت المدّعى عليها مذنبه بهذه الجريمة؟» سألته أوديت.

«حسب علمي، في بلدنا، فإنّ الجميع أبرياء حتّى تثبت إدانتهم».

«كيف ترى دورك كعضو في هيئة المحلفين؟»
هزَّ كتفيه، وقال: «أظنُّ أن أستمع إلى الأدلَّة... وأفعل ما يقوله القاضي».
فقالَت أوديت: «شكراً حضرة القاضي»، وجلست.
نهضت قليلاً من مقعدي، وقلت: «مرحباً سيّد ويلش. لديك قريب في دائرة إنفاذ القانون، أليس كذلك؟»
«أخي شرطيّ».
«هل يعمل في هذا الحيّ؟»
فأجاب: «منذ خمس عشرة سنة».
«هل حدّثك يوماً عن عمله؟ ما نوع الأشخاص الذين يتعامل معهم؟»
«أحياناً...»
«هل سُرق متجرك قبل الآن؟»
«تعرّضنا للسرقَة مرّة واحدة».
«هل ترى أنّ ارتفاع معدّلات الجريمة تعزى إلى تدفّق الأقليات إلى الحيّ؟»
فكَّر قليلاً، وقال: «أظنُّ أنّ لذلك علاقة أكبر بالأوضاع الاقتصادية، فحينما يفقد الناس وظائفهم يعترِبهم اليأس».
ثمَّ سألتَه: «مَن في رأيك له الحقُّ في إملاء العلاج الطِبّي - أسرة المريض أم الطيبب المختصّ؟»
«إنّها مسألة تُدرس حسب تفاصيلها...»
«هل عانيت أنت أو أحد أفراد أسرتك من نتيجة سيّئة في المستشفى؟»
تقلّص فم ويلش، وقال: «ماتت أمّي وهي على طاولة العمليّات في أثناء إجراء تنظير باطنيّ روتينيّ».
«هل ألقيت اللوم على الطيبب؟»

تردّد، ثمّ قال: «توصّلنا إلى تسوية».

راية رُفعت في الميدان. قلت له: «شكراً»، ولمّا جلست، نظرت إلى هوارد وهزرت رأسي.

أمّا المحلّف المحتمل الثاني فكان رجلاً أسود في أواخر الستينات من عمره. سألته أوديت عن المستوى الدراسي الذي وصل إليه، وهل هو متزوِّج، ومع من يعيش، وما هي هواياته. ترد معظم هذه الأسئلة في الاستمارة، لكنك تسألها مرّة أخرى وأنت تنظر في عين الشخص.

قلت: «فهمت أنك تعمل حارس أمن في مركز تجاريّ. هل تعدّ نفسك فرداً في جهاز إنفاذ القانون؟»

فأجاب: «أظنّ أنّ هذا صحيح على نطاق ضيق».

«سيدّ جوردان، أنت تعلم أنّنا نبحث عن هيئة محلّفين محايدة»، قالت أوديت، «ولابدّ أنّك لاحظت أنّك أنت والمدّعى عليها شخصان ملونان. فهل يمكن أن يؤثّر ذلك في قدرتك على اتّخاذ قرار منصف؟»

رُفّ بعينيه، وقال: «هل يوجد أيّ شيء في لونك يجعلك غير منصفة؟»

أظنّ أنّ السيدّ جوردان قد يكون الشخص المفضّل لديّ في العالم الآن. نهضت واقفة عندما أنهت أوديت استجوابها، وسألته: «هل تظنّ أنّ السود عرضة لارتكاب جرائم أكثر من البيض؟»

كنت أعرف الإجابة تواءً، لذلك لم يكن هذا سبب سؤالي. فقد أردت أن أرى كيف ستكون ردّة فعله معي، لأنّني امرأة بيضاء، تطرح سؤالاً كهذا.

فقال ببطء: «أعتقد أنّ السود عرضة لأنّ ينتهي بهم الأمر في السجن أكثر من البيض».

قلت: «شكراً لك يا سيّدي»، والتفتت نحو هوارد، وأومأت برأسي على نحو غير ملحوظ، كأنّني أقول: عشر درجات.

هناك العديد من الشهود الذين يقعون في مكان ما بين المرعب والرائع. ثم وقفت المحلّفة رقم 12 أمام المنصّة. اسمها ليلا فيركلاف، عمرها مثاليّ لتكون في هيئة المحلّفين، شقراء ومفعمة بالحيويّة، تدرّس في المدرسة الداخليّة فصلاً دراسياً متكاملًا عن العنصريّة. مهذّبة ومهنية إلى درجة كبيرة مع أوديت، لكنّها ابتسمت لي عندما وقفت، وقلت لها: «ستكون ابنتي في مدرسة المنطقة التي تعملين فيها، لذلك انتقلنا إلى ذلك الحيّ».

فقالَت المرأة: «ستحيّينها».

«الآن، ها أنا ذي هنا يا سيّدة فيركلاف، امرأة بيضاء تمثّل امرأة سوداء تواجه أحد أخطر الاتّهامات التي يمكن أن توجّه إلى أيّ شخص. لديّ بعض المخاوف، وأودّ أن أحدثّ عنها، لأنّ من المهمّ أن تشعري بالارتياح في هيئة المحلّفين بقدر ما أشعر أنا بالارتياح لتمثيل موكلتي. كما تعلمين، فإنّنا نتحدّث جميعنا عن أنّ التحيز شيء سيّئ، لكنّه حقيقة واقعة. ففي سبيل المثال، هناك أنواع معيّنة من القضايا لا يمكنني أن أكون فيها عضواً في هيئة المحلّفين. أقصد؛ أنا أحبّ الحيوانات، وإذا رأيت أحداً يتصرّف بقسوة تجاهها، فلا يمكنني أن أكون موضوعيّة - أستشيط غضباً حتّى يسيطر غضبي على أيّ تفكير عقلائيّ. وإذا كانت هذه هي الحال، فسأجد صعوبة في تصديق أيّ شيء يقوله لي الدفاع».

«فهمت وجهة نظرك تماماً، لكن لا يوجد في جسدي عظمة منحازة»، أكدت السيّدة فيركلاف.

«إذا صعدت في الحافلة، وكان فيها مقعدان شاغران - أحدهما إلى جانب رجل أمريكيّ من أصل أفريقيّ، والآخر إلى جانب امرأة بيضاء مسنّة، فأين تجلسين؟»

«سأجلس في أول مقعد شاغر أجدّه»، قالت وهزّت رأسها، «أعرف ما الذي تقصدينه يا سيّدة ماكوري. لكن بصراحة، لا توجد لديّ مشكلة مع السود».

في هذه اللحظة، أسقط هوارد قلمه.

سمعته كما لو كانت طلقة نارِيّة. استدرت إليه، والتقت عيناها بعينيه، وتظاهرت بأنّ نوبة سعال شديدة انبثقت. هذه هي الإشارة التي اتفقنا عليها أنا وهوارد مسبقاً. رحّت أسعل حتّى كدت أختنق وتخرج رثتي من فمي، ثمّ شربت من كأس الماء الموجودة على طاولة الدفاع، وقلت للقاضي: «زميلي سيكمل بالنيابة عني يا حضرة القاضي».

لَمّا وقف هوارد، بدأ يبتلع الهواء على نحو متشنّج. كنت واثقة بأنّ القاضي سيظنّ أنّ فريق الدفاع مصاب بالطاعون، عندما رأيت ردّة الفعل على وجه ليلا فيركلاف. تجمّدت في الدقيقة التي وقف فيها هوارد أمامها.

كان الوقت بين ذلك والسرعة التي افترّت فيها شفتاها عن ابتسامه خفيفة جداً، لكن هذا لا يعني أنّي لم أره.

قال لها هوارد: «أنا أسف جداً يا سيّدة فيركلاف. أريد أن أطرح عليك بضعة أسئلة فقط. ما نسبة الأطفال السود الموجودين في فصلك؟»

«حسناً، يوجد لديّ فصل يضمّ 30 تلميذاً، ثمانية منهم أمريكيّون من أصل أفريقيّ في هذه السنة».

«هل ترين أنّه يجب تأديب الأطفال الأمريكيين من أصل أفريقيّ أكثر من الأطفال البيض؟»

بدأت تدير خاتمها في إصبعها، ثمّ قالت: «إنّي أعامل جميع تلامذتي على قدم المساواة».

«لتخرج من الفصل الدراسيّ للحظة، هل تظنين بصورة عامة أنّه يجب تأديب الصبية الأمريكيين من أصل أفريقيّ أكثر من الصبية البيض؟»

«حسناً، لم أقرأ دراسات حول هذا الموضوع»، وظلّت تفتل خاتمها بتوتّر شديد،
«لكن يمكنني أن أقول لك إنني لست جزءاً من المشكلة».

وهذا يعني بالطبع أنّها ترى أنّ هناك مشكلة.

لمّا أنهينا الاستجواب الفرديّ، وأعيدت المجموعة الأولى المكوّنة من أربعة عشر
محلّفاً إلى غرفة الانتظار، بدأنا نتناقش أنا وهاورد ونفرز من نريد استبعاده، إن وجد.
«هل نحن مستعدّون لمناقشة الأشخاص الذين يجب استبعادهم؟» سأل القاضي
ثاندر.

فقال أوديت: «أود أنّ أستبعد المحلّف رقم 10 الذي أشار إلى أنّ الشخص الأسود
لا يستطيع أن يحصل على وظيفة منصفة، ناهيك عن محاكمة عادلة».
فأجاب: «لا يوجد لديّ اعتراض».

وأجبت: «أود أنّ أستبعد المحلّف رقم 8 الذي اغتصب ابنته رجل أسود».

فقال أوديت: «لا يوجد لديّ اعتراض».

واستبعدنا رجلاً زوجته المسنّة على فراش الموت، وأمّا طفلها مريض، ورجلاً يعيل
أسرته المكوّنة من ستّة أفراد حدّره رئيسه أنّه إذا تغيّب أسبوعاً عن العمل، فإنّه
سيجازف بوظيفته.

قلت: «أريد أنّ أستبعد المحلّف رقم 12».

فقال أوديت: «مستحيل».

قطّب القاضي ثاندر جبينه في وجهي، وقال: «لم تذكرني سبب الاستبعاد أيّتها
المستشارة».

فقلت له: «إنَّها عنصريَّة؟» لكن بدا ذلك سخيفاً حتَّى بالنسبة إليّ، فالمرأة تدرّس طلاباً من ذوي البشرة السوداء، وأقسمت أنّها ليست متحيّزة. ربّما كان تحيُّزها ضمناً وفاقاً لرّدّة فعلها تجاه هوارد وتوتّرّها وهي تدير الخاتم في يدها، لكن لو شرحت تجربتنا الصغيرة لأوديت أو للقاضي، فإنّي سأكون في موقف حرج.

أعرف أنّي لو طلبتها لاستجوابها مرّة أخرى، فلن يكون ذلك مجدداً، وهذا يعني أنّه إمّا أن أقبلها في هيئة المحلّفين، وإمّا أن أستخدم حقّي في استبعادها من دون سبب أو مسوّغ.

لقد استخدمت أوديت ذلك عندما استبعدت ممرّضة، واستبعدت منظماً مجتمعياً أقرّ بأنّه يستطيع أن يجد ظلماً في أيّ مكان، واستبعدت امرأة فقدت رضيعها، ورجلاً رفع دعوى قضائيّة على مستشفى بسبب خطأ طبيّ، وشخصاً عرفت - بفضل هوارد والفيس بوك - أنّه حضر مهرجاناً موسيقياً أقامته «القوة البيضاء».

مال هوارد من أمام روث ليهمس في أذني، وقال: «استخدمها لأنّها ستسبّب لنا مشكلة، حتّى لو لم تكن تبدو أنّها ستفعل ذلك».

«أيتها المستشارة»، سأل القاضي، «هل إنّنا مدعوون جميعاً إلى جلسة الثرثرة الصغيرة معكما؟»

«أنا آسفة يا حضرة القاضي - أريد لحظة للتشاور مع مساعدي المحامي؟» والتفتُ إلى هوارد، وقلت: «لا أستطيع. أقصد، لديّ ستة وثمانون محلّفاً آخرين يجب استجوابهم، ولم يبقَ لدينا سوى أربع مرّات يحقّ لنا فيها استبعاد محلّفين. قد يكون الشيطان جامهاً في المجموعة التالية». نظرت في عينيه، وأضفت: «إنّك على صواب. إنّها متحيّزة، لكنّها لا ترى أنّها كذلك، ولا تريد أن تُرى هكذا. لذلك ربّما، ربّما فقط، تميل لصالحنا».

نظر هوارد إليّ للحظة طويلة. أعرف أنه أراد أن يعبر عن رأيه، لكنّه هزّ رأسه وقال: «أنتِ الرئيسة».

فقلتُ للقاضي: «نقبل المحلّفة رقم 12».

وتابعت أوديت: «أودّ أن أستبعد المحلّف رقم 2».

إنّه حارس الأمن الأسود رقم 10 الذي يناسبني. أوديت تعرف ذلك، لذلك كانت مستعدّة لاستخدام حقّها في استبعاده. لكنّي تصدّيت لها مثل طليقة قبل أن تنهي جملتها، وقلت: «حضرة القاضي، أريد عقد اجتماع جانبيّ». لمّا اقتربنا من منصّة القاضي، قلت: «حضرة القاضي، هذا انتهاك صارخ لسابقة باتسون».

كان جيمس باتسون رجلاً أمريكياً من أصل أفريقيّ، حوكم بتهمة السطو في ولاية كنتاكي من قبل هيئة محلّفين جميع أعضائها أشخاص بيض، وفي أثناء اختيار المحلّفين لأجل المحاكمة، استبعد المدّعي العامّ ستّة محلّفين محتملين - أربعة منهم من ذوي البشرة السوداء، وحاول محامي الدفاع استبعاد هيئة المحلّفين كلّها لأنّ باتسون لم يُحاكم من قبل عينة تمثيلية من المجتمع المحليّ، لكنّ القاضي رفض ذلك، وانتهى الأمر إلى إدانة باتسون. وفي عام 1986، حكمت المحكمة العليا لصالح باتسون، وذكرت أنّ استخدام المدّعي العامّ حقّ استبعاد محلّفين في قضية جنائيّة لا يمكن أن يستند إلى العرق فقط.

ومنذ ذلك الحين، عندما يُستبعد شخص أسود من هيئة محلّفين، يحقّ لأيّ محام أو محامية دفاع استدعاء سابقة باتسون.

«حضرة القاضي»، تابعتُ كلامي، «التعديل السادس من الدستور يضمن حقّ

المدّعى عليه في أن يُحاكم أمام هيئة محلّفين من أقرانه».

«شكراً لك سيّدة ماكواري، أعرف جيداً ما يقوله التعديل السادس».

«لم أقصد أن ألمح إلى غير ذلك، إن نيو هافن مقاطعة شديدة التنوع، ويجب أن تعكس هيئة المحلفين هذا التنوع، وحالياً فإنّ هذا الرجل هو المحلف الأسود الوحيد في هذه المجموعة المكوّنة من أربعة عشر محلفاً».

فقالت أوديت: «لا بدّ أنّك تمزحين»، وأضافت، «هل تقصدين أنّي عنصريّة؟»
«لا، إنّي أقول إنّ من الأسهل لك أن تجمعي هيئة محلفين لصالح الولاية من دون السؤال بسبب عرقك».

التفت القاضي إلى أوديت، وسألها: «ما سبب رفضك له أيّتها المستشارة؟»
فقالت: «وجدته مولعاً بالجدل».

فقال لي القاضي ثاندر محدّراً: «هذه هي المجموعة الأولى من المحلفين، فلا تغضبي بسرعة».

ربّما كان القاضي يؤيّد الادّعاء حالياً على نحو صريح. ربّما كنت أريد أن أظهر لروث أنّي سأحارب لأجلها. مهما كان السبب، اعتدلت في وقفتي، واغتنمت هذه الفرصة حتّى أخلّ بتوازن أوديت حتّى قبل أن نبدأ، وقلت: «أريد جلسة استماع في هذا الأمر. أريد أن تبرز أوديت ملاحظاتها. فلا يزال هناك أشخاص آخرون يحبّون الجدل في هيئة المحلفين هذه، وأريد أن أعرف إن كانت قد وثّقت هذه الصفة لدى المحلفين الآخرين».

زاغت عينا أوديت، وصعدت إلى منصّة الشهود. يجب أن أعترف بأنّني أمتلك ما يكفي من كبرياء محامية دفاع كي أرى المدعية العامّة تقف هناك، في القفص. راحت تحدّثني إلى وجهي عندما اقتربت منها. «أشرت إلى أنّ المحلف رقم 2 يحبّ الجدل أيضاً. هل استمعت إلى ردود المحلف رقم 7؟»
«طبعاً استمعت».

سألته: «كيف وجدت سلوكه؟»

فقلت: «وجدته ودوداً».

نظرتُ إلى الملاحظات الممتازة التي دُونها هوارد، ثمَّ قلت لها: «حتَّى عندما سألته عن الأمريكيين من أصل أفريقيّ والجريمة خرج من مقعده وقال إنَّك تلمّحين إلى أنّه عنصريّ؟ أليس هذا جدالاً؟»

هزّت أوديت كتفيها، وقالت: «كانت نبرته مختلفة عن نبرة المحلّف رقم 2».

فقلت: «من قبيل المصادفة، وكذلك لون بشرته»، وأضفت، «قولي لي، هل دُونتِ أيّ ملاحظة بأنّ المحلّف رقم 11 يحبّ الجدل؟»

نظرت في دفتر ملاحظاتها وقالت: «كُنّا نتحرّك بسرعة. لم أدوّن كلّ ما كنت أفكر فيه لأنّه لم يكن ذا أهميّة».

فقلت موضّحة: «لأنّه لم يكن ذا أهميّة، أم لأنّ المحلّف أبيض البشرة؟» ثمّ التفتُ إلى القاضي، وقلت: «شكراً يا حضرة القاضي».

التفت القاضي ثاندر إلى المدّعية العامّة وقال: «لن أسمح بالاستبعاد من هيئة المحلّفين. لا أسمح لك بأن تضعيني في موقف باتسون في بداية هذه اللعبة يا سيّدة لوتون. المحلف رقم 2 يبقى في هيئة المحلفين».

انسلت إلى مقعدي إلى جانب روث، منتفشة. غمزني هوارد كما لو كنت إلهة. لا يمكنك أن تلقن مدّعية عامّة درساً كلّ يوم. فجأة، مرّرت لي روث قصاصة. فتحتها وقرأت الكلمتين البسيطتين: شكراً لك.

لمّا صرّفنا القاضي في ذلك اليوم، طلبت إلى هوارد أن يعود إلى بيته وينام قليلاً. غادرت أنا وروث قاعة المحكمة معاً. ألقيت نظرة سريعة إلى الخارج أولاً لأنّ تأكد أنّ وسائل الإعلام غير موجودة. لم يكن هناك أحد - لكنّي أعرف أنّ ذلك سيغيّر عندما تبدأ المحاكمة.

لَمَّا وصلنا إلى ساحة انتظار السيَّارات، بدا أنني وروث لم نكن في عجلة من أمرنا لتعود إلى البيت. ظلَّت روث مطرقة برأسها، ومن معرفتي بها حتَّى الآن عرفت أنَّ ثَمَّة شيئاً يدور في رأسها.

سألتها: «هل تريدين أن نذهب وتتناول كأساً من النبيذ؟ أم يجب أن تعودي إلى إديسون؟»

هزَّت رأسها وقالت: «أصبح يغادر البيت أكثر ممَّا أغادره هذه الأيام».

«يبدو أنك لست مسرورة من ذلك».

فقال روث: «لم أعد قدوة له».

انعطفنا عند الناصية إلى حانة أتردَّد إليها أحياناً، لأحتفل بنصر أو بهزيمة. أعرف أنها ممتلئة بمحامين أعرفهم، فانسللنا إلى مقصورة في الخلف. طلبنا كلتانا نبيذ بينو نوار، ولَمَّا وصلت الكأسان، رفعت كأسي لها وقلت: «نخب الحكم بالبراءة».

لاحظت أنَّ روث لم ترفع كأسها.

قلت لها بلطف: «روث، أعرف أنَّ هذه هي أول مرة تُحاكمن فيها. لكن صدِّقيني

- سارت الأمور اليوم على نحو ممتاز».

راحت تدوِّم النبيذ في كأسها، وقالت: «كانت أمِّي تحكي قصة بأنَّها كانت تدفعني ذات يوم في عربة الأطفال في حينًا في هارلم، وتجاوزتها سيِّدتان بشرتهما سوداء، فقالت إحداهما للأخرى، إنَّها تتجوَّل هنا كما لو أنَّ هذه ابنتها. إنَّها ليست ابنتها. لا أحبُّ أن تفعل المرئيات ذلك. كان لون بشرتي فاتحاً أكثر من لون بشرة أمِّي. كانت تضحك لأنَّها تعرف أنني ابنتها، ولَمَّا كبرت، لم يكن الصبية البيض هم الذين يجعلونني أشعر بالحزن تجاه نفسي، وإمَّا الصبية السود أيضاً». نظرت روث إليَّ، ومضت

تقول: «هذه المدّعية العامّة ذكّرتني بذلك اليوم، كما لو أنّها كانت هناك لتقتصّ منّي».

«لا أعرف إن كان ذلك شيئاً شخصياً بالنسبة إلى أوديت. إنّها تحبّ أن تنتصر فقط».

ما أدهشني أنّني لم أُجرِ حديثاً كهذا مع شخص أمريكيّ من أصل أفريقيّ، فأنا أحرص دائماً على ألاّ أبدو متحيّزة، وأخشى كثيراً أن أقول شيئاً مسيئاً. فقد رافعتُ كثيراً عن موكلين أمريكيين من أصل أفريقيّ، لكنّي كنت أعدّ نفسي لأن أكون ذلك الشخص الذي يمتلك كلّ الإجابات، أمّا روث فقد رأت ذلك القناع ينزلق.

مع روث، أعرف أنّني أستطيع أن أسأل سؤالاً غيبياً تسأله فتاة بيضاء، وأنّها ستجيبني من دون أن تحكم على جهلي، وإذا ما تدخّلت في أمرها، فيأني أعرف أنّها ستقول لي ذلك. تذكّرت عندما شرحت لي الفرق بين الحياكة والإكسسوارات، أو كيف سألتني عن اسمرار البشرة تحت الشمس، وكم يستغرق تقشير الجلد المتقرّح. إنّهُ أشبه بالفرق بين الرقص فوق قشرة التعارف والغوص إلى مركز العلاقة الفوضويّ. فهي ليست مثاليّة دائماً، وليست لطيفة دائماً - لكنّ بما أنّها امرأة راسخة في الاحترام، فإنّها لا تتزعزع.

قالت روث: «لقد فاجأتني اليوم».

ضحكت، وقلت: «لأنّني أتقن عمليّ؟»

«لا. لأنّ نصف الأسئلة التي طرحتها تستند إلى العرق»، والتقت عيناها عينيّ،

«بعد كلّ ذلك الوقت وأنت تقولين لي إنّ هذا لا يمكن أن يحدث في المحكمة».

فقلت بصراحة: «إنّها لا تحدث. عندما ستبدأ المحاكمة يوم الاثنين، سيتغيّر كل شيء».

«هل ما زلتِ ستسمحين لي بأن أتكلّم؟» قالت روث، «لأنّني أريد أن أقول ما يعتمل في صدري».

«أعدك». وضعت كأسّي على الطاولة، وقلت: «روث، كما تعرفين، إنّ تظاهرنّا بأنّه لا توجد علاقة للعنصريّة بقضيّة ما لا يعني أنّنا لسنا على علم بها».

«إذاً لماذا تتظاهرن؟»

«لأنّ هذا ما يفعله المحامون. إنّني أكذب لأكسب رزقي. إذا كنت أرى أنّ ذلك سيجلب لك البراءة، فإنّي أستطيع أن أقول لهيئة المحلّفين إنّ ديفيس باور وحش يستطيع أن يغيّر هيئته من بشر إلى ذئب، وإذا صدّقوا ذلك، فسيكون ذلك عاراً عليهم».

التقت عينا روث عينيّ، وقالت: «إنّها عمليّة تهدف إلى صرف الانتباه. إنّهُ مهرج يلوّح في وجهك كي لا تلاحظي خفّة يده خلفه».

من الغريب أن أسمع أحداً يصف عملي هكذا، لكن هذا غير صحيح، فقلت لها: «وأظنّ أنّ كلّ ما يمكننا فعله الآن هو أن نشرب لننسى»، ورفعت لها كأسّي.

أخذت روث أخيراً رشفة من نبيذها، وقالت: «لا يوجد نبيذ بينو نوار كاف في العالم».

مرّرت إبهامي حول حافة منديلي، وقلت: «هل تظنين أنّه سيأتي زمن تختفي فيه العنصريّة؟»

«لا، لأنّ ذلك يعني أنّ على البيض أن يقتنعوا بأنّهم متساوون مع الآخرين. من الذي سيختار تفكيك النظام الذي يجعلهم مميّزين؟»

شعرت بحرارة تغمر وجهي. هل تتحدّث عني؟ هل تقترح أن سبب عدم معارضتي للنظام أن لديّ، شخصياً، شيئاً سأخسره؟
لكنّ روث استدركت، وقالت: «لكن، ربّما أنا مخطئة».
رفعت كأسي، وقرعتها بكأسها، وقلت: «نخب خطوات طفل».

بعد يوم آخر من اختيار أعضاء هيئة المحلفين، أصبح لدينا اثنا عشر محلفاً بالإضافة إلى محلفين بديلين. أمضيت عطلة نهاية الأسبوع وأنا متوارية في غرفة مكتبي في البيت أعدّ المرافعة الافتتاحية أمام المحكمة يوم الاثنين، ولم آخذ إجازة إلا بعد ظهر يوم الأحد للقاء طبيب حديثي الولادة، إيفان كيلى - غارسيا، الذي كان سعيداً جداً لأنه سمع من زميله ميكا بعد سنوات عدّة، وأبدى سروراً ظاهرياً أيضاً لاستضافة زميله السابق وزوجته المحامية المجنونة وطفلتها ذات السنوات الأربع، التي كانت نائمة في المقعد الخلفي في السيارة. يعيش إيفان في ويستبورت، كونيتيكت، مع زوجته التي استطاعت أن تعدّ لنا طبق غواكامولي وصلصة بعد أن ركضت مسافة خمسة عشر ميلاً في تمرينها الصباحي. لم ينجبا أطفالاً بعد، لكن لديهما كلب بيرنيز ضخّم. «انظر إلينا يا أخي»، قال إيفان، «متزوّج. يعمل. متّزن. هل تذكر عندما أوقعنا أسيد وقرّرت أن أتسلّق شجرة لكنّي نسيت أنني أخاف المرتفعات؟»

نظرت إلى ميكا، وسألته: «هل أوقعتما أسيد؟»

«ربّما لم تخبرها عن السويد أيضاً»، قال إيفان مازحاً، «السويد؟» ورحت أنقل نظري بين الرجلين.

«لدى زوجتي أول قضية قتل في المحكمة، لذلك فإني أعتذر سلفاً لو سألتك عشرة

آلاف سؤال».

همستُ لميكا: «سأسمع منك القصة بأكملها فيما بعد»، ثمّ ابتسمت لإيفان، وقلت: «أرجو أن تشرح لي طريقة فحص الأطفال حديثي الولادة».

فقال: «حسناً، في الأساس، كان ذلك تغييراً لقواعد اللعبة بالنسبة إلى وفيات الأطفال. بفضل شيء يسمّى مطياف الكتلة الترادفية، الذي يُجرى في المختبرات التابعة للولاية، يمكننا تحديد حفنة من الأمراض الخلقية التي يمكن علاجها أو إدارتها. إنّي متأكد أنّ ابنتك أجرت هذا الفحص، وربما لم تعرفي ذلك».

سألته: «ما تلك الأمراض؟»

«أوه، كلّ ما يرد في قاموس علوم الطالب المجتهد: نقص البيوتينيداز - هذا عندما لا يستطيع الجسم إعادة استخدام وإعادة تدوير ما يكفي من البيوتين الحرّ. وفرط تنسّج الكظر الخلقي وقصور الغدة الدرقية الخلقي، وهي عيوب هرمونيّة، والغالكتوزيميا في الدم التي تمنع الرضيع من معالجة سكرٍ معيّن موجود في الحليب، حليب الثدي والحليب الاصطناعيّ. واعتلالات الهيموغلوبين، وهي مشكلات في خلايا الدم الحمر. واضطرابات الأحماض الأمينية التي تسبّب تراكم الأحماض الأمينية في الدم أو في البول؛ واضطرابات أكسدة الأحماض الدهنية التي تمنع الأجسام من تحويل الدهون إلى طاقة؛ واضطرابات الحموضة العضوية، وهي نوع من الهجين بين الاثنين. ربما سمعت عن بعضها، مثل فقر الدم المنجليّ الذي يصيب الكثير من الأمريكيين من أصل أفريقيّ»، ثمّ أضاف، «إنّ الأطفال الذين يصابون بهذا المرض لا يمكنهم تكسير أنواع معينة من الأحماض الأمينية، فتتراكم في الدم أو في البول. وإذا لم تعرفي أنّ ابنك مصاب بهذا المرض، فإنّه يودّي إلى ضعف إدراكي

وحدوث نوبات صرع، أمّا إذا اكتُشف بعد الولادة مباشرة، فيمكن معالجته بوساطة نظام غذائيّ خاصّ، ويكون التشخيص ممتازاً».

أعطيته نتائج فحص المختبر، وقلت: «يقول المختبر إنّ هناك خللاً في فحص هذا الطفل المريض حديث الولادة».

قلّب الصفحات القليلة الأولى، ثمّ قال: «وجدتها - هذا الطفل مصاب «بنقص نازعة هيدروجين الأسيل -الإنزيم المشترك A متوسط السلسلة». إنّهُ اضطراب صبغيّ جسديّ متنحّ من أكسدة الأحماض الدهنيّة. يحتاج جسمك إلى الطاقة للقيام بعمل الأشياء - الحركة، العمل، الهضم، حتّى التنفّس - إنّنا نحصل على وقودنا من الطعام، ونخزّنه في أنسجتنا منزلة أحماض دهنيّة إلى أن نحتاج إليه. عند هذه النقطة، نوّكسد تلك الأحماض الدهنيّة لتوليد الطاقة لعمل وظائف الجسم. لكنّ الطفل المصاب باضطراب أكسدة الأحماض الدهنيّة لا يستطيع أن يفعل ذلك لأنّه يفتقد إلى إنزيم رئيسيّ، وهذا يعني أنّه عندما يستنفد مخزونه من الطاقة، يتعرّض لمشكلة».

«يعني...؟»

أعاد إليّ نتائج المختبر، وقال: «ستنخفض نسبة السكر في دمه، وسيشعر بالتعب، ويصبح بطيء الحركة».

أثارت هذه الكلمات شيئاً في عقلي. يُعرى انخفاض نسبة السكر في دم ديفيس باور إلى سكرى الحمل لدى أمّه. لكن، ماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ «هل يمكن أن يؤدّي ذلك إلى موت الطفل؟»

«إذا لم يتمّ تشخيصه في وقت مبكر. كثير من هؤلاء الأطفال لا تظهر عليهم الأعراض حتّى يحدث شيء كمحفّز - عدوى، أو تطعيم، أو صيام -

ثمَّ يحصل تدهور سريع يشبه إلى حدِّ كبير متلازمة موت الرضيع المفاجئ - وفي الأساس يتعرَّض الطفل إلى توقُّف في القلب».

«هل يمكن إنقاذ الطفل إذا كان مصاباً به؟»

«يتوقَّف ذلك على الحالة. ربَّما نعم. ربَّما لا».

ربَّما، أظنُّ أنَّها كلمة ممتازة لهيئة المحلِّفين.

نظر إيفان إليَّ، وقال: «أظنُّ، إذا كانت هناك دعوى قضائية في هذا الأمر، فإنَّ

المريض لم ينجُ منها؟»

هزرت رأسي، وقلت: «مات وعمره ثلاثة أيام».

«في أيِّ يوم ولد الطفل؟»

«يوم الخميس. وأُجري فحص الكعب يوم الجمعة».

«متى أُرسل إلى مختبر الولاية؟» سألني إيفان.

قلت: «لا أعرف. هل يُحدث ذلك فرقاً؟»

«نعم»، استند إلى ظهر كرسيِّه، ونظر إلى فيوليت التي كانت تحاول أن تمتطي

الكلب، «يغلق المختبر في ولاية كونيتيكت يومي السبت والأحد. فإذا أُرسلت عيِّنة

الاختبار من المستشفى بعد ذلك، لنقل مثلاً، منتصف يوم الجمعة، فلن تصل إلى

المختبر إلا بعد عطلة نهاية الأسبوع». نظر إيفان إليَّ، وأضاف: «وهذا يعني أنَّه لو ولد

هذا الطفل يوم الاثنين، لأتاحت له فرصة النجاة».

المرحلة الثانية الضغط

أرادت أن تتعامل مع كراهيتهم، وأن تدقق فيها، وتعمل على حلها حتى وجدت ثغرة صغيرة، فسحبت حصة أو حجراً أو لبنة، ثم جزءاً من الجدار، وسرعان ما بدأ الصرح ينهار بأكمله ويتلاشى.
راي برادبري، الرجل المصوّر

روث

كما تعرفون، كلنا نفعل ذلك. نصرف انتباهنا عن رؤية كيف يمضي الزمن. نلقي بأنفسنا في أعمالنا ووظائفنا. نركّز على إبعاد الآفة عن نباتات البندورة (الطماطم) التي نزرعها، نملأ خزان البنزين في سيارتنا، ونستخدم بطاقات المترو، ونشتري حاجتنا حتّى تبدو كلّ الأسابيع نفسها. ويأتي يوم، تلتفتين فيه وترين أنّ ابنك الصغير أصبح رجلاً، ويأتي يوم تنظرين فيه في المرأة وترين شعرك قد وخطه الشيب، ويأتي يوم تدركين فيه أنه لم يتبقّ من حياتك سوى أقلّ ممّا عشته، وتتساءلين، كيف مضت كلّ تلك الأيام بهذه السرعة؟ فقد تناولت البارحة فقط أول مشروب عندما بلغت السنّ القانونية، وعندما كنت لا أزال أضع له حفاضاً، عندما كنت شابة.

حينما تدركين ذلك، تبدئين في إجراء عمليّاتك الحسابيّة. كم بقي لي من الزمن؟ إلى أيّ قدر يمكنني أن أحشر نفسي في تلك المساحة الصغيرة؟

أظنّ أنّ بعضنا يدعون هذا الإدراك يوجّههم. نحجز رحلة إلى جبال التبت، ونتعلّم النحت والقفز بالمظلات. نحاول أن نتظاهر بأنّ الأمر لم ينته بعد.

وينهمك بعضنا الآخر في ملء خزانات سيّاراتهم بالبنزين، واستخدام بطاقات المترو، والتسوّق، لأنّنا إذا رأينا الدرب الذي أمامنا مباشرة فقط، فلن نفكّر متى يمكن أن يتهاوى الجرف.

بعضنا لا يتعلّم أبداً.

وبعضنا يتعلّم في وقت أبكر من بعضنا الآخر.

في صباح اليوم الذي ستجري فيه المحاكمة، طرقتُ بهدوء باب غرفة إديسون. سألته: «هل أنت جاهز؟» وعندما لم أسمع منه رداً، أدت مقبض الباب ودخلت. كان إديسون لا يزال مستلقياً تحت كومة من

الأغطية، يغطي عينيه بذراعه. قلت له بصوت أعلى: «إديسون، هيّا. لا يمكننا أن نتأخّر».

من عمق تنفّسه عرفت أنّه لم يكن نائماً. ثمّ دمدم: «لن أذهب».

كانت كينيدي قد طلبت إليّ ألاّ يذهب إديسون إلى المدرسة اليوم ليحضر المحاكمة. لم أخبرها أنّه لم يعد يرى الذهاب إلى المدرسة أولوية هذه الأيام، ويؤكّد ذلك المرّات التي اتصلت بها المدرسة بي بسبب غيابه. توّسّلت إليه، جادلته، لكنّ الاستماع إليّ أصبح مهمّة شاقّة. الطالب المحجّد، ابني المجتهد الجميل، أصبح متمرداً الآن - يقبع في غرفته، يستمع إلى الموسيقى بصوت عالٍ جداً حتّى تهتزّ الجدران، أو يرسل رسائل نصيّة إلى أصدقاء لم أكن أعرف أنّ لديه هؤلاء الأصدقاء، وأصبح يعود إلى المنزل بعد الفترة التي حدّتها له، تفوح منه رائحة مشروبات قويّة وحشيش. ناضلت، وبكيت، ولم أعد أعرف كيف أتعامل معه، فقد بدأ قطار حياتنا كلّهُ يحيد عن مساره. ليست هذه سوى قاطرة واحدة التي بدأت تخرج عن مسارها.

قلت له: «لقد تحدّثنا عن هذا».

فقال محدّقاً إلى وجهي: «لا، لم نتحدّث. لقد تحدّثت وحدك».

«قالت كينيدي إنّ المرأة التي يُنظر إليها بأنّها أمّ يصعب تصويرها بأنّها قاتلة. قالت إنّ الصورة التي تقدّمها إلى هيئة المحلّفين أهمّ أحياناً من الأدلّة».

«كينيدي تقول. كينيدي تقول. تتحدّثين كما لو أنّها يسوع...»

قاطعتها: «إنّها كذلك. في الأقلّ إنّها محقّقة الآن. كلّ صلواتي تتجه نحوها، لأنّها الشيء الوحيد الذي يقف بيني وبين الإدانة يا إديسون، لهذا السبب أطلب إليك - لا بل أنوسّل إليك أن تفعل هذا الشيء الوحيد لأجلي».

«لديّ أشياء يجب أن أفعلها».

قوّست حاجبيّ، وسألته: «مثل ماذا؟ ألاّ تذهب إلى المدرسة؟»

أشاح إديسون بعينيه بعيداً عنيّ، وقال: «لماذا لا تغادرين فقط؟»

فقلت: «في غضون أسبوع يمكن أن تتحقَّق أمنيَّتكَ».

للحقيقة أسنان. وضعت يدي على فمي كما لو أنني لن أدع الكلمات تخرج منه. حاول إديسون أن يحبس دموعه، وهمهم: «لم أقصد ذلك».

«أعرف».

«لا أريد أن أذهب إلى المحكمة لأنني لا أظنُّ أنني أستطيع أن أستمع إلى ما يقولونه عنك».

وضعتُ كلتا يديَّ على خديّ، وقلت: «إديسون، أنت تعرفني، أمّا هم فلا يعرفونني. مهما سمعت في قاعة المحكمة تلك، مهما كانت الأكاذيب التي يحاولون أن يقولوها - تذكّر أنّ كلّ ما فعلته هو لأجلك». دأبتُ خدّه، وتتبعّت مسار آثار دموعه باطن إبهامي، وقلت: «ستصبح شيئاً مهماً. سيعرف الناس اسمك».

سمعت صدى صوت أمي وهي تقول لي الشيء نفسه. كن حذراً ممّا تتمناه، قلت في نفسي. سيعرف الناس اسمي بعد اليوم، لكن ليس من الأسباب التي كانت تأملها.

قلت لإديسون: «إنّ ما يحدث لك مهمّ، وما يحدث لي ليس مهماً».

رفع يده وأمسك رسغي، وقال: «إنّه مهمّ بالنسبة إليّ».

هذا هو أنت، قلت في نفسي، ونظرت في عينيّ إديسون. هذا هو الصبيّ الذي أعرفه، الصبيّ الذي علقت كلّ آمالي عليه.

قلت: «يبدو أنني في حاجة إلى موعد غرامي لأجل محاكمتي».

ترك إديسون رسغي، ومدّ ذراعه، مثنياً عند المرفق، كما كان يفعل بأسلوبه المهذب، مع أنّه كان لا يزال يرتدي بيجامته، ومع أنّني لا أزال ألف وشاحاً حول شعري، ومع أنّنا لم نكن سنذهب إلى حفل، لكنّها أكثر من تحدّ علينا أن نواجهه، وقال: «يسرُّني أن أفعل ذلك».

جاءت كينيدي في الليلة الماضية إلى بيتي في زيارة غير متوقَّعة مع زوجها وابنتها. جاءت مباشرة من بلدة تبعد قرابة ساعتين لتزفَّ لي الخبر بأنَّ الفحص الذي أُجري لديفيس باور أظهر أنَّه مصاب بنقص نازعة هيدروجين الأسيل - الإنزيم المشترك A متوسطَّ السلسلة».

حدَّثت إلى نتائج الفحص التي أرثني إيَّها، النتائج التي فسَّرها لها الطبيب صديق زوجها، «لكن هذا... هذا.»

فقلت: «من حسن حظك. لا أعرف إن كانت هذه النتائج غير موجودة في الملف خطأً، أو أنَّ أحدهم قد أتلفها عن قصد لأنَّه يعرف أنَّ ذلك سيجعلك أقلَّ عرضة للاتهام. لكن، المهمَّ الآن أنه أصبحت في حوزتنا المعلومات الضرورية التي سنحوّلها إلى حكم بالبراءة.»

إنَّ فقر الدَّم الناجم عن نقص نازعة هيدروجين حالة طبيَّة أخطر بكثير من القناة الشريانيَّة من الدرجة الأولى، مرض القلب الذي كانت كينيدي تعتزم إثارته في المحكمة. لم يعد القول بأنَّ ابن باور كان يعاني من اضطراب يهدِّد حياته كذبة. لن تكذب في المحكمة. أنا فقط.

حاولت كثيراً أن أكون صريحة مع كينيدي، ولا سيَّما بعد أن تحوَّلت علاقتنا من علاقة مهنيَّة إلى علاقة صداقة، لكنِّي وجدت أنَّ ذلك زاد الأمر سوءاً. فلم أخبرها منذ البداية أنَّني تدخَّلت ولمست ديفيس باور عندما بدأت تتنابه تلك النوبة لأنَّني لم أكن أعرف إن كان بإمكانني أن أثق بها، أو كيف ستنعكس الحقيقة على قضيتي. أمَّا الآن، فلم يعد بإمكانني أن أخبرها لأنَّني خجلت من كذبي عليها.

انفجرتُ بكاءً.

قلت: «من الأفضل أن تكون هذه دموع السعادة، أو دموع الامتنان لموهبتي القانونيَّة الفدَّة.»

قلت: «ذلك الطفل المسكين. إنَّه شيءٌ اعتباري».

لكنني لم أكن أبكي لأجل ديفيس باور، ولم أكن أبكي لأنني لم أكن صادقة معها، وإمَّا بكيت لأنَّ كينيدي كانت على حقٍّ طوال الوقت - لا يهمُّ حقاً إن كانت الممرضة التي تعنتني بديفيس باور سوداء أم بيضاء أم أرجوانية. لا يهمُّ إن كنت قد حاولت إنعاش ذلك الطفل أم لا. فإنَّ كلَّ ذلك لن يغيِّر شيئاً بالنسبة إلى الطفل.

وضعت كينيدي يدها على ذراعي وذكَّرتني: «روث. تحدث أشياء سيئة عدَّة لأشخاص طبيين كلَّ يوم».

رَنُّ هاتفي الخليوي عندما توقفت الحافلة أمام موقفها، وسط المدينة. لَمَّا سعدت أنا وإديسون، ملاً صوت أديسا أذني: «يا بنت، لن تصدقي هذا. أين أنت؟» نظرت إلى إشارة، وقلت لها: «شارع الجامعة».

«حسناً، امشي نحو المنطقة الخضراء».

حدَّدت اتجاهاتي، والتفتنا أنا وإديسون. تبعد المحكمة شارعاً واحداً عن الحديقة العامَّة، وكانت كينيدي قد أعطتني توجيهات صريحة بعدم الاقتراب من هذا الاتجاه لأنَّ الصحافة ستباغتني.

لكن، من المؤكَّد أنَّه لا يوجد ضرر في أن أرى ما الذي يجري من مسافة بعيدة.

سمعتُ أصواتهم قبل أن أراهم. كانت أصواتهم القوية تلتقي معاً في ضفائر بانسجام وتصعد إلى السماء. بحر من الوجوه، الكثير منها في تدرجات اللون البني، يصيحون: «أوه، الحرِّية». يقف في المقدِّمة أمام منصَّة صغيرة، وراءه شعار الشبكة، والاس ميرسي. وقد شكَّل رجال الشرطة حاجزاً بشرياً، أذرعهم ممدودة، كأنهم يحاولون إلقاء تعويذة كي لا تحدث أعمال عنف، وكان شارع إم يعجَّ بعربات محطَّات التلفزة، أطباقها

مرفوعة نحو الشمس، في حين يمسك الصحفيون ميكروفوناتهم، ويلتقط المصورون سلسلة من اللقطات.

«يا إلهي!»، تنفّست بعمق.

قالت أديسا بافتخار: «لا علاقة لي بذلك، لكن كلّ هذا لأجلك، يجب أن تصعدي الدرج الأمامي مرفوعة الرأس».

«لا يمكنني أن أفعل ذلك، فقد اتفقت مع كينيدي على أن نلتقي في مكان محدد.

فقالت أديسا: «حسنًا»، لكنني سمعت نبرة انزعاج في صوتها.

قلت لها: «أراك هناك. أديسا، شكرًا لقدمك».

فقالت: «في أيّ مكان يمكن أن أكون فيه غير هناك؟» ثمّ اختفى الخطّ.

مررنا، أنا وإديسون، أمام طّلاب جامعة ييل، الذين لا يعرفون ما الذي يجري من حولهم، يضعون على ظهورهم حقائب مثل قواقع السلحفاة. اجتزنا مباني الجامعة السكنية القوطية المحاطة بجدران خلف بوابات سود؛ وسيّدة الشعر - المرأة المشرّدة التي تردّد بضعة أبيات من الشّعْر لقاء أعطية. لمّا وصلنا إلى منزل الأبرشيّة في شارع وول ستريت، انسللنا من وراء المبنى دون أن يلاحظنا أحد، إلى ساحة فارغة.

«ماذا الآن؟» سألني إديسون، الذي كان يرتدي البدلة التي ارتداها في جنازة أمي.

قلت له: «لننتظر الآن». لدى كينيدي خطة كي أتسلّل إلى المدخل الخلفي حتّى لا

أجذب انتباه الصحفيين. قالت لي أن أتق بها.

تورك

جافاني النوم الليلة الماضية، شاهدت برنامجاً عبر إحدى محطات التلفزة، عُرض في الساعة الثالثة صباحاً، عن كيف كان الهنود الحمر يعيشون. في إعادة التمثيل، ظهر رجل يرتدي مئزراً، أشعل النار في كومة من أوراق الأشجار على امتداد خطّ طويل لشجرة سُطرت طويلاً، وبعد أن احترقت، كشطها بما يشبه صدفه محار، وكرّر العمليّة حتّى أصبح الزورق مجوّفاً. أشعر أنّي هكذا اليوم، كما لو أنّ أحداً أفرغ ما في جوفي، وأصبحت خاوياً.

يبدو ذلك مفاجئاً لأنّني أنتظر هذا اليوم منذ فترة طويلة. كنت أظنّ أنّني سأمتلك طاقة سوبرمان لأنّني سأذهب إلى الحرب لأجل ابني، ولن يقف شيء في وجهي. لكن الغريب في الأمر أنّني شعرت بأنّني وصلت إلى ساحة القتال فوجدتها مقفرة. كنت متعباً. فعلى الرّغم من أنّني بلغت الخامسة والعشرين من عمري، فيّني أشعر بأنّني عشت حياة تكفي عشرة رجال.

خرجت بريت من الحمّام، وقالت: «أنا جاهزة». كانت ترتدي حمّالة صدر وجوربيها، كما طلبت منها المدّعية العامّة، كي تبدو امرأة متحفّظة. ثمّ قالت: «وأنت، يجب أن تعتمر قبّعة على رأسك». اللعنة. بالنسبة إليّ، فإنّ هذا ما تستحقّه ذكرى ابني: فإذا لم أتمكّن من استعادته، فسأعاقب الأشخاص المسؤولين عن ذلك، وأجعل الآخرين من أمثالهم يرتجفون من شدّة الخوف.

ففتحْتُ صنبور الماء الساخن، ووضعت يدي تحته، ثمَّ وضعت كريم حلاقة ودهنته فوق فروة رأسي، وبدأتُ أكشط رأسي بسلاسة.

ربَّما لأنَّه لم يغمض لي جفن، الليلة الماضية، أو لأنَّ الحفرة التي استقرَّت في أحشائي جعلتني أرتجف - مهما كان السبب، فقد جرحت نفسي فوق أذني اليسرى. بدأتُ تلسعني عندما سألت رغوَّة الصابون فوق الجرح.

ضغطتُ على رأسي بقطعة قماش، لكنَّ جروح فروة الرأس تستغرق وقتاً حتَّى تتخشَّر. بعد دقيقة، رفعت قطعة القماش، ورأيت خطَّ الدَّم يسيل فوق رقبتني، تحت ياقة قميصي.

بدا مثل علم أحمر قادم من وشم الصليب المعقوف. أخذتُ برؤية هذا المزيج: الصابون الأبيض، البشرة الشاحبة، البقعة زاهية اللون.

في البداية، سرنا في الاتجاه المعاكس للمحكمة. كانت هناك طبقة من الصقيع تغطي الزجاج الأمامي لشاحنتي الصغيرة، وكان الجوُّ مشمساً، من ذلك النوع من الأيام التي تبدو رائعة إلى أن تدرك أنَّ الطقس بارد ما إن تضع قدمك خارج البيت. ارتدينا أفضل ثياب عندنا - فقد ارتديت سترة البدلة التي نتقاسمها أنا وفرانسيس، وارتدت بريت فستاناً أسود احتضن جسدها.

كانت سيَّارتنا الوحيدة الواقفة في ساحة موقف السيارات. بعد أن ركنت سيَّارتي، ترجلت من السيارة وجئت إلى جانب باب بريت. لم أفعل ذلك لأنني جنتلمان، وإمَّما لأنَّها رفضت أن تنزل من السيَّارة. جلست على ركبتيَّ إلى جانبها، ووضعت يدي على ركبتهَا، وقلت لها: «حسنًا، يمكن أن يساند أحدنا الآخر».

دفعت ذقنها إلى الأمام، كما كانت تفعل عندما تظنُّ أنَّ أحدًا يصفها بأنَّها ضعيفة أو غير فعَّالة. ثمَّ ترجَّلت من السيارة. كانت تنتعل حذاء مسطَّحاً، كما طلبت منها أوديت لوتون، لكنَّ معطفها قصير يصل إلى وركها، وأستطيع أن أقول إنَّ الريح تتسلَّل بسرعة عبر نسيج ثوبها.

حاولت أن أفق بينها وبين الريح الشديدة، كما لو أنني أستطيع أن أغير الطقس لأجلها.

لَمَّا وصلنا، كانت الشمس تضرب شاهدة القبر فجعلته يتلألأ. كان لونه أبيض. أبيض يعمي الأبصار. انحنى «بريت»، وتتبع بأصابعها حروف اسم ديفيس. تاريخ ولادته وتاريخ وفاته، تحتها كلمة واحدة فقط: أحبك.

أعجبني فكرة أن الكلمة المحفورة على قبر ابني تتطابق مع الوشم الظاهر على مفاصل يدي اليسرى. كما لو كنت أحمله معي.

وقفنا عند القبر حتى شعرت بريت ببرد شديد. حقل من الأعشاب بلون الخوخ، زرع بعد الجنازة، أصبح نبياً الآن. موت ثانٍ.

أول ما رأيته في قاعة المحكمة هؤلاء الزوج.

يبدو أن الحديقة كلها في وسط نيو هافن ممتلئة بهم، يلوّحون بأعلام، وينشدون ترانيم.

إنه ذلك الأحمق الذي يظهر عبر شاشة التلفاز، والاس شيء ما. الشخص الذي يظن أنه قسيس، وربما جرى تطويبه كقس عبر الإنترنت مقابل خمسة دولارات. إنه يلقي درساً عن تاريخ السود، ويتحدث عن ثورة بيكون. سمعته يقول: «استجابة لذلك، إخواني وأخواتي، تم الفصل بين البيض والسود، إذا اتحدوا معاً، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم قد يسببون أضراراً كبيرة، وفي عام 1705، مُنح الخدم المسيحيون - ذوو البشرة البيضاء - أراضٍ وبنادق وطعام ونقود، أما الذين لم يُمنحوا ذلك، فقد استُبعدوا، وسُلبت أراضينا ومواشينا، وإذا رفعنا يداً أمام رجل أبيض، تُزهق حياتنا»، ثم رفع ذراعيه، وقال: «إن التاريخ يرويه الأمريكيون الأنغلو ساكسون».

صحيح. نظرت إلى حجم الحشد الذي يستمع إليه. تذكّرت عندما صمدت حفنة من سگان تكساس أمام جيش من الإسبان لمدة اثني عشر يوماً في الأمو.

أقصد... إنَّهم خسروا.

فجأة، من ذلك البحر الأسود رأيت قبضة بيضاء مرفوعة. رمز.

تحركَّ الحشد، في حين سار الرجل نحوِي. رجل ضخم حليق الرأس، له لحية حمراء طويلة. وقف أمامي أنا وبريت ومدَّ يده، وقال يُقدِّم نفسه: «كارل ثورهيلدسون، لكنَّك تعرفني باسم أودين 45 على موقع Lonewolf.org..

صافحني رفيقه أيضاً، وقال: «إريك دوفال. الشيطان الأبيض»، ثمَّ انضمت إليهما امرأة تحمل توءمين، طفلين صغيرين، شعرهما فضي، ثمَّ جاء رجل يرتدي بدلة مموَّهة، وثلاث فتيات وضعن كحلاً أسوداً كثيفاً، ورجل طويل القامة ينتعل بوطاً عسكرياً ويضع عود أسنان بين أسنانه، وشابُّ يضع نظارة ذات إطار سميك، يحمل بين ذراعيه جهاز كمبيوتر محمول.

تيار متدفِّق من الأشخاص تحلَّقوا حوِي - أشخاص أعرفهم من خلال مصالح مشتركة عبر موقع Lonewolf.org. على الإنترنت؛ خيَّاطون ومحاسبون ومعلِّمون، رجال يقومون بدوريات على الحدود في أريزونا، ومليشيات في تلال نيو هامبشاير. إنَّهم نازيون جدد مخلصون، ظلُّوا غير معروفين، يتوارون حتَّى الآن وراء الشاشات بأسماء مستعارة.

ولأجل ابني، كانوا على استعداد ليظهروا من جديد.

كينيدي

في صباح يوم المحاكمة، استغرقتُ في النوم. قفزت من سريري مثل كرة مدفع، ونثرت الماء على وجهي، ورفعت شعري إلى الخلف في شكل كعكة، ولبست جوربيّ وبدلة زرقاء. استغرقت عملياً لأنهي زينتي ثلاث دقائق، ثمّ جريت إلى المطبخ حيث كان ميكا يقف أمام الموقد. سألته: «لماذا لم توقظني؟»

ابتسم وقبّلي قبله بسرعة، وقال: «أنا أحبُّك أيضاً يا قمر حياتي. اذهبي واجلسي إلى جانب فيوليت».

كانت ابنتنا جالسة إلى الطاولة تنظر إليّ، وقالت: «ماما، إنك تنتعلين فرديّ حذاء مختلفين».

«أوه، يا إلهي!»، تمتمت واستدرت لأعود إلى غرفة النوم، لكن ميكا أمسكني من كتفي وأعادني إلى الكرسي، وقال: «ستأكلين هذه قبل أن تبرد. تحتاجين إلى طاقة حتى تتغلّبي على حليق الرأس ذاك وزوجته، وإلا فستستنفدين طاقتك، وأنا أعرف من التجربة الشخصية أنّ الخيار الوحيد للطعام في تلك المحكمة شيء بني اللون يحاولون تصويره على أنّه قهوة، وآلة بيع ألواح شوكولاتة الغرانولا تعود إلى العصر الجوراسيّ». وضع أمامي طبقاً - بيضتان مقلّيتان، وخبز محمّص مع المرّي. كنت جائعة إلى درجة أنّني تناولت البيضتين قبل أن ينهي بقية الفطور - قهوة بالحليب في كوبه القديم عندما كان طالباً في كليّة الطبّ في جامعة هارفارد، وقال مازحاً: «انظري، قدّمت لك قهوتك في كوب الامتياز الأبيض».

انفجرت ضاحكة، وقلت: «إذاً، سأخذه معي في السيّارة ليجلب لي الحظّ، أو الشعور بالذنب، أو شيئاً آخر».

قَبِلْتُ فيوليت على رأسها، والتقطت فردة حذائي المطابقة من خزانة غرفة النوم، بالإضافة إلى هاتفي والشاحن وجهاز الكمبيوتر والحقيبة. كان ميكا ينتظرني عند الباب ويده كوب القهوة، وقال: «حقاً، أنا فخور بك».

قلت له: «شكراً».

«أذهبي وكوني مارسيا كلارك».

أجفَلْتُ، وقلت له: «إنَّها مدَّعية عامَّة. هل يمكنني أن أكون غلوريا أليد؟»

هزَّ ميكا كتفيه، وقال: «اهزميهم فقط».

في تلك اللحظة، كنت أسير نحو مرآب السيارة. قلت: «هل أنت متأكَّد أنَّ هذا آخر شيء يفترض بك أن تقوله لشخص سيرافع عن أوَّل قضيَّة جريمة قتل في المحكمة؟»، وجلست وراء المقود دون أن تسقط قطرة واحدة من قهوتي.

أقصد، لا بدُّ أن يكون ذلك فألاً حسناً، أليس كذلك؟

قدتُ سيَّارتي أمام قاعة المحكمة لأرى ما الذي يجري، مع أنَّني اتَّفقت مع روث أن أراها في مكان أعرف أنَّه لن يقترَّب منها أحد هناك. سيرك، الطريقة الوحيدة لوصفه. في أحد طرفيَّ الحديقة، كان ولاس ميرسي يبثُّ على الهواء مباشرةً، ويعظ حشداً من الناس بوساطة مكبِّر الصوت. سمعته يقول: «في عام 1691، استُخدمت كلمة أبيض في المحكمة للمرَّة الأولى. في ذلك الوقت، نفَّذت هذه الأُمَّة قاعدة القطرة الواحدة، فقد كنتَ تحتاج إلى قطرة دم واحدة كي تُعدَّ أسودَ في هذا البلد...»

وعلى الطرف الآخر من الحديقة، احتشدت مجموعة من الأشخاص البيض. في البداية، ظننت أنَّهم يتفرَّجون على ألعيب والاس، ثمَّ رأيت أحدهم يرفع صورة الطفل المتوقِّي.

ثمَّ بدؤوا يسرون عبر المجموعة التي تستمع إلى والاس. انطلقت اللعنات، ثمَّ بدأ التدافع واللكمات. جاء رجال الشرطة على الفور، وبدؤوا في الفصل بين السود والبيض. دُكّرني ذلك بحيلة سحرية أجريتها السنة الماضية لإثارة إعجاب فيوليت. إذ صببت ماء في مقلاة وذررت فوقها قليلاً من الفلفل، ثمَّ قلت لها إنَّ الفلفل يخاف الصابون العاج، ولمَّا غمرت لوح الصابون في المقلاة، انفصل الفلفل إلى الحواف. بالنسبة إلى فيوليت، كان ذلك سحراً. بالطبع، كنت أعرف أنَّ السبب الذي جعل الفلفل يتعد عن الصابون هو التوتُّر السطحيّ.

وهو يشبه ما يجري هنا.

قدت سيَّارتي إلى منزل الأبرشيَّة في وول ستريت، حيث رأيت إديسون واقفاً - لكنني لم أر روث. ترجَّلت من سيَّارتي، وشعرت بقلبي يغوص في أعماقي، وسألته: «هل هي...؟»

فأشار إلى الجهة الأخرى من الساحة، حيث كانت روث واقفة على الرصيف المقابل، تنظر إلى المارَّة الذين يقطعون الشارع. لم يلحظها أحد حتَّى الآن، لكنَّها مجازفة. ذهبت إليها. لمَّا لمست ذراعها، أبعدت يدي، وقالت بنبرة رسميّة: «أريد لحظة».

فتراجعتُ.

كان الطَّلاب والأساتذة يمزون أماننا وقد انقلبت ياقاتهم في وجه الريح. مرَّت دراجة مسرعة، ثمَّ وقفت حافلة ضخمة كالديناصور عند الرصيف، وأفرغت بضعة ركَّاب قبل أن تنطلق مرَّة أخرى. «لا تزال تراودني هذه... الأفكار»، قالت روث. «كما تعرفين، طوال عطلة نهاية الأسبوع. كم مرة كنت أستعدُّ لأستقلَّ الحافلة؟ أو أعدُّ طعام الفطور؟ هل هذه آخر مرَّة أكتب فيها شيكاً لفاتورة الكهرباء؟ هل كنت سأولي

اهتماماً أكبر في نيسان الماضي عندما ظهرت أزهار النرجس، لو كنت أعرف أنني لن أراها مرة أخرى؟»

سارت خطوة نحو صف من الأشجار الصغيرة التي غرست في صف أنيق. طوقت بيديها جذع شجرة رفيعة كما لو كانت ستخنقه، ثم رفعت وجهها إلى الأغصان العارية فوقها.

«انظري إلى تلك السماء»، قالت روث، «إنها قريبة من اللون الأزرق الذي تجدينه في أنابيب طلاء الرسم الزيتي. لون تحوّل إلى جوهره»، ثم التفتت إليّ، وقالت: «كم من الوقت يستغرق نسيان هذا؟»

وضعت ذراعياً حول كتفيها. كانت ترتجف، وأنا أعرف أن لا علاقة لذلك بدرجة الحرارة، ثم قلت لها: «إذا كان لدي شيء يمكنني أن أقوله عن ذلك، فإني أقول إنك لن تعرفي ذلك أبداً».

روث

لمّا كان إديسون صغيراً، كنت أعرف دائماً متى يكون معكّر المزاج. كنت أشعر بذلك، حتّى لو لم أره. كنت أقول له إنّ لديّ عينين في مؤخّرة رأسي عندما كان يبدي دهشته بأنني لم أكن أراه، أعرف أنّه كان يحاول أن يسرق شيئاً ما ليتناوله قبل العشاء.

ربّما لهذا السبب، مع أنّني أنظر إلى الأمام كما طلبت إليّ كينيدي، أحسست بنظرات جميع الجالسين خلفي في قاعة المحكمة.

كنت أشعر بتلك النظرات كأنّها خزات، سهام، لدغات حشرات صغيرة. احتجت إلى كلّ تركيزي كي لا أضف مؤخّرة رقبتني وأبعدهم عنيّ.

على من أضحك؟ احتجت إلى كل تركيزي كي لا أقف وأجري في الممر وأخرج من قاعة المحكمة هذه.

كانت كينيدي وهوارد منهمكين في مناقشة سير الجلسة، لا يوجد لديهما وقت ليكلماي. أوضح القاضي أنّه لن يتسامح مع حدوث أيّ إزعاج أو اضطراب في القاعة، وأنّه يطبّق سياسة عدم التسامح التامّ - أي حركة، ستخرج من القاعة، لا بدّ أنّ هذا جعل العنصريين البيض تحت السيطرة. لكنّهم لم يكونوا الوحيدين الذين كانت أعينهم تخترقني.

كانت هناك مجموعة كاملة من السود، عرفت وجوهاً عدّة منها من جنازة أمي، الذين جاؤوا لرفع معنوياتي بدعائهم وصلواتهم. جلس إديسون وأديسا ورائي مباشرة، يمسك أحدهما بيد الآخر فوق مسند الذراع الذي يفصل بين مقعديهما. يمكنني أن أشعر بتلك الرابطة بقوّة، أسمع أنفاسهما.

فجأة، عدتّ بذاكرتي إلى المستشفى، يدي على كتف امرأة جاءها المخاض، وعيني مركّزة على الشاشة أقرأ البيانات المتعلّقة بها. أمرها:

«خذي نفساً عميقاً... شهيق... زفير»، حتّى يغادرها الشعور بالتوتُّر. فمن دون هذا الضغط لا يمكن إحراز أيّ تقدُّم.

حان الوقت لأن أطبّق نصيحتي على نفسي.

سحبْتُ كلَّ الهواء الذي استطعت أن أسحبه. فتحنا أنفي تتوهَّجان. ورحت أنفُسٌ بعمق حتّى بدأت أتخيّل الفراغ الذي أحدثه، وتنحني الجدران إلى الداخل. تتنفخ رئتي في صدري، تمتلئان حتّى تكادا تنفجران. لثانية، حبست نفسي. ثمّ أطلقته.

لم تنظر أوديت لوتون في عينيّ مباشرة قطّ، وكان كلُّ تركيزها منصبّاً على هيئة المحلِّفين. إنّها واحدة منهم. حتّى المسافة التي تضعها بينها وبين طاولة الدفاع وسيلة لتذكير الذين سيقرّرون مصيري بأنّه لا يوجد هناك شيء مشترك يجمعنا، ولو كانوا يرون التشابه بين بشرتنا.

قالت: «سيّداتي وسادتي أعضاء هيئة المحلِّفين، إنّ القضية التي سستمعون عنها الآن مروّعة ومأساويّة. فقد كان تورك وبريتاني باور، مثل الكثيرين منّا، متلهفين لأن يصبحوا أبوين. في الواقع، كان أفضل يوم في حياتيهما الأول من شهر تشرين الأول 2015، اليوم الذي ولد فيه ابنهما ديفيس». وضعت يدها على حاجز مقصورة المحلِّفين، ومضت تقول: «وبخلاف جميع الآباء، كانت لدى هذين الأبوين تفضيلات شخصيّة جعلتهما يشعران بعدم الارتياح لأن تقوم ممرضة أمريكية من أصل أفريقيّ برعاية طفلهما. قد لا يعجبكم ما يؤمنان به، وقد لا تتفقان معهما، لكن لا يمكنكم إنكار طلبهما العادل لاتّخاذ قرارات تتعلّق برعاية ابنهما الطبيّة في المستشفى. وبممارستهما هذا الحقّ، طلب تورك باور أن تقوم ممرّضات محدّدات برعاية ابنه الرضيع. لم تكن المدّعى عليها واحدة منهن - أيها السيدات والسادة، كانت هذه إهانة لم تستطع احتمالها».

لو لم أكن مرعوبة، لضحكت. هذا كلُّ شيء؟ هذه هي الطريقة التي قلَّلت فيها أوديت من أهميَّة العنصريَّة التي أدَّت إلى وضع تلك الملاحظة في الملف؟ تكاد تكون الطريقة التي قبلتها بهذه الدقة الشديدة حتى قبل أن ترى هيئة المحلفين قبها على نحو مثير للإعجاب، كي ينظروا إلى شيء آخر تماماً: حقوق المرضى، عندما نظرتُ إلى كينيدي، هزَّت كتفيها، كأنها تقول: قلت لك ذلك.

«في صباح يوم السبت، نُقل ديفيس باور الصغير إلى غرفة الحضانة لإجراء عمليَّة الختان. كانت المدَّعى عليها وحدها في تلك الغرفة عندما أصيب الطفل بضيق التنفُّس. وماذا فعلت؟» قالت أوديت بتزدُّد، «لا شيء. هذه الممرضة التي لديها خبرة تزيد على عشرين سنة، هذه المرأة التي أدَّت القسم بأن تقدِّم الرعاية الطبيَّة بأفضل ما في وسعها، وقفت هناك». ثمَّ استدارت وأشارت إليَّ. «وقفت المدَّعى عليها هناك، وراحت تنظر إلى ذلك الطفل وهو يكافح حتَّى يتنفَّس، وتركته يموت».

بدأت أشعر الآن أنَّ أعين أعضاء هيئة المحلفين تلاحقني، مثل بنات آوى فوق جيفة. بدا بعضهم فضولياً، وراح بعضهم الآخر يحدِّقونني باحتقار. جعلني ذلك أرغب في أن أزحف تحت طاولة الدفاع، أخذ حُماماً. لكنني شعرت بيد كينيدي تضغط على يدي القابعة في حضني، ورفعت ذقني، وقالت: «لا تدعهم يرون أنك تنضحين عرفاً».

«كان سلوك روث جيفرسون متهوراً، طائشاً، ومتعمداً.

روث جيفرسون قاتلة».

لا يزال سماع الكلمة وهي توجَّه إليَّ، مع أنني أتوقَّعها، يفاجئني. حاولت أن أقيم حاجزاً يصدُّ هذه الصدمة، بتصوُّر، في تتابع سريع، جميع الأطفال الذين حملتهم بين ذراعيَّ، اللمسة الأولى التي حصلوا عليها ليشعروا بالراحة في هذا العالم.

«تُظهر الأدلّة أنّ المدّعى عليها وقفت هناك لا تفعل شيئاً في حين كان ذلك الرضيع يصارع لأجل حياته. لمّا دخل الطاقم الطبيّ وطلبوا إليها أن تساعد الطفل، استخدمت قوّة أكثر من اللازم، وانتهكت جميع المعايير المهنيّة. كانت عنيفة جداً مع هذا الطفل الصغير إلى درجة أنّكم سترون الكدمات في صور تشريح جثته».

استدارت أوديت لتواجه هيئة المحلّفين مرّة أخرى، وقالت: «سيداتي وسادتي، لقد جُرحت مشاعرنا جميعاً، لكن حتّى لو لم تشعرُوا بأنّ ذلك الاختيار قد تمّ على نحو صحيح - حتّى لو وجدتم أنّها إهانة أخلاقيّة - فإنّكم لا تنتقمون. إنّكم لا تؤذون الأبرياء انتقاماً من الشخص الذي أخطأ معكم. لكن، هذا بالتحديد ما فعلته المدّعى عليها. لو أنّها تصرّفت بحسب ما تدربّت عليه كمهنيّة طبيّة، بدلاً من أن يكون دافعها الغضب والانتقام، لكان ديفيس باور حيّاً يرزق اليوم. لكن، لو أدّت روث جيفرسون واجبها كما يجب؟» حدّقت إلى عينيّ، «لأتيحت لهذا الطفل الفرصة لأن يبقى حيّاً».

نهضت كينيدي الجالسة إلى جانبي بخفّة، وسارت نحو مقصورة المحلّفين، كعب حدائها ينقر فوق بلاط الأرضيّة، وقالت: «ستجعلكم المدّعية العامّة تعتقدون أنّ هذه القضية باللونين الأسود والأبيض. لكنّها ليست كما تظنّون. أنا أمثّل روث جيفرسون التي تخرّجت في جامعة ولاية نيويورك في بلاتسبرغ، وحصلت على إجازة في التمريض من جامعة بيل. عملت ممرّضة في جناح المخاض والتوليد لأكثر من عشرين سنة في ولاية كونيتيكت، وهي زوجة ويسلي جيفرسون الذي كان عسكرياً في جيش بلدنا ومات خارج البلد، وربّت ابنها، إديسون، الطالب المتفوّق الذي يتقدّم حالياً بطلباته للقبول في الجامعة وحدها. سيّداتي وسادتي، إنّ روث جيفرسون ليست وحشاً، إنّها أمّ صالحة، وكانت زوجة صالحة، وهي ممرّضة مثاليّة».

ثمّ عادت إلى طاولة الدفاع ووضعت يدها على كتفي، ومضت تقول: «سيثبت الدليل أنّه ذات يوم مات طفل في أثناء مناوبة روث. ليس أيّ

طفل فقط. وإمّا كان الطفل ابن تورك باور، الرجل الذي كرهها بسبب لون بشرتها. وماذا حدث؟ لَمَّا مات الطفل، توجّه إلى الشرطة وأتهم روث. على الرُغم من حقيقة أنّ طبيبة الأطفال - التي سستمعون منها - أثبتت على روث لأجل الطريقة التي بذلت فيها كلّ جهدها لإنقاذ هذا الرضيع عندما توقّف تنفّسه. ومع أنّ المشرفة على روث - التي سستمعون منها - طلبت إلى روث ألا تلمس هذا الطفل، في حين لا يحقّ للمستشفى أن يطلب إليها أن تتخلّى عن واجبها كمرّضة».

عادت كينيدي نحو هيئة المحلّفين، وأضافت: «هذا ما ستثبته الأدلّة: لقد واجهت روث موقفاً مستحيلاً. هل تنفّذ أوامر المشرفة عليها، والرغبات المضلّلة لوالدي المولود؟ أو تبذل كلّ ما في وسعها لتنقذ حياة الطفل؟

«السيدة لوتون قالت إنّ هذه القضية مأساوية، وهي محقّة. لكن، مرّة أخرى، ليس للسبب الذي تعتقدونه. لأنّ أيّ شيء فعلته روث جيفرسون أو لم تفعله لم يكن سيحدث فرقاً بالنسبة إلى ديفيس باور الصغير. إنّ ما لم يعرفه آل باور - والمستشفى - حينذاك، هو أنّ الطفل كان يعاني من حالة تهدّد حياته، ولم يتمّ الكشف عنها بعد. ولم يكن سيحدث أيّ فرق لو كانت روث معه في الغرفة أو فلورنس نايتنجيل. ببساطة لا توجد وسيلة كان من الممكن أن تمنح الحياة لديفيس باور».

مدّت يديها، ومضت تقول: «تريد المدّعية العامّة أن تجعلكم تعتقدون أنّ سبب وجودنا هنا اليوم الإهمال. لكن، لم تكن روث مهملة في عملها - وإمّا المستشفى ومختبر الولاية هما اللذان أخفقا في الإبلاغ على الفور عن حالة طبيّة خطيرة لدى الرضيع، التي لو تمّ تشخيصها مبكراً، لكان من الممكن إنقاذ حياته. تريد المدّعية العامّة أن تعتقدوا أنّ سبب وجودنا هنا اليوم هو الغضب والانتقام. هذا صحيح. لكن، لم يكن الغضب يتملّك روث، وإمّا أراد تورك وبريتاني باور، الغارقين في حزنهما وألمهما، أن يجدا كبش فداء. ولَمَّا لم يتمكّننا من إبقاء ابنهما في قيد الحياة، وبصحة جيّدة،

أراداً أن يتحمّل شخص آخر مسؤولية ذلك، ووجداً أمامهما روث جيفرسون»، وأضافت وهي تنظر إلى المحلّفين، «لقد كانت هناك ضحيّة بريئة واحدة، وأحثكم على ألا تكون هناك ضحيّة ثانية».

لم أرَ كورين منذ شهرين. بدت أكبر سنّاً، وقد تشكّلت هالات تحت عينيها. أتساءل إن كانت لا تزال مع صديقها نفسه، أم أنها مريضة، وما هي الأزمة التي اجتاحت حياتها مؤخراً. تذكّرت كيف كانت تعطيني قطع البندورة (الطماطم) وأعطيتها حبّات الزيتون عندما تجلب السلطة من الكافتيريا وتتناولها في غرفة الاستراحة.

إذا كانت الأشهر القليلة الماضية قد علّمتني شيئاً، فهو أنّ الصداقة ليست إلاً وهمّاً. فالأشخاص الذين تظنّ أنّهم راسخون في صداقتك يتحوّلون إلى مرايا وضعفاء، ثمّ تنظر وتدرك أنّ هناك آخرين كنت تستهين بهم، هم قاعدتك. قبل عام من الآن، كنت سأقول لكم إنّنا كنّا، أنا وكورين، صديقتين حميمتين، لكن تبين أنّ ذلك كان تقارباً وليس ارتباطاً. كنّا معارف افتراضيين، تشتري إحدانا للأخرى هدايا عيد الميلاد، ونخرج معاً وتتناول الطعام في ليالي الخميس، لا لأنّه كانت تجمعننا قواسم مشتركة عدّة، وإمّا لأنّنا كنّا نعمل لفترة طويلة، لذلك كان من الأسهل أن نواصل أحاديثنا المختزلة بدلاً من أن نذهب ونعلّم شخصاً آخر اللغة.

طلبت أوديت من كورين أن تذكر اسمها وعنوانها، ثمّ سألتها: «هل أنت موظّفة؟»

من منصّة الشهود، التقت عينا كورين عينيّ، ثمّ انزلقتا بعيداً، وقالت: «نعم، في مستشفى الرحمة - ويست هافن».

«هل تعرفين المدّعى عليها في هذا الأمر؟»

«نعم»، قالت كورين، «أعرفها».

لكنّها لا تعرف، ليس حقّاً. لم تكن تعرف قطّ.

كي نكون منصفين، أظنّ أنّي لم أكن أعرف حقاً من أنا أيضاً.
«منذ متى تعرفينها؟» سألتها أوديت.

«منذ سبع سنوات. عملنا معاً في جناح المخاض والولادة».

«نعم»، قالت المدّعية العامّة، «هل كنتما تعملان معاً في الأول من تشرين الأول
(أكتوبر) 2015؟»

«نعم. بدأنا مناوبتنا عند الساعة السابعة صباحاً».

«هل كنتِ تعتنين بديفيس باور في صباح ذلك اليوم؟»

فقالت كورين: «نعم، لكنّي تولّيت المسؤوليّة عن روث».

«لماذا؟»

«المشرفة علينا ماري مالون طلبت إليّ ذلك».

قدّمت أوديت نسخة مصدّقة من السجلّ الطبيّ كإثبات، وقالت: «أودُ أن أحيلك
إلى الوثيقة رقم 24، أمامك. هل يمكنك أن تخبري هيئة المحلّفين ما هي؟»

فقالت كورين: «ملفّ سجلّ طبيّ»، ثمّ أضافت، «كان المريض هو ديفيس باور».

«هل توجد ملاحظة في بداية الملفّ؟»

«نعم»، قالت كورين، وقرأته بصوت عالٍ، «لا يُسمح لشخص أمريكيّ من أصل
أفريقيّ برعاية هذا المريض».

كانت كلّ كلمة بمنزلة رصاصة.

«نتيجة لذلك، نُقلت رعاية المريض من المدّعى عليها إليك، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل لاحظتِ ردّة فعل روث على تلك الملاحظة؟» سألتها أوديت.

«نعم. كانت غاضبة ومستاءة. قالت لي إنَّ ماري أبعدها عن رعايته لأنها سوداء، فقلت لها إنَّ ماري لا تفعل ذلك عادةً. كما تعلمين، لا بدَّ أنَّ أموراً أخرى كانت تحدث. لم تشأ أن تسمعها. قالت: «إنَّ هذا الطفل لا يعني لي شيئاً»، ثمَّ غادرت وهي غاضبة».

غادرت وهي غاضبة؟ هبطت الدرج بدلاً من أن آخذ المصعد. من العجيب كيف يمكن إعادة تشكيل الأحداث والحقائق مثل الشمع الذي يبقى فترة طويلة تحت الشمس. لا يوجد شيء يُدعى حقيقة. لا يوجد شيء إلا كيف رأيت الحقيقة في لحظة معيَّنة، وكيف نقلت تلك الحقيقة. كيف عالج دماغك هذه الحقيقة. لا يمكن أن تنزع راوي الحكاية عن الحكاية.

«هل كان ديفيس باور طفلاً يتمتَّع بصحَّة جيِّدة؟» واصلت المدَّعية العامَّة.
«بدا الأمر على هذا النحو»، اعترفت كورين، «أفصد، لم يكن يرضع كثيراً، لكن لم يكن ذلك على درجة من الأهميَّة. كثير من الأطفال يكونون بليدين في البداية».

«هل كنت في العمل يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول؟»

فقال كورين: «نعم».

«وهل كانت روث أيضاً؟»

«لا. لم يكن من المفترض أن تأتي على الإطلاق، لكنني متأكِّدة أنَّ عددنا كان قليلاً، واستدعيت إلى العمل لزيادة عددنا - من الساعة السابعة مساءً حتَّى يوم السبت من دون توقُّف».

«إذاً، كنتِ ممرِّضة ديفيس طوال يوم الجمعة؟»

«نعم».

«هل اتَّخذتِ أيَّ إجراءات روتينيَّة للرضيع؟»

هرّت كورين رأسها، وقالت: «في نحو الساعة الثانية والنصف، أجريت فحص الكعب. إنّه فحص دم قياسي - لم يُجرَ لأنّ الطفل كان مريضاً أو لأيّ سبب آخر. يُجرى هذا الاختبار على جميع الأطفال المولودين حديثاً، ويؤخذ إلى مختبر الولاية لتحليله».

«هل كانت لديك أيّ مخاوف بشأن مريضك في ذلك اليوم؟»

«كانت لا تزال لديه مشكلة في الإمساك بالثدي حتّى يرضع. لكن، مرّة أخرى، هذا ليس أمراً غير عاديّ بالنسبة إلى أمّ تلد أول مرة، وبالنسبة إلى مولود جديد». ابتسمت لأعضاء هيئة المحلّفين، وأضافت: «أعمى يقود أعمى، وكلّ ذلك».

«هل تحدّثت مع المدّعى عليها حول ديفيس باور عندما جاءت؟»

«لا. في الواقع، بدا أنّها كانت تتجاهله تماماً».

إنّها تجربة تشبه الخروج من الجسد - الجلوس هنا على مرأى من الجميع، وسماع هؤلاء الناس يتناقشون عنّي كما لو أنّني لست موجودة.

«متى رأيت روث بعد ذلك؟»

«حسناً، كانت لا تزال في الخدمة عندما عدت إلى مناويتي عند الساعة السابعة صباحاً. كانت تعمل طوال الليل، وكان من المقرّر أن تغادر عند الساعة الحادية عشرة صباحاً».

«ماذا حدث في ذلك الصباح؟» سألتها أوديت.

«خُتّن الطفل. لا يحبّ الآباء عادة رؤية ذلك يجري أمامهم، فأخذ الرضيع إلى غرفة الحضانة. نعطهم شيئاً حلواً - على نحو أساسيّ ماء سكر - لتهدئتهم قليلاً، ويقوم طبيب الأطفال بهذا الإجراء. كمّا أدخلتُ سرير الطفل النُقّال، كانت روث تنتظر في غرفة الحضانة. كان صباحاً محموماً بالعمل، وكانت تأخذ قسطاً من الراحة».

«هل جرى الختان كما هو مخطَّط له؟»

«نعم، لم تكن هناك أيّ مضاعفات. يتضمَّن البروتوكول مراقبة الطفل لمدة تسعين دقيقة للتأكد من عدم وجود نزيف أو أيّ مشكلة أخرى.»

«هل هذا ما فعلته؟»

«لا»، اعترفت كورين، «استُديعت لإجراء ولادة قيصرية طارئة لمريضة أخرى. رافقتني الممرضة المشرفة، ماري، إلى غرفة العمليَّات، وهذا عملها. وهذا يعني أنّ روث كانت الممرضة الوحيدة التي بقيت في الغرفة، فطلبت إليها أن تراقب ديفيس»، تردَّدت، ثمَّ قالت: «يجب أن تفهمي أننا مستشفى صغير، ولدينا طاقم رئيس، وعندما تحدث حالة طيبة طارئة، تُتخذ القرارات بسرعة.»

كان هوارد إلى جانبي يدوّن ملاحظة.

«تستغرق العمليَّة القيصرية عشرين دقيقة. افترضتُ أنني سأعود إلى غرفة الحضانة قبل أن يستيقظ الرضيع.»

«هل انتابك شعور بالقلق عندما تركتِ ديفيس في رعاية روث؟»

فقالت بحزم: «لا»، ثمَّ أضافت، «روث أفضل ممرضة رأيتها في حياتي.»

«ما الفترة التي غبتِ فيها؟» سألتها أوديت.

فقالت كورين بهدوء: «فترة طويلة جداً. لَمَّا عدتُ، كان الطفل قد مات.»

التفتت المدّعية العامّة إلى كينيدي، وقالت لها: «شهادتك.»

ابتسمت كينيدي لكورين وهي تسير نحو منصّة الشهود، وقالت لها: «تقولين إنَّك

عملتِ مع روث لمدة سبع سنوات. هل تعدّين نفسك صديقة لها؟»

اندفعت عينا كورين إليّ، وقالت: «نعم.»

«هل سبق لك أن شككت في التزامها بحياتها المهنيَّة؟»

«لا. كانت قدوة بالنسبة إليّ إلى درجة كبيرة».

«هل كنتِ في غرفة الحضانة في أيّ وقت جرى فيه تدخّل طبيّ لديفيس باور؟»

فقالت كورين: «لا، كنت مع مريضتي الأخرى».

«إذًا، لم تري روث تفعل شيئاً».

«لا».

أضافت كينيدي: «لم تري روث وهي تفعل شيئاً».

«لا».

رفعت قصاصة الورق التي مرّرها إليها هاورد، وقالت: «ذكرتِ، وأنا أقتبس هنا،

عندما تحدث حالة طيبة طارئة تُتخذ قرارات بسرعة. هل تذكرين أنّك قلت ذلك؟»

«نعم...»

«كانت عملية الولادة القيصرية التي ذهبَت لإجرائها حالة طيبة طارئة، أليس

كذلك؟»

«نعم».

«ألا تقولين أيضاً إنّ المولود الجديد الذي كان يعاني من نوبة في جهازه التنفسيّ

حالة طيبة طارئة؟»

«نعم، طبعاً».

«هل كنتِ تعرفين بوجود ملاحظة في الملفّ تقول إنّه يجب ألاّ تعتني روث بهذا

الطفل؟»

«اعتراض»، قالت أوديت، «هذا ليس ما كُتب في الملاحظة».

فقال القاضي: «الاعتراض مقبول».

أعدت السيّدة ماكواري صياغة السؤال: «هل كنتِ تعرفين أنّه توجد ملاحظة في الملفّ تقول بأنّه لا يستطيع أن يقوم أيّ شخص أمريكيّ من أصل أفريقيّ برعاية الطفل؟»

«نعم».

«كم عدد الممرّضات السوداوات اللاتي يعملن في القسم الذي تعملين فيه؟»

«روث فقط».

«هل كنتِ تعلمين عندما طلبتِ إلى روث أن تأخذ مكانك أنّ والديّ الطفل أعربا عن رغبتهما في منعها من رعاية مولودهما الجديد؟»

تحركت كورين في مقعدها الخشبيّ، وقالت: «لم أكن أظنّ أنّ شيئاً يمكن أن يحدث. كان الطفل في حالة جيدة عندما غادرت».

«السبب الكامل لمراقبة الطفل لمدة تسعين دقيقة بعد الختان هو أنّه قد تتغيّر الأمور بالنسبة إلى الأطفال حديثي الولادة في لحظة، أليس هذا صحيحاً؟»

«نعم».

«والحقيقة، يا كورين، أنّك تركتِ ذلك الطفل مع ممرّضة مُنعت من خدمة الطفل، أليس كذلك؟»

فقالت كورين: «لم يكن لديّ خيار آخر».

«لكنّك تركتِ ذلك الرضيع في رعاية روث؟»

«نعم».

«هل تعلمين أنّه ليس من المفترض أن تلمس ذلك الطفل؟»

«نعم».

«إذاً، ارتكبتِ خطأً، أساساً، مرّتين؟»

«حسناً...»

فقاطعتها كينيدي، وقالت: «هذا مضحك. لم يتَّهمك أحد بقتل ذلك الطفل!»
في الليلة الماضية، حلمتُ بجنائزة أمِّي. كانت المقاعد في الكنيسة ممتلئة، ولم يكن
الفصل شتاءً، وإمَّا صيفاً. وعلى الرَّغم من أجهزة التكييف، واستخدام الحاضرين في
القاعة مراوح يدويَّة، كنَّا ننضح جميعنا عرفاً. ولم تكن الكنيسة كنيسة، وإمَّا كانت
مستودعاً بدا كما لو أنه أعيد ترميمه بعد حريق. وكان الصليب خلف المذبح مكُوناً
من عوارض خشبيَّة متفخَّمة رُكِّبت معاً مثل أحجية.

كنتُ أحاول أن أبكي، لكنَّ الدموع جفَّت في عينيِّ. وقد تحوَّلت كلُّ الرطوبة في
جسدي إلى عرق. حاولت أن أثير الهواء نحوي، لكن لم تكن لديَّ مروحة.
ثمَّ أعطتني المرأة الجالسة إلى جانبي مروحة، وقالت: «خذي مروحتي».
رفعت عينيَّ لأشكرها، فرأيت أمِّي جالسة على الكرسيِّ إلى جانبي.
معقودة اللسان، نهضت ووقفت على قدميِّ.
نظرت إلى داخل التابوت لأرى من هو الشخص المسجى فيه - بدلاً منها.
كان ممتلئاً بأطفال رَضَّع ميتين.

عُيِّنت ماري بعدي بعشر سنوات. كانت آنذاك ممرضة في قسم المخاض والتوليد
مثلي تماماً. عايننا من نوبات عمل مزدوجة، واشتكيينا من المزايا الرديئة التي نحصل
عليها، وشهدنا إعادة تصميم المستشفى. كَلَّمَّا تقاعدت الممرضة المشرفة، رشَّحنا أنفسنا، أنا
وماري، لشغل تلك الوظيفة. وكَلَّمَّا اختارت إدارة الموارد البشريَّة ماري، جاءتني محطَّمة،
وقالت إنَّها كانت تأمل في أن أحصل أنا على تلك الوظيفة، فقلت لها لا يتعيَّن
عليها أن تعتذر لأنَّهم اختاروها هي، ولم أكثرث لذلك، لأنَّه كان عليَّ أن أهتمَّ بتربية

إديسون لأنَّ منصب الممرضة المشرفة يعني الكثير من الأعمال الإدارية والقليل من التعامل مع المرضى.

بينما كنت أراقب ماري وهي تأخذ دورها الجديد، شكرتُ نجوم السعد لأنَّها سارت بالطريقة التي أريدها.

«طلب والد الطفل، تورك باور، أن يتحدَّث إلى مشرفة»، قالت ماري، ردّاً على سؤال المدعية العامّة، وأضافت، «كان قلقاً حول رعاية طفله».

«ما كان محتوى تلك المحادثة؟»

نظرت إلى حضنها، وقالت: «لم يشأ أن يلمس أيّ شخص أسود طفله. لمّا قال ذلك، كشف عن وشم يظهر على ساعده بوضوح علم الكونفدرالية».

سُمعت شهقة من أحد أعضاء هيئة المحلّفين.

«هل سبق أن طلب إليك أحد الوالدين طلباً كهذا؟»

تردّدت ماري، وقالت: «تتلقّى طلبات من المرضى طوال الوقت. بعض النسوة يفضّلن طبيبات لتوليد أطفالهنّ، أو لا يفضّلن أن تعالجهنّ طالبة لا تزال تدرس الطبّ. نبذل كلّ ما في وسعنا لنجعل مريضاتنا يشعرنّ بالراحة، مهما كلف الأمر».

«في هذه الحالة، ماذا فعلتِ؟»

«دوّنت ملاحظة ووضعتها في الملفّ».

طلبت إليها أوديت أن تعاین الوثيقة مع الملفّ الطبيّ، وأن تقرأ الملاحظة بصوت عالٍ.

«هل تحدّثتِ إلى العاملين معك عن طلب هذا المريض؟»

«نعم. شرحتُ لروث أنّه يوجد طلب بأن تتوقّف عن رعاية الطفل بسبب معتقدات الأب الفلسفيّة».

«ماذا كانت ردّة فعلها؟»

«عدّتها إهانة شخصيّة»، قالت ماري بهدوء، «لم أقصد الأمر بهذه الطريقة. قلت لها إنّ الأمر مجرد إجراء شكلي، لكنّها خرجت من مكنتي وشفقت الباب وراءها».

«متى رأيت المدّعى عليها مرّة أخرى؟» سألتها أوديت.

«صباح يوم السبت. كنت في غرفة الطوارئ مع مريضة أخرى حدثت لها مضاعفات في أثناء الولادة، ومما أنّني المشرفة على الممرّضات، فإني مطالبة بإجراء هذا التبديل مع الممرّضة الموجودة التي تصادف أنّها كورين التي طلبت إلى روث أن ترأق مريضها الآخر - ديفيس باور - بعد الختان. وفي أقرب وقت ممكن، عدت إلى غرفة الحضانة».

«أخبرينا ما الذي رأيته يا ماري».

فقالت: «كانت روث واقفة أمام السرير. سألتها ماذا تفعلين؟ فقالت لا شيء».

أطبقت الغرفة عليّ، وتشنّجت عضلات رقبتني وذراعيّ. شعرت أنّني تجمّدت مرّة أخرى، مسمّرة من رؤية الرخام الأزرق على خدّ الطفل، وهمود جسده الصغير. أسمع تعليماتها:

كيس التنفّس الاصطناعي.

اتصلي بالرمز.

إنيّ أسبح، الماء يغمري فوق رأسي، أنا قطعة خشب.

باشري الضغط.

بدأت أضغط بإصبعين فوق زنبك القفص الصدري الرقيق، أوصل الأسلاك بيدي الأخرى. أصبحت غرفة الحضانة فجأة ضيقة جداً من هذا العدد من الأشخاص داخلها. أدخلت الإبرة تحت الجلد في فروة الرأس، وابل من الشتائم انطلقت عندما انزلقت إلى الخارج قبل أن تلامس الوريد. قارورة تدحرجت من فوق الطاولة. تدفّق الأتروبين إلى الرئتين

وغطى الأنبوب البلاستيكي. هرعت طبيبة الأطفال إلى غرفة الحضانة. ألقى بكيس التنفس الاصطناعي في سلة المهملات.

الزمن: 10:04.

«روث؟» همست كينيدي، «هل أنت على ما يرام؟»

لم أستطع أن أحرّك شفتي. غمرني الماء فوق رأسي. أصبحت قطعة من خشب.

إنّي أغرق.

قالت ماري: «بدأت دقات قلب المريض تخفق ببطء شديد».

شاهدتا قبر.

«لم نتمكّن من تزويده بالأكسجين. أخيراً، طلبت طبيبة الأطفال إعلان وقت الوفاة. لم ندرک أنّ الوالدين كانا في غرفة الحضانة. كانت تحدث أشياء كثيرة... و...» تلعثمت، ثمّ مضت تقول: «جرى الأب - السيد باور - إلى سلة المهملات وأخرج كيس التنفس الاصطناعي. حاول أن يضعه في الأنبوب الذي كان لا يزال بارزاً من حنجرة الطفل. توسّل إلينا أن نريه كيف يمكنه أن يفعل ذلك»، مسحت دمعته، «إنّي لا أقصد أن... أنا... أنا آسفة».

أدرت رأسي بضع درجات، ورأيت نسوة عديدات في مقصورة المحلّفين يفعلن الشيء نفسه. أما أنا، فلم تبقى دموع لديّ.

إنّي أغرق في دموع الآخرين.

سارت أوديت نحو ماري وأعطتها علبة مناديل ورقية. صوت النشيج الناعم يحيط بي مثل قطعة قطن يلتفّ من جميع الجوانب. «ماذا حدث بعد ذلك؟» سألتها المدعية العامّة.

جفّفت ماري دموعها، وقالت: «للفّت ديفيس باور في بطانية، ووضعت قبّعته مرّة أخرى، وأعطيته لأمّه وأبيه».

أنا قطعة خشب.

أغمضت عينيّ. وبدأت أغرق، أغرق.

استغرقتُ بضع دقائق لأركّز على كينيدي التي بدأت تستجوب ماري.

«هل اشتكى لك أيّ مريض من خبرة روث كمرضة قبل تورك باور؟»

«لا».

«هل قدّمت روث رعاية دون المستوى المطلوب؟»

«لا».

«لَمَّا دَوَّنتِ تلك الملاحظة في جدول الطفل، كنتِ تعرفين أنّه ستكون هناك ممرّستان فقط تعملان في أيّ وقت، وأنّه قد يكون هناك احتمال بأن يُترك المريض من دون إشراف في مرحلة ما في أثناء إقامته في المستشفى؟»

«هذا غير صحيح. كانت الممرّضة المناوبة الأخرى ستغطي ذلك».

«وماذا لو كانت تلك الممرّضة مشغولة؟» سألتها كينيدي، «ماذا لو استدعيت لإجراء عملية قيصرية طارئة، مثلاً، وكانت الممرّضة الوحيدة المتبقية هي في الحقيقة أمريكية من أصل أفريقي؟»

فُتِحَ فم ماري وأُغلق، لكن لم يصدر منه صوت.

«أنا آسفة يا سيّدة مالون - لم أفهم ذلك تماماً».

«لم يُترك ديفيس باور من دون إشراف في أيّ وقت»، قالت بإصرار، «كانت روث هناك».

«لكِنَّكِ - المشرفة عليها - منعته من رعاية هذا المريض بالذات، أليس هذا صحيحاً؟»

«لا، أنا...»

«ملاحظتك منعته من معالجة هذا المريض بالذات على نحو فعّال...»

فقالت ماري: «على نحو عامّ. من الواضح ليس في حالة طوارئ».

لمعت عينا كينيدي، وقالت: «هل هذا مدوّن في تقرير المريض؟»

«لا، لكن...»

«هل كان ذلك مدوّنًا في الملاحظة التي كتبتيها؟»

«لا».

«هل أبلغتِ روث بأنّه في ظروف معيّنة يجب أن يحلّ تعهّد نايتهنغيل الذي تتعهّد

بموجبه الممرّضات محلّ ما أمرتها به؟»

«لا»، تمتمت ماري.

طوت كينيدي ذراعها، وسألتها: «إذًا، كيف كان من المفترض أن تعرف روث؟»

لَمّا حان وقت استراحة المحكمة للغداء، عرضت كينيدي أن تُحضّر لنا وجبة طعام

كي لا نضطرّ وأنا وإديسون إلى الخروج ومواجهة الصحافة. قلت لها إنني لست جائعة،

فقالت لي: «أعرف أنّ الأمر ليس مريحاً، لكنّها كانت بداية جيّدة».

نظرت إليها نظرة تشي تماماً بما أفكّر فيه: لا يمكن في أيّ حال أن يفكّر أحد من

هيئة المحلّفين في أنّ تورك باور حاول إنعاش ابنه.

بعد أن تركتنا كينيدي، جلس إديسون إلى جانبي. حلّ ربطة عنقه. «هل أنت على

ما يرام؟» سألته، وضغطت على يده.

«لا أصدّق أنّك أنتِ التي تسألني هذا السؤال».

سارت سيّدة إلى جانبنا وجلست إلى جانب إديسون على المقعد خارج قاعة

المحكمة. كانت منهمكة في كتابة محادثة نصيّة على هاتفها، تضحك وتتجهمّ، وتساءل،

أوبرا بشريّة من شخص واحد، ثمّ رفعت عينيها أخيراً كما لو أنّها أدركت أين هي.

رأت إديسون إلى جانبها، فتحرّكت قليلاً لتضع شعرة من الفراغ بينهما. ثمّ
ابتسمت، كما لو أنّ ذلك سيجعل كلّ شيء على ما يرام.

قلت: «تعرف، أشعر أنّني جائعة قليلاً».

ابتسم إديسون ابتسامة عريضة، وقال: «أنا دائماً جائع».

نهضنا معاً وتسلّلنا من الجزء الخلفي من قاعة المحكمة. لم أعد أبالي حتّى في هذه
المرحلة لو أنّني واجهت كلّ وسائل الإعلام، أو قابلت والاس ميرسي نفسه. تجوّلت في
الشارع شابكة ذراعي بذراع إديسون حتّى وصلنا إلى مطعم بيتزا.

طلبنا قطعتي بيتزا وجلسنا ننتظر دورنا. انحنى إديسون فوق زجاجة الكوكا كولا
وشربها بالقشة كلّها. مرّة أخرى سرحت في أفكاري وذكرياتي.

أظنّ أنّني لم أدرك أنّ المحاكمة ليست مجرد اغتيال شخصيّة. إنّها لعبة ذهنيّة،
بحيث يجري نزع قشرة درع المدّعى عليه كلّ مرّة، حتّى لا يعود في وسعك إلا أن
تتساءل إن كان ما يقوله الادّعاء صحيحاً.

ماذا لو أنّني فعلت ذلك عمداً؟

ماذا لو أنّني تردّدت لا بسبب ملاحظة ماري وإمّا لأنّني أردت أن أفعل ذلك في
أعماقي؟

صوت إديسون أعادني إلى الواقع. رمشتُ، عدتُ إلى المركز. «هل نادوا اسمنا؟»

هزّ رأسه، وقال: «ليس بعد. ماما، هل يمكنني... هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟»

«دائماً».

فكّر للحظة كما لو أنّه يغربل الكلمات. «هل كان... هل كان الأمر كذلك حقاً؟»

رَنَّ جرس عند المنضدة الأمامية. أصبحت وجبتنا جاهزة.

لم أتحرك لجلبها. بدلاً من ذلك، نظرت في عيني ابني، وقلت: «كانت أسوأ».

كان طبيب التخدير الذي استدعي بعد ظهر ذلك اليوم كشاهد للولاية شخصاً لا أعرفه جيداً. لم يكن إسحق هاجر يعمل في الجناح الذي أعمل فيه إلا إذا طُلب الرمز، ثمَّ وصل مع بقية أعضاء الفريق. لمَّا جاء لرؤية ديفيس باور، لم أكن أعرف حتَّى اسمه.

«قبل أن تستجيب للرمز»، سألته أوديت، «هل رأيت هذا المريض من قبل؟»

فقال الدكتور هاجر: «لا».

«هل قابلت والديه من قبل؟»

«لا».

«هل يمكنك أن تخبرنا ما الذي فعلته عندما وصلت إلى غرفة الحضانة؟»

فأجاب الدكتور هاجر: «أدخلتُ الأنبوب للمريض، ولمَّا لم يتمكَّن زملائي من إدخال الإبرة في الوريد، حاولت أن أساعدهم».

«هل أعطيت روث أيَّ تعليقات في أثناء هذه العملية؟» سألته أوديت.

«نعم. كانت تضغط على صدر الطفل، وطلبت منها مرَّات عدَّة أن تتوقَّف عن ذلك لنعرف إن كان المريض يستجيب أم لا. في إحدى المرَّات، لمَّا شعرت أنَّها كانت تضغط بشيء من القوة على صدر المريض، قلت لها ذلك».

«هل يمكنك أن تصف ما الذي كانت تفعله؟»

فقال: «تتضمَّن عمليَّات الضغط على صدر الرضيع الضغط على عظمة القصِّ بدرجة نصف بوصة نحو مئتي مرَّة في الدقيقة. كانت المعقَّدات الظاهرة على الشاشة مرتفعة جداً. خيَّل إليَّ أنَّ روث كانت تضغط بقوة».

«هل يمكنك أن تشرح ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إلى شخص عادي؟»
نظر الدكتور هاجر إلى هيئة المحلفين، وقال: «إنَّ الضغط على الصدر هي الطريقة التي نجعل بها القلب يخفق يدويًا، إذا لم يخفق من تلقاء نفسه. ويهدف ذلك إلى دفع النتاج القلبي فيزيائياً... لكننا نتوقَّف بعد ذلك عن عملية الضغط لفترة كافية كي يملأ الدَّم القلب. لا يختلف الأمر عن عملية تسليك المرحاض. يجب أن تضغطي إلى الأسفل، لكن إذا لم تسحبي إلى الأعلى لإحداث عملية الشفط فلن يمتلئ الوعاء بالماء، وكذلك الأمر، إذا ضغطتِ بسرعة كبيرة أو شديدة، فإنك تضخِّين وتضخِّين، لكن لا يوجد دم يجري في الجسم».

«هل تذكر تماماً ما الذي قتلته لروث؟»

تحنح وقال: «قلت لها أن تخفَّف من حدَّة ضغطها».

«هل من غير المعتاد أن يقترح طبيب التخدير إجراء تعديل على الشخص الذي يجري الضغط؟»

فقال الدكتور هاجر: «لا على الإطلاق. إنَّه نظام من الضوابط والتوازنات. جميعنا نراقب بعضنا في أثناء الترميز. ربَّما أراقب أيضاً لأرى إن كان جانبا الصدر يرتفعان، وإذا لم يحدث ذلك، كنت سأطلب إلى ماري مالون أن تضغط بقوة أكبر».

«منذ متى بدأت روث تضغط بقوة؟»

«اعتراض»، قالت كينيدي، «إنَّها تضع الكلمات في فم الشاهد».

«سأعيد صياغة السؤال. منذ متى أصبح ضغط المدَّعى عليها شديداً على صدر المريض؟»

«كان قوياً على نحو طفيف لأقلَّ من دقيقة».

فسألته أوديت: «في رأيك الطبيِّ الخبير، يا دكتور، هل من الممكن أن يسبَّب ما فعلته المدَّعى عليها ضرراً للمريض؟»

«يمكن أن تبدو عملية إنقاذ الحياة عنيفة جداً يا سيّدة لوتون. إننا نشقّ الجلد، ونكسر الضلوع، ونصدم بتوتر كهربائيّ عالي جداً»، ثمّ التفت إليّ، وأضاف، «إننا نفعل ما يجب علينا فعله، وعندما نكون محظوظين، ينجح ما نفعله». فقالت المدّعية العامّة: «لا توجد لديّ أسئلة أخرى».

اقتربت كينيدي من الدكتور هاجر، وقالت: «كانت المشاعر جياشة وفي حالة توتّر في غرفة الحضانة، أليس كذلك؟»
«نعم».

«تلك الضغوطات التي كانت تجريها روث - هل أثّرت سلباً على حياة الرضيع؟»
«بالعكس تماماً. أبقته في قيد الحياة ريثما نحاول التّدخّل الطبيّ».
«هل أسهمت في وفاة الرضيع؟»
«لا».

مالت كينيدي على حاجز مقصورة هيئة المحلّفين، وقالت: «هل من الإنصاف القول إنّه في غرفة الحضانة تلك، كان الجميع يحاولون إنقاذ حياة هذا الطفل؟»
«بالتأكيد».

«حتّى روث؟»

نظر الدكتور هاجر إليّ مباشرة، وقال: «نعم».

عُلّقت الجلسة بعد شهادة طبيب التخدير. غادر القاضي، وأُخرج المحلّفون من مقصورتهم. أخذتني كينيدي إلى غرفة اجتماعات يُفترض أن أمكث فيها كي أبقى بعيدة عن الصحافة ووسائل الإعلام.

أردتُ أن أتحدّثَ إلى إديسون. أردتُ أن أعانق أديسا، لكنني جلست إلى طاولة صغيرة في غرفة تضيئها أضواء النيون، وبدأت أحاول أن أفكك لعبة الشطرنج هذه في رأسي.

«هل تساءلت يوماً؟» سألت كينيدي، «ماذا يمكن أن تفعل لو لم تكوني محامية؟»

نظرت كينيدي إليّ، وقالت: «هل هذه طريقتك في القول إنَّ عملي سيئ؟»

«لا، إنِّي أفكّر فقط... في البدء من جديد.»

أزالت غلاف قطعة علكة ومررت لي بقية العلكة، وقالت: «لا تضحكي، لكنني كنت أريد أن أصبح طاهية معجّبات ذات يوم.»

«حقاً؟»

«درست في مدرسة الطهي لمدة ثلاثة أسابيع. لكنّ عجينة الفيلو تغلّبت عليّ في النهاية. لم يكن لديّ الصبر لأصنعها.»

لاحت ابتسامة على وجهي، وقلت: «عجيب!..»

«وماذا عنك؟» سألتني كينيدي.

نظرت إليها، وقلت: «لا أعرف. أردت أن أصبح ممرضة منذ أن كنت في الخامسة من عمري. أشعر أنني كبرت كثيراً لأبدأ من جديد. حتّى لو كان عليّ أن أفعل ذلك، فإني لا أعرف إلى أين سأذهب.»

فقال كينيدي: «هذه مشكلة أن تناديك مهنة محدّدة. إنَّها لا تدفع الإيجار فقط.»

تناديك. أل هذا السبب أزلت غطاء بطانية ديفيس باور عندما لم يعد يتنفس؟ قلت:

«كينيدي، هناك شيء...»

لكنّها قاطعتني وقالت: «يمكنك أن تعودني إلى الجامعة. احصلي على شهادة في الطبّ أو ادربي لتصبحي مساعدة طبيب، أو اعلمي مقدّمة رعاية طبيّة خاصّة».

لا يقول أحد منّا الحقيقة التي تضغط على الغرفة الصغيرة معنا: المجرمة المدانة لا تبدو جيّدة في سيرتها الذاتيّة.

لَمَّا رأت وجهي، لانّت عيناها، وقالت: «ستسير الأمور على ما يرام يا روث. توجد لديّ خطة كبرى».

«ماذا لو؟» قلت بهدوء، «ماذا لو لم تنجح الخطة الكبرى؟»

شدّت على فكّيها، وقالت: «بعدها سأبذل قصارى جهدي لأخفّف من فترة حكمك».

«هل سأذهب إلى السجن؟»

«في الوقت الحالي، وجّهت الولاية إليك تهماً عدّة. في أيّ وقت، إذا قرّرت أنّه لا يوجد لديها الدليل القاطع الذي يدعم تلك التهم، فقد يسقطون تهمة أكبر لصالح الإدانة بتهمة أقلّ. وإذا لم تتمكن من إثبات جريمة القتل، لكنّها تعتقد بأنّ جريمة قتل حدثت بسبب الإهمال، فقد تلعب أوديت اللعبة بأمان». التقت عيناها عينيّ، وأضافت: «إنّ الحدّ الأدنى لعقوبة جريمة القتل هو خمس وعشرون سنة، أمّا القتل بسبب الإهمال؟ فهو أقلّ من سنة. وكي أكون صادقة معك، سيواجهون صعوبة شديدة في إثبات النية. ستسير أوديت على أطراف أصابعها عندما تستجوب تورك باور وإلّا فإنّ هيئة المحلّفين ستكرهه».

«تقصدين بقدر ما أفعل أنا؟»

شحذت كينيدي عينيها وقالت تحدّرتني: «روث، لا أريد أن أسمعك تقولين هذه الكلمات بصوت عالٍ مرّة أخرى. هل تفهمين؟»

في لحظة، أدركت أن كينيدي ليست الشخص الوحيد التي تفكر في أن تخطو سبّ خطوات إلى الأمام، وكذلك أوديت، وإنما تريد أن تجعل هيئة المحلفين تكره تورك باور. تريدهم أن يشعروا بالغضب منه، بالاستياء، وبالقرع منه أخلاقياً. وبهذه الطريقة ستمكّن من إثبات الدافع.

كنت شديدة الإعجاب بالدكتورة أتكينز، طبيبة الأطفال، لكن بعد أن سمعتها تعدّد مؤهلاتها، وتورد سيرتها الذاتية، ازداد إعجابي بها. فهي واحدة من أولئك الأشخاص النادرين الذين حصلوا على جوائز وتشريفات أكثر ممّا تتوقّعه، لأنها امرأة في غاية التواضع بحيث لا تذكر ذلك بنفسها. وهي أيضاً أول شاهدة تجلس على منصّة الشهود وتنظر إليّ مباشرة وتبتسم لي قبل أن تحوّل انتباهها إلى المدّعية العامّة. قالت الدكتورة أتكينز: «كانت روث قد فحصت المولود الجديد، وشعرت بالقلق بوجود احتمال أن يكون مصاباً بنفخة قلبية».

سألته أوديت: «هل كان ذلك مصدر قلق كبير؟».

«لا. يولد أطفال كثيرون بقناة شريانية مفتوحة. ثقب صغير جداً في القلب، يُغلق عادة من تلقاء نفسه في السنة الأولى من الحياة. لكن، لمزيد من الأمان، حدّدت موعداً لاستشارة طبيب قلبية للأطفال قبل أن يخرج المريض من المستشفى».

علمت من كينيدي أن أوديت ستفترض أن المشكلة الطبية التي أشارت إليها كينيدي في مرافعتها الافتتاحية هي النفخة القلبية، فقلّلت من أهميتها لأجل هيئة المحلفين.

«دكتورة أتكينز، هل كنت تعملين يوم السبت، الثالث من تشرين الأول - يوم وفاة ديفيس باور؟»

«نعم. جنّت لختان المريض في الساعة التاسعة صباحاً».

«هل يمكنك أن تفسري لنا هذا الإجراء؟»

«طبعاً، إنها عملية بسيطة جداً تُزال فيها القلفة من قضيب الرضيع الذكر. تأخرت قليلاً لأنه كان لديّ مريض آخر في حالة طوارئ».

«هل كان هناك شخص آخر حاضراً؟»

«نعم، ممرضتان. كورين وروث. سألت روث إن كان المريض جاهزاً، فقالت إنها لم تعد الممرضة المشرفة عليه. وأكّدت كورين أنّ الرضيع جاهز للعملية، وأجريت ذلك من دون وقوع أيّ حادث».

«هل قالت لك روث شيئاً عن الختان؟»

صمتت الدكتورة أتكنز قليلاً، ثمّ قالت: «قالت ربّما يجب أن أعثمّ الطفل».

همس أحدهم خلفي في القاعة: قحبة.

«ماذا كان ردّك؟»

«لم أردّ. كان لديّ عمل أقوم به».

«كيف سارت العملية؟»

هزّت طبيبة الأطفال كتفيها وقالت: «بدأ يبكي بعد ذلك مثل جميع الأطفال. قمّطناه بشدّة، ثمّ غطّ في النوم»، ورفعت عينيها.

«لمّا غادرت، كان نائماً... حسناً... مثل طفل رضيع».

«الشاهدة لك»، قالت أوديت.

«دكتورة، لقد عملت في المستشفى لمدة ثماني سنوات، أليس كذلك؟» قالت لها كينيدي.

«نعم»، ضحكت قليلاً، «يا إلهي! الوقت يمضي بسرعة».

«في غضون ذلك الوقت، هل عملت مع روث من قبل؟»

فقالَت الدكُتورة أنكِينز: «في أحيان كثيرة، وبفرح كبير»، وأضافت، «إنها ممرضة رائعة، تبذل كل ما في وسعها لرعاية مرضاها».

«لَمَّا علَّقت روث بشأن تعقيم الرضيع، كيف فهمت ما قالته؟»

فقالَت الدكُتورة أنكِينز: «على سبيل المزاح. كنت أعرف أنها تمزح. روث ليست من النوع الذي يكون ليئماً مع المرضى».

«بعد ختان ديفيس باور، هل كنتِ لا تزالين تعملين في المستشفى؟»

«نعم، لكن في جناح آخر، في عيادة الأطفال».

«هل علمتِ بوجود حالة طارئة في غرفة الحضانة؟»

«نعم. نادت ماري الرمز. لَمَّا وصلت، كانت روث تضغط على صدره».

«هل كانت روث تفعل كل شيء وفاقاً لأعلى معايير الرعاية؟»

«بقدر ما رأيت، نعم».

«هل أشارت إلى وجود أيّ عداء أو تحيز ضدّ هذا الطفل؟» سألتها كينيدي.

«لا».

ثمّ قالت لها كينيدي: «أودُ أن أعود إلى الوراثة قليلاً. هل طلبتِ أيّ تحليل لدم ديفيس باور بعد ولادته؟»

«نعم، فحص حديثي الولادة الذي تجريه ولاية كونيتيكت».

«أين يذهب تحليل الدم؟»

«يقوم مختبر الولاية في روكي هيل بفحصه. لا نجريه في مختبرنا».

«كيف يُرسل إلى مختبر الولاية؟»

فقالَت الدكُتورة أنكِينز: «بوساطة مراسل».

«متى أخذ دم ديفيس باور للفحص؟»

«في الساعة الثانية والنصف مساء يوم الجمعة، الثاني من تشرين الأول».

«هل تلقّيت نتائج اختبار فحص المولود من مختبر ولاية كونيتيكت؟»
تجهّم وجه الدكتورة أتكينز، وفكّرت في الأمر، ثمّ قالت: «في الواقع، لا أتذكّر أنّي رأيتها. لكن، بالطبع، كانت تلك نقطة جدال في ذلك الوقت.»

«ما الغرض من إجراء الاختبار؟»

أوردت الدكتورة أتكينز سلسلة من الأمراض النادرة، بعضها ناجم عن طفرة جينية، وبعضها ناجم عن عدم وجود إنزيمات أو بروتينات كافية في الجسم، وبعضها الآخر ناجم عن عدم القدرة على تكسير الإنزيمات أو البروتينات، وقالت: «لم يسمع معظمكم عن هذه الحالات من قبل، لأنّ معظم الأطفال لا يعانون منها، أمّا الأطفال الذين يعانون منها - حسناً، يمكن علاج بعض الاضطرابات إذا اكتشفت في وقت مبكر، إذا وفّرنا سبلاً كالنظام الغذائيّ أو الأدوية أو العلاج بالهرمونات، يصبح بإمكاننا في أحيان كثيرة أن نمنع حدوث تأخيرات كبيرة في النموّ وضعف الإدراك من خلال بدء العلاج على الفور.»

«هل أيّ من هذه الحالات مميتة؟»

«بعضها، إذا تُركت من دون علاج.»

«لم تتح لك فرصة الاطلاع على نتائج هذا الاختبار عندما أصيب ديفيس باور بنوبة قلبية، أليس كذلك؟» سألتها كينيدي.

«لا، لأنّ مختبر الولاية يغلق في عطلة نهاية الأسبوع. عادة لا نحصل على النتائج التي نرسلها يوم الجمعة حتّى يوم الثلاثاء.»

فألت كينيدي: «إنّ ما تقولينه هو أنّ الاختبار يستغرق ضعف الوقت تقريباً للحصول على نتائج له إذا كان من سوء حظّ الطفل أنّه ولد في نهاية أيام أسبوع العمل.»

«هذا صحيح، لسوء الحظ.»

رأيت المحلّفين يدوّنون ملاحظات، ويستمعون باهتمام. تحرك إديسون خلفها في مقعده. ربّما كانت كينيدي على حقّ. ربّما كلّ ما يحتاجون إليه هو العلم.

سألته كينيدي: «هل لديك اطلاع على اضطراب يدعى «نقص نازعة هيدروجين الأسيل - الإنزيم المشترك A متوسط السلسلة» (MCADD)؟».

«نعم. إنّه اضطراب أكسدة الأحماض الدهنيّة. في الأساس، يواجه الرضيع المصاب به صعوبة في تكسير الدهون، وهذا يعني انخفاض نسبة السكر في الدّم إلى مستويات متدنية على نحو خطر. يمكن معالجته إذا اكتُشف في وقت مبكر باتباع نظام غذائيّ دقيق، ورعاية متكرّرة».

لنفترض أنّه لم يُكتشف. ماذا يحدث؟»

«حسناً، يتعرّض الأطفال المصابون بهذا الاضطراب إلى خطر الوفاة إلى درجة كبيرة في أثناء النوبة السريريّة الأولى بسبب نقص السكر في الدم - عندما يذهب سكر الدم جنوباً».

«كيف ذلك؟»

«يتتابهم نعاس شديد، ويكونون ثقيلي الحركة، بليدين، عصبيين، ولا يرضعون جيّداً».

«لنفترض أنّ طفلاً لم يُشخّص بأنّه مصاب بهذا الاضطراب، ولم يُعالج وسيُختن. هل يمكن أن يؤدّي ذلك إلى تفاقم حالته؟»

هرّت الطبيبة رأسها، وقالت: «يكون هناك عادة صيام بعد الساعة السادسة صباحاً لأجل الجراحة التي ستجري لاحقاً. أمّا بالنسبة إلى الطفل المصاب بهذا الاضطراب، فإنّ ذلك يؤدّي إلى انخفاض نسبة السكر في الدّم - حلقة محتملة من نقص السكر في الدّم. وبدلاً من ذلك، يعطى الطفل 10 في المئة من سكر العنب قبل الختان وبعده».

«لقد سحبت الدّم من ديفيس باور في أثناء إعلان الرمز، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل يمكنك إخبار هيئة المحلفين عن نتائج السكر في دمه في ذلك الوقت؟»

«عشرون.»

«عند أي مستوى يُعدُّ المولود الجديد مصاباً بنقص السكر في الدم؟»

«أربعون.»

«إذًا، كان سكر الدم عند ديفيس باور منخفضاً إلى درجة خطيرة؟»

«نعم.»

«هل يكفي أن يصاب الطفل المصاب بهذا الاضطراب، الذي لم يُعالج، ولم يُشخص،

بفشل في التنفُّس؟»

«لا يمكنني أن أوكد ذلك، لكن ذلك ممكن.»

رفعت كينيدي ملفها وقالت: «أودُّ أن أدرج هذه بحسبانها الوثيقة رقم 42»،

وأضافت، «إنها نتيجة اختبار ديفيس باور الذي طلبه الدفاع.»

نهضت أوديت واقفة مثل طليقة، وقالت: «حاضرة القاضي، ما هذه الحيلة؟ لم يُبلغ

الدفاع الادعاء ب...»

فأجابتها كينيدي: «لأنني تلقيت النتائج منذ بضعة أيام فقط. كانت مخفية من

وقائع القضية منذ أشهر عدَّة، وهذا يجعلني أدعي بأن ذلك بهدف إعاقة سير

العدالة...»

«اقتربا»، دعا القاضي كلتا المحاميتين إلى أن تقتربا من منصَّته. سُغِّل الجهاز كي لا

أهمَّكن من سماع ما يقولونه، وكذلك هيئة المحلفين. لَمَّا أنهوا مداولتهم، بعد كثير من

التلويح باليد واحمرار وجه كينيدي، أُعطيت الوثيقة للكاتب ليضمَّها كدليل إثبات.

سألته كينيدي: «دكتورة أنكينز، هل يمكنك أن تحدِّثينا عمَّا تريه؟»

فقال طبيبة الأطفال وهي تدقق في الصفحات: «إنَّها نتيجة اختبار فحص الطفل حديث الولادة»، ثمَّ توقَّفت، وقالت: «يا إلهي!».

«هل هناك اهتمام خاص بالنتائج يا دكتورة أتكينز؟ النتائج التي لم تظهر لأنَّ مختبر الولاية كان مغلقاً طوال عطلة نهاية الأسبوع؟ لم يتمَّ الحصول على النتائج إلاَّ بعد وفاة ديفيس باور؟»

رفعت الطبيبة عينها وقالت: «نعم. تبين أنَّ ديفيس باور مصاب بذلك الاضطراب الأيضي».

شعرت كينيدي بالزهو عندما انتهت المحكمة في اليوم الأول. راحت تتحدَّث بسرعة، كما لو أنَّها تناولت أربعة أكواب قهوة كبيرة، وبدا أنَّه تملَّكها شعور بأنَّنا ربنا القضية، مع أنَّ الادعاء كان قد بدأ تَوَّأ، ولم يبدأ الدفاع بعد، وقالت لي إنَّني يجب أن أشرب كأساً كبيرة من النبيذ هذا المساء لنحتفل بيوم الشهادة الرائع هذا، لكن صدقاً، كان كلُّ ما أردت أن أفعله هو أن أعود إلى المنزل وأزحف إلى السرير.

كان رأسي يؤلمني بصور ديفيس باور، والنظرة على وجه الدكتورة أتكينز عندما أدركت ما الذي تورده نتائج الاختبار. صحيح أنَّ كينيدي أطلعتني عليها قبل ليلتين، لكن ذلك كان أشدَّ تدميراً؛ أن ترى شخصاً آخرَ من المستشفى - شخصاً أحبَّه وأثق به - قلت في نفسي، لو أنَّ ذلك يعيدني إلى توازني قليلاً.

نعم، هذه محاكمة ضدي.

نعم، لقد أدت بشيء لم يكن ينبغي أن أدا به. لكن، في نهاية الأمر، هناك طفل ميت. هناك أم لم تعد تستطيع أن تراه وهو يكبر. قد أحصل على البراءة، وقد أصبح ضوياً ساطعاً لرسالة والاس ميرسي، وقد يكون في وسعي أن أرفع دعوى في محكمة مدنيَّة وأحصل على تعويضات ومبلغ يهدئ أعصابي بشأن رسوم جامعة إديسون - ومع ذلك فإنِّي أعرف أنَّ أحداً لن يربح هذه القضية.

لأنك لا تستطيعين أن تمحي الخسائر المأساوية الهائلة لروح لا تزال في بدايتها.
هذا ما كان يدور في رأسي وأنا أنتظر ريثما تفرغ القاعة بالكامل، ونستطيع أنا
وإديسون أن نعود إلى المنزل دون أن نجذب الانتباه إلينا. كان ينتظرني على مقعد
خارج غرفة الاجتماعات. سألته: «أين خالتك؟»

هزّ كتفيه، وقال: «قالت إنَّها تريد أن تعود إلى المنزل قبل أن يبدأ هطول الثلج».
ألقيت نظرة من النافذة، ورأيت ندف الثلج تتساقط. أصبحت أكثر انكفاء على
نفسي إلى درجة أنني لم ألاحظ أنَّ العاصفة قد بدأت. «دعني أذهب إلى دورة المياه»،
قلت لإديسون، وسرت في الممرَّ الفارغ.

دخلت المقصورة وأفرغت مئانتني، ولمَّا خرجت لأغسل يديَّ، رأيت أوديت لوتون
واقفة أمام المغسلة. نظرت إليَّ في المرأة، ووضعت الغطاء على قلم أحمر الشفاه،
وقالت: «لقد حظيت محاميتك بيوم جيّد».

لم أعرف كيف أجيبها، فتركت الماء الساخن ينساب على رسغي.
«لكن، لو كنت في مكانك، لما شعرت بالاطمئنان. قد تتمكّنين من إقناع كينيدي
ماكوارى بأنك كلارا بارتون، لكنني أعرف بمَ كنت تفكّرين عندما وضعت ذلك العنصري
في مكانك. ولم تكن أفكاراً شافية».

هذا كثير جداً. ثمّة شيء بدأ يغلي داخلي، نبع ماء حارّ، إدراك. أغلقت صنوبر الماء
وجفّفت يديَّ، والتفتُ إليها، وقلت: «كما تعرفين، أمضيت حياتي وأنا أفعل كلّ شيء
على نحو صحيح. اجتهدت في دراستي، وابتسمت كثيراً، ولعبت وفاقاً للقواعد حتّى
تمكّنت من الوصول إلى ما وصلت إليه، وأعرف أنّك فعلت ذلك أيضاً. لذلك، يصعب
عليّ حقاً أن أفهم لماذا تبذل امرأة أمريكية من أصل أفريقيّ ذكيّة ومهنيّة جهدها
لتوقع امرأة ذكيّة ومهنيّة أمريكية من أصل أفريقيّ، أخرى!».

لمحتُ وميضاً في عيني أوديت، مثل نَفْسٍ في لهيب نار. لكنّه اختفى بسرعة، وحلّت محله نظرة فولاذيّة، وقالت: «لا علاقة لهذا بلون البشرة. إنّي أودّي عملي فقط».

ألقيتُ المنشفة الورقيّة في سلّة المهملات، ووضعت يدي على مقبض الباب، وقلت: «ألسّتِ محظوظة؟ ألم يخبرك أحد بذلك».

في تلك الليلة، لَمّا كنت جالسة إلى طاولة المطبخ، سارحة في أفكار، أحضر لي إديسون كوباً من الشاي. «لماذا هذا يا حبيبي؟» سألته مبتسمة.

فقال: «ظننت أنّك تحتاجين إليه. يبدو أنّك متعبة».

«نعم»، اعترفت، «إنّي متعبة جداً».

نعرف كلانا أنّني لم أكن أتحدّث عن أول يومين من الإدلاء بالشهادة أيضاً.

جلس إديسون إلى جانبي، وضغطت على يده، وقلت له: «إنّك مرهق، أليس كذلك؟ إنّك تحاول أن تثبت أنّك أفضل ممّا يتوقّعون منك؟»

هزّ رأسه، وعرفت أنّه يفهم قصدي، ثمّ قال: «تختلف المحكمة عمّا كنت أظنّ، عمّا شاهدته في التلفاز».

قلت: «أطول»، وقال في الوقت نفسه، «مملّة».

ضحكنا كلانا.

«تحدّثت قليلاً مع الشابّ هوارد في أثناء إحدى فترات الاستراحة»، قال إديسون، «إنّ عمله رائع، وكينيدي كذلك. الفكرة أنّه يحقّ أن يكون لكلّ شخص محام جيّد، حتّى لو لم يكن في استطاعته أن يدفع أجور المحامي»، ثمّ نظر إليّ، وقد كلّلت ملامحه السؤال: «هل تظنّين أنّي سأكون محامياً جيّداً، يا ماما؟»

«حسناً، أنت أذكي منّي، والله يعلم أنّك تعرف كيف تجادل»، ثمّ أضفت، «لكنّك ستكون نجماً في كلّ ما تختار فعله».

فقال: «إنَّه أمر مضحك أن أريد فعل ما يفعلونه - العمل مع أشخاص لا يستطيعون دفع تكاليف تمثيلهم قانونياً. لكنَّ الأمر كلُّه يبدو كما لو أنَّ حياتي كلُّها قد هيأتني لأكون في الطرف الآخر، بدلاً من ذلك - الادِّعاء».

«ماذا تقصد؟»

هزَّ إديسون كتفيه وقال: «تحمَّل الولاية عبء الإثبات. إنَّه يشبه ما نفعله كلُّ يوم».

* * *

في تلك الليلة، هطل الثلج بغزارة وبسرعة، ولم تستطع الجرافات إزالته كاملاً، فاكتمتِ العالم حلَّة بيضاء. انتعلتُ حذائي الشتويّ، وارتديت التنورة نفسها التي ارتديتها طوال الأسبوع. كنتُ أغيّر البلوزة فقط. أعلن المذيع خبر إغلاق المدارس، وتعلّمت الحافلة التي نستقلُّها، أنا وإديسون، فاضطررنا إلى أن نأخذ خطأً مختلفاً. كانت النتيجة أننا وصلنا إلى قاعة المحكمة متأخّرين خمس دقائق. أرسلتُ رسالة نصيَّة إلى كينيدي، وكنتُ أعرف أننا لا نستطيع أن نتسلَّل من الباب الخلفي، فاستقبلتنا كينيدي على درج المحكمة حيث دُفعت الميكروفونات في وجهي على الفور، ونعتني الناس بالقاتلة. لفَّ إديسون ذراعيه حولي فاستندت إلى صدره، وشكَّلتُ حاجزاً حولي.

«سنكون محظوظين لو علقت سيارَةَ القاضي ثاندر في الثلج اليوم»، تمتمت قائلة.

«كانت المواصلات العامَّة...»

«لا يهمني. يجب ألا تعطي المحكمة أسباباً إضافيَّة كي تتركهك».

هرعنا إلى قاعة المحكمة حيث كانت أوديت جالسة بهدوء إلى طاولة النيابة، وبدا كما لو أنَّها وصلت منذ السادسة صباحاً. ثمَّ دخل القاضي ثاندر، منحنيّاً عند الخصر، ونهضنا جميعاً. قال: «صدم سيَّارتي أحرق من

الخلف وأنا في طريقي إلى المحكمة، لذلك فإنَّ ظهري يؤلمني»، وأضاف، «أعتذر على التأخير».

«هل أنت بخير يا حضرة القاضي؟» سألته كينيدي، «هل تريد أن نطلب طبيباً؟»
«بقدر ما أقدر إبداء تعاطفك، يا سيّدة ماكواري، أتخيّل أنّك كنت تفضّلين أن أكون عاجزاً في مكان ما في المستشفى. السيّدة لوتون، استدعي شاهدك قبل أن أتخلّى عن هذه الشجاعة القضائيّة وأتناول حبة فيكودين».

كان الشاهد الأول للنيابة العامّة اليوم المحقّق الذي استجوبني بعد اعتقاله.
بعد أن سألته عن اسمه وعنوانه، قالت أوديت: «المحقّق ماكدوغال أين تعمل؟»
«في بلدة إيست إند، كونيتيكت».

«كيف شاركت في القضية التي نحن في صدها اليوم؟»

مال إلى الخلف. بدا أنّه يفيض خارج الكرسيّ ويملاً منصّة الشهود كلّها، وقال:
«تلقيت مكالمة من السيّد باور، وطلبت منه أن يأتي إلى مركز الشرطة لأسجّل شكواه.
كان منفعلاً جداً حينذاك. كان يعتقد أنّ الممرضة التي كانت تقوم على رعاية ابنه
أحجمت عن رعايته عمداً ما أدّى إلى وفاته. استجوبت الطاقم الطبيّ المعنيّ بالقضيّة،
وأجريت لقاءات عدّة مع الطبيب الشرعيّ... ومعك يا سيّدي».

«هل استجوبت المدّعى عليها؟»

«نعم. بعد أن حصلت على مذكرة توقيف، ذهبنا إلى منزل السيّدة جيفرسون
وطرفنا الباب - بصوت عالٍ لكنّها لم تفتح الباب».

في تلك اللحظة، كدت أنهض من على مقعدي، فوضع هوارد وكيينيدي يديهما على كتفي لأبقى جالسة. كان ذلك في الساعة الثالثة صباحاً، ولم يقرعوا الباب، وإمّما راحوا يخبطون بقوة حتّى كُسرت عصابة الباب، وأمسكوني تحت تهديد السلاح. ملتُ نحو كيينيدي، وقد انتفخت ففتحنا أنفي، وهمست لها: «هذه كذبة. إنّه يكذب»، فقالت: «شش».

«ما الذي حدث بعد ذلك؟» سألتها المدّعية العامّة.

«لم يفتح أحد الباب».

شدّت كيينيدي يدها على كتفي بقوة أكثر.

«خشينا أن تهرب من الباب الخلفي، فطلبت إلى زملائي استخدام المطرقة لكسر الباب، ودهم البيت».

«هل دخلتم واعتقلتم السيّدة جيفرسون؟»

فقال المحقّق: «نعم. لكن في البداية رأينا شيئاً كبيراً أسود...».

قلت تحت أنفاسي: «لا»، فلكرني هوارد من تحت الطاولة. «... ما تبيّنناه فيما بعد أنّه ابن السيّدة جيفرسون. كنّا معنيين أيضاً بسلامة الضابط، ففتشنا غرفة النوم، في حين قيّدنا يدي السيّدة جيفرسون».

ألقوا قطع الأثاث في أنحاء الغرفة. كسروا صحنوني، ونزعوا ثيابي من المشاجب، ورموها على الأرض، ثمّ هاجموا ابني.

تابع المحقّق ماكدوغال قائلاً: «أبلغتها بحقوقها، وقرأت عليها التهم الموجهة إليها».

«كيف كانت ردّة فعلها؟»

تجهّم وجهه، وقال: «لم تكن متعاونة».

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«أحضرناها إلى مركز شرطة إيست إند، وأخذنا بصمات أصابعها وصورناها ووضعتها في زنزانة. ثم جلبتها أنا وزميلتي، المحققة ليونغ، إلى غرفة التحقيق، وأبلغتها مرة أخرى أنه يحق لها أن يكون محاميها معها، وألا تقول شيئاً، وأنها إذا ما أرادت أن تتوقف عن الإجابة عن الأسئلة في أي وقت، فلها الحرية في ذلك، وقلنا لها إن ردودها قد تُستخدم في المحكمة، ثم سألتها إن كانت قد فهمت كل ما قلناه لها، ووقعت بالأحرف الأولى من اسمها على كل فقرة قالت إنها فهمتها».

«هل طلبت المدعى عليها محامياً؟»

«ليس في ذلك الوقت. كانت على استعداد تام لأن تحكي قصتها من وجهة نظرها. أكدت أنها لم تلمس الرضيع حتى بدأ يضيق تنفسه. واعترفت أيضاً أنها والسيد باور لم - كيف قالت ذلك؟ - ينظر أحدهما في وجه الآخر».

«ثم ماذا حدث؟»

«حسناً، أردنا أن نعلمها بأننا كنا نبحث عنها. قلنا لها إن ذلك مجرد حادث، أخبرينا فقط، ويمكننا أن نسوي الأمر مع القاضي، ويمكننا أن نصحح الفوضى التي حدثت، ويمكننا أن تواصل تربية ابنها. لكنّها صمتت وقالت إنها لم تعد تريد أن تقول شيئاً. هرّ كتفيه، وأضاف: «أظنُّ أنه لم يكن حادثاً».

«اعتراض»، قالت كينيدي.

أجفل القاضي ثاندر، محاولاً أن يستدير نحو مراسل المحكمة، وقال: «الاعتراض مقبول. اشطب آخر تعليق للشاهد من السجل».

لكنّها معلقة في الفراغ بينما، مثل وهج لافتة مضاءة بالنيون بعد سحب القابس. شعرت بضغط سلبّي على كتفي، وأدركت أنّ كينيدي قد رفعت يدها عن كتفي، ووقفت أمام المحقّق، وسألته: «هل كان لديك أمرٌ قضائيٌّ؟»

«نعم».

«هل أتصلت بروث وأخبرتها أنك ستأتي؟ وهل طلبت إليها أن تأتي معك طوعاً إلى مركز الشرطة؟»

فقال ماكودغال: «لا نفعل ذلك في الأوامر القضائية المتعلقة بجرائم القتل».

«متى صدر أمر التوقيف؟»

«الساعة الخامسة مساءً، أو قرابة ذلك».

«وفي أي وقت وصلت فعلاً إلى منزل روث؟»

«نحو الساعة الثالثة صباحاً».

نظرت كينيدي إلى هيئة المحلفين كما لو أنها تريد أن تقول: هل يمكنكم أن تصدّقوا ذلك؟ ثمّ سألته: «وهل كان هناك سبب محدّد للتأخير؟»

«كان ذلك مقصوداً تماماً. فأحد مبادئ إنفاذ القانون الذهاب في الوقت الذي لا يتوقّع شخص مجيئك فيه. وهذا ينزع سلاح المشتبه به، ويدفع العملية قدماً».

«إذاً، لمّا قرعت باب منزل روث، ولم ترحّب بك على الفور بقطعة كيك وقهوة وعناق كبير، هل من الممكن أن يكون سبب ذلك لأنّها كانت تغطّي في النوم عند الساعة الثالثة صباحاً؟»

«لا أستطيع أن أتحدّث عن عادات نوم المتهم».

«التفتيش العشوائيّ الذي أجرته... في الواقع، ألم تُفرغ الأدراج والخزائن وتحطّم الأثاث وتدمّر منزل السيّدة جيفرسون وهي مقيّدة اليدين غير قادرة على الوصول إلى أيّ سلاح؟»

«لا تعرفين متى يكون السلاح في متناول الشخص يا سيدي».

«أليس صحيحاً أيضاً أنك ألقيت بابنها أرضاً ووضعت ذراعيه خلف ظهره لإخضاعه؟»

«هذا إجراء عاديّ لأجل سلامة رجال الشرطة. لم نكن نعرف أنه ابن السيّدة جيفرسون. رأينا شاباً أسود ضخماً وغاضباً. من الواضح أنّه كان منزعجاً.»
«حقاً؟» قالت كينيدي، «ألم يكن يضع قلنسوة أيضاً؟»

شطب القاضي ثاندر هذا التعليق من السجلّ، ولمّا جلست كينيدي، بدا أنّها فوجئت من حدّة غضبها مثلي. تمتت: «أسفة. كانت زلّة لسان». لكنّ القاضي بدا غاضباً، وطلب المحامية إلى اجتماع جانبيّ. شُغلت آلة الضوضاء مرّة أخرى حتّى لا أسمع ما يقوله، لكن من امتقاع لون وجهه، وغضبه وهو يكلم محاميتي، عرفت أنّه لم يطلبها ليمتدحها ويثني عليها.

«لهذا السبب»، قالت لي كينيدي، وقد شحب لونها عندما عادت، «يجب ألاّ تثيري مسألة العرق في المحكمة».

قرّر القاضي ثاندر رفع الجلسة بسبب ألم ظهره.

بسبب الثلج، استغرقت عودتنا إلى المنزل فترة أطول. لمّا انعطفنا، أنا وإديسون، عند ناصية حيّنا، شعرنا بالبلل والإرهاق. كان هناك رجل يحاول أن يخرج سيّارته العالقة في الثلج بيديه المغلّفتين بقفّازين، وصيّان يلقي أحدهما كرات الثلج على الآخر، وقد أصابت إحداها ظهر إديسون.

كانت هناك سيّارة مركونة أمام منزلنا، سيّارة ليموزين سوداء داخلها سائق، وهو شيء لا تراه كثيراً هنا. لمّا اقتربت من السيّارة، فُتح الباب الخلفيّ وترجّلت امرأة في سترة تزّجّ وحذاء طويل من الفرو دُفنت تحت طبقة من الصوف - قُبعة ووشاح. استغرقت بعض الوقت لأدرك أنّها كريستينا.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألتها، وقد فوجئت عندما رأيتهما. لم تأتِ كريستينا لزيارتي في منزلي طوال السنوات التي أمضيتها في إيست إند، ولم أَدْعُها لزيارتي أيضاً طوال تلك السنوات.

لم يكن ذلك لأنني أخجل من منزلي، فأنا أحبّ المكان الذي أعيش فيه والطريقة التي أعيش فيها. وإيما لم أكن أتصوّر أنني أستطيع أن أتحمّل الطريقة المبالغ فيها، التي تعبرّ فيها عن روعة المنزل، وكم أنّه مريح، وكيف أبدو.

قالت: «كنت في المحكمة في اليومين الماضيين». صُدِمت. فقد مسحتُ بعينيّ قاعة المحكمة، ولم أَرها، من الصعب ألا أرى كريستينا إذا كانت موجودة.

لَمَّا خلعت معطفها، كشفت عن قميص من الفانيليا وبنطلون جينز فضفاض، أبعد ما يكون عن الأزياء الراقية التي ترتديها عادة، وقالت بابتسامة خجول: «ارتديت هذه الثياب كي لا يعرفني أحد». ثمّ نظرت من فوق كتفي إلى إديسون، وقالت: «إديسون، يا بني. يا إلهي! لم أرك منذ أن كنت أقصر قامّة من أمك...»

ارتعشت ذقنه، ترحيب محرج.

قلت له: «إديسون، لماذا لا تدخل البيت؟» وعندما ذهب، نظرتُ في عيني كريستينا، وقلت: «لا أفهم. ماذا لو اكتشفت الصحافة أنّك هنا؟...»

فقالت بحزم: «عندها سأقول لهم أن يذهبوا إلى الجحيم. ليذهب الكونغرس إلى الجحيم. قلت للاري إنني سآتي، وإنّ هذا أمر غير قابل للجدال، وإذا ما سألني أحد من الصحافة، فسأقول له الحقيقة: إنّنا صديقتان منذ زمن بعيد». «

سألتها مرّة أخرى: «كريستينا، ماذا تفعلين هنا؟»

كان بإمكانها أن ترسل إليّ رسالة نصيئة. كان بإمكانها أن تتصل بي بالهاتف. كان بإمكانها ببساطة أن تجلس في قاعة المحكمة لترفع من معنوياتي. لكنّها بدلاً من ذلك، كانت تنتظرني أمام باب منزلي، لا يعرف إلا الله منذ متى.

«أنا صديقتك»، قالت بهدوء، «صدّقي أو لا تصدّقي يا روث، هذا ما يفعله الأصدقاء». نظرت إليّ، ورأيت الدموع تترقق في عينيها: «إنّ ما قالوا إنّهُ حدث لك - اقتحام الشرطة المنزل، والأصفاة، والطريقة التي هاجموا بها إديسون. لم أتخيّل قطّ...» تلعثمت، ثمّ جمعت أعشاب أفكارها، وقدمت لي باقة أكثر حزناً وصدقاً، «لم أكن أعرف».

«ولماذا يجب أن تعرفي؟» أجبتها - لم أكن غاضبة، ولم تُجرح مشاعري، وإمّا أقول الحقيقة، «لن تضطّري إلى ذلك أبداً».

جفّفت كريستينا دموعها، وقد لطّخت المسكرا عينيها، وقالت: «لا أعرف إن كنت قد حكيت لك هذه القصّة من قبل. الأمر يتعلّق بوالدتك. حدث ذلك منذ زمن عندما كنتُ في الجامعة. كنت عائدة إلى المنزل بسيّارتي من فاسار لأمضي عطلة عيد الشكر، وكان يقف على جانب الطريق تاكونيك باركواي، رجل يريد توصيلة. كان رجلاً أسود يمشي على عكازين، فتوقّفت وسألته إن كان في حاجة إلى توصيلة. أوصلته إلى محطة «بنسلفانيا» ليستقلّ القطار ليزور أسرته في واشنطن العاصمة». شدّت معطفها بإحكام حولها، وأضافت: «لَمّا عدت إلى المنزل، دخلت أمك غرفتي لتساعدني في إفراغ حقائبي، حكيت لها ما فعلته. ظننت أنّها ستفتخر بي لأنني ساعدته، لكنّها استشاطت غضباً يا روث. أقسم إنني لم أرها غاضبة هكذا من قبل. أمسكتني من ذراعي وراحت تهزّني. حتّى إنّها لم تستطع أن تتكلّم في البداية، ثمّ قالت لي: «لا تفعل ذلك مرّة أخرى». صدمت، ووعدها ألاّ أفعل ذلك». نظرت كريستينا إليّ، وأضافت: «جلستُ

اليوم في قاعة المحكمة، واستمعت إلى حديث المحقق كيف أنه حطّم باب منزلك في منتصف الليل، وألفاك أرضاً، واحتجز إديسون، فتردّد صدى صوت أمك في أذني بعد أن حكيت لها عن ذلك الشخص الأسود. كنت أعرف أنّ سبب ردّة فعلها هكذا لأنها كانت خائفة عليّ. لكن، طوال هذه السنوات، كنت أظنّ أنها كانت تحاول الحفاظ على سلامتي، لكنني عرفت الآن أنها كانت تحاول أن تحمي ذاك الرجل».

أدركت أنني كنت أظنّ منذ سنوات أنّ كريستينا تعدّني شخصاً من ماضيها يجب التسامح معه، شخصاً سيئ الحظّ تجب مساعدته. لمّا كُنّا فتاتين صغيرتين، كنت أشعر أنّنا متساويتان، لكن مع تقدّمنا في العمر، لمّا أصبحنا نعي أكثر الأشياء المختلفة بيننا، بدلاً من الأشياء المتشابهة بيننا، بدأت أشعر بحاجز يفصل إحدانا عن الأخرى. وبدأت أنتقدّها سرّاً لأنها تصدر أحكاماً عني وعن حياتي من دون أن تسألني مباشرة. كانت هي البطلة، وأنا التابعة في قصّتها، لكنني نسيت أن أذكر نفسي بأنني أنا التي أعطيتها هذا الدور. كنت ألوّم كريستينا لأنها أقامت ذلك الجدار غير المرئيّ فيما بيننا من دون أن أعترف بأنني أضفت بعض اللبّات إلى هذا الجدار.

«تركت النقود تحت البساط أمام باب البيت»، قلت.

فقالَت كريستينا: «أعرف. كان ينبغي لي أن ألصقها بغراء قويّ في راحة يدك». ثمّة قدم من الفراغ وعالم من التباين بيني وبين كريستينا. لكن، أعرف أيضاً مدى صعوبة إزالة قشرة حياتنا والنظر إلى الواقع. يبدو الأمر كما لو أنّك تستيقظين في غرفة وتغادرين السرير وترين أنّه قد أُعيد ترتيب قطع الأثاث بأكملها، وسينتهي بك الأمر إلى أن تخرجي، لكنّ ذلك سيكون بطيئاً، وستصابين ببعض الكدمات وأنّ في طريقك إلى الخارج.

مددت يدي وضغطت على يد كريستينا، وقلت لها: «تفضّلي».

كان اليوم التالي بارداً، والسماء صافية. جعلت ذكرى العاصفة الثلجية، التي هبتت
البارحة، الطرق مقفرة، وأبقت درجات الحرارة المنخفضة جموع الناس بعيدين عن
الدرجات الأمامية لمبنى المحكمة. حتى القاضي ثاندر بدا مستقراً، وأصبح هادئاً إماً من
الحبوب المسكنة التي تناولها لعلاج آلام ظهره وإماً لأننا اقتربنا من نهاية إدلاء شهود
الادعاء بشهاداتهم. اليوم، كان الطبيب الشرعي أول شاهد دُعي للإدلاء بشهادته،
الدكتور بيل بيني، الذي درس على يد هنري لي الشهير. كان أصغر سنّاً ممّا تخيلته،
يداه الرهيفتان تتحرّكان في أثناء إجابته، مثل طيور مُدرّبة تقبع في حجره، قسامته
تشبه قسامات نجم سينمائي، فراحت السيّدات في هيئة المحلّفين ينصتن باهتمام إلى
ردوده، حتى لو كانت مجرد سلسلة ممّلة من سرد جميع الإنجازات في سيرته الذاتية.
«متى سمعت أول مرّة عن ديفيس باور يا دكتور؟» سألته المدّعية العامة.

«تلقي مكتبي رسالة هاتفية من كورين ماكفوي، الممرضة في مستشفى الرحمة -
ويست هافن.»

«هل استجبت؟»

«نعم. بعد وصول جثة الرضيع، شرّحنا الجثة.»

«هل يمكنك أن تخبر المحكمة ماذا يعني ذلك؟»

«بالتأكيد»، قال والتفت نحو المحلّفين، «أجري فحصاً خارجياً وآخر داخلياً. في أثناء
الفحص الخارجي، أبحث في الجسد عن كدمات، وأرى إن كانت هناك أيّ علامات، ثمّ
أخذ قياسات للجسم ومحيط الرأس، وأصوّر الجسد. وأخذ عينات من الدّم والصفراء.
ولإجراء الفحص الداخلي، أحدث شقّاً في الصدر في شكل حرف Y، وأسحب الجلد إلى
الخلف، وأفحص الرئتين والقلب والكبد بالإضافة إلى الأعضاء الأخرى، وأناكد إن كان
هناك تمزّق أو تشوهات جسيمة، ثمّ نزن الأعضاء، ونقيسها، ونأخذ عينات من

الأنسجة، ثم نرسل تلك العينات إلى قسم السموم وننتظر النتائج حتى نتوصل إلى نتيجة معقولة وواقعية عن سبب الوفاة».

«ما النتائج التي توصلت إليها في أثناء تشريح الجثة؟» سألته أوديت.

«كان الكبد متضخماً قليلاً، وكان هناك تضخم طفيف في القلب والقناة الشريانية من الدرجة الأولى، لكن لم تكن هناك عيوب خلقية أخرى - لم تكن هناك عيوب في الصمامات».

«ماذا يعني ذلك؟»

«كان العضو كبيراً بعض الشيء، وكان هناك ثقب صغير في القلب. لكن لم تكن هناك مشكلة في الأوعية ولم تكن هناك عيوب في الحجاب الحاجز».

«هل تشير أي من هذه النتائج إلى سبب الوفاة؟»

فقال الطبيب الشرعي: «ليس حقاً، لكن يوجد سبب وجيه لها. وفاقاً لسجلات المريضة الطبية، كانت الأم مصابة بسكري الحمل في أثناء الحمل».

«ماذا يعني ذلك؟»

«حالة تؤدي إلى ارتفاع نسبة السكر في الدم لدى الأم في أثناء الحمل. لسوء الحظ، فإن لارتفاع نسبة السكر في الدم لدى الأمهات تأثيراً في أطفالهن أيضاً».

«كيف ذلك؟»

«غالباً ما يكون الأطفال الذين يولدون لأمهات مصابات بداء السكري أكبر حجماً من الأطفال الآخرين. فقد تتضخم أكبادهم وقلوبهم وغددهم الكظرية. غالباً ما يعاني هؤلاء الأطفال من نقص السكر في الدم بعد الولادة بسبب ارتفاع مستويات الأنسولين في الدم. مرة أخرى، بناء على السجلات الطبية التي درستها، أظهر اختبار ما بعد الولادة للمريضة

انخفاض نسبة السكر في الدم. جميع نتائج تشريح الجثة وانخفاض نسبة السكر في الدم تتماشى مع رضيع ولد لأم مصابة بداء السكري».

«وماذا عن الثقب في قلب الطفل؟ يبدو ذلك خطراً...»

«يبدو الأمر أسوأ ممّا هو. في معظم الحالات، تُغلق القناة الشريانيّة»، قال الدكتور بيني ونظر إلى هيئة المحلفين. بدأت المرأة التي تعمل معلّمة، المحلّف رقم 12، تهويّ نفسها.

«إذاً هل استطعت تحديد سبب وفاة الطفل؟»

فقال الطبيب الشرعي: «في الواقع، هذا الأمر معقد أكثر مما يعتقد معظم الناس. نحن الذين نعمل في الطب، نُميّز بين الطريقة التي يموت بها الشخص والتغيير الفعلي الذي يطرأ على الجسم الذي يسبب نهاية الحياة. لنفترض مثلاً أنّ هناك طلقة نارية ومات أحدهم، هنا يكون الجرح الناجم عن الطلق الناري سبب الوفاة، أمّا آليّة الموت - الحدث الجسديّ الفعليّ الذي أنهى حياته - فهي الاستنزاف - فقدان الدم».

ثمّ حوّل انتباهه من أوديت إلى هيئة المحلّفين، وقال: «ثمّ هناك طريقة الموت - كيف حدثت. هل الجرح الناجم عن الطلقة كان حادثاً؟ أو انتحاراً؟ أو اعتداءً متعمداً؟ يصبح ذلك مهماً - حسناً - عندما نجلس في قاعة محكمة كهذه».

عرضت المدّعية العامّة وثيقة أخرى.

«قد يكون ما سترونه مزعجاً جداً»، قالت أوديت محدّرة هيئة المحلّفين، ووضعت على الحامل صورة جسد ديفيس باور.

شعرت أن أنفاسي علقّت في حلقي. تلك الأصابع الصغيرة، وقوس الساقين، وحشفة قضيبه لا تزال ملطّخة بالدم من الختان إن لم يكن بسبب الكدمات، فبسبب اللون الأزرق على بشرته. قد يكون نائماً.

كنت قد أخذت هذه الجثة من المشرحة. حملته بين ذراعيّ. هزته نحو السماء.
«دكتور»، قالت أوديت، «هل يمكنك أن تخبرنا...» لكن قبل أن تُنهي جملتها،
سُمع صوت ارتطام في القاعة. استدرنا جميعاً ورأينا بريتاني باور واقفة وعيناها
تلمعان. وقد وقف زوجها أمامها ممسكاً بكتفيها. لم أعرف إن كان يحاول أن يكبح
جماحها أم أنه يحاول أن يبقئها واقفة.

صرخت: «دعني... هذا ابني».

ضرب القاضي ثاندر مطرقته على الطاولة، وقال: «أريد نظاماً»، وقال بلطف:

«سيديّ، من فضلك اجلسي...»

لكنّ بريتاني أشارت بإصبعها المرتعشة نحو مباشرة. قد يكون ذلك صاعقاً
كهربائياً للتيار الذي يسري في عظامي، وقالت: «أيتها العاهرة، لقد قتلتِ طفلي»،
وسارت تترنّح في الممرّ، تقترّب منّي، ممثلة بالكرهية، «سأجعلكِ تدفعين ثمن ذلك، إذا
كان هذا آخر شيء سأفعله في حياتي».

نادت كينيدي القاضي الذي ضرب بمطرقته مرّة أخرى، وطلب الحارس. حاول والد
بريتاني باور تهدئتها أيضاً، لكن عبثاً. حدث اهتزاز من الصدمة، وهمس في أثناء
إخراجها من قاعة المحكمة. تسمّر زوجها في مكانه، عالقاً بين مواساتها والبقاء في
القاعة ليدي بشهادته. بعد لحظة استدار وجرى خارج الأبواب المزدوجة.

لمّا أمر القاضي باستتباب النظام والهدوء، نظرنا جميعاً إلى الأمام مرّة أخرى، أعيننا
على ذلك الملقق العملاق للرضيع المتوقّف. انفجرت إحدى أعضاء هيئة المحلّفين باكيةً،
وراح شخصان آخران يهدّئانها، ثمّ دعا القاضي ثاندر إلى استراحة.

إلى جانبي، زفرت كينيدي، وقالت: «أوه، اللعنة».

بعد ربع ساعة، عاد الجميع إلى قاعة المحكمة ما عدا بريتاني وتورك باور، لكنَّ غيابهما بدا أكثر وضوحاً، كما لو أنَّ الفضاء السلبيّ تذكّر دائم لسبب هذه الاستراحة. قادت أوديت الطبيب الشرعيّ عبر سلسلة من الصور لجسم الطفل، من كلّ زاوية ممكنة، وجعلته يشرح نتائج الاختبار المختلفة، وما هو المعيار، وما هو الشيء الذي حاد عن القاعدة، ثمَّ سألته أخيراً: «هل استطعت أن تحدّد سبب وفاة ديفيس باور؟»

هزَّ الدكتور بيني رأسه، وقال: «بالنسبة إلى ديفيس باور، كان سبب الوفاة نقص السكر في الدّم الذي أدّى إلى حدوث نوبة نقص السكر في الدم، ما أدّى إلى توقّف التنفّس ثمَّ إلى توقّف القلب. بعبارة أخرى، أدّى انخفاض السكر في الدم إلى توقّف الرضيع عن التنفّس، وهذا بدوره أدّى إلى توقّف قلبه. إنّ الطريقة التي مات فيها الرضيع هي الاختناق، لكن لم تُحدّد الطريقة.»

«لم تحدّد؟ هل هذا يعني أنّ تصرّف المدّعي عليها لا علاقة له بوفاة الطفل؟»
سألته أوديت.

«على العكس. هذا يعني فقط أنّه لم يكن من الواضح إن كان الموت قد نجم عن ممارسة عمل عنيف أم أنّه موت طبيعيّ.»

«كيف أجريت بحوثك حول هذا الأمر؟»

«بالطبع قرأت السجّلات الطبيّة، بالإضافة إلى تقرير الشرطة الذي قدّم معلومات.»

«مثل؟»

«قال السيّد باور للشرطة إنّ روث جيفرسون كانت تضغط على صدر ابنه. الكدمات التي وجدناها على عظم القصّ قد تدعم هذا الادّعاء.»

«هل كان هناك شيء آخر في تقرير الشرطة دفعك إلى ملء التقرير بالطريقة التي ملأته بها؟»

«استناداً إلى روايات عدّة، كان هناك ما يشير إلى أنّ المدعى عليها لم تبذل أيّ جهود لإنعاش الرضيع إلا بعد أن جاء آخرون من الطاقم الطبيّ إلى الغرفة».

«لماذا كان ذلك مهمّاً بالنسبة لنتائج التشريح؟»

فقال الدكتور بيني: «يتعلّق الأمر بطريقة الموت. لا أعرف الفترة التي عانى فيها هذا الرضيع من ضائقة تنفسية، فلو حُقِّفت حدّة فشل الجهاز التنفسيّ في وقت أقرب، لكان من الممكن ألا تحدث السكتة القلبية»، ثمّ نظر إلى هيئة المحلّفين، وأضاف: «لو تصرّف المدعى عليها على نحو صحيح، لكان من الممكن ألا يجلس أحد منّا هنا».

قالت أوديت: «الشاهد لك».

نهضت كينيدي، وقالت: «دكتور، هل كان هناك شيء في تقرير الشرطة يشير إلى وجود تصرّف غير نظاميّ أو صدمة متعمّدة لهذا الرضيع؟»

«ذكرتُ توتاً الكدمات في القصّ...»

«نعم ذكرت ذلك. لكن، أليس من الممكن أن تكون تلك الكدمات ناجمة أيضاً عن الإنعاش القلبيّ الرئويّ القويّ والضروريّ طبيّاً؟»

فقال معترفاً: «نعم».

«هل من الممكن أن تكون هناك سيناريوهات أخرى - غير تصرّف غير نظاميّ - قد تكون قد أدّت إلى وفاة هذا الطفل؟»

«ممكّن».

طلبت إليه كينيدي أن يراجع نتائج فحص الأطفال حديثي الولادة، التي أدخلتها في مجموعة الأدلّة من قبل، وقالت: «دكتور، هل تمانع في أن تلقي نظرة على الوثيقة رقم 42؟»

تناول الملفّ وراح يتصفّحه.

«هل يمكنك أن تخبر هيئة المحلفين ما الذي تنظر إليه؟»

رفع عينيه وقال: «نتائج فحص الرضيع ديفيس باور».

«هل تمكنت من الحصول على هذه المعلومات عندما كنت تُجري تشريح الجثة؟»

«لا»

«أنت تعمل في مختبر الولاية الذي أُجريت فيه هذه الاختبارات، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل يمكنك أن تشرح لنا القسم المؤشّر عليه في الصفحة الأولى؟»

«إنه اختبار اضطراب أكسدة الأحماض الدهنية الذي يسمّى «نقص نازعة هيدروجين الأسيل - الإنزيم المشترك A متوسط السلسلة» (MCADD). كانت النتائج غير طبيعية».

«ماذا تقصد؟»

«ستعيد الولاية هذه النتائج إلى حضانة المستشفى، وسيبلغ الطبيب على الفور».

«هل تظهر الأعراض على الأطفال المصابين بهذا الاضطراب منذ الولادة؟»

فقال الطبيب الشرعي: «لا، لا. وهذا أحد الأسباب الذي يجعل ولاية كونيتيكت

هي التي تُجري هذا الفحص».

«دكتور بيني»، قالت كينيدي، «كنت تعرف أنّ أمّ الرضيع مصابة بسكري الحمل،

وأنّ الطفل يعاني من انخفاض في نسبة السكر في الدم، أليس كذلك؟»

«نعم».

«ذكرت سابقاً أنَّ مرض السكرى هو سبب نقص السكر في الدم عند الوليد، أليس كذلك؟»

«نعم، كان هذا استنتاجي في أثناء تشريح الجثة.»

«أليس من الممكن أن يكون أيضاً سبب نقص السكر في الدم لأنَّه مصاب بهذا الاضطراب؟»

هزَّ رأسه، وقال: «نعم.»

سألته كينيدي: «أليس من الممكن أن يكون خمول الرضيع وضعف شهيته ناجماً عن هذا الاضطراب؟»

فقال موافقاً: «نعم.»

«وتضخَّم القلب - من المحتمل أن يكون عرضاً جانبياً ليس فقط لمرض سكرى الحمل... لكن أيضاً لهذا الاضطراب الأيضيَّ المحدد؟»

«نعم.»

«دكتور بيني، هل عرفت من سجلَّات المستشفى أنَّ ديفيس باور مصاب بهذا الاضطراب الأيضيَّ؟»

«لا.»

«لو كانت هذه النتائج قد وصلت في الوقت المناسب، هل كنت ستستخدمها لتحديد سبب الوفاة وطريقة الوفاة في نتائج تشريح الجثة؟»

فقال: «طبعاً.»

«ماذا يحدث لطفل مصاب بهذا الاضطراب ولم يُشخَّص بعد؟»

«لا تظهر أعراض سريريَّة حتَّى يحدث شيء يسبب عدم المعاوضة الأيضيَّة.»

«مثل ماذا؟»

«مرض، عدوى، تتحنج وأضاف، «صيام.»

«صيام؟» كرَّرت كينيدي، «مثل الصيام الذي يتمُّ قبل ختان الطفل؟»

«نعم».

«ما الذي يحدث لطفل لم يُشخَّص بهذا الاضطراب، ويعاني من إحدى هذه النوبات الحادة؟»

فقال الطبيب: «قد ترين حدوث نوبات، قيء، خمول، نقص سكر الدم... غيبوبة»، وأضاف، «في نحو عشرين في المئة من الحالات قد يموت الرضيع».

سارت كينيدي نحو مقصورة المحلِّفين واستدارت بحيث أصبح ظهرها نحوهم، تنظر إلى الشاهد معهم، ثمَّ قالت: «دكتور، إذا كان ديفيس باور مصاباً بهذا الاضطراب، وإذا لم يعرف أحد في المستشفى ذلك، وإذا كان البروتوكول الطبي يفرض أن يصوم الطفل قبل ثلاث ساعات من ختانه مثل أيِّ طفل آخر غير مصاب بهذا الاضطراب، وإذا حدثت نوبة أبيضية حادة في جسده الصغير - ألا توجد فرصة لوفاة ديفيس باور حتَّى لو أجرت روث جيفرسون جميع التدخُّلات الطبية التي يمكن تصوُّرها؟»

نظر الطبيب الشرعي بعينه الرماديتين الناعمتين نظرة تشي باعتذار، وقال: «نعم».

يا إلهي! يا إلهي! تغيَّرت الطاقة في المحكمة. ساد هدوء مطبق في القاعة حتى إنني سمعت حفيف الملابس، وهمهمة الاحتمالية. ما زال تورك وبريتاني خارج القاعة، وفي غيابهما أزهز الأمل.

تنفَّس هوارد إلى جانبي بكلمة واحدة، وقال: «يا له من يوم!».

فقالت كينيدي: «لا شيء آخر، حضرة القاضي»، وعادت إلى طاولة الدفاع، وغمزتني في وجهي. قلت لك ذلك.

إنَّ ثقتي قصيرة الأجل. «أريد إعادة توجيه الأسئلة»، قالت أوديت، ونهضت واقفة قبل أن يُطلب إلى الدكتور بيني أن يغادر، وقالت: «دكتور، دعنا نُقل إنَّ هذه النتيجة غير الطبيعية وصلت إلى الحضانة في الوقت المناسب. ماذا كان سيحدث؟»

فقال الطبيب: «هناك بعض النتائج غير الطبيعية التي تتطلب إرسال رسالة إلى الأبوين في الوقت المناسب - تقترح عليهما إجراء استشارة وراثية، لكن هذه - علامة خطر يعدها أي طبيب توليد خطراً ناشئاً، فتجري مراقبة الطفل عن كثب وإجراء فحوص عليه للتأكد من صحة التشخيص. في بعض الأحيان، نرسل الأسرة إلى مركز علاج أياًضي».

«أليس صحيحاً يا دكتور أن العديد من الأطفال المصابين بهذا الاضطراب لا يتم تشخيصهم بصورة رسمية لأسابيع؟ أو شهور؟»
فقال: «نعم. هذا يتوقف على مدى السرعة التي يمكننا فيها استدعاء الأبوين للتأكيد».

فكررت قائلة: «تأكيد. إذاً، فإن النتيجة غير الطبيعية في فحص طفل حديث الولادة ليست تشخيصاً نهائياً».
«لا».

«هل جاء ديفيس باور لإجراء مزيد من الاختبارات؟»
فقال الدكتور بيني: «لا، لم تتح له الفرصة».
«لذلك لا يمكنك أن تقول، بإثبات طبي لا يدع مجالاً للشك الطبي، إن ديفيس باور كان مصاباً بهذا الاضطراب».

فأجاب متردداً: «لا».
«ولا يمكنك القول بما لا يدع مجالاً للشك الطبي المعقول إن ديفيس باور مات بسبب اضطراب أياًضي».
«ليس تماماً».

«وفي الواقع، ربما كانت المدعى عليها وفريقها القانوني يتشبّهون بقشة في محاولتهم إلقاء ظل في اتجاه آخر، في اتجاه لا يشير إلى قيام روث جيفرسون بإيذاء مولود بريء عمداً، أولاً بمنع العلاج عنه ثم الرد بقوة بأنها تركت كدمات على جسده الصغير؟»

فهدرت كينيدي، وقالت: «اعتراض».

فقال أوديت: «سأنسحب»، لكنها أحدثت ضرراً تَوَّ، لأنَّ الكلمات الأخيرة التي سمعتها هيئة المحلفين قد تكون بمنزلة رصاصات أيضاً بددت تفاؤلي في السماء.

في تلك الليلة، لبث إديسون صامتاً في طريق عودتنا إلى المنزل. قال لي إنَّ صداعاً شديداً ألمَّ به، وما إن دخلنا البيت، بدأتُ أعدُّ العشاء، وعاد بعد قليل من غرفة الجلوس مرتدياً معطفه، وقال إنَّه سيخرج قليلاً ليعدّل مزاجه. لم أمنعه من الخروج. وكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ كيف يمكنني أن أقول شيئاً يمكن أن يحو كلَّ ما مرَّ به، يجلس خلفي كلَّ يوم مثل ظلي، ويستمتع إلى شخص يحاول أن يصورني شخصاً لا يعتقد أبداً أنني قد أكون ذلك الشخص؟

تناولت الطعام وحدي، لكن في الحقيقة، لم أتناول سوى لقيمات قليلة، وغطيت ما تبقي من الطعام بورق ألمنيوم، وجلست إلى طاولة المطبخ أنتظر إديسون، وقلت لنفسي سأكل عندما يعود.

لكن، مرّت ساعة. ساعتان. لمَّا انتصف الليل ولم يعد يردُّ على رسائلي النصيَّة، أسندتُ رأسي إلى وسادة ذراعيّ.

رحت أفكّر في نفسي، في جناح الكنغارو في المستشفى. إنَّها غرفة لها اسم غير رسمي، على جانبها لوحة جداريَّة لحيوان الكنغارو. وهو المكان الذي نضع فيه الأمّهات اللاتي فقدن أطفالهنَّ.

صدفاً، كنت أكره كلمة «فقدن». لأنَّ أولئك الأمّهات يعرفن أين هم أطفالهنَّ. في الواقع، كنَّ مستعدّات لأن يفعلن أيَّ شيء، ويضحين بأيّ شيء، حتّى بحيواتهنَّ، لاستعادة أطفالهنَّ.

في جناح الكنغارو، نسمح للوالدين أن يمضيا بعض الوقت مع رضيعهما الذي مات طوال الفترة التي يرغبان فيها. أنا متأكدة أنّ تورك وبريتاني باور قد وُضعا هناك مع ديفيس. إنَّها غرفة تقع في الزاوية، إلى جوار مكتب

الممرضة المسؤولة، فُصلت قصداً عن غرف الطلق والولادة الأخرى، كما لو أنّ الحزن مرض مُعدٍ.

هذه العزلة تعني أنّ الأبوين لا يضطرّان إلى المرور من أمام جميع الغرف الأخرى التي يوجد فيها أطفال وأمّهات أصحاء، ولا يتعيّن عليهما أن يسمعا صرخات الأطفال حديثي الولادة، الذين يأتون إلى العالم بعد أن غادره طفلهما.

كنّا نضع في جناح الكنغارو الأمّهات اللاتي يلدن وهنّ يعرفن، بفضل الموجات فوق الصوتيّة، أنّ أطفالهنّ سيولدون بطريقة لا تتوافق مع الحياة، أو الأمّهات اللاتي اضطررن إلى إنهاء حملهنّ في وقت متأخّر من الحمل بسبب حدوث شذوذ جسيم، أو اللاتي يلدنّ على نحو طبيعيّ، واللّاتي - لصدمتهنّ الكبيرة - عشن أعظم لحظة في حيواتهنّ وأسوأها، لا تفصل الواحدة عن الأخرى سوى ساعات قليلة.

كممرضة، أوكلت إليّ مهمّة الإشراف على مريضة مات طفلها، أعمل على أخذ بصمات يد الطفل على الجبس، أو عيّنات من الشعر. ويوجد مصوّران محترفون أتصل بهم يعرفون طرائق التقاط الصورة للطفل المتوفّي حتّى تبدو كأنّها تنبض بالحياة. كنت قد أعددت صندوق ذاكرة، بحيث لا يكون فارغاً عندما يغادر الوالدان المستشفى.

كانت آخر مريضة استخدمت جناح الكنغارو، امرأة تدعى جياو. كان زوجها يدرس للحصول على درجة الماجستير في جامعة ييل، وهي مهندسة معماريّة، ظلّت تفرز طوال فترة حملها كميّة كبيرة من السائل السلويّ، تأتي كلّ أسبوع لفحص الطفل وسحب السائل السلويّ. في إحدى الليالي، سحبتُ منها أربعة لترات من السائل، وبالطبع لم يكن ذلك شيئاً طبيعيّاً. إنّهُ أمر غير صحّيّ. سألت طبيبتها عن سبب ذلك - هل من المحتمل أن يكون الطفل قد فقد المريء؟ فعادةً يبتلع الطفل الرضيع السائل الأمنيّيّ،

لكن إذا تجمّعت كل هذه الكميّة، فإنّ الطفل سيبتلعها، لكنّ الموجات فوق الصوتية كانت طبيعيّة، ولم يستطع أحد إقناع جياو بأنّه توجد مشكلة، وكانت متيقّنة من أنّ الطفل سيكون سليماً.

في أحد الأيام، جاءت وطفلها مصاب بالتميّة - تجمّعت سوائل تحت جلده. مكثت معنا لمدة أسبوع، ثمّ حاولت طبيبتها توليدها بتحريض الطلق، لكنّ الطفل لم يتحمّل ذلك، فولدت جياو وولادة قيصرية. كان الطفل يعاني من نقص تنسّج رئويّ - لم تكن الرئتان تعملان، ومات الجنين بين ذراعيها بسرعة بعد الولادة، متورّماً، منتفخاً، كما لو أنّه فُصل من مارشميلو.

وضعت جياو في جناح الكنغارو، ومثل العديد من الأمّهات اللاتي كان عليهنّ أن يقبلن الحقيقة بأنّ أطفالهنّ لم يعيشوا، كانت مثل إنسان آليّ، مخدّرة. لكنّها، بعكس الأمّهات الأخريات، لم تبك، ورفضت أن ترى الطفل. كما لو كانت في ذهنها تلك الصورة عن طفل صغير كامل، ولم تستطع أن توفّق بين أيّ شيء أقلّ من ذلك. حاول زوجها أن يقنّعها بأنّ تحمل الطفل، وحاولت أمّها وطبيبتها كذلك. أخيراً، لمّا أصبحت الساعة الثامنة، وهي لا تزال تشعر بالخدر، لففت الطفل بطانيات دافئة، ووضعت قُبعة صغيرة على رأسه، وحملته إلى غرفة جياو، وقلت لها: «جياو، هل ترغبين في مساعدتي لغسله؟» عندما لم تردّ جياو، نظرت إلى زوجها، زوجها المسكين الذي هزّ رأسه مشجّعاً.

ملأْتُ وعاء بالماء الدافئ وأخذت كومة من المناديل. عند أسفل سرير جياو، نزعت برفق القمط عن طفلها، وغمرت قطعة قماش في ماء دافئ، ورحت أمّرها على ساقي طفلها، اللتين تشبهان قطعتي سجق، وعلى ذراعيه الزرقاوين، ومسحت وجهه المنتفخ وأصابعه المتيبّسة.

ثمّ ناولت جياو قطعة قماش مبلّلة، وضغطتها في راحة يدها.

لا أعرف إن كان الماء قد أحدث صدمة في وعيها، أم الطفل، لكنّها مسحت كلّ ثنية ومنحني في جسم طفلها بتوجيه من يدي، ثمّ لفتته في البطانية، ووضعتة على صدرها. وأخيراً، بنشوة بدا أنّها تمزّق جزءاً منها، أعادت إليّ جسد طفلها.

استطعتُ أن أجمعهما معاً وأنا أحمل رضيعها إلى جناح الكنغارو. ولمّا انهارت بين ذراعي زوجها، فقدتها. لم أتمالك أعصابي، وبكيت على هذا الطفل وأنا في طريقي إلى المشرحة، ولمّا وصلت إلى هناك، لم أستطع أن أتركه بسهولة مثل أمّه.

في تلك اللحظة، سمعتُ صوت المفتاح يدور في القفل. انسلّ إديسون إلى داخل البيت، يكيّف عينيه في العتمة. سار على أطراف أصابعه لأنّه كان يتوقّع أنّني مت، لكن، بصوت واضح، ناديته من مكاني في المطبخ.

«لماذا لم تنامي؟» سألني.

«لماذا لم تكن في المنزل؟»

استطعت الآن أن أراه بوضوح، ظلّ بين الظلال.

قال: «كنت وحدي، كنت أتمشّي».

فقلت: «لمدّة ستّ ساعات؟»

«نعم، لمدّة ستّ ساعات»، قال إديسون متحدّياً، وأضاف: «لماذا لا تضعين شريحة

(GPS) لتعري في أين أذهب إذا كنت لا تتقين بي؟»

فقلت بحرص: «إني أثق بك، لكنني لست متأكّدة من بقيّة العالم».

نهضت ووقفت، وأصبحت على مسافة بضع بوصات منه. «كلّ الأمّهات يقلقن على أبنائهنّ، أمّا نحن الأمّهات السوداوات، فعليّنا أن نقلق أكثر قليلاً حتّى التنزّه يمكن أن يكون خطيراً. إنّ مجرد وجودك قد يكون خطيراً، إذا كنت في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ».

فقال إديسون: «أنا لست غيبياً».

«أعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر. هنا تكمن المشكلة. أنت ذكي بما يكفي لتقدّم أعداءاً للأشخاص الذين ليسوا كذلك. إنك تفترض حسن النية، في حين لا يفعل الآخرون ذلك. هذا ما يجعلك أنت، وهذا ما يجعلك شاباً مميزاً. لكن، يجب أن تكون حذراً أكثر، لأنني قد لا أكون هنا لفترة أطول...» ثم خرجت جملتي من فمي بقوة، «قد أضطرّ إلى تركك وحدك».

سقطت حنجرته ثم عادت، وأعرف ما الذي كان يفكر فيه طوال هذا الوقت. تخيلته يسير في شوارع نيو هافن، محاولاً أن ينأى بنفسه عن حقيقة أنّ هذه المحاكمة ستنتهي، وعندما يحدث ذلك، سيصبح كل شيء مختلفاً.

«ماما»، قال بصوت واهن، «ماذا عليّ أن أفعل؟» للحظة، حاولت أن أقرّر كيف يمكنني أن ألخص قيمة دروس الحياة في ردّي، ثم نظرت إليه وعيناها تلمعان، وقلت: «أن تنجح».

ابتعد عني إديسون. بعد لحظة، أغلق باب غرفة نومه بقوة، وغطّت الموسيقى على جميع الأصوات الأخرى التي حاولت أن أميّزها، لكن من دون جدوى.

أظنّ أنّي أصبحت أعرف الآن لماذا يطلقون عليه اسم «جناح الكنغارو». لأنّه حتّى عندما لا يعود لديك طفل، فإنك تحمليه إلى الأبد.

يحدث الشيء نفسه عندما يُنتزع الطفل من أحد الأبوين، لكنّ الجناح بحجم العالم. في جنازة أمّي، أخذت حفنة من التراب البارد من قبرها ووضعت في جيب معطفي. كنت أرثدي هذا المعطف أحياناً في المنزل، وأمسك التراب بقوة في قبضة يدي.

أتساءل ما الذي سيحتفظ به إديسون عني.

تورك

وضعت يديّ على جانبيّ وجه بريتاني ولامست جبهتي جبهتها، وقلت لها:
«تنفّسي. فكّري في فيينا».

لم يسبق لأحدنا أن زار فيينا، لكنّ بریت وجدت صورة قديمة في متجر يبيع أشياء قديمة وعلّقتها إلى جدار غرفة نومنا. تُظهر الصورة مبنى دار بلدية المدينة الفخم، والساحة أمامه تعجّ بالناس والأمّهات اللاتي يدفعن عربات أطفالهنّ - وكلّهم من ذوي البشرة البيضاء. كنّا نقول دائماً إنّ بإمكاننا أن نوَفّر مبلغاً من المال لقضاء إجازة هناك، ذات يوم. ولَمّا كانت بریت تضع خُطة الولادة، كانت فيينا إحدى الكلمات التي يُفترض أن أستخدمها لمساعدتها في التركيز.

لا يفوتني أنّي أهمس الكلمة نفسها التي كنت أستخدمها لتهديتها عندما كانت تلد ديفيس - لكنّي أكرّرها الآن لأساعدها في أن تكفّ عن رؤية صورة ابننا المتوفّي.
وفجأة، فُتح باب غرفة الاجتماعات ودخلت المدعية العامّة، وقالت: «كانت هذه حركة لطيفة. يحبُّ المحلّفون أن يروا أمّاً غاضبة لم تتمكّن من السيطرة على نفسها. لكنّ التهديد في جلسة علنيّة؟ ليست أكثر الخطوات حكمة».

تحركت بریت ودفعتني بعيداً عنها، ونهضت ووقفت أمام المحامية، وقالت لها بصوت خافت على نحو خطير: «أنا لا أمثل، ولا يمكنك أن تقولي لي ما هي الفكرة الجيدة وما غير الجيدة أيّتها الفحباء».

أمسكت بذراعها، وقلت لها: «حبيبتي، لماذا لا تذهبين وتغسلين وجهك؟ سأعنتي بالأمر».

حتَّى إنَّ بریت لم یرفَّ لها جفن، وإمَّا ظلَّت واقفة مثل جدار أمام أودیت لوتون، مثل كلب یقف فوق كلب مهجَّن، ثمَّ خرجت وأغلقت الباب وراءها.

أعرف أنَّ من المهمَّ أن یُسمح لنا، أنا وبریت، أن ندخل قاعة المحكمة، مع أننا سنُدلي بشهادتنا. كانت هناك جلسة استماع حول ذلك قبل أن تبدأ المحكمة. فقد ظلَّت تلك المدَّعية العامة اللعينة أنَّها تستطيع أن تبعدنا من خلال طلب عزل جميع الشهود، لكنَّ القاضي قال إنَّنا نستحقُّ أن نكون حاضرين لأننا والدا ديفيس. أنا متأكد أنَّ المدَّعية العامة لا تريد أن تعطيه أيَّ سبب وجیه ليعيد التفكير في قراره.

«السید باور»، قالت المحامية، «يجب أن أكلمك».

طویت ذراعی، وقلت لها: «لماذا لا تفعلین ما یجب علیك فعله؟ أن تربحي هذه القضية؟»

«من الصعب أن تسلك زوجتك سلوك بلطجي مرعب، ولا تتصرف مثل أم حزينة!»، قالت وهي تحدِّق إلى وجهي، «لا یمكنني أن أطلبها كشاهدة».

قلت: «ماذا؟ لكننا أجرينا كلَّ ذلك التدريب...»

«نعم، لكنني لا أثق ببريتاني»، قالت بصراحة، «إنَّ زوجتك بطاقة لا یمكن الوثوق بها، ولا یمكنك أن تضع بطاقة مثلها في مقصورة الشهود».

«يجب على هيئة المحلِّفين أن تستمع إلى أم ديفيس».

«ليس إذا لم أكن متأكَّدة أنَّها لن تبدأ بالصراخ وإطلاق شتائم عنصريَّة على المدَّعی عليها»، وأضافت وهي تنظر إليَّ بهدوء: «قد تكرهني أنت وزوجتك وكلَّ من یشبهني یا سید باور. وبصراحة لا یهمُّني ذلك. لكنني أفضل فرصة - الفرصة الوحيدة - لتحقيق العدالة لابنك. لذلك، لن أقول لك ما الفكرة الجيدة وما الفكرة السيئة فقط، وإمَّا سأبدل جهدي، وهذا یعنی أنَّ زوجتك لا یمكن أن تُدلي بشهادتها».

«سيظنَّ القاضي وهيئة المحلِّفين أنَّ هناك شيئاً ما إذا لم تدلِّ بشاهدتها!».
«سيعتقد القاضي وهيئة المحلِّفين أنَّها مضطربة، وستكون أنت شاهداً قوياً».
هل هذا يعني أنني أحبّ ديفيس أقلّ؟ لأنّ حزني ليس كافياً مثل بريت؟
«لقد سمعتَ البارحة محامية الدفاع وهي تقدّم نظريّة تقول إنّ ابنك يعاني من اضطراب أيضاً لم يُشخّص في حينه؟»

كان ذلك عندما كانت طبيبة الأطفال على المنصّة. ذُكرت مصطلحات طبية كثيرة لم أفهمها، لكنّي فهمت جوهرها. قلت: «نعم، نعم. فهمت، كان الحلّ اليائس».
«ليس تماماً. كمّا خرجتَ، تحقّق الطبيب الشرعيّ من النتائج، وتبيّن من الاختبار أنّ ديفيس مصاب باضطراب أيضاً يدعى MCADD. حاولت كثيراً أن أجعل المحلِّفين يستبعدون شهادته، لكن النتيجة هي أنّ الدفاع بذر بذرة راسخة، وهي أنّ طفلك مصاب باضطراب مميت محتمل، وأنّ النتائج وصلت بعد فوات الأوان. وإذا لم يكن مصاباً بذلك، فرمّا كان لا يزال في قيد الحياة».

شعرتُ بركبتيّ تتحلّان، وجلستُ بصعوبة على سطح الطاولة. هل كان ابني مريضاً ولم نكن نعرف؟ كيف أمكن للمستشفى ألاّ يعرف ذلك؟
إنّه... شيء عشوائيّ، لذلك لا جدوى من كلّ ذلك.

كمّا لمست المدّعية العامّة ذراعي، أجفّلتُ على الفور. قالت: «لا تفعل ذلك، لا تدع ذلك يشوّش تفكيرك. أقول لك ذلك حتّى لا تُفاجأ في أثناء الاستجواب. لكن، كلّ ما فعلته كينيدي ماكواري هو تشخيص محتمل. إنّه لم يؤكّد بعد. ديفيس لم يُعالج، وبإمكانها أن تقول أيضاً إنّ ابنك سيصاب بمرض القلب عندما يكبر لأنّ لديه استعداداً وراثياً، مع أنّ هذا لا يعني أنّه سيحدث على الإطلاق».
تذكّرتُ جدّي الذي سقط ميتاً بسبب نوبة قلبيّة.

قالت أوديت: «إني أقول لك ذلك لأننا حينما نعود إلى القاعة، فسأدعوك إلى المنصة، وستجيب فقط بالطريقة التي تدرّبنا عليها في مكتبي. كل ما تحتاج إلى أن تتذكّره هو أنه لا يوجد مكان لكلمة ربّما في هذه المحاكمة. لا يوجد مكان لعبارة ربّما حدث ذلك. فقد حدث بالفعل. لقد مات ابنك».

هزّزت رأسي. هناك جثمان، وعلى أحدهم أن يدفع ثمن ذلك.

هل تُقسم بأن تقول الحقيقة؟

وضعت يدي على الكتاب المقدّس ذي الغلاف الجلديّ الذي لم أعد أقرّؤه كثيراً.

لكنّ القسم عليه ذكّرني ببيع آيك عندما كنت في السجن، وتوينكي.

صدقاً، أفكّر فيه كثيراً. أظنّ أنّه خرج من السجن الآن. ربّما يتناول الآن الطبق الذي يحبّه في مطعم الشيف بوياردي. ماذا سيحدث لو أنّني صادفته في الشارع؟ في مقهى ستاربكس؟ هل سيعانق أحدنا الآخر؟ أو أنّنا سنتظاهر بأنّ أحدنا لم ير الآخر؟ كان يعرف من أنا، من الخارج، كما أعرف من هو. لكن في السجن، كانت الأمور مختلفة، وما تعلّمت أن أوّمن به لم يكن صحيحاً. إذا التقينا في الطريق الآن، فهل سيظلّ توينكي بالنسبة إليّ؟ أو أنّه سيكون مجرد زنجي آخر؟

عادت بریت أخيراً إلى قاعة المحكمة، وجلست إلى جانب فرانسيس. كمّما عادت من دورة المياه، كان وجهها لا يزال مبلّلاً مع أنّها جفّفته بمنديل معطر. كان أنفها وخذّاهما لا تزال متورّدة، قلت لها إنّني قلت للمدعية العامة إنّّه لا يمكن لأحد أن يقول لزوجتي كيف تحزن، وقلت لها إنّني لم أستطع أن أتحمّل فكرة أن تتعرّض بریت لانهيّار آخر، فقلت لأوديت لوتون ألاّ تستدعي زوجتي إلى منصة الشهود، وقلت لبريت إنّني أحبّها، ويؤلمني كثيراً أن أراها وهي تتألّم.

صدّقت كلّ ما قلته لها.

هل تقسم بأن تقول الحقيقة؟

«السيد باور»، سألتني المدّعية العامّة، «هل كان هذا أوّل طفل لك مع زوجتك بريثاني؟»

تفصّد العرق في ظهري. شعرت أنّ المحلّفين يحدّقون إلى وشم الصليب المعقوف في فروة رأسي، حتّى الذين يتظاهرون بأنّهم لم ينظروا، كانوا يختلسون النظر. كوّرت يدي حول قاعدة الكرسيّ. كان ملمس الخشب ناعماً. صلباً. سلاحاً. «نعم، كنّا سعيديين جداً».

«هل كنت تعرف أنّه سيكون صبيّاً؟»

أجبت: «لا. أردنا أن تكون مفاجأة».

«هل حدثت أيّ مضاعفات في أثناء الحمل؟»

«كانت زوجتي مصابة بسكّري الحمل. قالت لنا الطبيبة إنّ ذلك ليس خطراً طالما أنّها تراقب نظامها الغذائيّ. وقد فعلت ذلك. كانت تريد طفلاً يتمتّع بصحة جيّدة مثلي».

«وماذا عن الولادة يا سيد باور؟ هل كانت ولادة طبيعية؟»

فقلت: «سار كلّ شيء بسلاسة، لكن مرّة أخرى، لم أكن أمارس رفع الأثقال، تماماً». ابتسمت السيدات في هيئة المحلّفين، تماماً كما قالت المدّعية العامّة، إنهنّ سيفعلن إذا ما جعلت نفسي أبودو مثل أيّ أب آخر.

«وأين أنجبت أنت وزوجتك الطفل؟»

«في مستشفى الرحمة - ويست هافن».

«وهل حملتّ ابنك ديفيس بعد ولادته، يا سيد باور؟»

فقلت: «نعم». عندما تدرّبنا على ذلك في مكتب المدّعية العامّة، كما لو كنّا ممثليين يحفظون أدوارهم، وقالت لي سيكون الأمر في غاية التأثير لو دمعت

عيناي. قلت لها إنني لا أستطيع أن أبكي عندما أريد، أما الآن، بعد أن تذكّرت اللحظة التي ولد فيها ديفيس، شعرت بالاختناق. أليس من الجنون أنك تستطيع أن تُغرم بفتاة لتنجب منها إنساناً آخر؟ يبدو الأمر أشبه بفرك عودين معاً وتشعل ناراً - فجأة أصبح هناك شيء حيّ ومكثف لم يكن موجوداً قبل دقيقة. تذكّرت قدمي ديفيس وهما تركلانني. رأسه في راحة يدي. تلكما العينان العاصفتان، غير المرکزتين، جعلتاني في حيرة. «لم ينتبني مثل هذا الشعور في حياتي». أعتزف أنني خرجت عن النص، ولم أكتزث بذلك. «ظننت أنها كذبة عندما يقول الناس إنهم أحبوا طفلاً من النظرة الأولى. لكن هذه هي الحقيقة. فقد كان بإمكانني أن أرى مستقبلي كلّه في وجهه».

«هل كنت تعرف أحداً من العاملين في المستشفى قبل أن تذهب إلى هذا المستشفى بالذات؟»

«لا، طيبة بريت النسائية تعمل في هذا المستشفى، لذلك كان الأمر محسوماً».

«هل حظيت بتجربة جيّدة في هذا المستشفى يا سيد باور؟»

«لا»، قلت بحزم.

«هل كان الأمر كذلك منذ اللحظة التي دخلت فيها زوجتك المستشفى؟»

«لا، كان ذلك جيّداً. وكذلك المخاض والولادة».

سارت المدّعية العامّة نحو مقصورة المحلّفين، وقالت: «إذاً، متى تغيّرت الأمور؟»

«عندما تولّت ممرضة أخرى العمل بعد أن انتهت نوبة الممرضة الأولى، وكانت

سوداء».

تحنّحت المدّعية العامّة، وقالت: «لماذا كانت هذه مشكلة يا سيد باور؟»

دون وعي، مددت يدي وفركت الوشم على فروة رأسي، وقلت: «لأنني أوّمن

بتفوّق العرق الأبيض».

حدَّق بعض المحلِّفين إليَّ بقوَّة، بفضول شديد، وهزُّ بعضهم رؤوسهم، ونظر آخرون إلى أحضانهم.

«إذًا، أنت من العنصرين الذين يؤمنون بتفوق العرق الأبيض»، قالت المدعية العامة، «تؤمن بأن السود مثلي يجب أن يكونوا تابعين».

فقلت لها: «أنا لست ضدَّ السود. أنا مع البيض».

«إنَّك تدرك أنَّ الكثير من الناس في العالم - في الواقع، الكثير من الناس هنا - ربَّما يجدون أنَّ معتقداتك مسيئة».

فقلت: «لكن يجب أن تعالج المستشفيات جميع المرضى حتَّى الذين قد لا تعجبهم أفكارى. فإذا أصيب شخص أطلق النار في مدرسة عندما كان رجال الشرطة يحاولون إطلاق النار عليه وأحضر إلى غرفة الطوارئ، فإنَّ الأطباء يجرون له عمليَّة جراحية لإنقاذ حياته، حتَّى لو قتل عشرات الأشخاص الآخرين. أعرف أنَّ الطريقة التي نعيش فيها أنا وزوجتي ليست الطريقة التي يختارها الآخرون في حياتهم. لكنَّ الشيء العظيم في هذا البلد هو أننا لدينا جميعاً الحقَّ في أن نؤمن بما نريد».

«ماذا فعلت عندما اكتشفت أنَّ ممرضة سوداء تعتني بابنك المولود حديثاً؟»

«تقدَّمتُ بطلب. طلبت ألا تلمس ابني».

«هل الممرضة الأمريكيَّة من أصل أفريقيَّة التي تشير إليها موجودة هنا اليوم؟»

«نعم»، وأشرت إلى روث جيفرسون. خيل إليَّ أنَّها انكلمت في كرسيها مرَّة أخرى.

أردتُ أن أفكر في ذلك، في كلِّ حال.

«ممن طلبت؟» قالت المدعية العامة.

فأجبت: «رئيسة الممرّضات، ماري مالون».

«ونتيجة تلك المحادثة، ماذا حدث؟»

«لا أعرف، لكنّها عادت مرّة أخرى».

«في مرحلة ما، هل تعاملت المدّعى عليها مع ابنك مرّة أخرى؟»

هززت رأسي، وقلت: «كان يجري ختان ديفيس. لم يكن من المفترض أن يكون ذلك شيئاً خطراً. كانوا سيأخذونه إلى غرفة الحضانة ويعيدونه حاملما ينتهي ختانه. لكنّ الشيء التالي الذي أعرفه أنّ جميع أبواب الجحيم قد فُتحت؛ فقد بدأ الناس يصيحون، ينادون طلباً للمساعدة، ودُفعت عربات الإنعاش في الممرّ، ورأيت الجميع يركضون في اتجاه غرفة الحضانة. كان طفلي هناك، وأنا فقط... وأظنّ أنا وبريت كنّا نعرف. وصلنا إلى غرفة الحضانة ورأينا جمهرة من الناس متحلّقين حول ابني، ورأيت تلك المرأة تضع يديها على ابني مرّة أخرى»، ابتلعت ريقِي، وأضفت: «كانت تؤذيه. كانت تضغط على صدره بقوة إلى درجة أنّها كادت تقسمه إلى نصفين».

«اعتراض»، قالت المحامية الأخرى.

زَمّ القاضي شفّتيه، وقال: «سأسمح بذلك».

«كيف كانت ردّة فعلك يا سيد باور؟»

«لم أقل شيئاً. صُدمنا أنا وبريت. أقصد، قالوا لنا إنّ هذا الإجراء ليس شيئاً خطراً. كان من المفترض أن نعود إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم. بدا كما لو أنّ عقلي لم يستطع أن يدرك ما الذي كنت أراه أمام عينيّ مباشرة».

«ثمّ، ماذا حدث؟»

لاحظتُ أنّ المحلّفين أصبحوا يجلسون على حواف مقاعدهم، وأنّ جميع الوجوه اتّجهت نحوي. «الأطباء والممرّضات، كانوا يتحرّكون بسرعة كبيرة، وتشابكت أيديهم، فلم أعد أميّز يد أحدهم عن الآخر. ثمّ جاءت

طبيبة الأطفال - الدكتورة أنكينز، التي عملت قليلاً مع ابني، ثم... ثم قالت إنه لا يوجد شيء آخر يمكنها فعله». أصبحت الكلمات ثلاثية الأبعاد، فيلم لم أعد أستطيع أن أبتعد عنه. نظرت طبيبة الأطفال إلى الساعة، وتراجع الآخرون جميعاً، أيديهم مرفوعة في الهواء كما لو أن أحداً يصوب عليهم مسدساً. كان ابني هامداً لا يتحرك.

انبعثت من فمي شهقة. تشبّثت بالكرسي. فإذا ما تركته، فإن قبضتي ستنتطلقان. سأجد أحداً لأعاقبه. رفعت عيني، ولثانية واحدة فقط، تركتهم يرون كم أنا خاوٍ في داخلي. «قالت إن ابني مات».

مشت أوديت لوتون نحوي ويدها علبة مناديل كلينكس. وضعتها على الحاجز بيننا، لكنني لم أتحرّك لأتناول منديلاً من العلبة. كنت سعيداً الآن لأنّ بریت ليست مضطّرة إلى أن تمرّ بهذه التجربة. لا أريدها أن تستعيد تلك اللحظة.

«ماذا فعلت بعد ذلك؟»

«لم أستطع أن أدعها تتوقّف». بدت الكلمات كأنّها زجاج على لساني، «إذا لن يفعلوا شيئاً لإنقاذه، فأنا سأفعل ذلك. فتوجّهت إلى سلّة المهملات وأخرجت الكيس الذي كانوا يستخدمونه لمساعدة ديفيس في التنفّس. حاولت أن أعرف كيف يمكنني أن أوصله مرّة أخرى. لن أترك ابني».

سمعتُ صوتاً، حادّ النبرة، صوتاً أعرفه من الأسابيع التي لم تكن بریت تنهض فيها من الفراش، لكنّها هرّزت منزلنا بقوة حزنها. كانت منحنية في مقعدها في القاعة، علامة استفهام بشريّة، كما لو أنّ جسدها كلّه يسأل لماذا حدث لنا ذلك.

«سيد باور»، قالت المدّعية العامّة بلطف، معيدة توجيه انتباهي، «يصفك بعض الناس هنا بأنك من العنصرين الذين يؤمنون بتفوّق العرق الأبيض، ويقولون إنك الشخص الذي بدأ في درجة هذه الكرة بطلبك

إبعاد الممرضة الأمريكية من أصل أفريقي عن رعاية ابنك. حتى إنهم قد يلومونك على سوء حظك. كيف تردّ على ذلك؟»

أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «كلّ ما كنت أحاول فعله هو أن أمنح ابني أفضل فرصة ممكنة في الحياة. هل هذا يجعلني متفوقاً عنصرياً أبيض؟ أو أنّ هذا يجعلني أباً فقط؟»

في أثناء فترة الاستراحة، درّبتني أوديت في غرفة الاجتماعات. «وظيفتها أن تبذل كلّ ما في وسعها لتجعل هيئة المحلّفين يكرهونك. لا بأس بقليل من ذلك لأنّه يظهر لهيئة المحلّفين دافع الممرضة، لكن ليس كثيراً. أمّا وظيفتك فهي أن تبذل كلّ ما في وسعك لتجعلهم يرون القواسم المشتركة بينك وبينهم، لا ما يميّزك عن غيرك. يُفترض أن تكون هذه القضية حول مدى حبك لابنك. لا تُفسد الأمر بالتركيز على مَنْ تكرهه.»

تركتنا أنا وبريت وحدنا لوضع دقائق، قبل أن تُستدعى إلى قاعة المحكمة مرة أخرى. «هي»، قالت بريت ما إن أغلق الباب خلفها، «أكرهها».

التفتُ إلى زوجتي، وسألتها: «هل تظنّين أنّها على صواب؟ هل تظنّين أنّنا جلبنا ذلك على أنفسنا؟»

رحت أفكر في ما قالت أوديت لوتون: إذا لم أتحدّث ضدّ الممرضة السوداء، فهل سينتهي الأمر على نحو مختلف؟ هل كانت تحاول إنقاذ ديفيس عندما أدركت أنّه لا يتنفس؟ هل كانت ستعامله مثل أيّ مريض آخر في مرحلة حرجة، بدلاً من أنّها تريد أن تؤذيني كما آذيتها؟

سيكون ابني في الشهر الخامس من عمره الآن. هل كان سيتمكّن من أن يجلس بمفرده؟ هل كان سيتسم عندما يراني؟

إنّي أوّمن بالله. أوّمن بإله يدرك العمل الذي نقوم به لأجله على هذه الأرض. لكن، لماذا يعاقب المحاربين الذين يقاتلون في سبيله؟

نهضت بریت واقفة، ونظرة اشمئزاز تغلو وجهها، وقالت: «منذ متى أصبحت فرجاً هكذا؟» وابتعدت عني.

* * *

في الأسابيع القليلة الماضية، في أثناء حمل بریت، أحضر جارانا - رجل وامرأة من غواتيمالا يرجح أنهما قفزا من فوق سياج الأسلاك الشائكة ودخلا هذا البلد - جرواً جديداً، واحداً من تلك الأشياء الصغيرة المكسوة بالزغب، التي تشبه كرة قطنية شريرة لها أسنان، ولم يكن يتوقّف عن النباح، اسمه فريدا، وكان يأتي إلى فناء منزلنا ويتغوّط فوق عشب حديقتنا، ولمّا لم يكن يفعل ذلك، كان ينبح، وكلّما استلقت بریت لتأخذ قيلولة، بدأ رأس الممسحة الغبيّ ذاك ينبح ويوقظها. كانت تستشيط غضباً، ثمّ أستشيط غضباً، فأخرج وأطرق على بابهما وأقول لهما إنهما إذا لم يكّما بوز حيوانهما اللعين، فإنّي سأتلخّص منه.

وفي أحد الأيام، عدتُ من عملي ورأيت ذلك الغواتيماليّ يحفر حفرة تحت شجيرة أزاليا، وتحمل زوجته المجنونة في يدها صندوق أحذية. لمّا دخلت منزلنا، رأيت بریت جالسة على الأريكة، وقالت: «أظنّ أنّ كلبهما مات.»
«فهمت.»

مدّت يدها إلى خلفها وتناولت قنينة من مادّة مانع التجمّد، وقالت: «كما تعرف، طعمها حلو. قال لي أبي أن أبعدهما عن كلبنا عندما كنت صغيرة.»

حدّقت إليها للحظة، وقلت: «هل سمّمت فريدا؟»

حدّقتني بریت بحدّة، وللحظة رأيت فرانسيس في عينيها، ثمّ قالت: «لم أستطع أن أنام. إمّا طفلنا، وإمّا ذلك الكلب اللعين.»

رَبِّمَا كَانَتْ كِينِيدِي مَآكُورِي تَشْرَب قَهْوَةً لَاتِيهِ بِنَكْهَةِ الْيَقْطِينِ. أَرَاهِنَ أَنَّهَا صَوَّتَتْ
لَأُوبَامَا، وَتَبَرَّعَتْ بَعْدَ أَنْ شَاهَدَتْ تِلْكَ الْإِعْلَانَاتِ عَنِ الْكِلَابِ الْحَزِينَةِ، وَتَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَالَمَ
سَيَكُونُ مَكَانًا بَرَّاقًا مَشْرَقًا لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَعَايَشَ جَمِيعِنَا.

إِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ النُّوعِ الْيَبِرَالِيِّ ذِي الْقَلْبِ الدَّامِي الَّذِي لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أُتَحَمَّلَهُ.
أَبْقَيْتُ هَذِهِ الْمَقْدَمَةَ فِي رَأْسِي وَهِيَ تَتَّجِهُ نَحْوِي. «سَمِعْتُ الدَّكْتُورَةَ أَتَكِينِزُ تَشْهَدُ
بِأَنَّ ابْنَكَ يَعْانِي مِنْ اضْطِرَابٍ أَيْضِي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»
قُلْتُ: «حَسَنًا. سَمِعْتَهَا تَقُولُ إِنَّ الْفَحْصَ أَظْهَرَ أَنَّهُ إِجَابِي». كَانَتْ الْمَدْعِيَةُ الْعَامَّةُ
قَدْ دَرَّبَتْنِي عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ.

«هَلْ تَفْهَمُ يَا سَيِّدَ بَاوَرِ أَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي لَمْ يُشَخَّصْ بِهَذَا الْاضْطِرَابِ، وَالَّذِي يَنْخَفِضُ
السَّكَّرُ فِي دَمِهِ قَدْ يَصَابُ بِفَشْلِ تَنْفَسِي؟»
«نَعَمْ.»

«وَهَلْ تَفْهَمُ أَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي يَعْانِي مِنْ فَشْلِ فِي الْجِهَازِ التَّنْفَسِيِّ قَدْ يَصَابُ بِفَشْلِ
قَلْبِي؟»
«نَعَمْ.»

«وَأَنَّ ذَلِكَ الطِّفْلَ قَدْ يَمُوتُ؟»
هَزَزْتُ رَأْسِي وَقُلْتُ: «نَعَمْ.»
«هَلْ تَفْهَمُ أَيْضًا يَا سَيِّدَ بَاوَرِ، أَنَّهُ فِي أَيِّ مِنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ لَنْ يَتَغَيَّرَ أَيُّ شَيْءٍ سِوَاءِ

حَاوَلَتِ الْمَمْرُضَةَ إِجْرَاءَ كُلِّ التَّدَخُّلَاتِ الطَّبِيبِيَّةِ الْمُمْكِنَةِ لِإِنْقَاذِ حَيَاةِ هَذَا الطِّفْلِ أَمْ لَا؟
وَأَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَمُوتَ الطِّفْلُ؟»
كَرَّرْتُ: «رَبِّمَا.»

«هَلْ تَدْرِكُ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، إِذَا كَانَ ابْنُكَ هُوَ ذَلِكَ الطِّفْلِ، فَإِنَّ الْأُمَّ تِيرِيزَا
نَفْسَهَا مَا كَانَ فِي اسْتَطَاعَتِهَا إِنْقَاذَهُ؟»

طويت ذراعِيّ، وقلت: «لكنّ ذلك لم يكن ابني».

رفعت رأسها، وقالت: «لقد سمعت الشهادة الطيبة من الدكتورة أتكينز التي أگدها الدكتور بيني. ابنك مصاب بالفعل باضطراب أبيضِيّ، سيّد باور، أليس هذا صحيحاً؟»

«لا أعرف»، وأدّرت وجهي نحو روث جيفرسون، وقلت: «لقد قتلته قبل أن يتمّ فحصه».

فسألتني: «هل تعتقد ذلك حقاً أمام الأدلّة العلميّة؟»
قلت: «نعم».

انبعث من عينيها شرر، وكزّرت قائلة: «أنت تعتقد ذلك حقاً أم عليك أن تعتقد بذلك؟»
«ماذا؟»

«إنّك تؤمن بالله يا سيّد باور، أليس كذلك؟»
«نعم».

«وتؤمن بأنّ الأشياء تحدث لسبب ما؟»
«نعم».

«سيّد باور، هل تستخدم على تويتر حساب @WhiteMight؟»

قلت: «نعم»، لكنّي لم أعرف ما علاقة ذلك بأسئلتها التي بدت مثل رياح تهبّ من اتجاه مختلف في كلّ مرة.

وضعت نسخة مطبوعة من الكمبيوتر في ملفّ الأدلّة وقالت: «هل هذا المنشور من حسابك على تويتر كتبته في تموز (يوليه) الماضي؟»
هزّزت رأسي موافقاً.

«هل يمكنك أن تقرّاه بصوت عالٍ؟»
فقلت: «يصيبنا كلّ ما سيأتي إلينا».

«إِذَا، أَظُنُّ أَنَّ ابْنَكَ أَصَابَهُ مَا كَانَ قَادِمًا إِلَيْهِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

تَكَوَّرَتْ قَبْضَتَا يَدَيَّْ عَلَى حَاجِزِ مَنْصَةِ الشَّاهِدِ، وَقَلْتُ: «مَاذَا قَلْتِ؟» كَانَ صَوْتِي مَنخَفُضًا، لَاهِبًا.

كَرَّرْتُ: «قَلْتِ لَا بَدَأَنَّ ابْنَكَ قَدْ أَصَابَهُ مَا يَسْتَحِقُّهُ.»

«كَانَ ابْنِي بَرِيئًا. مَحَارِبًا أَرِيًّا.»

تَجَاهَلْتُ رَدِّي، وَقَالْتُ: «لِنَفْكَرِ فِي الْأَمْرِ، أَظُنُّ أَنَّكَ حَصَلْتَ عَلَى مَا تَسْتَحِقُّهُ أَيْضًا...»

«أَخْرَسِي.»

«لِهَذَا السَّبَبِ تَتَهَمُ امْرَأَةً بَرِيئَةً بِوَفَاةِ اعْتِبَاطِيَّةٍ تَمَامًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لِأَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ صَحِيحٌ حَقًّا - أَيْ أَنَّ ابْنَكَ يَحْمِلُ مَرَضًا وَرَاثِيًّا...»

نَهَضْتُ وَاقْفًا، وَصَرَخْتُ غَاضِبًا: «أَخْرَسِي...»

كَانَتْ الْمُدَّعِيَةُ الْعَامَّةُ تَصْرُخُ، وَهَذِهِ الْمَحَامِيَةُ الْقَحْبَاءُ تَصْرُخُ فِيهَا. «لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَقْبَلَ حَقِيقَةَ أَنَّ مَوْتَ ابْنِكَ كَانَتْ بِلَا مَعْنَى وَوَلَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ حَطِّ سَيِّئٍ، فَأُنْحِيَتْ بِاللَّائِمَةِ عَلَى رُوْتِ جِيفْرَسُونِ لِأَنَّكَ إِذَا لَمْ تَفْعَلِ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَسْؤُولُ عَنْ مَوْتِهِ، لِأَنَّكَ أَنْتَ وَزَوْجَتِكَ خَلَقْتُمَا، بِطَرِيقَةٍ مَا، طِفْلًا أَرِيًّا يَوْجَدُ عَيْبَ فِي حَمْضِهِ النَّوَوِيِّ. أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا يَا سَيِّدَ بَاوْر؟»

مِنْ زَاوِيَةِ عَيْنِي، رَأَيْتُ أُوْدَيْتَ لُوْتُونِ تَسِيرُ فِي اتِّجَاهِ الْقَاضِي. لَكِنِّي كُنْتُ خَارِجَ مَقْعَدِي الْآنَ، مَنحَنِيًا فَوْقَ حَاجِزِ مَقْصُورَةِ الشُّهُودِ. لَقَدْ اسْتَيْقِظَ الْوَحْشُ الَّذِي كَانَ هَاجِعًا دَاخِلِي فَجَاءَ وَبَدَأَ يَتَنَفَّسُ. «أَيُّهَا الْقَحْبَاءُ»، قَلْتُ وَأَنَا مَتَّجِهَةٌ نَحْوَ حَنْجَرَةِ كَيْنِيدِي مَكَوْرِي. كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ فَوْقَ الْحَاجِزِ عِنْدَمَا هَاجَمَنِي حَارِسُ الْمَحْكَمَةِ ذُو الرَّأْسِ الْكَبِيرِ: «أَنْتِ عَاهِرَةٌ خَائِنَةٌ لِلْعَرَقِ الْأَبْيَضِ.»

من بعيد، تناهى إليّ صوت القاضي وهو يضرب بمطرقتة، وطالب بإخراج الشاهد من قاعة المحكمة. شعرت أنني أُجرُّ إلى خارج القاعة وحذائي يمسح الأرض. سمعتُ بریت تنادي اسمي، وصيحة احتجاج فرانسيس، والتصفيق المدوّي لأتباع موقع *Lonewolf.org*.

لا أتذكّر الكثير بعد ذلك سوى أنني أرفُّ بعينيّ، ورأيت فجأة أنني لم أعد في قاعة المحكمة، وإمّا في زنّانة في مكان ما، لها جدران إسمنتية، وفيها سرير ومرحاض. بدا لي كأنّه إلى الأبد. لكن، بعد نصف ساعة فقط جاءت أوديت لتون. كدت أضحك عندما فتح الحارس باب الزنّانة، ووقفت هناك. تصوّروا أنّ التي ستنقذني امرأة سوداء.

قالت: «كان ذلك أكثر من حماقة. في مرّات كثيرة أردت أن أقتل محامية الدفاع، لكنني لم أحاول ذلك قط.»

«حتّى إنني لم أمسها»، قلت لها عابساً.

«لا يهمّ هيئة المحلّفين ذلك. يجب أن أخبرك يا سيّد باور أنّ غضبك هناك أضعف أيّ مزيّة كانت تتمتع بها الولاية في هذه القضية. لم يعد هناك شيء يمكنني فعله لأجلك.»

«ماذا تقصدين؟»

نظرت إليّ، وقالت: «لقد توقّفت النيابة العامة عن متابعة قضيتك.»

لكنني لن أتوقّف أبداً.

كينيدي

لو كان بإمكانني أن أدخل عربة يجرها حصان إلى مكتب القاضي ثاندر، لفعلت ذلك.

تركت هوارد جالساً مع روث في إحدى غرف الاجتماعات. لديّ فرصة ممتازة لإنهاء هذه القضية. قدّمت طلبي للحصول على حكم بالبراءة، ويمكنني القول إنني عندما دخلت مكتب القاضي، عرفت أنّ أوديت قد أدركت أنّها غرقت. قلت: «حضرة القاضي، نعرف أنّ هذا الطفل قد مات، وهو أمر مأساويّ، لكن لا يوجد أيّ دليل على الإطلاق يثبت وجود أيّ سلوك متعمّد أو متهور أو طائش من جانب روث جيفرسون. إنّ ادّعاء الولاية بأنّها ارتكبت جريمة قتل غير مدعوم بالإثباتات والبراهين، وبحكم القانون، يجب رفضه».

التفت القاضي إلى أوديت، وقال لها: «أيتها المستشارة؟ أين هو الدليل على وجود سبق إصرار وترصّد؟ على وجود ضغينة؟»

رقت أوديت حول ردّه، ثمّ قالت: «أرى أنّ التعليق حول تعقيم الطفل يعدّ مؤشراً قوياً».

فقلت: «حضرة القاضي، كان ذلك رداً جارحاً من امرأة تعرّضت للتمييز»، وأضفت، «أصبح ذا صلة على نحو غير مريح في ضوء الأحداث اللاحقة، لكنّه لا يزال لا يشير إلى خطة لارتكاب جريمة قتل».

فقال القاضي ثاندر: «يجب أن أتفق مع السيّدة ماكواري. حاقدة، نعم؛ قاتلة، ليس بحرفيّة القانون. إذا حمّلت المحاميتان المسؤولية عن التعليقات الانتقاميّة التي تدليان بها حول القضاة في حال لم تسر القضية كما تشاءان، فسيتمّ توجيه الاتهام إليكما بارتكاب جريمة القتل العمد.

رُفضت التهمة الأولى، وسيّدة ماكواري، قُبِل طلبك بشأن الحكم بالبراءة من جريمة القتل العمد».

لَمَّا سرت في الردهة إلى غرفة الاجتماعات لأزفّ إلى موكلتي هذا الخبر العظيم، نظرت خلفي لتأكد أنّ المكان خالٍ، ثمّ أسرعته الخطى قليلاً بحذاءي ذي الكعب العالي. أقصد، لا يأتي تيار محاكمة جريمة قتل في اتّجاهك كلّ يوم، وبالتأكيد لا يحدث ذلك في أول محاكمة قتل تراعين فيها. تخيلت كيف أنّ هاري سينادينني إلى مكتبه، ويقول لي بطريقته الفظة إنّني فاجأته. تخيلته وهو يسمح لي بأن أحظى بنصيبي، من الآن فصاعداً، من القضايا الكبيرة، وأرقّي هوارد ليغطّي واجباتي الحاليّة.

دخلت غرفة الاجتماعات، والابتسامة تعلو وجهي. التفت هوارد وروث إليّ، متفائلين. قلتُ وأنا أبتسم: «أسقطت تهمة القتل».

«هههه»، صاح هوارد، ورفع قبضته في الهواء.

كانت روث أكثر حذراً، وقالت: «أعرف أنّ هذا خبر جيّد... لكن، إلى أيّ مدى؟»

فقلت: «ممتاز. إنّ القتل الناجم عن الإهمال حيوان مختلف تماماً من الناحية القانونية. أسوأ سيناريو - إدانة - لا توجد فيها أيّ فترة في السجن تقريباً، وبصراحة، فقد كانت أدلّتنا الطبية قويّة جداً إلى درجة كنت سأصدم إذا لم تبرئ هيئة المحلّفين...»

ألقت روث ذراعيها حول رقبتني، وقالت: «شكراً لك».

قلتُ لها: «فكّري فقط. قد ينتهي كلّ هذا في نهاية هذا الأسبوع. سأذهب إلى المحكمة غداً وأقول إنّ الدفاع أنهى الدفاع عن قضيتّه، وإنّه مستعدّ لسماع قرار القاضي أو هيئة المحلّفين، وإذا ما عادت هيئة المحلّفين بالحكم بالسرعة الذي أظنّ أنّهم سيتخذونه...»

فقاطعتني روث وقالت: «انتظري. ماذا؟»

عدت خطوة إلى الوراء، وقلت: «لقد أحدثنا شكاً معقولاً. هذا كل ما علينا أن نفعله كي نريح القضية».

فقال روث: «لكنتي لم أقدم شهادتي».

«لا أظن أنه يجب أن تقفي أمام المنصة كشاهدة. تسير الأمور حالياً سيراً جيداً بالنسبة إلينا. إذا كان آخر شيء يدور في رؤوس المحلفين هو أن تورك باور يحاول ملاحقتي، فقد حظيت تَوّاً بدعمهم».

انتصبت في وقفها وقالت: «لقد وعدتني».

«وعدتك بأنني سأبذل قصارى جهدي لتبرئتك، وقد فعلت ذلك».

هرّت روث رأسها، وقالت: «وعدتني أن أحكي قصّتي».

فقلت: «لكنّ الجميل في الأمر أنك لست مضطّرة إلى أن تفعل ذلك»، وأضفت، «تسلّم هيئة المحلفين الحكم، ثمّ تستعيد وظيفتك. عليك أن تتظاهري بأنّ كلّ هذا لم يحدث».

كان صوت روث ناعماً، لكنّه صلب، وسألتني: «هل تظنّين أنني أستطيع أن أتظاهر بأنّ ذلك لم يحدث؟ إنّي أرى ذلك كلّ يوم، في كلّ مكان أذهب إليه. هل تظنّين أنني سأذهب وأستعيد وظيفتي؟ هل تظنّين أنني لن أكون دائماً تلك الممرضة السوداء التي أحدثت تلك المتاعب؟»

فقلت بريية: «روث، أنا متأكّدة بنسبة تسعة وتسعين في المئة أنّ هيئة المحلفين ستحكم بأنك لست مذنبه. ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟»

أملت رأسها، وقالت: «هل لا يزال عليك أن تسألني؟» أعرف ما الذي تقصده.

أي كلّ ما رفضت أن أتحدّث عنه في المحكمة: كيف يبدو الأمر عندما تعرفين أنك مستهدفة بسبب لون بشرتك. ماذا يعني أن عملي بجدّ، وأن تكوني موظّفة مثاليّة، ولا يغيّر ذلك شيئاً في مواجهة التحيزّ.

صحيح، قلت لها إن لديها لحظة لتحكي لهيئة المحلفين عن جانبها من القصة. لكن، ما الفائدة الآن، إذا كنا قد أعطيناها الآن مشجراً يعلّقون عليه حكمهم بالبراءة؟ قلت: «فكّر في إديسون».

فأجابت روث، بحماس: «إنّي أفكّر في ابني، أفكّر في ما سيكون رأيه في أمّ لم تتحدّث عن نفسها». ضيّقت عينيها، وأضافت: «أعرف كيف يعمل القانون يا كينيدي. أعرف أنّ على الولاية عبء الإثبات. أعرف أيضاً أنّك يجب أن تدعيني كشاهدة إذا طلبت منك ذلك. لذلك، فإنّي أفترض أنّ السؤال هو: هل ستؤدّين عملك؟ أو ستكونين مجرد شخص أبيض آخر كذب عليّ؟»

التفتُ إلى هوارد الذي يستمع إلى حديثنا المتبادل مثل كرة طائرة في نهائي فردي السيدات في بطولة الولايات المتحدة المفتوحة، وقلت بصوت حيادي: «هوارد، هل يمكنك أن تخرج للحظة كي أتحدّث مع موكلتنا على انفراد؟»

هزّ رأسه وانسلّ خارجاً. التفتُ إلى روث، وقلت: «ماذا بحقّ الجحيم؟ إنّ التمسك بالمبادئ ليس الوقت المناسب الآن. يجب أن تثقي بي. إذا جلست إلى منصّة الشهود وبدأت تتحدّثين عن العرق، فإنّك ستمحين سبق الذي أحرزناه الآن لصالح هيئة المحلفين. ستتحدّثين عن قضايا تنفّرهم ولا تجعلهم يشعرون بالراحة. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ حقيقة أنّك مستاءة وغازبة ستظهر بصوت مرتفع وواضح وتنفي أيّ تعاطف يشعرون به نحوك الآن. لقد قلت حتّى الآن كلّ ما تحتاج هيئة المحلفين إلى سماعه».

فقال روث: «ما عدا الحقيقة».

«عمّ تتحدّثين؟»

«لقد حاولت أن أنعش ذلك الطفل. في البداية، قلت لك إنّني لم ألمسه. قلت للجميع ذلك، لكنني لمسته».

شعرت بالغثيان وقلت لها: «لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟»

«في البداية، كذبت لأنني ظننت أنني سأفقد وظيفتي. ثم كذبت لأنني لم أكن أعرف أنني أثق بك أم لا. ثم، كلما حاولت أن أقول لك، شعرت بالحرَج لأنني أخفيت عنك ذلك لفترة طويلة، وازداد الأمر صعوبة». ثم أخذت نفساً عميقاً، وقالت: «هذا ما كان يجب أن أخبرك به في أوّل يوم التقينا فيه: لم يكن من المفترض أن ألمس الطفل. كان ذلك مسجلاً في الملفّ الطبيّ، لكن عندما ازرقّ لونه، أزلت عنه القمّاط، وبدأت أحركه. نقرت على قدميه وقلبته على جانبه. فعلتُ كلّ الأشياء التي يجب عملها عندما تحاولين أن تجعلي الطفل يستجيب مرّة أخرى. ولمّا سمعت وقع خطوات لففته مرّة أخرى. لم أشأ أن يراني أحد أفعل ما لم يكن من المفترض أن أفعله».

«لماذا نعيد كتابة التاريخ يا روث؟» سألتها بعد لحظة، «إذ يمكن أن تسمع هيئة المحلّفين ذلك وتظنّ أنك بذلت قصارى جهدك، لكنهم قد يعتقدون أيضاً أنك لم تحسني التصرف، وفعلت شيئاً أذى إلى موته».

فقالت: «أريد أن يعرفوا أنني أديت واجبي على أكمل وجه. إنك لا تتوقّفين عن القول لي إنّ ذلك لا علاقة له بلون بشرتي - إنّه يتعلّق بكفائي. حسناً، بالإضافة إلى كلّ شيء آخر، أريد أن يعرفوا أنني ممرضة جيّدة، وأنني حاولت أن أنقذ ذلك الطفل».

«تظنّين أنك إذا صعدت إلى منصّة الشهود، فإنك سستتمكّنين من سرد قصّتك وتسيطرين على الأمر - ليس الأمر هكذا. سوف تمزّقك أوديت. ستفعل كلّ ما في وسعها لتشير إلى أنّ هذا يعني أنك كاذبة».

نظرت روث إليّ، وقالت: «أفضّل أن يظنّوا أنني كاذبة على أن أكون قاتلة».

أوضحت لها بعناية: «إذا وقفت هناك وقلت رواية مختلفة عن الرواية التي قدّمناها توّاً فإنك ستفقدين مصداقيتك، وأفقد مصداقيتي. أنا أعرف ما هو الأفضل لك. يوجد سبب أننا دُعينا للمشاورة - من المفترض أن تنصتي إليّ».

«لقد سئمت أتباع الأوامر. آخر مرة أتبعته فيها الأوامر، تورطت في كل هذه الفوضى». طوت روث ذراعها، وقالت على نحو قاطع: «ستضعيني على المنصة غداً، أو أنني سأقول للقاضي إنك لن تدعيني أدلي بشهادتي».

في تلك اللحظة، عرفت أنني سأخسر هذه القضية.

ذات ليلة، لمّا كنت أنا وروث نحضر للمحاكمة، كنّا نعمل في مطبخي، وكانت فيوليت سعيدة جداً، تركض في دوائر حول المنزل ملبسها الداخلية تتظاهر بأنها وحيد القرن. كانت أصواتها تتخلل أحاديثنا، وفجأة لم يكن الصوت الذي سمعناه يشي بالفرح، وإمّا بالألم. بعد لحظة، بدأت فيوليت تبكي، فركضنا كلتانا إلى غرفة الجلوس، ورأينا فيوليت مستلقية على الأرض يسيل الدم من صدغها بغزارة.

بدأت ركبتي ترتعشان، لكن قبل أن أمكن من الوصول إلى ابنتي، كانت روث تحتضنها بين ذراعها، وتضغط أسفل قميصها حتى الجرح. «هيا الآن»، قالت مهدئة إياها، «ماذا حدث؟»

«انزلقتُ ووقعت»، قالت فيوليت، وقد بلل دمها قميص روث.

فقال لها روث بهدوء: «أرى أنك جرحت جرحاً بسيطاً هنا، وسأعتني به». وبدأت تصدر إليّ أوامر في منزلي، وطلبت إليّ بكفاءة أن أحضر منشفة مبلّلة، ومرهم مضاد حيويّ، وضمادة من علبة الإسعافات الأولىّة. لم تترك فيوليت من يديها، ولم تتوقّف عن التحدّث معها، حتى عندما اقترحت أن نأخذ فيوليت إلى مستشفى بيل - نيو هافن لمعرفة إن كانت في حاجة إلى قطبة أو لا. كانت روث قويّة، متماسكة، في حين ظلّ الخوف ينهشني وأنا أتساءل إن كانت ستبقى ندبة على وجه فيوليت، وهل سأتعرّض إلى توبيخ من جمعيّة خدمات حماية الطفل لأنني لم أراقب طفلي جيداً، أو لأنني تركتها تركض على أرضيّة خشبيّة زلقة وهي ترتدي جورباً. لمّا احتاجت فيوليت إلى قطبتين، لم أكن أنا التي تشبّثت بها، وإمّا

روث التي وعدتها بأننا إذا غنينا بصوت عال، فإنها لن تشعر بأي ألم. وهكذا، رحنا نغني نحن الثلاثة أغنية «دعها تذهب» بأعلى أصواتنا، ولم تبك فيوليت قط. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، كما وضعت ضمادة نظيفة على جبهتها وهي نائمة في سريرها، شكرت روث.

قلت لها: إنك تتقنين ما تفعلينه.

فقلت: أعرف.

هذا كل ما تريده. أن يعرف الناس أنها عوملت بطريقة غير منصفة بسبب عرقها، وكي تُبقي سمعتها كمقدمة رعاية سليمة، حتى لو كان ذلك يعني إدانتها. «أراكِ تشرين وحدك»، قال ميكا عندما عاد إلى المنزل من المستشفى ووجدني في العتمة في المطبخ مع زجاجة نبيذ شيراز، «هذه أوّل علامة، كما تعلمين».

رفعت الكأس ورشفت رشفة طويلة، وسألته: «مم؟»

فقال: «سنّ البلوغ، ربّما».

«كان يوماً شاقاً في المكتب؟»

«بدأ عظيماً. أسطورياً، ثم انحدر إلى الجحيم بسرعة كبيرة».

جلس ميكا إلى جانبي وفكّ ربطة عنقه، وقال: «هل تريدان أن نتحدّث عن ذلك؟ أو عليّ أن أجلب قنينتي؟»

دفعت قنينة الشيراز نحوه، وقلت بتنهيدة: «ظننت أنني وضعت حكم البراءة في حقّيتي، ثم ذهبت روث وقرّرت أن تفسد كلّ شيء».

بينما كان يصبّ لنفسه كأساً من النبيذ، حكيت له كلّ شيء، بدءاً من الطريقة التي ألقى فيها تورك باور خطاب الكراهية، إلى النظرة في عينيه عندما توجّه نحوي، ومن اندفاع الأدرينالين الذي سرى في جسدي عندما

نال طلبي للحكم بالبراءة باعتراف روث حول إنعاش الطفل، إلى إصابتي بالدوار بأنني يجب أن أسمح لروث أن تدلي بشهادتها إذا طلبت ذلك، حتى لو كان ذلك سيضعف من فرصتي في ربح أول قضية جريمة قتل.

وسألته: «ماذا يجب أن أفعل غداً؟ فمهما سألت روث على المنصة، فإنها ستدين نفسها، ما عدا التفكير في ما ستفعله لها المدعية العامة في أثناء الاستجواب». اعترتني رجفة عندما فكرت في أوديت التي لا تعرف أن هذه النعمة توشك أن تُمنح لها، ثم قلت بهدوء: «لا أصدق أنني اقتربت من البراءة إلى هذه الدرجة. لا أستطيع أن أصدق أنها ستدمرها».

تحنح ميكا وقال: «الفكرة الراديكالية رقم واحد: ربما ينبغي لك أن تُخرجني نفسك من هذه المعادلة».

كنت قد شربت حتى بدا ميكا ضبابياً عند الحواف، لذلك ربما لم أسمع ما قاله جيداً، فقلت له: «عفواً؟»

«لم تقتربي كثيراً. روث هي التي اقتربت».

فقلت: «هذه دلالات لفظية. نربح كلتانا أو نخسر كلتانا».

فقال ميكا بلطف: «لكنها على المحك أكثر منك. سمعتها، وظيفتها، وحياتها. صحيح أن هذه أول محاكمة مهمة لك يا كينيدي، لكنّها المحاكمة الوحيدة التي تهّم روث».

مررت يدي عبر شعري، وسألته: «وما هي الفكرة الراديكالية الثانية؟»

«ماذا لو كان أفضل شيء بالنسبة إلى روث ليس ربح هذه القضية؟» ردّ ميكا، «ماذا لو كانت أهميتها بالنسبة إليها ليس ما ستقوله... وإمّا الحقيقة بأنّها مُنحت أخيراً الفرصة لأن تقول ذلك؟»

هل يستحقّ الأمر أن تكون قادراً على أن تقول ما الذي تريد قوله إذا كان ذلك يعني أنك ستصبح نزيلاً في السجن؟ إذا كان ذلك سيلصق التهمة بك؟ هذا يتعارض مع كل ما تعلمته، كل ما أوّمن به.

لكنني لست الشخص الذي يُحاكم.

ضغطت على صدغيّ بأصابعي. بدأت كلمات ميكا تدور في رأسي.

أخذ كأسه وأفرغها في كأسِي، وقال: «إنك تحتاجين إليه أكثر منِّي»، وقبّلني على جبيني، وأضاف: «لا تسهري حتى وقت متأخر».

في صباح يوم الجمعة، بينما كنت أَعْدُ الخطى لألتقي روث عند ساحة وقوف السيارات، مررت إلى جانب النصب التذكارِي المنتصب على العشب، إلى جانب مجلس المدينة، الذي يُحيي ذكرى سينغبي بيه، الذي كان أحد العبيد المشاركين في التمرد في أميستاد. ففي عام 1839، كانت ثَمَّة سفينة تحمل مجموعة من الأفارقة الذين أُخذوا من بلددهم ليصبحوا عبيداً في منطقة البحر الكاريبيّ، فتمردوا وقتلوا قبطان السفينة والطباخ، وأرغموا البحّارة الآخرين على العودة إلى أفريقيا، لكنّ البحّارة خدعوا الأفارقة واتّجهوا شمالاً، وصعدت السلطات الأمريكيّة إلى السفينة، وسُجن الأفارقة في مستودع في نيو هافن حتى جرت محاكمتهم.

ثار الأفارقة لأنّ طبّاخاً خلاصياً سمع طاقم السفينة من البيض أنهم يزمعون قتلهم وأكل لحمهم، لأنّ البيض الذين كانوا على متن السفينة يعتقدون أنّ الأفارقة يأكلون لحوم البشر.

لم يكن أيّ من الجانبين على صواب.

لَمَّا وصلتُ إلى ساحة انتظار السيارات، لم تنظر روث في عينيّ، وسارت بسرعة نحو قاعة المحكمة، وإديسون يسير إلى جانبها. لحقت بها، وأمسكت بذراعها، وسألتها: «ألا تزالين مصرّة على أن تفعلي ذلك؟»

فسألتني: «هل تظنّين أنّي لو نمت عليها فسأغيّر رأيي؟»

فقلت: «أتمنّى ذلك. أتوسّل إليك يا روث».

«ماما؟» قال إديسون، ونظر إلى وجهها، ثمّ إلى وجهي مرتبكاً.

رفعتُ حاجبيَّ كما لو أنّني أقول: فكّرني في ما تفعلينه لأجله.

شبكت ذراعها في ذراع ابنها، وأجابت: «هيا بنا»، وبدأت تمشي.

ازدادت أعداد المتجمهرين أمام المحكمة. الآن، بعد أن ذكرت وسائل الإعلام أنّ جانب الادّعاء من القضية قد انتهى، بدأ طعم الدّم يزداد حدّةً. رأيت والاس ميرسي وطاقمه من زاوية عيني، متأهّبين. ربّما كان عليّ أن أطلق والاس على روث، ربّما كان في استطاعته أن يقنعه بأن تحني رأسها وتدع العدالة تجري لصالحها. لكن، حسب معرفتي باللاس، فإنّه لن يفوّت فرصة التعبير عن رأيه. فرّبما عرض على روث أن يدربها على قول الحقيقة حول أيّ شيء تريد قوله.

كان هوارد ينتظر قلقاً أمام المحكمة، ثمّ قال متوتراً: «إدّا، هل سنتوقّف؟ أو...»

فقلت مباشرة: «نعم، أو...»

«إذا أردت أن تعرفي، فقد عادت أسرة باور. إنهم في قاعة المحكمة.»

«شكراً يا هوارد»، قلت ساخرة، «بدأت الآن أشعر بتحسّن أكثر.»

كلّمتُ روث مرّةً أخرى، قبل لحظات من أن يُطلب إلينا الوقوف عندما دخل القاضي. همست لها: «سأنصحك نصيحة واحدة: كوني هادئة، متماسكة، رابطة الجأش، قدر الإمكان. فإذا رفعت صوتك قليلاً، فستنقضّ عليك المدّعية العامّة. ويجب أن تجيبي عن أسئلتها بالطريقة عينها التي تجيبين فيها عن أسئلتني عندما تبدأ أوديت استجوابك.»

نظرت إليّ. مع أنّ أعيننا التقت بسرعة، لكن كان ذلك كافياً لأرى الوميض فيهما، الخوف. فتحت فمي، مستشعرةً الضعف الذي يعتريها، عازمة على أن أُنثيها مرّةً أخرى، لكنّي تذكّرت ما قاله لي ميكا، فقلت لها: «حظاً سعيداً.»

نهضت واقفة، ودعوت روث جيفرسون إلى منصّة الشهود.

بدت لي أصغر حجماً وهي جالسة إلى المنصة. كالعادة، كان شعرها مسحوباً إلى الورا في شكل كعكة. هل لاحظت من قبل كم كانت تبدو قاسية؟ يداها مثنيتان في حجرها بإحكام. أعرف أنها تحاول ألا ترتجف، لكن الأمر لم يكن يبدو كذلك لهيئة المحلّفين الذين بدت لهم امرأة رسمية إلى درجة كبيرة. كرّرت أداء اليمين بهدوء من دون أيّ مشاعر أو توتّر. أعرف أنّ ذلك بسبب شعورها بأنّها أصبحت مكشوفة أمام الآخرين، لكن قد يفسّر الخجل خطأ بأنه غطرسة، وقد يشكّل عيباً قاتلاً.

سألتها: «روث، كم عمرك؟»

فقال: «أربع وأربعون».

«أين ولدت؟»

«في هارلم، في مدينة نيويورك».

«هل ذهبت إلى المدرسة هناك؟»

«لبضع سنوات فقط، ثمّ انتقلت إلى دالتون في منحة دراسية».

«هل أنهيت الجامعة؟»

«نعم، ذهبت إلى جامعة بلاتسبرغ، في ولاية نيويورك، كطالبة جامعية، ثمّ حصلت على الإجازة في التمريض من جامعة ييل».

«هل يمكنك أن تخبرينا كم كانت مدّة هذه الدراسة؟»

«ثلاث سنوات».

«عندما تتخرّجين ممرّضة، هل تؤدّين قسماً؟»

هزّت روث رأسها وقالت: «إنّه يدعى قسم فلورنس نايتنجيل».

وضعت قصاصة كإثبات، وأعطيتها لها، وسألتها: «هل هذا هو القسم؟»

«نعم».

«هل يمكنك قراءته بصوت عالٍ؟»

«أمام الله، وأمام المجتمعين هنا، أقطع على نفسي عهداً رسمياً بأن ألتزم بقواعد أخلاقيات وسلوك مهنة التمريض؛ وأن أتعاون بإخلاص مع أعضاء فريق التمريض الآخرين، وأنفذ تعليمات الطبيب أو الممرضة المشرفة بأمانة وبكل ما أملك من قدرة» - هنا تلعثمت - «الذين قد يكلفون بالإشراف على عملي». أخذت روث نفساً عميقاً، وتابعت، «وآلاً أقدم على أي عمل شرير أو خبيث، وآلاً أعطي عن قصد أي عقار ضارّ أو أساعد في ارتكاب أي خطأ طبي، وآلاً أفصح عن أي معلومات سرية قد تصل إلى علمي في أثناء عملي. وأتعهد بأن أبذل كل ما في وسعي لرفع معايير ومكانة التمريض العملية. وأتمنى أن تكون حياتي مكرسة للخدمة وللمثل العليا لمهنة التمريض». ثم رفعت عينيها ونظرت إليّ.

«هل هذا القسم أساسي لك كممرضة؟»

فقالت روث مؤكدة: «نعم، إننا نأخذه على محمل الجد. إنه يشبه قسم أبقراط للأطباء».

«منذ متى تعملين في مستشفى الرحمة - ويست هافن؟»

قالت روث: «منذ أكثر من عشرين سنة. حياتي المهنية كلها».

«ما هي مسؤولياتك؟»

«أنا ممرضة في قسم الولادة. أساعد الأمهات في ولاداتهن، وأعمل كذلك في غرفة العمليات في أثناء الولادات القيصرية، وأعتني بالأمهات، وبعد الولادة أعتني بالمواليد الجدد».

«كم ساعة تعملين في الأسبوع؟»

أجابت روث: «أربعين ساعة وأكثر. غالباً ما يُطلب إلينا أن نعمل وقتاً إضافياً».

«روث، هل أنت متزوجة؟»

فقالت: «أنا أرملة. كان زوجي عسكرياً في الجيش، قُتل في أفغانستان. حدث ذلك منذ عشر سنوات تقريباً».

«هل لديك أطفال؟»

«نعم، ابني إديسون. إنَّه في السابعة عشرة من عمره». لمعت عيناها، وراحتا تبحثان عن إديسون في القاعة.

«هل تتذكَّرين قدومك إلى العمل صباح الأول من تشرين الأول 2015؟»

فقالت روث: «نعم، وصلت في السابعة صباحاً في وردية عمل لمدة 12 ساعة».

«هل كُلفت بالعناية بديفيس باور؟»

«نعم. كانت أمُّه قد ولدت في وقت مبكر من ذلك الصباح. كُلفت بإجراء رعاية أمهوجيَّة بعد الولادة لبريتاني باور، وبفحص المولود الذي تجرَّبه الممرضة عادةً».

وصفت الفحص وقالت إنَّها أجرته في غرفة المستشفى.

«إذًا، كانت بريتاني باور موجودة؟»

فقالت روث: «نعم، وزوجها أيضاً».

«هل وجدت شيئاً ملحوظاً في أثناء هذا الفحص؟»

«لاحظت في الملف وجود نفخة قلبية. شعرت أنَّها لم تكن شيئاً يجب أن نقلق بشأنها - فهي حالة شائعة جداً للأطفال حديثي الولادة، لكن من المؤكَّد أنَّه كان شيئاً يجب على طبيبة الأطفال أن تفحصه عندما تعود، وهذا ما دعاني إلى كتابة الملاحظة».

«هل تعرفين السيد والسيدة باور قبل ولادة ابنيهما؟»

فأجابت روث: «لا. التقيتهما عندما دخلتُ الغرفة. هنَّأتها على مولودهما الجميل، وقلت لهما إنني هنا لأجري فحصاً روتينياً».

«ما الفترة التي بقيتَ فيها في الغرفة معهما؟»

«من عشر إلى خمس عشرة دقيقة».

«هل تبادلتِ أيَّ حديثٍ شفويٍّ مع الوالدين في ذلك الوقت؟»

«ذكرتُ لهما النفخة القلبية، وأن لا داعي للقلق. وأخبرتُهما أنّ مستويات السكر لديه تحسّنت منذ ولادته. وبعد أن نظّفتَ الطفل، اقترحت أن نحاول دفعه ليرضع».

«وماذا كان ردّهما؟»

«قال لي السيّد باور أن أبتعد عن زوجته، ثمّ قال إنّه يريد أن يتحدّث إلى المشرفة المسؤولة».

«كيف كان شعورك يا روث؟»

فقالت: «صُدمت. لم أعرف ما الذي فعلته كي ينزعج».

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«وضعت رئيستي، ماري مالون، ملاحظة في ملفّ المولود تقول فيها لا يُسمح لأيّ عامل طبيٍّ أمريكيٍّ من أصل أفريقيٍّ أن يلمس الرضيع. سألتها لماذا، فقالت إنّ ذلك استجابة لطلب الوالدين، وأنني سأكلّف مهمّة أخرى».

«متى رأيتَ الطفل بعد ذلك؟»

«صباح يوم السبت. كنت في غرفة الحضانة عندما أحضرته كورين - ممرضة الطفل الجديدة - لختانه».

«ماذا كانت مسؤولياتك في ذلك الصباح؟»

عبست وقالت: «كانت لديّ مريضتان - لا، بل ثلاث مريضات. كانت ليلة محمومة. كنت أعمل في ورديةٍ لم يكن من المفترض أن أعمل فيها لأنّ ممرضةً أخرى كانت مريضة. ذهبت إلى غرفة الحضانة لأجلب بياضات نظيفة، وأتناول لوح شكلاتة لأنني لم أتناول أيّ طعام في أثناء الوردية».

«ماذا حدث بعد ختان الطفل؟»

«لم أكن في الغرفة، لكنني افترضت أن كل شيء سار سيراً طبيعياً، ثم طلبت إليّ كورين أن أراقب الطفل لأنّه كان يتعيّن نقل مريضة أخرى إلى غرفة العمليّات، ويتطلّب البروتوكول مراقبة الطفل بعد الختان.»

«هل وافقت؟»

«لم يكن لديّ خيار آخر. لم يكن هناك أحد غيري ليفعل ذلك. كنت أعرف أنّ كورين أو ماري، المشرفة، ستعود بسرعة لتولّي هذه المهمة.»

«لَمَّا رأيتِ الطفلَ أوّل مرّة، كيف كان يبدو؟»

فقالت روث: «كان يبدو جميلاً. كان مقمّطاً ويغطّ في النوم. لكن، بعد بضع لحظات نظرت إليه ورأيت أنّ بشرته أصبحت شاحبة، وبدأ يصدر شخيراً. رأيت أنّه كان يعاني من صعوبة في التنفّس.»

مشيتُ نحو منصّة الشهود، ووضعت يدي على الحاجز، وسألتها: «ماذا فعلتِ في تلك اللحظة يا روث؟»

أخذت نفساً عميقاً وقالت: «حللتُ القمّاط. بدأت ألمس الطفل، وأنقر على قدميه، أحاول أن أحنّه كي يستجيب.»

بدت الحيرة على وجوه المحلّفين. وعادت أوديت وجلست في كرسيّها، شابكة ذراعيها، وارتسمت ابتسامة على وجهها.

«لماذا فعلتِ ذلك؟ في حين طلبت إليك المشرفة ألاّ تلمسيه؟»

اعترفت روث: «كان عليّ أن أفعل ذلك». يمكنني أن أرى الطريقة التي حرّرتها مثل فراشة تنبعث من شرنقة. أصبح صوتها أوضح، ولانت الخطوط حول فمها. «هذا ما ستفعله أيّ ممرّضة جيّدة في هذه الحالة.»

«ثمّ ماذا؟»

«كانت الخطوة التالية استدعاء الرمز لاستدعاء الفريق الكامل لإنعاش الوليد، لكنني سمعت وقع خطوات. عرفت أنّ أحداً ما قادم، ولم أعرف ما

أفعل. قلت في نفسي إنني سأفعل في مشكلة لو رأني أحدهم أعالج الطفل في حين طلبوا إليّ ألا أفعل ذلك. فلففته مرة أخرى، وتراجعت، ثمّ دخلت ماري غرفة الحضانة». نظرت روث إلى حضنها، وأضافت، «سألتنني ماذا أفعل».

«ماذا قلتِ لها يا روث؟»

لَمَّا نظرت إلى الأعلى، كانت عيناها واسعتين بشعور الخزي، «قلت لها لم أكن أفعل شيئاً»

«كذبتِ؟»

«نعم».

«من الواضح أنك كذبتِ أكثر من مرة، إذ لَمَّا استجوبتك الشرطة بعد ذلك، قلتِ إنك لم تبذلي أيّ جهد لإنعاش هذا الطفل. لماذا؟»

«كنت أخشى أن أفقد وظيفتي»، والتفتت إلى هيئة المحلفين لتدافع عن نفسها، «كلّ نسيج في كياني قال لي إنني يجب أن أساعد ذلك الرضيع... لكنّي كنت أعرف أيضاً أنني سأتلقى توبيخاً لو أنني خالفت تعليمات المشرفة. وإذا فقدت وظيفتي، فمن سيهتمّ بابني؟»

«إذاً، واجهتِ أساساً إمّا المساعدة في الإهمال الطبيّ وإمّا مخالفة تعليمات المشرفة؟»

هزّت رأسها، وقالت: «كانت المسألة خاسرة في جميع الأحوال».

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«استدعي الفريق الطبيّ. كانت مهمّتي إجراء عمليّات الضغط. بذلت كلّ ما في وسعي، بذلنا جميعنا قصارى جهدنا، لكن في النهاية لم يكن ذلك كافياً». رفعت عينيها، وأضافت: «لَمَّا أُعلن عن وقت الوفاة، ولَمَّا أخرج السيّد باور كيس الأنابيب من سلّة المهملات، وحاول أن يواصل الجهود بنفسه، كدت أستطيع أن أدرك الأمر». ومثل سهم يبحر عن دريئته، شحذت عينيها ووجّهتهما نحو تورك باور في القاعة، وقالت: «قلت لِنفسي:

ماذا فاتني؟ هل كان بإمكانني أن أفعل شيئاً مختلفاً؟» ترددت، «ثم قلت في نفسي: هل كان سيسمح لي؟»

قلت: «بعد أسبوعين تلقيت رسالة، هل يمكنك أن تخبرينا عنها؟»
«كانت مرسلة من مجلس الصحّة. تعليق رخصتي لممارسة مهنة التمريض.»
«ما الذي دار في ذهنك عندما تلقيتها؟»

«أدركتُ أنّهم حملوني المسؤولية عن وفاة ديفيس باور. كنت أعرف أنّهم سيوقفونني عن وظيفتي، وهذا ما حدث.»
«هل عملتِ منذ ذلك الحين؟»

فقلت روث: «سُجّلت لفترة قصيرة في برنامج المعونة الحكوميّة، ثمّ عملت في ماكدونالدز.»

«روث، كيف تغيّرت حياتك في أعقاب هذا الحادث؟»
أخذت نفساً عميقاً وقالت: «لم تعد لديّ مدّخرات. نعيش الآن من أسبوع لأسبوع. أنا قلقة بشأن مستقبل ابني. لم أعد أستطيع أن أستخدم سيارتي لأنني لم أعد أستطيع تحمّل تكاليف تسجيلها.»
أدرت ظهري، لكنّ روث لم تنه كلامها.

تابعت تقول بهدوء: «من المضحك أنّك تظنّين أنّك شخص محترم في المستشفى الذي تعملين فيه، وفي المدينة التي تعيشين فيها. كان لديّ عمل ممتاز. كانت لديّ زميلات كنّ صديقات. عشت في منزل كنت فخورة به على الدوام، لكن، لم يكن كلّ ذلك سوى خداع بصريّ، فلم أكن قطّ فرداً في أيّ من هذه المجتمعات. كانوا يتسامحون معي، لكنهم لم يرحّبوا بي. كنت، وسأظلّ دائماً، مختلفة عنهم.» رفعت برصها، «وبسبب لون بشرتي، سأكون دائماً الشخص الذي يقع عليه اللوم.»

يا إلهي! قلت في نفسي، يا إلهي! اسكتي يا روث. لا تذكرني ذلك. ثم قلت: «لم تعد لدي أسئلة أخرى»، في محاولة لأن أقلل من خسائرننا.

لم تعد روث شاهداً، وإنما قبلة موقوتة.

لَمَّا عدتُ وجلستُ إلى طاولة الدفاع، كان هوارد فاغراً فمه، ودفع لي قصاصة كتب عليها: ما الذي يجري؟

فكتبت له أسفل القصاصة: هذا مثال على ما لا تريد أن يفعله شاهد أبداً.

خطت أوديت نحو منصّة الشاهد، وقالت: «طُلب إليك ألا تلمسي ذلك الطفل؟»

فقال روث: «نعم».

«حتّى اليوم، كنت تقولين إنك لم تلمسي هذا الطفل حتّى طلبت إليك صراحة

الممرضة المشرفة؟»

«نعم».

«لكنك شهدت الآن في استجوابك المباشر أنك لمستِ ذلك الطفل في الواقع عندما

بدأ يتنفس بصعوبة؟»

هزّت روث رأسها، وقالت: «هذا صحيح».

فقال روث أوديت: «إذاً، ماذا؟ هل لمستِ ديفيس باور أو لم تلمسيه عندما توقّف

عن التنفّس في البداية؟»

«لمسته».

«إذاً، لنوضّح الأمر. هل كذبت على المشرفة؟»

«نعم».

«وكذبتِ على زميلتك كورين؟»

«نعم».

«كذبتِ على فريق إدارة المخاطر في مستشفى الرحمة - ويست هافن، أليس كذلك؟»

هزّت رأسها، وقالت: «نعم».
«وكذبتِ على الشرطة؟»
«نعم».

«مع أنك تدركين أنّ لديهم واجباً والتزاماً أخلاقيين لمعرفة ما الذي حدث لذلك الرضيع المتوفّي؟»
«أعرف، لكن...»

صحّحت أوديت قائلة: «كنتِ تفكّرين في إنقاذ عملك، لأنّك كنتِ تعرفين في أعماقك أنّك كنتِ تفعلين شيئاً مريباً. أليس هذا صحيحاً؟»
«حسناً...»

فقال أوديت: «إذا كذبتِ على كلّ هؤلاء الأشخاص، فلماذا بحقّ السماء تصدّق هيئة المحلّفين أيّ شيءٍ تقولينه الآن؟»
التفتت روث نحو الرجال والنساء المحشورين في مقصورة المحلّفين، وقالت:
«لأنّني أقول لهم الحقيقة».

فقال أوديت: «صحيح، لكن هذا ليس اعترافك السريّ الوحيد، أليس كذلك؟»
إلى أين ستمضي في كلّ هذا؟
«في اللحظة التي مات فيها الطفل - عندما حدّدت طبيبة الأطفال وقت إعلان الوفاة - في أعماقك، لم تهتمّي بكلّ ذلك، أليس كذلك يا روث؟»
«طبعاً، كنتِ أهتمّ»، قالت روث واعتدلت في جلستها على كرسيّها، «بدلنا كلّ ما في وسعنا، كما نفعل مع أيّ مريض...»

«آه، لكن لم يكن هذا أيّ مريض. كان هذا ابن شخص من العنصرين البيض. طفل رجل رفض سنوات خبرتك في التمريض...»
«أنت مخطئة».

«رجل وضع قدرتك على أداء وظيفتك موضع شكّ وتساؤل بسبب لون بشرتك. لقد كرهتِ تورك باور، وكرهتِ طفله، أليس كذلك؟»
«أصبحت أوديت على بعد قدم واحدة من روث الآن، تصرخ في وجهها. أغمضت روث عينيها مع كل انفجار كأنها تواجه إعصاراً، وهمست: «لا، لم أفكر في ذلك قط».
«ومع ذلك، فقد سمعتِ زميلتك كورين تقول إنك كنتِ غاضبة بعد أن قالت لك إنه لم يعد بإمكانك رعاية ديفيس باور، أليس كذلك؟»
«نعم».

«هل عملتِ لمدة عشرين سنة في مستشفى الرحمة - ويست هافن؟»
«نعم».

«شهدتِ بأنك ممرضة ذات خبرة وكفاءة، وأنك تحبين عملك، هل من الإنصاف قول ذلك؟»
فقالت روث: «نعم».

«ومع ذلك، لم يكن لدى المستشفى مشكلة في أن يأخذ رغبات المريض في الحسبان على حساب احترام العاملين فيه، وطردك من عملك المهني الذي تمارسينه طوال تلك السنوات؟»
«يبدو ذلك».

«لا بدَّ أن ذلك جعلك تغضبين، أليس كذلك؟»
فقالت روث: «كنت منزعجة».

اجمعيها معاً يا روث، قلت في نفسي.

«منزعجة؟ قلت، وأنا أفتبس من كلامك إنَّ هذا الطفل لا يعني لي شيئاً».

«كان ذلك شيئاً قلته في لحظة انفعال...»

لمعت عينا أوديت، وقالت: «في لحظة انفعال! هل هذا أيضاً ما حدث عندما قلت للدكتورة أتكينز أن تعقِّم الطفل في أثناء ختانه؟»

فقال روث: «كانت مزحة. ما كان ينبغي لي أن أقول ذلك. كان ذلك خطأ».

«وما هو خطأ أيضاً؟» سألتها أوديت، «حقيقة أنك توقفت عن خدمة ذلك الطفل في حين كان يسعى إلى أن يتنفس، لمجرد أنك كنت تخشين كيف يمكن أن يؤثّر ذلك عليك؟»

«طلب إليّ ألا أفعل شيئاً».

«لذلك، اتخذت القرار الواعي بالوقوف فوق ذلك الرضيع الصغير المسكين الذي بدأ لونه يزرق، في حين كنت تفكرين، ماذا لو فقدت وظيفتي؟»
«لا...»

«أو ربّما كنتِ تقولين في نفسك: هذا الطفل لا يستحقّ مساعدتي. والداه لا يريدان أن ألمسه لأنني سوداء، وستتحقّق رغبتهما».

«هذا غير صحيح...»

«فهمت. كنتِ تقولين في نفسك: إنّي أكره والديه العنصرين؟»

«لا»، قالت روث، ووضعت يديها على رأسها محاولة ألا تسمع صوت أوديت.

«أوه، ربّما كان الأمر كذلك: أنا أكره هذا الطفل لأنني أكره والديه العنصرين؟»

«لا»، انفجرت روث بصوت مرتفع اهتزت معه جدران قاعة المحكمة، «قلت

لنفسني إنَّ من الأفضل أن يموت الطفل على أن يربّياه والداه العنصريان».

وأشارت مباشرة إلى تورك باور، في حين هبطت ستارة من الصمت فوق هيئة المحلّفين والموجودين في القاعة، ووقفي أيضاً. وضعت روث يدها على فمها. قلت في نفسي بعد فوات الأوان.

«اعتراض»، صاح هوارد، «نطالب بشطب العبارة».

في تلك اللحظة، جرى إديسون إلى خارج قاعة المحكمة.

لَمَّا رُفِعَت الجلسة، أمسكت بمعصم روث وسحبته إلى غرفة الاجتماعات. كان هوارد من الذكاء بأن عرف أنّ عليه ألا يدخل معنا. ما إن أُغلق الباب، حتّى استدرت إليها، وقلت: «تهانينا. لقد فعلتِ تماماً الشيء الذي لم يكن من المفترض أن تفعله يا روث».

سارت إلى النافذة، مولية ظهرها لي.

«هل أوضحتِ وجهة نظرك؟ هل أنت سعيدة لأنك وقفت على المنصّة للإدلاء بشهادتك؟ كلّ ما ستراه هيئة المحلّفين الآن امرأة سوداء غاضبة. امرأة غاضبة منتقمة، ولن أفاجا لو ندم القاضي على رفض تهمة القتل العمدم. لقد أعطيتِ هؤلاء المحلّفين الأربعة عشر كلّ الأسباب للاعتقاد بأنك مجنونة إلى درجة جعلتك تتركين هذا الطفل يموت أمام عينيك».

استدارت روث ببطء، تحيط بها هالة أشعّة شمس بعد الظهر، من عالم آخر، وقالت: «لم أغضب. أنا غاضبة. أنا غاضبة منذ سنوات، لكنّي لم أظهر غضبي. إنّ الشيء الذي لا تفهمينه هو أنّه كان عليّ أن أفكر طوال ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً في السنة في ألا أبدو امرأة شديدة السواد، لذلك ألعب دوراً، أضع على وجهي قناعاً مثل طبقة من الجبس. إنّهُ عمل مرهق. مرهق للغاية، لكنّي فعلت ذلك لأنني لا أملك نقوداً كافية لأدفع كفالة، وإمّا فعلت ذلك لأنّ لديّ ابناً. وإذا لم أفعل، فقد أفتقد وظيفتي وبيتي ونفسي. لذلك، فإنيّ أعمل وأبتسم وأهزّ رأسي، وأدفع فواتيري، وأبقى صامتة وأتظاهر بأنني راضية، لأنّ هذا ما يريده الناس - لا - ما

يحتاجون إلى أن أكون. والعار العظيم والمحزن هو أنني طوال سنوات كثيرة من حياتي المؤسفة، رضيت بتلك المهزلة. كنت أظن أنني لو فعلت كل هذه الأشياء، لأصبحت واحدة منكم».

سارت روث نحوي، وقالت ساخرة: «انظري إلى نفسك، فأنت تفخرين جداً بأنك محامية عامّة وتعملين مع أشخاص ملوّنين يحتاجون إلى مساعدة، لكن هل فكرت يوماً في أن سوء حظنا مرتبط مباشرة بحظك الجيد؟ ربما كان المنزل الذي اشتراه والداك متاحاً للبيع لأن أصحابه لم يرغبوا في أن تسكن أمي في ذلك الحي. ربما كانت الدرجات الجيدة التي حصلت عليها، والتي قادتك في النهاية إلى كلية الحقوق لأنّ أمك لم تكن مضطّرة إلى أن تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم، وكانت معك لتقرأ لك في الليل، أو لتتأكد أنك أدّيت واجبك المدرسي. كم مرة تذكّرين نفسك بأنك محظوظة لأنك تمتلكين منزلك، وأنك استطعت أن تراكمي قيمة عقاريّة لمنزلك عبر الأجيال بحيث لا تستطيع الأسر الملوّنة أن تفعل ذلك؟ كم مرة فتحت فمك في العمل وقلت لنفسك كم هو رائع أن لا أحد يفكر في أنك تتحدّثين بالنيابة عن جميع الأشخاص الذين لديهم لون بشرتك نفسه؟ كم يصعب إيجاد بطاقة تهنئة بعيد ميلاد طفلك مرسوم عليها صورة طفل له لون بشرته نفسه؟ كم مرة رأيت لوحة ليسوع تشبهك؟» توقّفت وهي تتنفس بصعوبة، وقد احمرّ خدّاها، ثمّ مضت تقول: «كما تعلمين، فإنّ التحيز يسير في كلا الاتجاهين، فهناك من يعاني منه، وهناك من يستفيد منه، الطفل الذي مات جعلك روبن هود؟ من قال إنني في حاجة إلى إنقاذ؟ ها أنت ذي هنا تمتطين حصانك العالي، وتقولين لي إنني أفسدت هذه القضية التي عملت لأجلها كثيراً، ترتبتين على ظهرك لأنك تدافعين عن امرأة سوداء فقيرة تكافح مثلي... لكنك جزء من السبب الذي جعلني أسقط على الأرض منذ البداية».

كانت على مسافة بضع بوصات منّي. شعرت بحرارة بشرتها. استطعت أن أرى نفسي منعكسة في حدقتي عينيها عندما بدأت تكلمني مرة أخرى،

«قلت لي إن بإمكانك أن تمثليني يا كينيدي. لا يمكنك أن تمثليني، لأنك لا تعرفيني. حتى إنك لم تحاولي ذلك قط». ثبتت روث عينيها في عيني، وقالت: «إني أعفيك من مهمة الدفاع عني»، وخرجت من الغرفة.

* * *

وقفت وحدي لبضع دقائق في غرفة الاجتماعات، أحارب جيشاً من المشاعر. إذاً لهذا السبب سُميت محاكمة. لم أشعر قط بالغضب والخجل والمهانة كما شعرت الآن. طوال السنوات التي مارست فيها مهنة المحاماة، كرهني بعض الموكلين، لكن لم يطردني أحد.

هكذا تشعر روث.

حسناً، فهمت: لقد أخطأ كثير من البيض في حقها. لكن هذا لا يعني أنها تستطيع أن تجمعني معهم بسهولة، وأن تحكم على شخص وتعممه على الآخرين.

هكذا تشعر روث.

كيف تجرؤ على اتهامي بأني غير قادرة على تمثيلها فقط لأنني لست سوداء؟ كيف تجرؤ على القول إنني لم أحاول أن أعرفها؟ كيف تجرؤ على وضع كلمات في فمي؟ كيف تجرؤ على أن تقول لي كيف أفكر؟

هكذا تشعر روث.

متأقفة، ألقيت بنفسي نحو الباب. كان القاضي ينتظرنا في مكتبه.

لما فتحت الباب كان هوارد واقفاً وراءه. يا إلهي! لقد نسيتته. «لقد أعفتك من مهمة الدفاع عنها؟» قال ثم أضاف خجلاً، «كنت أتصت».

بدأت أسير في البهو، وأنا أرددُ لِنفسي: «لا يمكنها أن تعفيني من الدفاع عنها الآن، فلن يسمح لها القاضي بذلك في وقت متأخر من المحاكمة». إنَّ الادعاء القانوني الذي ستقدمه روث بأنَّ المساعدة التي تقدمها المحامية

غير فعّالة، لكن لو كان ثمة أحد غير فعّال هنا، فهي موكلتي، لقد ألقت حكمها بالبراءة بنفسها.

«إذًا، ماذا يحدث الآن؟»

توقّفت عن السير، والتفتُ إليه، وقلت له: «تخمينك صحيح مثل تخميني».

حينما تقترب القضية من نهايتها، يقدّم محامي الدفاع طلباً بالحكم بالبراءة، أمّا هذه المرة، لمّا وقفت أمام القاضي ثاندر مع أوديت، فنظر إليّ كما لو أنّني أمتلك الجرأة على إثارة ذلك. «لا يوجد دليل على أنّ وفاة ديفيس باور نجمت عن تصرّف روث، أو عن إهمال»، أضفتُ من دون حماس، لأنّني أصبحت في هذه اللحظة، لست متأكّدة ممّا قلته.

فقال أوديت: «حضرة القاضي. من الواضح أنّ هذه محاولة يائسة أخيرة للدفاع، بعد ما سمعناه خلال تلك الشهادة. في الواقع، أودُّ أن أطلب بكلّ تواضع من المحكمة أن تلغي قرارها بشأن اقتراحك السابق بإسقاط تهمة القتل العمد. من الواضح أنّ روث جيفرسون قدّمت توّاً دليلاً على وجود ضغينة».

تجمّد دمي. كنت أعرف أنّ أوديت ستخرج وهي تتبختر، لكنني لم أتوقّع ذلك. «حضرة القاضي، يجب أن يثبت الحكم. لقد رفضت توّاً تهمة القتل، وهنا ينطبق مبدأ العقاب مرّتين. لا يمكن إدانة روث مرّتين بالجريمة عينها».

فقال القاضي ثاندر على مضض: «في هذه الحالة، السيّدة ماكواري على حقّ. لقد حصلت على حصّتك توّاً يا سيّدة لوتون، ورفضت توّاً تهمة القتل. لكنني سأحتفظ بحقّي في الحكم على طلب الدفاع المتجدّد للحكم بالبراءة». ونظر إلينا، كلّ على حدة، وأضاف: «تبدأ المرافعات الختامية صباح يوم الاثنين، أيّتها المستشارتان. دعونا نحاول ألاّ نجعل ذلك أكثر من مجرد عرض سخيف ممّا هو عليه الآن؟»

طلبتُ إلى هوارد أن يأخذ بقيةَ اليوم إجازة، وعدتُ إلى البيت. كان رأسي مشوّشاً، وشعرت أنّ دماغي محشور في جمجمتي، كما لو كنت أحارب نزلة برد دهمتني فجأة. لمّا وصلت إلى منزلي، استقبلتني رائحة فانيليا. دخلت المطبخ، ورأيت أمي مرتدية مريلة «امرأة العجائب» في حين كانت فيوليت جاثية فوق أحد مقاعد المطبخ، يدها في وعاء عجينة البسكويت. لمّا رأيتني صاحت: «ماما» ورفعت قبضتها الملتصقتين، «نعدُّ لك مفاجأة لذلك تظاهري بأنك لم تري شيئاً».

ثمّة شيء في العبارة التي قالتها علقت في حلقي. تظاهري بأنك لم تريها.
من أفواه الأطفال.

نظرت أمي إليّ وعبست من فوق رأس فيوليت، وسألنتني بصمت: «هل أنت على ما يرام؟»

ردّاً على سؤالها، جلست إلى جانب فيوليت، وغاصت أصابعي في عجينة البسكويت، وبدأت أتناولها.

ابنتي عسراء، مع أننا، أنا وميكا، لسنا كذلك. حتّى إنّه توجد لدينا صورة بالموجات فوق الصوتيّة وهي تمصّ إبهامها الأيسر في رحمي. «ماذا لو كان الأمر بهذه البساطة؟» دمدمت.

«ماذا لو كان الأمر بهذه البساطة؟»

نظرتُ إلى أمي وسألتها: «هل تظنّين أنّ العالم متحيّز للذين يستخدمون أيديهم اليمنى؟»

«مممم، لا يمكنني أن أقول إنني فكّرت في هذا الأمر».

فقلت: «هذا لأنك»، وأشرتُ، «تستخدمين اليد اليمنى. لكن فكّري في الأمر: فتّاحات العلب، المقصّات، حتّى المقاعد التي تطوى من الجانب، التي في الجامعة، كلّها مخصّصة للأشخاص الذين يستخدمون أيديهم اليمنى».

رفعت فيوليت اليد التي تمسك بها ملعقتها، تنظر إليها بتجهّم. قالت لي أمّي:
«حبيبتى، لماذا لا تذهبين وتستحمّين كي تتدوّقي أوّل وجبة تخرج من الفرن؟»
نزلتُ من على كرسيّها، ورفعت يديها كما يفعل ميكّا قبل أن يدخل غرفة
العمليّات.

«هل تريدين أن تجعلي الطفلة ترى كوايس؟» أنبّنتي أمّي، «بصراحة يا كينيدي،
من أين تأتين بهذه الأفكار؟ هل لها علاقة بقضيّتك؟»
«قرأت إنّ الذين يستخدمون أيديهم اليسرى يموتون صغاراً لأنّهم أكثر عرضة
للحوادث. لمّا كنت صغيرة، ألم تكن الراهبات يصفعن الأطفال الذين يكتبون بأيديهم
اليسرى؟»

أسندت أمّي يدها إلى وركها، وقالت: «مصائب قوم عند قوم فوائد، كما تعرفين.
يُفترض أنّ العُسر مبدعون أكثر من الآخرين. ألم يكن مايكل أنجلو ودافنشي وباخ
عُسرًا؟ وبالعودة إلى العصور الوسطى، كان المرء سيكون محظوظاً لو كان أعسر، لأنّ
معظم المحاربين يحملون السيوف بأيديهم اليمنى، ويحملون الدروع بأيديهم اليسرى،
وهذا يعني أنّه بإمكان المقاتل الأعسر أن يشنّ هجوماً مباغتاً»، ومدّت نحوي ملعقة
مسطّحة، ونخزنتني على الجانب الأيمن من صدري - «هكذا».

ضحكت، وسألتها: «وكيف عرفت ذلك؟»

فقالت: «كنت أقرأ روايات رومانسيّة، يا حبيبتى»، وأضافت، «لا تقلقي على
فيوليت، فإذا أرادت، يمكنها أن تتعلّم دائماً كيف تتقن استخدام كلتا يديها. كان أبوك
يجيد استخدام يده اليمنى ويده اليسرى في الكتابة واستخدام المطرقة»، ابتسمت
وأضافت: «ما عدا استخدام المضرب».

فقلت لها: «أف، كفى». لكن، في هذه الأثناء، لم يتوقَّف عقلي عن الدوران: ماذا لو كانت أحجية العالم مكاناً لا تتمكّنين من أن تتلاءمي فيه؟ والطريقة الوحيدة للعيش تكمن في أن تشوّهي نفسك، وتشدّي زواياك، وتحقّي نفسك، وتعدّلي نفسك حتى تتلاءمي فيه.

لماذا لم تتمكّن من تغيير الأحجية بدلاً من ذلك؟

«ماما؟» سألتها، «هل يمكنك أن تبقي مع فيوليت لبضع ساعات أخرى؟»

* * *

أذكر أنني قرأت ذات مرّة رواية تقول إنَّ سگان ألاسكا الأصليين الذين رأوا المبشّرين البيض، أوّل مرّة، اعتقدوا، في البداية، أنّهم أشباح. ولماذا لا يظنون ذلك؟ لأنّ البيض يتحرّكون كالأشباح عبر الحدود. كالأشباح، يمكننا أن نكون في أيّ مكان نريد أن نكون فيه.

قرّرت أنّ الوقت قد حان لأشعر بالجدران المحيطة بي.

أوّل ما فعلته أنّي تركت سيّارتي أمام المنزل، ومشيت، واستقللت الحافلة إلى وسط المدينة، حيث رحّت أتمشّي، ثمّ جلست على مقعد أنتظر حافلة أخرى، ورأيت متشرّدين يستجديان المارة، وكانا يطلبان على نحو أساسي نقوداً من الأشخاص البيض الذين يرتدون ثياباً رسمية أنيقة، أو من طلاب الجامعة الذين يضعون في آذانهم سمّاعات، وربّما كان واحد من بين ستة أو سبعة أشخاص يمدّ يده إلى جيبه ويعطيها بضعة قطع نقدية. لكنّ أحد هذين المتشرّدين كان يحصل على نقود أكثر من الآخر. كان امرأة مسنّة بيضاء، وشاباً أسود.

يُعدُّ حيّ هيل في نيو هافن من بين أكثر الأحياء شهرة في المدينة، ولديّ عشرات الموكّلين من هذا الحيّ، معظمهم متورّطون في بيع مخدّرات بالقرب من المساكن التي يقطنها ذوو الدخل المنخفض في شارع الكنيسة، الشارع الذي تقيم فيه أديسا، أخت روث.

بينما كنت أتجوّل في تلك الشوارع، رأيت أطفالاً يركضون، يطارد أحدهم الآخر، ومجموعة فتيات يتحدّثن اللغة الإسبانية، ورجالاً واقفين عند ناصية الشارع، عاقدين أيديهم إلى صدورهم. حرّاس صامتون. كنت الوجه الأبيض الوحيد في هذه المنطقة. لمّا بدأ الظلام يهبط، دخلت محلّ بقالة. راحت الفتاة الجالسة أمام صندوق الكاشير تحدّق إليّ وأنا أسير بين الممرّات. أحسست بنظراتها مثل لهب نار بين لوحيّ كتفيّ، ولمّا سألتني أخيراً: «هل يمكنني أن أساعدك؟» هزّزت رأسي، وخرجت من المحلّ.

من المقلق أنّني لم أرَ أحداً يشبهني في هذا الحيّ. ولم يكن الأشخاص الذين كنت أمرُّ بهم يتواصلون معي بأعينهم. فأنا الغريبة وسطهم، الإيهام المتورّم، الشخص الذي لا يشبه الآخرين، وعلى الرّغم من ذلك، فقد أصبحت في اللحظة عينها امرأة غير مرئيّة.

لمّا وصلت إلى شارع الكنيسة الجنوبيّ، بدأت أسير حول البنايات. كنت أعرف أنّ العفن سيكسو بعض تلك الشقق، وستصاب بتلف هيكليّ. كانت أشبه بمدينة أشباح: الستائر المنسدلة بإحكام، الأهالي في بيوتهم. عند درج إحدى البنايات، رأيت شابّين يتبادلان نقوداً، وسيّدة عجوزاً تحاول أن تجرّ أسطوانة أكسجين على الدرج من فوقهما. قلت لها: «المعذرة، هل يمكنني أن أساعدك؟»

حدّق الثلاثة إليّ، وتسمّروا في أماكنهم. نظر الشابان إلى الأعلى، ووضع أحدهما يده على حزام خصر بنطاله الجينز. خيّل إليّ أنّني رأيت مقبض مسدّس يبرز منه. ارتخت ساقي. قبل أن أتراجع، قالت المرأة العجوز بالإسبانية: «No hablo inglés» (لا أتكلّم الإنكليزية)، وصعدت الدرج بسرعة.

أردت أن أجرب كيف تعيش روث، لفترة المساء القصيرة فقط، لكنني لم أشأ أن أعرض نفسي للخطر. لكنّ الخطر نسبيّ. لدى زوجي عمل جيّد، ولدينا منزل جيّد، ولا نشعر بالقلق من أنّ شيئاً قد أقوله أو أفعله سيهدّد

قدرتي على وضع الطعام على المائدة، أو تسديد فواتيري. بالنسبة إليّ، يبدو الخطر مختلفاً؛ إنه أيّ شيء يمكن أن يفصلني عن فيوليت، وعن ميكا، لكن مهما كان الوجه الذي تضعه على فراعتك الشخصية، فإنه سيجلب لك كوابيس. لديها القدرة على بثّ الرعب، وتجعلك تفعل أشياء لا تظنّ أنّك ستفعلها عادة، كلّ ذلك لأجل البقاء في أمان.

كان ذلك يعني بالنسبة إليّ أنّني أجري في ليلة يزداد فيها النفق من حولي ضيقاً كي أتأكد من أنّ أحداً لا يتبعني حيث أسير. على مسافة بضعة بنايات، بدأت أسير ببطء عند مفترق الطريق. لم يعد نبضي يخفق بسرعة الآن، وبرد العرق تحت إبطي. اقترب رجل في مثل عمري تقريباً، وضغط على زرّ المشاة لاجتياز الشارع، وانتظر. تتناثر على خديه الداكنين بثور، خريطة طريق حياته، يحمل في يده كتاباً سميكاً، لكنني لم أستطع أن أرى عنوان الكتاب.

قرّرت أن أحاول مرّة أخرى. أومأت نحو الكتاب، وسألته: «هل هو كتاب جيّد؟ إني أبحث عن شيء أقرؤه».

حدّق إلى وجهي، وانزلق بصره بعيداً عني. لم يردّ.

لَمَّا أضاءت إشارة عبور الشارع، أحسست بخدّي يلتهبان. عبرنا الشارع ونحن نسير جنباً إلى جنب في صمت، ثمّ استدار وسار في أحد الشوارع.

تساءلت إن كان ينوي الذهاب في ذلك الشارع حقاً، أم أنّه أراد أن يضع مسافة بيننا. بدأت قدميّ تؤلماني، وبدأ جسدي كلّه يرتجف من شدّة البرد، واعتراضي شعور بهزيمة تامّة. أدركت أنها تجربة قصيرة، لكنني حاولت، في الأقلّ، أن أفهم ما قالته لي روث. حاولتُ.

لَمَّا سرت إلى المستشفى، حيث يعمل ميكا، فكّرت في هذا الضمير. فكّرت في مئات السنين التي كان من الممكن أن يواجهها رجل أسود لأنّه تحدّث إلى امرأة بيضاء. في بعض الأماكن في هذا البلد، لا يزال الأمر كذلك، وتداعيات ذلك القصص الفوريّ. بالنسبة إليّ، كانت النتيجة الوخيمة

لذلك الحديث العابر الشعور بالزجر، أما بالنسبة إليه، فقد كانت شيئاً آخر تماماً، كانت قرنين من التاريخ.

يقع مكتب ميكا في الطابق الثالث من المستشفى. لَمَّا عبرت أبواب ذلك المستشفى شعرت أَنني عدت إلى جوهرى. فأنا أعرف نظام الرعاية الصحيَّة. أعرف كيف سأعامل. أعرف الطقوس والاستجابات. يمكنني أن أتجاوز مكتب الاستعلامات من دون أن يسألني أحد إلى أين ذاهبة، أو لماذا أنا هنا. أستطيع أن ألوِّح للموظف في قسم ميكا وأدخل إلى مكتبه.

يُجري ميكا اليوم عمليَّاته الجراحية. جلست على كرسيِّ طاولة مكتبه، معطفي محلول الأزرار، وقد خلعت حذائي. رحت أهدق إلى أهودج العين البشريَّة على طاولة مكتبه، لغز ثلاثيِّ الأبعاد، في حين أخذت أفكاري تتسارع مثل إعصار، وكنت كلِّما أغمضت عيني، رأيت المرأة العجوز في شارع الكنيسة تنكمش وترفض المساعدة التي عرضتها عليها، وسمعت صوت روث يقول لي إنَّها أعفتني من مهمَّة الدفاع عنها. ربَّما أستحقُّ ذلك، ربَّما كنت على خطأ.

أمضيت شهوراً وأنا أركِّز على الطريقة التي تمكّني من تبرئة روث، لكن لو كنت صادقة حقاً، فإنَّ حكم البراءة هو لأجلي، لأنَّها أوَّل محاكمة جريمة قتل بالنسبة إليّ.

أمضيت شهوراً وأنا أقول لروث إنَّ الدعوى الجنائية ليست مكاناً لإثارة مسألة العنصريَّة، وإنَّك لو فعلت ذلك فقد تخسرين القضية. لكن، إذا لم تفعل ذلك، فهناك تكاليف - لأنك تعملين على إدامة نظام ممتلئ بالعيوب، بدلاً من السعي إلى تغييره.

هذا ما تحاول روث أن تقوله، لكنني لم أنصت إليها. إنَّها امرأة شجاعة إلى درجة أنَّها تجازف بفقدان وظيفتها ومصدر رزقها وحرّيتها كي تقول الحقيقة، وأنا الكاذبة. قلت لها إنَّ إثارة مسألة العرق غير مرحَّب بها في

المحكمة، مع أنني أعلم في أعماقي أنها موجودة، وكانت هكذا دائماً، ولأنني أغمض عينيَّ فإنَّ ذلك لا يعني أنها اختفت.

يقسم الشهود في المحكمة على الكتاب المقدس لقول الحقيقة، كلَّ الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، أما أكاذيب الإغفال فهي مطلوبة مثل أيِّ كذبة أخرى. وبغية إنهاء قضية روث جيفرسون من دون التصريح، صراحة، بأنَّ ما حدث ناجم عن لون بشرتها، قد يكون خسارة أكبر من الإدانة، ربَّما لو كان هناك محامون يتحلَّون بشجاعة أكثر منِّي، فلن نخاف أن نتحدَّث عن العرق في الأماكن التي يكون فيها التحدُّث عنه شديد الأهميَّة.

لو كان هناك محامون يتحلَّون بشجاعة أكثر منِّي، لما كانت هناك روث أخرى في مكان ما، تُتَّهم بحادثة أخرى ذات دوافع عنصريَّة لا يريد أحد أن يعترف بأنَّها حادثة ذات دوافع عنصريَّة.

لو كان هناك محامون أكثر شجاعة منِّي، لكان إصلاح النظام مهمًّا بأهمية تبرئة موكلتي.

ربَّما يجب أن أكون أكثر شجاعة.

اتَّهمتني روث بأنني أريد أن أنقذها، وربَّما كان ذلك تقييماً منصفاً. لكنَّها ليست في حاجة إلى إنقاذ. إنَّها ليست في حاجة إلى مشورتي، فَمَن أنا حقاً لأنصحها وأقدِّم لها المشورة، بما أنني لم أعش الحياة التي عاشتها؟ إنَّها لا تحتاج إلَّا إلى فرصة لأن تتكلَّم، أن يُسمع صوتها.

لست متأكِّدة تماماً كم مرَّ من الوقت عندما دخل ميكا مكتبه. كان لا يزال يرتدي بدلة الجراحة التي أراها دائماً مثيرة. لَمَّا رأني أضاء وجهه، وقال: «هذه مفاجأة جميلة.»

قلت له: «كنت في الحيِّ، هل يمكنك أن توصلني إلى البيت؟»

«أين سيأرتك؟»

هزرت رأسي، وقلت: «إنها قصة طويلة».

جمع بعض الملفات، وألقى نظرة سريعة على كومة من الرسائل، ثم مدَّ يده وتناول معطفه، وسألني: «هل كل شيء على ما يرام؟ كنتِ على مسافة مليون ميل عندما دخلت».

رفعت أمودج العين من على طاولة مكتبه، ورحت أقبه في يدي، وقلت: «أشعر كما لو أنني أقف تحت نافذة مفتوحة ألقى منها بطفل، وأمسكت الطفل، فمن منا لن يفعل ذلك؟ ثم ألقى بطفل آخر، فأعطيت الطفل إلى شخص بجانبني، وأمسكت الطفل الثاني، ولم يتوقَّف ذلك. وبعد قليل، أصبحت هناك مجموعة كاملة من الأشخاص الذين يجيدون تمرير الأطفال من أحدهم إلى الآخر، كما أجد الإمساك بهم، لكن لم يسأل أحد من الذي يلقي بالأطفال من النافذة».

«مممم»، مال ميكا برأسه، «من هو الطفل الذي نتحدَّث عنه؟»

«إنه ليس طفلاً، إنها استعارة»، قلت غاضبة، «فأنا أودِّي عملي، لكن من يهتم إذا ظلَّ النظام يخلق مواقف تجعل من عملي ضرورياً؟ ألا ينبغي أن نركِّز على الصورة الكبيرة، بدلاً من أن نلتقط فقط كل ما يُرمى من النافذة في أي لحظة؟»

حدَّق ميكا إلى وجهي كما لو أنني فقدت صوابي. خلف كتفه علَّق على الحائط ملصق تشريح العين البشريَّة، فيها العصب البصري، والأخلاق المائيَّة، والملتحمة، والجسم الهدبي، والشبكيَّة، ومشيمة العين. وتمتت: «لأجل لقمة العيش، فإنك تجعل الناس يبصرون».

فقال: «حسناً. نعم».

نظرت إليه مباشرة، وقلت: «هذا ما يجب أن أفعله أنا أيضاً».

روث

لم يكن إديسون في المنزل، وسيارتي اختفت.

انتظرت، أرسلت إليه رسائل نصيَّة، اتصلت به، صلَّيت، لكنني لم أسمع منه رداً. تخيلته يهيم في الشوارع، يسمع صوتي يرنُّ في أذنيه. يتساءل عمَّا إذا كانت لديه أيضاً القدرة على الغضب، وإن كانت الطبيعة أو التنشئة أهمُّ، أو إن كان ملعوناً لعنة مضاعفة.

نعم، كرهتُ ذلك الأب العنصريَّ لأنه قلَّل من شأني. نعم، كرهت المستشفى لأنَّه وقف إلى جانبه. لا أعرف إن كان ذلك قد استنزف من قدرتي على رعاية مريض. لا أستطيع أن أقول لك للحظة إنَّ ذلك لم يخطر في بالي. بأنَّي لم أنظر إلى ذلك الطفل البريء، وإمَّا فكَّرت في الوحش الذي سيكبر ويصبح عليه.

هل يجعلني ذلك الشَّيرة هنا؟ أو يجعلني إنساناً؟

وكينيدي. ما قلته لم يكن في عقلي وإمَّا في قلبي، وأنا لست نادمة على أيِّ كلمة قلتها. كلُّما فكَّرت كيف كنت أشعر، أنا التي خرجت من تلك الغرفة - التي كنت أمتع بذلك الامتياز، لمرة واحدة - ينتابني شعور بالدوار، كما لو أنني أطيرو.

لَمَّا سمعت وقع خطوات في الخارج، هرعت إلى الباب وفتحت، لكنه لم يكن ابني، وإمَّا أختي. كانت أديسا واقفة شابكة ذراعيها، «قلت في نفسي إنَّك ستكونين في البيت»، قالت وهي تشقُّ طريقها إلى غرفة الجلوس، «ولم أتخيَّل أنَّك ستظلِّين ملتصقة بقاعة المحكمة طوال الوقت».

وضعت معطفها على كرسيِّ المطبخ، واسترخت على الأريكة. ومدَّت قدميها فأسندتهما إلى الطرابيزة. سألتها: «هل رأيتِ إديسون؟ هل هو مع تباري؟»

هزّت رأسها، وقالت: «تباري في البيت».

«إني قلقة...»

«على إديسون؟»

«من بين أشياء أخرى».

رَبَّتْ أديسا على الأريكة إلى جانبها. جلستُ. مدَّت يدها ووضعتها على يدي وضغطت عليها، وقالت: «إديسون فتى ذكيّ. سينتهي به الأمر واقفاً على قدميه».

ابتلعْتُ ريقِي وقلت لها: «هل يمكنك أن تعتنني به لأجلي؟ تأكّدي أنّه لن يستسلم أبداً».

«إن كنتِ تكتبين وصيّتك، فقد أحببت دائماً حذاءك الجلديّ الأسود»، هزّت رأسها، وأضافت، «روث، استرخي قليلاً».

«لا يمكنني أن أسترخي. لا أستطيع أن أجلس هنا وأفكر في أنّ ابني سيتخلّى عن مستقبله كلّهُ وأنا السبب في ذلك».

نظرت في عينيّ، وقالت: «إذاً، أنت هنا فقط لتراقبيه».

لكننا نعرف أنّ ذلك ليس بيدي. سرعان ما انحنيت عند خصري، واعتصرتني حقيقة قاسية ومخيفة حتّى إنني لم أعد أستطيع أن أتنفّس: لقد فقدت السيطرة على مستقبلي. إنّه خطئي اللعين.

لم أَلعب بحسب القواعد. فعلت ما قالت كينيدي ألاّ أفعله، والآن أدفع ثمن استخدام صوتي.

لَفَّتْ أديسا ذراعها حولي وضغطت وجهي على كتفها. لم أدرك أنّي أبكي. قلت لها وأنا أشهق: «إني خائفة».

«أعرف. لكّني معك دائماً. سأخبرك لك قالب كيك داخله ملفّ».

أضحكتني، وقلت: «لا، لا تفعلي ذلك».

فقال مستدركة: «صحيح، فأنا لا أعرف كيف أخبز أيَّ شيء». ثم دفعت الأريكة فجأة ومدت يدها إلى جيب معطفها، وقالت: «أظنَّ أنَّ عليك أن تأخذي هذا».

عرفته من رائحته - رائحة عطر خفيفة ممزوجة برائحة صابون غسيل - ما الذي تعطيني إيَّاه. أَلقت أديسا الوشاح الذي يجلب الحظَّ، والذي كانت أمِّي تحتفظ به، في حضني، وانفتح مثل وردة، وقالت: «خذيهِ. بحثت عنه في كلِّ مكان».

«نعم، لأنني ظننت إمَّا أنك أخذته لنفسك وإمَّا أنك وضعتِه في التابوت مع ماما لأنَّها لم تعد في حاجة إلى الحظَّ، لكنَّ الله أعلم كم أنني في حاجة إليه».

هزَّت أديسا كتفيها، وقالت: «نعم».

عادت وجلست إلى جانبي. كانت قد طلت أطرافها هذا الأسبوع بلون أصفر برّاق. أمَّا أطافري فقد قُضمت حتَّى اللحم. أخذتُ الوشاح ولففته حول رقبتني، ودست أطرافه كما كنت أفعل مع إديسون، واسترخت يداها على كتفي، وقالت، كما لو كنت أنهياً لأُخرج إلى مواجهة عاصفة.

عاد إديسون بعد منتصف الليل، هائجاً، مضطرباً، ملابسه مبلَّلة بالعرق. سألته: «أين كنت؟»

«كنت أركض». لكن من يركض وهو يحمل حقيبة ظهر على ظهره؟
«يجب أن نتحدَّث».

فقال لي: «لا يوجد لديَّ شيء أقوله لك»، وأغلق باب غرفة نومه.

أعرف أنَّه لا بدَّ يشعر بالاشمئزاز ممَّا رآه فيَّ اليوم: غضبي، واعترافي بأنني كذبت. سرت إلى باب غرفته، وضغطت بيدي على لوح الخشب المضغوط، وكوّرت يدي لأقرع باب غرفته لتتحدَّث، لكنني لم أستطع، فلم يبقَ شيء داخلي.

لم أكن قد رتبت سريري، فنمت نوماً متقطعاً على الأريكة. حملتُ بجنازة أُمي مرةً أخرى. هذه المرة، تجلس إلى جانبي في الكنيسة، ونحن الوحيدتان فيها، ويقبع على المذبح تابوت. إنه شيء مخجل، أليس كذلك؟ قالت أُمي.

نظرتُ إليها، ثم نظرتُ إلى التابوت. لم أستطع أن أرى شيئاً فوق الشفة. نهضت بتناقل، لكنني أدركت أنني راسختان في أرضية الكنيسة، وقد نمت أوراق الكرمة حول الكاحلين وبين شقوق الألواح الخشبية في الأرض. حاولت أن أتحرّك، لكنني كنتُ مقيدةً.

انتعلتُ حذائي بصعوبة، واستطعتُ أن أنظر إلى حافة التابوت المفتوح لأتمكّن من رؤية الشخص المسجّى فيه.

من العنق إلى الأسفل، كان هيكلًا عظيمًا، وقد ذاب اللحم عن العظام. ومن الرقبة إلى الأعلى، وجهي.

لمّا استيقظتُ، كان قلبي يخفق بقوة، لكنني سرعان ما أدركت أن الضربات منبعثة من مكان آخر. إنها رؤيا سابقة، قلت في نفسي، واتجهت نحو الباب، أرتجف من قوّة الطرقات. قفزت وأمسكت المقبض، ولمّا فعلت ذلك، طار الباب من مفاصله، وكادت أقع على الأرض، لكن رجال الشرطة أغرقوا بيتي، ودفعوني بعيداً عن طريقهم. أفرغوا الأدراج وقلبوا الكراسي. «إديسون جيفرسون؟» صاح أحدهم، فخرج ابني، نعساً أشعثاً.

أمسكوه على الفور، وقيدوا يديه، وجروه نحو الباب. ثم قال الشرطي: «إنك معتقل بسبب جريمة كراهية من الدرجة جيم».

«ماذا؟»

«إديسون»، صحتُ، «انتظر. لا بد أن هناك خطأ».

خرج ضابط آخر من غرفة نوم إديسون يحمل حقيبة الظهرية، مفتوحة، في يده، وعلبة رذاذ طلاء أحمر في اليد الأخرى. وقال: «بينغو».

التفت إديسون نحوي بقدر ما يستطيع، وقال: «أنا آسف يا أمي، كان عليّ أن أفعل ذلك»، ودُفع خارج الباب.

«لديك الحقّ في التزام الصمت...» سمعتُ، وبالسرعة التي دخل فيها رجال الشرطة، ذهبوا.

شَلّني السكون، وراح يضغط على صدغي، على حلقي. إنّي أختنق، إنّي محطّمة. تمكّنت من أن أمدّ يدي فوق الطاولة الصغيرة، وإلى هاتفي الخلويّ الذي كان يُشحن ساعتها. سحبته من القابس في الحائط، واتّصلت، مع أنّ الوقت كان منتصف الليل. «أنا في حاجة إلى مساعدتك».

كان صوت كينيدي ثابتاً وقويّاً، كما لو أنّها تتوقّعي. وسألتني: «ما المشكلة؟»

كينيدي

لَمَّا رَنُّ هَاتِفِي الْخُلُوي، بَعْد السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ صَبَاحاً، وَرَأَيْتِ اسْمَ رُوْثَ عَلَي السَّاشَةِ الصَّغِيرَةِ، اسْتَيْقِظْتُ عَلَي الْفُورِ. اعْتَدَلُ مِيكَآ فِي جَلِسَتِهِ، مَتَيْقِظاً كَمَا يَفْعَلُ الْأَطْبَاءُ عَادَةً، وَهَزَزْتُ رَأْسِي نَحْوَهُ. إِنَّهَا لِي.

بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ، وَصَلْتُ إِلَى مَرْكَزِ شَرْطَةِ إِيَسْتِ إِنْدِ. تَوَجَّهْتُ نَحْوَ مَكْتَبِ السَّرْجَنْتِ كَمَا لَوْ كَانَ لِي كُلُّ الْحَقِّ فِي أَنْ أَكُونَ هُنَاكَ، وَسَأَلْتُهُ: «هَلْ أَحْضَرْتُمْ فَتَى اسْمِهِ إِيْدِيَسُونُ جِيْفِرْسُونُ؟ مَا تَهْمَتُهُ؟»

«مَنْ أَنْتِ؟»

«مَحَامِيَّةُ الْأُسْرَةِ».

الَّتِي أُعْفِيْتُ مِنْ مَهْمَتِهَا مِنْذُ سَاعَاتٍ، قَلْتُ لِنَفْسِي. ضَيِّقُ الضَّابِطِ عَيْنِيهِ، وَقَالَ: «لَمْ يَقُلِ الْفَتَى شَيْئاً عَنِ أَنَّ لَدَيْهِ مَحَامِيّاً».

فَقُلْتُ لَهُ: «إِنَّهُ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ. رُبَّمَا كَانَ مَرْعُوباً، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَذَكَّرْ اسْمَهُ. انظُرْ، لَا دَاعِي لَأَنْ نَزِيدَ الْأَمْرَ صَعُوبَةً، حَسَناً؟»

«رَأَيْنَاهُ عَبْرَ الْكَامِيرَاتِ الْأَمْنِيَّةِ فِي الْمَسْتَشْفَى يَبْحُ عَلَى الْجِدْرَانِ».

إِيْدِيَسُونُ؟ تَخْرِيْبُ مَمْتَلِكَاتِ عَامَّةٍ؟ «هَلْ أَنْتِ مَتَأَكَّدُ أَنَّكُمْ قَبِضْتُمْ عَلَي الْفَتَى الصَّحِيحِ؟ إِنَّهُ طَالِبٌ مَتَفَوِّقٌ، سَيَلْتَحِقُ بِالْجَامِعَةِ!».

«تَمَكَّنَ حِرَّاسُ الْأَمْنِ مِنْ تَعْرِفِ هُوَيْتِهِ. وَتَابَعْنَاهُ وَهُوَ يَقُودُ سَيَّارَةَ عَلَيْهَا لُوحَاتِ قَدِيْمَةٍ مَسْجَلَةٌ بِاسْمِ رُوْثِ جِيْفِرْسُونِ حَتَّى بَابِ مَنْزِلِهِ».

أَوْه. اللَّعْنَةُ.

«كَانَ يَرْسُمُ شَارَةَ الصَّلِيبِ الْمَعْقُوفِ، وَيَكْتُبُ تَحْتَهَا «الْمُوتُ لِلزَّوْجِ».

«ماذا؟» قلت مذهولة.

هذا لا يعني أنه تخريب ممتلكات عامة فقط، وإنما جريمة بث كراهية. لكن، هل لكل ما فعلته أي معنى؟ فتحت محفظتي، ونظرتُ كم يتوافر لديّ من نقود. «حسناً، استمع. هل يمكنك أن توجه اتهاماً خاصاً؟ سأدفع مقابل مجيء القاضي كي يتمكن من الخروج من هنا الليلة.»

أخذت إلى الزنزانة التي يقبع فيها إديسون. كان جالساً على الأرض، مولياً ظهره إلى الحائط، وركبته مرفوعتان حتّى ذقنه، وآثار الدموع باقية على خديه. ما إن رأيتي، نهض واقفاً وسار نحو القضبان. سألته: «بم كنت تفكر؟»
مسح أنفه بكفه، وقال: «أردت أن أساعد أمي.»

«هل إلقاء مؤخرتك في السجن سيساعد أمك الآن؟»

«أردت أن أوقع تورك باور في ورطة. لولاه لما حدث لنا شيء من كل هذا. وبعد اليوم، سيلومها الجميع في حين يجب أن يلوموه هو...» نظر إليّ وعيناه محمّرتان، «إنها الضحية هنا. كيف لا يرى أحد ذلك؟»

«سأساعدك»، قلت له، «لكن ما نتحدث عنه الآن معلومات مهمّة، وهذا يعني أنك يجب ألا تقول أي شيء عنها لأمك. أظنّ أنّ روث ستفقد صوابها عندما تقرأ الصفحة الأولى من الجريدة اللعينة. هذا كثير: تمّ القبض على ابن الممرضة القاتلة بتهمة جريمة بث الكراهية. وبحقّ الله، لا تقل كلمة واحدة أمام القاضي.»

بعد خمس عشرة دقيقة، جاء القاضي إلى الزنزانة. إنّ التهم الخاصّة تشبه الخدع السحريّة. إذ يمكن ثني كلّ أنواع القواعد عندما تكون مستعداً لدفع مبلغ أكبر. فهناك الضابط الذي يعمل بمنزلة مدّع عامّ وأنا وإديسون والقاضي، مقابل مبلغ من المال. تليت تهمة إديسون، وحقوقه القانونيّة. سأل القاضي: «ما الذي يجري هنا؟»

قفزتُ وقلت: «حضرة القاضي، هذا ظرف فريد في نوعه، حادثة منعزلة. إنَّ إديسون رياضيّ جامعيّ وطالب شرف لم يتعرَّض لأيِّ مشكلة قبل الآن، وأمّه تُحاكم حالياً بتهمة القتل بسبب الإهمال، وهو محبب. إنَّ العواطف جيّاشة لديه، وكانت هذه محاولة مضلّلة جداً ليدعم أمّه».

نظر القاضي إلى إديسون، وقال: «هل هذا صحيح أيُّها الشاب؟»
نظر إديسون إليّ، غير متأكّد إن كان عليه أن يجيب أو لا. لَمَّا أومأت له برأسي، قال بصوت خفيض: «نعم يا سيّدي».

فقال القاضي: «إديسون جيفرسون. إنَّك متَّهم بارتكاب جريمة كراهية بدوافع عنصريّة. هذه جناية، وستوجّه إليك التهمة يوم الاثنين. لست مضطراً إلى أن تجيب عن أيِّ سؤال، ولك الحقّ في الاستعانة بمحام. وإذا لم يكن في مقدورك تحمّل تكلفة المحامي، فسيُعيّن لك محام عامّ. أرى أنّ السيدة ماكواري تدافع عنك الآن، وستحال القضية إلى مكتب المحامي العامّ رسمياً في المحكمة العليا. لا يمكنك مغادرة ولاية كونيتيكت، ولديّ الالتزام بإبلاغك بأنّه إذا قُبض عليك بسبب أيِّ جريمة أخرى في أثناء البتّ في هذه القضية، فقد تُسجن في سجن الولاية»، ثمّ نظر إلى إديسون، وأضاف: «ابقَ بعيداً عن المشاكل يا فتى».

استغرق كلّ ذلك ساعة واحدة. كنّا كلانا صاحبيّن تماماً عندما ركبنا سيّارتي لأعيد إديسون إلى المنزل. بينما كنت أنظر إليه في المقعد الخلفيّ لمعت المرأة الخلفيّة في عيني. كان يحمل إحدى لعب فيوليت - جنيّة صغيرة لها جناحان ورديان. كانت صغيرة في يديه الكبيرتين. قلت له بهدوء: «ماذا دهاك يا إديسون. الأشخاص من أمثال تورك باور فظيعون. لماذا تهبط إلى ذلك المستوى؟»

«لماذا؟» سألني ملتفتاً نحوِي، «تتظاهرين بأنّ ما يفعلونه ليس مهمّاً. لقد جلست طوال فترة المحاكمة. لم يكد الموضوع يُذكر».

«ما هو؟»

فقال: «العنصرية».

أخذتُ نَفْساً عميقاً، وقلت: «ربّما لم يُناقش الموضوع صراحةً في أثناء المحاكمة، لكنّ تورك باور كان معروفاً في الواجهة - وثيقة بجودة متحف».

نظر إليّ، مقوساً أحد حاجبيه: «هل تظنّين حقاً أنّ تورك باور هو الشخص الوحيد العنصريّ الذي كان موجوداً في قاعة المحكمة تلك؟»

توقّفنا أمام منزل روث. كان الضوء مضاءً في الداخل، انسيابياً ودافئاً. فتحت روث الباب بقوة وخرجت ووقفت على الدرج، وشدّت كنزتها الصوف حول جسدها بإحكام. «أشكرك يا ربّي»، تمتمت، وضمتّ إديسون بين ذراعيها. «ماذا جرى؟»

نظر إديسون إليّ، وقال: «قالت لي ألا أخبرك».

شخرت روث، وقالت: «نعم، إنّها تجيد ذلك».

«رسمتُ ببخاخ التلوين صليباً معقوفاً على حائط المستشفى، و... أشياء أخرى».

أبعدته عنها على مسافة ذراع وانتظرت.

«كتبْتُ، الموت للزواج»، همهم إديسون.

صفعتها روث على وجهه. اندفع الصبيّ إلى الخلف واضعاً يده على خدّه، ثمّ

قالت: «أيتها الأحمق، لماذا فعلت ذلك؟»

«ظننت أنّ اللوم سيوجّه إلى تورك باور. أردت أن يتوقّف الناس عن قول أشياء

فظيحة عنك».

أغمضت روث عينيها للحظة كما لو أنّها تبذل جهدها لتسيطر على نفسها كأنّها

تقاتل، وأضافت، «وماذا حدث الآن؟»

قلت لها: «سيمثل أمام المحكمة يوم الاثنين. من المحتمل أن تكون الصحافة حاضرة».

«ماذا سأفعل الآن؟» سألت.

فقلت لها: «لا تفعلي شيئاً. سأعالج الأمر».

رأيتها تقاتل لقبول هذه الهدية، ثم قالت: «حسنًا».

لاحظت ذلك طوال الوقت، فقد ظلت في تواصل مع ابنها. حتى بعد أن ضربته، فقد ظلت يدها على ذراعه وعلى كتفه وظهره. لَمَّا ابتعدتُ بسيّارتي، كانا لا يزالان واقفين أمام باب البيت، يضمُّ أحدهما الآخر في حسرتها.

لَمَّا وصلْتُ إلى المنزل، كانت الساعة الرابعة صباحاً. من الغباء أن أزحف إلى السرير. اعتراني شعور شديد بالتوتر، فقررت أن أنظف قليلاً، ثم أعدّ فطيرة للفطور ريثما تستيقظ فيوليت وميكا. في أثناء فترة المحاكمة كان من المحتم أن يزداد مكتبي في المنزل فوضى، وتتراكم عليه الأوراق، لكنّ قضية روث باتت في حكم المنتهية. دخلت على أطراف أصابعي إلى غرفة النوم الإضافية التي أستخدمها مكتباً، وبدأت أعيد الوثائق إلى صناديقها، فجمعت الملقّات والمجلّدات والملاحظات التي كنت قد دوّنتها حول الأدلة، في محاولة مني لأن أجد «نقطة الصفر».

بالمصادفة البحتة، اصطدمت يدي بكومة من الأوراق المكدّسة على طاولة المكتب وتناثرت إلى الأرض. لَمَّا التقطتُ الصفحات التي سقطت ونظرت فيها، وجدت أنّها إفادة بريتاني باور التي لم تُعرض في أثناء المحاكمة بالطبع، والنتائج المستنسخة من مختبر الولاية، الذي حدّد أنّ ديفيس باور مصاب باضطراب أبيض. قائمة طويلة ومجمّعة من الاضطرابات، معظمها مفهوم على نحو طبيعيّ، ما عدا السطر الذي يصف بدقة هذا الاضطراب الأبيض.

ألقيت نظرة على الجزء المتبقي من القائمة التي لم أولها اهتماماً من قبل لأنني أمسكت بالخاتم النحاسي وركضت به؛ فقد كان ديفيس باور يبدو رضيعاً عادياً من جميع النواحي الأخرى، وكانت نتائج فحصه عادية، لكن لَمَّا قلبت الصفحة، رأيت فقرة مطبوعة على الجانب الآخر من نتيجة الاختبار أيضاً.

في بحر العبارات المألوفة تلك، عادت عبارة «غير طبيعي» الواردة في أسفل قائمة النتائج المجمعة - رَجْمًا كانت أقل أهمية، وأقل تهديداً؟ قارنت نتيجة الاختبار مع اختبارات المختبر التي أدرجت في أمر الاستدعاء، قوائم عدّة من البروتينات التي لا أستطيع أن ألفظها، ورسوم بيانية لقياس الطيف لم أعرف تفسيرها.

توقّفت عند صفحة تشبه ألواناً متداخلة. قرأت عبارة الرَّحْلان الكهربائيّ (Electrophoresis)، ثمّ قرأت، اعتلال هيموغلوبيني (Hemoglobinopathy)، وفي أسفل الصفحة، النتيجة: *HbAS/heterozygous*.

جلسْتُ أمام شاشة الكمبيوتر، وأدخلتُ النتيجة في غوغل. إذا كان هذا خطأً طبيّاً آخر أصاب ديفيس باور، يمكنني أن أعرضه على المحكمة الآن. يمكنني أن أطلب محاكمة جديدة بسبب ظهور الأدلة الجديدة.

يمكنني أن أبدأ من جديد بهيئة محلّفين جديدة.

لَمَّا قرأت: حالة ناقل حميدة بصورة عامة، تراجعَت آمالي. إنّه سبب محتمل آخر لوفاة طبيعِيّة.

يجب فحص/استشارة الأسرة.

أدرج الهيموغلوبين بترتيب الهيموغلوبين الموجود (FAS > FA > S). FA = normal. FAS = حامل سمة الخلايا المنجلية الحاملة. FSA = الثلاسيميا المنجلية بيتا زائد.

ثمّ تذكّرت شيئاً كان قد قاله إيفان.

جلست على الأرض، وتناولت كومة الإفادات، ورحت أقرأ.
مع أن الساعة كانت الرابعة والنصف صباحاً، أمسكت هاتفي ورحت أبحث في
سجلّ المكالمات الواردة حتى وجدت المكالمة التي أبحث عنها. «أنا كينيدي ماكوري»،
قلتُ، أجاب والاس ميرسي، صوته ممتلئ بالأحلام، «وأنا في حاجة إليك».

في صباح يوم الاثنين، كان درج المحكمة يعجُّ بالكاميرات والمراسلين، وقد جاء كثير
منهم من خارج الولاية، الذين سمعوا بقصة الفتى الأسود الذي كتب العبارة العنصريّة
ضدّ جنسه، وهو ابن ممرّضة تجري محاكمتها حالياً بتهمة قتل ابن شخص عنصريّ
أبيض. ومع أنني كنت قد حضرت أغنية ورقصة لهوارد في حال عدم السماح بإسقاط
القضية، صدمني القاضي ثاندر مرّة أخرى بموافقته على تأجيل المرافعات الختاميّة
حتى الساعة العاشرة صباحاً، الأمر الذي مكّنني من أن أكون محامية إديسون قبل أن
أعود وأصبح محامية روث - حتى لو أُعفيت من الدفاع عنها رسمياً. تبعتنا الكاميرات
في الردهة، مع أنني حميت روث بذراعي، وطلبت من هاورد أن يحمي إديسون.
استغرق توجيه التهمة أقلّ من خمس دقائق، وأطلق سراح إديسون بناءً على اعتراف
شخصيّ وحُدّد موعد لعقد اجتماع ما قبل المحاكمة، ثمّ تحاشينا جموع الصحفيين في
طريق عودتنا إلى قاعة المحكمة.

شعرت بسعادة كبيرة عندما لم يسمح القاضي ثاندر بدخول الكاميرات أو الصحافّة
إلى قاعة المحكمة.

دخلنا قاعة المحكمة، وسرنا نحو طاولة الدفاع، وانسلّ إديسون بهدوء إلى الصّفّ
الخلفي. لكن، ما إن جلسنا في أماكننا، نظرت إليّ روث عابسة، وقالت: «ماذا تفعلين؟»
رفّعت عيني، وقلت: «ماذا؟»

فأجابت: «لمجرد أنك تمثّلين إديسون لا يعني أنّ شيئاً قد تغيّر».

قبل أن أمكّن من الردّ عليها، كان القاضي قد جلس إلى المنصّة. نقلّ نظره منّي - وأنا وسط حديث متوتّر مع موكلتي - إلى أوديت، إلى القاعة كلّها، وسأل: «هل الأطراف مستعدّة لمتابعة القضية؟»

«حضرة القاضي؟» قالت روث، «أودُ أن أُعفي محاميتي».

كنت متأكّدة أنّ القاضي ثاندر لم يخطر له أن يسمع شيئاً كهذا حتّى هذه اللحظة، وقال: «السيدة جيفرسون؟ لماذا بحقّ السماء تريدان إعفاء محاميتك عندما انتهت الدفاع وحان الوقت لإصدار الحكم؟ كلّ ما تبقى هو المرافعة الختامية».

تحركّ فكُ روث، وقالت: «إنّه أمر شخصي يا حضرة القاضي».

فقال لها: «أوصي بقوة ألاّ تفعلي ذلك يا سيّدة جيفرسون، فهي تعرف القضية جيّداً، وبعكس كلّ التوقّعات، كانت مستعدّة لها تماماً. لقد وضعت أفضل مصلحتك في الحسبان. إنّ وظيفتي تتمثّل في إدارة هذه المحكمة، والحرص على ألاّ تتأخّر أكثر من ذلك. وقد سمع أعضاء هيئة المحلّفين كلّ الأدلّة، ولا يوجد لدينا وقت لننقل القضية إلى محام آخر، وأنت لست مؤهّلة لأن تمثّلي نفسك»، ثمّ التفت إليّ، وقال، على نحو لا يصدّق، «سأمنحك فترة استراحة أخرى مدّة نصف ساعة يا سيّدة ماكوري كي تتمكّني أنت وموكلتك من التوافق معاً».

طلبتُ إلى هوارد أن يبقى مع إديسون كي لا يقترب منه الصحفيّون، وكي نصل إلى الغرفة التي نجتمع فيها عادة، يجب أن نمرّ من أمام الصحفيين أيضاً، فأخرجتُ روث من المدخل الخلفيّ إلى دورة مياه السيدات. «أسفة»، قلت لامرأة تتبعنا، وأغلقت الباب وراءنا. انحنت روث إلى حوض المغسلة، وثنت ذراعيها.

قلت لها: «أعرف أنك تظنين أن شيئاً لم يتغيّر، وربما لم يتغيّر بالنسبة إليك، أمّا بالنسبة إليّ فقد تغيّر. إليّ أسمعك بصوت عال وواضح. قد لا أستحقّ ذلك، لكنني أتوسّل إليك أن تعطيني فرصة أخيرة».

«لماذا يجب عليّ ذلك؟» سألتني روث بتحدّ.

«لأنّني قلت لك ذات يوم إنني لا أرى اللون... أمّا الآن فإنّه كلّ ما أراه». بدأت تسير نحو الباب، وقالت: «لست في حاجة إلى شفقتك».

«الحقّ معك»، قلت موافقة، «إنّك تحتاجين إلى الإنصاف».

توقّفت روث وهي لا تزال تشيح بوجهها عني، وقالت مصحّحة، «تقصدين المساواة».

«لا، أعني الإنصاف. المساواة هي معاملة الجميع على قدم المساواة، أمّا الإنصاف فهو أخذ الفروق بين الناس في الحسبان، كي تتاح لكلّ شخص الفرصة للنجاح». نظرت إليها، وتابعت: «تبدو الأولى نزيهة، والثانية نزيهة. من المساواة أن تقدّمي ورقة اختبار مطبوعة لطفلين، لكن إذا كان أحدهما أعمى والآخر مبصراً، فهذا لا يعدّ مساواة. يجب أن تُجري لأحدهما اختبار برايل، وللآخر اختباراً على ورقة مطبوعة عن الموضوع نفسه. كنت أعطي طوال هذا الوقت هيئة المحلّفين ورقة اختبار مطبوعة لأنني لم أدرك أنّهم عميان، وأنّني كنت عمياء. أرجوك يا روث. أظنّ أنّك ستحيين أن تسمعي ما الذي يجب أن أقوله».

بطء، استدارت روث، وقالت موافقة: «فرصة أخيرة».

* * *

لَمَّا نهضتُ واقفة، لم أكن وحدي.

نعم، هناك قاعة محكمة في انتظار مرافعتي الختامية، لكنني محاطة بالقصص التي انتشرت عبر وسائل الإعلام، التي يجري تجاهلها وإهمالها في

المحاكم. قصص تامير رايس ومايكل براون وتريفون مارتن، وخصص إريك غارنر ووالتر سكوت وفريدي غراي، وساندرا بلاند وجون كروفورد الثالث. وخصص مجنّدات أمريكيات من أصل أفريقيّ أردن أن يحافظن على شعرهنّ الطبيعيّ، والطلاب في إحدى المدارس في سياتل، الذين قالت لهم المحكمة العليا إنّ اختيار الطلاب لأجل الحفاظ على التنوع العرقيّ غير دستوريّ. وخصص الأقليات في الجنوب، الذين تركوا من دون حماية فيدراليّة عندما وضعت تلك الولايات قوانين تحدّ من حقوقهم في التصويت. وخصص ملايين الأمريكيين الأفارقة الذين تعرّضوا للتمييز في المسكن، والتمييز في العمل، وقصّة الفتى الأسود المتشرّد في شارع تشابل، الذي لن يمتلئ كوبه كما سيمتلئ كوب المتشرّدة البيضاء.

التفتُ نحو هيئة المحلّفين، وقلت: «ماذا لو أخبرتكم، أيّها السيّدات والسادة، اليوم، أنّ الأشخاص الموجودين هنا، الذين ولدوا أيّام الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء يتمتّعون بحريّة المغادرة الآن؟ وسيُمنحون أيضاً معظم الأماكن في ساحات وقوف السيارات المركزيّة في المدينة، وأكبر المنازل. وسيحصلون على مقابلات عمل قبل الذين ولدوا في الأيام الأخرى من الأسبوع، وستكون لهم الأولوية في دخول عيادة الطبيب، مهما بلغ عدد المرضى الذين ينتظرون دورهم. فإذا ولدت من يوم الخميس إلى يوم الأحد، فقد تحاول أن تدرك من سبقوك - لكن بما أنك تتعزّز في الخلف، فإنّ الصحافة ستشير دائماً إلى عدم كفاءتك، وإذا تذرّمت، فإنّك ستُطرَد لأنك لعبت ورقة عيد الميلاد». هزّزت كتفيّ، وتابعت: «يبدو ذلك سخيفاً، أليس كذلك؟ لكن، ماذا لو استمرّ، بالإضافة إلى هذه الأنظمة التعسفيّة التي حالت دون فرصك في النجاح، الجميع في أن يردّدوا على مسامعك إنّ الجميع يعاملون على قدم المساواة؟»

اتّجهت نحوهم، وتابعت: «لَمَّا بدأنا هذه القضية، أخبرتكم إنّ الأمر يتعلّق بخيار مستحيل أمام روث جيفرسون: أن تؤدّي عملها كمرّضة، أم تتحدّى أوامر المشرفة عليها؟ أخبرتكم أنّ الأدلّة ستُظهر أنّ ديفيس باور

يعاني من ظروف صحيّة أساسية أدّت إلى وفاته. وهذا صحيح، أيّها السيدات والسادة. لكن، هذه القضية تتعلّق بأمور أكثر ممّا ذكرته لكم.

«من بين كلّ الأشخاص الذين تفاعلوا مع ديفيس باور في مستشفى الرحمة - ويست هافن خلال حياته القصيرة، واحدة منهم فقط تجلس في قاعة المحكمة هذه إلى منصّة الدفاع: روث جيفرسون. شخص واحد فقط اتُّهم بارتكاب جريمة: روث جيفرسون. أمضيت فترة المحاكمة كلّها وأنا أتفادى سؤالاً شديد الأهميّة: لماذا؟

ثمّ قلت بصراحة تامّة: «لأنّ روث سوداء، هذا جعل تورك باور، وهو من العنصرين البيض، يتصرّف بطريقة خطأ، فهو لا يستطيع أن يتحمّل رؤية السود، أو الآسيويين، أو المثليين، أو أيّ شخص آخر لا يشبهه، ونتيجة لذلك، شرع في سلسلة من الأحداث التي أدّت إلى أن تصح روث كبش فداء لموت ابنه المأساوي. لكن، ليس من المفترض أن نتحدّث عن العرق في نظام العدالة الجنائيّة. يُفترض أن نتظاهر بأنّه مجرد طبقة من الجليد فوق قالب كيك أيّ تهمة، أُحضر إلى المائدة - وليس جوهرها. يُفترض أن نكون الأوصياء القانونيين على مجتمع ما بعد العنصريّة. لكنّكم تعرفون أنّه توجد لكلمة الجهل أهميّة أكبر في جوهرها: التجاهل. ولا أظنّ أنّ من الصواب تجاهل الحقيقة بعد الآن».

نظرت مباشرة إلى المحلّفة رقم 12، المعلّمة، وقلت: «أرجو أن تُنهي هذه الجملة، أنا...؟» توقّفت عند الفراغ، ثمّ أضفت، «قد تجيبين: خجولة، شقراء، ودود، عصبية، ذكيّة، إيرلنديّة، لكنّ معظمكم لن يقول أنا أبيض البشرة. ولم لا؟ لأنّه أمر مسلّم به. إنّها هويّة تُعدُّ بديهية. إنّ الذين كانوا محظوظين ممّا لأنّهم ولدوا ببشرة بيضاء لا يدركون هذا الحظّ السعيد. كلّنا لا ننتبه إلى أشياء كثيرة. لعلّك لم تقل شكراً لأنك استحممت هذا الصباح، أو لأنّك نمت الليلة الماضية وفوق رأسك سقف، أو لأنّك تناولت

الفتور وارتديت ملابس داخلية نظيفة، لأنَّ كلَّ هذه الامتيازات غير المرئية قد تمرَّ ولا نعيها اهتماماً.

«بالتأكيد، تسهل كثيراً رؤية رياح العنصرية المعاكسة، والسبل التي يجري فيها التمييز ضدَّ الملونين. نراها الآن عندما يطلق رجال الشرطة النار على رجل أسود عرضاً، وتتعرَّض فتاة ذات بشرة بنية للتنمُّر من قبل زميلاتهما في الفصل لأنَّها ترتدي الحجاب. ويصعب قليلاً أن نرى - وأن نتحمَّل - الرياح المواتية للعنصرية، والطرائق التي استفاد بها الذين ليسوا من أصحاب البشرة الملونة فقط لأنَّ بشرتنا بيضاء. يمكننا أن نذهب إلى السينما ونحن متيقنون من أنَّ معظم الشخصيات الرئيسة ستشبهنا، قد نتأخَّر عن اجتماع ولا نلقي اللوم لتأخُّرنا على عرقنا. يمكنني أن أذهب إلى غرفة مكتب القاضي ثاندر وأقدم اعتراضاً ولا يقال لي إنني ألعب ورقة العرق». توقَّفت قليلاً، ثمَّ أضفت: «معظمنا لا يعود إلى المنزل من العمل ويقول: الحمد لله لم يوقفني أحد ليفتتنني اليوم. معظمنا قال لنفسه لقد التحقت بالكلية التي اخترتها لأنَّ النظام التعليمي يعمل في مصلحتي. إننا لا نفكر في هذه الأشياء، لأننا لسنا مضطَّرين إلى التفكير فيها». بدأ يظهر تلملم بين المحلِّفين، وأخذوا يتحرَّكون في مقاعدهم، ورأيت من طرف عيني القاضي ثاندر يحدِّق، مع أنَّ المرافعة الختامية من حقِّي فقط، ومن الناحية النظرية، إذا أردت أن اقرأ رواية (آمال عظيمة) بصوت عالٍ، لكان بإمكانني أن أفعل ذلك.

«أعرف أنكم تقولون لأنفسكم: أنا لست عنصرياً. لماذا، حتَّى إنَّه يوجد لدينا مثال عمَّا نفكر في كيف تبدو العنصرية الحقيقية، في شكل تورك باور. أشكُّ في أنَّه يوجد عدد منكم في هيئة المحلِّفين يؤمنون، مثل تورك، بأنَّ أطفالكم محاربون آريون أو أنَّ السود أناس أقلَّ شأنًا بكثير إلى درجة أنَّه يجب ألا يلمسوا طفلاً أبيض. لكن، حتَّى لو أخذنا كلَّ متعصّب أبيض على هذا الكوكب وشحنَّاهم إلى المريخ، فستظلُّ هناك عنصرية. لأنَّ

العنصريّة لا تتعلّق بالكرهية فقط. لدينا جميعاً تحيزات، حتّى لو كنّا نعتقد بأنّه لا توجد لدينا، لأنّ العنصرية ترتبط أيضاً بمن يمتلك القوة... ومن يمكنه الحصول عليها.

«لَمَّا بدأت العمل في هذه القضية، سيّداتي وسادتي، لم أكن أرى نفسي عنصريّة، أمّا الآن، فقد أدركت أنّني كذلك، لا لأنّني أكره الناس الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة، وإمّا لأنّني - عن قصد أو عن غير قصد - حصلت على جرعة تقوية بسبب لون بشرتي، تماماً كما تعرّضت روث جيفرسون إلى مشكلة بسبب لون بشرتها».

كانت أوديت جالسة ورأسها محنيّ فوق طاولة النيابة العامّة. لم أعرف إن كانت مسرورة لأنّني أصنع نعشي من كلمات أم أنّها مذهولة لأنّني أمتلك الشجاعة لإثارة عداء هيئة المحلّفين في هذه المرحلة المتأخّرة من اللعبة. ثمّ مضيت أقول: «يوجد فرق بين العنصريّة الإيجابيّة والعنصريّة السليبيّة، كما لو أنّك تسير فوق ممرّ متحرّك في المطار. فإذا مشيت عليه، فإنّك ستصل إلى الطرف الآخر بأسرع ممّا لو كنت واقفاً في مكانك لا تتحرّك، لكنّك ستصل في النهاية إلى المكان نفسه. إنّ العنصريّة الإيجابيّة هي وجود وشم صليب معقوف على فروة رأسك. إنّ العنصريّة الإيجابيّة هي أن تقول للممرّضة المشرفة إنّه لا يمكن لممرّضة أمريكيّة من أصل أفريقيّ أن تلمس طفلك. إنّها ضحكة مكتومة على نكتة سوداء. لكن، ما هي العنصريّة السليبيّة؟ إنّها أن تلاحظ أنّ هناك شخصاً ملوّناً في مكتبك ولا تسأل مديرك عن السبب. إنّها أن تقرّأ منهاج الصّف الرابع لطفلك وترى أنّ التاريخ الأسود الوحيد الذي يُحكى عنه هو العبوديّة، وليس التساؤل لماذا؟ إنّها أن تدافع عن امرأة في المحكمة اتّهمت بسبب عرقها... وموّه هذه الحقيقة، كما لو أنّها ليست مهمّة.

«أراهن أنّكم تشعرون بعدم الارتياح الآن. كما تعرفون، وأنا كذلك. فمن الصعب التحدّث عن هذه الأشياء من دون الإساءة إلى أشخاص. لذلك، ليس

من المفترض أن يقول محامون مثلي هذه الأشياء إلى هيئة محلّفين مثلكم، لكن في أعماقكم، إذا سألتهم أنفسهم لماذا تُجرى هذه المحاكمة، فإنكم تعلمون أنها أكثر من مجرد إن كان لروث علاقة ب وفاة أحد مرضاها. في الواقع، لها علاقة ضعيفة بروث. إنها تتعلّق بالأنظمة السارية منذ نحو أربعمئة سنة، أنظمة تهدف إلى التأكّد من أنّ شخصاً مثل تورك يستطيع أن يطلب طلباً شنيعاً كمريض ويُمنح الموافقة على طلبه. إنّ هذه الأنظمة تهدف إلى التأكّد من بقاء أشخاص مثل روث في مكانهم».

استدرتُ إلى هيئة المحلّفين، وقلت: «إذا كنتم لا تريدون أن تفكّروا في هذا، فليس عليكم أن تفعلوا ذلك، ويمكنكم تبرئة روث. لقد قدّمت لكم أدلةً طبيّةً كافيةً تشير شكوكاً كثيرةً حول سبب وفاة هذا الطفل. لقد سمعتم الطبيب الشرعيّ نفسه يقول إنّ لو عادت نتائج فحص الطفل في الوقت المناسب فرّبما كان ديفيس باور حيّاً يرزق الآن. نعم، وسمعتم أيضاً أنّ روث قد غضبت وهي على المنصّة - لأنّه عندما تنتظر أربعاً وأربعين سنة لتحصل على فرصة للتحدّث، فإنّ الأشياء لا تأتي دائماً كما تريد. لقد أرادت روث جيفرسون أن تحصل على فرصة لتؤدّي عملها كما يجب، أن تعتني بهذا الرضيع على النحو الذي تدرّبت عليه».

استدرتُ أخيراً نحو روث. كانت تتنفسّ بعمق، وشعرت بذلك في صدري، «ماذا لو كان الأشخاص الذين ولدوا يوم الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء لا يخضعون لتدقيق اثتمائيّ واسع عندما يتقدّمون بطلب للحصول على قروض؟ ماذا لو كان بإمكانهم أن يشتروا احتياجاتهم من دون أن يخشوا أن يتبعهم رجل الأمن؟» صمّتُ قليلاً، ثمّ قلت: «ماذا لو عادت نتائج اختبار فحص الطفل إلى طبيبة الأطفال في الوقت المناسب وأجري له تدخّل طبيّ مناسب حال دون وفاته؟ فجأة، لن يبدو هذا النوع من التمييز التعسفيّ سخيفاً إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟»

روث

بعد كل هذا.

بعد شهور من التردد على مسمعيّ بضرورة عدم إثارة موضوع العرق في المحكمة، نقلت كينيدي ماكواري الفيل إلى قاعة المحكمة وعرضته أمام القاضي، وضغطته في مقصورة هيئة المحلفين، حتى شعر هؤلاء الرجال والنساء بألم ذلك.

رحت أهدق إلى هيئة المحلفين الذين كانوا غارقين في التفكير وقد خيم عليهم صمت مطبق. جاءت كينيدي وجلست إلى جانبي، ولم أفعل شيئاً سوى أنني نظرت إليها. كانت حنجرتي تعمل وأنا أحاول أن أضع ما يختلج في نفسي في كلمات. إن ما قالته كينيدي لكل هؤلاء الغرباء، هو قصة حياتي، الخطوط العريضة التي عشت داخلها. لكن، كان بإمكانني أن أصرخ بها من فوق أسطح المنازل، ولم تكن ستجدي نفعاً. وكى يستمع إليها المحلفون، يستمعون إليها حقاً، يجب على أحدهم أن يقولها.

التفتت إليّ قبل أن أفتح فمي وقالت: «شكراً»، كما لو أنني أنا التي أسدت إليها معروفاً.

لنفكر في الأمر، ربما كنت أنا التي أسدیت إليها معروفاً.

تنحني القاضي، ولما رفعنا أعيننا إليه، رأيناه يهدق. نهضت أوديت لوتون ووقفت في المكان الذي أخلته كينيدي منذ قليل. لفتت وشاح أمي الذي يجلب الحظ حول رقبتني عندما بدأت تتكلم. «كما تعلمون، أنا معجبة بالسيدة ماكواري وصيحتها الحماسية لتحقيق العدالة الاجتماعية، لكننا لسنا موجودين هنا اليوم لأجل ذلك. إننا موجودون هنا لأن المدعى عليها، روث

جيفرسون، تخلّت عن قانون مهنتها الأخلاقيّ كمرمّضة مخاض وولادة، ولم تستجب على نحو كافٍ للأزمة الطبيّة التي تعرّض لها الرضيع».

اقتربت المدّعية العامّة من هيئة المحلّفين، ومضت تقول: «ماذا قالت السيدة ماكوارى... صحيح. فلدى الناس أحكام مسبقة، ويتّخذون أحياناً قرارات لا معنى لها بالنسبة إلينا. كمّا كنت في المدرسة الثانويّة، عملت في ماكدونالدز».

فاجأني قولها هذا. حاولت أن أتخيّل أوديت وهي تعيّر جهاز توقيت مقلاة البطاطا المقلية، لكنني لم أستطع.

«كنت الفتاة السوداء الوحيدة التي تعمل هناك. كمّا كنت أعمل «كاشيرة» أحياناً، وأرى أحد الزبن يدخل وينظر إليّ ثمّ ينتقل ويقف في طابور صندوق «كاشير» آخر ليقدمّ طلبه، كيف كان ذلك يجعلني أشعر؟» هزّت كتفيها، «لم يكن شعوراً عظيماً. لكن، هل بصقتُ في طعامهم؟ لا. هل أسقطت قطعة البرغر على الأرض ثمّ وضعتها في السندويشة؟ لا، كنت أقوم بعملتي فقط. كنت أفعل ما كان يفترض بي أن أفعله.

دعونا ننظر الآن إلى روث جيفرسون، أليس كذلك؟ كان لديها زبون اختار طابوراً آخر، إذا جاز التعبير، لكن هل استمرّت تعمل ما كان من المفترض أن عمله؟ لا. فلم تأخذ التعليمات التي أعطيت لها بعدم رعاية ديفيس باور بحسابه طلب مريض بسيط - وإمّا فجرت الأمر في حادثة عنصريّة، ولم تحترم قسم نايتنغيل الذي يقضي بأن تساعد مرضاها - مهما كانوا. وإمّا، تصرّفت بتجاهل تامّ لصالح الرضيع لأنّها كانت غاضبة، وصبّت جام غضبها على هذا الطفل المسكين».

«صحيح، سيداتي وسادتي، أنّ تعليمات ماري مالون بإعفاء روث من دورها في رعاية ديفيس باور كان قراراً عنصريّاً، لكنّ ماري لا تُحاكم هنا بسبب أفعالها. إنّها روث، لأنّها لم تلتزم بالعهد الذي قطعته على نفسها

كممرضة. صحيح أيضاً أن الكثيرين منكم شعروا بعدم الارتياح إلى السيد باور ومعتقداته لأنها متطرفة. ففي هذا البلد، يُسمح له بالتعبير عن هذه الآراء، حتى لو جعل الآخرين يشعرون بالاستياء وعدم الارتياح. أما إذا كنتم ستقولون إنكم شعرتُم بالانزعاج من الطريقة التي يمتلئ بها تورك باور بالكراهية، فيجب أن تعترفوا بأن روث أيضاً ممتلئة بالكراهية. لقد سمعتموها عندما قالت إن من الأفضل أن يموت هذا الطفل على أن يكبر ويصبح مثل أبيه. ربّما كانت تلك اللحظة الوحيدة التي كانت فيها صريحة معنا. في الأقل، كان تورك باور صادقاً بشأن معتقداته - بقدر ما قد تبدو غير مستحبة ومستساعة، لأننا نعرف أن روث كاذبة. باعترافها هي نفسها قالت إنها تدخلت ولمست الرضيع في غرفة الحضانة، مع أنها قالت للمشرفة وإدارة المخاطر والشرطة بأنها لم تفعل ذلك. بدأت روث جيفرسون في إنقاذ ذلك الطفل - وما الذي جعلها تتوقّف؟ الخوف، كي لا تفقد عملها. لقد وضعت مصلحتها الخاصّة قبل مصلحة المريض... وهذا ما لا يجب أن يفعله أيّ عامل مهنيّ في مجال الطبّ».

صمتت المدّعية العامّة قليلاً، ثمّ تابعت: «تستطيع روث جيفرسون ومحاميتها تقديم عرض مسرحيّ حول نتائج المختبر، التي وصلت في وقت متأخر، أو عن حالة العلاقات العرقية في هذا البلد، أو أيّ شيء آخر، لكنّ ذلك لا يغيّر حقائق هذه القضية، ولن يعيد ذلك الطفل إلى الحياة».

لمّا أعطى القاضي تعليماته لهيئة المحلّفين، خرجوا من قاعة المحكمة، ثمّ غادر القاضي ثاندر القاعة أيضاً. ففز هوارد، وقال: «لم أر شيئاً كهذا في حياتي».

فتمتتمت كينيدي: «نعم، وقد لا تراه مرّة أخرى».

«أقصد، كان ذلك أشبه بمشاهدة توم كروز - لا يمكنك تناول الحقيقة مثل...»

فأنهت كينيدي الجملة: «مثل أن أطلق النار على قدمي عن قصد».
وضعت يدي على ذراعها، وقلت: «أعرف أن ما قلته هناك سيكلفك».
نظرت كينيدي إليّ، وقالت: «روث، من المرجح أن ذلك سيكلفك أكثر».

أوضحت لي أنه بما أن تهمة القتل قد أُسقطت قبل أن أدلي بشهادتي، فلم يعد لدى هيئة المحلفين سوى النظر في تهمة القتل الناجم عن الإهمال، ومع أن أدلتنا الطبية تثير شكوكاً معقولة، فإن فورة الغضب تشبه لعبة بوكر محترقة في أذهان المحلفين، وأنه، حتى لو لم يتخذوا قراراً بشأن تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار الآن، فرمًا لا يزالون يشعرون بأنني لم أهتمّ برعاية الطفل بقدر ما أستطيع. وما إذا كان ذلك ممكناً، في ظلّ هذه الظروف، لم أعد أعرف.

تذكّرت الليلة التي أمضيتها في السجن. تخيلت أنها أصبحت ليالي عدّة. أسابيع. شهوراً. تذكّرت ليزا لوت وكيف أن الأحاديث التي دارت بيننا ستختلف الآن تماماً عن الأحاديث التي دارت بيننا حينذاك. سأبدأ بالقول إنني لم أعد ساذجة. لقد صنعت في بوتقة مثل الفولاذ. ومعجزة الفولاذ أنك تستطيع أن تطرقه ويصبح رقيقاً جداً، وتشده إلى أقصى حدّ ممكن، لكن هذا لا يعني أنه لن يُكسر. فقلت لكينيدي: «كان ذلك جديراً بالاستماع إليه».

ابتسمت قليلاً، وقالت: «كان الأمر جديراً بقول ذلك».

فجأة، جاءت أوديت لوتون ووقفت أمامنا. أُصبت بالذعر قليلاً، فقد قالت كينيدي أيضاً إن هناك بديلاً آخر قد تلجأ إليه المدّعية العامّة - وهي إسقاط جميع التهم الموجهة إليّ، وبدء المحاكمة من جديد بهيئة محلفين كبرى، واستخدام شهادتي لإثبات الضغينة في لحظة انفعال، وبتهمة جديدة بالقتل من الدرجة الثانية.

قالت أوديت بسرعة: «لقد أسقطت القضية ضدّ إديسون جيفرسون»، وأضافت، «ظننت أنك تريد أن تعرفي ذلك».

سقط فكّي في فمي. من بين كلّ الأشياء التي كنت أظنّ أنّها قد تقولها، ليس ما قالته.

للمرة الأولى، طوال فترة هذه المحاكمة، وقفت أمامي والتقت عيناها بعينيّ. ما عدا لقائنا في دورة المياه، لم تنظر في عينيّ مباشرة طوال الوقت عندما كنتُ جالسةً إلى طاولة الدفاع، وإمّا كانت تنظر إلى جانبي أو من فوق رأسي. قالت لي كينيدي إنّ هذا هو الأسلوب المعتاد، وهم يذكرون من خلاله المدّعى عليهم بأنهم ليسوا بشراً. وينجحون في ذلك.

«لديّ ابنة في الخامسة عشرة من عمرها»، قالت أوديت، ثمّ التفتت إلى كينيدي، وقالت: «مرافعة ختامية جميلة أيتها المستشار»، وابتعدت.

«وماذا الآن؟» سألتها.

أخذت كينيدي نفساً عميقاً، وقالت: «الآن، علينا أن ننتظر».

لكن، علينا أولاً أن نتعامل مع الصحافة. وضع هوارد وكينيدي خطة لإخراجي من قاعة المحكمة دون أن ألتقي وسائل الإعلام. قالت موضّحة: «إذا لم تتمكّن من تجنّبها تماماً، فإنّ الإجابة الصحيحة هي أنّه لا يوجد تعليق، فنحن ننتظر قرار هيئة المحلّفين. وانتهى».

هزرت لها رأسي.

«لا أظنّ أنّك فهمت يا روث. إنّهم غاضبون، وسوف يستثيرونك حتّى تنفجري لیتمكّنوا من تسجيل ذلك على شريط. في الدقائق الخمس التالية، إلى أن تغادري هذا المبنى، يجب أن تكوني عمياء صمّاء خرساء. فهمتِ؟

قلت لها: «نعم».

بدأ قلبي يقرع مثل طبل عندما اندفعنا عبر الأبواب المزدوجة لقاعة المحكمة. على الفور، ظهرت ومضات أضواء، وألقيت ميكروفونات أمام

وجهي. أخذ هوارد يُبعد الصحافيين، في حين تمكّنت كينيدي من إخراجنا من هذا السيرك: مراسلون يؤدّون ألعاباً بهلوانيّة، يحاولون الوصول من فوق رؤوس الآخرين ليحصلوا على تصريح. مهجّجون يؤدّون أدوارهم - أسرة باور تُجري مقابلة حماسيّة مع إحدى المحطّات الإخباريّة المحافظة - وأنا أحاول السير بينهم على حبل مشدود دون أن أقع.

من الاتجاه الآخر، اقترب منّا والاس ميرسي، الذي شكّل هو وأنصاره طوقاً بشريّاً، مرافقهم متشابكة معاً. وقف والاس، وإلى جانبه امرأة، وسط ذلك الطوق البشريّ. بينما وقفت أراقبهم، سارا إلى الأمام، وقادا الآخرين. كانت المرأة ترتدي بدلة صوفيّة وردية اللون، وشعرها القصير كان مصبوغاً بلون أحمر فاقع. انتصبت واقفة مثل سهم، شابكة ذراعها بقوة بذراع والاس.

نظرت إلى كينيدي أسألها بصمت: ماذا نفعل هنا؟

لكنّ الجواب جاء من تلقاء نفسه، إذ لم يتّجه والاس والمرأة نحونا، وإنما اتّجها نحو المكان حيث كان تورك باور لا يزال يجري حديثاً مع أحد المراسلين، وزوجته ووالد زوجته يقفان إلى جانبه.

«بريتاني»، قالت المرأة، عيناها مغرورقتان بالدموع، «يا إلهي! انظري كم أنت جميلة!».

اقتربت من بريتاني باور، في حين كانت الكاميرات تصوّر. لكنّنا لسنا في محكمة القاضي ثاندر، ويمكنها أن تقول أو تفعل أيّ شيء تريده. ثمّ رأيت يد المرأة تتّجه نحوها كما لو كانت في حركة بطيئة، وكنت أعرف حتّى قبل أن يحدث ذلك أنّ بريتاني باور ستدفعا بعيداً عنها، فقالت لها: «ابتعدي عني بحقّ الجحيم».

خطا والاس ميرسي بضع خطوات إلى الأمام، وقال: «أظنّ أنّ هذه هي المرأة التي تريدان أن تلتقيها يا سيّدة باور».

«إنها ليست في حاجة إلى ذلك يا والاس»، دمدمت المرأة، «فقد التقينا قبل ستّ وعشرين سنة، عندما أنجبتهما. بریت، حبيبتی، ألا تذكرینی؟
تورّد وجه بریتانی باور خجلاً، أو غضباً، أو من كليهما.
«كذّابة. أيتها الكاذبة المقرّفة»، واندفعت نحو المرأة المسنّنة التي سقطت على الأرض بسهولة.

تدافع الناس لإبعاد بریتانی عنها، ونهضوا بالمرأة.
ثمّ سُمع أحدهم يصرخ: «ساعدوها. هل تصوّرون ذلك؟»
ثمّ سمعت أحدهم يصيح: «توقّفي». كان الصوت عميقاً وقوياً وأمرّاً، فتراجعت بریت.

التفتت، عيناها متوحّشتان، تحدّق إلى أبيها، وصاحت: «هل تدع تلك الزنجيّة تقول تلك الأشياء عنيّ؟ عناً؟»

لكنّ والدها لم يعد ينظر إلى ابنته. بدا شاحب الوجه وهو يحدّق إلى المرأة الواقفة الآن مع مجموعة والاس ميرسي، ومنديل والاس يضغط على شفّتها التي تنزف دمّاً، وقال: «مرحباً أدیل».

«لم أكن أتوقّع هذا»، همستُ، ونظرت إلى كينيدي. وهكذا أدركت أنّها هي التي فعلت ذلك.

تورك

كانت الكاميرات تدور عندما انفجر كُـ ذلك الجحيم. بعد دقيقة، كانت بریت وفرنسيس يقفان إلى جانبي، يستمعان إليّ وأنا أخبر بعض الشخصيات اليمينية في الإذاعة أننا بدأنا نظهر توّ، ثم أصبح بياناً حرفياً. سارت امرأة سوداء في اتجاه بریت، ولمست ذراعها. بطبيعة الحال، تراجعت بریت، ثم أعلنت المرأة كذبة صارخة بأنّ بریتاني باور، أميرة حركة القوّة البيضاء، هي في الواقع نصف سوداء.

نظرتُ إلى فرنسيس، كما كنت أنظر إليه منذ سنوات، فهو الذي علّمني كلّ ما أعرفه عن الكراهية. كنت مستعداً لخوض الحرب معه، وفي الواقع فعلت ذلك. خطوات إلى الخلف في انتظار أن يصدّها فرنسيس ببلاغته الشهيرة، ويضع هذه العاهرة في حجمها كامرأة انتهازية تريد خمس عشرة دقيقة من الشهرة - لكنّه لم يفعل ذلك.

ذكر اسم والدة بریتاني.

لا أعرف أشياء كثيرة عن أديل لأنّ بریت لا تعرف أيضاً. اسمها فقط، والحقيقة أنّها خانت فرنسيس مع رجل أسود، وقد استشاط غضباً فأنذرها إمّا أن تترك الطفلة له وتختفي من حياتيهما إلى الأبد، وإمّا أن تموت وهي نائمة. بحكمة، اختارت الخيار الأول، وكان هذا كلّ ما تحتاج إليه بریت لتعرفه عنها.

لكنّي نظرت إلى شعر بریت الطويل الغامق. إنّنا نرى ما قيل لنا أن نراه.

نظرت إلى فرنسيس أيضاً.

«بابا؟»

فجأة، لم أعد أستطيع أن أتَنفَس. لم أعد أعرف من هي زوجتي. لم أعد أعرف من أنا. لسنوات عدّة، كنت أقول بسهولة إنني سأطعن بسكين أيّ شخص أسود قبل أن أجلس معه لاحتساء القهوة، وطوال هذا الوقت، كنت أعيش مع واحدة منهم.

لقد أنجبتُ طفلاً من واحدة منهم.

هذا يعني أن ابني كان أسود أيضاً.

أسمع طنيناً في أذني، وأشعر كما لو أنني أسقط سقوطاً حراً من الطائرة من دون مظلة، والأرض تندفع نحوي بسرعة.

وقفت بريتاني على قدميها، وراحت تدور في دائرة، وجهها منقبض. لقد حطمت قلبي. «حبييتي»، قال لها فرانسيس، وانبعث من حلقها صوت خفيض عميق.

قالت: «لا، لا».

ثمّ جرت.

كانت بريت صغيرة الحجم وسريعة، تستطيع أن تدخل في الظل وتخرج منه بسهولة وبسرعة، فلم لا يمكنها أن تفعل ذلك؟ أقصد أنها تعلّمت، مثلي، من أفضل الأشخاص.

حاول فرانسيس أن يجمع أعضاء موقع Lonewolf.org الذين جاؤوا إلى المحكمة للتضامن معنا، لمساعدتنا في البحث عن بريت، لكن أصبح هناك جدار يفصل بيننا الآن، وقد اختفى بعضهم تَوّاً. لا شك في أنهم سيلغون حساباتهم على الموقع، إلا إذا استطاع فرانسيس أن يفعل شيئاً ليصلح الضرر الذي وقع.

لست متأكداً إن كنت أكثرث لكل ذلك، فلم أكن أريد شيئاً إلا زوجتي.

بحثنا في كل مكان. لم تعد شبكتنا غير المرئية الواسعة موجودة. أصبحنا وحدنا في هذا، منعزلين تماماً.

كن حذراً فيما تتمنّاه، قلت في نفسي.

بينما كنت أقود السيّارة، أبحث في الزوايا البعيدة في هذه المدينة، استدرت ونظرت إلى فرانسيس، وقلت له: «هل تريد أن تقول لي الحقيقة؟» فقال بهدوء: «حدث ذلك منذ زمن طويل»، وأضاف، «قبل أن أنضمَّ إلى الحركة، التقيت أديل في أحد المطاعم. قدّمت لي فطيرة. كتبت اسمها ورقم هاتفها على الفاتورة. اتّصلت بها»، هزَّ كتفيه، «بعد ثلاثة أشهر كانت حاملاً». «كنت أشعر بألم في معدتي عندما أفكّر في أن أنام مع واحدة منهم، لكن في نهاية الأمر، فعلت ذلك».

«ليساعدني الربُّ يا تورك، فقد أحببتها. لم يكن يهَمُّ إن كنتُ نرقص حتّى منتصف الليل، أو نجلس في البيت نشاهد التلفاز - حتّى وصلتُ إلى مرحلة لم أعد أشعر فيها بالسعادة عندما لا تكون إلى جانبي. ثمَّ أنجبتنا بريت، وبدأتُ أشعر بالخوف. بدا أنّ الأمور بلغت درجة الكمال، لكن كما تعرف، عندما تبلغ الأمور درجة الكمال فهذا يعني أنّه لا بدَّ أن تُمنى بالإخفاق».

فرك جبينه، ومضى يقول: «كانت تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، الكنيسة نفسها التي كانت تذهب إليها منذ أن كانت طفلة. كنيسة يؤمّها السود، مع كلّ ذلك الغناء وترانيم الشكر - لم أستطع تحمّلها، فبدأتُ أذهب وأصطاد السمك، وقلت لها إنّ هذا هو مكاني المقدّس. لكنّ رئيس الجوقة بدأ ييدي اهتماماً بأديل، وقال لها إنّ لديها صوتٌ ملاك، وبدأ يُمضيان أوقات طويلة معاً، يتدربان على الغناء كلّ ساعات النهار أو الليل». هزَّ رأسه، وأضاف، «لا أعرف، ربّما أصابني مسّ من الجنون، فاتهمتها بأنّها تخونني. ربّما فعلت ذلك، وربّما لم تفعل. أربكتُ حياتها قليلاً، وكان ذلك خطأ منّي، أعرف ذلك. لكنّي لم أتحمل. كانت تمزّقني، وكان عليّ أن أفعل شيئاً إزاء كلّ هذا الأذى. إنّك تعرف كيف يبدو الأمر، أليس كذلك؟ هزرت رأسي.

«لجأت إلى ذلك الرجل لتجد الراحة معه، وضّمها إليه. يا إلهي يا تورك! لقد أخذتها بيديّ إليه، ثمّ قالت إنّها تريد أن تتركني، فقلت لها إنّها إذا ذهبت فإنّها ستذهب خالية الوفاض، وإنّني لن أدعها تأخذ ابنتي بعيداً عني. وقلت لها إنّها إذا حاولت، فإنّ ذلك سيكون آخر شيء تفعله في حياتها». نظر إليّ بعينين كئيبتين وأضاف، «لم أرها بعد ذلك».

«ولم تخبر بریت بذلك قطّ؟»

هزّ رأسه، وقال: «ماذا سأقول لها؟ إنّني هدّدت أمّها بأن أقتلها؟ لا، فبدأت آخذ بریت إلى الحانات، وأتركها نائمة في مقعدها في السيّارة، وأذهب وأشرب حتّى أسكر، حيث قابلت توم ميتزجر».

«وجدت صعوبة في أن أتخيّل قائد جيش تحالف البيض وهو يتجرّع البيرة بكميَّات كبيرة، لكنّ أشياء أكثر غرابة حدثت».

«كان مع عدد من رفاقه. رأيّ أركب سيّارتي، فلم يدعني أقود سيّارتي وأعود إلى البيت عندما رأى بریت نائمة في المقعد الخلفيّ. قادنا إلى بيتي، وقال إنّني يجب أن أحسن التصرف لأجل طفليّ. كنت حينذاك في حالة سكر شديد. حكيتُ له كيف أنّ أديل تركتني لأجل زنجي، وأظنّ أنّني لم أذكر له أنّها كانت زنجيّة أيضاً. ثمّ أعطاني توم شيئاً لأقرأه. كتيب». زمّ فرانسييس شفّتيه، وأضاف: «كانت تلك هي البداية. أن أكرههم كان أسهل من أن أكره نفسي بكثير».

غمر ضوء السيّارة مسار قطار، المكان الذي اعتاد فريق فرانسييس التجمّع فيه عندما كانوا نشطين. قال فرانسييس: «سأفقدّها الآن أيضاً، فهي تعرف كيف تغطي آثارها، وكيف تختفي، لقد علّمتها ذلك».

لقد صعد إلى حافة خشنة من الألم والصدمة، وبصراحة لا يوجد لديّ وقت لأداري انهيار فرانسييس، فلديّ أشياء أهمّ يجب أن أفعلها، مثل أن أعثر على زوجتي.

ولديّ فكرة أخرى.

يجب أن ندخل المقبرة. كان الظلام قد هبط على المكان وأُقفلت بوابة المقبرة. تسلّقت السور، وكسرت القفل بمطرقة ثقيلة أحضرتها من صندوق العدة الذي أضعه في السيارة، ليتمكنّ فرانسيس من الدخول أيضاً. انتظرنا قليلاً حتّى تكيفت أعيننا مع الظلام، لأننا نعرف أنّ بریت تركض بسرعة البرق.

في البداية، لم أرَ أثراً لها. كان الظلام حالكاً، وهي ترتدي فستاناً كحلياً غامقاً. لمّا اقتربتُ من قبر ديفيس سمعت حفيفاً. لوهلة، غطّت الغيوم جزءاً من القمر، ولمعت شاهدة القبر، وظهر بريق من المعدن أيضاً.

«لا تقترب أكثر»، صاحت بریت.

رفعتُ راحتيّ يديّ. راية بيضاء. ببطء شديد، خطوات خطوة أخرى. سمعت صوت ضربة سكين. السكين الذي تضعه في حقيبتها. أتذكر اليوم الذي فيه اشترته في أحد تجمّعات القوة البيضاء. كانت قد تحفّصت أنواعاً مختلفة، ذوات قبضات من العقيق وعرق اللؤلؤ. مشدوهاً، ضغطت بإحدى يديها على حنجرتي في هجوم وهميّ.

«هاي، حبيبتى»، قلت برقة، «يجب أن نعود إلى المنزل».

فتمتتمت قائلة: «لا أستطيع. أنا مضطربة».

«حسناً»، أفعيت، ورحت أتحرّك كما أفعل عندما أقرب من كلب بريّ. مددت

يدي إليها، لكنّ راحة يدي انزلقت من يديها.

نظرتُ إلى الأسفل فرأيت راحة يدي ممتلئة بالدم.

«يا إلهي!»، صحتُ في اللحظة التي أضاء فيها فرانسيس مصباح هاتفه الخليويّ ووجّهه نحو بریت من خلفي، وأطلق صرخة. كانت جالسة مسندة ظهرها إلى شاهدة قبر ديفيس، عيناها مفتوحتان على وسعيهما،

جامحتان، زجاجيتان، على ذراعها اليسرى سبعة أو ثمانية جروح عميقة، وقالت: «لا أستطيع أن أجدها. ما زلت أحاول إخراجها».

«تُخرجين ماذا يا حبيبتى؟» قلت، ومددت يدي لآخذ السكين.

لكنّها أبعدتها عنيّ، وقالت: «دمها». بينما كنت أنظر إليها، التقطت السكين وجرحت رسغها.

سقط السكين من يد بریت، وبينما كانت عيناها تزوغان في رأسها، رفعتها بين ذراعيّ، وجرّيت بها إلى سيّارتي.

مرّت فترة من الزمن قبل أن تستقرّ حالة بریت، وهذا مصطلح سخيّ. فها نحن أولاء في مستشفى بيل نيو هافن، غير المستشفى الذي أنجبت فيه دايفيس، خاطوا جروحها، وضمدوا رسغها، وغسلوا الدم من على جسمها، وأدخلوها القسم النفسيّ في المستشفى. قلت في نفسي، كم إنني ممتنّ لذلك، لأنني لم أستطع أن أحلّ العقد المتشابكة في دماغها.

أكد أستطيع أن أحلّ العقد التي تملأ دماغي.

طلبْتُ إلى فرانيس أن يعود إلى البيت ويرتاح قليلاً، وقرّرت أن أمضي الليلة في قاعة الزوّار في حال احتاجت بریت إليّ عندما تفيق، فتعرف أنّه يوجد أحد هنا لمساعدتها، لكنّها كانت فاقدة الوعي من أثر المهدئات والمسكّنات التي حقنوها بها.

بعد منتصف الليل يبدو المستشفى شبحيّاً، إذ تخفت الأضواء، وتصبح الأصوات مخيفة - حفيف حذاء ممرّضة، أنين مريض، صفير جهاز قياس ضغط الدم. اشتريت قَبْعة من متجر الهدايا، قَبْعة صُنعت للمرضى الذين يخضعون للعلاج الكيميائيّ، لكنّي لم أعر ذلك أيّ اهتمام، فقد غطّت الوشم على فروة رأسي، وأردت أن أندمج الآن مع الآخرين.

جلسْتُ في الكافتيريا، ورحت أتناول فنجاناً من القهوة، أحاول أن أفكّك أفكارِي المتشابكة. هناك أشياء كثيرة يمكنك أن تكرهها. هناك الكثير من

الأشخاص الذين تريد أن توسعهم ضرباً، وهناك ليال كثيرة يمكنك أن تشرب فيها حتى
الشمالة، وفي أحيان كثيرة يمكنك أن تلوم الآخرين على الخراء الذي أحدثته. إنه مخدر،
ومثل أي مخدر، يتوقف مفعوله. ثم ماذا؟

في الواقع، يؤلمني رأسي لوجود ثلاث حقائق متناقضة فيه: 1- إنَّ السود أناس أقلَّ
شأناً. 2- إنَّ بریت نصف سوداء. 3- أحبُّ بریت من كلِّ قلبي.

ألا ينبغي أن يجعل الرقمان واحد واثنان الرقم ثلاثة مستحيلاً؟ أم أنَّها استثناء من
القاعدة؟ هل أدبل واحدة أيضاً؟

تذكَّرت نفسي أنا وتوينكي عندما حملنا بالطعام الذي نتوق إلى تناوله عندما نخرج
من السجن.

كم استثناء يجب أن يكون هناك قبل أن تبدأ تدرك أنه قد تكون الحقائق التي
قيلت لك غير صحيحة في الواقع؟

لمَّا أنهيت قهوتي، رحلت أسير في ممرَّات المستشفى. قرأت جريدة مرمية في بهو
الفندق. راقبت أضواء سيارة الإسعاف التي تومض من وراء أبواب غرفة الطوارئ
الزجاجية.

مصادفةً، لقيت غرفة حضانة الأطفال في المستشفى. صدَّقوني، لم أشأ أن أكون في
أيِّ مكان قريب من جناح الولادة لأنَّ هذه الندوب لا تزال طازجة لديّ، حتَّى لو كان
هذا مستشفى آخر. لكنني وقفت عند النافذة إلى جانب رجل آخر. قال: «إنَّها ابنتي»،
وأشار إلى رضية صغيرة إلى درجة مؤلمة ملفوفة في بطانية وردية اللون، «اسمها
كورا».

تملَّكني الذعر قليلاً. من هو ذلك الشخص الذي يقف أمام حضانة إذا لم يكن ذا
صلة قرابة مع أحد الأطفال؟ فأشرتُ إلى طفل ملفوف في بطانية زرقاء، ينبعث وهج
ضعيف في حاضنته، لكن حتَّى من هنا استطعت أن أرى لون بشرته السمراء، وقلت
كاذباً: «هذا ديفيس».

كان ابني أبيض مثلي، في الأقلّ من الخارج. لكنّه لا يشبه هذا المولود، حتّى لو كان يشبهه، أدركت الآن أنّني كنت سأحبّه. لو كان هذا الطفل هو ديفيس حقاً، لما اكرّثت إن كانت بشرته داكنة أكثر من بشرتي.

المهمّ فقط أن يكون في قيد الحياة.

وضعت يديّ في جيبيّ معطفي، وفكّرت في فرانسيس وبريت. ربّما كان مقدار حبّك لأحد، هو مقدار ما يمكن أن تكرهه. إنّه مثل جيب قلب من الداخل إلى الخارج. من المنطقيّ أن يكون العكس هو الصحيح أيضاً.

كينيدي

إبان الفترة التي استغرقتها هيئة المحلفين لإصدار حكم، رافعت في أربعين دعوى قضائية أخرى، ثمان وثلاثون منها تشمل رجالاً من ذوي البشرة السوداء، وأجرى ميكا ستّ عمليّات جراحية، وذهبت فيوليت إلى حفل عيد ميلاد، وقرأت مقالاً على الصفحة الأولى من الصحيفة عن مسيرة في جامعة ييل قادها طلاب ملونون يريدون - من بين أشياء أخرى - إعادة تسمية كلية سكنية اسمها حالياً جون كالدويل كالهون، وهو نائب رئيس أمريكيّ دعم العبودية والانفصال.

جلسنا، أنا وروث، في المحكمة مدة يومين ننتظر. عاد إديسون إلى المدرسة وقد تملكته حماسة متجددة - من المدهش ما الذي يمكن أن تفعله مسحة صغيرة من القانون لفتى أراد أن يجرب الجنوح! وظهرت روث أيضاً - بمباركتي، جنباً إلى جنب - في برنامج والاس ميرسي المتلفز عبر كاميرا عن بُعد، وأثنى على شجاعتها، وقدم لها شيكاً لتسدّد بعض الأموال التي خسرتها لأنها لم تعد تعمل منذ أشهر عدّة - تبرّعات من أشخاص من إيست إند حتّى جوهانسبرغ. ثمّ قرأنا رسائل مرفقة مع بعض الإسهامات:

أفكر فيك وفي ابنك.

لا يوجد لديّ الكثير، لكنني أريد أن تعرفي أنك لست وحدك.

شكراً لأجل شجاعتك لأنك صمدت، أمّا أنا فلم أصمد.

سمعنا عن بريثاني باور التي تعاني ممّا أسماه الادعاء إجهاداً وتوتراً، ووصفتها روث بأنها مجنونة تماماً. ولم يرَ أحد أثراً لتورك باور أو فرانسيس ميتشوم بعد الآن.

«كيف عرفتِ؟» سألتني روث بعد ما حدث، عندما أحضر والاس أديل آدمز إلى مبنى المحكمة لتلتقي «عَرَصاً» فرانسيس وابنته. قلت لها: «كان لديّ حدس. إذ لَمَّا كنت أدقّق في نتيجة اختبار الأطفال حديثي الولادة رأيت شيئاً لم يلحظه أحد من قبل، لأننا ركّزنا كلّ اهتمامنا على إصابته بذلك الاضطراب الأيضيّ، وهو: فقر الدم المنجليّ. تذكّرت ما قالته طبيبة الأطفال عن كيف يؤثّر هذا المرض بالتحديد في الأمريكيين من أصل أفريقيّ أكثر من غيرهم بكثير، وتذكّرت أيضاً أنّ بریت قالت في إفادتها إنّها لم تكن تعرف أمّها».

فقال روث: «كان رهاناً ينطوي على مجازفة».

«نعم، لذلك أجريت قليلاً من الأبحاث. إذ يحمل واحد من كلّ اثني عشر أميركياً من أصل أفريقيّ سمة الخلية المنجليّة. ويحملها واحد من كلّ عشرة آلاف شخص أبيض. فجأة، بدا لي أن تكون تلك ورقة رابحة. فاتصلت بوالاس. وتكفّل هو بالباقي. فكتشف اسم الأمّ من شهادة ميلاد بریت، وتتبعها».

نظرت روث إليّ وقالت: «لكن، لم يكن لذلك علاقة بقضيتك».

فقلت: «لا، كانت هذه هديّة منّي لك. قلت في نفسي إنّهُ لا يوجد شيء آخر يمكن أن يبرز كلّ ذلك النفاق».

مع اقتراب نهاية اليوم الثاني من دون أن نسمع كلمة واحدة من هيئة المحلّفين، كدنا نفقد جميعنا صوابنا قليلاً. «ماذا تفعل؟» سألت هوارد الذي كان ينتظر معنا. كان يكتب شيئاً بعنف على هاتفه، «موعد عاطفيّ؟»

فقال: «إنّي أبحث عن الفرق في الحكم لحياسة مخدّر الكراك (إزاء الكوكايين). فحتّى عام 2010، كان الشخص المدان بالحياسة بنيتة توزيع خمسين غراماً أو أكثر من مخدّر الكراك يُحكم عليه بالسجن لمُدّة لا تقلّ عن عشر سنوات، وكي تحسلي على الحكم نفسه بتهمة توزيع الكوكايين،

عليك توزيع خمسة آلاف غرام. حتّى الآن، فإنّ معدّل التفاوت في الأحكام يبلغ ثمانية عشر إلى واحد».

هزرت رأسي، وسألته: «لماذا تريد أن تعرف ذلك؟»

فقال: «أفكر في الاستئناف. من الواضح أنّها سابقة للتحيّز في إصدار الأحكام، بما أنّ 84 في المئة من المدانين بجرائم حيازة الكراك هم من السود، وأنّ مرتكبي جرائم المخدّرات السود عرضة للسجن أكثر بنسبة عشرين في المئة من مرتكبي جرائم المخدّرات البيض».

«هوارد»، قلت وأنا أفرك صدغي، «أطفئ هاتفك اللعين».

«أليس هذا شيئاً سيئاً؟» قالت روث وهي تفرك ذراعيها مع أنّ جهاز التدفئة يشيع في الغرفة حرارة. «أراهن أنّه لو كانوا سيقرّرون البراءة لقرّروا ذلك بسرعة».

فقلت أكذب عليها: «إذا لم تكن هناك أخبار فهذا يعني أنّها أخبار جيّدة».

في نهاية اليوم، دعا القاضي هيئة المحلّفين إلى قاعة المحكمة، وسألهم: «هل توصلتم إلى حكم؟»

نهضت رئيسة المحلّفين وقالت: «لا، يا حضرة القاضي. إنّنا منقسمون».

أعرف أنّ القاضي سيطلب إليهم أن يسرعوا في التوصل إلى اتفاق على الحكم. ثمّ التفت إلى هيئة المحلّفين بمهابة لإضفاء الحزم، وقال: «كما تعرفون، فقد أنفقت الولاية مبلغاً كبيراً من المال لإجراء هذه المحاكمة، ولا يعرف أحد الحقائق والوقائع كما تعرفونها أنتم. اذهبوا وناقشوا الأمر. اسمعوا وجهات نظر بعضكم بعضاً. إنّي أشجّعكم على أن تتوصلوا إلى حكم كي لا نضطرّ إلى إعادة المحاكمة مرّة أخرى».

لمّا أخرج المحلّفون من قاعة المحكمة، نظرت إلى روث، وقلت لها: «ربّما يجب أن تعودني إلى البيت».

نظرت إلى ساعتها، وقالت: «لديّ بعض الوقت».

سرنا وسط المدينة، كتنفاً إلى كتف، لنشرب فنجان قهوة في هذا الجوّ البارد. هرباً من الريح الباردة لجأنا إلى مقهى قريب. «بعد أن أدركتُ أنني لا أستطيع أن أصبح طاهية معجنات، كنت أحلم أن أفتح مقهى»، قلت لها، «وأردت أن أسميه «حيثيات ردّ الدعوى»».

لَمَّا جاء دورنا لنسجّل طلبنا، سألتُ روث كيف تتناول قهوتها، فقالت: «سوداء». فضحكنا فجأة. نظرت النادلة إلينا كما لو أننا فقدنا صوابنا، وكما لو كنّا نتحدّث لغة لا نستطيع أن تفهمها.

ولا أظنُّ أنّ كلّ ذلك كان بعيداً عن الحقيقة.

في صباح اليوم التالي، استدعانا القاضي ثاندر، أنا وأوديت، إلى غرفة مكتبه، وقال: «تلقيتُ ملاحظة من رئيسة المحلّفين. لدينا هيئة محلّفين منقسمة. أحد عشر محلّفاً مقابل محلّف واحد». هزّ رأسه وأضاف: «أنا أسف جداً، سيّديّ».

بعد أن خرجنا من مكتبه، رحنا نذرع الممرّ أنا وهوارد خارج مكتب القاضي.

«حسناً؟»

«محاكمة فاشلة. لقد وصلوا إلى طريق مسدود، أحد عشر مقابل واحد».

«من هو المحلّف الراض؟» سأل هوارد. كان سؤالاً بلاغياً لأنّه يعرف أنني لا أعرف.

توقّفنا فجأة عن المشي، ونظر أحدهنا إلى الآخر، وقلنا معاً: «المحلّفة رقم 12».

«عشر دولارات؟» سأل هوارد.

قلت له: «ربحت».

«كنت أعرف أنّه كان ينبغي لنا أن نستبعدها من هيئة المحلّفين منذ البداية».

«لم تريح الرهان بعد»، قلت له، لكن في أعماقي، أتخيل أنه على حق. المعلّمة التي لم تستطع أن تقرّ بوجود عنصريّة ضمنيّة، وربّما شعرت بإهانة من المرافعة الختاميّة التي ألقيتها.

كانت روث تنتظري في غرفة الاجتماعات. رفعت عينيها، متفائلة. «لم يتمكنوا من الوصول إلى حكم»، قلت لها.

«إذاً، ماذا الآن؟»

فقلت: «قد يعاد النظر في القضية بهيئة محلّفين جديدة، أو تستسلم أوديت وتسقط القضية».

«هل تظنين أنّها...؟»

فقلت: «تعلمت منذ زمن ألا أظهار بأنني أستطيع أن أفكر كما يفكر الادّعاء العامّ. يجب أن ننتظر ونرى».

دخل أعضاء هيئة المحلّفين قاعة المحكمة، تبدو عليهم أمارات التعب. وقال القاضي: «سيّدتي رئيسة هيئة المحلّفين، فهمت أنّ هيئة المحلّفين لم تتمكّن من التوصل إلى حكم. هل هذا صحيح؟»

وقفت رئيسة هيئة المحلّفين، وقالت: «نعم، يا حضرة القاضي».

«هل تشعرين أنّ منحكم مزيداً من الوقت سيمكّنكم من حلّ هذه القضية أخيراً بين الولاية والسيدة جيفرسون؟»

«للأسف يا حضرة القاضي، يرفض بعض منّا رؤية الآخرين وجهاً لوجه».

فقال القاضي ثاندر: «شكراً لخدمتكم. إيّ أعفي هيئة المحلّفين هذه من عملها».

خرج الرجال والنساء. سمعت في القاعة همسات صامتة عندما حاول الناس فهم ما الذي يعنيه ذلك. حاولت أن أقلب في رأسي احتمالات أن تلجأ أوديت إلى هيئة محلّفين كبرى بتهمة القتل غير العمد.

«لا يزال هناك شيء واحد أخير يجب عمله في هذه المحاكمة»، تابع القاضي ثاندر،
«أنا مستعدّ للبتّ في طلب الدفاع المتجدّد للحكم بالبراءة».

نظر هوارد إليّ من فوق رأس روث. ماذا؟

يا إلهي! سيستخدم القاضي ثاندر منفذ النجاة الذي قدّمته له كمسألة روتينيّة.
حبستُ أنفاسي.

«لقد بحثتُ في القانون، وراجعت الأدلّة في هذه القضية بعناية شديدة. لا يوجد
دليل موثوق يشير إلى أنّ لوفاة هذا الطفل أيّ علاقة سببية بأيّ عمل أو تقاعس من
جانب المدّعى عليها»، ثمّ التفت إلى روث وقال: «أنا آسف جداً لأنك عانيت من
نتيجة ما فعلته في مكان عملك يا سيّدي»، وضرب بمطرقته، وقال: «أوافق على اقتراح
الدفاع».

في هذه اللحظة، أدركتُ أنّه لا يمكنني أن أفكّر كما يفكّر المدّعي العامّ فحسب،
وإنّما كنت مخطئة تماماً بشأن المكائد العقليّة للقاضي. استدرتُ، وثمّة ضحكة ذاهلة
تكاد تنفجر داخلي. كانت روث لا تزال عابسة، وقالت: «لم أفهم».

لم يعلن أنّ المحاكمة أخفقت، وقد منح البراءة بحسن النية.

«روث»، قلت، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي، «أصبحت حرة الآن».

روث

الحرية هي عنق زهرة النرجس البرية الهشة، بعد أطول فصول شتاء. إنها صوتك من دون أن يطغى أحد على صوتك. إنها نعمة أن تقول نعم، والأهم من كل ذلك، الحق في أن تقول لا. في قلب الحرية، يخفق الأمل: نبض الإمكان.

أنا المرأة نفسها التي كنت قبل خمس دقائق. أغوص في الكرسي نفسه، يداي منبسطتان فوق الطاولة نفسها الممتلئة بالندوب. شكركي المحاميان اللذان دافعا عني. ضوء النيون هذا لا يزال يبصق مثل صرصور. لم يتغير شيء، وكل شيء أصبح مختلفاً.

خرجتُ من قاعة المحكمة وأنا في حالة ذهول. على الفور، امتدَّت أمامي ميكروفونات كثيرة. قالت كينيدي للجميع إنه على الرغم من أن موكلتها سعيدة بالحكم الذي صدر، فلن تُدلي بأي تصريحات حتى نعقد مؤتمراً صحفياً رسمياً غداً. وأُن على موكلتها أن تعود إلى بيتها، وإلى ابنها.

كانت هناك حفنة من المتطرفين الذين كانوا يأملون في أن يقولوا شيئاً، لكنهم ابتعدوا أخيراً. وُجِّهت إلى بروفسيور في قاعة المحكمة تهمة حيازة مواد إباحية عن الأطفال.

العالم يدور، وهناك ضحية أخرى، ومنتמר آخر. إنها قصة شخص آخر الآن. أرسلتُ رسالة نصية إلى إديسون، الذي اتصل بي مع أنه اضطرَّ إلى أن يغادر قاعة الدرس ليتصل بي، وسمعت تنهيدة الارتياح من خلال كلماته. ثم اتصلتُ بأديسا في مكان عملها، وكان عليّ أن أبعد الهاتف عن أذني عندما بدأت تصرخ

فرحة، ووصلتني رسالة نصيئة من كريستينا: صف كامل من الأيقونات المبتسمة ثم صورة همبرغر وكأس نبيذ وعلامة استفهام.

دعوة مؤجلة؟ كتبت لها.

«روث»، قالت كينيدي عندما وجدتني واقفة وهاتفي في يدي أحدق إلى الفضاء، «هل أنتِ على ما يرام؟»

فأجبتها بصدق: «لا أعرف. هل حقاً انتهى كل شيء؟»

ابتسم هوارد، وقال: «نعم، انتهى كل شيء».

ثم قال هوارد، وقد علت وجهه ابتسامة: «لقد انتهى كل شيء على نحو لا لبس فيه».

«شكراً»، قلت له وعانقته، ثم التفتُّ إلى كينيدي، وقلت وأنا أهزُّ رأسي: «وأنتِ... لا أعرف ماذا أقول».

فقال كينيدي وهي تعانقني: «فكرِّي في الأمر. يمكنك أن تقولي لي ذلك الأسبوع المقبل عندما نتناول الغداء معاً».

رجعتُ خطوة إلى الوراء لتقابل عيناها عينيها، وقلت: «أودُّ ذلك». لقد تحوّل شيء ما بيننا. أدركت أنها قوّة، وأتينا أصبحنا متعادلتين.

فجأة، أدركت أنني في أثناء دهشتي، عندما سمعتُ الحكم، تركت وشاح أمي الذي يجلب الحظّ في قاعة المحكمة. «لقد نسيت شيئاً. سأراك في الطابق الأرضي».

لَمَّا وصلتُ إلى الباب المزدوج، رأيت الحارس واقفاً في الخارج. «سيدي؟»

«أنا أسفة - هناك وشاح...؟ هل أستطيع...»

فقال: «بالتأكيد»، ولوّح لي بيده كي أدخل.

وقفت وحدي في قاعة المحكمة. سرتُ في الممرِّ بين المقاعد إلى حيث كنت جالسة. كان وشاح أمي لا يزال على المقعد. التقطته ورحت أتلّمسه

براحة يدي. نظرت حولي في القاعة الفارغة. في أحد الأيام، ربّما يرافع إديسون في قضية في هذه القاعة، بدلاً من أن يكون جالساً إلى جانب محامية كما كنت أفعل، وقد يأتي يوم يجلس فيه إلى منصّة القاضي.

أغمضتُ عينيّ لأحتفظ بهذه اللحظة. أنصت إلى الصمت.

بدا كأنّ سنوات ضوئيّة قد مرّت منذ أن جُلبت إلى قاعة محكمة أخرى أسفل القاعة لتوجيه التهمة إليّ، مكبّلة بالأصفاد وأنا في ثوب نومي، ولم يُسمح لي أن أقول شيئاً أدافع فيه عن نفسي. بدا كأنّ دهرًا قد انقضى منذ أن قيل لي ما لا أستطيع فعله. «نعم»، قلت بهدوء، لأنّه عكس ضبط النفس. لأنّه يكسر السلاسل، لأنني أستطيع.

كوّرت يديّ وملت برأسي إلى الوراء، وتركت الكلمة تنفجر من حنجرتي. نعم

نعم.

نعم.

المرحلة الثالثة
بعد الولادة
بعد ستّ سنوات

يجب أن يتعلّم الناس كيف يكرهون، وإذا استطاعوا أن يتعلّموا ذلك، فإنّ بإمكانهم أن يتعلّموا كيف يحبّون.

نيلسون مانديلا،

(مسيرة طويلة إلى الحرّية)

تورك

في غرفة الفحص في العيادة، أخرجتُ قفازاً مطاطياً من العلبة ونفخته، ثم ربطته من الأسفل، وأخذت قلماً ورسمت عينيْن ومنقاراً. فقالت ابنتي: «بابا، لقد جعلتني دجاجة».

«دجاجة؟» قلت، «لا أصدّق أنك ترين هذه دجاجة. من الواضح أنّه ديك».

عبست وسألتنِي: «وما الفرق؟»

حسناً، أم أفعل ذلك حقاً؟ لكن لا توجد طريقة أستطيع بها أن أصف الطيور والنحل لطفلي ذات السنوات الثلاث ونحن جالسين في انتظار ظهور نتيجة الاختبار الذي أجرته للتأكد من عدم وجود بكتيريا. سأترك ديبورا تفعل ذلك عندما تعود إلى المنزل من العمل.

تعمل زوجتي ديبورا سمسار أسهم في البورصة، وقد أخذتُ اسم أسرتها عندما تزوّجنا على أمل أن أبدأ لأكون شخصاً جديداً، شخصاً أفضل. إنّها تعمل من الساعة التاسعة حتّى الخامسة، في حين أبقى في المنزل مع كاريس، فأخذها لتعلب مع أقرانها، وإلى مدرسة الحضانة. أعمل في الفرع المحليّ «لرابطة مكافحة التشهير». أذهب إلى المدارس الثانوية والسجون والمعابد والكنائس وأتحدّث فيها عن الكراهية.

حكيت لهذه المجموعات كيف كنت أضرب الناس لأنني كنت أتألّم بشدّة، وأنّه إمّا أن أوذيهم وإمّا أوذي نفسي، وشرحت لهم إنّ ذلك كان يجعلني أشعر بأنّ لديّ هدفاً، وكنت أحدثهم عن المهرجانات التي كنت أذهب إليها حيث يغني الموسيقيون أغاني تشيد بتفوّق العرق الأبيض، في حين يلعب الأطفال ألعاباً عنصريّة، وبألعاب عنصريّة. حكيت لهم عن الفترة

التي أمضيتها في السجن، وعن عملي كمسؤول لموقع يحرض على الكراهية عبر الإنترنت. حدّثتهم عن زوجتي الأولى، وقلت لهم إنّ الكراهية نهشتها من الداخل والخارج، لكن ما حدث بالفعل كان أكثر بساطة: قنينة ممتلئة بالحبوب ابتلعتها مع زجاجة فودكا، وكيف أنّها لم تستطع أن ترى العالم على حقيقته، حتّى وجدت في النهاية طريقة لإبقاء عينيها مغمضتين إلى الأبد.

قلت لهم إنّّه لا يوجد شيء أنانيّ أكثر من محاولة تغيير رأي شخص لأنّه لا يفكر مثلك. فقط لأنّ شيئاً مختلفاً لا يعني أنّك يجب ألاّ تحترمه.

هذا ما كنت أقوله لهم: من الناحية الفسيولوجيّة، فإنّ الجزء في الدماغ الذي يتيح لنا أن نلوم الأشخاص الذين لا نعرفهم على كلّ شيء، هو الجزء نفسه من الدماغ الذي يسمح لنا بالتعاطف مع الغرباء. نعم، فقد جعل النازيون اليهود كبش فداء إلى حدّ الانقراض تقريباً. لكنّ تلك الأنسجة عيناها، التي في العقل، هي التي تدفع الآخرين إلى إرسال أموال وإمدادات وإغاثة، حتّى عندما يكونون على مسافة نصف العالم.

وفي أثناء تلك الأحاديث، كنت أصف لهم الطريق الطويل حتّى مغادرتي التي بدأت بزيارة في منتصف الليل - أفراد مقنّعون ومجهولون أرسلهم آخرون أقوياء حطّموا باب بيتنا وأوسعونا ضرباً، وألقوا بفرانسييس من أعلى الدرج: كُسرت ثلاثة أضلع في جسمي. أظنّ أنّه كان حفل وداع، فأغلقت موقع Lonewolf.org في اليوم التالي، واستخرجت أوراق الطلاق عندما انتحرت بريت.

حتّى الآن، لا أزال أرتكب أخطاء. لا أزال أشعر بالحاجة إلى أن أضرب شيئاً أو شخصاً من حين إلى آخر، لكنّي أفعل ذلك في ساحة تزلّج الهوكي. لعليّ أصبحت أشدّ حذراً عندما أصادف رجالاً من ذوي البشرة السوداء. لكنّي أصبحت أكثر حذراً مع الأشخاص البيض الذين يركبون شاحنات صغيرة تتدلى من نوافذها الخلفية أعلام الكونفدراليّة، لأنّني كنت واحداً

منهم، وأعرف ما يمكنهم أن يفعلوا. التقيت الكثيرين منهم، الذين لم يصدّقوا أنني استطعت أن أنتعجّر هكذا عندما أحكي لهم عن زوجتي ديورا التي تعرف كل شيء عني، وعن ماضيّ، وقد سامحتني. وإذا ما استطاعت أن تسامحني، فكيف لا أحاول أن أسامح نفسي؟

أكفّر عن ذنوبي. من ثلاث إلى أربع مرّات في الأسبوع، أذكر الأخطاء التي ارتكبتها أمام الجمهور. أشعر بأنهم يكرهونني. أظنّ أنني أستحقّ ذلك.

قالت كاريس: «بابا، حلقي يؤلمني».

فقلت لها: «أعرف يا حبيبتني»، وأجلستها في حضني عندما فُتح الباب.

دخلت الممرضة وهي تنظر في استمارة المعلومات المتعلقة بكاريس في عيادة الرعاية المستعجلة هذه، وقالت: «مرحباً، اسمي روث ووكر».

رفعت عينيها، ولاحت على وجهها ابتسامة، وقالت: «ووكر»، كرّرت اسمها وهي تصافحني.

«نعم، إنّي أملك هذه العيادة وأعمل فيها أيضاً»، قالت وابتسامة ترفرف على شفيتها، «لا تقلق، فأنا ممرضة مؤهلة أفضل بكثير من أن أكون محاسبة».

لم تعرفني. في الأقلّ لا أظنّ أنّها عرفتني.

كي نكون منصفين، فإنّ الاسم المذكور في الاستمارة هو اسم كنية ديورا، فضلاً عن أنّي أصبحت الآن أبدو مختلفاً تماماً، فقد أزلتُ كلّ الوشوم ما عدا وشماً واحداً. فقد نما شعري وقصصته بتحفظ. فقدت نحو ثلاثين رطلاً من العضلات والقوة الجسديّة، منذ أن بدأت أمارس رياضة الجري، ولعلّ كلّ شيء في داخلي أصبح يبدو مختلفاً من الخارج.

التفتت إلى كاريس، وقالت: «إذاً هناك شيء ليس على ما يرام، أليس كذلك؟ هل يمكنني أن ألقى نظرة؟»

تركتُ كارييس جالسة على ركبتي وراحت تمرّر يديها اللطيفتين على غدد ابنتي المتورّمة، وقاست حرارتها، وفحصت فمها بعناية. جالت عيناى في أرجاء الغرفة، ولاحظت أشياء لم أرها من قبل - شهادة على الحائط عليها اسم روث جيفرسون، مكتوب بخطّ جميل. صورة مؤطرة لرجل أسود وسيم على رأسه قبعة وروب تخرُج في حرم جامعة ييل.

لفتت انتباهي عندما خلعت قفّازيها. لاحظتُ أنّها تضع خاتماً صغيراً من الماس وخاتم زواج في يدها اليسرى.

قالت لي: «أنا متأكّدة بنسبة تسعة وتسعين في المئة أنّها بكتيريا. هل لدى كارييس حساسية تجاه أيّ دواء؟»

هزّزت رأسي. لم أستطع أن أجد صوتي.

ثمّ قالت: «يمكنني أن أخذ مسحة من حلقتها وأجري زراعة بكتيريّة سريعة، وبناء على النتائج، ستبدأ جرعة من المضادات الحيويّة». أمسكت بصفيرة كارييس وشدّتها برفق، وقالت لها: «ستصبحين في حالة ممتازة بسرعة».

ثمّ استأذنتنا وسارت نحو الباب لتُحضر الأشياء التي تحتاج إليها لإجراء الاختبار. لمّا وضعت يدها على أكرة الباب، ناديت: «روث».

استدارت. للحظة، ضيّقت عينيها قليلاً، وتساءلت، لكنّها لم تسأل إن كنّا قد التقينا قبل الآن. لم تتذكّر تاريخنا. كانت تنتظر أن أقول أيّ شيء أريد قوله.

قلت لها: «شكراً».

هزّت رأسها وخرجت من الغرفة. استدارت كارييس فوق حضني، وقالت: «بابا، إنّه لا يزال يؤلمني».

«ستشفىه الممرضة الآن».

راضية عن ذلك، أشارت كاريس إلى مفاصل يدي اليسرى، الوشم الوحيد الذي بقي على جسمي، وسألتنني: «هل هذا اسمي؟»

فأجبتها: «نوعاً ما. اسمك يعني الشيء نفسه بلغة سگان ويلز».

لقد بدأت تتعلم الأحرف منذ فترة قصيرة. فراحت تشير إلى كل مفصل وقرأت: ح.

ب.»

فقلت مفتخراً: «صحيح». انتظرنا حتى عادت روث. أمسكت بيد ابنتي، أو ربّما

هي التي أمسكت بيدي، كما لو كنا عند تقاطع طرق، وكانت مهمّتي أن أوصلها إلى برّ

الأمان على الجانب الآخر.

كلمة المؤلِّفة

بعد قرابة أربع سنوات من مسيرتي في الكتابة، أردتُ أن أكتب كتاباً عن العنصريَّة في الولايات المتحدة. جذبني حادث جرى في الحياة الواقعيَّة في مدينة نيويورك، عندما أُطلقت النار على شرطيِّ سريِّ أسود في ظهره لمَرَّات عدَّة، أطلقها عليه زملاؤه البيض - مع أنَّ الشرطيِّ السريِّ كان يضع ما يُسمَّى «لون اليوم» - سوار معصم يمكِّن رجال الشرطة الآخرين من تعرُّف رفاقهم من عناصر الشرطة الذين يتخفُّون في ثياب مدنيَّة. بدأتُ أكتب الرواية، لكنِّي أخفقت تماماً، وتوقَّفت عن كتابتها لأنني لم أستطع أن أفي الموضوع حقَّه، بطريقة أو بأخرى، فلم أكن أعرف كيف تشعر عندما تنشأ شخصاً أسود في هذا البلد، وواجهت مشكلة كبيرة في خلق شخصية خيالية تبدو حقيقية.

بعد مضيِّ عشرين سنة، تملَّكتني مرَّة أخرى رغبة شديدة في أن أكتب عن العنصريَّة. كنت أدرك على نحو غير مريح أنَّه عندما يتحدَّث المؤلفون من ذوي البشرة البيضاء عن العنصريَّة في رواية، فإنَّها تكون عادة رواية تاريخيَّة. ومرَّة أخرى، بأيِّ حقِّ ينبغي لي أن أكتب عن تجربة لم أعشها؟ وإذا كتبتُ ما أعرفه فقط، فإنَّ مسيرتي المهنية ستصبح قصيرة ومملَّة. فقد نشأتُ بيضاء أتمتَّع بامتياز طبقيِّ. ولسنوات عدَّة، أجريتُ أبحاثاً، وأجريت مقابلات شخصية مكثفة كي أتمكَّن من التعبير عن أصوات الأشخاص الذين لست مثلهم: رجال، مراهقون، أشخاص ذوو ميول انتحاريَّة، زوجات معتقات تعرَّضن لسوء المعاملة، وضحايا اغتصاب. إنَّ ما دفعني إلى كتابة هذه القصص شعوري بالغضب، ورغبتني في منح تلك الروايات صوتاً ليزداد وعي الذين لم يعيشوا هذه الأشياء. لماذا تعدُّ الكتابة عن شخص ملوَّن مختلفة؟

لأنَّ العرق مختلف. العنصريَّة مختلفة. إنَّها أمر محفوف بالمخاطر، وتصعب مناقشتها، لذلك فإننا لا نفعل ذلك في معظم الأحيان.

ثمَّ قرأتُ خبراً عن ممرضة أمريكية من أصل أفريقي في فلينت بولاية ميشيغان، عملت في قسم المخاض والولادة لمدة تزيد على عشرين عاماً، وفي أحد الأيام أراد والد الطفل الذي تقوم على رعايته أن يرى الممرضة المشرفة، وطلب إليها ألا تلمس هذه الممرضة أو من يشبهها رضيعه، واتَّضح أنَّه ينتمي إلى جماعة المتفوقين البيض العنصريَّة. وضعت الممرضة المشرفة طلب المريض في ملفِّ الطفل، ورفع عدد من الأمريكيين من أصل أفريقيِّ دعوى قضائيَّة بشأن التمييز العنصريِّ وربحت الدعوى. هذا الخبر جعلني أفكِّر، وبدأت أنسج قصة.

كنت أعرف أنني أريد أن أكتب رواية من وجهة نظر ممرضة سوداء، وأب ينتمي إلى جماعة الرؤوس الحليقة، ومحامية عامة - امرأة، مثلي ومثل كثيرات من قرائي، سيِّدة بيضاء حسنة النية، لا ترى نفسها عنصريَّة. وفجأة، أدركت أنني أستطيع كتابة هذه الرواية حتى النهاية. وبخلاف محاولاتي الأولى المجهضة، لم أكن أنوي أن أكتبها لأقول للأشخاص الملونين كيف تبدو حيواتهم، وإمَّا كنت أنوي أن أكتبها لمجتمعني - البيض - الذين يمكنهم بسهولة أن يشيروا إلى حليقي الرؤوس من النازيين الجدد ويقولوا هذا عنصري... لكن من لا يستطيع أن يدرك أنَّ العنصريَّة تعشش داخله.

في الحقيقة، ربَّما كنت أصف نفسي منذ وقت ليس ببعيد. ففي أحيان كثيرة يخبرني القراء عمَّا تعلَّموه من كتبي - لكن عندما أكتب رواية، فإنِّي أتعلَّم أشياء كثيرة أيضاً، لكن هذه المرَّة، بدأت أعرف أشياء عن نفسي، فقد بدأت أستكشف ماضيَّ ونشأتي وتحيزاتي، وأكتشف أنني بريئة تماماً وتقدميَّة كما كان يخيل إلي.

يظنّ معظمنا أنّ كلمة عنصريّة مرادفة لكلمة تحيّر. لكنّ العنصريّة أكثر من مجرد تمييز على أساس لون البشرة. إنّها تتعلّق أيضاً بمن يملك سلطة مؤسسيّة، وكما تلحق العنصرية أضراراً وإساءات للأشخاص الملونين، وهي التي تصعب عليهم تحقيق النجاح، فإنّها تمنح أيضاً مزايا للأشخاص البيض تجعل تحقيق النجاح بالنسبة إليهم أكثر سهولة. تصعب رؤية تلك المزايا، ناهيك عن امتلاكهم لها.

لذلك، أدركت السبب الذي جعلني أشعر بأنّني يجب أن أكتب هذه الرواية. فحينما يتعلّق الأمر بالعدالة الاجتماعيّة، فإنّ دور الحليف الأبيض يجب ألا يكون منقذاً أو وسيطاً، وإمّا يجب أن يكون موجّهاً إلى الأشخاص البيض الآخرين، والتحدّث إليهم كي يروا أنّ كثيراً من المزايا التي ينعمون بها في الحياة هي نتائج مباشرة لحقيقة أنّ شخصاً آخر لا يملك تلك المزايا نفسها.

بدأت أجري بحثي بالجلوس مع نساء ملونات. ومع أنّني كنت أعرف أنّ إمطار الأشخاص الملونين بالأسئلة ليست الطريقة الفضلى لتثقيف الذات، أملت في أن أدعو أولئك النسوة للمشاركة بطريقة ما، يقدّمن لي في المقابل هدية: فقد شاطرني تجاربهنّ حول كيف يشعر الشخص الأسود في حياته، ولا أزال أشعر بالامتنان لأولئك النسوة - لا لتحملهنّ جهلي فقط، وإمّا لأنّني كنت عازمة على أن أتعلّم منهنّ. ثمّ، كان من دواعي سروري أن أتحدّث إلى بيفرلي دانيال تاتوم، الرئيس السابق لكلية سبيلمان، والمعلّم الشهير عن العنصريّة. وقرأت كتاباً للدكتور تاتوم وديبي إيرفينغ، وميشيل ألكسندر، وديفيد شيلبر. والتحقّت بورشة عمل حول العدالة الاجتماعيّة تدعى «إلغاء العنصريّة»، وكنّت أنهي قراءتي بالبكاء كلّ ليلة، وبدأت أزيل القشرة التي كانت تغطّي «من أكون أنا حقّاً؟».

ثمّ، تعرّفّت إلى شخصين كانا ينتميان إلى جماعة حليقي الرؤوس، كي أستحدث مفردات الكراهية لشخصيتي العنصريّة المتعصّبة للعرق الأبيض.

كانت ابنتي سامي هي التي وجدت تيم زال - من حليقي الرؤوس السابقين، الذي كان يدرس معها في الفصل عبر السكايب في المدرسة الثانوية. فقد ضرب تيم منذ سنوات شاباً مثلياً ضرباً مبرحاً فكاد يموت. وبعد أن ترك الحركة، بدأ يعمل في مركز سيمون ويزنتال، ويتحدّث عن جرائم الكراهية، وأدرك ذات يوم أنّ الشاب الذي كاد يقتله يعمل في المركز أيضاً. تبادلوا الاعتذار والمغفرة، وهما الآن صديقان يتحدّثان عن تجربتيهما الفريدتين إلى المجموعات كلّ أسبوع. وقد تزوّج امرأة يهوديّة، ويعيش حالياً حياة سعيدة. وفرانكي مينك، الذي كان ينتمي إلى جماعة حليقي الرؤوس، ويعمل حالياً في رابطة مكافحة التشهير. ومع أنّه كان يدير مجموعات الكراهية في فيلي، أصبح يدير حالياً الآن برنامج (الانسجام من خلال الهوي)، وهو برنامج يهدف إلى تعزيز التنوّع العرقيّ بين الأطفال.

علّمني دان الرجلان أنّ «جماعات القوة البيضاء» تؤمن بفصل الأعراق، وتعتقد أنّ أعضاءها جنود في حرب عنصريّة مقدّسة، وأوضحا لي كيف أنّ الذين يُجنّدون في جماعات الكراهية يستهدفون الأطفال الذين تعرّضوا للتنمّر أو التهميش، أو الأطفال الذين يأتون من منازل معنّفة، ويوزعون منشورات مناهضة للبيض في حيّ يسكنه البيض، ويرون من الذي يستجيب بالقول إنّ البيض يتعرّضون للهجوم، فيأتون إليهم ويقولون لهم إنكم لستم وحدكم. وكان الهدف من ذلك، إعادة توجيه غضب الشخص الذي يجنّده إلى العنصريّة، فأصبح العنف متنقّساً لهم. وعلماني أيضاً أنّ معظم جماعات حليقي الرؤوس لم تعد تسعى الآن إلى ممارسة العنف، وإنّما أصبح أفرادها يتواصلون سرّاً، وأصبح أنصار المتفوّقين البيض يرتدون ثياباً عادية مثل الناس العاديين الآخرين، وبدؤوا يندمجون، لبيئوا نوعاً مختلفاً تماماً من الرعب.

لَمَّا جاء الوقت لأضع عنواناً لهذه الرواية، وجدت نفسي أعاني من جديد. يعرف عدد كبير منكم من المعجبين بي منذ زمن بعيد أن هذا العنوان لم يكن العنوان الأصلي للرواية. إنَّ عبارة (أشياء صغيرة عظيمة) تشير إلى اقتباس يُنسب غالباً إلى القسِّ الدكتور مارتن لوثر كينغ الابن: «إذا لم أستطع أن أفعل أشياء عظيمة، يمكنني أن أصنع أشياء صغيرة بطريقة عظيمة». لكن، بما أنني امرأة بيضاء، فهل يحقُّ لي أن أعيد صياغة هذه المشاعر؟ إذ يشعر كثير من الأمريكيين من أصل أفريقي بحساسية تجاه الأشخاص البيض الذين يستخدمون العبارات التي قالها مارتن لوثر كينغ الابن، لتعكس تجربتهم الخاصَّة، وقد يكونون محقِّين في ذلك. علمت أيضاً أنَّ لدى روث وكينيدي لحظات في هذه الرواية تفعلان فيها أشياء صغيرة تنطوي على تداعيات عظيمة ودائمة على الآخرين. بالإضافة إلى ذلك، بالنسبة إلى عدد من البيض الذين بدؤوا تَوّاً يسرون في طريق الوعي الذاتيِّ العرقيِّ، فإنَّ كلمات الدكتور كينغ تشكِّل في معظم الأحيان الخطوة الأولى في رحلتهم. إنَّ فصاحته حول موضوع ما يجعل معظمنا يشعرون بأنَّ بضع كلمات تصبح مصدر إلهام وتواضع. بالإضافة إلى ذلك، مع أنَّ التغيرات الفردية لا يمكن أن تقضي تماماً على العنصرية - فهناك أنظمة ومؤسَّسات في حاجة إلى الإصلاح أيضاً - فمن خلال الأعمال الصغيرة تُكرَّس العنصرية، وتُفكِّك جزئياً. لكلِّ هذه الأسباب - ولأنتي أمل في أنَّها ستشجِّع الناس على معرفة المزيد عن الدكتور كينغ - فقد اخترت هذا العنوان.

من بين جميع رواياتي، سترز هذه الرواية بالنسبة إليَّ بسبب تغيير الاتجاه الذي ألهمني بالطريقة التي أفكَّر فيها في نفسي، ولأنَّها جعلتني أدرك المسافة التي لا يزال يتعيَّن عليَّ أن أقطعها عندما يتعلَّق الأمر بالوعي العرقيِّ. ففي أمريكا، نحبُّ أن نعتقد أنَّ سبب نجاحنا يكمن في أننا عملنا بجدِّ، أو لأننا أذكاء. إنَّ الاعتراف بأنَّ العنصرية أدَّت دوراً في نجاحنا يعني الاعتراف بأنَّ الحلم الأمريكي ليس في متناول الجميع. وقد

أشارت معلّمة العدالة الاجتماعيّة بيغي ماكينتوش إلى بعض هذه المزايا من قبيل الحصول على الوظائف والمسكن، دخول صالون لتصفيف الشعر عرضاً وإيجاد شخص يمكنه أن يصفّف شعرك، شراء دمي ولُعب وكتب أطفال يظهر فيها أفراد من عِرْقك، والحصول على ترقية من دون أن يشكَّ أحد في أنّ ذلك يُعزى إلى لون بشرتك، وطلب التحدُّث إلى شخص مسؤول، وتوجيهك إلى شخص من عِرْقك.

لَمَّا كنتُ أُجري أبحاثي لكتابة هذه الرواية، سألتُ أمّهات من ذوات البشرة البيضاء، كم مرّة تحدّثن إلى أطفالهنّ عن العنصريّة. قالت بعضهنّ: بين الحين والآخر، واعترف بعضهنّ أنّهنّ لم يناقشن ذلك مع أطفالهنّ قطّ. ولَمَّا طرحَت السؤال نفسه على الأمّهات من ذوات البشرة السوداء، قلن جميعهنّ: كلّ يوم.

بدأت أرى أنّ الجهل امتياز أيضاً.

إذاً، ما الذي تعلّمت أنّه مفيد؟ حسناً، إذا كنت أبيض مثلي، فلا تستطيع أن تتخلّص من الامتياز الذي لديك، وإمّا يمكنك أن تستخدمه إلى الأبد. لا تقل إنني لا ألاحظ أنّ العِرْق شيء إيجابي. وإمّا أدرك أنّ الفروق بين الأشخاص تجعل من الصعب على البعض الوصول إلى خطّ النهاية، وإنشاء مسارات عادلة للنجاح لكلّ شخص يستوعب هذه الفروق. تُثَقِّف نفسك. إذا كنت تظنّ أنّه جرى تجاهل صوت أحدهم، فاطلب إلى الآخرين أن يستمعوا إليه. وإذا قال صديقك نكتة عنصرية، فوجّه اهتمامه إلى ذلك بدلاً من مجاراته. لو كان بإمكان هذين الشخصين اللذين كانا من جماعة حليقي الرؤوس، اللذين قابلتهما، إجراء هذا التغيير الكامل في القلب، فإني واثقة بأنّ الناس العاديين يمكنهم أن يفعلوا ذلك أيضاً.

أتوقّع أن أواجه معارضة لهذا الكتاب. سيكون هناك أشخاص ملوّنون يتحدّونني لأنني اخترت موضوعاً لا يخصني. وسيكون هناك أشخاص بيض

يتحدّونني لأنّني جاهرت بعنصرتهم. صدّقوني، لم أكتب هذه الرواية لأنّني أرى أنّها ستكون ممتعة أو سهلة. لقد كتبها لأنّني أعتقد أنّها الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله، وبما أنّ الأشياء التي تجعلنا لا نشعر بالراحة هي الأشياء التي تعلّمنا ما نحتاج جميعاً إلى معرفته. وكما قالت روكسانا روبنسون: «يشبه الكاتب شوكة التنغيم والدوزنة: نستجيب عندما يصدمننا شيء... وإذا كنّا محظوظين، فلأنّنا سنرسل لحناً قوياً نقياً، لحناً ليس لحننا، لكنّه يمرُّ من خلالنا». إلى القراء السود، الذين يقرؤون (أشياء صغيرة عظيمة) - إيّي أمل أن أستمع جيّداً إلى أولئك الموجودين في مجتمعكم، الذين فتحوا لي قلوبهم لأنّهم لأمكّن من تمثيل تجاربكم بدقّة، أمّا بالنسبة إلى الأشخاص البيض الذين يقرؤون الرواية - فإنّنا نعمل جميعاً لتتطوّر. أنا شخصياً لا أملك الإجابات، ولا أزال أنطوّر كلّ يوم.

جودي بيكو

آذار / مارس 2016م

شكر وتقدير

لولا مجموعة من الأشخاص والموارد، لما رأى هذا الكتاب النور.

أشكر بيغي ماكينتوش على مفهوم حقيبة الظهر غير المرئية، والدكتورة بيفرلي دانيال تاتوم التي تحدت حرفياً العاصفة الجليدية في أتلانتا كي تلتقيني، وهي إحدى بطلاي - وأرجو ألا تمنع لأنني استعرت التفسير الذي قدّمته لابنها بأن لون بشرته شيء أكثر، وليس شيئاً أقل. ويجب أن أشكر أيضاً ديبّي إيرفينغ على خبرتها كمعلمة للعدالة الاجتماعيّة، على وجودها طوال ساعات النهار والليل لتتفحص كلماتي، وللسماح لي، بكلّ كرم وعطف، أن أسرق استعاراتها وأفضل عباراتها، بما فيها مفاهيم امتياز الرياح غير المواتية والرياح المواتية. (كما وصفته ببراءة فيرنا مايرز) ووجود كلمة التجاهل في كلمة الجهل. وأشكر أيضاً مالكوم غلادويل الذي استخدم في برنامج سؤال وجواب على محطة C-SPAN في 8 كانون الأول (ديسمبر) 2009، مثلاً من كتابه (المتطرفون والناشرون)، الذي يفحص تاريخ ميلاد لاعبي الهوكي الكنديين الشبان وكيف يُترجم ذلك إلى نجاح دور الهوكي الوطني - الفرضيّة التي استخدمتها في مرافعة كينيدي الختاميّة. وأشكر (معهد الشعب للبقاء وما بعده)، الذي أدار الحلقة الدراسيّة بعنوان (إلغاء العنصريّة) برعاية صندوق هايماركت الشعبيّ في بوسطن، التي شجّعنتني على ملاحظة الامتياز الذي أمتع به - ولهم الفضل الكامل في استعارة كينيدي المتعلّقة برمي الأطفال من النافذة.

وأشعر بالامتنان للبروفسورة أبيغيل بيارد للبحث الذي قدّمته عن التحيّز (بالإضافة إلى مقدّمة عن سينا براون الرائعة)؛ وبيتي مارتن، المرأة التي كنت أتصل بها دائماً، أولاً إذا أردت أن أقتل مولوداً خياليّاً؛ وجينيفر

تويتشل من (رابطة مناهضة التشهير)، وسيندي رافيل، وهوب موريس، وريببكا طومسون، وكارين برادلي، وروث جوشين. وأشكر بيل بيني لاسمه وتبرّعه للأسر التي تمّر في مرحلة تحوّل، وقد وفّر مسكناً آمناً وبأسعار معقولة وخدمات اجتماعية شاملة للأفراد الذين لا مأوى لهم أو الأشخاص المعرضين لخطر التشرد في جنوب نيو هامبشاير. ولنصائح ماكدونالدز: ناتالي هول، وراشيل دالينغ، وراشيل باتريك، وأوتمن كوبر، وكابلا أيلينغ، وبيلي شورت، وجيسيكا هوليس، وم. م، ونعومي داوسون، وجوي كلينك، وكيمبرلي رايت، وإميلي برادت، وسكينة الحساني.

وأشكر العديد من الأطباء والممرضات الذين شاركوني تجربتهم ولغتهم وأفضل قصصهم: مورين ليتفيلد، وشونا بيرس، وإليزابيث جوزيف، وميندي دوبي، وسيسيليا بريلسفورد، وميغان سميث، والدكتور جوان بارتولد، إيريت ليبروت، والدكتور دان كيلى.

وأشكر الفريق القانوني البارع الذي أقسم بأن مسألة العرق لا تُثار في قاعة المحكمة أبداً - وأرجو أن أكون قد غيّرت رأيكم: ليز إيون، وليز جيشيدت، ومورين ماكراين-بنجامين، وجانيت جيليجان - الذين كنتم أكثر من رائعين. وأشكر جينيفر سارجنت، لحضورها عند الساعة الحادية عشرة، وتأكدت من مشاهد المحكمة لتوحيّ الدقّة.

وأشكر جين بيكو ولورا غروس على غضبهما وتأثرهما وتواضعهما في جميع الأماكن المناسبة عندما كانتا تقرأان المسودات المبكرة. ويعود فضل اختيار العنوان لأوريول بيشوب. وأشكر أفضل فريق للنشر في هذا الكوكب: جينا سنتريلو، وكارا ويلش، وكيم هوفي، ودبيي آروف، وسانيو ديلون، وراشيل كايند، ودنيس كرونين، وسكوت شانون، وماثيو شوارتز، وأن شباير، وبورش بورك، وتيريزا زورو، وباولو بببي، وكاثرين ميكولا، وكريستين ميكيتشين، وكالي بارون. وأتوجّه بشكر خاصّ للمحررة التي لا تُضاهى، جينيفر هيرشي التي تتحدّثني حتّى تصبح كلّ كلمة في هذه

الصفحات ذات معنى وصحيحة. وأنا مدينة أيضاً إلى رئيسة فريق المشجعين سوزان كوركوران التي أصبح لا غنى عنها إلى درجة أنني لا أعرف كيف نجوت طوال هذه الفترة من دونها.

وإلى فرانك مينك وتيم زال - كانت شجاعتكما وتعاطفكما الأكثر إلهاماً لمدى مساهمتكما. أشكركما على دخولي في عالم الكراهية، ولإظهار كثيرين آخرين كيف يتخلون عنها.

وإلى إيفلين كارينغتون، أختي وصديقتي، وشاينا - وإلى سينا براون - كانت إحدى أعظم متع كتابة هذا الكتاب هي التعرف إليك. شكراً لك صدقك وشجاعتك وقلبك المفتوح. وإلى نيك ستون الذي عرف عندما كنتُ محاصرة في أثلاثنا أنني سأكون صديقة مدى الحياة؟ لم يكن في وسعي أن أكتب هذه الرواية لولا أن تمسكي بيدي وتطلبي مني ألا أشك في نفسي، فقد أدت كل تلك النصوص المحمومة في وقت متأخر من الليل إلى صدور هذه الرواية. شكراً لمنحي الثقة، ولتصحيح أخطاء فتاتي البيضاء، ولإيماني بأنني أستطيع، ويجب أن أكتب هذه الرواية. لا أقوى على الانتظار حتى تصل روايتك إلى الرفوف.

إلى كايل وكيفين فيريرا فان لير - أنتما الاثنتان اللتان أريد أن أكبر وأكون: أمودجان للعدالة الاجتماعية. شكراً لأنكما فتحتما عيني على تلك الرياح المواتية. إلى سامي: شكراً لعودتك إلى المنزل من المدرسة وقولك: «كما تعلمين، أظن أنني أعرف شخصاً يجب أن تتحدثي إليه بشأن روايتك». وإلى جيك: شكراً لمعرفتك عن مكان ساحة وقوف السيارات خلف محكمة مقاطعة نيو هافن، ولشرح قرارات المحكمة العليا لي. أعرف أنك ستكون ذات يوم ذلك المحامي الذي سيغيّر العالم. وأشكر تيم الذي قدّم لي كوب القهوة في هارفارد، «كوب امتياز البيض». أحبك لأجل ذلك، ولأجل أي شيء آخر.

جودي بيكو

أشياء صغيرة عظيمة

في نهاية روايتها «أشياء صغيرة عظيمة»، تقول المؤلفة جودي بيكو: إنها طالما أرادت أن تكتب رواية عن العنصرية في الولايات المتحدة، ومنذ البداية، أكدت على أنها «نشأت امرأة بيضاء تتمتع بامتياز طبقي في المجتمع»، وأجرت لسنوات عديدة أبحاثاً، ومقابلات شخصية كثيرة لكي تتمكن من التعبير عن أصوات الأشخاص الذين ليست مثلهم: رجال، ومراهقون، وأشخاص ذوي ميول انتحارية، وزوجات معنفات يتعرضن لسوء المعاملة، وضحايا اغتصاب. وتقول إن ما دفعها إلى كتابة تلك القصص شعورها بالغضب، ورغبتها في منحها صوتاً ليزداد وعي أولئك الناس بالعنصرية.

حبكة الرواية مشوّقة، وبنيتها قوية، تمضي في وتيرة جيدة وأسلوب سلس. لقد استفادت جودي بيكو من جميع الصور النمطية للسود؛ فهنا الأم السوداء الأرملة، والمرأة السوداء الغاضبة، والأم، والخادمة، والمراهق، والواعظ المتميز. إن التناوب في فصول الرواية يظهر بوضوح الاختلاف في وجهات نظر روث، الأب الأبيض العنصري، تورك باور، ومحامية روث، كينيدي ماكواري. وقد نجحت الكاتبة عندما تركت الرواية تزداد رسوخاً في سرد كينيدي، حكاية امرأة بيضاء تظن أنها ليبرالية أكثر مما هي في الواقع. إنها رحلة كينيدي للتصالح مع أقاربها العنصريين والامتياز الذي يتمتع به البيض، عندما تدرك لأول مرة، انتشار العنصرية الأمريكية. هذه هي القصة الحقيقية هنا.

ISBN 978-9922-8599-8-9



9 789922 859989

Designed by: Maher Adnan

للدراسات
والنشر
والتوزيع

